تفسير

القرآن الحكيم

المشهور بتفسير المنار

تأليف

السيد الإمام محمد رشيد رضا

١٨٦٥م - ١٩٣٥م

خرج آياته وأحاديثه وشرح غريبه

إبراهيم شمس الدين

المجلد الحادي عشر

المحتوى:

الآية (٩٤) من سورة التوبة - آخر سورة يونس

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

تفسير القرآن الحكيم
المشهور بتفسير المنار

تأليف

السيد الإمام محمد رشيد رضا

١٨٦٥م - ١٩٣٥م

خرج آياته وأحاديثه وشرح غريبه

إبراهيم شمس الدين

الجزء الحادي عشر

المحتوى:

الآية (٩٤) من سورة التوبة - آخر سورة يونس

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾

هذه الآيات بيان لما سيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وما حولها عن غزوة تبوك مع الرسول ﷺ والمؤمنين بعد عودتهم إليهم، قال عز وجل:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ يعتذر إليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وهم أغنياء أصحاء لا عذر لهم ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من سفركم هذا عن جميع سيئاتهم ﴿قُل﴾ أيها الرسول لهم حينئذ ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم تصديق جنوح وائتمان لكن بتلبسكم بالإسلام تحسيناً للظن، ولا عملاً بالظواهر، ولماذا؟ ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ﴾ بوحيه إلى رسوله المهم ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ التي تسرونها في ضمائركم، وهي مخالفة لظواهركم التي تعتذرون بها، ونبأ الله هو الحق اليقين ومن عرف الحق لا يقبل الباطل، ولا يصدق الكاذب، ولم يقل «نبأني» وهو ﷺ المنبأ من الله وحده لأن المراد أنه أمره أن ينبيء بذلك أصحابه، ولم يكن هذا النبأ خاصاً به. واعتذارهم للجميع يقتضي أن يعلموا أن الجميع عالمون بما فضحهم الله به، وإن كان المبلغ لهم هو الرسول ﷺ بما له من الرياسة، وما لخبره من الثقة التي لا يشك فيها أحد، والتأثير الذي يحسب له كل حساب، فهو من قبيل التبليغات الرسمية العليا الصادرة عن الملوك والسلاطين، دع كونه أسمى وأعلى لأنه نبأ الرسول المعصوم عن الله عز وجل.

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ بعد الآن. وهو الذي يدل إما على الإصرار على النفاق، وإما على التوبة والإذعان في الإيمان، الذي تترتب عليه الأعمال. وأما أقوالكم فلا قيمة لها وإن أكدتموها بالأيمان. فإن تبتم وأنبتم، وشهد لكم عملكم بصلاح سريرتكم، فإن الله يقبل توبتكم، ويعاملكم رسوله بما يعامل به المؤمنين الذين

تشهد لهم أعمالهم بإخلاصهم وصدقهم، وإن أبيتم إلا الإصرار على نفاقكم، والاعتماد على نفاق سوق كذبكم بأعذاركم وأيمانكم، فسيعاملكم رسوله بما أمره الله به في هذه السورة من جهادكم والإغلاظ عليكم كإخوانكم الكفار المجاهرين، وعدم السماح لكم بالخروج معه أبداً، ولا بأن تقاتلوا معه عدواً، وما يتعلق بذلك من إهانة واحتقار ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ من هذه الحياة على الذل والموت عليه ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الذي يعلم ما تسرون وما تعلنون، وما تكتمون وما تظهرون. والغيب ما غاب عن المخاطبين علمه، والشهادة ما يشهدونه ويعرفونه ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عندما تحشرون وتحاسبون، ويجازيكم عليه بما تستحقون، وهو ما أوعدكم به في هذه السورة وفي غيرها كقوله: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ [النساء: ١٤٥].

من الفقه في الآية أن من آداب الإسلام تحامي كل ذنب أو تقصير يحتاج فاعله إلى الاعتذار، وورد في بعض الأحاديث المرفوعة «إياك وكل أمر يعتذر منه» رواه الضياء في الأحاديث المختارة عن أنس وروى غيره مثله في أثناء حديث آخر.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ سيؤكدون لكم اعتذارهم بالأيمان الكاذبة إذا انقلبتم وتحولتم إليهم من سفركم لأجل أن تعرضوا عن عتبهم وتوبيخهم على قعودهم مع الخالفين من النساء والأطفال والعجزة، وبخلهم بالنفقة، ولم يذكر المحلوف عليه للدلالة على شموله لكل ما يعتذر عنه ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ﴾ إعراض إهانة واحتقار، لا إعراض صفح وإعذار، وهذا التعبير من أسلوب الحكيم وهو قبول ما يبغون من الإعراض عنهم ولكن على غير الوجه الذي يرجونه منه بل على ضده، وقد علل الأمر بقوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ أي قذر معنوي يجب الأعراض عنه تنزها عن القرب منه بأشد مما يتنزه الطاهر الثوب والبدن عن ملابسة الأرجاس والأقذار الحسية. وهذا بمعنى ما تقدم من قوله ٢٨ ﴿إنما المشركون نجس﴾ وسبق بيان معنى الرجس في تفسير آية ﴿إنما الخمر والميسر﴾ [المائدة: ٩٣] من سورة المائدة ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي وملجؤهم الأخير نار جهنم جزاء بما كانوا يكسبون في الدنيا من أعمال النفاق التي دنست أنفسهم، والإعراض عن آيات الله الذي زادهم رجساً على رجسهم، كما تراه في الآية (١٢٥) الآتية.

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ فتستديموا معاملتهم السابقة بظاهر إسلامهم، وهذا غرض آخر وراء غرض الإعراض عنهم لا يهنأ عيشهم بدونه، ولا حظ لهم من إظهار الإسلام غيره، ولو كان إسلامهم عن إيمان لكان غرضهم الأول إرضاء الله ورسوله كما تقدم في آية ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ الخ وليس لكم أن ترضوا عنهم وهذه حالتهم ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾ فرضاً وقد أعلمكم الله بحالهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ عن أمره منهم ولا من غيرهم، فإن هذا الفسوق سبب أو علة لسخط الله

تعالى فالحكم بعدم رضاه متعلق به لا بذواتهم وشخوصهم، ومقتضاه أنه إذا فرض أن بعض المؤمنين رضي عنهم وآمن لهم باعتذارهم بعد النهي عنه كان فاسقاً مثلهم، محروماً من رضائه تعالى، كما أن من يتوب منهم ويرضي الله ورسوله يخرج من حدود سخطه عز وجل ويدخل في حظيرة مرضاته إذ لا يعد بعد ذلك فاسقاً. فأحكام الله العامة ووعده ووعيده تتعلق بالأعمال والصفات النفسية والبدنية لا بالذوات والأعيان، ولو قال: «فإن الله لا يرضى عنهم» لما أفاد التعبير هذه الحقائق والمعاني، بل كان يكون حكماً على أفراد معينين، مسجلاً عليهم الموت على كفرهم وعدم قبول توبة أحد منهم، وما أبعد هذا عن حكمة الله وعن هداية كتابه العزيز!

ولا ينافي هذا التحقيق ما يروى عن ابن عباس من نزول هذه الآيات في الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلاً أمر النبي ﷺ المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة بأن لا يجالسوهم ولا يكلموهم. إذ لا دليل على أن هؤلاء مقصودون من الآيات بذواتهم وشخصوهم كالذين نهى عن الاستغفار لهم وعلله بموتهم على كفرهم، كعبد الله بن أبي، وقد قال قتادة إن هذه الآيات نزلت فيه، فإنه حلف للنبي ﷺ بعد عودته أن لا يتخلف عنه وطلب أن يرضى عنه فلم يفعل. والآيات أعم من هذا وذاك. وهي من أنباء الغيب بما فيها من بيان مقاصدهم الخفية، وإن كان الاعتذار والحلف من سجاياهم المعروفة. وأن من علامات النفاق كثرة الحلف، لشعور المنافق دائماً بأنه متهم بالكذب.

ويجب التنبه في هذا المقام لجهل فظيع وقفنا عليه بمذاكرة بعض المشتغلين بعلوم الدين التقليدية مخالف لهذه الآية وأمثالها من كتاب الله تعالى وهو زعمهم أن ما عابه الكتاب الحكيم على المشركين والكافرين من أعمال الشرك. والكفر كدعاء غير الله واتخاذ أولياء من دونه يقربونهم إليه ويشفعون لهم عنده فيما يطلبون من دفع ضر وجلب نفع مما لا ينال بالكسب فهو خاص بهم وبأوليائهم وشفعائهم، وأن وقوع مثله من المسلمين لا ينافي صحة إيمانهم، والاعتداد بإسلامهم، للفرق الواضح بين من يدعو الأصنام والأوثان ويجعلها واسطة بينه وبين الله تعالى تشفع له عنده وتقربه إليه زلفى، ومن يدعو الأنبياء والأولياء لذلك وهم عباد الله المكرمون، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون!!

جهل هؤلاء أن الشكر والكفر لا يختلف حكمه باختلاف متعلقه فمن يدعو مع الله صنماً أو كوكباً، كمن يدعو نبياً أو ملكاً، على أن الأوثان والأصنام كانت تماثيل لذكرى بعض الأولياء والصالحين كالقبور المنسوبة إلى بعضهم نسبة صحيحة أو مزورة، ولكن ماذا يقول هؤلاء الجاهلون المدافعون عن الشرك وأهله في أهل الكتاب الذين يدعون ويستغيثون الأنبياء والصالحين، متوسلين بهم ومستشفعين، وهم الذين

اتبع القبوريون من المسلمين سننهم في شركهم كما أخبر ﷺ بذلك تحذيراً وإنذاراً بقوله: «لتتبعن سنن من كان قبلكم»[1] الحديث وهو متفق عليه وتقدم ذكره مراراً، وفصلت هذه المسألة في تفسير الآية ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً﴾ [التوبة: ٣١] فيراجع تفسيرها.

ويذكر هؤلاء الجاهلون بالقرآن وتاريخ الإسلام فرقاً آخر بين شرك المسلمين وشرك من قبلهم، وهو أن المشركين السابقين اتخذوا أوثانهم وأنبيائهم وأولياءهم آلهة وأرباباً، وأن المسلمين الذين يدعون الأولياء ويستغيثونهم في الشدائد طلباً لشفاعتهم لم يتخذوهم آلهة ولا أرباباً وإنما يتخذونهم وسائل ووسائط ويعتقدون أنهم مخلوقون مثلهم.

والجواب عن هذا أنه لا فرق بين عمل الفريقين إلا في التسمية ولكن من بعض الوجوه، فمشركو العرب لم يكونوا يسمون أصنامهم أرباباً بل كانوا يعتقدون ويقولون إن رب العالمين وخالقهم ومدبر أمورهم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله وحده، لأن هذا مقتضى لغتهم، وإنما كانوا يسمونها آلهة لأن الإله في لغتهم هو المعبود، والمعبود هو من يتوجه إليه ويدعى فيما لا يقدر عليه الناس بكسبهم في دائرة الأسباب المعروفة لهم، ويعظم ويتقرب إليه بالذبائح وغيرها لأجل ذلك، سواء كان سلطانه على النفع ودفع الضر بذاته لذاته وهو الله تعالى، أو بشفاعته عند الله. وقد تقدم بسط هذا المعنى مراراً، وسيعاد في تفسير سورة يونس للنصوص الصريحة فيه. فتسمية هذه العبادة لغير الله توسلاً في عرف بعض الناس لا يخرجها عن حقيقتها، ولا عن كون اسمها في اللغة العربية عبادة وهو ما كان يسميها به أهل هذه اللغة. وإنما التوسل الشرعي التقرب إلى الله تعالى بما شرعه من الأعمال الصالحة، لا بالأهواء المبتدعة، ولا بالتقاليد المتبعة.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ
وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

هذه الآيات الثلاث في بيان حال الأعراب منافقيهم ومؤمنيهم، والظاهر أنها قد نزلت هي وما بعدها إلى آخر السورة بعد وصول النبي ﷺ والمؤمنين إلى المدينة. فهي بدء سياق جديد في تفصيل أحوال المسلمين في ذلك العهد، بدىء بذكر الأعراب من المنافقين لمناسبة ما قبله وفصل عنه لأنه سياق جديد مع ما بعده.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٥٠، والاعتصام باب ١٤، ومسلم في العلم حديث ٦، وابن ماجه في الفتن باب ١٧، وأحمد في المسند ٢/٣٢٧، ٤٥٠، ٥١١، ٥٢٧، ٣/٨٤، ٨٩، ٩٤.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ بيان مستأنف لحال سكان البادية من المنافقين، لأنه مما يسأل عنه بعد ما تقدم في منافقي الحضر من سكان المدينة وغيرها من القرى. فالأعراب اسم جنس لبدو العرب، واحده أعرابي، والأنثى أعرابية، والجمع أعاريب والعرب اسم جنس لهذا الجيل الذي ينطق بهذه اللغة، بدوه وحضره واحده عربي. وقد وصف الأعراب بأمرين اقتضتهما طبيعة البداوة **الأول**: أن كفارهم ومنافقيهم أشد كفراً ونفاقاً من أمثالهم من أهل الحضر ـ ولا سيما الذين يقيمون في المدينة المنورة نفسها ـ لأنهم أغلظ طباعاً، وأقسى قلوباً، وأقل ذوقاً وآداباً، كدأب أمثالهم من بدو سائر الأمم ـ بما يقضون جل أعمارهم في رعي الأنعام وحمايتها من ضواري الوحوش. ومن تعدي أمثالهم عليها وعلى نسائهم وذراريهم، فهم محرومون من وسائل العلوم الكسبية، والآداب الاجتماعية **الثاني**: أنهم أجدر أي أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله من البينات والهدى في كتابه، وما آتاه من الحكمة التي بين بها تلك الحدود بسنن أقواله وأفعاله. وفهم ألفاظ القرآن اللغوية لا يكفي في علم حدوده العملية. كان أهل المدينة وما حولها من القرى يتلقون عنه ﷺ كل مكان ينزل من القرآن وقت نزوله ويشهدون سنته في العمل به، وكان يرسل العمال إلى البلاد المفتوحة يقيمون فيها يبلغون القرآن، ويحكمون بين الناس به وبالسنة المبينة له، فيعرف أهلها تلك الحدود التي حدها الله تعالى ونهاهم أن يعتدوها. ولم يكن هذا كله ميسوراً لأهل البوادي، وهم مأمورون بالهجرة، لأجل العلم والنصرة، لأن الإسلام دين علم وحضارة.

فالأعراب أجدر بالجهل من الحضر بطبيعة البداوة لا بضعف أفهامهم، أو بلادة أذهانهم، أو ضيق نطاق بيانهم، فقد كانوا مضرب الأمثال في قوة الجنان، ولوذعية الأذهان، وذرابة اللسان، وسعة بيداء البيان، وعنهم أخذ رواة العربية أكثر مفردات العربية وأساليبها.

والجدارة بالشيء قد تكون طبعية، وقد تكون بأسباب كسبية، من فنية وشرعية وأدبية، وقد تكون بأسباب سلبية اقتضتها حالة المعيشة والبيئة، قيل إنها مشتقة من الجدار وهو الحائط الذي يكون حداً للبستان أو الدار، وقيل من جدر الشجرة، ويرادف الجدير بالشيء والأجدر، الحقيق والأحق، والخليق والأخلق، وقد يستعمل أفعل في كل منها للتفضيل مع التصريح بالمفضل عليه غالباً. كحديث «والثيب أحق بنفسها من وليها»[1] ومع تركه للعلم به أحياناً، ومنه قوله تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [آل عمران: ١٥].

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح حديث ٦٧، ٦٨، وأبو داود في النكاح باب ٢٥، وأحمد في المسند ١/ ٢١٩، ٣٣٤.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ واسع العلم بأمور عباده وصفاتهم وأحوالهم الظاهرة من بداوة وحضارة وعلم وجهل، والباطنة من إيمان وكفر، وإخلاص ونفاق، تام الحكمة فيما يحكم به عليهم، وما يشرعه لهم، وما يجزيهم به، من نعيم مقيم، أو عذاب أليم.

روى أحمد وأصحاب السنن ـ ما عدا ابن ماجه ـ والبيهقي في الشعب عن ابن عباس يرفعه «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن»[1] قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري وروى أبو داود والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً «من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحد من سلطانه قربا إلا ازداد من الله بعداً»[2] وسبب الأخير أن السلاطين قلما يرضون عمن يلتزم الحق والصدق والنصح الصريح، وقلما يأتيهم ويزداد قربا منهم إلا المرائي الذي يمدحهم بالباطل ويعينهم على الظلم ولو بالتأول لهم، وقد بينا هذا المعنى في تفسير ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن﴾ [التوبة: ٦١].

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ تقدم في الآية ٩٠ أن بعض الأعراب جاءوا النبي ﷺ معذرين ليأذن لهم في القعود عن غزوة تبوك، وذكر في هذه الآية حال الذين كانوا ينفقون بعض أموالهم في سبيل الجهاد رياء وتقية فيعدون ما ينفقون من المغارم وهي ما يلزمه المرء مما يثقل عليه فيلتزمه كرهاً أو طوعاً لدفع مكروه عن نفسه أو عن قومه له فيه منفعة ذاتية. ولم يكن هؤلاء الأعراب المنافقون يرجون بهذه النفقة جزاء في الآخرة لأنهم لا يؤمنون بالبعث. ولهذا قال الضحاك: يعني بالمغرم أنه لا يرجو ثواباً عند الله ولا مجازاة وإنما يعطي ما يعطي من الصدقات كرهاً. وعن ابن زيد إنما ينفقون رياء اتقاء أن يغزوا ويحاربوا ويقاتلوا ويرون نفقاتهم مغرماً [قال] وهم بنو أسد وغطفان.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي ينتظرون دوائر الزمان أي تصاريفه ونوائبه التي تدور بالناس وتحيط بهم بشرورها أن تنزل بكم فتبدل قوتكم ضعفاً، وعزكم ذلاً، وانتصاركم هزيمة وكسراً، فيستربحوا من أداء هذه المغارم لكم، بالتبع للخروج من طاعتكم، ولاستغناء عن إظهار الإسلام نفاقاً لكم، كانوا أولاً يتوقعون ظهور المشركين واليهود على المؤمنين، فلما يئسوا من ذلك صاروا ينتظرون موت النبي ﷺ ويظنون أن

---

(١) أخرجه أبو داود في الأضاحي باب ٢٤، والترمذي في الفتن باب ٦٩، والنسائي في الصيد باب ٢٤، وأحمد في المسند ١/ ٣٥٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الأضاحي باب ٢٤، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧١، ٤٤٠، ٤/ ٢٩٧.

الإسلام يموت بموته صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله. وهكذا يعلل الجاهل الضعيف نفسه الخبيثة بالأماني والأوهام.

وإذا كان منافقو المدينة الذين هم أجدر من هؤلاء الأعراب أن يعلموا ما في الإسلام من القوة الذاتية، وما في اعتصام المؤمنين الصادقين به من القوة الحربية، كانوا يتربصون بالمؤمنين الهزيمة من الروم في تبوك، وكانوا إن أصاب النبي ﷺ مصيبة مما لا يخلو عنه البشر يفرحون ويقولون (قد أخذنا أمرنا من قبل) أي احتطنا لهذه العاقبة قبل وقوعها، فهل يتسغرب مثل هذا التربص من الأعراب سكان البادية الذين يجهلون ما ذكر؟ (راجع تفسير الآيات ٥٠ ـ ٥٤ من هذه السورة).

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دعاء عليهم بما يتربصونه بالمؤمنين، أو خبر بحقيقة حالهم معهم، ومآل الاحتمالين واحد، لأن الخبر في كلامه تعالى حق ومضمونه كمضمون الدعاء واقع، ما له من دافع، والدعاء منه عز وجل يراد به مآله وهو وقوع السوء عليهم وإحاطته بهم. والسوء بالفتح في قراءة الجمهور وهو مصدر ساءه الأمر ضد سره، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ههنا وفي سورة الفتح بالضم وهو اسم لما يسوء. والإضافة: كرجل صدق وقدم صدق. وتقديم الخبر يفيد الحصر أي عليهم وحدهم الدائرة السوءى تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصونها بهم، فإن هؤلاء لا عاقبة لهم تتربص بهم إلا ما يسرهم ويفرحهم من نصر الله وتوفيقه لهم وما يسوء أعداءهم من خذلان وخيبة وتعذيب لهم في الدنيا قبل الآخرة حتى بأموالهم وأولادهم، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ [التوبة: ٥٢] وقوله: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ [التوبة: ٥٥].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالهم المعبرة عن شعورهم واعتقادهم في نفقاتهم إذا تحدثوا بها فيما بينهم، وأقوالهم التي يقولونها للرسول أو لعماله على الصدقات، أو لغيرهم من المؤمنين مراءاة لهم، ولا من أعمالهم التي يعملونها، ومن نياتهم وسرائرهم التي يخلونها، فهو سيحاسبهم على ما يسمع ويعلم ـ أي على كل قول وفعل ـ ويجزيهم به.

ولما ذكر حال هؤلاء الأعراب المنافقين عطف عليه بيان حال المؤمنين الصادقين منهم[1] فقال:

---

(١) مما تواتر عن جهلة الترك الذين يبغضون العرب أنهم يحفظون قوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ الآية ويظنون أن المراد بالأعراب جنس العرب فيعيرون به من يفاخرونهم منهم ولا يحفظون الآية التالية في مدح الأعراب ولا آية ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ وهم صميم العرب!! (المؤلف).

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إيماناً صادقاً إذعانياً تصدر عنه آثاره من العمل الصالح. قال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة وهم الذين قال الله فيهم ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ [التوبة: ٩٢] الآية. وقال الكلبي: هم أسلم وغفار وجهينة ومزينة، وثم روايات أخرى فيهم، والنص يشمل جميع المؤمنين الصادقين منهم ومن غيرهم من الأعراب. وقد ذكر من وصفهم ضد ما ذكره في وصف من قبلهم في أمر النفقة في سبيل الله فقال: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي يتخذ ما ينفقه وسيلة لأمرين عظيمين أولها القربات والزلفى عند الله عز وجل، وثانيهما صلوات الرسول، أي أدعيته لأنه ﷺ كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم، ولم يثبت في النص انتفاع أحد بعمل غيره إلا الدعاء وما يكون المرء سبباً فيه كالولد الصالح، والسنة الحسنة يتبع فيها. فهذا القصد في اتخاذ الصدقات ضد اتخاذ المنافقين إياها مغرماً.

والقربات كالقرب جمع قربة (بضم القاف) وهي في المنزلة والمكانة، كالقرب في المكان والقرابة، والقربى في الرحم، والأصل في الكل واحد وهو الدنو من الشيء مطلقاً، فقصد القربة في العمل هو الإخلاص وابتغاء مرضاة الله ورحمته ومثوبته فيه. وجمعها باعتبار تعدد النفقات ففيه إيماء إلى إخلاصهم في كل فرد منها. والصلوات جمع صلاة، ومعناها أو أحد معانيها في أصل اللغة الدعاء وإطلاقها على العبادة المخصوصة من أركان الإسلام شرعي وجهه أن الدعاء هو روحها الأعظم لأنه مخ العبادة وسرها الذي تتحق به العبودية على أكمل وجوهها، وهو في الفاتحة فريضة، وفي السجود فضيلة، ويأتي قريباً بيان هذه الصلوات على المتصدقين في تفسير الآية (١٠٣).

وقد بين الله تعالى جزاء هؤلاء الأعراب على ما شهد لهم به من صدق الإيمان وإخلاص النية في الإنفاق في سبيل الله، وأدائهم به حق الله، وهو قصد القربة عنده، وحق الرسول وهو طلب دعائه لهم بقبول نفقتهم وإثابتهم عليها، فقال بأسلوب الاستئناف المشعر بالاهتمام ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ وهو إخبار بقبوله تعالى لنفقتهم مؤكد بافتتاحه بأداة التنبيه الدالة على الاهتمام بما بعدها وهي (ألا) وبـ [إن] الدالة على تحقيق مضمون الجملة وبالجملة الاسمية فقوله تعالى: [إنها قربة] راجع إلى النفقة المأخوذة من قوله: [ما ينفق] فإفراد القربة لأنها خبر لضمير المفرد.

وقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ﴾ تفسير لهذه القربة والمراد بالرحمة هنا الرحمة الخاصة بمن رضي الله عنهم وهي هداية الصراط المستقيم وما تنتهي إليه من دار النعيم، ومعنى إدخالهم فيها أن يكونوا مغمورين فيها وتكون هي محيطة بهم شاملة لهم، وهذا أبلغ من مثل ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه﴾ [التوبة: ٢١] والسين في قوله

[سيدخلهم) لتأكيد الوعد وتحقيقه وتقدم مثله. وعلله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة يغفر للمخلصين في أعمالهم ما يلمون به من ذنب أو تقصير، ويرحم الصادقين في إيمانهم فيهديهم به إلى أحسن العمل وخير المصير، وفي الآية من بلاغة الإيجاز ما يدل على علو مقام هؤلاء الأعراب.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾
وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾
وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

هذا تقسيم آخر للمؤمنين الصادقين والمنافقين من أهل الحضر والبدو جميعاً عطف على تقسيم الأعراب لمشاركته له في بيان حقيقة جماعات المسلمين في ذلك العهد، قال:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ هذه طبقات ثلاث هي خير هذه الأمة التي هي في جملتها خير أمة أخرجت للناس **فالأولى**: السابقون الأولون من المهاجرين قيل هم الذين صلوا إلى القبلتين وروي عن أبي موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وابن سيرين والحسن وقتادة وغيرهم. وقيل هم أهل بدر وروي عن محمد بن كعب وعطاء بن يسار، وقيل هم الذين شهدوا بيعة الرضوان في الحديبية وعليه الشعبي، ولكن هذا القول وما قبله في السابقين من المهاجرين والأنصار جميعاً: وأما السابقون من المهاجرين وحدهم فهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية لأن المشركين كانوا إلى ذلك الوقت يضطهدون المؤمنين في بلادهم ويقاتلونهم في دار الهجرة وما حولها ولا يمكنون أحداً من الهجرة ما وجدوا إلى صده سبيلاً، ولا منجاة للمؤمن من شرهم إلا بالفرار أو الجوار، فالذين هاجروا قبل صلح الحديبية وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم كانوا كلهم من المؤمنين الصادقين، ليس فيهم منافق كما قلنا من قبل، إذ لم يكن للنفاق في ذلك الوقت مقتض ولا سبب، ولا للهجرة والجهاد داع غير الإخلاص في الإيمان وإقامة بناء الإسلام، وإن كان هؤلاء يتفاضلون في السبق وفي غيره من الأعمال، فأفضلهم الخلفاء الأربعة فسائر الذين بشرهم النبي ﷺ بالجنة بأشخاصهم، وما كل سابق أفضل من كل مسبوق، ومن السابقين بالإيمان من سبقه غيره بالهجرة، وأول من آمن على الإطلاق خديجة [رض] لأنه ﷺ بلغها خبر بعثته قبل كل أحد فصدقت وآمنت، ويليها من كان معه ﷺ في بيتها، وهم علي وكان ابن ١٠ سنين، وزيد بن حارثة، ومن خارجه أبو بكر الصديق [رض] والمشهور أنه أول من آمن من الرجال، ولا خلاف في أنه آمن عند ما دعاه

النبي ﷺ بغير أدنى تريث أو تردد، ولا في أنه أول المهاجرين مع الرسول كما تقدم في تفسير آية الغار، وأول الدعاة إلى الإسلام مع النبي ﷺ.

الطبقة الثانية: السابقون الأولون من الأنصار وهم الذين بايعوا النبي ﷺ عند العقبة في منى في المرة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة وكانوا سبعة، وفي المرة الثانية وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين. ويليهم الذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير بن هاشم من قبل النبي ﷺ يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين وأرسله مع أهل العقبة الثانية سنة اثنتي عشرة من البعثة وكذا من آمن عند قدوم النبي ﷺ وقبل أن تكون للمسلمين قوة غالبة تتقى وترتجى، وهذه القوة رسخت عقب هجرته ﷺ وصار بعض أهل المدينة يظهرون الإسلام نفاقاً بدليل قوله تعالى في الآيات التي نزلت في شأن غزوة بدر وكانت في السنة الثانية ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾ [الأنفال: ٤٩] ولم يكن فيهم أحد من المهاجرين ولا من الأنصار السابقين وإن كانوا كلهم من الأوس والخزرج.

الطبقة الثالثة: الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنصرة اتباعاً بإحسان، أو محسنين في الأفعال والأقوال، فتضمن هذا القيد الشهادة للسابقين بكمال الإحسان لأنهم صاروا فيه أئمة متبوعين، وخرج به من اتبعوهم في ظاهر الإسلام مسيئين غير محسنين في هذا الاتباع وهم المنافقون، ومن اتبعوهم محسنين في بعض الأعمال ومسيئين في بعض وهم المذنبون والآيات الآتية مبينة حال الفريقين.

هؤلاء الطبقات الثلاث ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ في إيمانهم وإسلامهم وإحسانهم، وأعلاه ما كان من هجرتهم وجهادهم، فقبل طاعاتهم، وغفر سيئاتهم، وتجاوز عن زلاتهم، إذ بهم أعز الإسلام، ونكل بأعدائه من المشركين وأهل الكتاب ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ بما وفقهم له، وأسبغه عليهم من نعمه الدينية والدنيوية، فأنقذهم من شرك، وهداهم من ضلال، وأغناهم من فقر، وأعزهم من ذل. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ تقدم مثل هذا الوعد الكريم في الآية (٧٢) وفي آيات أخرى ومعناه ظاهر، وأي فوز أعظم من نعيم الجنة الخالد من بدني وروحاني؟

قرأ الجمهور (والأنصار) بالخفض عطفاً على المهاجرين وقرأها يعقوب بالرفع عطفاً على (السابقون) وروي عن الحسن البصري، بل روي أيضاً ـ وفيه نظر عندي ـ أن عمر (رض) قرأها كذلك مع جعل (الذين اتبعوهم) صفة للأنصار وأنكر على رجل قرأها بالخفض فأخبره أنه تلقاها عن أبي بن كعب كاتب الوحي وجامع القرآن، فسأل عمر أبيا فصدقه وأخبره أنه هكذا سمعها من النبي ﷺ، وفي رواية أنها هكذا أنزلها الله

على جبريل ونزل بها جبريل على قلب رسول الله ﷺ قال عمر: لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ـ يعني المهاجرين الأولين ـ فقال أبي: تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ [الجمعة: ٣].

ولفظ الاتباع فيها نص في الصحابة المتأخرين الذين اتبعوا الأولين من المهاجرين والأنصار في صفتيهم: الهجرة والنصرة، وهو بصيغة الماضي فلا يدخل في عمومه التابعون الذين تلقوا الدين والعلم من الصحابة ولم ينالوا شرف الصحبة والهجرة والنصرة وتسمية هؤلاء بالتابعين اصطلاحية حدثت بعد نزول القرآن وانتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

وقد ورد ذكر الطبقات الثلاث من الصحابة في آخر سورة الأنفال وعبر فيه عن الطبقة الثالثة بقوله: ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾ [الأنفال: ٥٧] وذكرت في تفسيرها آيات سورة الحشر وقد عبر فيها عن الطبقة الثالثة بقوله ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ [الحشر: ١٠] الخ ولا شك في مشاركة سائر المؤمنين لأولئك الصحابة الكرام في رضاء الله وثوابه بقدر اتباعهم لهم في الهجرة إن وجدت أسبابها، والجهاد بالأموال والأنفس لنصرة الإسلام، ومنها نصرته بالحجة والبرهان، وفي سائر أعمال البر والإحسان، وإن الآيات تدل على ذلك في كل موضع، لأن الجزاء في حكم الله الحق وشرعه العدل على الأعمال، وللسابقين في كل عمل فضيلة السبق والإمامة في كل عصر، ويمتاز عصر الرسول الذي وجد فيه الإسلام وأقيم بنيانه، ورفعت أركانه، ونشرت في الخافقين أعلامه، على كل عصر بعده، وهم الأقلون المقربون كما قال تعالى: ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٣].

هذه الشهادة من رب العالمين للطبقات الثلاث من أصحاب رسول الله ﷺ يدمغ حقها باطل الروافض الذين يطعنون فيهم، ويحثو التراب في أفواههم، والذي سن هذا الطعن في جمهورهم الأعظم عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الإسلام لأجل إيقاع الشقاق بين المسلمين وإفساد أمرهم، ثم نظم الدعوة لذلك زنادقة المجوس بعد فتح المسلمين لبلادهم، كما بيناه مراراً. ثم جعل الرفض مذهباً، له فرق ذات عقائد، منها ما هو كفر صريح، ومنها ما هو ابتداع قبيح. ومنها ما هو دون ذلك.

وروي عن أبي صخر حميد بن زياد قال أتيت محمد بن كعب القرظي فقلت له ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم. فقلت من أين تقول هذا؟ قال اقرأ قول الله تعالى: ﴿والسابقون

الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ إلى أن قال ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ وقال: ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة. قال أبو صخر: فكأني لم أقرأ هذه الآية قط.

والتحقيق ما قلناه، فإن هذه الآيات وما بعدها في بيان حال المسلمين في عهد نزولها مؤمنيهم ومنافقيهم، ومحسنيهم ومسيئيهم، والذين خلطوا منهم عملاً صالحاً وآخر سيئاً، والذين تاب الله عليهم والذين أرجأ توبتهم. وهذه الآية نص في أن الطبقات الثلاث من السابقين الأولين والذين اتبعوهم في الإيمان والهجرة والجهاد عند ما أبيحت الهجرة وتيسرت أسبابها بصلح الحديبية قد فازوا كلهم برضاء الله ووعده لهم بالجنة، وأنه ليس فيهم أحد من المنافقين بل كان جميع المنافقين من أهل المدينة وما حولها إلى أن فتحت مكة وأعتق النبي ﷺ أهلها فأظهروا الإسلام والسيوف تقطر من دمائهم فكان منهم المنافقون، وضعفاء الإيمان المقلدون، وهم الذين كانوا سبب الهزيمة في حنين كما تقدم في تفسير الآيات ٢٥ ـ ٢٧ ثم حسن إسلام الأكثرين، ففتحوا الفتوحات ونشروا الإسلام في العالمين.

وجملة القول إن جميع أفراد هذه الطبقات الثلاث، قد جازوا القنطرة واستبقوا الصراط، وما عاد يؤثر في كمال إيمانهم شيء، لأن نورهم يمحو كل ظلمة تطرأ على أحد منهم بإلمامه بذنب. وإذا كان بعض المحدثين يقول: إن من اتفق الشيخان على تعديله في الرواية ـ أي اعتمدا عليه في أصولهما المسندة ـ قد جاز قنطرة الجرح، فماذا يقال فيمن عدلهم الله عز وجل، وشهد لهم بأنه رضي عنهم ورضوا عنه؟ وسيأتي أن الله تعالى تاب على المذنبين والمقصرين وغفر لهم.

وللشيخ محيي الدين بن عربي مناظرة مع نفسه بسطها في كتابه (روح القدس) ذكر فيها أنه في أثناء مجاورته بمكة المكرمة حدث لنفسه من الإعجاب بعبادتها ومعرفتها ما دعاه إلى مناظرتها وإقامة الحجة عليها بغرورها، فعرضها أولاً على القرآن، فاعترفت بضعفها عن بلوغ ما قرره من أوج الكمال، فعرضها على سيرة النبي ﷺ فاعتذرت بحديث عائشة «كان خلقه القرآن»[1] وهو ما يعجز عنه من دونه كل إنسان، فعرضها على فضائل الصحابة فأقرت بعجزها عن الرجحان في هذا الميزان، ومسابقة من رباهم المصطفى بكتاب الله وآياته، وزكاهم بحكمته فاقتبسوا نوره من مشكاته، ولكنها أبت أن تعترف لكبار التابعين بمثل هذا السبق، وكان له معها حجاج في أويس القرني هو من أعلى حقائق علم النفس.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ بعد أن بين تعالى حال

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/١٨٨، بلفظ: سألتها عن خلق رسول الله (ص) فقالت القرآن.

كملة المؤمنين كلهم قفى عليه بذكر مردة المنافقين من أهل البدو والحضر، وعطفهم عليهم من باب عطف الضد على الضد. فهو يقول إن بعض الأعراب الذين حولكم أيها المؤمنون منافقون. قال البغوي وهم من مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار، كانت منازلهم حول المدينة، أي كما كان فيهم مؤمنون صادقون دعا لهم النبي ﷺ ـ وإن من أهل المدينة نفسها منافقين أيضاً من الأوس والخزرج غير من أعلم الله رسوله بهم في هذه السورة بما صدر عنهم من الأقوال والأفعال المنافية للإيمان، وقد وصف هؤلاء بقوله: ﴿مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي مرنوا عليه وحذقوه حتى بلغوا الغاية من إتقانه وجعله بحيث لا يشعر أحد به لاتقائهم جميع الأمارات والشبهات التي تدل عليه. يقال مرد على الشيء يمرد (كقعد يقعد) مروداً إذا مرن عليه. وإذا عتا واشتد فيه حتى يتعذر إرجاعه عنه. ومن الأول الغلام الأمرد الذي لم ينبت الشعر في وجهه، والشجرة المرداء التي لا ورق فيها، ومنه مرد الشيء تمريداً إذا صقله وملسه حتى صار أملس لا حرشة فيه ولا خشونة ومنه (صرح ممرد من قوارير) قال في اللسان وتأويل المرود أن يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه الصنف. ثم قال: والمرود على الشيء المرون عليه، ومرد على الكلام أي مرن عليه لا يعبأ به [أي لا يعني أن يتكلف له] قال الله تعالى: ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾ [التوبة: ١٠١] قال الفراء يريد مرنوا عليه وجربوا، كقولك تمردوا، وقال ابن الأعرابي المَرْدُ التطاول بالكبر والمعاصي ومنه قوله: ﴿مردوا على النفاق﴾ أي تطاولوا اهـ.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعرفهم أيها الرسول بفطنتك ودقة فراستك التي تنظر فيها بنور الله لحذقهم في التقية وتجنب مثارات الشبهة، وأكد هذا النفي بإثبات العلم بأعيانهم له وحده عزّ وجلّ، ولعلهم أخفى نفاقاً وأشد تقية ممن قال فيهم: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن القول﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠].

فهؤلاء ممن لم يعلمه الله بأعيانهم كما أعلمه بمن أشير إليهم في الآية [٧٤] ولا فضحهم بأقوال قالوها ولا بأفعال فعلوها كما فضح غيرهم في هذه السورة، لأنهم بمرودهم على النفاق يتحامون ما يكون شبهة على إيمانهم، فضرره قاصر عليهم، وحكمة إخباره تعالى إياه بذلك أن يعلموا هم أن الله عليم بما يسرون من نفاقهم، ويحذروا أن يفضحهم كما فضح غيرهم، ليتوب المستعد للإيمان منهم وهو في ستر الله تعالى قبل أن ينجزما أوعدهم بقوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي في الحياة الدنيا إحداهما ما يصيبهم من المصائب وتوبيخ الضمائر، وانتظار الفضيحة بهتك أستار السرائر، وما يتلو ذلك من جهادهم إذا ظهر نفاقهم كغيرهم، والثانية آلام الموت وزهوق أنفسهم وهم كافرون وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند موتهم، فأقرب

ما يفسر به العذاب مرتين هو ما تقدم في تفسير الآيات ٥٥ و ٧٣ و ٧٤ و ٨٢ و ٨٣ ففيه بيان لكل ما يصيب المنافقين في الدنيا من عذاب الوجدان الباطن، وعذاب من يفتضح أمرهم في الظاهر، وورد في التفسير المأثور أقوال في هاتين المرتين بعضها في معنى ما ذكرنا وبعضها مردود ومتناقض. ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي في الآخرة وهو عذاب جهنم، وهم في الدرك الأسفل منها كما تقدم.

جاء في كتب التفسير المأثور أن رسول الله ﷺ خطب الناس مرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم منافقين فمن سميته فليقم» ثم قال قم يا فلان ـ حتى سمى ٣٦ رجلاً، فإن صح فهو عدد الذين سبق تهديدهم في هذه السورة لظهور نفاقهم دون الذين مردوا على النفاق، ولكن لم يرو لنا ما كان من أمر هؤلاء بعد هذه الفضيحة بكفرهم ومنعهم من الصلاة، ومقتضاه أن تجري عليهم أحكام المرتدين، ومثل هذا لا يخفى وتتوفر الدواعي على نقله بالتواتر أو الاستفاضة ولم يرو المحدثون شيئاً فيه والذي أراه أن الرواية غير صحيحة والله أعلم.

والعبرة في هذا السياق أن هؤلاء المنافقين فريقان: فريق عرفوا بأقوال قالوها وأعمال عملوها، وفريق مردوا على النفاق وحذقوه حتى صار أملس ناعماً لا يكاد يشعر أحد بشيء يستنكره منه فيظهر عليه، وكل من الفريقين يوجد في كل عصر، ولا سيما منافقي السياسة في هذا العهد، وهم الذين اتخذهم الأجانب المعتدون على بلاد الإسلام دعاة وولائج وأعواناً على استعباد أمتهم واستعمار أوطانهم، فما من قطر من هذه الأقطار التي رزئت بالأجانب إلا ولهم فيها أعوان وأنصار من أهلها يزعمون أنهم يخدمون أمتهم ووطنهم من طريق استمالتهم واسترضائهم، وأنهم لولاهم لما وقفوا من الظلم وهضم الحقوق عند الحد الذي هم عليه، ومنهم من يخدمون الأجانب خدماً خفية لا تشعر بها الأمة لأنهم مردوا على النفاق، وإنما يحتاج الخونة الخادمون للأجانب إلى النفاق، وتلبيس خيانتهم وإخفائها بالكذب والاختلاق، إذا كان للرأي العام فطنة وقوة يخشونها، وأما البلاد التي استحوذ عليها الجهل والضعف فلا يبالي الخائنون برضاء أهلها ولا بسخطهم.

وأشد المنافقين مروداً وإتقاناً للنفاق أعوان الملوك والأمراء المستبدين، وشرهم وأضرهم الذين يلبسون لباس علماء الدين.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي وثم آخرون أو ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة أناس آخرون ليسوا من المنافقين، ولا من السابقين الأولين، ولا من الذين اتبعوهم بإحسان لا إساءة فيه، بل من المؤمنين المذنبين ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ أي خلطوا في أعمالهم بأن عملوا عملاً صالحاً وعملاً سيئاً، وقيل معناه خلطوا صالحاً

بسيء وسيئاً بصالح، أو خلطوا في كل منهما ما ليس منه فكان ناقصاً ولكنه لم يغلب الآخر ويندغم فيه، فلم يكونوا من الصالحين الخلص ولا من الفاسقين أو المنافقين، ذلك بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات، واقترفوا بعض السيئات، وهم أو منهم بعض الذين تخلفوا عن النفر والخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح كالضعفاء والمرضى وغير الواجدين، ولا استئذان كاستئذان المرتابين، ولا اعتذار كاذب كالمنافقين، ثم كانوا ناصحين لله في أثناء قعودهم، شاعرين بذنبهم، خائفين من ربهم، فكان كل من قعودهم ونصحهم مقترناً بالآخر، كالذي يدخل أرضاً مغصوبة فيصلح فيها، ويعترف بأنه مذنب بدخولها، ويأتي بالإصلاح لتكفير ذنب الاعتداء. وهذا المعنى لا يؤديه قولك: خلط العمل الصالح بالسيىء، كما تقول خلط القمح بالشعير أو الماء باللبن، لأن هذا الضرب من الخلط يصير فيه المخلوط والمخلوط به شيئاً واحداً أو كالشيء الواحد فلا يقول صاحبه عندي ماء فرات ولا لبن محض وأما الضرب الأول المراد من الآية فقد بقي فيه كل من النوعين ممتازاً بنفسه، وإنما خلطه مع الآخر عبارة عن الجمع بينهما، وعدم انفراد أحدهما دون الآخر، والواو العاطفة هي التي تؤدي هذا المعنى من الجمع، وهو من دقائق بلاغة القرآن بالعدول عن التعدية بالباء إلى العطف.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي هم محل الرجاء لقبول الله توبتهم، التي يشير إلى وقوعها اعترافهم بذنوبهم، وقد تقدم (في ج ١٠) أن كلمة «عسى» وضعت للتقريب والإطماع ثم استعملت في الرجاء كلعل، وقول بعضهم أنها من الله للإيجاب غير صحيح، أو لتوفيقهم للتوبة الصحيحة التي هي سبب المغفرة والرحمة وإنما تتحقق التوبة بالعلم الصحيح بقبح الذنب وسوء عاقبته، وألم الوجدان من تصور سخط الله والخوف من عقابه، والإقلاع عن الذنب أو الذنوب بباعث هذا الألم الذي هو ثمرة ذلك العلم، والعزم على عدم العود إلى اقترافها، ثم العمل بضدها، ليمحى من النفس أثرها، والروايات صريحة بأن اعتراف من ذكر بذنوبهم قد استتبع كل هذا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل لرجاء قبول توبتهم، إذ معناه أنه كثير المغفرة للتائبين واسع الرحمة للمحسنين، كما قال: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ [طه: ٨٢] وكما قال: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦] وكما قص علينا من خبر استغفار الملائكة للمؤمنين قولهم: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته﴾ [غافر: ٧، ٨].

قال بعض العلماء أن هذه الآية أرجى آية في القرآن وقال آخرون أرجى الآيات قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله

يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ [الزمر: ٥٣] وإنما هذا علاج لمن اشتد عليهم الخوف من إسرافهم في شهواتهم، حتى كادوا يقنطون من رحمة ربهم، لا للمصرين على ذنوبهم بغير مبالاة، ولذلك قال بعدها ﴿وأنيبوا إلى ربكم وسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون﴾ [الزمر: ٥٤] إلى آخر الآيات.

ومن العبرة في هذه الأقسام للمسلمين أن قسم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً يوجد في كل زمان ومكان، كقسم الذين اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وأما المهاجرون والأنصار الأولون الذين أقام الرسول ﷺ بهم بناء الإسلام فهم الذين لا يلزُّ بهم قرين، ولا يلحقهم لاحق من العالمين، ولعل أكثر المسلمين الصادقين في هذا الزمان من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولعل أسوأ سيئاتهم ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فيجب أن يسترشدوا بهذه الآية، وبما ورد في سبب نزولها من توبة أبي لبابة وأصحابه. ولا تتم العبرة بها، إلا بتدبر ما بعدها، وهو تطهير النفس من النفاق وضعف الإيمان، ببذل الصدقات وغيره من صالح الأعمال.

وقد روى البخاري في تفسير الآية في صحيحه عن سمرة بن جندب مرفوعاً «أتاني الليلة (أي في النوم) ملكان فابتعثاني فانتهيا بي إلى مدينة بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء. قالا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قالا لي هذه جنة عدن وهذا منزلك، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم»(١) اهـ.

فهذا تمثيل في الرؤيا لتحسين العمل الصالح وتجميله للنفس وتشويه العمل القبيح لها، ولتطهيرها بالتوبة والعمل الصالح حتى تكون كلها حسنة جميلة وأهلاً لدار الكرامة، بعد أن تبعث في الصورة التي كانت عليها قبل التوبة. وقد قال تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ [هود: ١١٤] وشبه النبي ﷺ الصلوات الخمس بنهر يفيض على عتبة الإنسان خمس مرات كل يوم «فهل يبقى عليها وسخاً أو قذراً»؟

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

هذه الآيات الثلاث في بيان فوائد صدقة الأموال ومنافعها، والحث عليها،

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٩، باب ١٠، والتعبير باب ٤٨، وأحمد في المسند ٥/٨.

وعلى التوبة لمن قصر في الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه، أو في غير ذلك من أمور دينه. وفي الحث على العمل، وكونه هو الذي عليه المعول.

أخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة أن أبا لبابة وأصحابه جاؤوا رسول الله ﷺ حين أطلقوا فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً» فأنزل الله ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ وأخرج مثله عنه من طريق محمد بن سعد عن آبائه وزاد: فلما نزلت هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ جزءاً من أموالهم فتصدق بها عنهم. وله في سبب النزول روايات أخرى، وهذا النص حكمه عام وإن كان سببه خاصاً، عام في الآخذ يشمل خلفاء الرسول من بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين، وفي المأخوذ منهم وهم المسلمون الموسرون، قال العماد ابن كثير: وهذا عام وإن عاد الضمير في (أموالهم) إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ واحتجوا بقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾.

وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة رضي الله عنهم وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ حتى قال الصديق: والله لو منعوني عناقاً ـ وفي رواية عقالا ـ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه اهـ. وهذا مشهور في الصحاح والسنن والسير ومجمع عليه، وهاك معنى الآية:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ أي خذ أيها الرسول من أموال من ذكر، ومن سائر أموال المؤمنين ـ على اختلاف أنواعها، ومنها مال التجارة ـ صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهي التطوع ـ فالصدقة ما ينفقه المؤمن قربة لله كما تقدم في نفقة مؤمني الأعراب ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء البائسين وما يتصل بذلك من الرذائل، وتزكي أنفسهم بها أي تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية، حتى تكون بها أهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية. فالمطهر هنا الرسول والمطهر به الصدقة. والتزكية صيغة مبالغة من الزكاة وهو نماء الزرع ونحوه، قال في مجاز الأساس: رجل زكي زائد الخير والفضل بيّن الزكاء والزكاة (وحناناً من لدنا وزكاة) اهـ.

والتزكية للأنفس بالفعل تسند إلى الله تعالى، لأنه هو الخالق المقدر الموفق للعبد لفعل ما تزكو به نفسه وتصلح قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء﴾ [النور: ٢٠] وتسند إلى الرسول ﷺ

لأنه هو المربي للمؤمنين على ما تزكو به أنفسهم ويعلو قدرها بسنته العملية والقولية في بيان كتاب الله وما لهم فيه من الأسوة الحسنة ومنه هذه الآية وقال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [الجمعة: ٢] فتزكيته ﷺ للأمة من مقاصد البعثة وتسند إلى العبد لكونه هو الفاعل لما جعله الله سبباً لطهارة نفسه وزكائها كالصدقات وغيرها من أعمال البر ومنه قوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وقوله: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] وأما قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء﴾ [النساء: ٤٨] وقوله: ﴿فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ [الطور: ٣٢] فهو في زكاة النفس بدعوى اللسان، فالتزكية تطلق على الفعل المزكي وهو الأصل وعلى القول الدال عليه ومنه تزكية الشهود.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص (صلاتك) بالمفرد أي جنسها والباقون (صلواتك) بالجمع وهو باعتبار جماعة المتصدقين. والصلاة اسم من صلى يصلي تصلية وقد هجر لفظ التصلية في الإسلام ومنه:

تركت الدنان وعزف القيان وأدمنت تصلية وابتهالا[1]

ومعناها الأصلي الدعاء وهو المراد من الآية، وسميت العبادة الإسلامية المخصوصة صلاة من تسمية الشيء بأهم أجزائه، فإن الدعاء مخ العبادة وروحها. وقيل في التعليل غير ذلك. والصلاة من الله على عباده الرحمة والحنان، ومن ملائكته الدعاء والاستغفار قال تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ [الأحزاب: ٤٣] ثم قال: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٥] وصلاتنا على نبينا ﷺ دعاؤنا له بما أمرنا به في الصلاة بعد التشهد الأخير وما في معناه كقولنا في دعاء الأذان المأثور «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته»[2] رواه الجماعة إلا مسلماً. والسكن ما تسكن إليه النفس وترتاح من أهل ومال ومتاع ودعاء وثناء.

والمعنى ادع أيها الرسول للمتصدقين واستغفر لهم عاطفاً عليهم إن دعاءك

---

(١) البيت من المتقارب، وهو بلا نسبة في تاج العروس (صلو)، وفيه «تركت المدام» بدل «تركت الدنان».

(٢) أخرجه البخاري في الأذان باب ٨، وتفسير سورة ١٧، باب ١١، وأبو داود في الصلاة باب ٣٧، والترمذي في الصلاة باب ٤٣، والنسائي في الأذان باب ٣٨، وابن ماجه في الأذان باب ٤.

واستغفارك سكن لهم يذهب به اضطراب أنفسهم إذا أذنبوا، وتطمئن قلوبهم بأن تقبل توبتهم إذا تابوا، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها، ووضعك إياها في مواضعها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لدعائك سماع قبول وإجابة، عليم بما فيه من الخير والمصلحة، فالمراد من السماع والعلم لازمهما. وسميع لاعترافهم بذنوبهم، عليم بندمهم وتوبتهم منها، وبإخلاصهم في صدقتهم وطيب أنفسهم بها، فهو الذي يثيبهم عليها، فجملة (إن صلاتك) تعليل للأمر بالدعاء، وتذييلها بالتذكير بسمع الله وعلمه إشعار بقبول الدعاء وقبول الطاعات والجزاء عليها، وتصرح به الآية التالية.

روى الشيخان من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللهم صل على فلان» فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»[1] فقوله: بصدقته، صريح في أن المراد بها زكاة الفريضة. وهو يدل على أن المراد بالآية صدقة الفريضة أو ما يعم الفريضة وغيرها، وعلى أنه ﷺ كان مواظباً على هذا الدعاء، ولذلك قيل إن الأمر في الآية للوجوب وهو خاص به ﷺ وقال بعض الظاهرية بوجوب الدعاء على آخذي الزكاة من الأئمة أيضاً، والجمهور على أنه مستحب لهم. وقد بوب البخاري للحديث بقوله: (باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة) وقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿سكن لهم﴾ والجمهور على أن الدعاء بلفظ الصلاة خاص بدعائه ﷺ لغيره وبدعاء المسلمين له، وقيد الأول بعض العلماء بما عدا هذا اللفظ الذي كان يدعو به للمتصدقين «اللهم صل على فلان» عند إعطاء الصدقة. وقد ثبت أنه ﷺ كان يدعو بغيره أيضاً فقد روى النسائي من حديث وائل بن حجر أنه ﷺ قال في رجل بعث بناقة حسنة في الزكاة «اللهم بارك فيه وفي إبله» وقال الشافعي: السنة للإمام إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ويقول آجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت.

والأفضل الجمع بين الصلاة والسلام عليه ﷺ وعلى آله، وأكثر المسلمين يخص بالسلام الأنبياء والملائكة، وكذا جماعة آل بيته ﷺ والشيعة يلتزمون السلام على السيدة فاطمة وبعلها وولديهما والأئمة المشهورين من ذرية السبطين ويوافقهم كثير من أهل السنة وغيرهم في الزهراء والسبطين ووالدهما سلام الله ورضوانه عليهم إذا ذكروا جماعة أو أفراداً، وأما الصلاة والسلام على الآل بالتبع للرسول ﷺ فهو مجمع عليه، ومنه صلاة التشهد، وكذا عطف الصحابة والتابعين على الآل ذائع في الكتب والخطب والأقوال.

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٣٢، وأبو داود في الزكاة باب ٧، والنسائي في الزكاة باب ١٣، وابن ماجه في الزكاة باب ٨، وأحمد في المسند ٤/ ٣٥٣ ـ ٣٥٥، ٣٨١، ٣٨٣.

فصل في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والإصلاح المالي للبشر وامتياز الإسلام بذلك على جميع الأديان

ما ذكره الله تعالى من تطهير الصدقة للمؤمنين وتزكيتهم بها يشمل أفرادهم وجماعتهم، فهي تطهر أنفس الأفراد من أرجاس البخل والدناءة والقسوة والأثرة والطمع والجشع، ومن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا وغير ذلك، فإن الذي يتربى بالإيمان على بذل بعض ما في يده أو ما أودعه في خزانته وصندوقه في سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه ورفع درجاته، جدير بأن ينزه نفسه عن أخذ مال غيره بغير حق. وهذا التطهير لأنفس الأفراد وتزكيتها بالعلم والعرفان، والتقوى التي هي مجموع ثمرات الإيمان، يستلزم تطهير جماعة المؤمنين (وما يعبر عنه في عرف هذا العصر بالهيئة الاجتماعية) من أرجاس الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والبغي والعدوان والفتن والحروب.

ذلك بأن الأموال قوام حياة الناس وقطب الرحى لمعايشهم ومرافقهم العامة والخاصة، وهم متفاوتون في الاستعداد للكسب والتثمير، والإسراف والتقتير، والقصد والتدبير، والجود والبخل، والتعاون على البر، فلا ينفك بعضهم محتاجاً إلى بعض في كسب الرزق وفي إنفاقه، وأشدهم استعداداً لجمع الثروة الذين يغلب على طباعهم الحرص والبخل حتى على أنفسهم وأولي قرباهم، وبهذا يكون بعضهم فتنة ـ أي امتحاناً ـ لبعض ومثاراً للتنازع والتخاصم كما قال تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾؟ [الفرقان: ٢٠] أي ذلك مقتضى سنته في تفاوت البشر في الاستعداد والأخلاق والأعمال. وقد بينا حكمة ذلك من قبل.

ولما كان الدين مرشداً للبشر إلى تزكية أنفسهم وتقويم أخلاقهم بما تصلح به فطرتهم، ويرتقي به أفرادهم وجماعتهم ـ شرع الله فيه من الأحكام التعبدية والعملية ما يقيهم شر هذه الفتنة، وينقذهم مما يترتب على إهمالها من المحنة، فأوجب على أصحاب الأموال من النفقات والصدقات، ما يبدل سيئات الثروة في الإسلام حسنات، وإننا لم نجد في كتب التفسير ولا كتب الفقه ولا دواوين التاريخ الإسلامي بياناً علمياً لحكمة الشريعة في السياسة المالية وما انفردت به من الإصلاح المعقول فيها، وكنت عازماً على شرح ذلك في تفسير هذه الآية فلما وصلت إليه وفكرت في أصول هذه المسألة وفروعها تبين لي أنه لا يمكن تفصيل القول فيها إلا بتأليف سفر مستقل، ورأيت أن أكتفي هنا بإيراد أهم الحقائق التي تشير إلى عظم شأن هذه المسألة وإصلاح الإسلام فيها فأقول:

إن اتساع دوائر العلوم والفنون والمصالح العامة في هذا العصر قد اضطر

الباحثين إلى انفراد بعض الأفراد والجماعات للأخصاء في كل فرع من فروعها لتمحيص مسائلها والإحاطة بها بقدر الإمكان، حتى أن الرجال الماليين لا يستحقون هذا اللقب فيه (أي لقب المالي) إلا بعد إتقان عدة علوم منها، والتمرن بالعمل في بعض فروعها، وإننا نرى بعض الاجتماعيين منهم يجزمون بأن جميع الثورات والحروب السياسية والدينية ذات الشأن في تاريخ البشر قد كان المال سببها الصحيح، أو أحد الأسباب المؤثرة فيها أشد التأثير، ولم يستثنوا من ذلك حروب أوروبا الدينية ولا حروبها الصليبية للإسلام.

بل نشر منذ سنتين كتاب عربي طبع في القدس موضوعه (الحركات الفكرية في الإسلام) زعم مؤلفه[1] تابعاً لبعض مؤرخي الإفرنج: إن الإسلام لم يكن فكرة دينية محضاً بل كان مسألة اقتصادية واجتماعية أيضاً، أو كان هذا هو الغرض الأول المقصود بالذات منه ولم يكن الدين إلا وسيلة له ونقل عن (كايتاني) المؤرخ الإيطالي المشهور أن الإسلام لم يكن دينياً إلا في الظاهر، وأن جوهره كان سياسياً واقتصادياً قال: «ومن فضل مؤسس الدين الإسلامي ومظاهر عبقريته أنه أدرك مصدر الحركة الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت في أيامه بمكة عاصمة الحجاز، وعرف كيف يستفيد منها ويسخرها لأغراضه السامية دينية كانت أو اجتماعية» ثم بسط ذلك من طريق ظواهر التاريخ بما هو باطل في نفسه، خادع ببعض مظاهره، وما أظن أن الناقل عنه ـ وهو نصراني الديانة، شيوعي السياسة ـ يعتقد اعتقاده هذا، وإنما يريد فيما يظهر نشر الشيوعية التي ابتدعها بلاشفة دولته الروسية في العرب، وزلزلة العقائد الإسلامية في المسلمين، وربما نجد فرصة للرد على كتابه في المنار، وحسبي هنا أن أقول لو كان الإسلام كما ذكر لظهر أثره في أعلم الناس بحقيقته، وأصدقهم في إقامة أركانه بالعلم والعمل، وفي طليعتهم الخلفاء الراشدون، والأئمة المجتهدون، وقد قال عمر بن عبد العزيز الجامع بين الإمامتين في كتاب له إلى بعض عماله الماليين «إن محمداً ﷺ بعث هادياً، ولم يبعث جابياً».

والحق أن الإسلام هو الدين الوسط، الجامع بين مصالح الروح والجسد، للسيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة، فهو وسط بين اليهودية المالية الدنيوية، والنصرانية الروحانية الزهدية وإن من مقاصده الإصلاحية في الاجتماع البشري هداية الناس إلى العدل والفضل في أمر المال، ليكتفي الناس شر طغيان الأغنياء، وذلة الفقراء، ونصوص القرآن والسنة في هذا هي الغاية القصوى في الإصلاح، وهي هادمة لمزاعم هؤلاء المفتاتين على الإسلام بالجهل والهوى.

---

(١) هو بندلي جوزي السوري الروسي التابعية أحد أساتذة جامعة باكو الروسية (المؤلف).

غلا عباد المال من اليهود والإفرنج في جمعه واستغلاله، واستعباد الألوف وألوف الألوف من العمال الفقراء به، بجعله دولة بينهم، وغلا خصومهم من الاشتراكيين في مقاومتهم ومحاولة جعل الناس فيه شرعاً، وجعله بينهم حقاً شائعاً، فانتهى هذا الغلو بالشيوعية الروسية في عصرنا أن استعبدت أكثر من مائة ألف من البشر تسخرهم في تنفيذ مذهبها كالأنعام والدواب، وتبذل جل ما تنتزعه من ثروتهم في بث الدعاية له في جميع الأقطار. ويخشى العقلاء من عاقبة هذا الإسراف والغلو من الجانبين حرباً عامة طامة، وفتنة لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة.

ولا منقذ للأمم من هذه الفتنة وعواقبها إلا بدين الإسلام ـ أعني بالتدين به والعمل بأحكامه المالية وغيرها، ولا يمكن التزامها بالعمل إلا بإذعان الدين، وقد بدأ عقلاء الإفرنج يشعرون بالحاجة إلى دين معقول يصلح بالتزامه فساد هذه المدنية المادية، ولن يجدوا حاجتهم إلا في دين القرآن، وسنة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، وأخشى ألا يهتدوا إليه إلا بعد البطشة الكبرى، والطامة العظمى، وهي حرب التدمير المنتظرة من تنازع البلشفية والرأسمالية، وإنني أذكر هنا أهم أصول الإصلاح الإسلامي في المسألة المالية التي تبتدر فكري وتبدهه فأقول:

١ ـ إقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل.

٢ ـ تحريم الربا والقمار.

٣ ـ منع جعل المال دولة بين الأغنياء ـ أي يتداولونه بينهم من دون الفقراء، ولم يكن هذا التداول في عصر من أعصار البشر كما في عصر النظام المالي المتبع في الحضارة الغربية نظام البيوت المالية (المصارف) والشركات والاحتكارات التي يحاربها العمال، ويعادون لأجلها أرباب الأموال.

٤ ـ الحجر على السفهاء في أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم.

٥ ـ فرض الزكاة المطلقة في أول الإسلام، وكانت اشتراكية باعثها إذعان الوجدان لا إكراه الحكام، ثم نسخت أو قيدت بالمعينة الإجبارية عند ما صار للإسلام دولة، ولو وجدت تلك الحال التي كان عليها المسلمون في مكة قبل الهجرة لوجبت عليهم فيها تلك الزكاة الاشتراكية، أعني أنه إذا وجد في مكان جماعة محصورون منهم الموسر والمعسر، وصاحب الثروة وذو الفقر المدقع، وجب أن يقوم أغنياؤهم بكفاية فقرائهم وجوباً دينياً إذا كانت الزكاة المعينة لا تكفيهم.

٦ ـ جعل الزكاة المعينة ربع العشر في النقدين والتجارة، والعشر أو نصف العشر في الغلات الزراعية التي عليها مدار الأقوات. وزكاة الأنعام معروفة في كتب الحديث والفقه.

٧ ـ فرض نفقة الزوجية والقرابة.

٨ ـ إيجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين، وضيافة الغريب حيث لا مأوى ولا فنادق للمسافرين، إلا إذا كان مهدور الدم أو محارباً للمسلمين.

٩ ـ جعل بذل المال كفارة لبعض الذنوب (ومنها الظهار وإفساد صيام يوم من رمضان بشروطها المعروفة).

١٠ ـ ندب صدقات التطوع والترغيب فيها.

١١ ـ ذم الإسراف والتبذير، والبخل والشح والتقتير، وعده من أسباب الهلكة وسوء المصير، أي للأفراد وللأمة والدولة.

١٢ ـ إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الإسراف والخيلاء الموقعين في الأمراض والأدواء البدنية، المضيعين للثروة المالية، المثيرين للحسد والعداوة والمفاسد الاجتماعية، وهي من أعظم أسباب ترقي الثروة.

١٣ ـ مدح القصد والاعتدال، في النفقة على النفس والعيال.

١٤ ـ تفضيل الغني الشاكر، على الفقير الصابر، بجعل اليد العليا، خيراً من اليد السفلى، وأعمال البر المتعدي نفعها إلى الناس، أفضل من الأعمال القاصر نفعها على فاعلها، وجعل الصدقة الجارية، من المثوبات الدائمة الباقية.

أرأيت أمة من الأمم تقيم هذه الأركان ويوجد فيها فقر مدقع، أو غرم موجع، أو شقاء مفظع؟

ألم تر أن زكاة النقدين الواجبة ـ وهي ربع العشر ـ هي أوسط ربح تدفعه المصارف المالية لمودعي نقودهم فيها للاستغلال، وقد يقل عن ذلك؟

قدر الثروة القومية في النقد والتجارة للشعب المصري وانظر مقدار ربع عشرها الواجب دفعه في كل عام لفقرائها ومصالحها، وارجع البصر إلى سائر أنواع الزكاة ومقاديرها، تعرف قدر سعادته إذا وضعها في مواضعها، وتعلم صدق ما قلناه في تفسير آية مصارف الصدقات، من أن أداء الزكاة وحده كاف لإعادة مجد الإسلام الذي أضاعه المسلمون.

اقرأ ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥] واقرأ ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [الحشر: ٩] وتدبر جد التدبر ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد: ٣٨].

وقد جاء في الكتاب والسنة من الترغيب في بذل المال في سبل البر، وجعله من

أكبر آيات الإيمان، وموجبات الثواب والرضوان، وتبويء غرف الجنان، وتسميته إقراضاً للرحمن، ما لم يجيء مثله في أي عمل من أعمال البر والإحسان وتجد أكثر الشواهد على ذلك في سورة البقرة ثم في هذه السورة (براءة) ما تقدم تفسيره منها وما تأخر.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي ألم يعلم أولئك التائبون من ذنبهم أن الله هو الذي يقبل توبة التائبين من عباده، ولم يجعل ذلك لرسوله، بَلْهَ من دونه من خلقه، فالاستفهام لتقرير ما دل عليه القرآن وكونه هو الذي حملهم على التوبة، ـ أو ألم يعلم المؤمنون كافة هذا وهو مقتضى الإيمان وموجبه؟ والاستفهام على هذا تحضيض على هذا العلم وما يستلزمه من التوبة. وقبول التوبة عنهم، قيل إنه بمعنى قبولها منهم، نحو: لا صدقة إلا عن غنى ومن غنى، وقيل إن القبول هنا قد تضمن معنى التجاوز والصفح، أي هو الذي يقبلها منهم متجاوزاً عن ذنوبهم عفواً عنها وهذا أبلغ.

﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ أي يتقبلها بأنواعها ويثيب عليها، ويعدها إقراضاً له فيضاعف ثوابها، بمقتضى وعده في مثل قوله: ﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم﴾ [التغابن: ١٧] وقوله: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ [البقرة: ٢٤٥] فأخذ الصدقات له ثلاث صور **إحداها**: أخذ الفقراء والمساكين وغيرهم إياها من المستحقين من يد المتصدق **الثانية**: أخذ النبي ﷺ في عهده والأئمة من بعده إياها لأجل وضعها في مصارفها التي أمر الله بها **الثالثة**: أخذ الله عز وجل إياها وهو قبولها للإثابة عليها بالمضاعفة التي وعدها. وفي التعبير بأخذ الله تعالى بعد قوله للنبي ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ تشريف للنبي ﷺ بكونه تعالى هو الذي يأخذ ما أمره بأخذه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي وأنه هو الذي يقبل التوبة بعد التوبة من كل مذنب يشعر بضرر ذنبه، ويتوب عنه منيباً إلى ربه، مهما يتكرر ذلك ـ الرحيم بالتائبين الذي يثيبهم. فصيغة المبالغة (التواب) تحقق بكثرة التائبين وبتكرار التوبة من المذنب الواحد الذي يمنعه الخوف من ربه، أن يصر على ذنبه، كما قال تعالى في وصف المتقين ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ [آل عمران: ١٣٥] وفي الحديث «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»(١) روى الشيخان من حديث أبي هريرة مرفوعاً «ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب

(١) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٦، والترمذي في الدعوات باب ١٠٦.

ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله»[١] والحديث تمثيل لمضاعفته تعالى للصدقة المقبولة.

وهذه الجملة الاسمية المؤكدة بأن وبضمير الفصل الدالة على الحصر، وما فيها من صيغة المبالغة بمعنى الكثرة من التوبة، ومبالغة الصفة الراسخة من الرحمة تفيد أعظم البشرى للتائبين، وأبلغ الترغيب في التوبة للمذنبين، كما لا يخفى على المتدبرين.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ هذا عطف على قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الخ أي وقل لهم أيها الرسول اعملوا لدنياكم وآخرتكم ولأنفسكم وأمتكم «حذف متعلق العمل يدل عى العموم، وقدره بعضهم اعملوا ما شئتم» فإنما العبرة بالعمل لا بالاعتذار عن التقصير، ولا بدعوى الجد والتشمير، وخير الدنيا والآخرة منوطان بالعمل، وهو لا يخفى على الله ولا على الناس أيضاً، فسيرى الله عملكم خيراً كان أو شراً، فيجب عليكم أن تراقبوه تعالى في أعمالكم، وتتذكروا أنه ناظر إليكم، عليم بمقاصدكم ونياتكم، لا تخفى عليه منكم خافية، وجدير بمن يؤمن برؤية الله ليعمله أن يتقنه، وأن يخلص له النية فيه، فيقف فيه عند حدود شرعه، ويتحرى به تزكية نفسه والخير لخلقه، ولا يكتفي فيه بترك معاصيه، واجتناب مناهيه.

راود رجل امرأة عن نفسها في فلاة قائلاً إنه لا يرانا هنا إلا الكواكب، قالت فأين مكوكبها؟ فخجل وانصرف. وسيراه رسوله والمؤمنون، ويزيونه بميزان الإيمان، المميز بين الإخلاص والنفاق، وهم شهداء الله على الناس، قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان»[٢] وقال زهير:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم[٣]

فإذا كانت الخلائق النفسية، والأعمال السرية، لا تخفى على الناس مهما يكن من محاولة صاحبها لإخفائها، فماذا يقال في الأعمال التي هي مقتضى العقائد

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٨، والتوحيد باب ٢٣، ومسلم في الزكاة حديث ٦٣، ٦٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/٢٨.

(٣) البيت من الطويل، وهو في ديوان زهير بن أبي سلمى ص٣٢، والجنى الداني ص٦١٢، والدرر ٤/ ١٨٤، ٥/٨٢، وشرح شواهد المغني ص٣٨٦، ٧٣٨، ٧٤٣ وشرح قطر الندى ص٣٧، ومغني اللبيب ص ٣٣٠، وبلا نسبة في شرح الأشموني ٣/٥٧٩، ومغني اللبيب ص٣٢٣، وهمع الهوامع ٢/٣٥، ٥٨.

والأخلاق، وما انطبعت عليه النفس من الملكات، ومرنت عليه من العادات؟ نرى المؤمنين الصادقين يخفون بعض أعمال البر التي يستحب إخفاؤها كالصدقة على الفقير المتعفف ستراً عليه، ومبالغة في الإخلاص لله تعالى الذي ينافيه الرياء وحب السمعة، ولكنهم لا يلبثون أن يشتهروا بها، ونرى بعض المنافقين يخفون بعض أعمال النفاق خوفاً من الناس لا من الله، ولكنهم لا يلبثون أن يفتضحوا بها. ومن أمثال العوام: إن الذي يختفي هو الذي لا يقع.

والآية تهدينا إلى أن مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان، المقررة صفاتهم في القرآن، تلي مرضاة الله ورسوله، وأنهم لا يجتمعون على ضلالة. وفي معناه حديث أنس في الصحيحين قال: مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال النبي ﷺ «وجبت» ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال: «وجبت» فقال عمر بن الخطاب (رض) ما وجبت؟ قال: «هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض»[(١)] وفي لفظ مسلم تكرار «وجبت» ثلاث مرات في الموضعين، وكذا تكرار «أنتم شهداء الله في الأرض».

وفي معناه حديث ابن عمر مرفوعاً «إن الله لا يجمع أمتي ـ أو قال أمة محمد ـ على ضلالة، ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ إلى النار»[(٢)] أخرجه الترمذي من طريق سليمان المديني وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه وسليمان المديني عندي هو سليمان بن سفيان اهـ أقول وهو ضعيف منكر الحديث باتفاقهم ويعزى الحديث إلى الطبراني بلفظ «لا تجتمع أمتي على ضلالة» والعلماء يستدلون به على حجية الإجماع لصحة معناه بموافقته للآيات والصحاح من الأخبار، وإنما يدل على اجماع الأمة، أمة الإجابة وأهل الاستقامة، لا على الإجماع المصطلح عليه عند الأصوليين.

وفي معناه قول ابن عباس «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن»[(٣)] رواه عنه أحمد في السنة لا في المسند، ومن الناس من يظن أنه حديث مرفوع، ويستدل به الجهال حتى من المعممين أدعياء العلم على استحسان البدع الفاشية حتى في العقائد الثابتة، كبدع القبور التي كان يلعن النبي ﷺ فاعليها في مرض موته، من بناء المساجد عليها، والصلاة إليها، وإيقاد السرج والمصابيح عندها، بل ما هو شر من ذلك وهو عبادتها بالطواف حولها، ودعاء أصحابها، والنذر لهم، والاستغاثة بهم، حتى في

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٨٦، والشهادات باب ٦، ومسلم في الجنائز حديث ٦٠.
(٢) أخرجه الترمذي في الفتن باب ٧.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٣٧٩.

الشدائد وهو ما لم يكن يفعله عباد الأصنام في مثل هذه الحال، بل كانوا فيه يخلصون الدعاء لله، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

بعد هذا الإرشاد إلى ما يقتضي الإحسان في الأعمال من مراقبة الله وتحري مرضاته ومرضاة رسوله وجماعة المؤمنين والخير لعباده بها، ذكرهم تعالى بما يقتضي ذلك من جزاء الآخرة عليها، فقال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مما كان مشهوداً للناس منه، وما كان غائباً عن علمهم منه ومن نياتكم فيه، ينبئكم به عند الحساب، وما يترتب عليه من الجزاء بحسن الثواب، أو سوء العذاب.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

هذه الآية عطف على قوله تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ وهؤلاء هم القسم الأخير من المتخلفين عن غزوة تبوك. فقد علم مما تقدم أن المتخلفين منهم المنافقون وهم أكثرهم، وقد تقدم بيان أقسامهم ومن اعتذر ومن لم يعتذر منهم، ومنهم المؤمنون وهم قسمان: **أحدهما**: الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا وزكوا توبتهم بالصدقة وطلب دعاء الرسول واستغفاره فتاب الله عليهم، **وثانيهما**: الذين حاروا في أمرهم ولم يعتذروا للرسول ﷺ لأنهم لا عذر لهم، وأرجأوا توبتهم فأرجأ الله الحكم القطعي في أمرهم للحكمة التي يأتي بيانها قريباً. قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم: هم الثلاثة الذين خلفوا أي عن التوبة، وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلا وميلاً إلى الدعة والحظ وطيب الثمار والظلال لا شكاً ونفاقاً، فكانت طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبة أولئك قبل توبة هؤلاء، وأرجىء هؤلاء عن التوبة حتى نزلت آيتا التوبة الآتيتين (١١٧ و ١١٨).

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي وثم أناس آخرون من المتخلفين مؤخرون لحكم الله في أمرهم، أو لأمره لرسوله بما يعاملهم به. قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم (مرجون) بحذف الهمزة للتخفيف، والآخرون (مرجؤن) بالهمزة على الأصل، فهو اسم مفعول من أرجأه إذا أخره، وقيل هما لغتان. رجاه يرجوه وأرجأه يرجئه. وروي أن هذا الإرجاء كان ٥٠ يوماً.

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أبهم الأمر عليهم وعلى الناس، لا يدرون ما ينزل فيهم، هل تنصح توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم، أم يحكم بعذابهم في الدنيا والآخرة كما حكم على الخالفين من المنافقين؟ فالترديد

بين الأمرين هو بالنسبة إلى الناس لا إلى الله عز وجل، وحكمة إبهام أمر هؤلاء عليهم إثارة الهم والخوف في قلوبهم لتصح توبتهم، وحكمة إبهامه على الرسول ﷺ والمؤمنين تركهم مكالمتهم ومخالطتهم، تربية للفريقين على ما يجب في أمثالهم من الذين يؤثرون الراحة ونعمة العيش، على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله لإعلاء كلمة الحق والعدل، ودفع عدوان الكفار عن المؤمنين، حتى ما كان من أمرهم ما بينه في الآية ١١٨.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بحال عباده ويربيهم ويزكيهم ويصلح حال أفرادهم ومجموعهم، حكيم فيما يشرعه لهم من الأحكام المفيدة لهذا الصلاح ما عملوا بها. ومن آثار علمه وحكمته إرجاء النص على توبتهم في كتابه، ومن هذه الحكمة تكرار تأثير تلاوة المؤمنين للآيات في ذلك في الأوقات المتفرقة، فإنها من أعظم آيات القرآن ترهيباً وتخويفاً، وعظة وتهذيباً.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

نزلت هذه الآيات الأربع في واقعة حال من مكايد المنافقين للرسول ﷺ وللمؤمنين، لم أرى أحداً بين حكمة خاصة لتأخيرها عن أمثالها مما نزل في أعمال المنافقين. ووضعها هنا في سياق توبة المذنبين من المؤمنين: ما تقدم منها فقبل، وما تأخر فأرجيء، وقد بينا الحكمة العامة في تفريق الآيات في الموضوع الواحد ـ وهو تجديد الذكرى والعظة، وما تقتضيه من التأثير والعبرة ـ في مواضع متعددة من الكلام على التناسب ووجوه الاتصال بين الآيات. ولعل بعض ضعفاء المؤمنين كانوا قد شايعوا أولئك المنافقين الاثني عشر الذين بنوا مسجد الضرار في عملهم جاهلين مقاصدهم منه، فأريد بوضع القصة وإبهام عطفها على من أرجأ الله الحكم في أمرهم، أن يتعظ أولئك الغافلون من المؤمنين المغرورين بمسجد الضرار ومتخذيه، ويخافوا أن يؤاخذوا بمشايعتهم لهم، ولو بصلاتهم معهم في مسجدهم.

روي أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته بأن يأذن لمجمع فيؤمهم في مسجدهم، فقال لا ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ، فوالله لقد صليت بهم والله يعلم أني لا أعلم ما أضمروا فيه، ولو

علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً لا يقرءون من القرآن شيئاً. فعذره وصدقه وأمره بالصلاة بقومه قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ يحتمل أن تكون هذه الجملة ابتدائية معطوفة على ما قبلها من السياق في جملته حذف خبرها للعلم به، ويبعد أن تكون معطوفة على قوله: ﴿وآخرون مرجون﴾ إلا على قول ضعيف روي عن الحسن وهو أنه في المنافقين، والأفصح أن يكون لفظ «الذين» منصوباً على الاختصاص بالذم، وجعله محتملاً لما ذكر ولغيره نراه من الإبهام، الذي تقتضيه البلاغة في هذا المقام، لما أشرنا إليه آنفاً من الإبهام، وقد قرر علماء البيان أن البلاغة تقتضي أحياناً إيراد عبارة تذهب النفس في فهمها عدة مذاهب محتملة فيها. وقرأ نافع وابن عامر «الذين» بغير واو. وهي أقرب إلى قول الحسن منها إلى قول الجمهور، وما أشرنا إليه من حكمة وضع الآيات هنا أظهر في هذه القراءة منه في قراءة جمهور القراء «فتأمل».

ذكر المفسرون أن هؤلاء الذين اتخذوا هذا المسجد كانوا اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج وسموهم بأسمائهم، وقد بين الله تعالى أن الأغراض التي بنوه لأجلها أربعة ذكرت منصوبة على المفعول لأجله وهي:

١ ـ أنهم اتخذوه لمضارة المؤمنين أي محاولة إيقاع الضرر بهم، وهم أهل مسجد قباء «الذين بناه لهم رسول الله ﷺ مقدمه من مكة مهاجراً وقبل وصوله إلى المدينة» إذ بنوه بجواره مضادة لهم في الاجتماع للصلاة فيه.

٢ ـ الكفر أو تقوية الكفر، وتسهيل أعماله من فعل وترك، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هنالك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد، والتشاور بينهم في الكيد لرسول الله وغير ذلك، قيل لا بد هنا من تقدير مضاف لأن بناء المسجد نفسه ليس كفراً، ولكن التعليلات الأربعة في الآية هي للقصد من البناء المعبر عنه بالاتخاذ، والكفر يطلق على الاعتقاد وعلى العمل المنافيين للإيمان.

٣ ـ التفريق بين المؤمنين الذين هنالك، فإنهم كانوا يصلون جميعاً في مسجد قباء، وفي ذلك من مقاصد الإسلام الاجتماعية ما فيه، وهو التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة، ولذلك كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافياً لمقاصد الإسلام، ومن الواجب على المسلمين في كل بلد أن يصلوا الجمعة في مسجد واحد إذا تيسر، فإن تفرقوا عمداً وصلوا في عدة مساجد والحالة هذه كانوا خاطئين، وذهب بعض الأئمة إلى أن الجمعة الصحيحة تكون حينئذ لأهل المسجد الذين سبقوا بالتجميع وهذا يدل على أن بناء المساجد لا يكون قربة مقبولة عند الله إلا إذا كان بقدر حاجة المؤمنين المصلين، وغير سبب لتفريق جماعتهم، ومنه يعلم أن كثيراً من مساجد مصر

القريب بعضها من بعض ـ وكذا أمثالها في الأمصار الأخرى ـ لم تبن لوجه الله تعالى، بل كان الباعث على بنائها الرياء، واتباع الأهواء، من جهلة الأمراء والأغنياء.

٤ ـ الإرصاد لمن حارب الله ورسوله من قبل اتخاذ هذا المسجد، أي الانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محارباً، فيجد مكاناً مرصداً له، وقوماً راصدين مستعدين للحرب معه، وهم هؤلاء المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً لذلك. يقال: رصدته أي قعدت له على طريقه أترقبه، وراصدته راقبته، وأرصدت هذا الجيش للقتال، وهذا الفرس للطراد اهـ ملخصاً من الأساس، واتفق المفسرون على أن الذي أغراهم ببناء هذا المسجد لهذا الغرض رجل من الخزرج يعرف بأبي عامر الراهب، وعدهم بأن سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي ﷺ وأصحابه.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إخبار مؤكد بالقسم أنهم سيحلفون إنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخصلة أو الخطة التي تفوق غيرها في الحسن، وهي الرفق بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولي العجز والضعف ومن يحبسهم المطر منهم، ليصدقهم الرسول ﷺ ويصلي لهم فيه ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قولهم، حانثون بيمينهم.

قال العماد ابن كثير:

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألبهم لحرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شراً، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه، وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه

سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم «مسجد قباء» الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية ـ وذكر روايته بمعنى ما ذكر مختصرة اهـ.

وذكر البغوي في خبر أبي عامر الفاسق هذا أنه ما زال يقاتل النبي ﷺ ويحرض عليه المشركين إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً لأني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآت بجند من الروم الخ ما تقدم آنفاً.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ هذا نهي للرسول ﷺ وللمؤمنين بالتبع له عن الصلاة فيه مؤكد بلفظ الأبد الذي يستغرق الزمن المستقبل، وتفسير القيام بالصلاة هنا مروي عن ابن عباس وهو معهود في التنزيل كقوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله: ﴿قم الليل إلا قليلا﴾ [المزمل: ٢] والنهي عن القيام المطلق يتضمن النهي عن القيام للصلاة، ولكنها هي المقصودة بالنهي لطلبهم لها منه ﷺ.

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ اللام الداخلة على المسجد للقسم أو للابتداء. والتأسيس وضع الأساس الأول للبناء الذي يقوم عليه ويرفع، والمراد منه هنا القصد والغرض من البناء، والتقوى الاسم الجامع لما يرضي الله ويقي من سخطه، أي أن مسجداً قصد ببنائه منذ وضع أساسه في أول يوم تقوى الله تعالى بإخلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى هو أحق أن تقوم فيه أيها الرسول مصلياً بالمؤمنين من غيره، ولا سيما ذلك المسجد الذي وضع أساسه على المقاصد الأربعة الخبيثة، والسياق يدل على أن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد قباء، وقد صح في أحاديث رواها الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم أن النبي ﷺ سئل عنه فأجاب بأنه مسجده الذي في المدينة ففي رواية مسلم عن أبي سعيد أنه لما سأله أخذ ﷺ كفاً

من حصباء فضرب به الأرض ثم قال: «هو مسجدكم هذا»[١] وفي رواية لأحمد عنه وعن سهل بن سعد «هو مسجدي هذا»[٢] ولفظ الآية لا يمنع من إرادة كل من المسجدين، لأن كلا منهما قد بناه النبي ﷺ ووضع أساسه على القوى من أول يوم شرع فيه ببنائه أو من أول يوم وجد في موضعه (والتحقيق أن «من» تدخل على الزمان والمكان).

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ هذه جملة وصف بها المسجد الذي أسس على التقوى تؤكد ترجيح القيام مع أهله المطهرين في مقابل أهل مسجد الضرار وهم رجس والمعنى: فيه رجال يعمرونه بالاعتكاف وإقامة الصلاة، وذكر الله وتسبيحه فيه بالغدوّ والآصال، يحبون أن يتطهروا بذلك من كل ما يعلق بأنفسهم من درن الآثام، أو التقصير في إقامة دعائم الإسلام، كما تطهر المتخلفون منهم عن غزوة تبوك بالتوبة والصدقات، ومن لوازم عمارته المعنوية والعكوف فيه طهارة الثوب والبدن الحسية، وطهارة الوضوء والغسل الحكمية، فالتطهر صيغة مبالغة تشمل الطهارتين النفسية والبدنية، ووردت الروايات بكل منهما، ولكل من الاستعمالين موضع من التنزيل، والجمع بينهما هو الأولى.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي المبالغين في الطهارة الروحية والجسدية، وإنما يبالغون فيها إذا أحبوها، وحينئذ تكمل إنسانيتهم المؤلفة من الروح والجسد. ولا يطيق نجاسة البدن وقذارته إلا ناقص الفطرة والأدب، وأنقص منه من يطيق خبث النفس بالإصرار على المعاصي والعادات القبيحة، والتخلق بالأخلاق الذميمة. دع رجس المنافقين المرائين في الأعمال، الأشحة الباخلين بالأموال. وأما حب الله المستحقين لحبه، فهو من صفات كماله، لأن العالم بتفاوت الأشياء في الحسن والقبح، والكمال والنقص، يكون من أفضل صفاته حب الجمال والكمال والحق والخير وبغض أضدادها وكراهتها وحبه اللائق بربوبيته منزه عن مشابهة حبنا، كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا، ولكن يظهر أثره في المحبوبين من عباده في أخلاقهم وأعمالهم، ومعارفهم وآدابهم، وأعلاه ما أشار إليه حديث البخاري القدسي «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»[٣] الخ.

---

(١) أخرجه مسلم في الحج حديث ٥١٤.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٩، باب ١٤، والنسائي في المساجد باب ٨، وأحمد في المسند ٣/ ٨، ٥/ ١١٦، ٣٣١، ٣٣٥.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨، وأحمد في المسند ٦/ ٢٥٦.

وقد قال الله تعالى معللاً ما وعظ به نساء نبيه ﷺ من أمره ونهيه لهن بما يليق بمكانتهن من رسوله ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقد فسر بعض المفسرين محبته تعالى للمطهرين برضاه عنهم وإحسانه إليهم، وهو تأويل فسر به اللفظ ببعض لوازمه، فإن كان هرباً من نظرية من قال من المتكلمين إن اتصاف الله تعالى بالحب محال، لأنه انفعال نفسي يستحيل على ذي الجلال، فيجب تفسيره بلازمه المذكور كما قال بعضهم في الرحمة وغيرها من الصفات ـ فهو هروب من مذهب السلف الحق، ووقوع فيما فروا منه بالتأويل، وهو تشبيه الله بخلقه. إذ يقال لهم إن الرضا عاطفة نفسية كالحب، والإحسان عمل بدني كبسط اليد بالبذل، وهما يسندان إلى الناس فلا يصح أن يوصف بهما الخالق عز وجل، لأنه تشبيه له بالخلق، كذا العلم والقدرة والمشيئة والكلام، وغيرهما من صفات الذات، فإن كلا منها وضعت في اللغات، لمعانيها المعروفة في المخلوقات، ككون العلم صور المعلومات المنتزعة منها في الذهن، وهو بهذا المعنى محال على الله عز وجل. وإذا كان الأمر كذلك فالحق أن يوصف تعالى بما وصف به نفسه على ظاهره بقيوده الثلاثة التي قررها السلف الصالح: أي بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل. فعلمه تعالى انكشاف يليق به، وحبه معنى نفسي يليق به الخ.

ذكر السيوطي في الدر المنثور عدة روايات حاصلها أن النبي ﷺ سأل أهل قباء عن سبب ثناء الله تعالى عليهم بهذه الآية فأجابوه بأنهم يستنجون بالماء وفي بعضها أنهم يتبعون الحجارة بالماء، وذكر أن ابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم وغيرهم رووا عن طلحة بن نافع قال حدثني أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك (رض) أن هذه الآية لما نزلت ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ قال رسول الله ﷺ «يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور فما طهوركم هذا؟» قالوا نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة. قال: «فهل مع ذلك غيره؟ قالوا إن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء قال: «هو ذاك فعليكموه»[1].

أقول طلحة بن نافع هذا ثقة روى عنه الجماعة كلهم ولكن رواية البخاري عنه مقرونة بغيره وهي أربعة أحاديث رواها عن جابر. ولعله اقتصر عليها، لقول شيخه علي بن المديني إنه لم يرو عن جابر غيرها، أي لم يصح عنده غيرها. وقال أبو حاتم أنه لم يسمع من أبي أيوب، ولكنه هنا صرح بالسماع منه فيما رواه من ذكر وغيرهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة باب ٢٨، وأحمد في المسند ٣/ ٤٢٢، ٦/ ٦.

وحديثه هذا على كل حال أقوى من أحاديث سؤال النبي ﷺ أهل مسجد قباء وجعله الثناء عليهم، وهو في سؤال الأنصار، والمسؤولون منهم كلهم من سكان المدينة، ويؤيده الأحاديث الصحيحة الناطقة بأن المسجد الذي أثنى الله عليه وعلى أهله هو مسجده فيها. وقد قلنا إنه لا مانع من إرادة كل منهما، وهو أولى من القول بتعارضهما، كما أن الروايات فيهما لا تنافي إرادة نوعي الطهارة كليهما، ويؤيد إرادة الطهارة المعنوية قوله تعالى:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ هذا بيان مستأنف للفرق بين أهل المسجدين في مقاصدهما منهما: أهل مسجد الضرار الذي زادوا به رجساً إلى رجسهم، وأهل مسجد التقوى وهم الرسول ﷺ وأنصاره الذين يحبون أكمل الطهارة لظاهرهم وباطنهم، فاستفادوا بذلك محبة الله لهم، وورد بصيغة استفهام التقرير، لما فيه من تنبيه الشعور وقوة التأثير، والبنيان مصدر كالعمران والغفران، ويراد به المبني من دار أو مسجد وهو المتعين هنا. وتقدم آنفاً معنى التأسيس والشفا (بالفتح والقصر) الحرف والشفير للجرف والنهر وغيره. والجرف (بضمتين) جانب الوادي ونحوه الذي يتحفر أصله بما يجرفه السيل منه فيجتاح أسفله فيصير مائلاً للسقوط والهار الضعيف المتصدع المتداعي للسقوط وهذا التعبير يضرب مثلاً لما كان في منتهى الضعف والإشراف على الزوال، وهو من أبلغ الأمثال، لمنتهى الوهي والانحلال.

المراد بالمثل هنا بيان ثبات الحق الذي هو دين الإسلام وقوته ودوامه، وسعادة أهله به، وذكره بأثره وثمرته في عمل أهله وجماعها التقوى، وبجزائهم عليه وأعلاه رضوان الله تعالى، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله، ووهيه وقرب زواله، وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع آماله، وشر أهله المنافقين، وشر أعمالهم ما اتخذوه من مسجد الضرار للمفاسد الأربعة المبينة في الآية الأولى من هذا السياق.

وقد ذكر في وصف بنيان الفريق الأول وهم المؤمنون المشبه دون المشبه به لأنه المقصود بالذات ولم يذكر فيما قبله من عملهم إلا المبالغة في الطهارة. وذكر من وصف بنيان الفريق الثاني الهيئة المشبه بها دون المشبه، لأنه ذكر فيما قبل مقاصدهم منها كلها، وهذا من دقائق إيجاز القرآن.

نقول في المعنى الجامع بين المشبه به في الفريقين: أفمن أسس بنيانه الذي يتخذه مأوى وموئلاً له، يقيه من فواعل الجو وعدوان كل حي، وموطناً لراحته، وهناء معيشته، على أمتن أساس وأثبته، وأقواه على مصابرة العواصف والسيول، وصد الهوام والوحوش ـ هو خير بنياناً ـ وراحة وأماناً؟ أم من أسس بنيانه على أوهى

القواعد وأقلها بقاء واستمساكاً، فهي عرضة للانهيار، في كل لحظة من ليل أو نهار؟

وأما معنى المشبه المقصود بالذات في كل منهما فيصور هكذا: أفمن كان مؤمناً صادقاً يتقي لله في جميع أحواله، ويبتغي رضوانه في أعماله، بتزكية نفسه بها ونفع عياله، (والخلق كلهم عيال الله كما ورد في الخبر عن رسوله ﷺ) ـ أفمن كان كذلك خير عملاً، وأفضل عاقبة وأملا، وممن نزل فيهم ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾ [الكهف: ١٠٧] أم من هو منافق مرتاب، مراء كذاب، يبتغي بأفضل مظاهر أعماله الضرر والضرار، وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار، وتفريق جماعة المؤمنين الأخيار، والإرصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله من الأشرار، وما يكون من عاقبة ذلك في الدنيا من الفضيحة والعار، والخزي والبوار، وفي الآخرة من الانهيار في نار جهنم وبئس القرار؟

وفي معنى هذا المثل ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾ [الرعد: ١٧] الآية وخلاصة المثلين أن الإيمان الصادق، وما يلزمه من العلم الصالح. هو المثمر الثابت، وإن النفاق وما يستلزمه من العمل الفاسد، هو الباطل الزاهق، وهذا المعنى يوافق قول علماء الكون أنه لا يتنازع شيئان في الوجود إلا ويكون الغالب هو الأصلح منهما. ويسمون هذه السنة (ناموس الانتخاب الطبيعي وبقاء الأمثل) وسبق بيانه في هذا التفسير.

صدق الله العظيم، فقد ثبت الله المؤمنين بالقول الثابت، وهداهم بإيمانهم إلى العمل الصالح، ففتحوا البلاد، وأقاموا الحق والعدل في العباد، وأهلك الله المنافقين لا يفقهون ولا يعتبرون، وشر النفاق وأضره نفاق العلماء، للملوك والأمراء.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مضت سنته في ارتباط العقائد والأخلاق بالأعمال، بأن الظالم لا يكون مهتدياً في أعماله إلى الحق والعدل، فضلاً عن الرحمة والفضل. ولا أظلم في الناس من المنافقين ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [آل عمران: ٨٦].

﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ الريبة اسم من الريب وهو ما تضطرب فيه النفس، ويتردد الوهم ويسوء الظن، فيكون صاحبه منه في شك وحيرة إن لم يكن مثاره الشك. قال قوم صالح عليه السلام له، منكرين دعوته إياهم إلى عبادة الله وحده ﴿وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾ [هود: ٦٢] ولهذا الاستعمال أمثال في التنزيل، وهو صريح في أن الشك مثار للريب وموقع فيه لا أنه عينه، وقد يفسر به باعتبار لزومه له وإيقاعه فيه. قال الشاعر:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت وقد رابني منها الغداة سفورُها[١]

والظاهر أن ارتيابهم فيه كان منذ بنوه إلى أن أمر رسول الله ﷺ بهدمه فهدم، وذلك أنهم لسوء نيتهم في بنائه كانوا يخافون أن يطلع الله رسوله على مقاصدهم السوءى فيه، وكان ذلك شأن سائر إخوانهم كما تقدم في قوله تعالى: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ [التوبة: ٦٤] وذكرنا في تفسيرها قوله تعالى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ [المنافقون: ٤] (ج ١٠) وأجدر بهم أن يكونوا بعد هدمه أشد ارتياباً، وأكثر اضطراباً، بما يحذرون من عقابهم في الدنيا كما أنذرتهم هذه السورة مراراً، وأن يستمر ذلك ملازماً لهم.

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۚ﴾ قرأ ابن عامر وحفص عن نافع وحمزة (تقطع) بفتح التاء وتشديد الطاء من التقطع، وقرأ الباقون بضم التاء من التقطيع، أي إلا أن تقطع الريبة قلوبهم أفلاذاً، فتتقطع بها وتكون جذاذاً، وقرأ يعقوب (إلى) بدل (إلا) وفسر ذلك بالموت والهلاك، وبالحسرة والندم المقتضي للتوبة، وقال الزمخشري وتبعه معتادو الأخذ عنه: لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم، لا يزول وسمه عن قلوبهم، ولا يضمحل أثره (إلا أن تقطع قلوبهم) قطعاً، وتَفرّق أجزاء، فحينئذ يسلون عنه، وأما ما دامت سالمة مجتمعة، فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة عنهم، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم، أو في القبور أو في النار. وقيل معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم اهـ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فحكم في أمرهم وبين من حالهم ما اقتضته الحكمة والعلم المحيط بكل شيء.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

هاتان الآيتان في بيان حال المؤمنين حق الإيمان، البالغين فيه ما هو غاية له من الكمال، وضعتا بعد بيان حال المنافقين، وأصناف المؤمنين المقصرين، ومنهما تعرف جميع درجات المسلمين، ولا سيما المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ هذا تمثيل لإثابة

---

(١) البيت من الطويل، وهو لتوبة بن الحمير في ديوانه ص٣٠، ولسان العرب (برقع)، وتاج العروس (برقع) وتهذيب اللغة ٣/ ٢٩٤، والأغاني ١١/ ٢١١، وبلا نسبة في كتاب العين ٢/ ٢٩٨.

الله المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله بتمليكهم الجنة دار النعيم الأبدي، والرضوان السرمدي، تفضل جل جلاله وعم نواله بجعلها من قبيل من باع شيئاً هو له لآخر، لطفاً منه تعالى وكرماً وتكريماً لعباده المؤمنين بجعلهم كالمتعاقدين معه كما يتعاقد البيعان على المنافع المتبادلة وهو عز وجل المالك لأنفسهم إذ هو الذي خلقها، والمالك لأموالهم إذ هو الذي رزقها، وهو غني عن أنفسهم وأموالهم، وإنما المبيع والثمن له وقد جعلهما بكرمه لهم.

وقوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ بيان لصفة تسليم المبيع وهو أنهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل الموصلة إلى مرضاته تعالى فيبذلون أنفسهم وأموالهم فيكونون إما قاتلين لأعدائه الصادين عن سبيله، وإما مقتولين شهداء في هذه السبيل ـ قرأ الجمهور بتقديم (يقتلون) المبني للفاعل، وحمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول، فدلت القراءتان على أن الواقع هو أن يقتل بعضهم ويسلم بعض، وأنه لا فرق بين القاتل والمقتول في الفضل، والمثوبة عند الله عز وجل، إذ كل منهما في سبيله لا حباً في سفك الدماء، ولا رغبة في اغتنام الأموال، ولا توسلاً إلى ظلم العباد، كما يفعل عباد الدنيا من الملوك ورؤساء الأجناد.

﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ أي وعدهم بذلك وعداً أوجبه لهم على نفسه، وجعله حقاً عليه أثبته في الكتب الثلاثة المنزلة على أشهر رسله، ولا تتوقف صحة هذا الوعد على وجوده في التوراة والإنجيل اللذين في أيدي أهل الكتاب بنصه لما أثبتناه من ضياع كثير منهما، وتحريف بعض ما بقي لفظاً ومعنى، بل يكفى إثبات القرآن لذلك وهو مهيمن عليها. (راجع ج ١٠).

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾؟ أي لا حد أوفى بعهده وأصدق في إنجاز وعده من الله عز وجل، إذ لا يمنعه من ذلك عجز من الوفاء، ولا يمكن أن تعرض له فيه التردد أو البداء[1]، ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ الاستبشار الشعور بفرح البشرى أو استشعارها، الذي تنبسط به بشرة الوجه فيتألق نورها، والجملة تقرير لتمام صفقة البيع من الجانبين ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا يتعاظمه فوز، دون ما يتقدمه من النصر والسيادة والملك، الذي لا يعد فوزاً إلا بجعله وسيلة لإقامة الحق والعدل.
أعلى الله تعالى مقام المؤمنين المجاهدين في سبيله فجعلهم بفضله مالكين معه، ومبايعين له، ومستحقين للثمن الذي بايعهم به، وأكد لهم أمر الوفاء به وإنجازه، ويروى عن جدنا الإمام جعفر الصادق عليه السلام في معنى الآية.

---

(١) البَداء، بالفتح: أن يبدو لك في الأمر ما لم يكن في علمك ولا حسابك فترجع عما كنت تريد إمضاءه فيه.

أثامن بالنفس النفيسة ربها فليس لها في الخلق كلهم ثمنُ
بها أشتري الجنات، إن أنا بعتها بشيء سواها إن ذلكم غبن
إذا ذهبت نفسي بدنيا أصبتها فقد ذهبت مني وقد ذهب الثمن

ويروى عنه أنه قال: ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها. ومعناه أن الذي يقتل أو يموت في سبيل الله كان باذلاً لبدنه الفاني لا لروحه الباقية، وليس معناه أن يبيع لربه جسده دون نفسه الناطقة كما توهم بعض المتفلسفين.

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو في المسجد فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال يا رسول الله أنزلت فينا هذه الآية؟ قال «نعم» فقال الأنصاري بيع ربيح، لا نقيل ولا نستقيل ـ يعني البيع ـ.

وأخرج ابن جرير أن عبد الله بن رواحة قال لرسول الله ﷺ اشترط لنفسك ولربك فقال: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنة» قال: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت الآية. وظاهر هذا أنها نزلت في مبايعة الأنصار للنبي ﷺ وتفصيله فيما يلي وإن لم يصرح بأنه سبب النزول.

وأخرج ابن سعد عن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت أن أسعد بن زرارة أخذ بيد رسول الله ﷺ ليلة العقبة فقال: يا أيها الناس هل تدرون علام تبايعون محمداً؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس كافة. فقالوا نحن حرب لمن حارب، وسلم لمن سالم. فقال أسعد بن زرارة يا رسول الله اشترط علي فقال: «تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة، والسمع والطاعة، ولا تنازعوا الأمر أهله وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم» قالوا نعم، قال قائل الأنصار: نعم هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ قال: «الجنة والنصر».

وأخرج ابن سعد عن الشعبي قال: انطلق النبي ﷺ بالعباس بن عبد المطلب وكان ذا رأي إلى السبعين من الأنصار عند العقبة فقال العباس ليتكلم متكلمكم ولا يطيل الخطبة فإن عليكم للمشركين عيناً، وإن يعلموا بكم يفضحوكم. فقال قائلهم: وهو أبو أمامة أسعد ـ يا محمد سل لربك ما شئت ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك، فقال: «أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم» قال فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال «الجنة» فكان

الشعبي إذا حدث هذا الحديث قال ما سمع الشيب والشباب بخطبة أقصر ولا أبلغ منها.

ومعنى نزولها في مبايعة الأنصار أنها تدخل في عموم الآية دخولاً أولياً لا أنها خاصة بها. وقد روى ابن مردويه من حديث أبي هريرة مرفوعاً «من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله» وروى ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال: ما على ظهر الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة. وفي لفظ: اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ ولكن العجب ممن يدعون الإيمان وهم ينكثون بيعة الله عز وجل فهم لا يبذلون أنفسهم ولا شيئاً من أموالهم في سبيل الله، وإنما يطلبون الجنة بغير ثمنها كما يطلبون سعادة الدنيا وسيادتها من غير طريقها، ولا طريق لها إلا الجهاد بالمال والنفس. والقرآن حجة عليهم وهو حجة الله البالغة التي لا يد حضها شيء وهي تدحض كل شيء.

ثم وصف الله تعالى هؤلاء المؤمنين البائعين أنفسهم وأموالهم لله تعالى بجنته ودار كرامته، فقال: ﴿التَّٰئِبُونَ﴾ أي التائبون الكاملون في توبتهم وهي الرجوع إلى الله تعالى عن كل ما يبعد عن مرضاته، وتختلف باختلاف أحوال أهلها، فتوبة الكفار الذين يدخلون في الإسلام هي الرجوع عن الكفر الذي كانوا عليه من شرك وغيره كما تقدم في قوله تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ [التوبة: ١١] وتوبة المنافق من النفاق وتقدم ذكرها في هذه السورة أيضاً، وتوبة العاصي من المعصية، ومنه توبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين، وتقدم قريباً ذكر من تاب منهم ومن أرجىء أمره، ـ وتوبة المقصر في شيء من البر وعمل الخير إنما تكون في التشمير فيه والاستزداة منه ـ وتوبة من يغفل عن ربه، إنما تكون في الإكثار من ذكره وشكره، وسيأتي ذكر توبة الله تعالى على الجميع في الآيتين (١١٧ و١١٨).

﴿الْعَٰبِدُونَ﴾ لله ربهم وحده مخلصين له الدين في جميع عباداتهم في عامة أوقاتهم، لا يتوجهون إلى غيره بدعاء ولا استعانة، ولا يتقربون إلى سواه بعمل مما يقصد به القربة ومثوبة الآخرة.

﴿الْحَٰمِدُونَ﴾ لله ربهم في السراء والضراء بالثناء عليه بلفظ الحمد وغيره من الذكر المشروع الدال على الرضا منه تعالى: ومهما يصب الإنسان من مصائب الدنيا فإنه يبقى له من النعم فيها وفي الدين بل يبقى له من اللطف الإلهي في نفس المصائب ما يجب عليه أن يحمد الله ويشكره عليه (وتقدم بيان الحمد والعبادة في تفسير سورة الفاتحة وغيرها).

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ في الأرض يجوبون الأقطار لغرض صحيح من علم أو عمل كالجهاد في سبيل الله، وروي عن عطاء، أو للهجرة حيث تشرع الهجرة وروي عن عبد الرحمن بن زيد، قال السائحون هم المهاجرون ليس في أمة محمد سياحة إلا الهجرة. أو لطلب العلم النافع للسائح في دينه أو دنياه أو النافع لقومه وأمته وروي عن عكرمة وخصه بعضهم بطلب الحديث (لأنهم كانوا يسافرون من مصر إلى أخرى للرواية) أو للنظر في خلق الله وأحوال الشعوب والأمم للاعتبار والاستبصار ومعرفة سنن الله تعالى وحكمه وآياته، وهذا ما تدل عليه الآيات المتعددة في الحث على السير في الأرض كما بيناه في الأصلين (١٣ و١٤) من الأصول العلمية التي استنبطناها من سورة الأنعام (ج ٨).

وروي عن عبد الله بن مسعود أن المراد بالسائحين الصائمون وقاله في تفسير (سائحات) من سورة التحريم، وتعلق به مصنفو التفاسير لاستبعادهم مدح الله تعالى النساء بالسياحة في الأرض، وإنما يحظر في الإسلام سفر المرأة منفردة دون زوجها أو أحد محارمها، وأما إذا كانت تسيح مع الزوج والمحرم حيث يسيح لغرض صحيح من علم نافع أو عمل صالح أو طلب الصحة أو الرزق فلا إشكال في مدحها بالسياحة. بل ينبغي اشتراك الرجال والنساء في جميع أعمال الحياة النافعة.

وأزيد على ذلك السياحة والسفر لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها. وإذا صح أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يصحبون نساءهم في غزواتهم عند الإمكان، وهن غير مكلفات بالقتال، بل يساعدن عليه بتهيئة الطعام والشراب، وتضميد الجراح وغير ذلك كما تقدم في تفسير الآية ٧١ ـ ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ (ج ١٠) فلأن يصحبنهم في سائر الأسفار أولى، وفي سفر المرأة مع زوجها إحصان له ولها، فهو مانع للمسلم من التطلع في السفر إلى غيرها.

وعلل سفيان بن عيينة تفسير السائحين بالصائمين بأن الصائم يترك اللذات كلها كالسائح للتعبد، ومثله أو منه قول الأزهري: يسمى الصائم سائحاً لأن الذي يسيح في الأرض متعبداً لا يحمل زاداً فكان ممسكاً عن الأكل. ولهذا التعليل خص بعضهم إطلاق وصف السائحين على الصائمين بالذين يديمون الصيام، وأخذ بعضهم بظاهر اللفظ، فقال يكفي في صحة الوصف صيام الفرض، وكل ذلك ضعيف.

والصوفية يخصون السائحين الممدوحين بالذين يهيمون في الأرض لتربية إرادتهم، وتهذيب أنفسهم باحتمال المشاق، والبعد عن مظان السمعة والرياء، لجمع القلب على الرب عز وجل بالإخلاص في عبادته، والتكمل في منازل معرفته، كالسياحين من الأمم قبلهم، وقد كان إطلاق السياحة بهذا المعنى ذائعاً من قبل

الإسلام حتى قال صاحب القاموس: السياحة الذهاب في الأرض للعبادة ومنه سمي المسيح الخ واعترضوه فيه فإنما هو عرف ليس من أصل اللغة، وتقدم معنى السياحة اللغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾ وهو أول آية من هذه السورة (ج ١٠).

وقد حدث للمتصوفة بدع في السياحة كقصد مشاهد القبور المنسوبة إلى الأنبياء والصالحين للتبرك بها، والاستمداد من أرواح من دفنوا فيها، وكثير منهم يكون له هوى في التنقل من بلد إلى آخر فيظل هائماً في الأسفار، وينقطع بذلك عن الأعمال التي تنفع الناس وعن الزواج، ويرتكب بعضهم فيها كثيراً من المنكرات، ويكون لهم طمع في استجداء الناس، والسؤال حرام إلا لضرورة، والفقهاء ينكرون عليهم سياحتهم هذه.

قال ابن الجوزي: السياحة في الأرض لا لمقصود ولا إلى مكان معروف منهي عنها. وقد روينا أن النبي ﷺ قال: «لا رهبانية في الإسلام ولا تبتل ولا سياحة في الإسلام» وقال الإمام أحمد ما السياحة من الإسلام في شيء ولا من فعل النبيين والصالحين، لأن السفر يشتت القلب فلا ينبغي للمريد أن يسافر إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به اهـ.

وأقول روى ابن جرير من حديث أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً حديث «السائحون هم الصائمون» ولا يصح رفعه وروي عن عائشة وابن عباس ومجاهد وغيرهم من أقوالهم، ومن مرسل عمرو بن دينار عن عبيد بن عميره وروى أبو داود من طريق القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة أن رجلاً قال يا رسول الله ائذن لي بالسياحة؟ قال النبي ﷺ «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عز وجل»[1] قال الحافظ المنذري: القاسم هذا تكلم فيه غير واحد. اهـ أقول منهم الإمام أحمد كان يقول فيما يروى عنه من المناكير. إنها من قبله، ويقول بعضهم إنها ممن روى عنه من الضعفاء، لا منه، وقال ابن حبان: كان يروي عن الصحابة المعضلات.

وللإمام الغزالي في كتاب السفر من الإحياء كلام نفيس في فوائد السياحة والاعتبار بآيات الله تعالى فيها لا يوجد في غيره مثله.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ لله تعالى في صلواتهم. والصلاة تذكر تارة بلفظها وتارة ببعض أركانها كالقيام والركوع والسجود. وهذا الوصف يفيد التذكير بهذه الهيئة وتمثيلها للقارىء والسامع.

﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تقدم معنى هذا الأمر والنهي ومكانته

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٦.

من صفات المؤمنين في تفسير الآية ﴿٧١﴾ من هذه السورة (ج ١٠) وهذه الصفة وما بعدها من الصفات المتعلقة بجماعة المؤمنين فيما يجب على بعضهم لبعض وكل ما قبلهما من صفات الأفراد.

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾ أي شرائعه وأحكامه التي حدد فيها ما يجب وما يحظر على المؤمنين من العمل بها وما يجب على أئمة المسلمين وأولي الأمر وأهل الحل والعقد منهم إقامتها وتنفيذها بالعمل في أفراد المسلمين وجماعتهم إذا أخلوا بما يجب عليهم من الحفظ لها ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي وبشر أيها الرسول المؤمنين الموصوفين بهذه البضع الصفات. ولم يذكر ما يبشرهم به لتعظيم شأنه وشموله لخير الدنيا وسعادة الآخرة.

ومن مباحث اللغة أن المعدودات تسرد بغير عطف وإنما عطف النهي عن المنكر على الأمر بالمعروف للإيذان بأنهما فريضة واحدة لتلازمهما في الغالب. وأما عطف «الحافظون لحدود الله» على جملة ما تقدم فقيل لأن التعداد قد تم بالوصف السابع من حيث إن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء عدد آخر معطوف عليه وإن هذه الواو تسمى واو الثمانية. وأنكر هذه الواو النحاة المحققون، وقيل لأنه إجمال لما تقدم من التفصيل قبله، فلا يصح أن يجعل فرداً من أفراده فيسرد معه وأقوى منه عندي أنه وصف جامع للتكاليف عامة، والمنهيات خاصة، والسبعة المسرودة قبله من المأمورات، ولا يحصل الكمال للمؤمن بها إلا مع اجتناب المنهيات، وهو أول ما يلاحظ في حفظ حدود الله قال تعالى: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ [البقرة: ١٨٧] ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ [البقرة: ٢٢٩] ﴿وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ [الطلاق: ١] وعلى هذا يكون معنى نظم الآية أن المؤمنين الكاملين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى هم المتصفون بالصفات السبع، والحافظون مع ذلك لجميع حدود الله في كل أمر ونهي، ويعبر عن هذا في عرف هذا العصر بقولهم: «المثل الأعلى» ويطلقونه على الأفراد النابغين في بعض الفضائل العامة، وعلى الجماعات والأمم الراقية، ويكفي أن يقال فيه «المثل» في كذا. كما قال تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً﴾ [الزخرف: ٥٧] وقال: ﴿وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ [الإسراء: ٢] أو يقال: مثل عال، أو مثل شريف. وأما الأعلى فهو الله عز وجل كما قال عن نفسه ﴿ولله المثل الأعلى﴾ [النحل: ٦٠] وقال: ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ [الروم: ٢٧].

وجملة القول فيهم أنهم الحافظون لجميع حدود الله تعالى. وخصت تلك الخلال السبع بالذكر لأنها هي التي تمثل في نفس القارىء أكمل ما يكون المؤمن به محافظاً على حدود الله تعالى.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

تقدم في الآية الثمانين من هذه السورة أن الله تعالى لا يغفر للمنافقين لأنهم كفروا بالله ورسوله الخ، فاستغفار الرسول لهم وعدمه سيان. وتقدم في سورة النساء ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦] وقد شرع الله للمؤمنين في أوائل سورة الممتحنة التأسي بإبراهيم ﷺ والذين آمنوا معه في البراءة من قومهم المشركين ومن معبوداتهم واستثنى من هذه الأسوة استغفار إبراهيم ﷺ لأبيه فقال: ﴿إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾ [الممتحنة: ٤] وقد بين هنا حكم الاستغفار لمن ذكر وقفى عليه بقاعدة التشريع العامة التي يبنى عليها الجزاء فقال عز وجل:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا نفي بمعنى النهي، فهو أبلغ من النهي المجرد، وهذا التعبير فيه يسمى نفي الشأن، وهو أبلغ من نفي الشيء نفسه، لأنه نفي معلل بالسبب المقتضي له. والمعنى: ما كان من شأن النبي ولا مما يصح أن يصدر عنه من حيث هو نبي ـ ولا من شأن المؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم من حيث هم مؤمنون ـ أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين ﴿وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ لهم في الأصل حق البر وصلة الرحم وكانت عاطفة القرابة تقتضي الغيرة عليهم وحب المغفرة لهم «ولو» هذه تفيد الغاية المعطوف عليه يحذف حذفاً مطرداً للعلم به، والمراد أنه ليس مما تبيحه النبوة ولا الإيمان ولا مما يصح وقعه من أهلهما: الاستغفار للمشركين في حال من الأحوال، حتى لو كانوا أولي قربى، فإن لم يكونوا كذلك فعدم جوازه أولى.

ثم قيد الحكم بقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالدليل أنهم من أهل النار الخالدين فيها بأن ماتوا على شركهم وكفرهم ولو بحسب الظاهر كاستصحاب حالة الكفر إلى الموت، أو نزل وحي يسجل عليهم ذلك كإخباره تعالى عن أناس من الجاحدين المعاندين من أصحاب النار خالدين فيها، أو أنهم طبع قلوبهم وختم عليها. وقوله لرسوله ﷺ ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة: ٦] ومثله في المنافقين ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم﴾ [المنافقون: ٦] الخ.

وقد ورد في الصحيحين وغيرهما أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، إذ دعاه ﷺ عند ما حضره الموت إلى قول (لا إله إلا الله) فامتنع وأبو طالب مات بمكة قبل الهجرة، فهل نزلت الآية عقب موته ثم ألحقت بهذه السورة المدنية لمناسبتها لأحكامها، أم نزلت مع غيرها من براءة مبينة لحكم استغفار الرسول ﷺ له؟ وروي من طرق أنها نزلت حين زار ﷺ قبر أمه واستغفر لها والله أعلم والآية نص في تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة وكذا وصفه بذلك كقولهم المغفور له المرحوم فلان، كما يفعله بعض المسلمين الجغرافيين الآن، لعدم تحققهم بمقتضى الإيمان، وتقيدهم بأحكام الإسلام، ومنهم بعض المعممين والحاملين لدرجة العالمية من الأزهر.

أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وغيرهم من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال «أي عم! قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾(١) [القصص: ٥٦].

هذا لفظ البخاري في تفسير الآية الأخيرة من سورة القصص وأخرجه في تفسير آية براءة وفي الجنائز أيضاً.

قال الحافظ في شرحه للحديث: ووقع في رواية مجاهد قال: يا ابن أخي ملة الأشياخ. ووقع في حديث أبي حازم عند مسلم والترمذي والطبري قال: لولا أن تعيرني بها قريش يقولون ما حمله على ذلك إلا جزع الموت لأقررت بها عينك. ثم قال الحافظ وروى الطبري من طريق شبل عن عمرو بن دينار قال قال النبي ﷺ «استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فلا أزال أستغفر لأبي طالب حتى ينهاني عنه ربي» فقال أصحابه لنستغفرن لآبائنا كما استغفر نبينا لعمه، فنزلت.

قال: وهذا فيه إشكال لأن وفاة أبي طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقاً، وقد ثبت أن النبي ﷺ أتى قبر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت هذه الآية ـ

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٨١، ومناقب الأنصار باب ٤٠، وتفسير سورة ٩، باب ١٦، وسورة ٢٨، باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٣٩، والنسائي في الجنائز باب ١٠٢، وأحمد في المسند ٥/ ٤٣٣.

والأصل عدم تكرار النزول وقد أخرج الحاكم وابن أبي حاتم من طريق أيوب بن هانىء عن مسروق عن ابن مسعود قال خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه فقال: «إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي فأنزل علي ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾».

وأخرج أحمد من حديث ابن بريدة عن أبيه نحوه، ومنه نزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب ولم يذكر نزول الآية، وفي رواية الطبري من هذا الوجه لما قدم مكة أتى رسم قبر ومن طريق فضيل بن مرزوق عن عطية لما قدم مكة وقف على قبر أمه حتى سخنت عليه الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها، فنزلت. وللطبراني من طريق عبد الله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس نحو حديث ابن مسعود وفيه: لما هبط من ثنية عسفان. وفيه نزول الآية في ذلك ـ فهذه طرق يعضد بعضها بعضاً وفيها دلالة على تأخير نزول الآية عن وفاة أبي طالب. ويؤيده أيضاً أنه ﷺ قال يوم أحد بعد أن شج وجهه «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1].

لكن يحتمل في هذا أن يكون الاستغفار خاصاً بالأحياء وليس البحث فيه ـ ويحتمل أن يكون نزول الآية تأخر وإن كان سببها تقدم ويكون لنزولها سببان متقدم وهو أمر أبي طالب ومتأخر وهو أمر آمنة، ويؤيد تأخير النزول ما تقدم في تفسير براءة من استغفاره ﷺ للمنافقين حتى نزل النهي عن ذلك، فإن ذلك يقتضي تأخير النزول وإن تقدم السبب، ويشير إلى ذلك أيضاً قوله في حديث الباب «وأنزل الله في أبي طالب ﴿أنك لا تهدي من أحببت﴾» لأنه يشعر بأن الآية الأولى نزلت في أبي طالب وفي غيره، والثانية نزلت فيه وحده، ويؤيد تعدد السبب ما أخرج أحمد من طريق أبي إسحاق عن أبي الخليل عن علي قال سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله (ما كان للنبي) الآية وروى الطبري من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد قال قال المؤمنون ألا نستغفر لآبائنا كما استغفر إبراهيم لأبيه؟ فنزلت. ومن طريق قتادة قال ذكرنا له أن رجالاً فذكر نحوه.

وفي الحديث إن من لم يعمل خيراً قط إذا ختم عمره بشهادة أن لا إله إلا الله حكم بإسلامه، وأجريت عليه أحكام المسلمين، فإن قارن نطق لسانه عقد قلبه نفعه ذلك عند الله تعالى بشرط أن لا يكون وصل إلى حد انقطاع الأمل من الحياة وعجز عن فهم الخطاب، ورد الجواب، وهو وقت المعاينة، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٥٤، والمرتدين باب ٥، ومسلم في الجهاد حديث ١٠٤، وابن ماجه في الفتن باب ٢٣، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٠، ٤٢٧، ٤٣٢، ٤٤١، ٤٥٣، ٤٥٦، ٤٥٧.

﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ [النساء: ١٨] والله أعلم اهـ كلام الحافظ وقد تعددت الروايات في استغفار بعض الصحابة لآبائهم وأولي قرباهم من المشركين تأسياً به ﷺ حين استغفر لعمه حتى نزل النهي فكفوا.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ مما يدخل في عموم تأسيكم به على إطلاقه، فإنه ما كان وما وقع لسبب ولا علة ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ في حياته إذ كان يرجوا إيمانه فقال له: ﴿لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾ [الممتحنة: ٤] أي لا أملك لك هداية ولا نجاة وإنما أملك دعاء الله تعالى. وقد وفى بوعده وما كان إلا وفياً كما شهد له تعالى بقوله: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ [النجم: ٣٧] فكان من دعائه ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٦ ـ ٨٩] أي من الشرك والكفر والشك المقتضي للنفاق، فمن استغفر لحي يرجو إيمانه بقصد سؤال الله أن يهديه لما يكون به أهلاً للمغفرة فلا بأس.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ قال ابن عباس: لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه. وفي رواية عنه: فلما تبين له أنه عدو لله يقول لما مات على كفره. وقال قتادة تبين له حين مات وعلم أن التوبة انقطعت عنه. وقيل إنه تبين له ذلك بوحي من الله تعالى، فحينئذ تبرأ منه ومن قرابته، وترك الاستغفار له كما هو مقتضى الإيمان ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

ورد أن إبراهيم يعد من الخزي له يوم القيامة أن يكون أبوه في النار كما رواه البخاري من حديث رؤيته في النار وأنه يقول «يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأيّ خزي أخزى من أبي الأبعد» فيمسخ الله أباه ذيخاً ـ وهو ذكر الضباع الكثير الشعر ـ حتى لا يخزى إبراهيم ابنه برؤيته في النار على صورته المعروفة له ولقومه. وقد تقدم لفظ الحديث في قصة إبراهيم مع أبيه من تفسير سورة الأنعام (ج ٧).

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ هذه الجملة المؤكدة بوصف إبراهيم ﷺ بالمبالغة في خشية الله والخشوع له، وبالحلم والثبات في أموره كلها، تعليل لامتناعه عن الاستغفار لأبيه بعد العلم برسوخه في الشرك وعداوة الله عزّ وجلّ. الأواه الكثير التأوه والتحسر وإنما يتأوه إبراهيم من خشية الله ويتحسر على المشركين من قومه ولا سيما أبيه، ويطلق الأواه على الخاشع الكثير الدعاء والتضرع لله ـ وأصل التأوه قول «أوْهْ» أوآه (بالكسر منوناً

وغير منون) أو واه، أو أوه، وفي حديث مرفوع في التفسير المأثور «الأواه الخاشع المتضرع» وعن ابن عباس فيه روايات منها أنه المؤمن أو الموقن بلسان الحبشة[١]، والحليم الذي لا يستفزه الغضب ولا يعبث به الطيش، لا يستخفه الجهل أو هوى النفس، ومن لوازمه الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور واتقاء العجلة في كل من الرغب والرهب وذهب الزمخشري إلى أن الجملة تعليل لما كان من استغفاره لأبيه، قال بعد تفسير الأواه بالذي يكثر التأوه: ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله (لأرجمنك) اهـ.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ أي وما كان من شأن الله تعالى في حلمه ورحمته، ولا من سننه في خلقه التي هي مظهر عدله وحكمته، أن يصف قوماً بالضلال، ويجري عليهم أحكامه بالذم والعقاب، بعد إذ هداهم إلى الإيمان، وشرح صدورهم بالإسلام، بمجرد قول أو عمل صدر عنهم بخطأ الاجتهاد ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ من الأقوال والأفعال، بياناً جلياً واضحاً لا شبهة فيه ولا إشكال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو يشرع لهم من الأحكام ما تكمل به فطرتهم، ويستقيم به رأيهم وفهمهم، فبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهادهم بأهواء نفوسهم، ويترك لهم مجالاً للاجتهاد فيما دون ذلك من مصالحهم، فهو لهذا لم يؤاخذ إبراهيم في استغفاره لأبيه قبل أن يتبين له حاله، وكذلك لا يؤاخذ النبي والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم وأولي القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله في ذلك، وإن كان من شأنه أن يعلم أنه من لوازم الإيمان، قال مجاهد في تفسير الجملة: بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيان طاعته ومعصيته عامة، ما فعلوا أو تركوا اهـ.

يعني أن الآية عامة وإن نزلت في مسألة استغفارهم للمشركين. وعن ابن عباس أنها نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى قال: لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم. ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بذنب أذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون، قال حتى ينهاهم قبل ذلك اهـ.

وأقول: الآية متأخرة النزول عن غزوة بدر ولكنها شاملة لحكمها فقد تقدم أن أخذ الفداء من الأسرى هو في معنى الاستغفار للمشركين هنا من حيث إنه خلاف ما يقتضيه شأن النبوة والإيمان لقوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ [الأنفال: ٦٧] فهذا نفي للشأن كنفي الاستغفار هنا ثم قال تعالى هنالك بعد عتابهم الشديد ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب أليم﴾

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، في الترجمة، بلفظ: «الأوّاه الرحيم بالحبشة».

[الأنفال: ٦٨] فابن عباس يفسر هذا الكتاب بحكمه تعالى في هذه الآية بأنه لا يحكم بضلال قوم في شيء فيعاقبهم عليه إلا بعد أن يبين لهم ما يتقون بياناً واضحاً تاماً لا مجال معه للاجتهاد الذي يكون عذراً في المخالفة، سواء كانت هذه الآية نزلت وقتئذ أم لا ـ فهذا حكم الله تعالى.

أخرج ابن المنذر أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان يخطب أصحابه كل عشية خميس ثم يقول: فمن استطاع منكم أن يغدو عالماً أو متعلماً فليفعل ولا يغدو لسوى ذلك، فإن العالم والمتعلم شريكان في الخير. أيها الناس: إني والله ما أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم وقد قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ فقد بين لكم ما تتقون.

ويؤخذ من هذا كله قاعدة أن أحكام الإسلام العامة التي عليها مدار الجزاء في الآخرة، ويكلف العمل به كل من بلغه إن كان من الأحكام الشخصية وتؤخذ بها الأمة كلها وينفذه أئمتها وأمراؤها فيها هو ما كان قطعي الدلالة ببيان الله تعالى ورسوله لا حجة معه لأحد في تركه. وأن ما عداها منوط بالاجتهاد، فمن ظهر له من نص ظني الدلالة حكم واعتقد أنه مراد الله من الآية وجب عليه اتباعه، ومن لا فلا كما وقع عند نزول آية البقرة في الخمر والميسر إذ فهم بعض الصحابة من قوله تعالى: ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ [البقرة: ٢١٩] تحريمهما فترك، وبقي من لم يفهم هذا يشرب الخمر حتى بين الله تحريمها مع الميسر بياناً قطعياً بآيات المائدة. وأصل مذهب الحنفية أن الفرائض والتحريم الديني لا يثبتان إلا بالنص القطعي أو بنص القرآن القطعي بل هذا ما كان عليه علماء السلف. وتقدم تحقيق المسألة (في ج ١٠ تفسير) والآية تدل على بطلان قول بعض المبتدعة بالمؤاخذة على ما يجب بحكم العقل كالصدق والأمانة صرح به مفسرهم الزمخشري واستثناه من حكم الآية بأنه غير موقوف على التوقيف نعم إن حسنه يعلم بالعقل، ولكن التكليف الذي يبنى عليه جزاء الآخرة لا يصح إلا بالشرع، كما تدل عليه الآية وغيرها، وقد أمر الله بالصدق والأمانة وأوجبهما وحرم الكذب والخيانة. كما بين كل ما أراد جعله ديناً للناس. وقد أخبرنا رسوله ﷺ أن ما سكت عنه فلم يبينه لنا فهو عفو منه تعالى غير نسيان، فليس لنا أن نسأل عنه ولا أن نضع له أحكاماً بآراء عقولنا. وقد بسطنا هذه المسألة في تفسير ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا﴾ [المائدة: ١٠٤] الخ (راجع ج ٧) مع الفصل الملحق به الخ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا شريك له في خلقهما ولا في تدبير شؤونهما ولا في التشريع الديني للمكلفين فيهما ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي يهب الحياة الحيوانية والحياة المعنوية الروحية بمحض قدرته ومشيئته ومقتضى سننه في التكوين والهداية الفعلية ويميت ما شاء من الأبدان بانقضاء آجالها المقدرة في علمه، ومن الأنفس بنكوبها عن

صراط هدايته ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي وليس لكم أيها المؤمنون أحد غير الله يتولى أمركم، ولا نصير ينصركم على عدوكم، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولي القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة من عصباتكم في الأنساب ولا في غير ذلك من أوامره ونواهيه.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا
كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ
ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ
ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

هذه الآيات تتمة ما تقدم من موضوع توبة المتخلفين عن غزوة تبوك، أخرت على سنة القرآن في تفريق الآيات في الموضوع الواحد لأنه أدنى أن لا يسأم التالي لها في الصلاة وغيرها، وأقوى في تجديد الذكرى والتأثير في النفس كما بيناه مراراً، وهو مناسب لما قبله من النهي عن الاستغفار للمشركين وهو مما يتاب منه.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ هذا خبر مؤكد بلام القسم على حرف التحقيق بين به تعالى فضل عطفه على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار وتجاوزه عن هفواتهم في هذه الغزوة وفي غيرها، لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء منها، وإنما كانت هفواتهم هذه مقتضى الطباع البشرية واجتهاد الرأي فيما لم يبينه الله تعالى لهم بياناً قطعياً يعد مخالفه عاصياً، وقد بينا في تفسير الآية (١٠٤) أن للتوبة درجات تختلف باختلاف طبقات التوابين الرجاعين إلى الله من كل إعراض عنه. وتوبته تعالى على عباده لها معنيان عطفه عليهم وهذا أعلاهما ـ وتوفيقهم للتوبة وقبولها منهم، وإنما يتوبون من ذنب، وما كل ذنب معصية لله عزَّ وجلَّ، وقد فسر ابن عباس التوبة على النبي ﷺ هنا بقوله تعالى في سياق هذه الغزوة ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣]؟ وحققنا في تفسيرها مسألة ذنوب الأنبياء وكونها من الاجتهاد الذي لم يقرهم عليه لأن غيره خير منه وأما المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم وهم خلص المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ فمنهم من كان ذنبه التثاقل في الخروج حتى ورد الأمر الحتم فيه والتوبيخ على التثاقل إلى الأرض، ومنهم من كان ذنبهم السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين بالقوة والاستدراك، وبالفعل.

فأما العسرة فهي الشدة والضيق. وكانت عسرة في الزاد إذ كانت عند انتهاء فصل الصيف الذي نفدت فيه مؤنتهم من التمر، وأول فصل الخريف الذي بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد ولا يمكن حمل شيء منه، فكان يكتفي الواحد منهم أو

الاثنان بالتمرة الواحدة من التمر القديم ومنه المدود واليابس، وقد تزود بعضهم أيضاً بالشعير المسوس والإهالة الزنخة ـ وعسرة في الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرث الذي في كرشه ويبلوا به ألسنتهم ـ وعسرة في الظَّهر حتى كان العشرة يعتقبون بعيراً واحداً ـ وعسرة في الزمن إذ كان في حمارة القيظ وشدة الحر، ولعل التعبير بساعة العسرة للتذكير بذلك الوقت العصيب، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه في ساعة العسرة: عسرة الظُّهر وعسرة الزاد وعسرة الماء، وقال ابن عباس لعمر رضي الله عنهم حدثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه فلم يرجعها حتى قالت السماء، فأهطلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر، أخرجه ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في دلائلهما والضياء في المختارة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي اتبعوه من بعد ما قرب أن يزيغ قلوب فريق منهم عن صراط الإسلام، بعصيان الرسول حين أمر بالنفير العام، وإذ تثاقل بعضهم عن النفر ووبخهم الله تعالى في الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ أو المعنى أنه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيغ بعضهم عن الإيمان، والمراد بهم الذين تخلفوا بالفعل منهم لغير علة النفاق، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم تائبين فقبل الله توبتهم كما تقدم، وقال هنا فيهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وهو الظاهر من العطف بثم، وأما على التوجيه الآخر فهو تأكيد لما في أول الآية من التوبة على الجميع ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وهذا تعليل لقبول توبتهم فالرأفة العناية بالضعيف والرفق به والعطف عليه والرحمة أعم وأوسع وتقدم تحقيق معناها في تفسير الفاتحة. قرأ (كاد يزيغ) بالياء التحتانية حمزة وحفص، وقرأها الباقون (تزيغ) بالفوقانية، والمعنى واحد فيهما إلا أن في هذه من احتمال الإعراب النحوي ما ليس في تلك.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي وتاب أيضاً على الثلاثة الذين خلفوا عن الخروج إلى تبوك معه ﷺ وهم المرجون لأمر الله في الآية (١٠٦) أو خلفوا بمعنى أرجئوا حتى ينزل فيهم أمر الله، وهم كعب بن مالك من بني سلمة وهلال بن أمية من بني واقف ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي خلفوا وأبهم الله أمرهم إلى أن شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم برحبها أي بما وسعت من الخلق خوفاً من العاقبة وتألماً وامتعاضاً من إعراض النبي ﷺ والمؤمنين

عنهم وهجرهم إياهم في المجالسة والمحادثة والتحية ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي وضاقت أنفسهم على أنفسهم، وإنما كان ذلك بما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم بامتلاء قلوبهم من الهم والغم حتى لا متسع فيها لشيء من البسط والسرور، فكأنهم لا يجدون لأنفسهم مكاناً ترتاح إليه وتطمئن به.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ واعتقدوا أنه لا ملجأ لهم من سخط الله يلجؤون إليه إلا إليه تعالى بأن يتوبوا إليه ويستغفروه ويرجون رحمته فإن الرسول البر الرؤوف الرحيم بأصحابه ما عاد ينظر إليهم ولا يكلمهم حتى يطلبوا دعاءه واستغفاره، وهو ﷺ لا يشفع في الدنيا ولا في الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي بعد ذلك كله عطف تعالى ورجع عليهم وأنزل قبول توبتهم أو وفقهم للتوبة المقبولة عنده ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ويرجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته واتباع رسوله ﷺ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إنه تعالى هو كثير القبول لتوبة التائبين، الواسع الرحمة للمحسنين، وتقدم مثله قريباً.

وإن العبرة بهذه القصة لا تتم إلا بذكر أصح الروايات وأوسعها في شرح ما بين الله من حالهم فيها وهو حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأشهر مدوني التفسير المأثور من طريق الزهري قال أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه حين عمي ـ قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال كعب لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان.

قال كعب رضي الله عنه: فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحي من الله عزّ وجلّ. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت

الثمار والظلال، وأنا إليها أصعر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولا أقضي شيئاً، فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إن أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليت أني فعلت، ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك «ما فعل كعب بن مالك»؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل، بئسما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني ذنبي فطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً، فقبل رسول الله ﷺ منهم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك»؟ فقلت يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله يسخطك علي، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو فيه عقبى من الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال ﷺ «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ قال فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما؟ قالوا

مرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

قال ونهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس ـ أو قال تغيروا لنا ـ حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما. وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة وأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ فإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ ـ فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام. فقلت له يا أبا قتادة أنشدك الله تعالى هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال فسكت، قال فعدت فنشدته فسكت، فعدت فنشدته. قال الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار.

وبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه:

أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها.

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال بل اعتزلها ولا تقربنها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضائع وليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا ولكن لا يقربنك» فقالت إنه والله ما به من حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه. فقلت والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب،

قال فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال

التي ذكر الله منا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر. فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إليّ رجل فرساً وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذٍ؟ فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً بعد فوج يهنئوني بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، قال فكان كعب رضي الله عنه لا ينساها لطلحة.

قال كعب رضي الله عنه: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فقلت إني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت يا رسول الله إنما أنجاني الله بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، قال فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي، وأنزل الله ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وكونوا مع الصادقين﴾.

قال كعب فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿الفاسقين﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦].

قال كعب وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فلذلك قال الله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا عن

الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[١] اهـ.

أقول: إن في هذه القصة لأكبر عبرة تفيض لها عبرات المؤمنين، وتخشع لها قلوب المتقين، وكان الإمام أحمد لا يبكيه شيء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات وحديث كعب في تفصيل خبرهم فيها. وأي مؤمن يملك عينيه أن تفيض من الدمع، وقلبه أن يجف ويرجف من الخوف إذا قرأ أو سمع هذا الخبر، وتأمل ما فيه من العبر، التي لا يمكن بسطها إلا في كتاب مستقل، ولا أدري ما عسى أن ينال من قسوة قلوب المقلدين، وجهل المغرورين، الذين يقترفون الفواحش والمنكرات، ويتركون الفرائض والواجبات، ويصرون على ما فعلوا وهم يعلمون. فلا يتوبون ولا هم يذكرون، وإذا وعظهم واعظ أو ذكرهم مذكر، وجد اللابسين لباس الإسلام منهم بين جازم بالمغفرة والعفو عنه، وبين متكل على شفاعة الشافعين له، ومنهم من يحفظ من أخبار المكفرات للذنوب ما لا يصح له سند، ولا يستقيم له على أصول الدين متن، وما له أصل من هذه الأخبار يراد به تكفير الصغائر، بشرط اجتناب الكبائر، لقوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ [النساء: ٣١] وما كان العمل الصالح فيه مقروناً بالتوبة أخذاً من قوله تعالى: ﴿ثم أن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ [النحل: ١١٩] وتقدم بيان هذه المسألة في مواضع (آخرها ج ١٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باتباع ما أمر به بقدر الاستطاعة، وترك ما نهى عنه وبين تحريمه مطلقاً ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي مع جماعة الصادقين أو منهم (وفاقاً لقراءة ابن مسعود وقد تكون تفسيراً) دون المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف. والصادقون هم المعتصمون بالصدق والاخلاص في جهادهم إذا جاهدوا، وفي عهودهم إذا عاهدوا، وفي أقوالهم ووعودهم إذا حدّثوا ووعدوا، وفي توبتهم إذا أذنبوا أو قصروا والمنافقون ضدهم في ذلك وغيره.

تقدم في آخر حديث كعب بن مالك المتفق عليه أن هذه الآية نزلت فيه وفي أصحابه بما صدقوا رسول الله ﷺ ولم ينتحلوا لأنفسهم عذراً كاذباً في التخلف عن النفر معه. وبه قال نافع والسدي. وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه (وكونوا مع الصادقين) مع محمد ﷺ وأصحابه. وقال سعيد بن جبير والضحاك: مع أبي بكر وعمر ـ وابن عباس وأبو جعفر: مع علي. والحق أنها عامة كما قال ابن عمر في عهده، ومثله يقال في الصادقين من بعده، وأن الثلاثة الذين نزلت في قصتهم يدخلون في عمومها دخولاً أولياً. وأن أبا بكر وعمر وعلياً أفضل من هؤلاء الثلاثة وأعرق في

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب ٧٩، ومسلم في التوبة حديث ٥٣، وأحمد في المسند ٣/٤٥٩.

الصدق وأكمل. ولكني أشم من الروايتين رائحة وضع النواصب والروافض، وقيل إن المراد بالصادقين المهاجرون وأن أبا بكر احتج بالآية على الأنصار يوم السقيفة. وهذا القول لا وجه له والاحتجاج به لا يصح، ووجهه القائلون به بأنه جعل الصادقين هنا هم الصادقين في آية سورة الحشر ﴿للفقراء المهاجرين﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿أولئك هم الصادقون﴾ [الحشر: ٩] ومقتضاه أن يكون هذا الوصف خاصاً بالمهاجرين حيث وجد في القرآن معرّفاً كآية ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿أولئك هم الصادقون﴾ [الحجرات: ١٥] وقوله: ﴿ليسأل الصادقين﴾ [الأحزاب: ٨] ﴿ليجزي الله الصادقين﴾ [الأحزاب: ٢٤] وغيرهن ـ وهو باطل ولم يقل به أحد، ومع هذا لا يدل على وجوب اتباع الأنصار وغيرهم لهم في الإمامة كما قال الطوفي.

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأشهر رواة التفسير والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن مسعود (رض) لا يصلح الكذب في جد ولا هزل، ولا يعِدْ أحدكم صبيه شيئاً ثم لا ينجزه، اقرؤوا إن شئتم ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ فهل تجدون لأحد رخصة في الكذب؟ وأخرجه عنه الحاكم وصححه، والبيهقي مرفوعاً إلى النبي ﷺ بلفظ «إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له، إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، أنه يقال للصادق: صدق وبر، ويقال للكاذب: كذب وفجر. وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عنه قال قال رسول الله ﷺ «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن الرجل ليصدق ـ الخ ما تقدم آنفاً ـ وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الرجل ليكذب»[1] ـ الخ ما تقدم فيما قبله ـ والأحاديث في فضيلة الصدق ورذيلة الكذب وكونها من صفات المنافقين كثيرة تقدم بعضها، وفي روايات عديدة «إن المؤمن قد يطبع على كل خلق إلاّ الكذب والخيانة» وإنه لا رخصة في الكذب إلا لضرورة من خديعة حرْب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها ـ يعني في مثل التحبب إليها بوصف محاسنها ورضاه عنها، لا في مصالح الدار والعيال وغيرها، والرواية في هذا على علاتها تقيد بحديث «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»[2] ـ وفي رواية ـ ما يغني الرجل العاقل عن الكذب»

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٦٩، ومسلم في البر حديث ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، وأبو داود في الأدب باب ٨٠، والترمذي في البر باب ٤٦، وابن ماجه في المقدمة باب ٧، والدارمي في الرقاق باب ٧، ومالك في الكلام حديث ١٦، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٤، ٤٠٥، ٤٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ١١٦.

روى ابن عدي الأول عن عمران بن حصين والثاني عن علي رضي الله عنهما.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾

هاتان الآيتان في تأكيد وجوب الغزو مع رسول الله ﷺ وما فيه من الأجر العظيم، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه، بما فيه من تفضيل أنفسهم على نفسه.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ ما كان بالذي يصح لأهل المدينة عاصمة الإسلام ومقر الرسول ﷺ ولا بالذي يستقيم أو يحل لهم ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ إذا خرج غازياً في سبيل الله كما فعل بعضهم في غزوة تبوك ولا في غير هذا من أمور الملة ومصالح الأمة ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه فيصونوها ويرغبوا بإيثار راحتها وسلامتها عن بذلها فيما يبذل فيه نفسه الشريفة القدسية مع احتمال الجهد والمشقة في سبيل الله عز وجل. يقال رغب في الشيء إذا أحبه وآثره، ورغب عنه إذا كرهه وأعرض عنه، وقد جمع هنا بينهما بهذه العبارة المؤثرة الدالة على أن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله ﷺ التي لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه، وهذا يصح بعده ﷺ في كل راغب عن سنته والتأسي به، كالملاحدة الذين يقولون لا يجب اتباعه بعد موته، والمبتدعة والمقلدة الذين يؤثرون بدعهم ومذاهبهم على سنته.

قال الزمخشري ـ ونعم ما قال: أمروا أن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقُوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها. فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيمون لها وزنا، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلاً عن أن يربؤا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها، ويضنوا بها على ما سمع بنفسه عليه. وهذا نهي بليغ مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية اهـ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي ذلك الذي دل عليه النفي من النهي عن التخلف عنه، ووجوب الاتباع له، بسبب أن كل ما

يصيبهم في جهادهم من أذى وإن قل، ومن إيذاء للعدو وإن صغر، فهو عمل صالح لهم به أكبر الأجر، فلا يصيبهم ظمأ لقلة الماء ـ أو نصب لبعد الشقة أو قلة لظهر ـ أو مجاعة لقلة الزاد ـ في سبيل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ وطؤهم إياه لأنه من دارهم، ويعدون وطأه اعتداء عليهم واستهانة بقوتهم فيغيظهم أن تمسه أقدام المؤمنين أو حوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم، فكيف إذا يسر الله فتحه لهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي ولا يبلغون من أي عدو من أعداء الله ورسوله شيئاً مما أرادوا من جرح أو قتل أو أسر أو هزيمة أو غنيمة ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾ أي كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح مرضي لله تعالى مجزي عليه بالثواب العظيم، فما أكثر هذه الأعمال الصالحات التي تعم الأمور العارضة كالجوع والعطش، وتشمل كل حركة من بطشة يد أو وطئة قدم؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذا تعليل لهذا الأجر العظيم يدل على عموم الحكم، وإن كان من المعلوم بالضرورة أن هذا الجهاد مع رسول الله ﷺ أعظم أجراً، وأنفس ذخراً، قال قتادة: إن حكم الآية خاص به ﷺ وبمن جاهد معه، وقال الأوزاعي وعبد الله بن المبارك وغيرهما من علماء التابعين: هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة. وهذا القول أصح، على ما لا يخفى من التفاوت في الأجر، فالجهاد في سبيل الله إحسان، و ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾؟ [الرحمن: ٦٠] في كل زمان ومكان.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ أي كذلك شأنهم فيما ينفقون في سبيل الله صغر أم كبر، قل أم كثر، وفي كل واد يقطعونه في سيرهم غادين أو رائحين (وهو مسيل الماء في منفرجات الجبال وأغوار الآكام، خصه بالذكر لما فيه من المشقة) لا يترك شيء منه أو ينسى بل يكتب لهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بكتابته في صحف أعمالهم ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهو الجهاد، فإنه عند وجوبه وفرضيته بالاستنفار له يكون أحسن الأعمال، إذ يتوقف عليه حفظ الإيمان، وملك الإسلام، وجميع ما يتبعهما من فضائل الأعمال، يقال جزاه العمل وجزاه به. كما قال ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ [النجم: ٤١] والنص على جزائهم أحسن ما كانوا يعملون لا ينافي جزاءهم بما دونه وقد قال آنفاً ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ وهو فيه، وإنما المراد النص على أن هذا العمل أحسن أعمالهم أو من أحسنها لأنه جمع بين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس وما قبله من الثاني فقط، والجزاء على الأحسن يكون أحسن منه على قاعدة ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ [النمل: ٨٩] وبيان ذلك بقاعدة ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقال بعضهم إن معنى الجملة أنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر أحسن جزاء على أعمالهم الحسنة،

أي في غير الجهاد بالمال والنفس، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة في غيره من المبرات. والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكثيرة فيما عداه من الأعمال الصالحات.

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

هذه الآية من تتمة أحكام الجهاد بالقتال، مع زيادة حكم طلب العلم والتفقه في الدين وهو آلة الجهاد بالحجة والبرهان، الذي عليه مدار الدعوة إلى الإيمان، وإقامة دعائم الإسلام، وإنما جهاد السيف حماية وسياج. وسببها أن ما ورد في فضل الجهاد وثوابه وفي ذم القاعدين عنه وكونه من شأن المنافقين دون المؤمنين الصادقين، قوى رغبة المؤمنين فيه حتى كانوا إذا أراد الرسول ﷺ إرسال سرية للقاء بعض المشركين وإن قلوا انتدب لها جميع المؤمنين ويتسابقون إلى الخروج فيها، ويدعون الرسول ﷺ وحده أو مع نفر قليل كما ورد، وإنما يجب هذا في النفير العام إذا وجد سببه بقدر الحاجة لا في كل استنفار لمقاومة الكفار، على أن النفر العام قد يتعذر أو تكثير فيه الأعذار، وقيل إنه لم يكن واجباً على عمومه إلا في عهده ﷺ أو على الأنصار بمقتضى مبايعتهم له (راجع ج ١٠).

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ أي ما كان شأن المؤمنين ولا مما يجب عليهم ويطلب منهم، أن ينفروا جميعاً في كل سرية تخرج للجهاد، فإن هذه السرايا من فروض الكفاية لا من فروض الأعيان، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للخروج ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ لولا حرف تحضيض وحث على ما تدخل عليه، أي فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة ﴿مِّنْهُمْ﴾ كالقبيلة أو أهل المدينة ﴿طَآئِفَةٌ﴾ أي جماعة بقدر الحاجة ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي ليتأتى لهم أي المؤمنين في جملتهم التفقه في الدين بأن يتكلف الباقون في المدينة الفقاهة في الدين بما يتجدد نزوله على الرسول ﷺ من الآيات، وما يجري عليه ﷺ من بيانها بالقول والعمل، فيعرف الحكم مع حكمته، ويفصل العلم المجمل بالعمل به، ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ الذين نفروا للقاء العدو ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ أي يجعلوا جل همهم من الفقاهة بأنفسهم إرشاد هؤلاء وتعليمهم ما علموا، وإنذارهم عاقبة الجهل، وترك العمل بالعلم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي رجاء أن يخافوا الله ويحذوا عاقبة عصيانه. ويكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته، وإقامة حجته، وتعميم هدايته، فهذا ما يجب أن يكون غاية العلم والتفقه في الدين والغرض منه، لا الرياسة والعلو بالمناصب، والتكبر على الناس وطلب المنافع الشخصية منهم.

والآية تدل على وجوب تعميم العلم والتفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه على الوجه الذي يصلح به حالهم، ويكونون به هداة لغيرهم، وإن المتخصصين لهذا التفقه بهذه النية، لا يقلون في الدرجة عند الله عن المجاهدين بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله والدفاع عن الملة والأمة. بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع فرضاً عينياً والدلائل على هذا كثيرة، وما قاله بعض الأصوليين من دلالة الآية على الاحتجاج بخبر الواحد متكلف بعيد عن معنى النظم الكريم، ومبني على أن لفظ طائفة يطلق على الواحد كما قيل وهو باطل.

كنت أطلب العلم في طرابلس وكان حاكمها الإداري (المتصرف) فيها مصطفى باشا بابان من سروات الكرد، وكان من أهل العلم والفقه في مذهب الشافعية، وقد قال لي مرة في دارنا بالقلمون: لماذا تستثني الدولة العلماء وطلاب العلوم الدينية من خدمة العسكرية وهي واجبة شرعاً وهم أولى الناس بالقيام بهذا الواجب؟ ـ يعرض بي ـ أليس هذا خطأ لا أصل له في الشرع؟ فقلت له على البداهة بل لهذا أصل في نص القرآن الكريم وتلوت الآية، فاستكثر الجواب على مبتدىء مثلي لم يقرأ التفسير وأثنى ودعا. وقد تعارضت الروايات المأثورة في هذه الآية فاختلفت الأقوال في تفسيرها والحق فيها ما قلنا وعليه الجمهور.

أخرج أبو داود في ناسخه، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال نسخ هؤلاء الآيات ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ [التوبة: ٤١] ﴿وإلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ [التوبة: ٣٩] قوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ يقول لتنفر طائفة ولتمكث طائفة مع رسول الله ﷺ فالماكثون مع رسول الله ﷺ هم الذين يتفقهون في الدين وينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو لعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحدوده.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في المدخل عنه في الآية: يعني ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده ـ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصبة يعني السرايا فلا يسيرون إلا بإذنه. فإذا رجعت السرايا وقد نزل قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ قالوا إن الله أنزل على نبيكم بعدكم قرآناً وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم ﷺ بعدهم، ويبعث سرايا أخر، فذلك قوله: ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ يقول يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم ويعلمونه السرايا إذا رجعت إليهم (لعلهم يحذرون).

فأما قوله في الرواية الأولى بأن هذه الآية نسخت آيات النفير العام فهو قد يوافق إطلاق السلف في النسخ ومنه عندهم تخصيص العام وتقييد المطلق، ولا يصح هنا

النسخ المصطلح عليه في أصول الفقه، لأن موضع النفر الخاص غير موضع النفير العام، فلا تنافي بين الأحكام. وبهذا يقول جمهور العلماء.

وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري أنه جعل الضمير في قوله تعالى: (ليتفقهوا في الدين) للطائفة التي تنفر للغزو لا للتي تبقى مع النبي ﷺ في المدينة وذلك قوله: ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم. وزعم الطبري أن هذا القول أولى بالصواب، وأوضح ذلك بأن هذه الطائفة النافرة تتفقه بما تعاين من نصر الله أهل دينه وأصحاب رسوله على أهل عداوته والكفر به فيفقه بذلك من معاينة حقيقة علم أمر الإسلام وظهوره على الأديان من لم يكن فقهه (ولينذروا قومهم) فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك (إذا) هم (رجعوا إليهم) من غزوهم (لعلهم يحذرون) يقول لعل قومهم إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله حذراً أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبروهم خبرهم اهـ.

وهذا تأويل متكلف ينبو عنه النظم الكريم فإن اعتبار طائفة السرية بما قد يحصل لها من النصر ـ وهو غير مضمون ولا مطرد ـ لا يسمى تفقهاً في الدين وإن كان يدخل في عموم معنى الفقه، فإن التفقه هو التعلم الذي يكون بالتكلف والتدرج والمتبادر من الدين علمه. ولا يصح هذا المعنى في ذلك العهد إلا في الذين يبقون مع النبي ﷺ فيزدادون كل يوم علماً وفقها بنزول القرآن كما تقدم آنفاً في تفسير ﴿وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله﴾ [التوبة: ٩٧] وما يأتي قريباً فيما ينزل من السور فيزداد به الذين آمنوا إيماناً. وأخذ بعضهم من قول الحسن أنه يشمل السفر لأجل طلب العلم لما في الرحلة من أسباب زيادة الاستفادة بالانقطاع للعلم ولقاء أساطينه، وعلل بعضهم فضيلة السياحة بذلك كما تقدم قريباً.

وقد بينا معنى الفقه في عرف اللغة واستعمال القرآن، وأنه أخص من العلم بفروع الأحكام، وحققناه بشواهد الآيات في تفسير ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ [الأعراف: ١٧٩] ـ (ج ٩ تفسير).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

اعلم أن هذه الآية قاعدة من قواعد القتال الذي نزلت أهم قواعده وأحكامه في هذه السورة والتي قبلها، وإنما وضع ههنا على سنة القرآن في تفريق الموضوع الواحد الكثير الأحكام في مواضع متفرقة وبينا حكمته آنفاً عوداً على بدء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي الذين يدنون منكم وتتصل بلادهم ببلادكم، وذلك أن القتال شرع لتأمين الدعوة إلى الإسلام وحرية الدين والدفاع عن أهله، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ [الشورى: ٧] وقال لأهل مكة ﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ [الأنعام: ١٩] أي وكل من بلغته دعوته. بل أمره أن يخص الأقرب إليه في النسب من أهل بلده أم القرى فقال: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤].

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال: كان الذين يلونه من الكفار العرب فقاتلهم حتى فرغ منهم ـ وعن قتادة قال: الأدنى فالأدنى ـ وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سأل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) قال «الروم» اهـ يعني أن الروم هم المراد بالكفار في الآية لأنهم كانوا عند نزولها في هذه السورة بعد الفراغ من أمر يهود المدينة وخيبر هم الذين يلونهم في تبوك وسائر بلاد الشام.

وترجيح البدء بالأقرب فالأقرب معقول من وجوه كثيرة كالحاجة والإمكان والسهولة والنفقة، ولذلك كانت القاعدة فيه عامة في الدعوة والقتال والنفقات والصدقات، وكذا ما يدار في المجلس من شراب ونحوه فكان ﷺ يعطي من على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ثم الذي يليه فالذي يليه، وأمر بأن يأكل الإنسان مما يليه. وإنما تطرد القاعدة في الحالة العادية. وأما ما يعرض من ضرورة في كل ذلك فله حكمه فأحكام الضرورات مستثناة في الواجبات والمحرمات والآداب.

﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي وليجدوا فيكم شدة وخشونة في القتال ومتعلقاته كما تقدم في تفسير آية ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ [التوبة: ٧٣] (ج ١٠) والغلظة على المقاتلين في زمن الحرب من مقتضيات الطبيعية والمصلحة وتنكيرها في الآية يدل على أن لأولي الأمر أن يحددوها في كل زمن وكل حال بما يتفق مع المصلحة، وإنما أمروا بها على كونها طبيعية لتقييد ما أمروا به في الأحوال العامة من الرفق والعدل والبر في معاملة الكفار حتى صار ذلك من أخلاق الإسلام. وأمر القتال مبني على الشدة والغلظة في كل الأمم وقد حرم فظائعها الإسلام كما تقدم في تفسير سورة الأنفال. وقد بلغت فظائعها عند الإفرنج في هذا العصر ما يخشى أن يفضي إلى تدمير العمران كله.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ له في مراعاة أحكامه وسننه بالمعونة والنصر، وأهمها ما يجب اتقاؤه في الحرب، من التقصير في أسباب النصر والغلب، التي بينها

في كتابه، والتي تعرف بالعلم والتجارب، كإعداد ما يستطاع من قوة، والصبر والثبات، والطاعة والنظام، وترك التنازع والاختلاف، وكثرة ذكر الله، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب وقد بينا حقيقة معنى التقوى وأنواعها واختلاف المراد منها باختلاف مواضعها في تفسير (٨: ٢٩ ج ٩).

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

هذه الآيات الأربع آخر ما نزل في المنافقين، وتأثير نزول القرآن فيهم وفي المؤمنين، ومن أقام الدليل على اليأس من إيمانهم، وإخبار الله بموتهم على كفرهم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ كلمة «ما» بعد «إذا» تفيد التأكيد لمضمون شرطها، يعني وإذ تحقق إنزال الله تعالى على رسوله سورة من القرآن ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ أي فمن المنافقين من يتساءل مع إخوانه للاختبار، أو مع من يلقاه من المسلمين كافة للتشكيك، قائلاً أيكم زادته هذه السورة إيماناً؟ أي يقينا بحقية القرآن والإسلام، وصدق الرسول ﷺ فإن في كل سورة من القرآن آيات على صدقه ﷺ بما فيها من ضروب الإعجاز العامة الدالة على أنها من عند الله تعالى، وكون محمد ﷺ لا يستطيع أن يأتي بمثلها من تلقاء نفسه، فالسؤال عن الإيمان بأصل الإسلام وصدق الرسول ﷺ في تبليغه عن الله عز وجل. وهو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وخضوع الوجدان الذي يستلزم العمل، لا مجرد اعتقاد صدق الخبر، الذي يقابله اعتقاد كذبه، فإن أشد الناس كفراً أولئك المصدقون الجاحدون الذين قال الله لرسوله فيهم ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ [الأنعام: ٣٣] ومثله قوله: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ [النمل: ١٤] ولا شك أن الإيمان بمعناه الذي قلناه يزيد بنزول القرآن في عهد الرسول وناهيك بمن يحضر نزوله عليه ويسمعه منه، وكذا يزيد بتلاوته وبسماعه من غيره أيضاً ثباتاً في قلب المؤمن وقوة إذعان، وصدق وجدان، ورغبة في العمل والقرب من الله.

قال الله تعالى في جواب هذا السؤال وهو العليم الخبير ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ فأثبت تعالى للمؤمن زيادة الإيمان بزيادة نزول القرآن وهو يشمل الزيادة في حقيقته وصفته من اليقين والإذعان واطمئنان القلب، وفي متعلقه وهو ما في السورة من مسائل العلم، وفي أثره من العمل والتقرب إلى الرب. وإنما يتساءل

المنافقون عن الأول وهو الذي يفقدونه، وإنما غيره تابع له. ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي والحال أنهم يسرون بنزولها وتستدعي زيادة الإيمان في قلوبهم البشرى والارتياح بما يرجون من خير هذه الزيادة بتزكية أنفسهم، وأثر ذلك في أعمالهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك وارتياب، يدعو إلى النفاق بإسرار الكفر وإظهار الإسلام ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي كفراً ونفاقاً مضموماً إلى كفرهم ونفاقهم السابق الذي هو أقذر الرجس النفسي وشر أنواعه ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي واستحوذ ذلك عليهم ورسخ فيهم، فكان مقتضى سنة الله تعالى في تأثير الأعمال في صفات النفس أن من مات منهم مات على كفره، وسيموت من بقي منهم وهم متلبسون بالكفر. وهاك الدليل على ذلك: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ الاستفهام لتقرير مضمون الحكم عليهم والحجة عليه وهو داخل على فعل محذوف للعلم به من المقام، والمعنى أيجهلون هذا ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاماً بعد عام من تكرار الفتون والاختبار، الذي يظهر به استعداد الأنفس للإيمان أو الكفر، والتمييز بين الحق والباطل، كالآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ في كل ما أخبر به من نصر الله له ولمن اتبعه، وخذلان أعدائه من الكفار والمنافقين ووقوع ما أنذرهم، ومن إنباء الله رسوله بما في قلوبهم، وفضيحتهم بما يسرون من أعمالهم، كما فصل في هذه السورة وذكر بعضه في غيرها ـ وقرأ حمزة ويعقوب (أو لا ترون) على أن الخطاب للمؤمنين الذين قد يروعهم الخبر المؤكد وقوعه بموتهم على كفرهم، كأنه يقول أتعجبون من الحكم عليهم بهذه العاقبة السوءى ولا ترون الدلائل الدالة عليها من فتنتهم وابتلائهم المرة بعد المرة سنة بعد سنة، بما من شأنه أن يذهب بشكهم ويشفي مرض قلوبهم، من آيات الله فيهم وفي غيرهم.

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي ثم تمرُّ الأعوام على ذلك ولا يتوبون من نفاقهم، ولا يتعظون بما حلّ بهم مما أنذرهم الله تعالى به، وهل بعد هذا من برهان على انطفاء نور الفطرة والاستعداد للإيمان أقوى من هذا؟ إن كل وراءه برهان أقوى منه فهو أنهم يفرون من العلاج الذي من شأنه أن يشفيهم من مرض قلوبهم وهو ما أكد به ما قبله بقوله:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ هذا بيان لحال المنافقين الذين كانوا يكونون في مجلس الرسول ﷺ عند نزول سورة وما يكون من فعلهم وقولهم عند تلاوته لها، وما قبلها في بيان حالهم إذا بلغهم نزول سورة من حيث البحث عن تأثيرها، وقد يقال إن الأولى تشمل من سمع منه ومن بلغ عنه، والعبرة بموضوعها، لا بطريقة العلم بها، وإن هذه أدل على رسوخهم في الكفر وعدم الطمع في رجوعهم عنه، بإثباتها أنهم يكرهون سماع القرآن من الرسول ﷺ وهو أشد تأثيراً من سماعه من

غيره في الهداية، ولذلك كان المشركون يمنعونه من تلاوته على الناس لئلا يهتدوا بسماعه منه، فإن لم يتمكنوا من إسكاته أعرضوا عن سماعه ولغوا فيه. ومنعوا صاحبه الصديق أيضاً من الصلاة في المسجد الحرام ثم من مسجده الخاص لما رأوا النساء والصبيان يجتمعون لسماع القرآن منه ويتأثرون بخشوعه فيه:

يقول: وإذا أنزلت سورة وهم في المجلس تسارقوا النظر، وتغامزوا بالعيون على حين تخشع أبصار المؤمنين، وتنحني رؤوسهم، وتجب قلوبهم، وترامقوا بالعيون يتشاورون في الانسلال من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من الإنكار والسخرية بالوحي، قائلاً بعضهم لبعض بالإشارة أو العبارة: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي من الرسول والمؤمنين إذا نحن انصرفنا كارهين لسماعها ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ يتسللون لواذاً إلى مجامعهم الخاصة بهم، والتعبير بثم لبيان تراخي فعلهم عن وقت لقولهم، إلى سنوح فرصة الغفلة عنهم ولو أفراداً، فكلما لمح أحد منهم غفلة من المؤمنين عنه انصرف.

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ هذه الجملة تحتمل الدعاء والخبر ومضمونها النهائي في كلام الله واحد كما تقدم نظيره قريباً. والمعنى صرف الله قلوبهم عن صدق الإيمان، والاهتداء بآيات الله في القرآن، المرشدة إلى آياته في الأكوان ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي بسبب أنهم قوم فقدوا صفة الفقاهة الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال، لعدم استعمال عقولهم فيها، فهم لا يفقهون ما يسمعون من هذه الآيات لعدم تدبرها، والإعراض عن النظر والتأمل في معانيها، وموافقتها للعقل، وهدايتها إلى الحق والعدل، ذلك بأنهم اتخذوا أنفسهم أعداء وخصوماً للرسول، فوطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به من غير بحث ولا تأمل فيه أمعقول أم غير معقول؟ أحق أم باطل؟ أخير أم شر؟ أهدى أم ضلال؟ أنافع أم ضار؟ فأنى يرجى لهم وهذه حالهم أن يهتدوا بتعدد نزول الآيات والسور؟ إنما مثلهم كمثل أعداء الإسلام من أهل الملل التي جروا على نظام تعليمي وتربية وجدانية عملية في عصبيتهم الدينية والقومية وارتباط منافعهم الاجتماعية والسياسية بها: لقنهم رؤساؤهم أنه يوجد دين اسمه الإسلام بني أساسه على عداوتكم لذاتكم، فيجب عليكم أن لا تنظروا فيه إلا أن يكون للبحث عن مطعن ولو متكلف تلمزونه به، ولا تفكروا في شيء من حال أهله في دينهم ودنياهم إلا للعداوة والتحقير لهم، وتدبير المكايد للعدوان عليهم، وإذا ظهر لكم شيء حسن من دينهم فوجهوا كل قواكم العقلية وبلاغتكم الكلامية إلى تشويهه وذمه والصد عنه، وهذا ما يفعله رجال الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبهم كما بيناه في غير هذا الموضع.

ومن المباحث الكلامية في الآيات الخلاف في زيادة الإيمان ونقصه، على

مذهبين في إثبات ذلك ونفيه، وجمهور السلف من الصحابة والتابعين وحفاظ السنة على الإثبات. وهذه المسألة من أغرب مسائل عصبيات المذاهب عند النظار الجدليين ومقلديهم، وما كان ينبغي لمسلم أن يجعل هذا موضع خلاف لبحث بعض من ينتسب إليهم في مفهوم لفظ الإيمان الذي يتحقق باعتقاده الدخول في الملة هل يقبل الزيادة والنقصان في ذاته؟ أم المراد من هذه الآية وما في معناها متعلق الإيمان من العقائد والأحكام التي كانت تشتمل عليها السورة؟ واستبعاد أن يكون التصديق الذي يكون به الكافر مؤمناً قابلاً للزيادة والنقصان، وهي نظرية باطلة، وقد بينا معنى الآية بما يدل على أن قصر زيادة الإيمان فيها على التصديق بزيادة العلم بما تضمنته باطل، لأن هذا بديهي لا يمكن أن يكون هو الذي سأل عنه المنافقون، ونصوص القرآن الكثيرة صريحة في زيادة الإيمان ونقصه، وكذلك الأحاديث الصحيحة التي صرح فيها الرسول ﷺ بأن أقل الإيمان وهو المنجي من الخلود في النار كالذرة أو الخردلة من الإيمان الكامل الذي لا يمس أهله من عذاب النار شيء، كالذين وصفهم الله بقوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ [الأنفال: ٢] الخ وقوله: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ [الحجرات: ١٥] الخ.

والتحقيق أن اليقين في الإيمان وغيره له درجات متفاوتة في القوة والضعف. واليقين الذي يصح به الإيمان هو اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الجازم في غير الحسيات والضروريات كما بيناه في مواضع أولها تفسير ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ [البقرة: ٤] وهو درجات منها التقليد الجازم ومنها المعلوم بالنظر والاستدلال، وقد يطرأ عليهما الشك والزوال، ولولا ذلك ما تصور ارتداد مؤمن عن دينه، ومنها ما يصير وجداناً ضرورياً بشرح الصدر، والنور الإلهي بكثرة الذكر والفكر والعبادة.

وأما اليقين المنطقي العلم القطعي بالبرهان بأن هذا الشيء كذا مع العلم القطعي باستحالة أن يكون غير كذا، فهو الذي قالوا إنه لا يقبل الزيادة والنقصان، ولكنه نادر الوقوع في غير الضروريات ولا تتوقف عليه صحة الإيمان، ومع هذا يمكن أن يقال إنه قابل للزيادة في وصفه وطمأنينة القلب به، وفي ترتيب آثاره عليه. ومثال الأول أن ترى شبحاً في سدفة الفجر فتعلم أنه إنسان في انتصاب قامته ثم تزداد علماً به كلما انتشر الضياء حتى يكون العلم به تفصيلياً. والبرهان المنطقي المفيد لهذا اليقين عندهم لا تكون مقدماته النظرية في درجة الضروريات قوة وثباتاً. وقد قسم بعضهم اليقين إلى ثلاث درجات علم اليقين وهو ما يعلم بالدليل، وعين اليقين وهو ما يكون بالمشاهدة والكشف، وحق اليقين وهو ما يكون بالذوق والوجدان. ومثل لها بعضهم بالفناء عند الصوفية، وبعضهم بالموت، فكل أحد عنده علم اليقين بأنه يموت فإذا عاين ملائكة الموت عند الحشرجة وقبل قبض الروح كان عين اليقين، فإذا مات بالفعل وصل إلى درجة حق اليقين، لكن هذه الدرجة وما قبلها لا يتعلق بهما بالتكليف.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

ختم الله تعالى هذه السورة بهاتين الآيتين اللتين قال أبي بن كعب رضي الله عنه إنهما آخر ما نزل وبينا في الكلام على السورة قبل الشروع في تفسيرها ما يعارضه وسنحقق المسألة بعد الفراغ من تفسير الآيتين.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ جمهور المفسرين على أن الخطاب هنا للعرب فهو في معنى قوله: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ [الجمعة: ٢] فالمنة به ﷺ على قومه أعظم، والحجة عليهم به وبكتابه أنهض، وأخص قومه به قبيلته قريش فعشيرته الأقربون بنو هاشم وبنو المطلب، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم، وهو مبعوث إلى جميع الناس كما تقدم في قوله: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨] ولكنه وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب على القاعدة التي بيناها آنفاً في قتال الأقرب فالأقرب، فالعرب آمنوا بدعوته مباشرة والعجم آمنوا بدعوة العرب، العرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه ﷺ له بالتبليغ والعمل، وبما شاهدوا من آيات الله تعالى في شخصه، والعجم آمنوا بدعوة العرب وما شاهدوا من عدلهم وفضائلهم، ثم بدعوة بعضهم لبعض بعد انتشار الإسلام فيهم.

وقال الزجاج: إن الخطاب للعالم كله لعموم بعثته فيكون بمعنى ما يأتي في أول السورة التالية ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ [يونس: ٢] الخ ولكن آية أول سورة يونس هذه في الرد على منكري كون البشر رسولاً من الله وهو المحكي عن جميع كفار الأمم، وآية آخر سورة براءة في امتنان الله عزَّ وجلَّ على من أرسل إليهم الرسول من أنفسهم وصميم قومهم، لتأييد الحجة بالمنة، والترغيب في إجابة الدعوة، فإن من طبع كل قوم حب الاختصاص بالفضل والشرف على غيرهم، كما قال تعالى في امتنانه عليه بالقرآن المجيد ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ [الزخرف: ٤٤] أي شرف لك ولهم، تذكرون به في العالم، ويدوّن لكم في التواريخ، وإنما قاومه وعانده أكابر قومه حتى من بني هاشم أنفة واستكباراً عن اتباعه وهم يرونه دونهم، ولما يتضمن اتباعه من الإقرار بكفرهم وكفر آبائهم وأجدادهم الذين يفاخرون بهم، مع عدم ثقتهم بفوزه وبأنهم ينالون باتباعه من مجد الدنيا فوق ما كانوا عليه بمسافات تطاول السماء رفعة وشرفاً، دع ما هو فوق مجد الدنيا من سعادة الآخرة، ثم إنهم صاروا يفتخرون بكونه ﷺ منهم، بأكثر مما يبيحه دينه لهم، حتى صار أقربهم يتكل على نسبه فيقصر في العلم والعمل.

وقد أكد تعالى هذه المنة الخاصة بوصفه هذا الرسول بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ الخ العنت المشقة ولقاء المكروه الشديد وقيده الراغب بما يخاف منه الهلاك، وعزَّ على فلان الأمر: ثقل واشتد عليه، وقالوا هو كناية عن الأنفة عنه، وما مصدرية ـ أي شديد على طبعه وشعوره القومي عنتكم لأنه منكم، وهذا يشمل ما يكون في الدنيا وما يكون في الآخرة، فلا يهون عليه أن يكونوا في دنياهم أمة ضعيفة ذليلة يعنتها أعداؤها بسيادتهم عليها وتحكمهم فيها، ولا أن يكونوا في الآخرة من أصحاب النار.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ الحرص شدة الرغبة في الحصول على المفقود، وشدة العناية بحفظ الموجود، وكان ﷺ حريصاً على اهتداء قومه به بإيمان كافرهم وثبات مؤمنهم في دينه كما قال تعالى له: ﴿إن تحرص على هداهم﴾ [النحل ٣٧] وقال: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف: ١٠٣] ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين فكل ما يدعوهم إليه من العمل بشرائع الله تعالى فهو دليل على ثبوت هذه الصفات الكاملة والعواطف السامية له ﷺ بنص الله تعالى وهو أرحم بالمؤمنين وأرأف، وكل شاق منها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه، ولا شيء من الشاق منها ببالغ حد العنت، للقطع في هذا الدين بنفي العسر والحرج.

وصف الله تعالى رسوله بصفتين من صفاته العلى، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى، بعد وصفه بوصفين هما أفضل نعوت الرؤساء والزعماء المدبرين لأمور الأمم بالحق والعدل والفضل، وفي الصحاح والقاموس أن الرأفة أشد الرحمة. وجعلهما بعض اللغويين والمفسرين بمعنى واحد. وقال بعضهم أن الرأفة أخص لا تكاد تقع في الكراهية، والرحمة قد تقع في الكراهية للمصلحة، واختار الرازي أنها مبالغة في رحمة مخصوصة من دفع المكروه وإزالة الضرر. وقال أستاذنا إنها لا تستعمل إلا في حق من وقع في بلاء، اختياراً لقول الرازي (ج ٢ تفسير) وأصح منه أنها تستعمل في مكان الضعف والشفقة والرقة كقولهم رأف بولده وترأف به وتقديمه على الرحيم هو الواجب كأنه قال رؤوف بضعفاء المؤمنين وأولي القربى منهم، ورحيم بهم كلهم وتخصيص رأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين، في مقابلة ما أمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين، لا يعارض كون رسالته رحمة للعالمين، كما هو ظاهر، فإن هذه الرحمة مبذولة لجميع الأمم لعموم بعثته ﷺ ولكن منهم من قبلها ومنهم من ردها، وقد بينا في تفسير (وأغلظ عليهم) أنه إنما أمر بذلك صلوات الله تعالى عليه لأن الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة والأدب في المقابلة والمعاشرة. وقد قال تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس رضي الله عنه في الآية ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ قال ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ مضريها وربيعيها ويمانيها، يعني أن نسبه متشعب في جميع قبائل العرب وبطونها. وعنه في ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ قال شديد عليه ما شق عليكم ﴿حريص عليكم﴾ أن يؤمن كفاركم.

ومن القراءة الشاذة في الآية ﴿أنفسكم﴾ بفتح الفاء من النفاسة رواها ابن مردويه من حديث علي مرفوعاً وقرأ بها ابن عباس والزهري وابن محيصن ورويت عن الإمام جعفر الصادق عن أبيه الإمام محمد الباقر، وهي خبر واحد لا يثبت بها القرآن، وفيها أن المعهود في فصيح الكلام أن النفيس والأنفس مما يوصف به الأشياء لا الأشخاص.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ هذا التفات عن خطاب أمة الرسول أو قومه الذين امتن الله تعالى عليهم بمجيئه رسولاً إليهم من أنفسهم وبفضائله العائدة عليهم، إلى خطابه ﷺ وبيان ما يجب عليه في حال إعراضهم عن الاهتداء والانتفاع بما خاطبهم به ربهم في شأنه. يقول: فإن تولوا وانصرفوا عن الإيمان بك والاهتداء بما جئتهم به، فقل حسبي الله أي هو محسبي الذي يكفيني أمر توليهم وإعراضهم، وما يعقبه من عداوتهم لي وصدهم عن سبيله وقد بلغت وما قصرت ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود غيره ألجأ إليه بالدعاء والاستعانة كما يلجئون إلى آلهتهم المنتحلة ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وحده، فلا أكل أمري فيما أعجز عنه إلى غيره، وكيف لا أخصه بالتوكل ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو مركز تدبير أمور الخلق كلها كما قال الآية الثالثة من السورة التالية ﴿ثم استوى على العرش يدبر الأمر﴾ [يونس: ٣] قرأ جمهور القراء العظيم بالخفض على أنه صفة للعرش. وقرىء بالرفع على أنه صفة لرب، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير.

وعظمة العرش بعظمة الرب الذي استوى عليه، وعظمة الملك الكبير الذي هو مركز تدبيره ووحدة النظام فيه، وعظمتهما في الملأ الأعلى وفيما دونه هي المظهر الوجودي لعظمة هذا الرب التي لا تحد، ولا يدرك كنهها أحد، ودليل على أنه الإله الحق الذي لا يصح أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه، وكيف يعبد غيره بالدعاء أو غيره أو يتوكل على سواه من يعلم أنه هو الرب المالك للعالم كله والمدبر لأموره ويراجع هنا تفسير ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾ [الأنفال: ٦٤] [في ج ١٠] وفسر بعضهم العرش هنا بالملك (بالضم) لأنه يطلق عليه تجوزاً، وهو خطأ منهم لأن هذا التجوز لا مسوغ له، ولا يصح في كل الآيات التي ورد فيها اللفظ، والمعنى الحقيقي أبلغ منه وأعم، فإنه يدل على المعنى المجازي وزيادة إذ ليس لكل ملك في الأرض عرش حقيقي هو المركز الوحيد لتدبير كل شيء فيه. فالعرش العظيم يدل على الملك

العظيم وعلى وحدة النظام والتدبير فيه، ولفظ: الملك العظيم لا يدل على هذا، لاحتمال وجود الخلل فيه وكون تدبيره ليس له مرجع وحدة تكفل النظام، وتمنع الخلل والفساد، ونظار المتكلمين ومفسروهم يتأولون العرش والاستواء عليه فراراً من التشبيه الذي يستلزمه بزعمهم المبني على قياس عالم الغيب على عالم الشهادة، وقياس الخالق على المخلوق، وهو قياس باطل بإجماعهم، وقال ابن عباس سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وفي الدر المنثور روايات في وصف العرش ومادته هي من الإسرائيليات لا يصح فيها شيء مرفوع.

ونختم تفسير الآيتين بتحقيق مسألتين ذكرتا في تفسيرهما المأثور ولم نر أحداً حققهما:

الأولى ما ورد في كتابة الآيتين عن النبي ﷺ وكونهما آخر ما نزل

إن معنى هاتين الآيتين لا يظهر إلا في دعوته ﷺ إلى الإسلام بمكة في أول زمن البعثة. وقد ذكرت في الكلام على هذه السورة قبل البدء بتفسيرها أن ابن أبي الفرس قال إنهما مكيتان، وأنه يرد قوله ما ورد من أنهما آخر ما نزل من القرآن، ثم ذكرت هنالك أصح ما ورد في آخر ما نزل من القرآن وهو غير هاتين الآيتين.

وأقول الآن إن قول ابن أبي الفرس هو الوجيه من جانب المعنى فهو يؤيد الرواية وأما القول بأنهما آخر ما نزل فقد أخرج في بعض المسانيد والتفاسير المأثورة عن أبي بن كعب بألفاظ متقاربة **منها**: عن ابن عباس عنه: أن آخر آية أنزلت على النبي ﷺ وفي لفظ أن آخر ما أنزل من القرآن ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ الخ الآية **ومنها**: عن الحسن عنه أنه كان يقول: إن أحدث القرآن عهداً بالله ـ وفي لفظ بالسماء ـ هاتان الآيتان ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ الخ السورة **ومنها**: من طريق أبي العالية عنه أنهم جمعوا القرآن في مصحف في خلافة أبي بكر فكان رجال يكتبون ويملُ عليهم أبي بن كعب حتى انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [التوبة: ١٢٧] فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال أبي بن كعب إن النبي ﷺ قد أقرأني بعد هذا آيتين ﴿لقد جاءكم﴾ ـ إلى ـ ﴿رب العرش العظيم﴾ قال فختم الأمر بما فتح به: بلا إله إلا الله اهـ. وهو صريح في أنهما آخر ما نزل من هذه السورة، لا من القرآن مطلقاً إلا إذا صح أن سورة براءة آخر سورة نزلت والصحيح في الرواية أن آخر ما نزل من السور سورة النصر ومن الآيات ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ [البقرة: ٢٨١] كما تقدم في محله.

وفي حديث زيد بن ثابت في جمع القرآن المكتوب الذي كان متفرقاً في عهد

أبي بكر عند ابن سعد وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم ـ أنه قال: حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى آخرهما اهـ والمراد أنه لم يجدهما مكتوبتين عندما جمع المكتوب في الرقاع والاكتاف والعسب في هذه السورة إلا عند خزيمة، وفي رواية في البخاري وغيره عند أبي خزيمة وهي أرجح كما سيأتي، إلا أن تكونا وجدتا عند كل منهما ـ وكانتا محفوظتين للكثيرين كما صرح به في الروايات الأخرى.

فقد أخرج ابن إسحاق وأحمد وابن أبي داود في المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿لقد جاءكم رسول﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ إلى عمر فقال من معك على هذا؟ فقال: لا أدري والله إلا أني أشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ ووعيتهما وحفظتهما، فقال عمر وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها بها، فألحقت في آخر براءة. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ أن رجلاً من الأنصار جاء بهما عمر فقال عمر لا أسألك عليها بينة أبداً كذلك كان رسول الله ﷺ يقرأها.

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف أن خزيمة بن ثابت جاء عثمان حين تصدى لكتابة القرآن بعد مقتل عمر فقال إني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما، فقالوا ما هما؟ قال تلقيت من رسول الله ﷺ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم﴾ الخ السورة. فقال عثمان: وأنا أشهد أنهما من عند الله فأين ترى أن نجعلهما؟ قال اختم بهما آخر ما نزلت من القرآن فختمت بهما براءة.

فيؤخذ من مجموع الروايات أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين إلا أنهم اختلفوا في موضعهما، ففي بعضها أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبي ﷺ، وفي بعضها أنهما وضعتا بالرأي والاجتهاد، والمعتمد الأول قطعاً لأن من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ. والظاهر أن سبب الاختلاف في موضعهما أن موضوعهما يدل على أنهما مكيتان، ولم تصح لجماعة جامعي المصحف رواية بكتابتهما في إحدى السور المكية، ولكن وجدتا عند أبي خزيمة مكتوبتين في آخر براءة. وفي الصحيح أن زيد بن ثابت ـ الذي كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ وهو الذي أمره أبو بكر بجمع القرآن مع آخرين وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون قال: فوجدت آخر براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة بالشك وهو من الراوي لا من زيد، وفي رواية عنه مع خزيمة، والتحقيق الذي قرره الحافظ ابن حجر أن آخر التوبة وجد عند أبي خزيمة، وأما الذي وجد مع خزيمة فهو آية الأحزاب وذلك ما رواه البخاري في تفسير سورتها عن زيد بن ثابت قال: لما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة

الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين من المؤمنين ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ قال الحافظ في شرحه: هذا يدل على أن زيداً لم يكن يعتمد في جمع القرآن على علمه ولا يقتصر على حفظه. لكن فيه إشكال لأن ظاهره أنه اكتفى مع ذلك بخزيمة وحده والقرآن إنما يثبت بالتواتر. والذي يظهر في الجواب أن الذي أشار إليه أنه فقده فقد وجودها مكتوبة لا فقد وجودها محفوظة، بل كانت محفوظة عنده وعند غيره، ويدل على هذا قوله في حديث جمع القرآن «فجعلت أتتبعه من الرقاع والعسب كما سيأتي مبسوطاً في فضائل القرآن» اهـ.

وأقول: إنني قد ذكرت آنفاً أن هذا هو المراد منه وهو ما كنت أفهمه دون غيره وأجيب به من سألني عنه مستشكلاً. فقول الحافظ: والذي يظهر الخ كان يجب أن يكون: والذي يتعين القطع به كذا، وحسبك دليلاً على هذا أنه قال إنهم كانوا يسمعون رسول الله ﷺ يقرؤها فهو صريح في أن البحث كان عمن كتبها فقط وجملة القول أن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة وإنما اختلفوا عند الجمع في موضع كتابتهما حتى شهد من شهد أن النبي ﷺ هو الذي وضعهما في آخر سورة براءة وفاقاً لقول أبي بن كعب الذي ثبت في الصحيح أنه أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتباً عن النبي ﷺ وكذا زيد بن ثابت. وكان عدد المختلفين في موضعهما قليلاً فلما كتبتا في المصاحف وافق الجميع على وضعهما هنا، ولم يرو أي اعتراض على ذلك عمن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود رضي الله عنه.

بقي البحث في حكمة وضعهما في آخر هذه السورة المدنية وموضوعهما مكي يؤيده كون الخطاب فيهما لقومه ﷺ على ما جزم به جماهير المفسرين، وما هما بأول ما وضع من الآيات المكية في السور المدنية لمناسبة اقتضت ذلك. ولعل الحكمة في ذلك أن يفيدا بموضعهما صحة الخطاب بهما لكل من تبلغه الدعوة من أمة الإجابة، وهو ما ذهب إليه الخطابي، كما دل موضوعهما ونزولهما بمكة ـ كما قال ابن أبي الفرس ـ على كون الخطاب فيهما لقومه ﷺ وهو ما جزم به الجماهير. ويكون ما قلناه جامعاً بين الأقوال كلها.

طهارة نسبه ﷺ وفضل قومه واصطفاؤه من خيارهم

من المأثور في تفسير الآيتين ما ذكروا في قوله تعالى: ﴿رسول من أنفسكم﴾ من الأحاديث المرفوعة في طهارة نسبه ﷺ من سفاح الجاهلية ومن فضل قومه وعشيرته وعترته وأهل بيته على غيرهم وأصح ما ورد في هذا ما رواه مسلم والترمذي

من حديث واثلة رضي الله عنه مرفوعاً «أن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(١) ولم أر لأحد من العلماء بياناً لمعنى هذا الاصطفاء بم كان؟ وقد وفقني الله لاستنباطه من التاريخ العام، وبينته في المنار وفي خلاصة السيرة المحمدية في جواب السؤال عن حكمة بعثه خاتم النبيين، بالرسالة العامة للناس أجمعين، بالدين العام للبدو والحضر ـ من العرب الذين غلبت عليهم جهالة البدو، وبعد عهدهم بما سبق لأمتهم من الحضارة والعلم، ولم يبعث من بعض شعوب الحضارة القريبة كالفرس والروم والهند والصين، ويليه السؤال عن مزية كنانة في العرب من آل إسماعيل، الذين امتازوا على سائر العرب بأنهم ممن اصطفى الله من آل إبراهيم، ثم عن مزية قريش في بني كنانة وفضل بني هاشم على سائر قريش؟

خلاصة ما بينته في فضل العرب على سائر الأمم، الذي أعدهم به الله لبعثة سيد البشر من العرب والعجم، بالدين العام الباقي هي أن جميع شعوب الحضارة المشار إليها وغيرها كانت قد فسدت غرائزها وأخلاقها الفطرية، وعقائدها الدينية، وآدابها التقليدية، بفساد رؤساء الدين والدنيا فيها، وتعاون الفريقين على استعبادها واستذلالها لهما، وتسخيرها لتوفير لذاتهما وتشييد صروح عظمتهما، بسلب حريتهم العقلية بالتقاليد الدينية التي يفرض عليهم الكهنة والأحبار والقسوس الخضوع لها، بدون أن يكون لهم أدنى رأي أو اختيار أو فهم فيها، وسلب حرية إرادتهم في حياتهم الشخصية والاجتماعية، بما يضع لهم الملوك والحكام من القوانين والنظم الإدارية والعسكرية الاستبدادية، ويتحكمهم فيهم بدون قانون ولا نظام أيضاً، فجميع الأمم والشعوب كانت مرهقة مستعبدة في دينها ودنياها إلا العرب ولا سيما عرب الحجاز.

وأما العرب فلم يكن عندهم رياسة حكم استبدادية تستذلهم وتفسد بأسهم وتقهر إرادتهم على ما لا يريدون، ولا رياسة دينية تقهرهم على اتباع تقاليد تعبدية لا يعقلونها، بل كانوا على أتم الحرية العقلية واستقلال الإرادة في دينهم ودنياهم، وفي أعلى ذروة من عزة النفس، وشدة البأس، فبحرية عقولهم كانوا على أتم الاستعداد لفهم دين العقل والفطرة، وباستقلال إرادتهم كانوا على أكمل الاستعداد للنهوض بما اعتقدوا حقيته وصلاحه وخيريته، ولإقامته في قومهم، ونشره في غيرهم، والدفاع عنه باختيارهم، وتصرفهم في كل ذلك بمقتضى الوازع النفسي، دون تحكم رئيس ديني ولا دنيوي، فإن هذا الدين إنما أوجب طاعة الأئمة والقواد بالمعروف والإذعان للشرع، وما تضعه الأمة لنفسها من النظام بالشورى بين ممثليها من أهل الحل والعقد،

(١) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١، والترمذي في المناقب باب ١، وأحمد في المسند ١٠٧/٤.

حتى فرض الله على الرسول ﷺ مشاورتها في أمورها، وقال له ربه في صيغة مبايعة نسائها له ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ وبها كان يبايع الرجال كالنساء ولذلك قال ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق إنما الطاعة في المعروف»[1] رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث علي كرم الله وجهه.

وأما كنانة فقد كان أشهر ذرية إسماعيل في العلم والحكمة، والكرم والنبل، حتى كانت العرب تحج إليه، وينقلون عنه حكماً رائعة، وكفى بهذا اصطفاء عليهم، وامتيازاً فيهم.

وأما امتياز قريش على سائر العرب فهو معروف متواتر وأهمه أن ما ذكرناه من عزة النفس، واستقلال الإرادة والعقل، كان أكمل فيهم، فإن بعض العرب في أطراف جزيرتهم خضعوا لسيادة الفرس والروم خضوعاً ما، وجملته أنهم كانوا أصرح ولد إسماعيل أنساباً، وأشرفهم أحساباً، وأعلاهم آداباً، وأفصحهم ألسنة، وهم الممهدون لجمع الكلمة العامة، بعد أن جمع قصي جميع قبائلهم بمكة، واستقلوا بخدمة المسجد الحرام من الحجابة وسقاية الحاج والرفادة وهي إسعاف الفقراء والمساكين من الحجاج وغيرهم، وأسسوا دار الندوة لأجل الشورى في الأمور المهمة، وكانوا أعرف العرب ببطون العرب في جميع جزيرتهم بما كانوا يتناوبونه من رحلة الشتاء والصيف، وبذلك كانوا أغنى العرب أيضاً وأشرفهم بلا منازع، وناهيك بما عقدوا من حلف الفضول في حداثة سن الرسول وهو أنهم تعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوماً إلا قاموا معه، وكانوا عوناً له على من ظلمه إلى أن ترد مظلمته، وفي حديث الزبير بن العوام وأم هانىء عن الطبراني وتاريخ البخاري «فضل الله قريشاً بسبع خصال: فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد الله إلا قرشي (أي لا يعبده وحده من العرب إلا قرشي) وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون (أي نصرهم على قوة تفوق قوتهم كثيراً بما يشبه نصره لرسله في كونه بدون استعداد كسبي يقرب من استعداد عدوكم) وفضلهم بأنه نزل فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين وهي ﴿لإيلاف قريش﴾ [قريش: ١] وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية».

وأما اصطفاؤه تعالى لبني هاشم على قريش فقد كان بما امتازوا به من الفضائل والمكارم فقد كان جدهم هاشم هو صاحب إيلاف قريش الذي أخذ لهم العهد من قيصر الروم على حمايتهم في رحلة الصيف إلى الشام، ومن حكومة اليمن في رحلة

(١) أخرجه البخاري في الأحكام باب ٤، والآحاد باب ١، والمغازي باب ٥٩، ومسلم في الإمارة حديث ٣٩، ٤٠، وأبو داود في الجهاد باب ٨٧، والنسائي في البيعة باب ٣٤، وأحمد في المسند ١/ ٨٢، ٩٤، ١٢٤.

الشتاء، وهو أول من هشم الثريد للفقراء من قومه ولأهل موسم الحج كافة، وقد أربى عليه في السخاء والكرم ولده عبد المطلب، وجملة القول إن بني هاشم كانوا أكرم قريش أخلاقاً وأبعدهم عن الكبر والأثرة، لا ينازعهم أحد في ذلك، وقد قال أبو جهل في حسده إياهم على كون الرسول ﷺ منهم: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا... حتى إذا زاحمناهم بالمناكب قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك هذه؟ ويؤخذ منه أنهم كانوا يعلمون أن النبوة لا يمكن أن تكون بالاجتهاد والمباراة الكسبية في الفضائل، وأن القرآن لا يمكن أن يعارضه أحد في بلاغته ولا هدايته، لأنه من الله لا من علم محمد ﷺ وفصاحته وبلاغته، ولولا ذلك لعارضه من كانوا أشهر العرب في ذلك ولم يكن محمد منهم.

وقد ورد في فضل هذه الخاتمة لهذه السورة المباركة ما رواه أبو داود عن أبي الدرداء موقوفاً وابن السني عن أبي الدرداء مرفوعاً قال قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يصبح وحين يمسي: حسبي الله لا إله هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ـ سبع مرات ـ كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة» كذا في الدر المنثور ويراجع ما قاله ابن كثير آخر في تفسير السورة فيه، وهو لا يمنع العمل به، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين.

(تم تفسير سورة براءة بفضل الله وتوفيقه في شهر صفر سنة خمسين وثلاثمائة وألف وبقي تلخيص ما فيها من أصول الدين وأحكامه وحكمه وسياسته وآدابه وسنن الله في ذلك، فنسأله تعالى توفيقنا فيه للحق الذي يرضاه وينفع عباده).

خلاصة سورة براءة (التوبة)

وهي خمسة أبواب وفيها فصول

(هذه السورة آخر السور المدنية الطول نزولاً فيقل فيها ذكر أصول الدين وما يناسبها من الحجج العقلية والسنن الكونية وكذا أحكام العبادات البدنية. ـ راجع مقدمة خلاصة سورة الأنفال والتناسب بين السورتين في ج ١٠).

الباب الأول

في صفات الله تعالى وأفعاله
وشؤونه في خلقه وأحكامه وسننه فيها
وفيه أربعة فصول

الفصل الأول
في الأسماء والصفات الإلٰهية والإضافات إليه تعالى

١ ـ الأسماء والصفات

في هذه السورة من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى: الغفور الرحيم، الرؤوف الرحيم، العليم الحكيم، العزيز الحكيم، السميع العليم، عالم الغيب والشهادة. ومنها المكرر مرتين وثلاثاً أو أكثر، وكل منها موضوع في موضعه المناسب لمعناه في السياق أو الآية. وأما الفائدة العامة لذكر أسماء الله تعالى وصفاته وتكرارها في المواضع المختلفة فهي تذكير تالي القرآن وسامعه المرة بعد المرة بربه وخالقه وما هو متصف به من صفات الكمال الذي يثمر له زيادة تعظيمه وحبه، والرجاء في رحمته وإحسانه، والخوف من عقابه، لمن أعرض عن هداية كتابه، أو خالف حكمته وسننه في خلقه، وهذا أعلا مقاصد القرآن، في إكمال الإيمان، وإعلاء شأن الإنسان (فراجعه في ج ١٠).

ومما ورد فيها في العلم الإلٰهي قوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرّهم ونجواهم، وأن الله علام الغيوب﴾ [التوبة: ٧٨] وقوله: ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ [التوبة: ١٦] ـ إلى قوله ـ ﴿والله خبير بما تعملون﴾ [التوبة: ١٦] وهما أعظم ما يجدد في القلب مراقبته عزَّ وجلَّ عند كل قول وعمل، وحسبك بهما وازعاً ورافعاً.

٢ ـ المعية الإلٰهية

في هذه السورة من المعية العليا قوله تعالى في آية الغار عن رسوله ﷺ ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠] وهي معية النصر والمعونة، والحفظ والعصمة، والتأييد والرحمة، كما يقتضيه المقام في حال الهجرة، وهذه المعية أفضل من كل ما ورد في معناها، ومن أعظمه قوله تعالى لكليمه موسى وأخيه هارون عليهما السلام ﴿لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه: ٤٦] فراجع (ج ١٠) وفي الآية ١٢٣ ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ وهذه معية النصر لأنها معطوفة على الأمر بالقتال ويقال في كل منها مع العلم بمعناها أنها معية تليق به تعالى.

٣ ـ الدرجة والعندية الإلٰهية وسكينته تعالى

قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أعظم درجة عند الله﴾

[التوبة: ٢٠]. وقد قلنا في تفسير هذه العندية [ج ١٠] أنها حكمية [بضم الحاء] شرعية، ومكانية جزائية، أي هم أعظم درجة في الفضل والكمال في حكم الله، وأكبر مثوبة في جوار الله.

وقال بعد بشارتهم بالرحمة والرضوان والجنات والنعيم المقيم والخلود فيها من الآية ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ [التوبة: ٢٢] وهو استئناف بياني فالعندية فيه مفسرة لما قبلها. وقال: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض﴾ [التوبة: ٣٦] فالعندية هنا يفسرها ما بعدها وهو كتاب الله الذي كتب فيه مقادير السموات والأرض ونظام الأيام والليالي والشهور والسنين. وقيل كتابه المنزل الذي فيه حكمه التشريعي في الشهور وهو قوله بعد ما ذكر [منها أربعة حرم] الخ.

وفي الآية ﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾ [التوبة: ٥٢] فعندية العذاب عبارة عن كونه بفعله تعالى دون كسب للمؤمنين وهو ما يسمى بالمصائب السماوية بدليل مقابلته بقوله: ﴿أو بأيدينا﴾ والإضافة في العندية الحكمية للتوقيف والتعريف، وفي العندية المكانية للتشريف، ومثلها إضافة السكينة إليه تعالى.

٤ ـ حب الله ورضاه وكرهه وسخطه وغضبه

قال تعالى: ﴿إن الله يحب المتقين﴾ [التوبة: ٧] وقال في المهاجرين والأنصار ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ [التوبة: ١٠٠] وقال في جزاء المهاجرين المجاهدين ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [التوبة: ٧٢] ويدخل في معناه ما صح في الأحاديث من مقام الرؤية كما بيناه في تفسيرها وقال في شأن المنافقين ﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ [التوبة: ٩٦] أسند الله تعالى إلى نفسه الحب والرضى في هذه الآيات وفي سور أخرى، كما أثبت لنفسه الكره في قوله من هذه السورة ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ [التوبة: ٤٧] والسخط والغضب في سور أخرى.

والمتكلمون يتأولون هذه الصفات بالإثابة والإحسان من لوازم الحب والرضى، وبالعقاب من لوازم السخط والكره والغضب، فراراً من تشبيه الخالق بعبيده الذين تعد هذه الصفات انفعالات نفسية لهم يتنزه الله عنها. ومذهب السلف الصالح إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه وأثبته له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، فيقولون إن حب الله تعالى وكرهه ورضاه وغضبه صفات تليق به تترتب عليها آثارها، وهي لا تماثل ما سمي باسمها من صفات البشر، كما أن ذاته ونفسه وعلمه وقدرته لا تماثل ذوات البشر وعلمهم وقدرتهم بلا فرق. بل نقول إن من خلق الله في عالم الغيب من

الجن والملائكة لا يماثل في إدراكاته ولا في غيرها ما في عالم الشهادة، بل روي في ثمر الجنة أنه يشبه ثمر الدنيا وليس مثله وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه ليس في الجنة من أطعمة الدنيا إلا الأسماء. وقال تعالى في نعيم الآخرة: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧] وقال النبي ﷺ في تفسيره له: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(١) وأمر بقراءة الآية متفق عليه.

وأما الكلام مع أهل التأويل من ناحية الأدلة العقلية التي يزعمون الانفراد بها دون علماء السلف فهو أن حب الحق والخير كالإيمان والعدل وأهلهما، وكراهة الباطل كالكفر، والشر كالظلم ومجترحيهما، كلاهما من صفات الكمال المحض، وكل ما كان كمالاً محضاً فالعقل يوجبه لواجب الوجود بأعلا مما يكون منه للوجود الممكن ـ فقد اتفق العقل مع النقل على إثبات هذه الصفات لله بمعنى أكمل مما هي في خيار الناس، ولكن لا يمكن وضع أسماء لها من كلام الناس تدل على الفرق بين مسمياتها في الخالق والمخلوق، فوجب الرجوع في ذلك إلى الوحي الفاصل وهو قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] فالتنزيه في الجملة الأولى السالبة أزال ما يستلزمه التشبيه في الجملة الثانية الموجبة، بل قال الشيخ محيي الدين بن عربي في تفسير هذه الآية: إن الإيمان الصحيح هو الجمع بين التنزيه والتشبيه.

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٥، وبدء الخلق باب ٨، وتفسير سورة ٣٢، باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٣١٢، والجنة حديث ٢ ـ ٥، والترمذي في الجنة باب ١٥، وتفسير سورة ٣٢، باب ٢، وسورة ٥٦، باب ١، وابن ماجه في الزهد باب ٣٩، والدارمي في الرقاق باب ٩٨، ١٠٥، وأحمد في المسند ٢/٣١٣، ٣٧٠، ٤٠٧، ٤١٦، ٤٣٨، ٤٦٢، ٤٦٦، ٤٩٥، ٥٠٦، ٥/٣٣٤.

الفصل الثاني

أفعال الله في تصرفه

وتدبيره لأمور خلقه بمقتضى سننه، لا بجعلهم مجبرين بقدرته

قال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم﴾ [التوبة: ١٤] الآية. يتوهم أهل الجبر أنها تدل على نحلتهم، ويرده أنه تعالى أمرهم بقتال المشركين، ولو كانوا مجبرين لكان أمرهم لغواً وعبثاً. وقوله: ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾ معناه يعذبهم بتمكين أيديكم من رقابهم قتلاً، ومن صدورهم ونحورهم طعناً، ويؤكده الوعد بعده بنصرهم وفي معناه قوله: ﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾ [التوبة: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [التوبة: ١٩] وقال في آيتي ٢٤ و٨٠ ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ وقال: ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ [التوبة: ٣٧] وليس معنى هذه الآيات أن الله تعالى منعهم من الهداية بقدرته فصاروا عاجزين عنها ومجبرين على الفسق والظلم والكفر إجباراً، وإنما معناها ما بيناه في تفسيرها وهو أن هذه الصفات التي رسخت في أنفسهم بكسبهم منافية لهدى الله تعالى الذي بعث به رسله بحسب سنته تعالى في الأسباب والمسببات (راجع ج ١٠) ويقابله قوله تعالى قبل الآية الأولى من هذه الآيات فيمن ترجى لهم الهداية بحسب سنن الله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ [التوبة: ١٨].

ويدخل في هذا الباب من بيان السنن وطبائع البشر قوله في خوالف المنافقين ﴿وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ [التوبة: ٨٧] ثم قوله فيهم ﴿وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ [التوبة: ٩٣] فهو بيان لسنة الله في تأثير أعمالهم التي منها رضاهم بخطة الخسف والذل وهو التخلف عن الجهاد أن قلوبهم كالمطبوع عليها التي لا تفقه كنه حالها ولا تعلم سوء مآلها (ج ١٠) وفي معناه قوله في الذين ينصرفون منهم متسللين من مجلس القرآن ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [التوبة: ١٢٧] أي بسبب أنهم قوم فقدوا صفة الفقاهة الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال لعدم استعمال عقولهم فيها الخ ما فصلناه في تفسيرها (ج ١١) وبهذه المرآة ترى حقيقة المراد من قوله تعالى: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم﴾ [التوبة: ٤٦] وراجعه في ج ١٠ وقوله: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ [التوبة: ٦٧] وراجعه في ج ١٠.

الفصل الثالث

في تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه وسننه فيهما

١ ـ ترى تعليل الأمر بإتمام العهود الموقتة بقوله تعالى: ﴿إن الله يحب المتقين﴾ [التوبة: ٤].

٢ ـ ترى تعليل الأمر بتخلية سبيل التائبين من المشركين بقوله تعالى: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ [التوبة: ٥].

٣ ـ ترى تعليل الأمر بإجارة المشرك المستجير لسماع كلام الله بقوله: ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ [التوبة: ٦].

٤ ـ ترى تعليل الأمر بقتال المشركين الناكثين للعهد بقوله: ﴿لعلهم ينتهون﴾ [التوبة: ١٢].

٥ ـ ترى تعليل عدم قبول صدقات المنافقين بفسقهم ثم بكفرهم في آيتي ٥٣ و ٥٤.

٦ ـ ترى تعليل عدم المغفرة لهم بكفرهم بالله ورسوله وفسقهم في الآية ٧٩.

٧ ـ ترى تعليل النهي عن الصلاة على موتاهم بكفرهم بالله ورسوله في الآية ٨٤.

٨ ـ ترى تعليل الأمر بأخذ الصدقة من المؤمنين بتطهيرهم وتزكيتهم بها ١٠٣.

٩ ـ ترى تعليل فتنة المنافقين في كل عام بأمل التوبة والتذكر ١٢٦.

فيعلم من كل تعليل أن حكمته تعالى في أفعاله وأحكامه منفعة عباده ومصلحتهم وخيرهم.

سننه تعالى في أفراد البشر وأقوامهم وأممهم.

بيّنا سنن الله تعالى في تأثير العقائد والصفات النفسية في الأعمال وترتب الأعمال عليها في مواضع منها إخزاء الكافرين في الآية الأولى ومنها نفي هداية الله تعالى للظالمين والفاسقين والكافرين في الآيات ١٩ و ٢٤ و ٣٧ و ٨٠ ومنها كراهته تعالى انبعاث المنافقين للقتال وتثبيطه لهم وقوله: ﴿اقعدوا مع القاعدين﴾ في الآية ٤٦ ومنها طبعه على قلوبهم في الآيتين ٨٧ و٩٣ وفي معناه صرف قلوبهم

عن الإيمان بالقرآن في الآية ١٢٧ وتقدم بيان هذا في الفصل الذي قبل هذا.

ومن بيان سننه تعالى في الأمم قوله تعالى: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ [التوبة: ٣٩] فبقاء الأمم وعزتها يتوقفان على قوة الدفاع الحربية (راجع تفسيرها) ومنها قوله: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ [التوبة: ٤٧] فراجع تفسيرها ومنها قوله: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يتبين لهم ما يتقون﴾ [التوبة: ٤٧].

الفصل الرابع
في قضاء الله وقدره وولايته للمؤمنين وتوكلهم عليه

هذه عدة عقائد من أصول الإيمان، وكمال التوحيد والإيقان، جمعت كلها في آية واحدة من هذه السورة أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد بها على المنافقين الذين أخبره عنهم بأنهم تسوءهم كل حسنة تصيبه كالنصر والغنيمة في غزوة بدر، وتفرحهم كل مصيبة تصيبه كالنكبة التي وقعت في غزوة أحد وهي ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [التوبة: ٥١] فتصور حال مؤمن يوقن أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له ـ وأنه إن لم يكن يعرف هذا المكتوب له بعينه فهو يعتقد أنه لا يعدو في جملته وعده تعالى له من حيث هو مؤمن من الخير والنصر والشهادة في سبيل الله المعبر عنهما بالحسنيين في الآية التي بعد هذه أي آية ٥٢ ويعتقد أن الله تعالى هو مولاه الذي يتولى نصره وتوفيقه، فهو بمقتضى إيمانه يتوكل عليه ويفوض أمره إليه، تصور حال مؤمن تمكنت هذه العقائد من نفسه، وملكت عليه وجدانه، هل يخاف من غير الله؟ هل ييأس من روح الله؟ هل يمنعه أي خطب من الخطوب عن الجهاد لإعلاء كلمة الله، وإقامة دين الله، وبذل الجهد، في إقامة الحق والعدل، ومد بساط البر والفضل؟ وتصور حال أمة يغلب على أفرادها ما ذكر ألا تكون أعز الأمم نفساً، وأشدها بأساً؟

ويؤيد هذه العقائد ويزيدها رسوخاً في قلب تالي هذه السورة ختمها بقوله عز وجل: ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ [التوبة: ١٢٩] فينبغي للمؤمن أن يتأمل معناها ويطالب نفسه بالتحقق به، فإنه يجد به من حلاوة الإيمان وعزة النفس ما يحتقر به خسائس المادة التي يتكالب الماديون عليها، ويبخعون أنفسهم انتحاراً إذا فاتهم أو أعياهم شيء منها، وقد ورد في ذلك عن أم الدرداء عن أبي الدرداء (رض) من قال إذا أصبح وإذا أمسى «حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه» وقد تقدم هذا في تفسير الآية.

الباب الثاني

في مكانة محمد رسول الله
وخاتم النبيين عند ربه وفي هداية دينه
وحقوقه على أمته
وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في اقتران اسمه باسم ربه وحقه ﷺ بحقه عز وجل

وفيه أربعة عشر شاهداً

١ و ٢ ـ افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ وعطف عليها قوله تعالى: ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر﴾ الخ فقرن تعالى اسم نبيه باسمه في تبليغ أحكامه وتنفيذها.

٣ ـ قال تعالى في وصف كملة المؤمنين من الآية ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ [التوبة: ١٦] أي دخيلة وبطانة من غيرهم يطلعونهم على الأسرار، ولهذا أشرك المؤمنين في هذا لأنه يتعلق بحقوقهم في ولاية بعضهم لبعض دون أعدائهم، ويضرهم أن يكون بينهم ولائج ودخائل من غيرهم. دون ما قبله الذي هو تشريع هو حق الله تعالى وتبليغ وتنفيذ: هما حق رسوله ﷺ في عهده، وورثته من بعده.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ [التوبة: ٢٤] فجعل كمال الإيمان مشروطاً بتفضيل حب الله تعالى ورسوله على كل ما يحب في هذا العالم من الناس والمصالح والمنافع، ولكنه جعل الجهاد في سبيل الله وحده دون رسوله لأنه عبادة يتقرب بها إلى الله وحده وليس للرسول ﷺ أدنى حق ولا شركة مع الله عز وجل في عبادته.

٥ ـ قوله تعالى في صفات أهل الكتاب الذين شرع قتالهم من الآية [٢٩] ﴿ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله﴾ على القول بأن «رسوله» في الآية هو الفرد الأكمل خاتم النبيين وهو قول للمفسرين يقابله أن المراد به رسوله تعالى إليهم وهو موسى (١١ ع م) لليهود وعيسى (ع م) للنصارى.

وهل العطف في الآية يدل على أن الرسول قد أعطاه الله حق التحريم من تلقاء نفسه أم حظه منه التبليغ عن الله تعالى نصاً ولو في غير القرآن أو استنباطاً؟ اختلف علماؤنا في التشريع الدنيوي في هذه المسألة دون الديني المحض فذهب بعضهم إلى الأول وجعلوا منه تحريمه ﷺ للمدينة كمكه أن يصاد صيدها أو يختلى خلاها الخ

وذهب آخرون إلى الثاني ومنهم الإمام الشافعي وقد بينا هذه المسألة في موضع آخر بالتفصيل.

٦ ـ قوله تعالى في سبب منع المنافقين أن تقبل منهم نفقاتهم من الآية ٥٤ ﴿أنهم كفروا بالله ورسوله﴾ ومثله في سبب عدم انتفاعهم باستغفار النبي ﷺ من الآية ٧٩ ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ وهذا ظاهر فإن الدين إنما يكون بالجمع بين الإيمان برسوله وما جاء به، وأنى يعرف الله وما يرضيه من عبادته إلا من طريق رسله وما أوحاه إليهم؟

٧ ـ قوله تعالى في الذين لمزوا النبي ﷺ أي عابوه في قسمة الصدقات وكانوا يرضون إذا أعطوا ويسخطون إذا منعوا ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ [التوبة: ٥٩] والجمع فيها بين اسم الله واسم رسوله في موضعين أحدهما الرضاء بما آتيا وأعطيا بالفعل، والثاني الرجاء فيما يؤتيان من بعد، فأما العطاء من الله تعالى فهو أنه هو الذي أنعم وينعم بالغنائم في الحرب وهو الذي شرع قسمتها بين الغانمين، وجعل خمسها فيما تقدم في أول الجزء العاشر في مصالح المسلمين، ومنها مواساة الفقراء والمساكين، وهو المنعم بسائر الأموال، والذي فرض فيها ما تقدم تفصيله من الصدقات، وأما الرسول الله فهو القاسم للغنائم والصدقات بإعطائها لمستحقيها بالحق والعدل، ولذلك خص الله تعالى في الآية بالفضل، وفيها من أصول التوحيد، والتمييز بين ماله وحده وماله وللرسول أمران: **أحدهما**: أن المحسب الكافي للعباد هو الله وحده، ولهذا أرشدهم أن يقولوا: «حسبنا الله» ولم يقل ورسوله كما قال في الإيتاء **وثانيهما**: أن توجه المؤمن فيما يرغبه ويرجوه من الرزق وغيره يجب أن ينتهي إلى الله تعالى وحده وهو نص قوله: ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ [التوبة: ٥٩] ومنه ﴿وإلى ربك فارغب﴾ [الشرح: ٨] أي دون غيره (راجع ج ١٠).

٨ ـ قوله تعالى: ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين﴾ [التوبة: ٦٢] فمقتضى الإيمان الذي لا يصح بدونه تحري المؤمن إرضاء الله ورسوله في المرتبة الأولى، وإرضاء المؤمنين بما يتعلق بمعاملتهم في المرتبة الثانية التابعة للأولى، ذلك بأن كل ما يرضي الله عز وجل يرضي رسوله، وكل ما يرضي رسوله ﷺ يرضيه، فهما متلازمان، وأما المؤمنون فقد يرضي بعضهم ما لا يرضي الله ورسوله لجهله بما يرضيهما أو غفلته عنه أو اتباعه لهواه فيه. ومنه في موضوع الآية أن بعض المؤمنين من الصحابة الكرام ربما كانوا يصدقون أولئك المنافقين الذين يحلفون لهم بأنهم صادقون في اعتذارهم عما اتهموا به في غزوة تبوك، لأنهم لا يعلمون ما يعلمه الله تعالى من باطن أمرهم وما أعلم به رسوله منه،

ولذلك قال في آية أخرى ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ [التوبة: ٩٦].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم﴾ [التوبة: ٦٣] الآية وهذه مقابلة لما قبلها فإن من يحادد الله أي يعاديه يعادي رسوله كما أن من يرضي أحدهما يرضي الآخر، ومن ثم كان الجزاء واحداً.

١٠ ـ قوله تعالى في المنافقين الذين كانوا يخوضون في مسألة غزوة تبوك ويهزؤون بمحاولة غزو الروم ورجاء الرسول ﷺ النصر عليهم وبما كان وعد به أصحابه من الظفر بملكهم ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ [التوبة: ٦٥] فحكم الاستهزاء بالله وآياته الكفر، وهو حكم الاستهزاء برسوله، لأن الله تعالى هو الذي وعد رسوله بالنصر وأمره بالغزو، ورسوله إنما بلغ عنه آياته ووعده في ذلك.

١١ ـ قوله تعالى: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ [التوبة: ٩٠] الآية. معنى كذبهم إياهما إظهار الإيمان بهما كذباً وخداعاً ومن كذب الرسول في دعوى الإيمان فقد كذب الله ـ وإن لم يشعر بذلك ـ واستحق الجزاء الذي في الآية.

١٢ ـ قوله تعالى في أصحاب الأعذار الصادقة في التخلف عن الجهاد الواجب ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله﴾ [التوبة: ٩١] فاشترط لقبول عذرهم في القعود عن القتال النصح لله ورسوله في كل قول وعمل يقدرون عليهما في مقاومة الأعداء ومساعدة المؤمنين وغير ذلك فالنصح من أعظم شعب الإيمان، وراجع تفسير الآية.

١٣ ـ قوله تعالى في المعتذرين من المنافقين عن الخروج إلى تبوك ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم، وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ [التوبة: ٩٤] الآية. والمراد من ذكر رؤية الرسول لها إعلامهم أنه هو الذي سيعاملهم بمقتضاها في الدنيا، دون أقوالهم في الاعتذار عن تخلفهم وغيره من سيئاتهم. وأما رؤية الله تعالى لها فهي التي عليها مدار الجزاء في الآخرة كما صرح به في تتمة الآية (ج ١١) وفي معناها قوله تعالى: ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ [التوبة: ١٠٥] هذه الآية حث على العمل النافع للدنيا والآخرة وإنما ذكر المؤمنون هنا بعد ذكر الله ورسوله لتذكير العاملين بأن الله يرى أعمالهم وهو الذي يجازيهم عليها فيجب عليهم الاحسان والإخلاص له والوقوف عند حدود شرعه فيها. وبأن رسوله يراها ويعاملهم بمقتضاها ـ وهذا خاص بحال حياته ﷺ ـ وهو الشهيد عليهم فيها عند الله تعالى ليتحروا أن يشهد لهم لا عليهم ـ ثم

لتذكيرهم بأن المؤمنين يرونها فينبغي لهم أن يتبعوا فيها سبيلهم ويتحروا فيها ما يوافق المصلحة العامة التي يشتركون فيها وجماعة المؤمنين شهداء بعضهم على بعض وشهادتهم مقبولة عند الله تعالى (راجع تفسير الآية ج ١١).

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول﴾ [التوبة: ٩٩] فهذا ضرب من اقتران اسم الرسول ﷺ باسم الله تعالى في موضوع واحد مع الفصل فيه بين ما له تعالى وما لرسوله. فالذي لله عز وجل من هذه العبادة هو قصد القربة وابتغاء المرضاة والمثوبة، والذي للرسول ﷺ هو طلب صلواته أي أدعيته إذ كان يدعو للمتصدقين كما بيناه في تفسير الآية (ج١١).

وكل هذه الآيات مما يفند دعوى بعض الملاحدة أن دين الإسلام هو القرآن وحده دون سنة رسوله، وكذلك ما ترى في الفصلين اللذين بعده.

الفصل الثاني

في علو مكانته وعناية الله تعالى به وتكريمه وتأديبه تكميله إياه

وفيه ١١ منقبة بالإجمال وأضعاف ذلك بالتفصيل

المنقبة الأولى: جعل الإيمان به وطاعته وحبه وإرضائه مقرونة في المرتبة والثناء والثواب بما له عز وجل من ذلك على عباده ـ وجعل ما يقابل ذلك من الكفر به وعصيانه وبغضه وإغضابه وإيذائه مقرونة في الحظر والكفر والوعيد واستحقاق العذاب الأليم بالكفر بالله وعصيانه الخ وتجد ما في السورة من الأمرين مفصلاً في الفصل الأول الذي قبل هذا، فهي بضع عشرة لا منقبة واحدة.

الثانية: إنزال الله سكينته عليه وتأييده بجنوده من الملائكة في يوم حنين حين انهزم المؤمنون وولوا مدبرين كما هو مبين في الآيتين ٢٥ و ٢٦ (ويراجع تفسيرهما في ج ١٠).

الثالثة: نصر الله له عند خروجه للهجرة مع صاحبه الصديق ومعيته الخاصة لهما وإنزال سكينته عليهما وتأييدهما بجنوده من الملائكة، وفيها عدة مناقب كما تراه في آية الغار (٤٠) وتفسيرها البديع.

الرابعة: إتمام الله تعالى نوره به كما تراه في الآية ٣٢ وقال بعض المفسرين إنه هو ﷺ نور الله المراد من الآية فانظر تفسيرها في ج ١٠.

الخامسة: قوله تعالى بعدها ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ [التوبة: ٣٣] الآية وهي مشتملة على عدة مناقب فانظر تفسيرها في ج ١٠.

السادسة: قوله تعالى له ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ [التوبة: ٤٣] الآية وفيها من لطفه تعالى به وتكريمه إياه أن أعلمه بعفوه عنه قبل إعلامه بخطأ الاجتهاد في إذنه لبعض المنافقين بالتخلف عن الخروج معه إلى تبوك. وتجد في تفسيرها تحقيق الكلام في ذنوب الأنبياء عليهم السلام ص ٤٦٤.

السابعة: إعلامه تعالى إياه بأن استغفاره للمشركين وعدمه سيان في جانب حكم الله فيهم وهو أنه لا يغفر للمصرين على نفاقهم. وذلك في الآية ٧٠ وهذا تقييد لنفع الدعاء والشفاعة.

الثامنة: إعلامه تعالى بأنه ليس من شأن النبي من حيث هو نبي ولا من شأن المؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى بعد العلم بموتهم على كفرهم بعد أن فعلوا ذلك. وهذا نص الآية ١١٣ وهي إرشاد من الله لهم فيما يجب أن يقفوا عنده من مودة القرابة والنسب (راجع ج ١١).

التاسعة: نهيه تعالى إياه عن الصلاة على المنافقين أو القيام على قبورهم عند الدفن بعد صلاته على زعيمهم الأكبر الأكفر عبد الله بن أبي ابن سلول والقيام على قبره عند دفنه تكريماً لنجله المؤمن الصادق وتأليفاً لقومه وكان أكثر المنافقين منهم، وهذا النهي يتضمن الإنكار والتأديب والحد الذي يجب الوقوف عنده في معاملة المنافقين، وسيأتي تفصيله.

العاشرة: نهيه عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم وإعلامه بأن الله يعذبهم في الدنيا قبل الآخرة، وهو في الآيتين ٥٥ و ٨٥ على القول بأن الخطاب فيهما له ﷺ ويجوز أن يكون عاماً لكل من يسمع القرآن أو يقرؤه، وهو على كل تقدير تأديب من الله تعالى وتكميل للنبي والمؤمنين بالسمو بأنفسهم عن تعظيم شأن قوة الأموال وعزة الأولاد وزينتها يكونان للمحرومين من قوة الإيمان وعزته وهما اللتان لا يعلوهما شيء - وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون من أن النعم الصورية الدنيوية لا تتم لأهلها النعمة بها إلا باطمئنان القلوب بنعمة الإيمان، وتزكي الأنفس بأعمال الإسلام، وأن السعادة الحقيقية إنما هي سعادة النفس بالعلم والعرفان وعلو الأخلاق، ومن متمماتها الدنيوية كثرة الأموال والأولاد، وأن هؤلاء المنافقين بفقدهم لهذه النعم الباطنة، لا سعادة لهم بتلك النعم الظاهرة، وإنما هي منغصات لهم في الدنيا نفسها بما بيناه في تفسير الآيتين (في ج ١٠).

الحادية عشرة: توبته تعالى عليه وعلى خيار أصحابه المؤمنين وهذا منتهى التطهير والتزكية لهم من ربهم عز وجل في أثر غزوة تبوك التي أرهقوا فيه أشد العسر، وقاسوا أعظم الجهد، من الجوع والظمأ والنصب، ومفارقة موسم الرطب، في شدة الحر، وقلة الزاد والظهر، (الرواحل) فكان لا بد أن يعرض لهم بعض الهفوات الجديرة برأفة الله ورحمته في جانب تلك الحسنات، التي أشير إلى مضاعفة أجرها فيما يلي الإخبار بالتوبة عليهم من الآيات، وهو قوله عز وجل: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١١٧] ثم ذكر فيما يليها توبته على الذين خلفوا من هؤلاء الصادقين عن تبوك بغير عذر ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم﴾ الخ.

والتوبة من العبد إلى ربه هي رجوعه إليه عن كل ما لا يرضيه وتحريه ما يرضيه .هي تختلف باختلاف حال التائبين فيما يتوبون عنه حتى أن منهم من يتوب إليه ويستغفره من الغفلة، ومن التقصير في استكمال الجهد في الطاعة.

وأما التوبة من الرب على عبده فهي قبول توبته، والتجاوز عن ذنبه أو هفوته، أو عن تقصيره في عبادته والخطأ في الاجتهاد في إقامة سنته، وتنفيذ شريعته، وعطفه عليه بما يكون مزيد كمال في إعلاء درجته، ولذلك قال بعض المحققين: إن التوبة هي أول درجات الطاعة والمعرفة وهي آخر درجات الكمال في الإيمان وثمراته، وإنها كالطهارة في الصلاة لا بد من استمرارها من أول سنِ التكليف إلى آخرها (راجع ج ١١).

الفصل الثالث

في فضله ﷺ على أمته، وحقوقه الواجبة عليها، وحكم إخلالها بها وتقصيرها فيها

وهي ثلاثة أقسام

القسم الأول في صفاته الخاصة وفيه بضع مزايا وفضائل

الأولى: وصف الله تعالى إياه بأنه صلوات الله وسلامه عليه في الآية ٦١ ﴿أذن خير﴾ في الرد الحكيم على قول بعض المنافقين هو أذن يعنون أنه يصدق كل ما يقال له فيسهل عليهم خداعه، وقد فسر وصفه بأنه أذن خير بقوله تعالى: ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ ووجه الرد عليهم بهذا أنه ﷺ إنما يؤمن بالله ويصدق ما يوحيه إليه في شأن المنافقين وغيرهم، وهو التصديق القطعي اليقيني، ويليه أنه يصدق المؤمنين بالله تعالى وبرسالته تصديق ثقة بهم وائتمان لهم فيما هو خير في نفسه، وخير للناس حتى المنافقين منهم، لأنه لا يسمع سماع قبول إلا ما كان حقاً وخيراً، دون الكذب والغيبة والنميمة ـ راجع تفسيرها في ج ١٠.

الثانية: وصفه تعالى إياه بعد ما ذكر بقوله: ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ [التوبة: ٦١] أي بما كان سبباً لهدايتهم وإسباغ الله عليهم سعادة الدنيا والآخرة بإيمانهم به وعملهم بما دعاهم إليه من أسبابها، دون المنافقين المكذبين أو المرتابين فيها، وأما قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فهو في معنى إرساله للناس كافة بما هو سبب الرحمة والسعادة. وما يأتي قريباً من وصفه بأنه رحيم بالمؤمنين فهو معنى آخر وستعرف الفرق بينهما.

الثالثة: وصفه في آية ١٠٣ بتطهير المؤمنين وتزكيتهم بما يأخذه منهم من الصدقات. وذلك أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يكن مثله في تبليغه لفرض الصدقات والنفقات، وفي أخذه لها وقسمتها على مستحقيها كمثل الملوك والحكام الذين يجعلون المفروض على الناس من الأموال أتاوات وضرائب قهرية يؤدونها كما يؤدون سائر المغارم، ويعتقدون أنها تنفق بحسب أهواء الملوك والحكام، ويكون لهم منها أكبر نصيب بغير استحقاق، وإنما كان ﷺ يبين للمؤمنين حكمة ما فرضه الله تعالى عليهم، وأن فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة لهم في أفرادهم وجماعتهم، وكان

يقسمه بين مستحقيه بالعدل، ويحرم بإذن الله على نفسه وعلى أهل بيته أخذ شيء منه، فبهذا وذاك أسند الله تعالى إليه فعل التطهير والتزكية لهم، وهو داخل في حكمة بعثته في قوله: ﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ وتجد التفصيل في تفسير الآية (ج ١١).

الرابعة: وصف دعائه للمتصدقين بعد ما ذكر بأنه سكن لهم تطمئن به قلوبهم، وترتاح إليه أنفسهم، ويثقون بقبول الله لصدقاتهم، ونقول إن كل مؤمن متصدق مخلص يناله حظ من دعائه ﷺ للمتصدقين إلى يوم القيامة، ولكن لم يرد في القرآن ولا في السنة ولا في سيرة الصحابة والتابعين أن النبي ﷺ يطلب منه بعد وفاته الدعاء لأحد.

الخامسة: وصفه تعالى إياه بما امتن به على قومه من قوله في خاتمة السورة ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم﴾ فأثبت له شدة الحب لهم والحرص على هدايتهم وسعادتهم، وأنه يعز ويشق عليه أن يصيبهم العنت والإرهاق في دينهم أو دنياهم.

السادسة: وصفه بعد ما تقدم بقوله: ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ وهاتان الصفتان من أعظم صفات الربوبية غير الخاصة بالله عز وجل إلا في كمالهما، ورأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين غير إرسال الله تعالى إياه رحمة لهم خاصة، وغير إرساله رحمة للناس كافة، فإن رحمته بهم من صفات نفسه الشريفة القدسية التي ظهر أثرها في سياسته ومعاشرته لهم، وتأديبه إياهم، وتنفيذ حكم الله تعالى فيهم، كما ترى في هذه السورة كغيرها، وشواهد سيرته ﷺ في تفسيرها، فتأمل خطبته ﷺ في الأنصار في أثر إنكار بعض شبانهم وعوامهم حرمانه إياهم من غنائم حنين (ج ١٠) فهي العجب العجاب، والكمال، الذي لم يتم لبشر كما تم له عليه الصلاة والسلام.

وأما إرساله رحمة للعالمين وللمؤمنين فهو بيان لحكمة رسالته وفوائدها فيما اشتملت عليه من الحق والعدل والخير التي هي أسباب رحمة الله ومثوبته ورضوانه لمن اهتدى بها كما تقدم بيانه في محله.

القسم الثاني فيما يجب له على أمته وفيه خمس واجبات

الأول: وجوب حبه ﷺ بالتبع لحب الله تعالى وفي الدرجة التي تلي درجته في ثمرة الإيمان، وتفضيل نوع حبها على كل ما يحب بمقتضى الفطرة ومصالح الدنيا، فراجع بيان ذلك في تفسير الآية ٢٥ تجد فيه ما لا تجد مثله في تفسير آخر (ج ١٠).

الثاني: وجوب تحري مرضاته بالتبع لمرضاة الله عز وجل في الآية ٦٢.

الثالث: وجوب طاعته بالتبع لطاعة الله في صفات المؤمنين من الآية ٧١.

الرابع: وجوب النصح له بالتبع للنصح لله عز وجل في صفات المعذورين في التخلف عن القتال من الآية ٩١.

وهذه الواجبات له قد ذكرت في الفصل الأول من هذا الباب في سياق آخر.

الخامس: وجوب نصره كما يؤخذ من آية ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ [التوبة: ٤٠] ويؤيدها ما يأتي في القسم الثالث من حظر التخلف عنه.

القسم الثالث فيما يحظر عليهم من إيذاء وتقصير في حقه وهو خمسة محظورات

الأول: حظر إيذائه فداؤه أبي وأمي ونفسي والوعيد عليه في الآية ٦١.

الثاني: حظر محادته أي معاداته والوعيد عليها في الآية ٦٣.

الثالث: الكفر الصريح بالاستهزاء به في الآية ٦٥.

الرابع: حظر القعود عن الخروج معه للجهاد في الآيتين ٨١ و ٩٠.

الخامس: حظر تخلفهم عنه والرغبة بأنفسهم عن نفسه في الآية ١٢٠ وهذا تعبير بليغ جداً يتضمن أن كل من يصون نفسه عن جهاد وعمل بذل الرسول ﷺ نفسه فيه فهو مفضل لنفسه على نفسه الكريمة في عهده، ويمكن أن يقال ذلك فيمن بعده وإن كان الفرق بين الحالين ظاهراً من ناحية ملاحظة ذلك وعدمها، ومن ناحية قيام الحجة على من كان معه بما لا تقوم به على من لم يكن معه فضلاً عمن بعده. وإنما نعني بالإمكان أنه ينبغي لكل مؤمن أن يتأسى به ﷺ في بذله ماله ونفسه لله والجهاد في سبيل الله بقدر إمكانه ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ فراجع تفسير الآية (ج ١١).

الباب الثالث

في دين الإسلام
وما في السورة من حججه
وأصوله وصفات أهله
وفيه ٣ فصول

الفصل الأول

في حجج الإسلام من البشارات والنذر والإخبار بالغيب وهي عشر

الأولى: قوله تعالى للمشركين في الآية الأولى ﴿واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين﴾.

الثانية: قوله: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم﴾ [التوبة: ١٤].

الثالثة: قوله للمؤمنين ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ [التوبة: ٢٨].

الرابعة: بشارته بخذل اليهود والنصارى فيما يحاولون من إطفاء نوره تعالى (الإسلام) ووعده بإتمامه وإظهار دينه على الدين كله وذلك في الآيتين ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾ إلى قوله: ﴿ولو كره المشركون﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ [التوبة: ٦٤].

السادسة: قوله: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ [التوبة: ٦٥] الآية ولذلك كله ولما سيأتي قال: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾ [التوبة: ٧٨].

السابعة والثامنة والتاسعة: قوله: ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم﴾ [التوبة: ٩٤] الآية وقوله: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم﴾ [التوبة: ٩٦] وقوله: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ [التوبة: ٩٦] الآيات وهي أظهر في خبر الغيب من قوله: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾ [التوبة: ٥٦] وقوله: ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ [التوبة: ٦٢] لاحتمال أن يكون الإخبار بهذين الحلفين بعد وقوعهما لبيان غرضهم وما في باطنهم وهو عين تعليل حلفهم في الآية ٩٦.

العاشرة: قوله: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين﴾ [التوبة: ١٠١] أي في الدنيا.

وقد تم كل ذلك وصدق وعد الله ووعيده وخبره.

وفي السورة أخبار أخرى بالغيب يحتمل أن تكون من باب طبيعة العمران وسنن الله في البشر وترى مثاله في الفصل الثالث من الباب الأول.

الفصل الثاني

في صفة الإسلام ومدخله وأعم أصول التشريع فيه ـ وفيه عشرة أصول

الأصل الأول: أن دين الإسلام هو نور الله تعالى العام، وهداه الكامل التام، الذي نسخ به ما تقدمه من الأديان، ووعد الله عز وجل بإتمامه، وخذلان مريدي إطفائه، وذلك نص الآيتين (٣٢ و ٣٣) وتجد في تفسيرهما (في ج ١٠) ما لا تجد مثله في شيء من كتب التفسير الأخرى من إظهاره على جميع الأديان، بالحجة والبرهان، والهداية والعرفان، والعلم والعمران، والسيادة والسلطان.

الأصل الثاني: مدخل الإسلام ومفتاحه وما يتحقق به وهو قوله تعالى في المشركين ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ [التوبة: ٥] ويؤكدها قوله: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ [التوبة: ١١] والمراد التوبة من الشرك وتحصل بالإقرار بالشهادتين، وتجد في تفسيرهما خلاف العلماء في كفر تارك الصلاة ومانع الزكاة من أفراد المسلمين (ج ١٠).

الأصل الثالث: بناء الإسلام على العلم الصحيح دون التقليد الذي ذمه القرآن في آيات كثيرة وشنع به على المشركين. ودليله في هذه السورة قوله تعالى في تعليل الأمر بإجارة المشرك الحربي في دار الإسلام ليسمع القرآن ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ وقوله في الآية ١١ ﴿ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ وأصرح منهما قوله في مقلدة أهل الكتاب ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ مع تفسير النبي ﷺ ذلك باتباعهم إياهم فيما يحلون لهم ويحرمون عليهم (ج ١٠)

الأصل الرابع: أن التكليف العام من العبادات والحلال والحرام الديني لا يثبت إلا بنص قطعي وهو ما كان عليه السلف الصالح وأصل مذهب الحنفية وشاهده في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ [التوبة: ١١٥] وبيانه في تفسيرها (ج ١١).

الأصل الخامس: جهاد المشركين في سبيل الله وعدم السماح لهم بالإقامة في بلاد العرب أو يدخلوا في الإسلام وهو في آيات منها الآية التي سموها آية السيف وهي الخامسة ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وهي غير ناسخة لآيات العفو والصفح والإعراض عن المشركين كما قيل وترى في تفسيرها تحقيق الآيات الناسخة والمنسوخة (ج ١٠) وستأتي أحكام القتال وقواعده في الباب الرابع الآتي.

الأصل السادس: جعل الغاية من قتال أهل الكتاب أداء الجزية لنا بشرطها إلا أن يدخلوا في الإسلام. وهو في الآية ٢٩ وستذكر في أحكام القتال.

الأصل السابع: المساواة بين الرجال والنساء في ولاية الإيمان المطلقة وصفاته الشخصية والعامة المشتركة في قوله: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله﴾ [التوبة: ٧١] ويدخل في إطلاق الولاية ولاية النصر والدفاع عن الأمة والبلاد، إلا أنه لا يجب على النساء القتال إلا في حال النفير العام (ج ١٠).

الأصل الثامن: المساواة بين الرجال والنساء في جميع نعيم الآخرة تبعاً للمساواة في التكليف، وهو نص قوله تعالى: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات﴾ [التوبة: ٧٢] الخ.

الأصلان التاسع والعاشر: وجوب طلب العلم والتفقه في الدين ـ ووجوب بث العلم مقروناً بالوعظ والإنذار الذي يرجى تأثيره النافع ـ وهما في الآية ١١٦ وفي السورة من أصول الإيمان عقيدة البعث وجزاء المؤمنين والكافرين والمنافقين في آيات كثيرة كسائر القرآن (تراجع الآيات ٣ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢١ و ٢٢ و ٣١ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٩ و ٦١ و ٦٣ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٤ و ٨١ و ٩٥).

وفائدة هذا التكرار أن ترسخ هذه العقيدة في قلوب المتعبدين بتلاوة القرآن بكثرة تذكرها في المواضع المختلفة من ذكر الأعمال التي يترتب عليها ذلك الجزاء وأن من ضروب إعجاز القرآن أن يرد فيه المعنى الواحد في العشرات أو المئات من المواضع، ولا يمل تكراره القارىء ولا السامع.

الفصل الثالث

في آيات الإيمان الصادق وصفات أهله وطبقاتهم وفيه ٣٢ شاهداً

الشاهد الأول: آية صدق الإيمان المميزة بين الصادقين والمنافقين ومرضى القلوب التي تظهر بالامتحان وهو الجهاد وحفظ أسرار الملة والدولة أن يفضى بها إلى وليجة أو بطانة من دون المؤمنين ومنهم جواسيس الأعداء. وهو نص الآية ١٦ (ج ١٠).

٢ ـ آية صدق الإيمان وما ينافيه من ولاية الآباء والإخوان الذين يستحبون الكفر على الإيمان في الآية ٢٣ (ج ١٠)

٣ ـ آية صدق الإيمان تفضيل حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على حب الآباء والأبناء والإخوان والعشيرة والمال والتجارة والمساكن المرضية. وذلك مفصل في الآية ٢٤ وتجد من بيان معانيها في تفسيرها ما لا تجد مثله في شيء من كتب التفسير.

٤ ـ أخوة الإسلام الدينية في الآية ١١ وتفسيرها في ج١٠.

٥ و ٦ ـ عمارة مساجد الله حسا ومعنى وعدم خشية أحد إلا الله في الآية ١٨.

٧ ـ ولاية بعض المؤمنين لبعض ذكوراً وآناثاً.

٨ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٩ ـ طاعة الله ورسوله ـ في الآية ٧١[1].

١٠ ـ صفات المؤمنين المميزة لهم من المنافقين في المقابلة بين الآيتين ٤٤ و ٤٥ وبين الآية ٦٨ وما بعدها والآية ٧١ وما بعدها والآية ٨٦ وما بعدها والآية ٨٨ وما بعدها وبين الآيتين ٩٨ و ٩٩ (ج ١١) وبين الآيات ١٢٤ ـ ١٢٧.

١١ ـ طبقات خيار المؤمنين الثلاث: المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان في الآية المتممة للمائة وفي الآية ١١٧.

١٢ ـ المؤمنون الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً في الآية ١٠٢ والمؤمنون الذين أرجأ الله قبول توبتهم في الآية ١٠٦.

١٣ ـ الإخلاص في الإنفاق في سبيل الله ابتغاء القربات عند الله، وصلوات الرسول أي أدعيته ـ الآية ٩٩.

---

(١) وفي هذه الآية إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهما أهم أركان الإسلام العملية كما تقدم في ذكر أصوله (المؤلف).

١٤ ـ العمل النافع للدنيا والدين الذي يرضي الله ورسوله والمؤمنين ـ الآية ١٠٥.

١٥ ـ حب التطهر من الأدران الحسية والأرجاس المعنوية ـ ١٠٨.

١٦ ـ بيع المؤمنين أنفسهم وأموالهم لله تعالى بالجنة في الآية ١١١.

١٧ ـ ٢٥ ـ صفات هؤلاء المؤمنين: التوبة. العبادة الخالصة. الحمد لله على كل حال. السياحة. ركوع الخضوع. سجود الخشوع. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفظ لحدود الله في الآية ١١٢.

٢٦ ـ آية المؤمنين عدم الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى ـ الآية ١١٣.

٢٧ ـ تقوى الله عز وجل.

٢٨ ـ ملازمة الصادقين ـ الآية ١١٩.

٢٩ ـ التفقه في الدين.

٣٠ ـ إنذار الناس وتعليمهم ـ الآية ١٢٢.

٣١ ـ الغلظة في القتال على الكفار المحاربين ـ الآية ١٢٣.

٣٢ ـ زيادة الإيمان بنزول القرآن في الآيتين ١٢٤ و ١٢٥.

الباب الرابع

في المسائل المالية
والعسكرية والسياسية،
وما فيها من أحكام القتال والعهود
وفيه ٣ فصول

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الأول

في أحكام الأموال

تقدم في سورة الأنفال أحكام الغنائم وما في معناها من أموال الحرب وفرض الخمس فيها ومصارفه وحق آل الرسول ﷺ فيه وحكمته وما للأمة فيه من المصلحة، وبيان أنواع الأموال الشرعية في الإسلام وأمهات مقاصدها في الدولة الإسلامية. فما في هذه السورة متمم لما قبله في الأموال كما أنها متممة لما فيها من أحكام القتال وشؤون المنافقين والكفار.

والكلام في هذا الموضوع ثلاثة أقسام:

١ ـ المسائل الدينية والاجتماعية في الأموال.

٢ ـ أنواع الأموال ومصارفها.

٣ ـ فوائد إصلاح الإسلام المالي للبشر.

القسم الأول

في مكان إنفاق المال

من الإيمان، والبخل به من النفاق، وفيه ١٠ مسائل

المسألة الأولى: كون الزكاة المعينة أحد أركان الإسلام لا تقبل دعواه من الكفار بدون التزامها، ولا تحصل أخوته الدينية إلا بأدائها، واعتبار مانعيها من الجماعات مرتدين تجب مقاتلتهم. وفي الأفراد خلاف تقدم تحقيق الكلام فيه. ونص ذلك في قوله تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ [التوبة: ٥] وقوله: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ [التوبة: ١١] ويؤكده عد الزكاة كالصلاة من صفات المؤمنين الراسخة في آية ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ [التوبة: ٧١] الخ.

المسألة الثانية: كون بذل الأموال في سبيل الله آية الإيمان الصحيح وقوام الدين، ومن شواهده الآيتان المشار إليهما آنفاً في فريضة الزكاة، ومنها الآية ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله﴾ [التوبة: ٢٠] إلى قوله في الآية (٢٢) ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ ومنها الوعيد الشديد لمن أمواله وتجارته وسائر حظوظه أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وهو في

الآية (٢٤) ومنها قوله تعالى في آية النفير العام ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ [التوبة: ٤١] وقوله: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ [التوبة: ٤٤] ويتم معناها الآيتان بعدها. ومنها قوله تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ [التوبة: ٥٥].

المسألة الثالثة: كون البخل والامتناع عن الإنفاق في سبيل الله آية الكفر والنفاق فمن شواهده عدم قبول نفقة المنافقين وكون أموالهم بلاء ووبالاً عليهم في الدنيا والآخرة في الآيات ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ ومنها لمز المنافقين للنبي (ص) في قسمة الصدقات للطمع في المال في الآية ٥٨، ومنها وصف المنافقين بالبخل وقبض الأيدي عن الإنفاق في قوله: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ [التوبة: ٦٨] إلى قوله: ﴿ويقبضون أيديهم﴾ [التوبة: ٦٨] ويؤكدها ضرب المثل لهم في الآية ٧٠ بعدها بالذين من قبلهم من المغرورين بالقوة والمال، ووصف المؤمنين بعدها بصفات منها (إيتاء الزكاة) ومنها قوله تعالى: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ [التوبة: ٧٥] الآية والوعيد الشديد على البخل في الآيات التي بعدها ومنها لمز المنافقين للمتطوعين من المؤمنين في الصدقات في الآية ٧٦ ومنها ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ [التوبة: ٨١].

المسألة الرابعة: وصف كثير من رؤساء الدين من أهل الكتاب بأكل أموال الناس بالباطل تحذيراً من فعلتهم، ورفعاً لقدر كل مسلم أن يسفّ ويسفل إلى دركتهم.

المسألة الخامسة: الوعيد على كنز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله في الآيتين ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلوا أموال الناس بالباطل﴾ إلى قوله: ﴿فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

المسألة السادسة: آية ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً﴾ [التوبة: ٩٨] وهم منافقوهم كبني أسد وغطفان كانوا يعطون الصدقات رياء وخوفاً لا يرجون منها نفعاً بتأييد الإسلام ولا ثواباً في الآخرة لعدم إيمانهم، فهي في نظرهم مغارم يلتزمونها ليصدقوا بما يظهرون من إسلامهم، وهكذا شأن المنافقين في الدين وفي القومية والوطنية لا يبذلون شيئاً من مالهم لأجل المصلحة العامة، بل للرياء والسمعة، وهو في نظرهم غرامة.

المسألة السابعة: آية ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول﴾ [التوبة: ٩٩] وهم بنو أسلم وغفار وجهينة

وحسبك شهادة الله تعالى لهم بصدق إيمانهم وحسن نيتهم في نفقاتهم، وحكمها عام.

المسألة الثامنة: الترغيب في الصدقات بالتعبير عن قبولها والإثابة عليها بأخذ الله عز وجل لها كما في الآية (١٠٤).

المسألة التاسعة: الترغيب فيها بقوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ [التوبة: ١١١] الآية.

المسألة العاشرة: فضل النفقة في الجهاد قلت أو كثرت وكون الجزاء عليها أحسن الجزاء وهو نص الآية (١٢١) وتفسيرها في ج ١١.

القسم الثاني
أنواع الأموال الشرعية
وأحكامها بالإجمال ومصارفها وفيه ١٤ مسألة

١ ـ مال الجزية ـ وقد بينا معناها وتاريخها وأحكامها وشروطها في تفسير آية الجزية (٢٩) وهو في ج ١٠.

٢ ـ أنواع الصدقات الواجبة المقدرة الموقوتة وهي النقدان من الذهب والفضة والتجارة في استغلالهما والأنعام والزرع الذي عليه مدار الأقوات والركاز وهو المدفون في الأرض يعثر عليه والمعدن (ج ١٠).

٣ ـ سهم الفقراء والمساكن وهل هما صنفان أو صنف واحد ينقسم بالوصف إلى قسمين؟ (راجع ج ١٠).

٤ ـ سهم العاملين على الصدقات من جباة وخزنة وكتبة.

٥ ـ سهم المؤلفة قلوبهم وهم ستة أصناف.

٦ ـ سهم الرقاب أي تحرير الرقيق بإعانته على شرائه لنفسه المعبر عنه بالكتابة أو شرائه من مالكه وعتقه.

٧ ـ سهم الغارمين الذين ركبتهم ديون تعذر عليهم أداؤها، والذين يغرمون عمداً ما ينفقونه لإصلاح ذات البين ومنع الفتن الثائرة.

٨ ـ سهم الإنفاق في سبيل الله على الغزاة والمرابطين الذين لا نفقة لهم من بيت المال، وما يدخل في عموم ذلك من المصالح العامة.

٩ ـ سهم ابن السبيل وهو المنقطع عن بلده في سفر لا يتيسر له فيه الوصول إلى ماله إن كان له مال فيعطى لفقره العارض ما يستعين به على إتمام سياحته والعود إلى بلده وأهله.

١٠ ـ الدليل على كون عروض التجارة مما تجب فيه الزكاة.

١١ ـ توزيع الصدقات على الأصناف كلهم أو بعضهم.

١٢ ـ الزكاة المطلقة والمعينة ومكانتها في الدين وحكم دار الإسلام ودار الكفر فيها والبلاد المذبذبة بين الدارين.

١٣ ـ لا تعطى الزكاة للمرتدين ولا للإباحيين والملاحدة.

١٤ ـ إلتزام أداء الزكاة كاف لإعادة مجد الإسلام.

فصل في فوائد الزكاة

المفروضة والصدقات وإصلاح الإسلام المالي للبشر وامتياز الإسلام بذلك على جميع الأديان

وفيه مقدمة في منافع المال وارتباط جميع مصالح البشر الدنيوية والدينية به وشأنهم في حبه وكسبه وإنفاقه وإمساكه، وإرشاد الدين فيه، وكون الإسلام وسطاً بين اليهودية والمادية فيه، وغلو عباده من اليهود والإفرنج في جمعه واستغلاله ـ وبين بدعة البلشفية الاشتراكية في مقاومة الشعوب والدول المالية وغلوها في ذلك وفي هدم الأديان. وتلخيص الإصلاح الإسلامي المالي في أربعة عشر أصلاً (فتراجع في ج ١١).

الفصل الثاني
في أحكام القتال والمعاهدات والصلح وهي ٢٠ حكماً

الحكم الأول: البراءة من المشركين ونبذ عهود المعاهدين منهم، ذلك أن مشركي مكة ناصبوا النبي ﷺ العداوة منذ دعا إلى التوحيد وتبعهم سائر العرب فكانوا حرباً له ولمن آمن به يقتلون كل من ظفروا به منهم أو يعذبونه إذا لم يكن له من يحميه من المشركين، ولما هاجروا من مكة صاروا يقاتلونهم في دار هجرتهم وكان الله ينصر رسوله والمؤمنين عليهم كما وعده. حتى إذا ما كثروا وصارت لهم شوكة اضطر المشركون إلى عقد أول صلح معهم في الحديبية فعاهدوهم سنة ست للهجرة على السلم والأمان مدة عشر سنين ولم تلبث قريش مع أحلافها من بني بكر أن غدروا ونقضوا العهد، فكان ذلك سبباً لفتح النبي ﷺ مكة سنة ثمان، ثم جمع المشركون جموعهم لقتاله في حنين والطائف فنصره الله عليهم، وأمره في السنة التالية بأن ينبذ للمشركين عهودهم ويتبرأ منهم في موسم الحج (ج ١٠).

الثاني: أذان المشركين (إعلامهم) بذلك أذاناً عاماً في يوم الحج الأكبر وهو عيد النحر الذي تجتمع به وفود الحاج من جميع القبائل في منى بحيث يعم هذا البلاغ جميع قبائل العرب في أقرب وقت، لأن الإسلام يحرم الغدر وأخذ المعاهدين على غرة فكان لا بد من إعلامهم بذلك بما ينتشر في جميع قبائلهم، وكانت تلك الوسيلة الوحيدة لعلم كل فرد منهم بعود حالة الحرب بينهم وبين المسلمين، وهذا من عدل الإسلام ورحمته لأن المشركين لم تكن لهم دولة ولا رئيس عام يبلغهم ما يتعلق بشؤونهم ومصالحهم العامة فيكتفي بإبلاغه مثل هذا كما هو المعهود في الدول الملكية أو الجمهورية المدنية، ولم يكن في عصرهم صحف منشرة عامة ولا آلات للأخبار البرقية تنشر مثل هذا البلاغ.

الثالث: منحهم هدنة أربعة أشهر يسيحون في الأرض حيث شاؤوا آمنين مطمئنين أحراراً في سيرهم وإقامتهم وسائر أعمالهم الدينية والدنيوية ليترووا في أمرهم، ويتشاوروا في عاقبتهم. وفي هذا من رحمة القادر بعدوه ما يفتخر به المسلمون بحق ـ وهذه الأحكام صريحة في الآيات الثلاث الأولى من السورة (ج ١٠).

الرابع: وعظهم بأنهم إن تابوا من شركهم وما يغريهم به من عداوة المؤمنين وقتالهم والغدر بهم فهو خير لهم، لأنهم لن يعجزوا الله في الأرض ولن يعجزوه هرباً

منها، وقد وعد بنصر رسوله عليهم من قبل أن يكثر أتباعه ويبايعه أنصاره، وأنجز له وعده في جملة غزواته معهم، وسبب هذا الوعظ أن الإيمان أمر اختياري طريقه الموصل إليه الدعوة ودلائل الإقناع، وذلك قوله في بقية الآية الثالثة ﴿فإن تبتم فهو خير لكم﴾ الخ وفيها من الإخبار عن المستقبل ما صدقه الواقع.

الخامس: استثناء بعض المشركين من نبذ عهدهم وهم الذين عاهدهم المؤمنون عند المسجد الحرام في الحديبية سنة ست ولم ينقصوهم من شروط العهد ومواده شيئاً، ولم يظاهروا ويعاونوا عليهم أحداً من أعدائهم المشركين ولا أهل الكتاب، كما نقض أهل مكة العهد بمظاهرة أحلافهم بني بكر على أحلاف النبي ﷺ بني خزاعة، والأمر بإتمام عهدهم إلى نهاية مدته، وتعليله بأنه من التقوى التي يحبها الله تعالى. وهذا نص الآية الرابعة بشرط أن يظلوا مستقيمين عليه كما بينه في الآية السابعة.

السادس: الأمر في الآية الثامنة باستعمال جميع أسباب القتال معهم بعد انسلاخ أشهر الهدنة التي ضربت له وحرم فيها، وهي القتل والأسر والحصر والقعود لهم في جميع المراصد لمراقبتهم ومنعهم من التجوال والتقلب في البلاد، وهو يدل على شرعية استعمال ما يتجدد بين البشر من وسائل القتال الموافقة لأصول الإسلام العادلة الرحيمة ـ فإن استعمل العدو ما هو مخالف لها قابلناه بالمثل لعموم قوله تعالى: ﴿ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله﴾ [البقرة: ١٩٤].

السابع: تخلية سبيل من يتوبون من الشرك بالنطق بالشهادتين ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، لأنهم بهذا يدخلون في الإسلام، ومن قبل الصلاة والزكاة والتزمهما فلا بد أن يلتزم غيرهما. وهذا نص الآية الخامسة.

الثامن: إيجاب إجارة من يستجير النبي ﷺ منهم ـ وفي حكمه الإمام الأعظم ونائبه والقائد العام في حال الحرب ـ لأجل أن يسمع كلام الله ويقف على دعوة الإسلام وإبلاغه بعد ذلك المكان الذي يأمن فيه على نفسه من سلطان المسلمين.

التاسع: تعليل نبذ عهد المشركين السابق وعدم استئنافه معهم بالأسباب الآتية:

أ ـ أنهم نقضوا عهد الحديبية بالغدر فلم يخبروا المؤمنين بذلك ليأخذوا أهبتهم.

ب ـ أن من دأبهم وشأنهم أنهم إذا ظهروا على المؤمنين برجحان قوتهم لا يرقبون فيهم عهداً ولا ذمة ولا قرابة، بل يفتكون بهم بدون رحمة.

ج ـ أنهم ينافقون ويكذبون عليهم في حال الضعف فيرضونهم بأفواههم، ويقولون بألسنتهم لهم ما ليس في قلوبهم، وأكثرهم أي السواد الأعظم منهم فاسقون أي خارجون من قيود العهود والمواثيق والصدق والوفاء.

د ـ أنهم يصدون عن سبيل الله ويعادون الإسلام وأهله لأجل منفعة قليلة يتمتعون بها ويخافون أن تسلب منهم بالتزام شريعته التي تحرم أكل أموال الناس بالباطل كالربا والقمار والغصب والغزو لأجل الكسب وكانوا يستبيحون كل ذلك.

هـ ـ أنهم ـ على كونهم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة في حال القوة ولا في حال الضعف ـ هم المعتدون على المسلمين بالقتال، فلا يمكن أن يظلوا معهم في كل حال.

و ـ أنهم نكثوا عهودهم السابقة، فكذلك ينكثون غيرها فلا ثقة بها فتراعى.

ز ـ أنهم هموا بإخراج الرسول من وطنه، بل هم الذين اضطروه إلى الخروج هو وسائر من آمن معه، وذلك بعد أن تواطؤا على قتله.

ح ـ أنهم هم الذين بدؤوا المؤمنين بالقتال أول مرة، وبقيت الحرب مستمرة، فلما أنهت معاهدة الحديبية حالة القتال أعادوها بغدرهم فيها ونقضهم لها، وهذه الأسباب الثمانية صريحة في الآيات ٧ ـ ١٠.

الحكم العاشر: وجوب قتال مشركي العرب كافة إلا أن يسلموا وهو نص الآية الخامسة المعروفة بآية السيف، وقوله في الآية ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ ووجهه ما علم من جملة الآيات في قتال مشركي العرب وهو عدم قبول الجزية منهم وعدم إقرارهم على السكنى والمجاورة للمسلمين في بلادهم مع بقائهم على شركهم لأنهم لا أمان لهم ولا عهود فيمكن أن يعيش المؤمنون معهم بسلام.

الحكم الحادي عشر: تحريم ولاية الكفار من الآباء والإخوان كغيرهم على المؤمنين وكونها من الظلم العظيم في الآية ٢٣.

الحكم الثاني عشر: حكم قتال أهل الكتاب بشرطه حتى يعطوا الجزية في الآية ٢٩.

ومن فروع هذه المسألة الفرق في القتال بين مشركي العرب وسائر الوثنيين ومنها أن ما في هذه السورة من قتالهم وقتال أهل الكتاب إنما هو في بيان غايته لا في بدايته، وأن أول ما نزل من التشريع في القتال آيات سورة الحج ٣٩ ثم آيات سورة البقرة التي أولها ١٩٠ (راجع ج ١٠ وما بعدها) ويليها آيات سورة الأنفال فسورة آل عمران فسورة محمد فهذه السورة.

الحكم الثالث عشر: وصف أهل الكتاب الذين بين حكم قتالهم هنا بأربع صفات سلبية هي علة عداوتهم للإسلام ووجوب خضوعهم لحكمه ليأمن أهله على أنفسهم وحرية دينهم معهم (فيراجع تفسير آية الجزية).

فصل في حقيقة الجزية لغة وشرعا وتاريخها وشروطها وأحكامها وسيرة الصحابة فيها ج ١٠.

استطراد في حقيقة معنى الجهاد والحرب والغزو وإصلاح الإسلام فيه ج ١٠.

فصل في دار الإسلام والعدل. ودار الحرب والبغي، وحقوق الأديان والأقوام في هذا العصر ج ١٠.

الحكم الرابع عشر: إبطال النسيء في الأشهر لأجل القتال وكونه تشريعاً جاهلياً وهو نص الآية ٣٧.

الحكم الخامس عشر: النفير العام، وهو ما يكون القتال به واجباً بشرطه على الأعيان كما فصل في الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤١ وأما النفير الخاص فهو في الآية ١٢٢.

الحكم السادس عشر: الاستئذان في التخلف عن الجهاد بالمال والنفس من علامات النفاق ومنافيات الإيمان بالله واليوم الآخر كما ترى في الآيتين ٤٤ و ٤٥ وما قبلهما وبعدهما من أحوال المنافقين وتتمة ذلك في الآيات ٨٦ ـ ٩٣.

الحكم السابع عشر: وجوب مجاهدة الكفار والمنافقين في المعاملات المدنية والأدبية وهم الخاضعون لأحكام الإسلام كما في الآية ٧٣.

الحكم الثامن عشر: الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد في قوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ إلى الآخر الآية ٩٣.

الحكم التاسع عشر: وجوب بذل الأنفس والأموال في القتال المشروع لإعلاء كلمة الله وهي الحق والعدل باشتراء الله إياهما من المؤمنين بأن لهم الجنة، وهو نص الآية ١١١ وتقدم تحريم الفرار من الزحف في سورة الأنفال.

الحكم العشرون: قتال الأقرب فالأقرب من الكفار الحربيين وهو نص الآية ١٢٣.

الفصل الثالث

في القواعد والأصول السياسة والحربية المأخوذة من المسائل والأحكام السابقة

وهي ١٣ أصلاً

١ ـ جواز البراءة من العهود ونبذها للمعاهدين لدفع المفاسد المترتبة على بقائها. وهو في الآيتين الأولى والثانية من السورة.

٢ ـ عقد المعاهدات مع الدول والأمم من حقوق الأمة لأن لها غنمها وعليها غرمها، وإنما يعقدها الإمام أو نائبه من حيث إنه هو الممثل لوحدة الأمة وهو منطوق إسنادها إلى المؤمنين في قوله في الآية الأولى ﴿عاهدتم من المشركين﴾ مع العلم بأن الذي تولى العقد وكتب باسمه في الحديبية هو النبي ﷺ.

٣ ـ نبذ المعاهدات يجب أن يذاع وينشر بحيث يعرفه المخاطبون بالعمل به كما أمر الله بالأذان به يوم الحج الأكبر، والإذاعة تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وأحوال البشر في حضارتهم وبداوتهم.

٤ ـ وجوب الوفاء بالمعاهدة ما دام الطرف الآخر من الأعداء يفي بها ولا ينقص منها شيئاً كما ترى في الآيات ٤ و ٧ و ١٢ و ١٣ إكمالاً لما تقدم في سورة الأنفال.

٥ ـ المعاهدة الموقوتة تنتهي بانتهاء مدتها بنص قوله تعالى: ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ [التوبة: ٤] وقوله: ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ [التوبة: ٧].

٦ ـ إن القبائل والشعوب التي ليس لها دين ولا شرع يحرم عليها نقض العهود وجرب عليها نكثها للأيمان لا يجب التزام معاهداتها السابقة ولا تجديد ما انتهت مدته منها كما تراه مفصلاً في الآيات الثلاث عشرة الأولى من السورة، ودول الإفرنج تعمل بهذه القاعدة فلا تعقد المعاهدات إلا مع الدول المنظمة التي تلتزم الشرائع والقوانين الدولية.

٧ ـ الهدنة بين المحاربين مشروعة وللمسلمين أن يبدأوا بها إذا اقتضت ذلك المصلحة ومنها الرحمة بالمشركين فيما لا يضر المؤمنين، وهو نص قوله تعالى في الآية الأولى ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾.

٨ ـ تأمين الحربي بالأذن له بدخول دار الإسلام جائز للمصلحة فإذا استأمن

لأجل سماع كلام الله أو الوقوف على حقيقة الإسلام وجبت إجارته ثم إبلاغه مأمنه عند الخروج من دار الإسلام، وهو في الآية السادسة.

٩ ـ انتهاء قتال مشركي العرب منوط بالدخول في الإسلام ومفتاحه التوبة من الشرك والتزام أحكام الإسلام وأهمها ركنا الصلاة والزكاة.

١٠ ـ انتهاء قتال أهل الكتاب ومن في معناهم يناط بالإسلام أو بإعطاء الجزية مع الخضوع لأحكام شرعنا كما ترى في آية الجزية ٢٩ وفي تفسيرها بيان حكم سائر الملل.

١١ ـ النفير العام الذي يكون به الجهاد فرضاً على الأعيان في الآية ٤١ وترى في تفسيرها ما تكون به فرضيته، وما يكون به فرض كفاية.

١٢ ـ امتناع نفر المؤمنين كلهم للجهاد في غير حال النفير العام في الآية ١١٦.

١٣ ـ العجز عن القتال أو عن الخروج إليه عذر في التخلف عنه وتجد بيان أنواعه الشخصية والمالية في الآيات الثلاث ٩١ ـ ٩٣ وهي تختلف باختلاف أحوال الزمان والمكان والاستعداد للقتال.

الباب الخامس

في شؤون الكفار والمنافقين وحكم الإسلام عليهم وسياسته فيهم وفيه فصول

الفصل الأول
في ذم القرآن للكفار والمنافقين ونزاهته فيه عن السب والشتم

تنبيه وتمهيد

الذم الوصف بالقبيح، والسب والشتم ما يقصد به التعيير والتشفي من الذم سواء كان معناه صحيحاً واقعاً أو إفكاً مفترى، والقرآن منزه عن ذلك، قال تعالى: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ [الأنفال: ١٠٨] فنهى عن سب آلهة الكفار ومعبوداتهم ومنها الأصنام، وقال النبي ﷺ «المستبان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان»[1] رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد من حديث عياض بن حمار بسند صحيح. فما في القرآن من ذم الكفار والمنافقين بيان لحقيقة حالهم وقبح أعمالهم، وما يعقبها من الفساد والضرر بهم وسخط الله تعالى عليهم، واستحقاقهم لعقابه، وبعدهم من رحمته وثوابه، بقصد الإنذار والوعظ، لأجل التنفير والزجر، ولذلك تراها موجهة إليهم بوصفهم أو إلى وصفهم العام: المشركين، الكافرين، المنافقين، الفاسقين، الظالمين، المجرمين، المفسدين. أو الخاص بطائفة منهم كبعض الأحبار والرهبان لا كلهم دون الأشخاص المعينين بأسمائهم وألقابهم، مهما يكن من شدة كفرهم وإيذائهم للنبي ﷺ والمؤمنين كعبد الله بن أبي ابن سلول رئيس المنافقين الذي كان شرهم وأجرأهم على الضرر، فقد كان ضرره في المدينة أشد، من ضرر أئمة الكفر والشرك في مكة (كأبي جهل).

ومن اطلع على شيء من هجاء العرب وسبابهم البذيء وقذعهم الفاحش أدرك نزاهة القرآن، وعلوه عن مثل بذاءتهم في الكلام.

ويستثنى من هذه القضية الكلية في ذم الشخص المعين من أعداء الإسلام والرسول ﷺ ما نزل في ذم أبي لهب وامرأته في سورة وجيزة لما بيناه من حكمة ذلك في قصة إبراهيم مع أبيه آزر والاستطراد إلى آباء الأنبياء وأولي قرباهم وما صح في الأحاديث في أبوي النبي ﷺ وعميه أبي طالب وأبي لهب، لإثبات قاعدة عظيمة في الفرق بين دين الله تعالى على ألسنة أنبيائه ورسله والأديان الوثنية، وهي أن دين الله تعالى مبني على أن مدار السعادة والنجاة من عذاب الآخرة والفوز بنعيمها إنما هو الإيمان الصحيح والأعمال

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٦٢.

الصالحة التي تتزكى بها الأنفس وتكون بصفاتها العالية أهلاً لجوار الله تعالى ومرضاته. وأن الأديان الوثنية مبنية على أن السعادة والنجاة والفوز إنما تكون بوساطة بعض المخلوقات التي توصف بالولاية والقداسة أو النبوة ويدعي لها التأثير في النفع والضر بأنفسها أو بالشفاعة عند الله تعالى وكونها تحابي بشفاعتها ووساطتها أولي القرابة منها والمتقربين إليها بالمدح لها والاستغاثة بها ودعائها من دون الله أو مع الله عز وجل.

وقد كان أبو لهب أغنى بني هاشم ومن أكثر المشركين غروراً بماله وثروته ونشبه ونسبه وكان بهذا الغرور أول من جاهر بعداوة ابن أخيه محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه محتقراً له لأنه كان هو وأبوه الذي لم يدركه وعمه الذي كفله بعد جده أفقر بني هاشم، وقال له حين جمع عشيرته وبلغهم دعوة ربه امتثالاً لأمره ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤]: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ وكان يقول لقريش: خذوا على يديه، قبل أن تجتمع العرب عليه وكان أشد المشركين صداً للناس عنه وتكذيباً له كلما دعا أحداً منهم إلى الإسلام، وكان كلامه مقبولاً عندهم أكثر من كلام سائر الرؤساء الذين جاهروا بعداوته كأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي سفيان بن حرب لقرابته، وكذلك كانت امرأته أم جميل أخت أبي سفيان مسرفة في عداوته وذمه والصد عن دعوته بالنميمة ونقل الأخبار الكاذبة عنه لتبغيضه للناس، وهو المراد من كنيتها «حمالة الحطب» كما هو معروف عند العرب.

وروي أنها كانت تجمع الحطب الشائك وتلقيه في طريقه بالفعل، ومع هذا كله لم تكن السورة التي نزلت فيه الادعاء عليه بالتباب وهو الخسار المفضي إلى الهلاك أو إخباراً به، وبكونه لا يغني عنه ماله الكثير وما كسبه من الجاه والولد شيئاً ـ في مقابلة قوله للرسول ﷺ تباً لك سائر اليوم ـ فهو إخبار بعاقبة أمرهما وموتهما على كفرهما، وخسرانهما سعادة الدنيا والآخرة، وقد صدق خبر الله ووعيده له، فهو قد مات بعد وقعة بدر التي ساعد عليها بماله، آسفاً لعجزه عن الخروج إليها بنفسه، فذاق وبال أمره بخذلان أقرانه من صناديد قريش ورؤوس الشرك، وخسران ماله الذي أنفقه فيها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون﴾ [الأنفال: ٣٦] ورأى بمصداقها مبادىء عز الإسلام ونصره. مات بعدها بأيام قليلة بالعدسة شر ميتة، وترك ميتاً حتى أنتن، ثم استؤجر بعض السودان حتى دفنوه. وكان فجع بعد نزول السورة بولده عتبة الذي كان يعتز به، افترسه أسد في طريق الشام، ولو أسلم كما أسلم أخوه وثانيه في جمع المال العباس (رض) لرأى مثل ما رأى هو وذريته من عز الإسلام، وصدق ابن أخيه عليه أفضل الصلاة والسلام، في وعده لهم بأن كلمة «لا إله إلا الله» تجمع عليهم العرب، وتدين لهم بها العجم.

ذكرت هذا التنبيه الطويل لبيان غلط بعض العلماء في قولهما إن القرآن اشتمل على سبهم وسب آلهتهم، وتفنيداً لما يهذي به بعض ملاحدة الكتاب في المقارنة بين أدبه والأدب الجاهلي. وما روي من قول رؤوس المشركين للنبي ﷺ لقد سببت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة ـ فذكر السب والشتم فيه مبالغة في الإنكار على أنه مرسل ضعيف السند وفيه رجل مبهم. وهاك ما وصف الله تعالى به أعداءه وأعداء رسوله والمؤمنين من هؤلاء المنافقين والكافرين في هذه السورة وهو أشده.

شواهد ذم القرآن النزيه للكفار والمنافقين

١ ـ ٤ ـ وصف المشركين في الآيات (٨ و ٩ و ١٠) بأنهم لا يرقبون ولا يراعون في أحد من المؤمنين إلاً ولا ذمة، حتى قطعوا أرحامهم بهم خلافاً لعادتهم في عصبية النسب، وأنهم يصدون عن سبيل الله، وأن أكثرهم فاسقون وأنهم هم المعتدون.

٥ ـ قوله تعالى في منعهم عن عمارة المسجد الحرام وغيره ومن التعبد فيه ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر، أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ [التوبة: ١٧].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة: ٢٨] وكانت نجاستهم معنوية وهي الشرك وخرافاته، وحسية إذ كانوا يأكلون الميتة ولا يدينون بالطهارة من النجاسة ولا الحيض والجنابة.

٧ ـ ١٠ ـ وصف كفار أهل الكتاب في الآية ٣٠ بأنهم باتخاذ ابن لله سبحانه يضاهئون قول الذين كفروا من قبلهم كوثني قدماء الهند والمصريين وقوله: ﴿قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ ووصفهم في الآية ٣١ بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وفي الآية ٣٢ بأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم أي بكلامهم الباطل في الصد عن الإسلام ـ وفي الآية ٣٤ بأن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. وكل هذه الصفات ظاهرة معروفة في تاريخهم الماضي وسيرتهم في هذا الزمان، ومن دقائق الصدق في القرآن الحكم في مثل هذا على الكثير منهم دون الجميع كما قال في المشركين ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ ولم يعهد مثل هذا التحري في كلام البشر وأما وصفه لشرور المنافقين وذمهم فيها فنلخصه فيما يأتي تابعاً في العدد لما قبله.

١١ ـ ذكر في استئذان المنافقين واعتذارهم عن الخروج إلى غزوة تبوك وبيان ما يكون شأنهم لو خرجوا من ابتغاء الفتنة والإفساد بين المؤمنين بالتثبيط وغيره ولم يزد فيها على قوله فيهم ﴿والله عليم بالظالمين﴾ وقوله: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ (راجع الآيات ٤٢ ـ ٤٩).

١٢ و ١٣ ـ تعليل عدم قبول نفقاتهم في الآية ٥٣ بفسقهم وقوله بعده ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾.

١٤ و ١٥ ـ وصفهم بعد إثبات استهزائهم فيما بينهم بالله وآياته ورسله واعتذارهم عنه بقولهم: ﴿إنما كنا نخوض ونلعب﴾ بأنهم كفروا بعد إيمانهم وأنهم كانوا مجرمين ثم قال بعد ذكر صفاتهم العامة من الآية ٦٧ ﴿نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾ أي الخارجون من محيط هداية الدين وسلامه الفطرة.

١٦ ـ قوله في لمزهم وعيبهم للمتطوعين من المؤمنين في الصدقات وسخريتهم منهم في الآية ٧٩ ﴿سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ وهذا التعبير يسمى بالمشاكلة أي عاقبهم بمثل جرمهم فجعلهم سخرية للمؤمنين بما فضح به نفاقهم الذي كانوا يخفونه.

١٧ ـ قوله في تعليل عدم غفران الله لهم ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [التوبة: ٨٠] وقوله في هذا المعنى ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ [التوبة: ٨٤] وقد نزل هذا في زعيمهم عبد الله بن أبي ابن سلول ولكن جعل حكم النهي عاماً.

١٨ و ١٩ ـ أشد ما وصفهم به في الآية ٩٥ أنهم رجس وأنه كلما نزلت سورة من القرآن زادتهم رجساً إلى رجسهم، حتى ماتوا على كفرهم كما في الآية ٢٥ وأنهم عند نزوله ينصرفون من مجلس النبي ﷺ عند غفلة المؤمنين عنهم ثم قال: ﴿صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ أي صرف الله قلوبهم عن الاهتداء بها بسبب أنهم لا يفقهون ما فيها من البينات والهدى بمقتضى سنته في ارتباط الأسباب بمسبباتها وهذا آخر ما ذكروا به في هذه السورة من الآية ١٢٧.

فأنت ترى أن كل ما وصفوا به بيان لحقيقة حالهم بأنزه تعبير يدل عليه مقروناً بتلك الأعمال القبيحة والأخلاق السافلة والسرائر التي هي شر منها ـ وأن المراد بوصفهم التنفير منه لإعداد من فيه استعداد لقبول الحق بالرجوع إليه وقد تاب أكثرهم ولله الحمد.

الفصل الثاني

في المنافقين وصفاتهم وأعمالهم وسياسة الإسلام فيهم

النفاق خلق رديء ووصف خبيث تتلوث به الأنفس الدنيئة الفاسدة الفطرة فلا يرى أهلها وسيلة إلى مطامعهم في المال ومطامحهم إلى الجاه إلا الكذب والرياء، ولقاء الناس بالوجوه المختلفة، والتصنع والخداع ولين القول، كما قال تعالى فيهم ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وأن يقولوا تسمع لقولهم﴾ [المنافقون: ٤] وهم يوجدون في كل شعب وكل قبيلة، لا تخلوا منهم بادية ولا حاضرة. والنفاق قسمان: خاص وعام، فالخاص هو الشخصي الذي يحاول صاحبه لقاء كل أحد بما يرضيه عنه ويجيبه إليه ولا سيما الحكام وأصحاب الجاه والمناصب والثراء الذين يرجى الانتفاع منهم أو يخشى ضرهم، فهو يلبس للصالحين منهم لباس التقوى والصلاح، ويخلع للفساق جلباب الحياء، ويفرغ على المستكبرين حلل الإطراء، وهو أهون النفاقين.

وأما النفاق العام فهو ما يكون في الدين والدولة، وخيانه الأمة والملة، وما وجد النفاق في عهد الرسول ﷺ إلا بعد الهجرة، لما صار للإسلام قوة ودولة، إذ أسلم أكثر الأنصار بظهور نور هذا الدين القويم لهم، ولم يكن لهم مصلحة دنيوية تحجب هذا النور عن بصائرهم، أو تحملهم على مكابرة الحق وجحوده، ككبراء قريش المغرورين بثروتهم الواسعة، وجاههم في العرب بسدانة البيت الحرام، واستكبارهم على سائر الناس، وإسرافهم في التمتع بالسكر والزنا وأكل الربا والشهوات، فكانوا يرون أن الإسلام يساوي بينهم وبين سائر الناس في جميع الحقوق، ويفضل الفقير المتقي لله تعالى على الغني المسرف في الفسوق، ويقتص للسوقة من الأمراء والملوك، ويحقر المتكبرين، ويكرم المتواضعين، ويزدري الظالمين والفاسقين، فيسلبهم بهذا جميع ما يمتازون به على دهماء الناس. ولهذا كان أكثر من اهتدى به في مكة الفقراء وبعض أصحاب الفطرة السليمة والعقول الحرة من الطبقة الوسطى وكان أعلاهم فطرة وأزكاهم نفساً أبو بكر الصديق وسائر العشرة الكرام المبشرين بالجنة.

آمن بعض الأوس والخزرج أولاً بلقاء النبي ﷺ في موسم الحج ودعوا قومهم إلى الإسلام بعد عودتهم إلى المدينة فصادفت دعوتهم رواجاً لقوة المقتضى وهو

التوحيد وفضائل الإسلام، فلما كثروا هاجر الرسول ﷺ إليهم إذ عاهده نقباؤهم في منى على نصره ومنعه «أي حمايته والذب عنه» مما يمنعون أنفسهم وأهليهم، ومن المعقول أن يكون نور الإسلام لم يظهر لكل فرد منهم على سواء، وأن يكون منهم من اضطر إلى الدخول فيما دخل فيه قومهم مواتاة لهم، مع عدم وجود نظام لديانتهم الوثنية يرتبط به بعضهم ببعض فيقيمونه ويذبون عنه، فكان منافقو المدينة من هؤلاء وممن حولهم من قبائل الأعراب الذين لم يعقلوا الإسلام، كأسد وغطفان.

وكان هنالك يهود كثيرون يقيم أكثرهم في حصون لهم بالقرب من المدينة كبني قريظة وبني النضير، وقد عاهدهم النبي ﷺ على حريتهم في دينهم وأنفسهم وأموالهم، ولكنهم كانوا ينقضون عهده ويظاهرون عليه المشركين كلما جاؤا لقتاله، بل كانوا يغرونهم ويحرضونهم عليه، فكانوا في إظهار الوفاء بعهده منافقين، وكان لهم أحلاف من عرب المدينة فحافظ على مودتهم منافقوها بالسر كما بينا ذلك كله في محله.

فكانت سياسة الإسلام في الفريقين أن من أظهر الإسلام يعامل كما يعامل سائر المسلمين، لأن قاعدة الإسلام أن الحكم على الظواهر، وأن الله تعالى وحده هو الذي يحاسب ويعاقب على السرائر، وأن من حافظ على الوفاء بعهده من أهل الكتاب يوفى له، وكان اليهود ينقضون عهدهم مع النبي ﷺ سراً، فإذا ظهر شيء من خيانتهم وغدرهم اعتذروا عنه، حتى إذا ما افتضح أمرهم حاربهم ﷺ وأجلاهم عن البلاد، كما ترى في تفسير الآيات ٥٥ ـ ٥٨ من سورة الأنفال (ج ١٠).

وقد قص الله علينا في سورة الحشر ما كان بين اليهود والمنافقين من الإخاء والولاء وأنه لا خير فيه لأحد منهما على أن اليهود ظاهروا المشركين على النبي ﷺ ولكن المنافقين لم يفوا لليهود بما وعدوهم به من نصرهم إذا هم أظهروا عداوتهم لأن المنافق القح دون المتدين الكافر همة وشرفاً وخلقاً. قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون﴾ [الحشر: ١١، ١٢].

كان سبب معاهدة النبي ﷺ لليهود وإقراره إياهم على دينهم أن الإسلام دين حرية وعدل، ودعوته قائمة على البرهان والحجة، ولذلك منع المسلمين من أخذ أولادهم الذين تهودوا وانضموا إلى اليهود بالقوة، وأمرهم بأن يخيروهم إذ نزل فيهم قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد تقدم أن سبب معاملة المنافقين بظاهر إسلامهم هو أن أمر السرائر لله وحده، فهو الذي يعلمها، وهو الذي يجازي عليها، ولا يباح لحاكم ولا لنبي أن يحكم على إنسان بأنه يسر الكفر في نفسه ولا أن يتهمه بذلك ويعاقبه عليه. ولا يثبت الكفر على من ظاهره الإسلام إلا بإقرار صريح منه أو صدور قول أو فعل يدل عليه دلالة قطعية لا تحتمل التأويل كتكذيب القرآن أو فعل يدل عليه دلالة قطعية لا تحتمل التأويل كتكذيب القرآن أو النبي ﷺ أو جحود كونه خاتم النبيين لا نبي بعده، والشرك بالله بدعاء غيره، وغير ذلك مما هو مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة لا يقبل فيه تأويل، كجحود فرضية الصلاة والزكاة والصيام والحج، أو استحلال الزنا والربا وشرب الخمر.

وأما حكمة ذلك وفائدته فهي أن من يلتزم شعائر الإسلام وأحكامه ولو بغير إيمان يقيني فإنه يرجى له بطول العمل أن ينشرح صدره للإيمان ويطمئن به قلبه، ويوقن به عقله، وإلا كانت استفادته وإفادته للأمة دنيوية فقط.

فإن قيل: إن مقتضى حرية الدين التي امتاز بها الإسلام في معاملة أهل الكتاب ـ إذ أقرهم على العمل بدينهم حتى فيما بين لهم أنهم خالفوا فيه ما جاء به رسلهم ـ أن يسمح للمنافقين بأن يظهروا كفرهم قلنا إن الجمع بين إظهار كفرهم وحسبانهم من المسلمين لهم ما لهم من الحقوق وليس عليهم ما عليهم من الواجبات، تناقض لا يقول به عاقل، ولا يحكم به عادل، ومثلهم فيه كمثل من يسمح له بحقوق الجنسية السياسية الوطنية ولا يطالب بالخضوع لقوانينها، ولا يعاقب على انتهاكها ومخالفة أحكامها، وإنما تكون حرية الدين المعقولة لأهله في دائره محيطه بأن لا يحاسب أحدهم أحد على عقيدته ووجدانه فيه، ولا اجتهاده في فهمه، إلا من طريق البحث العلمي، وليس منها أن يخالف أصوله القطعية التي لا يكون المسلم مسلماً بدونها ويعد مع ذلك مسلماً، وإذاً ليس لأحد أن يطالب حكومته المتدينة بالسماح له بالخروج على دينها، كما لا يصح له أن يطالبها بالسماح له بالخروج على قوانينها، فتكون حريته هنا متعارضة مع حريتها هي وحرية أمتها.

فإن قيل: إن القرآن قد فضح بعض المنافقين في هذه السورة وحكم بكفرهم ولم ينفذ النبي ﷺ عليهم أحكام المرتدين عن الإسلام، بل بقي يعاملهم هو وأصحابه معاملة المسلمين قلنا إن ما بينه الله تعالى من حال المنافقين إنما كان وصفاً لأناس غير معينين بأشخاصهم، إنذاراً وزجراً لهم ليعرفوا حقيقة حالهم، ويخشوا سوء مآلهم، عسى أن يتوب المستعدون للتوبة منهم، وقد تاب الكثيرون منهم، بما ظهر لهم من إخبار القرآن عنهم، بما لا يعلمه إلا الله تعالى من أمرهم.

وكان الذين عرف النبي ﷺ بعض أصحابه أشخاصهم قليلين جداً كالذين هموا باغتياله ﷺ بتشريد راحلته في عقبة في الطريق منصرفهم من تبوك ليطرحوه منها، وقال بعضهم لبعض: لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير. وفيهم نزل ﴿يحلفون بالله ما قالوا. ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا﴾ [التوبة: ٧٤] ولما استأمره أصحابه بقتلهم قال: «أكره أن يتحدث الناس ويقولوا أن محمداً قد وضع يده في أصحابه» أي في رقابهم بقتلهم، وهذا أكبر منفر عن الإيمان، فإن كثيراً من الناس كان يستحسن هذا الدين ويفضله على ما كانوا عليه من الشرك في أحكامه وآدابه لذاتها، قبل أن تقوم عندهم الحجة على اليقين بكونه وحياً من الله تعالى، فيدخلون فيه، ثم بعد زمن قليل أو كثير من معرفته التفصيلية تطمئن قلوبهم بالإيمان اليقيني، ومنهم من كان يدخل فيه تبعاً لأكثر قومه من غير نظر إلى تفضيله لقلة علمه بدعوته، وكل هؤلاء يقبل إسلامهم ويعتد به شرعاً، وفيهم نزل قوله تعالى من سورة الحجرات: ﴿وقالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم. وأن تطيعوا الله ورسله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ [الحجرات: ١٤] ولو سمع أمثال هؤلاء أن النبي ﷺ يقتل بعض من اتبعه وصحبه لظهور شيء يدل على عدم إيمانهم في الباطن، أو لإعلام الله تعالى إياه بما في قلوبهم، لنفروا من الإسلام وخافوا عاقبة الدخول فيه.

وثم مفسدة أخرى في هذه الإشاعة وهي إن المنافقين والكفار يذيعون فيها ما شاؤوا من التهم الباطلة والإفك المفترى، كزعمهم أنه إنما قتل من ظهر لهم منه ما دلهم على بطلان دينه بعد أن صدقوه وجاهدوا معه.

على أن الله تعالى قال فيهم بعد وصفهم بالكفر بالقول وبالهمّ بشر نتائجه من الفعل ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة﴾ [التوبة: ٧٤] الآية، فليراجع تفسير الآية وما قبلها من الأمر بجهاد الكفار والمنافقين في (ج ١٠).

ويلي هذا في السورة خبر الذي عاهد الله لئن أتاه من فضله ليصدقن (في الآيات ٧٤ ـ ٧٧)وما رووا في سبب نزولها خاصة وأنه شخص يقال له ثعلبة، وأنه بعد أن نزلت فيه الآيات تاب وأراد أن يؤدي زكاة ماله فلم يقبلها منه النبي ﷺ ثم لم يقبلها منه أبو بكر ولا عمر ولا عثمان من بعده، وأنه هلك في خلافة عثمان. وقد بينا في تفسيرها أن في حديث سبب نزولها إشكالات في سنده وفي متنه فإنه مخالف لأصل الشريعة القطعي المجمع عليه من العمل بالظاهر فهو باطل قطعاً بما فصلوه به تفصيلاً.

ويقرب منه في المعنى ما روي في الصحاح من نزول قوله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ [التوبة: ٨٤] وأنه في عبد الله بن أبي ابن سلول زعيم المنافقين الأكبر وقد بينا في تفسيرها ما في الحديث من التعارض مع القرآن فراجعه.

ومن المشكل في هذا الباب قصة مسجد الضرار في الآيات (١٠٧ ـ ١١٠) فقد بين الله تعالى فيها أنهم اتخذوه لأربعة أغراض منها الكفر وسائرها أقبح مقاصد أعداء الله ورسوله والمؤمنين. وقد أمر النبي ﷺ بهدمه فهدم ولم يأمر بقتلهم، وقد شهد الله بكذبهم فيما حلفوا عليه من حسن نيتهم. وسبب ذلك أن الذين بنوه للمقاصد الأربعة المذكورة في الآيات كانوا كما قال المفسرون اثني عشر رجلاً من منافقي الأوس والخزرج أتباع أبي عامر الراهب الذي وعدهم بأن يتوسل بنصرانيته إلى قيصر الروم في الشام فيرسل معه جنداً يكفيهم أمر الرسول ومن اتبعه من المؤمنين، ولكن صدقهم في ظاهر عملهم وما زعموه من حسن النية فيه كثير من المؤمنين وشاركوهم وصلوا معهم فيه، وكان التمييز بينهم متعذراً، فصح أن يأتي في الفريقين قوله تعالى في المسلمين المتسخفين من المشركين في مكة عام الحديبية ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ [الفتح: ٢٥].

والسبب الخاص لعدم عقاب أصحاب مسجد الضرار على الكفر الذي أثبته النص الصريح أمران: **أحدهما**: أن الآيات في قصتهم قد بدئت بما يحتمل أن يكون ذكرهم فيها معطوفاً على الذين أرجأ الله البت في أمرهم وجعل التوبة عليهم مرجوة وهو قوله تعالى: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ [التوبة: ١٠٦] **والثاني**: ختم قصتهم بقوله تعالى: ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾ [التوبة: ١١٠] فيظهر في معنى تقطع قلوبهم احتمال هو أحد الأقوال في تفسيره، وهو تقطعها من الأسف والحزن على ما فرط منهم، ووقوع هذا الاستثناء محتمل، وإذاً يكون أقوى الأدلة على توبتهم وأصدقها، ويكفي الاحتمال لمنع الحكم عليهم بالكفر.

وجملة القول في هذا الباب أن سياسة الإسلام في المنافقين أن يعاملوا بحسب ظواهرهم وما يبدو من أعمالهم، وأن للإمام الأعظم أو عليه ـ ومثله نوابه من أولياء الأمور ـ أن يعرّض في الخطب العامة والتصريحات الرسمية بتقبيح ما يعلم من سوء أعمالهم والإنذار بسوء عواقبها ليعدهم للتوبة منها، أو الحذر من إظهار ما يضمرونه من الشر الذي يترتب عليه العقاب. وتتضمن هذه السياسة الأصول الآتية.

الأصول الثلاثة في حرية الدين، ومعاملة المنافقين

١ ـ إن حرية الاعتقاد والوجدان مرعية لا سيطرة عليها للرؤساء الحاكمين، ولا للمعلمين والمرشدين، وإنما لهؤلاء حق في التربية والتعليم، فليس لأحد أن يتهم إنساناً بإضمار الكفر ولا بنية الخيانة لملته أو دولته، ولا بإرادة السوء لقومه وأمته، ولا أن يعاقبه على ذلك بعقاب بدني ولا مالي، ولا بحرمانه من الحقوق التي يتمتع بها غيره من أفراد الأمة.

٢ ـ إنه ليس لمن يضمر الكفر بالله أو بما جاءت به رسله أن يكون فتنة للناس بإظهار ذلك لهم ودعوتهم إليه، أو الطعن في عقائدهم، أو إظهار ما ينافيها من قول أو عمل، وإن لم يكن دعوة ولا طعناً، فإن فعل ذلك وكان يدعي الإسلام يحكم بارتداده وخروجه من الملة، إن كان ما أظهره من الكفر صريحاً قطعياً مجمعاً عليه لا يحتمل التأويل، ويترتب عليه ما هو مقرر في الشرع من استتابته وعقابه إن لم يتب (ومنه منع التوارث بينه وبين المسلمين وفسخ نكاحه بالمسلمات، وعدم تشييع جنازته والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين) لأن حرية كل واحد في اعتقاده تقف عند حد حرية غيره، ولا سيما احترام عقائد الملة التي يعيش في ظل شريعتها، وسائر شعائرها وعبادتها.

وليعلم القارىء أن كثيراً من الفقهاء قد أسرفوا في أبواب الردة في المسائل التي يحكم فيها بالكفر المخرج من الملة، وبنوا كثيراً منه على اللوازم البعيدة، والمحتملة للتأويلات القريبة، وما ورد في صفات المنافقين في هذه السورة حجة عليهم، وإن قال بعض العلماء المتقدمين: إن ما كان في زمن النبي ﷺ نفاقاً لا ينافي ظاهر الإسلام، هو الآن كفر محض لا تقبل معه دعوى الإيمان، فهذا قول باطل، فكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما الحجة في الدين، والاهتداء بهما هو الواجب إلى يوم الدين، فيجب قبول قول كل من أظهر الإسلام ولم يصرح بما ينافيه بما لا يحتمل التأويل، ومما يحتمل التأويل احتمالاً ظاهراً جميع المباحث العلمية المخالفة لظواهر النصوص كما هو مقرر في الأصول.

٣ ـ إن من ظهر منه شيء من أمارات النفاق العملي في الدين، أو الخيانة للأمة والملة بما هو غير صريح، مما لا يعاقب عليه في الشرع بحد ولا تعزير، فلولي الأمر أن يعظه بالتعريض، ثم بالتصريح والتكشيف، وله أن يعاقبه بما يرجى أن يزعه عن غيه من التأديب، كالحرمان من مظاهر التشريف، أو الازورار والتقطيب، أو التأنيب والتعنيف، كما بيناه في تفسير ﴿جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم﴾ [التوبة: ٧٣] ومنه حرمان النبي ﷺ للذين تخلفوا عن غزوة تبوك

من الخروج معه إلى غزوة أخرى بقول الله تعالى: ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً﴾ [التوبة: ٨٣] الآية. ولكن الملوك المستبدين يقربون إليهم المنافقين فيزيدونهم فساداً، ويجرؤون غيرهم بل يرغبونه في النفاق وخيانة الأمة جهاراً، حتى إن المناصب الدينية المحضة صارت تنال بالنفاق، ويذاد عنها أهل الصدق والإخلاص، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

انتهى بيان ما فتح الله به علينا من خلاصة هذه السورة
وكتب في أوقات متقطعة في سنة عسرة شديدة
وتم في ذي الحجة سنة ١٣٥٠

سورة يونس

السورة العاشرة في المصحف
وآياتها ١٠٩ عند الجمهور وعند الشامي ١١٠

هي مكية نزلت بعد سورة الإسراء (بني إسرائيل) وقبل سورة هود. وما رواه ابن مردويه من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس من كونها مدنية غلط مخالف للروايات الكثيرة عنه وعن غيره بل للإجماع الذي يؤيده موضوع السورة من أولها إلى آخرها فهو يدور على إثبات أصول التوحيد وهدم الشرك وإثبات الرسالة والبعث والجزاء ودفع الشبهات عنها وما يتعلق بذلك من مقاصد الدين الأصلية التي هي موضوع السور المكية، وعثمان بن عطاء ضعيف متروك لا يحتج بروايته فيما يحتمل الصواب فكيف ينظر إليها في مثل هذه المسألة، ولكن الرواة لم يتركوا متردماً.

وقال السيوطي في الاتقان استثني منها ﴿فإن كنت في شك﴾ الآيتين ٩٤ و٩٥ وقوله: ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ [يونس: ٤٠] الآية قيل نزلت في اليهود، وقيل من أولها إلى رأس أربعين مكي والباقي مدني حكاه ابن الفرس والسخاوي في جمال القراء اهـ.

وأقول: إن موضوع السورة لا يقبل هذا من جهة الدارية، وهو مما لم تثبت به رواية. وكون المراد بالذين يقرؤون الكتاب في الآية ٩٤ اليهود لا يقتضي أن تكون نزلت في المدينة. وبيانه من وجهين: **أحدهما**: أن المراد بالشرطية فيها الفرض لا وقوع الشك حقيقة ولذلك قال ﷺ «لا أشك ولا أسأل» وهو مرسل يؤيده قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري كما سيأتي في تفسيرها **وثانيهما**: أن هذا المعنى نزل في سور مكية أخرى كقوله تعالى: ﴿فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم﴾ [الإسراء: ١٠١] وقوله في سورتي النحل والأنبياء: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [النحل: ٤٣] ووجه مناسبتها لما قبلها أن تلك ختمت بذكر رسالة النبي ﷺ وهذه افتتحت بها، وأن جل تلك في بيان أحوال المنافقين ومنه ما كانوا يقولونه وما كانوا يفعلونه عند نزول القرآن كالآيات ١٢٤ ـ ١٢٧ وهذه في أحوال الكفار ومنها ما كانوا يقولونه في القرآن كالآيات ١٥ و ١٦ و ١٧ و ٣٧ و ٤٠.

واعلم أن التناسب الذي يوجد بين السور ليس سبباً في هذا الترتيب الذي بينها، فرب سورتين بينهما أقوى التناسب في موضوع الآيات ومسائلها يفصل بينهما تارة ويجمع أخرى فمن الأول الفصل بين سورتي الهمزة واللهب وموضوعهما واحد. والفصل بين السور المبدوءة بالتسبيح بسورة المنافقين. ويقابلها من الوجه الثاني الوصل بين سور الطواسين وسور آل حاميم وبين سورتي المرسلات والنبأ وسورتي التكوير والانفطار، وربما يقال إن التناسب بين أكثر السور المكية أقوى منه بينها وبين السور المدنية ومن حكمة الفصل بين القوية التناسب في المعاني كالمكية التي موضوع أكثرها العقائد والأصول العامة والزواجر الصادعة والمدنية التي موضوع أكثرها الأحكام العملية أنه أدنى إلى تنشيط تالي القرآن بالترتيب وأنأى به عن الملل، وأدعى له إلى التدبر، فهذه الحكمة تشبه حكمة تفريق مقاصد القرآن في السورة الواحدة من عقائد وقواعد، وأحكام عملية، وحكم أدبية، وترغيب وترهيب، وبشارات ونذر، وأمثال وقصص، والعمدة في كل ذلك التوقيف والاتباع وها أنذا أشرع في تفسير السورة ملتزماً فيها القصد والاختصار في كل ما سبق له بيان مفصل في تفسير السور السابقة ولا سيما السورتين المكيتين من السور الطول: الأنعام والأعراف: وإنما أبسط القول فيما لم أبسطه فيه تمام البسط من قبل، وأهمه في هذه السورة مسألة الوحي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

﴿الٓر﴾ تقرأ هذه الحروف الثلاث بأسمائها ساكنة غير معربة هكذا: ألف، لام، را. والحرف الأخير غير مهموز. وفائدة النطق بها وبأمثالها هكذا تنبيه الذين تتلى عليهم السورة لما بعدها لأجل العناية بفهمه حتى لا يفوتهم من سماعه شيء. وهي أقوى في هذا التنبيه من حرف الهاء الموضوع له في اسم الإشارة، ومن كلمة «ألا» الافتتاحية، وقد فصلنا هذه المسألة في أول تفسير سورة الأعراف[1].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي تلك الآيات البعيدة الشأو، الرفيعة الشأن، التي تألفت منها هذه السورة، أو القرآن كله. هي آيات الكتاب الموصوف بالحكمة في معانيه، والأحكام في مبانيه، الحقيق بهداية متدبره وواعيه.

---

(١) زعم بعض ملاحدة مصر أن هذه الأحرف كانت تكتب في بعض مصاحف الصحابة رمزاً لأصحابها فادخلت في القرآن عند كتابة المصاحف الرسمية ظناً أنها من السور. وفي هذا الزعم أكبر جرأة على الافتراء والافتجار ورد النقل المتواتر بدون أدنى شبهة غير وسوسة الشيطان، وعداوة الرحمن (المؤلف).

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ الاستفهام للتعجيب من عجب الكفار واستنكار إنكارهم للوحي إلى رجل من جنسهم. والوحي الإعلام الخفي الخاص لامرىء بما يخفى على غيره ـ أي أكان إيحاؤنا إلى رجل من الناس أمراً نكراً اتخذوه أعجوبة بينهم يتفكهون باستغرابها؟ كأن مشاركتهم له في البشرية يمنع اختصاص الله إياه بما شاء من العلم. والمراد بالناس كفار مكة ومن تبعهم في إنكار نبوة محمد ﷺ، وعبر عنهم بالناس لأن هذه الشبهة على الرسالة قد سبقتهم إليها أقوام الأنبياء قبله كما تقدم في قصة نوح وهود من سورة الأعراف ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم؟﴾ [الأعراف: ٦٢، ٦٨] وهذا المعنى مكرر في القرآن وقد دحضنا هذه الشبهة في آخر تفسير سورة الأنعام.

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ «أن» هذه مفسرة لما قبلها، والإنذار الإعلام بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد الدين المقترن بالتخويف من عاقبة الكفر والمعاصي، أي أوحينا إليه بأن أنذر الناس كافة ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ التبشير مقابل الإنذار، أي الإعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء على الإيمان والعمل الصالح. والمعنى وبشر الذين آمنوا منهم خاصة بأن لهم قدم صدق عند ربهم يجزيهم به في الآخرة ـ والصدق في أصل اللغة ضد الكذب ثم أطلق على الإيمان وصدق النية والوفاء وسائر مواقف الفضائل، ومنه في التنزيل: مقعد صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، وقدم صدق. والقدم ههنا السابقة والتقدم. قال البيضاوي: سابقة ومنزلة رفيعة سميت قدماً لأن السبق بها كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد، وإضافتها إلى الصدق لتحققها، والتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ ابن كثير والكوفيون «لساحر» يعنون النبي ﷺ، والباقون «لسحر» ويعنون به القرآن، وكل من القولين قد قالوا، وكل من القولين يشير إلى إثبات رسالته ﷺ فإن قولهم إن القرآن سحر جاء به ساحر يتضمن اعترافهم بأنهما فوق المعهود والمعلوم للبشر في عالم الأسباب المقدورة لهم. وتأكيد قولهم بالجملة الاسمية وإن واللام وبوصف السحر أو الساحر بالمبين الظاهر يفيد الحصر كقول الوليد ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ [المدثر: ٢٤] يعني القرآن. وسموه سحراً لأنه خارق للعادة بقوة تأثيره في القلوب وجذبه للنفوس إلى الإيمان وحملها على احتقار الحياة ولذاتها في سبيل الله، حتى أنه يفرق بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وزوجه وبنيه، وفصيلته التي تؤويه، وتمنعه وتحميه. وإنما السحر ما كان بأسباب خفية خاصة ببعض الناس يتعلمها بعضهم من بعض، وهي إما حيل وشعوذة، وإما خواص طبيعية علمية مجهولة للجماهير، وإما تأثير قوى النفس وتوجيه الإرادة. وكلها من الأمور المشتركة بين الكثيرين من العارفين بها وقد، استبان لعامة العرب ثم لغيرهم من

شعوب العجم أن القرآن ليس بسحر يؤثر بالتعليم والصناعة، بل هو مجموعة علوم عالية في العقائد والآداب والتشريع والاجتماع مرقية للعقول، مزكية للأنفس، مصلحة للناس، وأنه معجز للبشر في أسلوبه ونظمه ومعانيه وهدايته وتشريعه وإخباره بالغيب وأن محمداً ﷺ مبلغ له، ولم يكن ليقدر على شيء منه، وقد عجز عنه غيره، فثبت أنه نبي الله ورسوله، وأن ما جاء به وحي منه تعالى.

وقد بينا حقيقة الوحي لغة وشرعاً وإثباته لنبينا ﷺ في مواضع منها ما في بحث دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ وهو في (ج ١ تفسير) ومنها تفسير ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح﴾ [النساء: ١٦٣] الآية وهو في (ج ٦ تفسير) ومنها رد شبهات الكفار عليه في سورة الأنعام (ج ٧ تفسير) ومنها في خلاصتها (ج ٨) ومنها تحقيق القول في مسألة الكلام الإلهي بمناسبة تكليم الله لموسى عليه السلام (ج ٩) وبقي علينا بسط القول في نبوة محمد مع مثبتي الوحي ونفاته، وشبهة النفاة لعالم الغيب عليها وتصويرهم للوحي إليه بغير صورته، فنعقد له الفصل التالي:

فصل في إقامة الحجج

على مثبتي الوحي ونفاته في إثبات نبوة محمد ﷺ

الكلام في الوحي لمحمد ﷺ مع مثبتي الوحي.

أما الفريق الأول فهم أهل الكتاب، وأن من اطلع على كتبهم المقدسة المعبر عنها بكتب العهدين العتيق والجديد وعلى القرآن وكتب السنة والسيرة المحمدية علم علماً عقلياً وجدانياً أنه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيماناً علمياً بأن تلك كتب وحي من الله، وأن الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحي من الله وأن محمداً نبي معصوم فيما بلغه عن الله تعالى، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبي حنيفة والشافعي، ولا نحوي أي يجحد نحو سيبويه وابن جني، ولا شاعر أن ينفي شاعرية الرضي والبحتري، بل كما لا يستطيع بصير أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس، أو نور السراج على نور النهار، ولله در البوصيري حيث قال:

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فاطفىء القنديلا

وقد صرح بهذا المعنى علماء الإفرنج الذين نشؤوا في النصرانية وأحاطوا بها علماً وخبراً ثم عرفوا الإسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة. وهاك شهادة حديثة لعالم مستشرق منهم.

كتب الأستاذ أدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية في مدرسة جنيف الجامعة في مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية:

«كان محمد نبياً صادقاً كما كان أنبياء بني إسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى إليه، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الألوهية متمكنتين، كما كانتا متمكنتين في أولئك الأنبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث ذلك الإلهام النفسي، وهذا التضاعف في الشخصية اللذين يحدثان في العقل البشري المرائي والتجليات والوحي والأحوال الروحية التي من بابها» اهـ.

فهذا العالم الأوروبي المستقل الفكر يقول إن كل ما كان به أنبياء بني إسرائيل أنبياء كان ثابتاً لمحمد. ونحن نقول إن جميع خصائص النبوة التي كانت فيه هي أكمل شكلاً وموضوعاً وأصح رواية وأبعد عن الشبهات كما سنوضحه، وأما ما فسر به هذه الخصائص فهو التعليل الذي يعلل به الماديون الوحي المطلق، وسنتكلم عليه في القسم الثاني من هذا الفصل.

وقد لخص هذا العالم خبر نزول الوحي على محمد ﷺ من كتب إسلامية مذعناً لصحة روايتها وفصلها بعده العالم المستشرق الفرنسي أميل درمنغام[(١)] في كتابه (حياة محمد) مذعناً لصحة الرواية ولموضوعها مفصلاً لتأثير نبوته في إصلاح البشر متمنياً الاتفاق بين المسلمين والنصارى آسفاً للشقاق بينهم.

وإننا ننقل هنا تعريف الوحي والنبوة والآيات (العجائب) عن أحد علماء الإفرنج الجامعين بين العلوم العصرية والدينية والتواريخ وهو الدكتور جورج بوست الشهير مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) بالعربية ليبني عليها الباحث المستقل العقل حكمه في نبوة أنبياء بني إسرائيل ووحيهم ونبوة محمد رسول الله وخاتم النبيين والوحي الذي أنزل عليه.

تعريف الوحي عندهم.

جاء في تفسير «وحي» من قاموس الكتاب المقدس ما نصه مع حذف رموز الشواهد: «تستعمل هذه اللفظة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أو شعب وجاء في (حز ١٢: ١) «هذا الوحي هو الرئيس» أي أنه آية للشعب. وعلى العموم يراد بالوحي الإلهام. وعلى ذلك يقال: «إن كل الكتاب هو موحى به من الله» والوحي بهذا المعنى هو حلول روح الله في روح الكتاب الملهمين وذلك على أنواع:

---

(١) يكتب هذا الاسم في مجلة السياسة (درمنجام) بالجيم المصرية، حيث ينشر فيها كتابه (حياة محمد)، مترجماً بالعربية، وإنما اخترنا كتابته بالغين، لكتاب جاءنا من المؤلف بالعربية كتب فيه أمضاء، (اميل درمنغام) ونشرناه في الجزء الأول من مجلد المنار الثلاثين (المؤلف).

١ ـ إفادتهم بحقائق روحية أو حوادث مستقبلة لم يكن يمكنهم التوصل إليها إلا به.

٢ ـ إرشادهم إلى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة والتفوه بها شفاها أو تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ. فيقال: «تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس» وهنا لا يفقد المتكلم أو الكتاب شيئاً من شخصيته وإنما يؤثر فيه الروح الإلهي بحيث يستعمل ما عنده من القوى والصفات وفق إرشاده تعالى. ولهذا نرى في كل مؤلف من الكتاب الكرام ما امتاز به من المواهب الطبيعية ونمط التأليف وما شابه ذلك وفي شرح هذا التعليم دقة. وقد اختلف العلماء فيما أوردوه من شرحه، غير أن جميع المسيحيين يتفقون على أن الله قد أوحى لأولئك الكتاب ليدونوا إرادته ويفيدوا الإنسان ما يجب عليه من الإيمان والعمل لكي ينال الخلاص الأبدي» اهـ.

تعريف النبوة والأنبياء عندهم.

وجاء في تفسير «نبي أنبياء نبوة» منه ما نصه:

«النبوة لفظة تفيد معنى الإخبار عن الله وعن الأمور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد. وسمي هارون نبياً لأنه كان المخبر والمتكلم عن موسى نظراً لفصاحته. أما أنبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشريعة الموسوية، وينبئون بمجيء المسيح. ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في أيام صموئيل أقام مدرسة في الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بني الأنبياء فاشتهر من ثم صموئيل بإحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب وتأسست أيضاً مدارس أخرى للأنبياء في بيت إيل وأريحا والجلجال وأماكن أخرى. وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أبا أو سيدا، وكان يعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر، ولذلك كان الأنبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرنمون ويلعبون على آلات الطرب. وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب. أما معيشة الأنبياء وبني الأنبياء فكانت ساذجة للغاية، وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوافين يضافون عند الأتقياء».

«ويظهر أن كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الإنباء بما سيأتي، إنما اختص بهذه الخصوصية أناس منهم كان الله يقيمهم وقتاً دون آخر حسب مشيئته، ويعدهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة. على أن بعض الأنبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كعاموس مثلا فإنه كان راعياً وجاني جميز. أما النبوة فكانت على أنواع مختلفة كالأحلام والرؤى والتبليغ. وأحياناً كثيرة كان الأنبياء يرون الأمور المستقبلة بدون

تمييز أزمنتها فكانت تقترن في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة كاقتران نجاة اليهود من الأشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح، وكانتصار إسكندر ذي القرنين بإتيان المسيح، وكاقتران انسكاب الروح القدس يوم الخميس بيوم الحشر. ومن هذا القبيل اقتران خراب أورشليم بحوادث يوم الدينونة».

«وقد أرسل الله الأنبياء الملهمين ليعلنوا مشيئته وليصلحوا الشؤون الدينية وعلى الأخص ليخبروا بالمسيح الآتي لتخليص العالم. وكانوا القوة العظيمة الفعالة في تعليم الشعب وتنبيههم وإرشادهم إلى سبيل الحق. وكان لهم دخل عظيم في الأمور السياسية اهـ بنصه.

ما يرد على نبوتهم من تعريفها.

أما تفسيره الإلهام بحلول روح الله الملهم فهو تحكم للنصارى لا يعرفه ولا يعترف به أنبياء بني إسرائيل ولا علماؤهم. ولا يمكنهم إثباته ولا دفع ما يرد عليه من وقوع التعارض والتناقض والخلف فيما كتبه أولئك الملهمون وما خالفوا فيه الواقع، وقد أشار إلى ذلك بقوله: إن في شرح ذلك التعليم دقة وإن العلماء اختلفوا في شرحه الخ، ومن حل فيه روح الله صار إلهاً إذ المسيح لم يكن إلهاً عند النصارى إلا بهذا الحلول فكيف يقع في مثل ما ذكر ويتخلف وحيه أو يخالف الواقع؟

وأما كلامه في النبوة والأنبياء فيؤخذ منه ما يأتي:

١ ـ إن أكثر أنبياء بني إسرائيل كانوا يتخرجون في مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب وبارعين في كل ما يؤثر في الأنفس ويحرك الشعور والوجدان، ويثير رواكد الخيال، فلا غرو أن يكون عزرا ونحميا من أعظم أنبيائهم ساقيين من سقاة الخمر لملك بابل (ارتحشتا) ومغنين له، وأن يكونا قد استعانا بتأثير غنائهما في نفسه على سماحه لهما بالعودة بقومهما إلى وطنهما وإقامة دينهما فيه فالنبوة على هذا كانت صناعة تعلم موادها في المدارس ويستعان على الإقناع بها بالتخييلات الشعرية والإلهامات الكلامية، والمؤثرات الغنائية والموسيقية. والمعلومات المكتسبة. فأين هي من نبوة محمد الأمي الذي لم يتعلم شيئاً ولم يقل شعراً، وقد جاء بأعظم مما جاءوا به كلهم؟

٢ ـ إن كثيراً من هؤلاء الأنبياء وأولادهم كانوا متنسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفاً عند الأتقياء المحبين لرجال الدين كما هو المعهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين، ومن المعلوم أن هؤلاء هم الذين يقبلون من رجال التنسك كل ما يقولون، ويسلمون لهم ما يدعون، ويذيعون عنهم كل ما يقبلون منهم، ومن غير هؤلاء الكثيرين من الأنبياء من نقلت عنهم كتبهم المقدسة بعض كبائر

المعاصي، وأن من أخبار الصوفية والنساك والسياح عند المسلمين من تفضل سيرتهم سيرة هؤلاء الأنبياء في كتبهم، فكيف يصح أن يرتفع أحد منهم إلى درجة محمد ﷺ في نشأته الفطرية ومعيشته من كسبه، وكونه لم يكن عالة على الناس في شيء قبل النبوة ولا بعدها.

٣ ـ أشهر أنواع نبوتهم الأحلام والرؤى المنامية والتخيلات المبهمة وكلها تقع لغيرهم، وقد كانت الرؤيا الصادقة مبدأ نبوة محمد ﷺ قبل وحي التشريع الذي كان له صور أعلى منها سنبينها بعد. والرؤى صور حسية في الخيال تذهب الآراء والأفكار في تعبيرها مذاهب شتى قلما يعرف تأويل الصادق منها غير الأنبياء كرؤيا ملك مصر التي عبرها يوسف عليه السلام. ورؤياه هو في صغره.

٤ ـ إن نبوة الإخبار عن الأمور المستقبلية وهي التي يستدلون بها على كونهم مخبرين عن الله تعالى كانت أحياناً كثيرة بدون تمييز أزمنتها ولا حوادثها فكان بعضها يختلط ببعض فلا يكاد يظهر المراد منها إلا بعد حملها على شيء واضح بعد وقوعه كما يعهد في كل عصر من أخبار العرافين والمنجمين، بله الروحانيين المكاشفين، ومنها ما ظهر خلافه كما أشار إليه ولم يشرحه ولكن التاريخ شرحه. وكان أعظم نبوات هؤلاء إخبارهم عن المسيح (مسيا) وملك إسرائيل ثم إخبار المسيح نفسه عن خراب العالم ومجيء الملكوت لأجل دينونية العالم وأنه لا ينقضي الجيل الذي خاطبه حتى يكون ذلك كله. وقد مر أجيال كثيرة ولم يكن من ذلك شيء.

امتياز نبوة محمد على نبوة من قبله.

فأنى تضاهي هذه الأخبار (النبوات) وهي كما علمت أنباء القرآن الكثيرة بالمغيبات كالذي بيناه في خلاصة تفسير السورة السابقة مما وقع من المنافقين وما هو في سورة الفتح. وقوله تعالى: ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ [الروم: ٢ ـ ٤] الآية، وقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ [النور: ٥٥] وأين هي من إنباء النبي ﷺ أصحابه بأنهم سيفتحون بعده بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر وسيتولون على ملك كسرى وقيصر حتى أنه سمى كسرى عصره باسمه كما رواه البخاري عن عدي بن حاتم الخ؟

هذا ما يقال بالإجمال في أحد موضوعي النبوة وهو الإخبار عما سيكون في مستقبل الزمان، فما جاء به محمد ﷺ منها في وحي القرآن وغيره أظهر وأوضح وأبعد عن احتمال التأويل، وأعصى على إنكار المرتابين، ويزيد عليه ما جاء به من أنباء الغيب الماضية، وسأذكر ما يتأوله به الجاحدون للنبوة والوحي في بيان بطلان شبهتهم.

وأما الموضوع الثاني للنبوة وهو الأهم الأعظم أي عقائد الدين وعبادته وآدابه وأحكامه فالنظر فيه من وجهين: **أحدهما**: ما ذكروه من كونه لا يمكن أن يصل إليه عقل من جاء به وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية فيتعين أن يكون بوحي من الله **ثانيهما**: أن يكون ما فيه من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره، فيتعين أن يكون وحياً.

فأما الأول الخاص بشخص الرسول فإن العاقل المستقل المفكر إذا عرف تاريخ محمد ﷺ وتاريخ أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام فإنه يرى أن محمداً ﷺ قد نشأ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، وأن قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم وعلوم التشريع والفلسفة، حتى أن مكة عاصمة بلادهم، وقاعدة دنيهم، ومثوى كبرائهم ورؤسائهم، ومثابة الشعوب والقبائل للحج والتجارة فيها، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها، لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كتاب مدون قط، فما جاء به من الدين التام الكامل، والشرع العام العادل، لا يمكن أن يكون مكتسباً ولا أن يكون مستنبطاً بعقله وفكره كما بيناه من قبل، وسندفع ما يرد من الشبهة عليه في القسم الثاني من هذا الفصل.

ويرى اتجاه هذا أن موسى أعظم أولئك الأنبياء في عمله وفي شريعته وفي هدايته قد نشأ في أعظم بيوت الملك لأعظم شعب في الأرض وأرقاه تشريعاً وعلماً وحكمة وفناً وصناعة، وهو بيت فرعون مصر، ورأى قومه في حكم هذا الملك القوي القاهر مستعبدين مستذلين، تذبح أبناؤهم وتستحيا نساؤهم، تمهيداً لفنائهم ومحوهم من الأرض، ثم إنه مكث بضع سنين عند حميه في مدين وكان نبياً ـ أو كاهناً كما يقولون ـ فمن ثم يرى منكرو الوحي أن ما جاء به موسى من الشريعة الخاصة بشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة، ناشىء في بيت الملك والتشريع والحكمة الخ.

ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي أن شريعة التوراة موافقة في أكثر أحكامها لشريعة حمورابي العربي ملك الكلدان الذي كان قبل موسى وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الألمان في حفائر العراق أنه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها لا وحي من الله تعالى كما شرحنا ذلك في مجلد المنار السادس وذكرنا خلاصته في تفسير سورة التوبة ٣٠ وهو في (ج ١٠) وأقل ما يقوله مستقل الفكر في ذلك أنه إن لم تكن التوراة مستمدة منها فلا تعد أحق منها بأن تكون وحياً من الله تعالى، ولم ينقل أن حمورابي ادعى أن شريعته وحي من الله تعالى.

ثم يرى الناظر سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها، وأنهم

كانوا يتدارسون تفسيرها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى، فلا يصح أن يذكر أحد منهم مع محمد، ويرى أيضاً أن يوحنا المعمدان الذي شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا بنبأ غيبي - بل يرى أن عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدراً وأعلاهم ذكراً، وأجلهم أثراً، لم يأت بشريعة جديدة بل كان تابعاً لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها، وإصلاح روحي أدبي لجمود اليهود المادي على ظواهر ألفاظها، فأمكن لجاحدي الوحي أن يقولوا إنه لا يكثر على رجل مثله زكي الفطرة ذكي العقل ناشىء في حجر الشريعة اليهودية، والمدنية الرومانية، والحكمة اليونانية، غلب عليه الزهد والروحانية، أن يأتي بتلك الوصايا الأدبية، ونحن المسلمين لا نقول هذا وإنما يقوله الماديون والملحدون والعقليون وألوف منهم ينسبون إلى المذاهب النصرانية.

وأما الوجه الثاني وهو عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فلا يرتاب العقل المستقل المفكر غير المقلد لدين من الأديان أن عقائد الإسلام من توحيد الله وتنزيهه عن كل نقص، ووصفه بصفات الكمال، والاستدلال عليها بالدلائل العقلية والعلمية الكونية، ومن بيان هداية رسله، ومن عباداته وآدابه المزكية للنفس المرقية للعقل، ومن تشريعه العادل وحكمه الشوري المرقي للاجتماع البشري - كل ذلك أرقى مما في التوراة والأناجيل وسائر كتب العهد القديم والجديد، بل هو الإصلاح الذي بلغ به دين الله أعلى الكمال، ويشهد بهذا علماء الإفرنج وقد شرحناه من وجهة نظرنا ووجهة نظرهم في مواضع من المنار والتفسير (آخرها ج ١٠ تفسير).

ومن نظر في قصة آدم ونوح وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب ويوسف من سفر التكوين وسيرة موسى وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء في سائر أسفار العهد القديم، ثم قرأ هذه القصص في القرآن يرى الفرق العظيم في الاهتداء بسيرة هؤلاء الأنبياء العظام، ففي أسفار العهد القديم يرى وصف الله تعالى بما لا يليق به من الجهل والندم على خلق البشر والانتقام منهم، ووصف الأنبياء أيضاً بما لا يليق بهم من المعاصي مما هو قدوة سوء، من حيث يجد في قصص القرآن من حكمة الله تعالى ورحمته وعدله وفضله وسننه في خلقه، ومن وصف أنبيائه ورسله بالكمال وأحاسن الأعمال، ما هو قدوة صالحة وأسوة حسنة تزيد قارئها إيماناً وهدى، فأخبار الأنبياء في كتب العهدين تشبه بستاناً فيه كثير من الشجر والعشب والشوك، والثمار والأزهار والحشرات، وأخبارهم في القرآن تشبه العطر المستخرج من تلك الأزهار، والعسل المشتار من تلك الثمار، ويرى فيه رياضاً أخرى جمعت جمال الكون كله.

وندع هنا ذكر ما كتبه علماء الإفرنج الأحرار في نقد هذه الكتب والطعن فيها، ومن أخصرها وأغربها كتاب (أضرار تعليم التوراة والإنجيل) لأحد علماء الإنكليز،

وما فيها من مخالفة العلم والعقل والتاريخ، والقرآن خال من مثل ذلك.

صد الكنيسة عن الإسلام وبغيه عوجاً

إن رجال الكنيسة لم يجدوا ما يصدون به أتباعها عن الإسلام بعد أن رأوه قد قضى على الوثنية والمجوسية وكاد يقضي على النصرانية في الشرق ثم امتد نوره إلى الغرب إلا تأليف الكتب ونظم الأشعار والأغاني في ذم الإسلام ونبيه وكتابه بالإفك والبهتان وفحش الكلام الذي يدل على أن هؤلاء المتدينين أكذب البشر وأشدهم عداوة للحق والفضيلة في سبيل رياستهم التي يتبرأ منها المسيح عليه صلوات الله وسلامه.

وقد كان أتباعهم يصدقون ما يقولون ويكتبون، ويتهيجون بما ينظمون وينشدون، حتى إذا ما اطلع بعضهم على كتب الإسلام ورأوا المسلمين وعاشروهم فضحوهم أقبح الفضائح، كما ترى في كتاب (الإسلام خواطر وسوانح) للكونت دي كاستري وكما ترى في الكتاب الفرنسي الذي ظهر في هذا العهد باسم (حياة محمد) للموسيو درمنغام وهذان الكاتبان أفرنسيان من طائفة الكاثوليك اللاتين، وقد صرحا كغيرهما بأن كنيستهم هي البادئة بالظلم والعدوان، والإفك والبهتان، وبأدب المسلمين في الدفاع[1].

---

(١) قال موسيو درمنغام ما ترجمته العربية بقلم الدكتور محمد بك حسين هيكل؛ لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أكبر الخلاف. فمن المجادلين البيزنطيون الذين أوقروا الإسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا أنفسهم ـ فيما خلا جان داماسين ـ مؤنة دراسته ولم يحارب الكتاب والنظامون (يعني الشعراء) مسلمي الأندلس إلا بأسخف المثالب. فقد زعموا محمدر لص نياق (؟) وزعموه متهالكاً على اللهو وزعموه ساحراً وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق بل زعموه قسا رومانيا مغيظاً إن لم ينتخب لكرسي البابوية... وحسبه بعضهم إلهاً زائفاً «يقرب له عباده الضحايا البشرية» وإن جيبر دنوجن نفسه وهو رجل جد ليذكر أن محمداً مات في نوبة سكر بين (كذا) وإن جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير وذلك ليفسر السبب الذي من أجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان... وذهبت الاغنيات إلى حد أن جعلت محمداً صنماً من ذهب وجعلت المساجد الإسلامية برابي (معابد أصنام) ملأى بالتماثيل والصور. وقد تحدث واضع أغنية أنطاكية حديث من رأى صنم «ماحوم» مصنوعا من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء وأما أغنية رولان التي تصور فرسان شارلمان يحطمون الأوثان الإسلامية فتزعم أن مسلمي الأندلس يعبدون ثالوثا مكونا من ترفاجان وماهوم (هو ماحوم ويعنون به محمد) وابولون. وتحسب «قصة محمد» أن الإسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج. وقد ظلت حياة الاحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة. فمنذ رودلف دلوهيم إلى وقتنا الحاضر قام نيكولا دكيز وفيفس ومراتشي وهو تنجر وبليانلار ويريدو وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال والإسلام بأنه مجموعة من الهرطقات (الكفر) كلها وأنه من عمل الشيطان والمسلمين بأنهم وحوش والقرآن بأنه نسيج من السخافات. اهـ المراد منه على كثرته، وابهام في ترجمته، وهو قليل من اسرافهم (المؤلف).

ولما ظهرت طائفة البروتستان وغلب مذهبها في شعوب الإنجلوسكسون والجرمان، وكان الفضل في دعوتهم الإصلاحية لما انعكس على أوروبة من نور الإسلام، لم يتعفف قسوسهم ودعاتهم (المبشرون) عن افتراء الكذب، ولا تجملوا فيه بشيء من النزاهة والأدب، والذي نراه في هذا العصر من مطاعنهم وافترائهم وسوء أدبهم أشد مما نراه من غيرهم، ولكن الذين أنصفوا الإسلام من أحرار علمائهم أصرح قولاً، ولعلهم أكثر من اللاتين عدداً، وكذلك الذين اهتدوا به، وسبب ذلك أن الحرية والاستقلال في تربيتهم أقوى، وسيكونون هم الذين ينشرون الإسلام في أوروبة والولايات المتحدة الأميركانية ثم في سائر العالم كما جزم العلامة برناردشو الإنكليزي في كتابه الحياة الزوجية.

مسألة الآيات والعجائب أي الخوارق.

بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبها، وفيما يدعونه من تجرد محمد ﷺ من لباسها، وهي قد أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لا له، وصادة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به، ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيد بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر، واهتداؤهم به أعم وأسرع، لأن أساسه قد بني على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية، وتزكية أنفس الأفراد، وترقية مصالح الاجتماع، وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى هي القرآن، وأمية محمد عليه الصلاة والسلام، فهي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

وأما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها. وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر، وسنبين ما جاء به الإسلام فيها من الفصل.

العجائب وما للمسيح منها.

جاء في تعريف العجائب وأنواعها من قاموس الكتاب المقدس ما نصه:

عجيبة: حادثة تحدث بقوة إلهية خارقة مجرى العادة الطبيعية لإثبات إرسالية من جرت على يده أو فيه. والعجيبة الحقيقية هي فوق الطبيعية لا ضدها تحدث بتوقيف نواميس الطبيعية لا بمعاكستها، وهي إظهار نظام أعلى من الطبيعة يخضع له النظام الطبيعي، ولنا في فعل الإرادة مثال يظهر لنا حقيقة أمر العجائب إذ بها نرفع اليد

وبذلك نوقف ناموس الثقل ويتسلط الله على قوى الطبيعة ويرشدها ويمد مدارها أو يحصره لأنها عوامل لمشيئته. ويناط فعل العجائب بالله وحده أو بمن سمح له بذلك.

«وإذا آمنا بالإله القادر على كل شيء لم يعسر علينا التسليم بإمكان العجائب وكانت العجيبة الأولى خليقة الكون من العدم بإرادته تعالى. أما المسيح فاقنومه عجيبة أدبية عظيمة، وعجائبه لم تكن إلا إظهار هذا الأقنوم وأعماله، وإذا آمنا بالمسيح ابن الله العديم الخطية لم يعسر علينا تصديق عجائبه. أما الشيطان فعجائبه كذابه».

«ولا بد من العجائب لتعزيز الديانة فكثيراً ما يستشهد المسيح بعجائبه لإثبات لاهوته وكونه المسيح، وكان يفعلها لتمجيد الله ولمنفعة نفوس الناس وأبدانهم، وكان يفعلها ظاهراً أمام جماهير أصحابه وأعدائه ولم ينكرها أعداؤه غير أنهم نسبوها لبعلزبول[١] وسواء امتحناها بالشهادة من الخارج وبمناسبتها إلى إرساليته الإلهية ظهرت لكل من كان خالياً من الغرض صحيحة. فإذا لم نسلم بصحتها التزمنا أن نقول بأن مقرريها كذابون الأمر الذي لا يسوغ ظنه بالمسيح والرسل».

«وبقيت قوة العجائب في عصر الرسل ولما امتدت الديانة المسيحية زال الاضطرار إليها[٢] ولا يلزمنا الآن سوى العجائب الأدبية الحاصلة من هذه الديانة مع الشواهد الداخلية على صحتها غير أنه يمكن لله تعالى أن يجددها في أي وقت شاء» اهـ.

ثم وضع المؤلف جدولاً أحصى فيه عجائب العهد القديم من خراب سدوم وعمورة على قوم لوط إلى «خلاص يونان (يونس) بواسطة حوت» فبلغت ٦٧ عجيبة وقفى عليه بجدول العجائب المقرونة بحياة المسيح من الحبل به «بفعل الروح القدس» إلى «الصعود إلى السماء» فبلغت ٣٧. وعزز الجدولين بثالث في «العجائب التي جرت في عصر الرسل» أي الذين بثوا دعوة المسيح من تلاميذه وغيرهم من «انسكاب الروح القدس يوم الخمسين» إلى «شفاء أبي بوبليوس وغيره» فكانت عشرين. وقد صرح بأن يوحنا المعمدان لم يرد في الكتاب أنه صنع عجائب.

بحث في عجائب المسيح عليه السلام.

أقول: إن ٢٧ من عجائب المسيح المذكورة شفاء مرضى ومجانين لابستهم الشياطين وثلاث منها إقامة موتى عقب موتهم وما بقي فمسألة الحبل به وتحويله الماء إلى خمر وسحب الشبكة في بحر الجليل، وإشباع خمسة آلاف مرة وأربعة آلاف مرة أخرى، وضرب التينة العقيمة بما أيبسها، وقيامة المسيح وصيد السمك والصعود.

---

(١) أي إلى الشيطان، والأناجيل تثبت العجائب للشيطان كما صرح به آنفاً (المؤلف).
(٢) هذا مذهب البروتستانت، وأما الكاثوليك فيدعون وجودها في كل عصر (المؤلف).

وإننا نلخص رواية الأناجيل لأهمها وهو إحياء الموتى ونذكر ما يقوله فيها منكرو العجائب.

الميت الأول شاب من مدينة نايين كان محمولاً في جنازة وأمه تبكي فاستوقف النعش وقال له: أيها الشاب لك أقول قم. فجلس وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه (لوقا ٧: ١١ ـ ١٦).

الثاني صبية ماتت فقال له أبوها وكان رئيساً: ابنتي الآن ماتت لكن تعال فضع يدك عليها فتحيا. فجاء الرئيس ووجد المزمرين والجمع يضجون فقال لهم «تنحوا فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة» فضحكوا عليه فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية (مت ٩: ١٨ ـ ٢٤).

فمنكروا العجائب يقولون إن كلا من الشاب والشابة لم يكونا قد ماتا بالفعل. وأن كثيراً من الناس في كل زمان قد قاموا من نعوشهم بل من قبورهم بعد أن ظن الناس أنهم ماتوا. ولذلك تمنع الحكومات المدنية دفن الميت إلا بعد أن يكتب أحد الأطباء شهادة بموته. وللمؤمنين بالآيات أن يجزموا أيضاً بأن الصبية لم تكن ميتة أخذا بظاهر قوله عليه السلام.

وأما الثالث فهو «اليعازر» حبيبه وأخو مرثا ومريم حبيبتيه: مرض في قريتهم «بيت عنيا» فأرسلتا إلى المسيح قائلتين «هو ذا الذي تحبه مريض» فمكث يومين وحضر فوجد أنه مات منذ أربعة أيام فلاقته مرثا وقالت: يا سيد لو كنت هنا لم يمت أخي، ثم دعت أختها مريم فلما رأته خرت عند رجليه قائلة كما قالت مرثا وكانوا قد ذهبوا إلى عند القبر للبكاء، فلما رآها تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون «انزعج بالروح واضطرب» وقال: «أين وضعتموه؟» فدلوه عليه فبكى وانزعج في نفسه وجاء إلى القبر وكان مغارة وقد وضع عليه حجر، فأمر برفع الحجر فرفعوه «ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني» ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم «لعازر! هلم خارجاً» فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطتان بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل، فقال لهم يسوع: حلوه ودعوه يذهب. اهـ ملخصاً من الفصل ١١ من إنجيل يوحنا.

أتدري أيها القارىء ما يقول منكرو العجائب والآيات في هذه القصة على تقدير صحة الرواية؟ إنني سمعت طبيباً سوريا بروتستنتياً يقول إنها كانت بتواطؤ بينه وبين حبيبتيه وحبيبه لإقناع اليهود بنبوته. وحاشاه عليه السلام. وإنما ننقل هذا لنبين أن النصارى لا يستطيعون إقامة البرهان في هذا العصر على نبوة المسيح فضلاً عن ألوهيته

بهذه الروايات التي تدل على النبوة وتنفي الألوهية، كما فهم الذين شاهدوها، لأنه ليس لها أسانيد متصلة إلى كاتبيها، ولا دليل على عصمتهم من الخطأ في روايتها، دع قول المنكرين باحتمال الاحتيال والتلبيس أو المصادفة فيها، أو عدهم إياها على تقدير ثبوتها من فلتات الطبيعة.

وإذا كان أعظمها وهو إحياء الميت يحتمل ما ذكروا من التأويل فما القول في شفاء المرضى وإخراج الشياطين الذي يكثر وقوع مثله في كل زمان والأطباء كلهم يقولون إن ما يدعي العوام من دخول الشياطين في أجساد الناس ما هو إلا أمراض عصبية تشفى بالمعالجة أو بالوهم والاعتقاد. ودونها مسألة الخمر والسمك ويبس التينة.

آية نبوة محمد عقلية علمية وسائر آياته الكونية.

هذا وإن ما رواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة وبالمرسلة أخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بها رسوله محمداً ﷺ هي أكثر من كل ما رواه الإنجيليون وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقينها للناس ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها، لأن البشر قد بدؤوا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك بل هو من موانعه، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلومه وإعجازه اللفظي والمعنوي (كما بيناه في تفسير سورة البقرة) ليربي البشر على الترقي في هذا الاستقلال، إلى ما هم مستعدون له من الكمال.

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية، والنبوة العامة الباقية، قد عبر عنه النبي ﷺ بقوله: «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1] متفق عليه من حديث أبي هريرة (رض).

وقص الله تعالى علينا في كتابه أن المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله فاحتج عليهم بالقرآن في جملته وبما فيه من أخبار الرسل والكتب السابقة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه، وبهدايته وبعلومه وبإعجازه، وعدم استطاعة أحد ولا جماعة ولا العالم كله على الإتيان بمثله ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ١، وفضائل القرآن باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٢٣٩.

يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عدداً وعدداً واستعداداً بالسلاح والطعام وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها، ثم بغزوة الأحزاب إذ تألب المشركون واليهود على المسلمين وأحاطوا بمدينتهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً ويكفي الله المؤمنين القتال من تلك الآيات شفاء المرضى وإبصار الأعمى وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل في هذا الغزوة وفي غزوة تبوك كما وقع للمسيح عليه السلام. ومنه تسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ في الرمل ببدر ولم يصب المشركين من غيثها شيء. ومثل ذلك في غزوة تبوك إذ نفد ماء الجيش في الصحراء والحر شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم على قلة الرواحل معهم، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشربه شرباً، فقال أبو بكر يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فرفع يديه فدعا فلم يرجعهما حتى كانت السماء قد سكبت لهم ما ملأوا ما معهم من الروايا ولم تتجاوز عسكرهم.

تأثير العجائب في الأفراد والأمم:

لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين استحقوا بجحودها عذاب الله في الدنيا والآخرة، ولم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للإيمان بها: إن فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى، وإن أكثر بني إسرائيل لم يعقلوها، وقد اتخذوا العجل وعبدوه بعد رؤيتها. وقال اليهود في المسيح لولا أنه رئيس الشياطين لما أخرج الشيطان من الإنسان. وقالوا إن إبليس أو بعلزبول يفعل أكبر من فعله، وما كان أكثرهم مؤمنين. وقال المنافقون وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في إبان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبي ﷺ: إننا مطرنا بتأثير النوء لا بدعائه.

وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات إنما خضعت أعناقهم واستخذت أنفسهم لما لا يعقلون له سبباً وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب فالآتي به مظهر للخالق سبحانه أن لم يكن هو الخالق نفسه، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك.

وقد نقلوا عن المسيح عليه السلام أنه سيأتي بعده مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظمية وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً (متى ٢٤: ٢٤)

وقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس عدداً كثيراً منهم وأسماء بعضهم وأقول: إن منهم القادياني الذي ظهر من مسلمي الهند، وتذكر صحف الأخبار ظهور هندي آخر يريد إظهار عجائبه في أمريكا في هذا العام ونقلوا عن المسيح أنه قال: «الحق أقول لكم ليس كل نبي مقبولاً في وطنه» وجعل القاعدة لمعرفة النبي الصادق تأثير هدايته في الناس لا الآيات والعجائب فقال: «من ثمارهم تعرفونهم» ولم يظهر بعده ـ ولا قبله ـ نبي كانت ثماره الطيبة في هداية البشر كثمار محمد ﷺ ولا أحد يصدق عليه قوله في إنجيل يوحنا «أن لي أموراً كثيرة أيضاً ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذاك (أي البارقليط) روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» الخ وما جاء بعده نبي أرشد الناس إلى جميع الحق في الدين من توحيد وتشريع وحكمة وتأديب غير محمد رسول الله وخاتم النبيين.

ومن استقرأ تواريخ الأمم علم أن أهل الملل الوثنية أكثر اعتماداً على العجائب من أهل الأديان السماوية، ورأى الجميع ينقلون منها عن معتقديهم من الأولياء والقديسين، أكثر مما نقلوا عن الأنبياء المرسلين، وأن أكثر المصدقين بها من الخرافيين.

ثبوت نبوة محمد بنفسها وإثباتها لغيرها.

وجملة القول إن نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها، أي بالبرهان العلمي والعقلي الذي لا ريب فيه لا بالآيات والعجائب الكونية، وأن هذا البرهان قائم ماثل للعقول والحواس في كل زمان، وأنه لا يمكن إثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ وهذا القرآن الذي جاء به، فالحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستقلالي من أطوار النوع البشري هو شهادته لها. فإن الكتب التي نقلتها لا يمكن إثبات عزوها إلى من عزيت إليهم، إذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التي كتبوها بها لا تواتراً ولا آحاداً ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه وتناقضه، وتعارضه، ولا إثبات صحة التراجم التي نقلت بها، كما قلنا آنفاً وبيناه بالتفصيل مراراً.

الكتاب الإلهي الوحيد الذي نقل بنصه الحرفي تواتراً عمن جاء به بطريقتي الحفظ والكتابة معاً هو القرآن، والنبي الوحيد الذي نقل تاريخه الروايات المتصلة الأسانيد حفظاً وكتابة هو محمد ﷺ فالدين الوحيد الذي يمكن للعلماء المستقلين في الفهم والرأي أن يعقلوه ويبنوا عليه حكمهم هو الإسلام. وأما خلاصة ما يمكن الاعتراف به من الأديان السابقة لثبوت قضاياه الإجمالية بالتواتر المعنوي، فهو أنه وجد في جميع أمم الحضارة القديمة دعاة إلى عبادة الله تعالى وإلى العمل الصالح

وإلى ترك الشرور والرذائل منهم أنبياء مبلغون عن الله تعالى مبشرين ومنذرين، كما أنه وجد فيهم حكماء يبنون إرشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة ـ ووجد في جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس، وأمور خاصة بأهلها وبزمانهم، وخرافات ينكرها العقل وينقضها العلم.

وإذا كان الإسلام ونبيه هو الدين الوحيد الذي عرفت حقيقته وتاريخه بالتفصيل فإننا نذكر هنا شبهة علماء الإفرنج الماديين ومقلدتهم عليه، بعد مقدمة في شهادتهم الإجمالية له، تمهيداً لدحض الشبهة، ونهوض الحجة، فنقول:

درس علماء الإفرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ﷺ.

درس علماء الإفرنج تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده على طريقتهم في النقد والتحليل، ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلوها فلياً ونقشوها بالمناقيش، وقرؤوا القرآن بلغته وقرؤوا ما ترجمه به أقوامهم، وكانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم والجديد، وتاريخ الأديان ولا سيما الديانتين اليهودية والنصرانية، وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الافتراء على الإسلام والنبي والقرآن مما أشرنا إلى بعضه آنفاً، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية:

أن محمداً كان سليم الفطرة، كامل العقل، كريم الأخلاق، صادق الحديث، عفيف النفس، قنوعاً بالقليل من الرزق، غير طموع بالمال ولا جنوح إلى الملك، ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر، والمباراة في تحبير الخطب وقرض الشعر، وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرفات الوثنية، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية، كالخمر والميسر وأكل أموال الناس بالباطل، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد النبوة جزموا بأنه كان صادقاً فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من رؤية ملك الوحي، وإقرائه إياه هذا القرآن، وإنبائه بأنه رسول من الله لهداية قومه فسائر الناس.

وزادهم ثقة بصدقه أن كان أول الناس إيماناً به واهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره، وأولهم زوجة خديجة المشهورة بالعقل والنبل والفضيلة، ومولاه زيد بن حارثة الذي اختار أن يكون عبداً له على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم حراً، ثم أن كان الذين آمنوا به من أعظم العرب حرية واستقلالاً في الرأي ولا سيما أبي بكر وعمر.

فأما المؤمنون بالله وملائكته وبأن للبشر أرواحاً خالدة من هؤلاء الإفرنج فقد آمنوا بنبوة محمد ﷺ على علم وبرهان، وهم يزيدون عاماً بعد عام، بقدر ما يتاح لهم من العلم بالإسلام، وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة

التي لا ريب في صحتها وثبوتها، وبتصويرها بالصورة العلمية التي يقبلها العقل، الذي لا يؤمن بما وراء المادة أو الطبيعة من عالم الغيب.

قدحوا زناد الفكر، واستوروا به نظريات الفلسفة، فلاح لهم منه سقط أبصروا في ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التي أجملها الأستاذ مونتيه في عبارته التي نقلناها عنه آنفاً وفصلها أميل درمنغام وغيره بما نشرحه ههنا.

شبهة منكري عالم الغيب

على الوحي الإلهي وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ

خلاصة رأي هؤلاء الماديين أن الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج، ذلك أن نفسه العالية، وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية، وتقاليد وراثية، يكون لها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الرؤى والأحوال الروحية، فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون واسطة، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب وقد يسمعه يقول ذلك، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء، فكل ما يخبر به النبي من كلام ألقي في روعه أو ملك ألقاه على سمعه فهو خبر صادق عنده.

يقول هؤلاء الماديون: نحن لا نشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع، وإنما نقول إن منبع ذلك من نفسه، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس، فإن هذا شيء لم يثبت عندنا وجوده كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال، وإنما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت.

ويضربون مثلاً لهذا الوحي قصة جان دارك الفتاة الأفرنسية التي قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن، وهذا التصوير الذي يصورون به ظاهرة الوحي قد سرت شبهته إلى كثير من المسلمين المرتابين الذين يقلدون هؤلاء الماديين في نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها. وإنني أفتتح الكلام في إبطال هذه الصورة الخيالية بالكلام على جان دارك فقد ألقي إلي سؤال عنها نشرته مع الجواب عنه في صفحة ٧٨٨ من المجلد السادس من المنار (سنة ١٣٢١) وهذا نصه.

شبهة على الوحي

حضرة الأستاذ الرشيد.

عرضت لي شبهات في وقوع الوحي (وهو أساس الدين) فعمدت إلى رسالة

التوحيد للشيخ محمد عبده ـ حيث وقع اختياري عليها ـ وقرأت في بابي (حاجة البشر إلى الوحي) و (إمكان الوحي) فوجدت الكلام وجيهاً معقولاً، غير أن الحاجة إلى الشيء لا تستلزم وقوعه، وكذا إمكانه وعدم استحالته عقلاً لا يقتضي حصوله. ثم ما ذكر بعد من أن حالة النبي وسلوكه بين قومه وقيامه بجلائل الأعمال وبوقوع الخير للناس على يديه هو دليل نبوته وتأييد بعثته، فليس شيئاً، فإنه قد يكون (كون) النبي حميد السيرة في عشيرته صادقاً في دعوته ـ أعني معتقداً في نفسه ـ سبباً في نهوض أمته، ولا يكون كل ذلك مدعاة إلى الاعتقاد به والتسليم له.

ولقد حدث بفرنسا في القرن الخامس عشر الميلادي إذ كانت مقهورة للإنكليز أن بنتاً تدعى (جان دارك) من أجمل النساء سيرة وأسلمهن نية اعتقدت وهي في بيت أهلها عن التكاليف السياسية أنها مرسلة من عند الله لإنقاذ وطنها ودفع العدو عنه، وصارت تسمع صوت الوحي فأخلصت في الدعوة للقتال، وتوصلت بصدق إرادتها إلى رئاسة جيش صغير وغلبت به العدو فعلاً، ثم ماتت غب نصرتها موتة الأبطال من الرجال، إذ خذلها قومها، ووقعت في يد عدوها فألقوها في النار حية، فذهبت تاركة في صحائف التاريخ اسماً يعبق نشره وتضوع رياه. وهي الآن موضع إجلال القوم وإعظامهم، فلقد تيسرت لهم النهضة بعدها وجروا في العلم والرقي بعيداً.

فهل نجزم لذلك أن تلك البنت نبية مرسلة؟؟ ربما تذهبون إلى أن عملها لا يذكر مقارناً بما أتت به الرسل وما وصل للناس من الخير بسببهم، فأقول هل هناك من ميزان نزن به الأعمال النافعة لنعلم إن كانت وصلت إلى الدرجة التي يجب معها أن نصدق دعوة صاحبها؟ وهل لو ساعدت الصدف (كذا) رجلاً على أن يكون أكبر الناس فعلاً وأبقاهم أثراً واعتقد برسالة نفسه لوهم قام (عنده) يفضي بنا ذلك إلى التيقن من رسالته؟

أظن أن هذا كله مضافاً لغيره يدعو إلى الترجيح ولا يستلزم اليقين أبداً على أنني أنتظر أن تجدوا في قولي هذا خطأ تقنعوني به أو تزيدوني إيضاحاً ينكشف به الحجاب وتنالون به الثواب هذا وإني أعلم من فئة مسلمة ما أعلمه من نفسي ولكنهم يتحفظون في الكتمان، ويسألون الكتب خشية سؤال الإنسان، ولكنني لا أجد في السؤال عاراً، وكل عقل يخطىء ويصيب، ويزل ويستقيم (أحد قرائكم).

جواب المنار

لقد سرنا من السائل أنه على تمكن الشبهة من نفسه لم يذعن لها تمام الإذعان، فيسترسل في تعدي حدود الدين إلى فضاء الأهواء والشهوات التي تفسد الأرواح والأجسام، بل أطاع شعور الدين الفطري، ولجأ إلى البحث في الكتب، ثم السؤال

ممن يظن فيهم العلم بما يكشف الشبهة، ويقيم الحجة، وأن كثيراً من الناس لينصرفون عن طلب الحق عند أول قذعة من الشبه تلوح في فضاء أذهانهم، لأنهم شبوا على حب التمتع والانغماس في اللذة، ويرون الدين صاداً لهم عن الانهماك والاسترسال فيها، فهم يحاولون إماتة شعوره الفطري، كما أمات النشوء في الجهل برهانه الكسبي.

أرى السائل نظر من رسالة التوحيد في المقدمات ووعاها ولكنه لم يدقق النظر في المقاصد والنتائج، لذلك نراه مسلماً بالمقدمات دون النتيجة مع اللزوم بينهما، فإذا هو عاد إلى مبحث (حاجة البشر إلى الرسالة) وتدبره وهو مؤمن بالله وأنه أقام الكون على أساس الحكمة البالغة والنظام الكامل فإنني أرجو له أن يقتنع. ثم إنني آنست منه أنه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحي والرسالة) أو لعله قرأه ولم يتدبره، فإنه لم يذكر البرهان على نفس الرسالة ويبني الشبهة عليه وإنما بناها على جزء من أجزاء المقدمات، وهي القول في بعض صفات الرسل عليهم السلام. وإنني أكشف له شبهته أولاً فأبين أنها لم تصب موضعها ثم أعود إلى رأيي في الموضوع.

إن (جان دارك) التي اشتبه عليه أمرها بوحي الأنبياء لم تقم بدعوة إلى دين أو مذهب تدعي أن فيه سعادة البشر تتحدى بها الناس ليؤمنوا بها. وإنما كانت فتاة ذات وجدان شريف هاجه شعور الدين وحركته مزعجات السياسة، فتحرك، فنفر، فصادف مساعدة من الحكومة، واستعداداً من الأمة للخروج من الذل الذي كانت فيه، وكان التحمس الذي حركته سبباً للحملة الصادقة على العدو وخذلانه. وما أسهل تهييج حماسة أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات وبما هو أضعف منها، فإن نابليون الأول كان يسوقهم إلى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها ككلمته المشهورة عند الأهرام.

وأذكر السائل الفطن بأنه لم يوافق الصواب في إبعاد الفتاة عن السياسة ومذاهبها فقد جاء في ترجمتها من دائرة المعارف (العربية للبستاني) ما نصه:

«كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعي المواشي وركوب الخيل إلى العين ومنها إلى البيت، وكان الناس في جوار دومرمي (أي بلدها) متمسكين بالخرافات، ويميلون إلى حزب أورليان في الانقسامات التي مزقت مملكة فرنسا، وكانت جان تشترك في الهياج السياسي والحماسة الدينية، وكانت كثيرة التخييل والورع تحب أن تتأمل في قصص العذراء وعلى الأكثر في نبوة كانت شائعة في ذلك الوقت، وهي أن إحدى العذارى ستخلص فرنسا من أعدائها. ولما كان عمرها ١٣ سنة كانت تعتقد بالظهورات الفائقة الطبيعة وتتكلم عن أصوات كانت تسمعها ورؤى كانت تراها. ثم بعد ذلك ببضع سنين خيل لها أنها قد دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها. ثم أوقع

البرغنيور تعدياً على القرية التي ولدت فيها فقوى ذلك اعتقادها بصحة ما خيل لها».

ثم ذكر بعد ذلك توسلها إلى الحكام وتعيينها قائدة لجيش ملكها وهجومها بعشرة آلاف جندي ضباطهم ملكيون على عسكر الإنكليز الذين كانوا يحاصرون أورليان، وإنها دفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار في مدة أسبوع، وذلك سنة ١٤٢٩ ثم ذكر أنها بعد ذلك زالت خيالاتها الحماسية، ولذلك هوجمت في السنة التالية سنة ١٤٣٠ فانكسرت وجرحت وأسرت.

فمن ملخص القصة يعلم أن ما كان منها إنما هو تهيج عصبي سببه التألم من تلك الحالة السياسية التي كان يتألم منها من نشأت بينهم مع معونة التحمس الديني والاعتقاد بالخرافات الدينية التي كانت ذائعة في زمنها. وهذا شيء عادي معروف السبب وهو من قبيل الذين يقومون باسم المهدي المنتظر كمحمد أحمد السوداني والباب (وكذا البهاء والقادياني) بل الشبهة في قصتها أبعد من الشبهة في قصة هذين الرجلين، وإن كانت أسباب بالنهضة متقاربة فإن هذين كانا كأمثالهما يدعوان إلى شيء (ملفق) يزعمان أنه إصلاح للبشر في الجملة.

أين هذه النوبة العصبية القصيرة الزمن، المعروفة السبب، التي لا دعوة فيها إلى علم ولا إصلاح اجتماعي إلا المدافعة عن الوطن عند الضيق التي هي مشتركة بين الإنسان والحيوان الأعجم، التي لا حجة تعمدها، ولا معجزة تؤيدها، التي اشتعلت بنفخة وطفئت بنفخة؟ أين هي من دعوة الأنبياء التي بين الأستاذ الإمام أنها حاجة طبيعية من حاجات الاجتماع البشري، طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المدبر الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فسار الإنسان بذلك إلى كماله، فلم يكن أدنى من سائر المخلوقات الحية النامية بل أرقى وأعلى. وأين دليلها من أدلة النبوة وأين أثرها من أثر النبوة؟ إن الأمم التي ارتقت بما أرشدها إليه تعليم الوحي إنما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره، وإن فرنسا لم ترتق بإرشاد (جان دارك) وتعليمها، وإنما مثلها مثل قائد انتصر في واقعة فاصلة بشجاعته وبأسباب أخرى ليست من صنعه، واستولت أمته بسبب ذلك على بلاد رقتها بعلوم علمائها وحكمة حكمائها وصنع صناعها، ولم يكن القائد يعرف من ذلك شيئاً ولم يرشد إليه، فلا يقال إن ذلك القائد هو الذي أصلح تلك البلاد، وعمرها ومدنها، وإن عد سبباً بعيداً فهو شبيه بالسبب الطبيعي، كهبوب ريح تهيج البحر فيغرق الأسطول وتنتصر الأمة.

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت (أي ظهرت وأومضت) ثم خفيت، وصيحة علت ولم تلبث أن خفتت، من حال شمس النبوة المحمدية التي أشرقت فأنارت الأرجاء، ولا يزال نورها ولن يزال متألق السناء، أمي يتيم قضى سن الصبا

وسن الشباب هادئاً ساكناً لا يعرف عنه علم ولا تخيل، ولا وهم ديني، ولا شعر ولا خطابة، ثم صاح على رأس الأربعين بالعالم كله صيحة «إنكم على ضلال مبين، فاتبعون أهدكم الصراط المستقيم» فأصلح وهو الأميُّ أديان البشر عقائدها وآدابها وشرائعها، وقلب نظام الأرض فدخلت بتعليمه في طور جديد؟ لا جرم أن الفرق بين الحالين عظيم إذا أمعن النظر فيه العاقل.

لا سعة في جواب سؤال لتقرير الدليل على النبوة وإنما أحيل السائل على التأمل في بقية بحث النبوة في رسالة التوحيد ومراجعة ما كتبناه أيضاً من الأمالي الدينية في المنار لا سيما الدرس الذي عنوانه (الآيات البينات، على صدق النبوات) وإن كان يصدق على رسالة التوحيد المثل «كل الصيد في جوف الفرا» فإن بقي عنده شبهة فالأولى أن يتفضل بزيارتنا لأجل المذاكرة الشفاهية في الموضوع، فإن المشافهة أقوى بياناً، وأنصع برهاناً، ونحن نعاهده بأن نكتم أمره وإن أبى فليكتب إلينا ما يظهر له من الشبهة على ما في الرسالة والأمالي من الاستدلال على وقوع النبوة بالفعل، وعند ذلك نسهب في الجواب بما نرجو أن يكون مقنعاً، على أن المشافهة أولى كما هو معقول وكما ثبت لنا بالتجربة مع كثير من المشتبهين والمرتابين اهـ.

هذا وأن ما بينه الأستاذ الإمام في إثبات وقوع الوحي لا يستطيع أحد فهمه حق الفهم وهو يؤمن بوجود الله العليم الحكيم الفاعل المختار إلا أن يقبله ويذعن له، فإنه بين أن الوحي والرسالة بالمعنى الذي قرره لازم عقلي لعلمه تعالى وحكمته وكونه هو (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ولا يفهمه حق الفهم إلا من أوتي نصيباً من علم الاجتماع وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد، ونصيباً آخر من بلاغة اللغة العربية. وأن نبوة محمد ﷺ ورسالته يمكن إثباتها بما دون هذه الفلسفة والبلاغة وهو ما قهر عقول علماء الإفرنج على تصديق دعوته، وحمل الماديين على تصويرها بما نبسطه فيما يأتي ونقفي عليه بإثبات بطلانه.

تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة

قد فصل أميل درمنغام الشبهة التي أجملها مونتيه بما لم نر مثله لغيره من كتاب الإفرنج حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين، فإن كان حكيمنا السيد جمال الدين قال لبعض مجادلي النصرانية: إنكم فصلتم قميصاً من رقاع العهد القديم وألبستموها للمسيح عليه السلام ـ فنحن نقول لهم إنكم فصلتم قميصاً آخر مما فهمتم من تاريخ الإسلام لا من نصوصه وحاولتم خلعها على محمد ﷺ، وإنني أشرح هذه الشبهة بأوضح مما كتبه درمنغام وما بلغني عن كل أحد منهم، ثم أكر عليها بالنقض والدحض فأقول:

١ ـ قالوا إن محمداً قد لقي بحيرا الراهب في مدينة بصرى بالشام، وقالوا إنه كان نسطورياً من أتباع آريوس في التوحيد وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث وأن محمداً لا بد أن يكون علم منه عقيدته، وقالوا في بحيرا أيضاً أنه كان عالماً فلكياً منجماً وحاسباً ساحراً، وأنه كان يعتقد أن الله ظهر له وأنبأه بأن سيكون هادياً لآل إسماعيل إلى الدين المسيحي. بل سمعنا من بعض الرهبان أنه كان معلماً لمحمد ومصاحباً له بعد رسالته، وأن محمداً ما حرم الخمر إلا لأنه قتل أستاذه بحيرا وهو سكران، وأمثال هذا من الافتراء والبهتان، وكل ما عرفه المسلمون من رواة السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام وهو ابن تسع سنين وقيل ١٢ سنة رآه هذا الراهب مع قريش ورأى سحابة تظلله من الشمس وذكر لعمه أنه سيكون له شأن وحذره عليه من اليهود ـ وفي المسألة روايات أخرى بمعناها ضعيفة الأسانيد إلا رواية للترمذي ليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن، وليس في شيء منها أنه ﷺ سمع من بحيرا شيئاً من عقيدته أو دينه.

٢ ـ قالوا إن ورقة بن نوفل كان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد أقارب خديجة ـ يوهمون القارىء أنه ﷺ أخذ عنه شيئاً من علم أهل الكتاب ـ والذي صح من خبر ورقة هذا هو ما رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من أن خديجة أخذته ﷺ عقب إخباره إياها برؤية الملك في حراء إلى ورقة هذا وأخبرته خبره وكان شيخاً قد عمي ولم يلبث بعد ذلك أن توفي ولم يثبت أن النبي ﷺ رآه قبل ذلك (وسأذكر نص الحديث في آخر هذا المبحث) وقد استقصى المحدثون والمؤرخون كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده ومما لم يصح له سند كدأبهم في كل ما له علاقة بالنبي ﷺ والإسلام فلم يذكر أحد منهم أنه عرف عنه دعوة إلى النصرانية أو كتابة فيها. وإنما ورد في بعضها أنه قال حين علم من خديجة خبر محمد: أنه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى ابن مريم. وفي بعضها أنه عاش حتى رأى بلالاً يعذبه المشركون ليرجع عن الإسلام ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة لحديث عائشة الصحيح أنه كان عند بدء الوحي أعمى ولم ينشب أي لم يلبث أن مات، وقد كان تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخول الناس فيها وقد كان هذا بعد بدء الوحي بثلاث سنين ـ وأميل درمنغام قد غلط فيما نقله من خبر فترة الوحي لاختلاط الروايات عليه فيها وعدم اطلاعه على ما دوّن في كتب الحديث منها. وإنما كان هم المحدثين في خبر ورقة أن يعلموا أنه كان صحابياً أم لا، فإن الصحابي هو من لقي النبي ﷺ بعد البعثة مؤمناً به، ولو بلغهم عنه أي شيء من علمه بالتوراة أو الإنجيل لنقلوه.

٣ ـ ذكروا ما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الإسلام

وتنصر بعض فصحاء العرب وشعرائهم كقس بن ساعدة الأيادي وأمية بن أبي الصلت وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي بشر به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء. وقد نشرنا بعض ما نقل عنهم في التوراة والأناجيل وكتب النبوات في تفسير ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فأما قس فقد مات قبل البعثة. وروي أن النبي ﷺ رآه قبل البعثة بزمن طويل يخطب الناس في سوق عكاظ على جمل له أورق، بكلام له مونق، قال فيه: إن لله ديناً خيراً من دينكم الذي أنتم عليه، ونبياً قد أظلكم زمانه، وأدرككم أوانه، فطوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه ـ والروايات في هذا ضعيفة، وتعددها يدل على أن لها أصلاً.

وأما أمية بن أبي الصلت الثقفي فهو شاعر مشهور. قال أبو عبيدة اتفقت العرب على أن أمية أشعر ثقيف، وقال الزبير بن بكار حدثني عمي قال: كان أمية في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً وكان يذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر وتجنب الأوثان وطمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب أن نبياً يبعث بالحجاز فرجا أن يكون هو، فلما بعث النبي ﷺ حسده فلم يسلم. وهو الذي رثى قتلى بدر (المشركين) بالقصيدة التي أولها:

ماذا ببدر والعقنقل من مرازبة جحاجح[1]

وفي المرآة عن ابن هشام أنه كان آمن بالنبي ﷺ فقدم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر فعلم بغزوة بدر وقتل صناديد قريش فيها فجدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى لأن فيهم ابني خاله وعاد إلى الطائف ومات فيها. وصح أن النبي ﷺ استنشد الشريد بن عمرو من شعره فأنشده فقال: «كاد أن يسلم» ولكنه كان حنيفاً على ملة إبراهيم ولم يتنصر ومن شعره:

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور[2]

٤ ـ إسلام سلمان الفارسي (رض) كان فارسياً مجوسياً فتنصر على يد بعض الرهبان وصحب غير واحد من عبادهم وسمع منهم أو من آخرهم بقرب ظهور النبي

---

(١) البيت ومن مجزوء الكامل، وهو لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص٢٠، وكتاب العين ٣/ ١١، ومقاييس اللغة ١/ ٤٠٥، ومجمل اللغة ١/ ٣٨٣، وتاج العروس (جحجح)، ولابن الزبعرى في أساس البلاغة (جحجح)، وبلا نسبة في لسان العرب (جحجح)، (قدم).

(٢) البيت من الخفيف، وهو في ديوان أمية ص٣٨، والدرر ٣/ ١٦٦، وبلا نسبة في همع الهوامع ١/ ٢٢٦، وفي الديوان والدرر والهمع «بور» بدل «زور».

الذي بشر به عيسى والأنبياء من العرب فقصد بلاد العرب وبيع لبعض يهود يثرب ظلماً وعدواناً ولم ير النبي ﷺ إلا بعد الهجرة فأسلم وكاتب سيده. وفي قصته روايات متعارضة هذا هو المراد منها لدرمنغام وغيره.

٥ ـ ذكروا ما كان من رحلة تجار قريش في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام واجتماعهم بالنصارى في كل منهما كلما مروا بدير أو صومعة للرهبان، وكان هؤلاء النصارى يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب.

٦ ـ زعم درمنغام أنه كان يوجد بمكة نفسها أناس من اليهود والنصارى ولكنهم كانوا عبيداً وخدماً لأن رؤساء قريش لم يكونوا يسمحون لهم أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بوثنيتهم وأصنامهم. وكان هؤلاء يسكنون في أطراف مكة «في المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء»!! وكانوا يتحدثون بقصص عن دينهم لا تصل إلى مسامع رؤساء قريش وعظمائهم أو ما كانوا يحفلون بها لسماع أمثالها في رحلاتهم الكثيرة ولكنه ذكر أن أبا سفيان عتب على أمية بن أبي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر.

فهذه مقدمات يذكرها كتاب الإفرنج لتعليل ما ظهر به محمد ﷺ من دعوى النبوة على طريقتهم في الاستنباط وما يسمونه النقد التحليلي، ويقرنون بها مقدمات أخرى في وصف حالته النفسية والعقلية وحالة قومه وما استفاده منها من تأثير وعبرة، فنلخصها مضمومة إلى ما قبلها مع الإلمام بنقدها.

٧ ـ قال درمنغام في كفالة أبي طالب لمحمد بعد وفاة جده: إنه لم يكن غنياً فلم يتح له تعليم الصبي الذي بقي أمياً طول حياته يوهم القارىء أن أولاد الموسرين بمكة كانوا يتعلمون كأن هنالك مدارس يعلم فيها النشء بالأجور كمدارس بلاد الحضارة وهذا باطل لا أصل له ـ ثم قال:

«ولكنه كان يستصحبه وإياه في التجارة فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الأبعاد المتنائية وتحدق عيناه الجميلتان بمدين ووادي القرى وديار ثمود وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نبئها. ويقال إنه في إحدى هذه الرحلات إلى الشام التقى بالراهب بحيرا في جوار مدينة بصرى وأن الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدله عليه أنباء كتبه. وفي الشام عرف محمد أحبار الروم ونصرانيتهم وكتابهم ومناوأة الفرس من عباد النار لهم وانتظار الوقيعة بهم».

كل ما ذكره درمنغام هنا فهو من مخترعات خياله ومبتدعات رأيه إلا مسألة بحيرا الراهب فأصلها ما ذكرنا، وكأنه لم يحفل بإثباتها لما يعلمه من مفتريات رجال الكنيسة فيها فمحمد ﷺ لم يذهب مع عمه إلى التجارة في الشام إلا وهو طفل كما تقدم وقد

أعاده إلى مكة قبل إتمام رحلته. ثم سافر إليها في تجارة خديجة وهو شاب مرة واحدة ولم يتجاوز سوق بصرى في المرتين. والقوافل التي تذهب إلى الشام لم تكن تمر بمدين وهي في أرض سيناء. ولم تكن هذه القوافل تضيع شيئاً من وقتها للبحث مع العرب أو الأعراب في طريقها عن أنبائها والتاريخ القديم لبلادها، ولم يعرف عن تجارها أنهم كانوا يعنون بلقاء أحبار النصارى ومباحثتهم في دينهم وكتبهم، فمن أين جاء لدرمنغام أن محمداً هو الذي كان يشتغل في تلك التجارة بالبحث عن الأمم والتواريخ والكتب والأديان ويعني بلقاء رؤسائها والبحث معهم؟ إنما اخترع هذا لأنه لا يستطيع تعليل ما جاء في القرآن من قصص الرسل إلا به وكذلك الأنباء بغلب الروم للفرس كما سيأتي. وسترى ما نفند به تعليله وتحليله وتركيبه على تقدير صحة ما زعمه كله.

٨ ـ ثم ذكر درمنغام أن العرب ولا سيما أهل مكة كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعد ما يكون من تجارة أو حرب في الاستمتاع باللذات من السكر والتسري وغير ذلك، وأن التاريخ يشهد بأن محمداً كان يراهم ولم يكن يشاركهم في ذلك لا لفقره وضيق ذات يده قال: لكن نفس محمد كانت شغفة بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف، وكأن حرمانه من التعليم الذي كان يعلمه أنداده جعله أشد للمعرفة شوقاً وبها تعلقاً، كما أن النفس العظمية التي تجلت من بعد آثارها، وما زال يغمر العالم سلطانها، كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذي يطمح إليه أهل مكة ـ إلى نور الحياة المتجلي من كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق إليها لاستكناه ما تدل هذه المظاهر عليه وما تحدث الموهوبين به».

هذا الخبر من مخترعات درمنغام فمحمد لم يكن شغوفاً بأن يرى ما يفعله فساق قومه من فسق وفجور، ولا أن يسمع ذلك، ولا يتحرى أن يعرفه، وقد ثبت عنه أنه لم يحضر سمرهم ولهوهم إلا مرتين ألقى الله عليه النوم في كل منهما حتى طلعت الشمس فلم يرى ولم يسمع شيئاً، وقد بطل بهذا ما علل به الخبر على ما فيه من المدح المتضمن لدسيستين: **إحداهما**: أن أنداده في قريش كانوا متعلمين وكان هو محروماً مما لقنوه من العلم وكان حرمانه هذا يزيده شغفاً بالبحث والاستطلاع **والثانية**: أن نفسه كانت بسبب هذا تزداد طموحاً إلى نور الحياة المتجلي في جميع مظاهرها لاستكناه ما تدل عليه هذه المظاهر، فهذه مدحة غرضه منها تعليل ما انبثق في نفسه بعد ذلك من الوحي، وسترى بطلانه.

٩ ـ ثم ذكر درمنغام مسألة أبناء النبي ﷺ القاسم والطيب والطاهر وهو يشك في وجودهم ويقول إن تكنيته بأبي القاسم لا تدل على وجود ولد له بهذا الاسم وأنه إن صح أنهم ولدوا فقد ماتوا في المهد، والتحقيق أنه ولد له غلام سماه القاسم وكني به

وأنه مات طفلاً وقيل عاش إلى أن ركب الدابة وأن الطيب والطاهر لقبان للقاسم. ولكن درمنغام قد كبر مسألة موت هؤلاء الأولاد الذين يشك في وجودهم، وبنى عليها حكماً، وأثار وهماً، قال بعد أن زعم أن محمداً تبنى زيد بن حارثة لأنه لم يطق على الحرمان من البنين صبراً:

«فمن حق المؤرخ أن يجعل لهذا الحادث بل الحوادث الثلاثة التي أصابت محمداً في بنيه ما هي جديرة بأن تتركه في حياته وفي تفكيره من أثر. والأمر كذلك بنوع خاص أن كان محمد أمياً، فلم تكن المضاربات الجدلية (كذا) لتصرفه عن التأثير بعبير الحوادث ودروسها، وحوادث أليمة كوفاة أبنائه جديرة بأن تستوقف تفكيره وأن تلفته في كل واحدة منها لما كانت خديجة تتقرب به إلى أصنام الكعبة وتنحر لهبل واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى تريد أن تفتدي نفسها من ألم الثكل فلا تفيد القربان ولا تجدي النحور».

«والأمر كان كذلك لا ريب أن كانت عبادة الأصنام قد بدأت تتزعزع في النفوس تحت ضغط النصرانية الآتية من الشام منحدرة إليها من الروم ومن اليمن متخطية إليها من خليج العرب (البحر الأحمر) من بلاد الحبشة».

غرض درمنغام من تكبير المصيبة بموت الأبناء المشكوك في ولادتهم هو أن يجعلها مسوغة لما اختلقه من توسل خديجة إلى الأصنام بالقرابين لينقذوها من مصيبة الثكل، ثم يستنبط من ذلك زعزعة إيمانها وإيمان بعلها بعبادتها الذي كان سببه تأثير النصرانية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ثم ليجعل ذلك من الأسباب التحليلية لتعليل الوحي لمحمد ﷺ ـ والحق أنه ما تبنى زيداً إلا لأنه آثر أن يكون عبداً له على أن يكون حراً مع والده وعمه عندما جاءا مكة لافتدائه بالمال فقال لهما «ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء» ثم دعاه فسأله عن أبيه وعمه فعرفهما قال: «فأنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما» فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحداً أنت مني بمكان الأب والعم. فقالا ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقال: «اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه» فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما. فدعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام. رواه ابن سعد ونحوه في سيرة ابن إسحاق.

هذا وأن محمداً لم يكن جزوعاً عند موت ولد ولا غيره بل كان أصبر الصابرين، وإن خديجة لم تيأس بموت القاسم من الله أن يمن عليها بولد آخر، ولم تنحر للأصنام شيئاً ـ وإن اللات كانت صخرة في الطائف تعبدها ثقيف ولم تكن من أصنام قريش، والعزى كانت شجرة ببطن نخلة تعبدها قريش وكنانة وغطفان، ومناة

كانت صنماً في قديد لبني هلال وهذيل وخزاعة. وقد كان ما ذكره من ضعف الوثنية في ذلك العهد ـ وزعم أنه سببه انتشار النصرانية ـ جديراً بأن يمنع خديجة وهي من أعقل العرب وأسلمهم فطرة وأقربهم إلى الحنيفة ملة إبراهيم أن تهاجر إلى هذه الأصنام لتنحر لها وتتقرب إليها لترزقها غلاماً، فإن لم يمنعها عقلها وفطرتها فأجدر ببعلها المصطفى أن يمنعها من ذلك وهو عدو الوثنية والأصنام من طفولته كما يعترف درمنغام ـ ولكن اتباع الهوى ينسي صاحبه ما لم يكن لينساه لولاه.

١٠ ـ زعم درمنغام أن ما ذكره من تغلغل النصرانية في بلاد العرب أوجد فيها حالة نفسية أدت إلى زيادة إمعانهم فيما كانوا يسمونه في الجاهلية التحنث أو التحنف وفرع على ذلك قوله:

«وكان محمد يجد في التحنث طمأنينة لنفسه أن كان له بالوحدة شغف، وأن كان يجد فيها الوسيلة إلى ما برح شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفة واستلهام ما في الكون من أسبابها، فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بجبل أبي قبيس مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل إليه ليمضي أياماً بالغار طويلة في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة».

وأقول: إن روايات المحدثين تفيد أنه حبب إليه التحنث في غار حراء في العام الذي جاءه فيه الوحي وكان هو يحمل الزاد وما كان أحد يحمله إليه، وما ذكره ابن إسحاق من تعبده فيه في شهر رمضان كل سنة إنما كان في زمن فترة الوحي كما سيأتي وههنا وصل درمنغام إلى آخر المقدمات التي تتصل بالنتيجة المطلوبة له فأرخى لخياله العنان، ونزع من جواده اللجام، ونخسه بالمهماز، فعدا به سبحاً، وجمح به جمحاً، وقدحت حوافره له قدحاً، وأثارت له نقعاً، وأذن لشاعريته الفرنسية أن تصف محمداً عند ذلك الغار بما تحدثه في نفسه مشاهد نجوم الليل، وما تسفعه به شمس النهار، وما تصور أنه كان يراه في تلك القنة من الجبل من صحارى وقفار، وخيام وآبار، ورعاة تهش على غنمها حيث لا أشجار، حتى ذكر البحار على بعد البحار وقد أتقن التخيل الشعري، ولكنه لم يوافق به الوصف الموضعي، ثم قال مصوراً لما يبتغيه من مشاهداته ﷺ.

وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق حتى ليحسب الإنسان أنه يسمع بصيص ضوئها وكأنه نغم نار موقدة.

حقاً! إن في السماء لشارات للمدركين. وفي العالم غيب بل العالم غيب كله. لكن! ألا يكفي أن يفتح الإنسان عينيه ليرى، وأن يرهف أذنه ليسمع؟ ليرى حقاً، وليسمع الكلم الخالد! لكن للناس عيوناً لا ترى وآذاناً لا تسمع. أما هو فيحسب أنه

يسمع ويرى. وهل تحتاج لكي تسمع ما وراء السماء من أصوات إلا إلى قلب خالص ونفس مخلصة وفؤاد مليء إيماناً؟

ومحمد في ريب من حكمة الناس فهو لا يريد أن يعرف إلا الحق الخالص الذي لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه باطل، وهو لا يستطيع العيش إلا بالحق. والحق ليس فيما يرى حوله، فحياة القرشيين ليست حقاً، وربا المرابين ونهب البدو ولهو الخلعاء وكل ما إلى ذلك لا شيء من الحق فيه، والأصنام المحيطة بالكعبة ليست حقاً وهبل الإله الطويل الذقن الكثير العطور والملابس ليس آلهاً حقاً.

«إذن فأين الحق وما هو».

وظل محمد يتردد على حراء في رمضان من كل عام سنوات متتالية وهناك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى طعامه، وينسى كل ما في الحياة، لأن هذا الذي يرى في الحياة ليس حقاً. هناك كان يقلب في صحف ذهنه كل ما وعى، فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازوراراً. وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الأحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد، بل في هذا الكون المحيط به: في السماء ونجومها وقمرها وشمسها. وفي الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء، وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي، وفي البحر وموجه وفي كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود ـ في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا وابتغاء إدراكها كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق شغاف الحجب إلى مكنون سره.

قال درمنغام: فلما كانت سنة ٦١٠ أو نحوها كانت الحال النفسية التي يعانيها محمد على أشدها فقد أبهظت عاتقه العقيدة بأن أمراً جوهرياً ينقصه وينقص قومه، وأن الناس نسوا هذا الأمر الجوهري وتشبث كل بصنم قومه وقبيلته، وخشي الناس الجن والأشباح والبوارح وأهملوا الحقيقة العليا، ولعلهم لم ينكروها ولكنهم نسوها نسياناً هو موت الروح. وقد خلصت نفس محمد من كل هذه الآراء التافهة، ومن كل القوى التي تخضع لقوة غيرها ومن كل كائن ليس مظهراً للكائن الواحد.

ولقد عرف أن المسيحيين في الشام ومكة لهم دين أوحي به، وأن أقواماً غيرهم نزلت عليهم كلمة الله وأنهم عرفوا الحق ووعوه أن جاءهم علم من أنبياء أوحي إليهم به، وكلما ضل الناس بعثت السماء إليهم نبياً يهديهم إلى الصراط المستقيم ويذكرهم بالحقيقة الخالدة. وهذا الدين الذي جاء به الأنبياء في كل الأزمان دين واحد، وكلما أفسده الناس جاءهم رسول من السماء يقوم عوجهم. وقد كان الشعب العربي يومئذ

في أشد تيهاء الضلال. أفما آن لرحمة الله أن تظهر فيهم مرة أخرى وأن تهديهم إلى الحق؟»

وتزايدت رغبة محمد عن الاجتماع بالناس، ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقاً، وجعل يقضي الأسابيع ومعه قليل من الزاد وروحه تزداد بالصوم والسهر والإدمان على تقليب فكرته صقالاً وحدة. ونسي النهار والليل والحلم واليقظة، وجعل يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار، أو مستلقياً في الشمس، أو سائراً بخطى واسعة في طرق الصحراء الحجرية، وكأنه يسمع الأصوات تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالته.

وقضى ستة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه عاقبة أمره فأسر بمخاوفه إلى خديجة فطمأنته وجعلت تحدثه بأنه الأمين وأن الجن لا يمكن أن تقترب منه. وفيما هو يوماً نائم بالغار جاءه ملك فقال له اقرأ، قال: «ما أنا بقارىء» وكان هذا أول الوحي وأول النبوة.

«وهنا تبدأ حياة حدة روحية قوية غاية القوة، حياة تأخذ بالأبصار والألباب ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والإنسانية».

أقول: أن كل ما هنا من خبر أو جله فهو غير صحيح، فمن أين علم هذا الأفرنسي أن محمداً نسي الليل والنهار، والحلم واليقظة، وأنه كان يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار أو مستلقياً في الشمس الخ وأنه قضى ستة أشهر في هذه الحال - قد افترى في الأخبار ليستنبط منها أنه صار صلوات الله عليه مغلوباً على عقله، غائباً عن حسه. وإننا ننقل هنا أصح الأخبار في خبر تحنثه في الغار الليالي ذوات العدد - من شهر رمضان في تلك السنة لا فيما قبلها - لتفنيد مفترياته وللاستغناء بها عما نقله من الخلط في صفة الوحي من الفصل الآتي - وهو ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما وهذا نص رواية البخاري رضي الله عنه.

باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

افتتح الباب بل الكتاب كله بروايته لحديث «إنما الأعمال بالنيات»[(١)] ثم قال: حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي باب ١، والإيمان باب ٤١، والإكراه، في الترجمة، والنكاح باب ٥، والطلاق باب ١١، ومناقب الأنصار باب ٤٥، والعتق باب ٦، والأيمان باب ٢٣، والحيل باب ١، ومسلم في الإمارة حديث ١٥٥، وأبو داود في الطلاق باب ١١، والترمذي في فضائل الجهاد باب ١٦، والنسائي في الطهارة باب ٥٩، والطلاق باب ٢٤، والأيمان باب ١٩، وابن ماجه في الزهد باب ٢٦، وأحمد في المسند ١/ ٢٥، ٤٣.

المؤمنين رض) أن الحارث بن هشام (رض) سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي[١] قال رسول الله ﷺ «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس[٢] وهو أشده علي فيفصم[٣] عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا[٤] فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها، ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً[٥].

حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم[٦] فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه[٧] ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد

(١) للوحي معنى عام يطلق على عدة صور من الاعلام الخفي الخاص الموافق لوضع اللغة منها الرؤيا الصادقة والنفث في الروع والإلهام وإلقاء الملك، وله معنى خاص هو أحد الأقسام الثلاثة للتكليم الإلهي الوارد في قوله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم﴾ وهذا الحديث فيه وصف القسم الأول وذكر الثالث، وأما الثاني وهو الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون واسطة فقد ثبت للنبي (ص) في ليلة الإسراء والمعراج ولموسى عليهما الصلاة والسلام. وغيره هذه الثلاثة من الوحي العام لا يعد من كلام الله تعالى التشريعي، والرؤيا الصادقة والإلهام مما وقع ويقع لغير الأنبياء (المؤلف).

(٢) المراد من التشبيه أنه صوت كصلصلة الحديد المتصلة المتداركة التي تسمع من الجلاجل ونحوها ليس بكلام مؤلف من الحروف والأقرب أن سببه وجود الملائكة وإن لم ير أحداً منهم في حال سماعه. وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه لأنها كما قال الحكيم ابن خلدون انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية والحالة الأخرى عكسها لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية (المؤلف).

(٣) يفصم وزان يضرب ينفك وينجلي.

(٤) أي يظهر بصفة رجل ومثاله، وذلك أن الملك روح عاقل مريد له قوة التصرف في المادة فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التي يريدها وإن علم الكيمياء في هذا العصر يقرب إلى التصور هذا التصرف بما ثبت فيه من تحول كل مادة من الكثافة إلى اللطافة وما بينهما بقوة الحرارة وأقواها حرارة الكهربائية، والملك يتصرف في الكهربائية كما يشاء، وقد شرحنا هذا المعنى في تفسير قوله تعالى ٧: ١٤٣ ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾ (المؤلف).

(٥) كان من هذه الشدة عليه ما قاله العلامة ابن القيم في زاد المعاد: حتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ولقد جاءه مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها اهـ (المؤلف).

(٦) أكثر الرؤى أضغاث أحلام لها أسباب تثيرها في خيال النائم، والرؤيا الصالحة عبارة عن نوع من انكشاف الحقائق للنفس المستعدة لإدراكها بما يكون وقت النوم من صفائها بعدم اشتغالها بمدركات الحواس وما تثيرها من الخواطر والأفكار، ورؤيا الأنبياء قبل وحي التشريع تمهيد وتأنيس للنفس تقوى استعدادها لتلقي الكلام الإلهي (المؤلف).

(٧) أصل التحنث اتقاء الحنث أي الذنب أو مقلوب التحنف وهو اتباع الحنيفية ملة إبراهيم. وهو رواية ابن هشام. وقوله وهو التعبد، جملة تفسيرية لراوي الحديث وهو ابن شهاب الزهري فهو مدرج في الحديث والليالي ظرف متعلق بيتحنث (المؤلف).

قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق[١] وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارىء[٢] قال فأخذني فغطني[٣] حتى بلغ مني الجد ثم أرسلني فقال اقرأ، قلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم﴾[٤] [العلق: ١ ـ ٣] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد (رض) فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر «لقد خشيت على نفسي»[٥] فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً[٦] إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري

---

(١) وفي رواية فجئه الحق أي بغته والمراد به الوحي الصريح الذي هو من كلام الله تعالى، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين صريحة في أن هذا كان في اليقظة، وفي سيرة ابن هشام أن جبريل جاءه في المنام، وهي من مراسيل عمرو بن عبيد وهو ثقة وله صحبة ولكن رواية الصحيحين المسندة هي المعتمدة، وجمع بعضهم بين الروايتين بأنه رآه أولاً في المنام فاستقرأه ثم رآه في اليقظة، ولو وقع هذا في المنام لزال خوفه ورعبه (ص) بمجرد اليقظة ولم يذهب إلى خديجة يرجف فؤاده (المؤلف).

(٢) الظاهر أن الأمر بالقراءة أمر تكوين لا تكليف ـ أي كن قارئاً، ولذلك قال له في الثالثة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي كن قارئاً باسمه ومن قبله وبإقداره إياك على القراءة لا بحولك وقوتك فهو يعلم أنك أمي لا يتعلق كسبك واستطاعتك بالقراءة أما وقد شاء ربك ـ الذي خلق، خلق الإنسان من علق، وهو الحيوان المنوي أو أول ما تتحول إليه نطفة الزوجين بعد العلوق فجعله بشراً سوياً يسمع ويبصر ويعقل ـ أن يجعلك قارئاً لما يوحيه إليك لتقرأه على الناس فأنت تكون قارئاً (المؤلف).

(٣) فسروا الغط بالضم الشديد الضاغط فقالوا أي ضمني وعصرني وفي رواية الطبري للحديث فغتني بالمثناة الفوقية وعليها ابن هشام وهي بمعنى غطني وأصل معناهما الغمس في الماء وضيق النفس وحكمة هذا الغط تقوية روحانية النبي (ص) حتى يقوى على الاتصال بالملك والفهم منه (المؤلف).

(٤) اختصره هنا وزاد في التفسير ﴿الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (المؤلف).

(٥) اختلف العلماء في خوفه (ص) على نفسه فقيل خشي الجنون وأن يكون ما رآه من الجن وقد أنكره ورده القاضي أبو بكر بن العربي ووافقه الحافظ ابن حجر ولكن الحافظ قال إنه روي من عدة طرق أقول وهو الظاهر مما أجابته به خديجة واستشكل بأن الوحي يكون مقترناً بعلم قطعي بأنه من الله وإن الملقن له من الملائكة وأجيب بأن هذا العلم الضروري يحصل باستعراف الملك له وإعلامه إياه بذلك عند تلقينه الأمر بالتبليغ وإنما كان ظهور الملك له هي المرة لأجل الإيناس والإعداد لتلقي وحي الأحكام، والأمر فيه بالقراءة للتكوين لا للتكليف، وإلا كان من تكليف ما لا يطاق. وقيل إنه خاف على نفسه الموت أو الهلاك وهو قريب وثم أقوال أخرى متكلفة. وهو على كل حال يدل على أنه (ص) لم يفهم من هذه الرؤية أنه صار نبياً ولا أن الذي رآه هو ملك الوحي جبريل عليه السلام ويؤيد ذلك مسألة ورقة (المؤلف).

(٦) الخزي الذل والهوان وأخزاه أذله وأهانه. والكل بالفتح المتعب (بفتح العين) ومن هو عالة على غيره، وحمله إعطاؤه راحلة يركبها أو حمل اثقاله، وتكسب بفتح التاء وضمها لغة ورواية، والمعدوم المفقود ولا يظهر معناه إلا بتكلف وقال الخطابي الصواب المعدم وهو الفقير الفاقد لما يكفيه، والإعانة على نوائب الحق كلمة جامعة لكل أعمال البر والنجدة والمروءة فيما عدا الباطل (المؤلف).

الضيف وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب[١] وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة هذا الناموس[٢] الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً. ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أومخرجيّ هم؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي[٣] وفتر الوحي[٤].

قال ابن شهاب وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه «بينا أنا ماش إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾ [المدثر: ١ ـ ٢] إلى قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾ [المدثر: ٥] فحمي الوحي وتتابع[٥] اهـ.

---

(١) وفي رواية التفسير يكتب من الإنجيل بالعربية، وفي معناها رواية مسلم: فكان يكتب الكتاب العربي ولا تنافي بين الروايات إذ كان يعرف اللغتين وورقة ابن عم خديجة، وأما قولها له اسمع من ابن أخيك فهو من باب التوقير لسنه واستعطاف الرحم (المؤلف).

(٢) الناموس في اللغة صاحب السر والمراد به أمين الوحي جبريل وقوله نزل على موسى ولم يقل وعيسى لأن الشبه بين الوحي إلى موسى ومحمد عليهما السلام اتم لأن كلا منهما أوتي شريعة تامة مستقلة في عباداتها ومعاملاتها وسياستها وقوتها العسكرية وعيسى عليه السلام كان تابعاً لشريعة التوراة وناسخاً لبعض الأحكام التي يقتضيها الإصلاح ومبشراً بالنبي الذي يأتي من بعده بالشرع الكامل العام الدائم وهو محمد رسول الله وخاتم النبيين، وفي بعض الروايات الضعيفة أن ورقة قال ناموس عيسى وفي رواية أخرى حسنة الإسناد في دلائل النبوة لأبي نعيم أن خديجة جاءت ورقة وحدها أولا فذكرت له الخبر فقال لها: لئن كنت صدقتني أنه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو إسرائيل ابناءهم اهـ. والناموس واحد على كل حال. ولكن رواية الصحيحين «فانطلقت به» تدل على التعقيب أي أنها ذهبت به عقب تحديثها بما رأى (المؤلف).

(٣) لم ينشب بفتح الشين المعجمة أي لم يلبث بعد هذا أن توفي ولم ينل ما يتمناه من إدراك زمن تبليغ الرسالة لينصر النبي (ص) ولكن في سيرة ابن إسحاق وتبعه غيره أن ورقة كان يمر ببلال وهو يعذب، ومقتضاه أنه أدرك زمن البعثة واضطهاد المشركين للمؤمنين. والمعتمد ما في الصحيح من أنه توفي عقب هذا الحديث بقليل (المؤلف).

(٤) فتر الوحي انقطع موقتاً ليعود ـ وكانت فترة الوحي ثلاث سنين ـ وهي ما بين بدئه بأمر جبريل له بالقراءة وبين نزول أول سورة المدثر التي أمر فيها بانذار الناس (المؤلف).

(٥) أي اتصل مدة التبليغ كلها وهي عشرون سنة ولكنه كان نجوما متفرقة حسب الحاجة، فتارة تنزل السورة دفعة واحدة، وتارة تنزل الآيات المتفرقة، وقد يكون بين ذلك فترات قصيرة، كالذي ورد في=

وأقول: أخرج البخاري حديث جابر في تفسير سورة المدثر من طرق في بعضها أن أولها أول ما أنزل مطلقاً وفي البعض الآخر أنها من حديث النبي ﷺ عن فترة الوحي كالتي هنا وقد عبر ﷺ عن رعبه من رؤية الملك بقوله: «فجئثت منه رعباً» وفي رواية أخرى «فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض» أي فزعت وخفت وهو بضم الجيم وكسر الهمزة بالبناء للمفعول.

هذا هو المعتمد عند المحدثين في أول ما نزل من القرآن والمشهور أنه نزل بعد أول المدثر سورة المزمل تامة وبعدها بقية سورة المدثر. وقال مجاهد أول ما نزل سورة (ن والقلم) وهو غلط وروي عن علي كرم الله وجهه أن أول ما نزل سورة الفاتحة واعتمده شيخنا في توجيه كونها فاتحة الكتاب ويمكن أن يراد أنها أول سورة تامة نزلت بعد بدء الوحي بالتمهيد التكويني ثم بالأمر بالتبليغ الإجمالي وتلاها فرض الصلاة ونزول سورة المزمل أو نزلتا في وقت واحد.

بسط ما يصورون به الوحي النفسي لمحمد ﷺ

ها أنذا قد بسطت جميع المقدمات التي استنبطوها من تاريخ محمد ﷺ وحالته النفسية والعقلية، وحالة قومه ووطنه، وما تصوروا أنه استفاده من أسفاره، وما كان من تأثير خلواته وتحنثه وتفكره فيها، وقفيت عليها بأصح ما رواه المحدثون في الصحاح من صفة الوحي وكيف كان بدؤه وفترته، ثم كيف أمر ﷺ بتبليغه ودعوة الناس إلى الحق وكيف حمي وتتابع.

وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره بتأثير ذلك كله في وجدانه وعقله، بما لم أرى ولم أسمع مثله في تقريبه إلى العقل، ثم أقفي عليه بما ينقضه من أساسه بأدلة العقل والنقل والتاريخ والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول.

= سبب نزول سورة الضحى، والمروي أنه نزل قبلها بضع سور: وكان سبب نزولها كما في الصحيحين من حديث جندب بن سفيان أن النبي (ص) اشتكى (أي وجع) فلم يقم ليلتين أو ثلاثا (أي إلى تهجده وتلاوته) فقالت امرأة يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث. فأنزل الله عز وجل ﴿والضحى والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى﴾ اهـ تقرأ ودعك بالتشديد والتخفيف ومعناهما واحد وهو الترك، والقلى بالكسر والقصر البغض، أي ما تركك ربك وما أبغضك ـ وهذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب وبنت أبي سفيان كما رواه الحاكم عن زيد بن أرقم. وكان هذا بعد نزول سورة ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ وروى ابن جرير من طريقين مرسلين أن جبريل أبطأ على النبي (ص) فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة إني أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك فنزلت ـ ومعارضة رواية الصحيحين لهذه الرواية المرسلة تسقط اعتبارها وإن جمع الحافظ بينهما بأن خديجة قالت ما قالت توجعاً، وحمالة الحطب قالته شماتة (المؤلف).

يقولون إن عقل محمد الهيولاني قد أدرك بنوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام كما أدرك ذلك أفراد آخرون من قومه ـ آمنا وصدقنا ـ وأن فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الأموال بالربا والقمار ـ آمنا وصدقنا ـ وأن فقره وفقر عمه (أبي طالب) الذي كفله صغيراً قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات، من السكر والتسري وعزف القيان ـ الصحيح أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه ـ وأنه طال تفكره في إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات ـ لا مانع من ذلك ـ وأنه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفي مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله في بني إسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور ـ هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا ـ وأن تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة في عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما كان قد سمع أن الله سيبعث نبياً مثل أولئك الأنبياء من العرب في الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الأنبياء ـ وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بأن يكون هو ذلك النبي الذي آن أوانه ـ وهذا استنباط لهم مما قبله وسيأتي ما فيه ـ.

ونتيجة ما تقدم أنه توسل إلى ذلك بالانقطاع إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه في خلوته بغار حراء فقوي هنالك إيمانه، وسما وجدانه، فاتسع محيط تفكره، وتضاعف نور بصيرته، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات البينات في ملكوت السموات والأرض على وحدانية مبدع الوجود وسر النظام الساري في كل موجود، بما صار به أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وما زال يفكر ويتأمل، وينفعل ويتململ، ويتقلب بين الآلام والآمال، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر، الذي يبعثه الله لهداية البشر، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحي في اليقظة.

وأما المعلومات التي جاءته في هذا الوحي فهي مستمدة الأصل من تلك المعلومات التي ذكرناها، ومما هداه إليه عقله وتفكره في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح، ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء، وأنها خطاب الخالق عز وجل بواسطة الناموس الأكبر ملك الوحي جبريل الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى ابن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام.

وقال أحد ملاحدة المصريين إن سولون الحكيم اليوناني وضع قانوناً وشريعة لقومه فليس بدعاً في العقل أن يضع محمد شريعة أيضاً، وسأبين فساد هذا الرأي

تفنيد تصويرهم للوحي النفسي وإبطاله من وجوه

الوجه الأول: إن أكثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخيلة،

أو دعاوى باطلة، لا قضايا تاريخية ثابتة، كما بيناه عند ذكرها، وإذا بطلت المقدمات بطل التسليم بالنتيجة.

مثال ذلك زعمهم أن محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهورهم على الروم، ليوهموا الناس أن ما جاء في أول سورة الروم من الأنباء بالمسألة وبأن الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك ـ هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام. وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل. فأما التاريخ فإنه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان في سنة ٦١٠ م وذلك بعد رحلة محمد الأخيرة إلى الشام بأربع عشرة سنة وقبل بدء الوحي بسنة. ثم إن التاريخ أنبأنا أن دولة الروم كانت مختلة معتلة في ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة والغلب على الفرس. حتى أن أهل مكة أنفسهم هزئوا بالخبر وراهن أبو بكر أحدهم على ذلك وأجازه النبي ﷺ فربح الرهان. وأما العقل فإنه يحكم بأن مثل محمد في سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بأن الغلب سيعود للروم على الفرس في مدة بضع سنين ـ لا من قبل الرأي ولا من الوحي النفسي المستمد من الأخبار غير الموثوق بها. وقد صح أن انتصار الروم حصل سنة ٦٢٢ م وكان وحي التبليغ للنبي ﷺ سنة ٦١٤ فإذا فرضنا أن سورة الروم نزلت في هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثماني سنين وإن كان في السنة الثانية تكون المدة سبع سنين، وهو المعتمد في التفسير والبضع يطلق على ما بين الثلاث والتسع. والحكمة في التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى: ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ [الروم: ٢ ـ ٤] ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلاً ـ هي إفادة أن الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة وأنباء الوحي والعبر لا تكون بأسلوب التاريخ الذي يحدد الوقائع بالسنين، وليس في وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور فهذه الآية فريدة في بابها.

ومثال آخر ما زعموه من مروره ﷺ في رحلته إلى الشام بأرض مدين وحديثه مع أهلها، الذي أرادوا به أن يجعلوه أصلاً لما جاء في القرآن من أخبارها والخبر باطل كما بيناه عند نقلنا إياه في المقدمات، لو صح لما كان من المعقول أن يكون ما سمعه في الطريق من أناس مجهولين ومعارفهم لا يوثق بها أصلاً للوحي الذي جاء في قصة موسى وفي قصة شعيب عليهما السلام.

الوجه الثاني: لو كان النبي ﷺ تلقى عن علماء النصارى في الشام شيئاً أو عاشرهم لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئاً علم عنه أو قيل فيه ولو لم يثبت إلا ودونوه ووكلوا أمر صحته أو عدمها إلى إسناده.

الوجه الثالث: لو وقع ما ذكر لاتخذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على أن ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى، فإنهم كانوا يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة وهو أنه كان في مكة قين (حداد) رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده أحياناً يشاهد صنعته فاتهموه بأنه يتعلم منه، فرد الله عليهم بقوله: ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ [النحل: ١٠٣].

الوجه الرابع: نصوص القرآن صريحة في أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئاً من أخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي، وهم متفقون معنا على أنه ﷺ لم يكن يكذب على أحد فضلاً عن الكذب على الله عز وجل، كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله عز وجل ويقينه بكل ما أوحاه إليه.

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى عقب قصة موسى في مدين وما بعدها من سورة القصص ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين﴾ [القصص: ٤٤، ٤٥] وقوله بعد قصة نوح من سورة هود ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ [هود: ٤٩] ونحوها في قصة يونس من سورته.

الوجه الخامس: أنه لم يرد في الأخبار الصحيحة ولا الضعيفة أن محمداً ﷺ كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون لأنهم ما تركوا شيئاً بلغهم عنه إلا ودونوه كما رووا مثله عن أمية بن أبي الصلت.

الوجه السادس: إن حديث بدء الوحي الذي أثبته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في أنه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة ولم تجد زوجه خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هي عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان تنصر وقرأ كتب اليهود والنصارى.

الوجه السابع: لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده في الغار، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب، والوجدان الملتهب، والقلب المتقلب، حتى إذا كمل استعداده تجلى له رجاؤه واعتقاده، بما تم به مراده، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوي عليه نفسه الوثابة، وفكرته الوقادة، في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن، في بيان أصول الإيمان،

وتوحيد الديان، واجتثاث شجرة الشرك وعبادة الأوثان، وإنذار رؤوس الكفر والطغيان، ما سيلقون في الدنيا من الخزي والنكال، وفي الآخرة من عذاب النار، كسور المفصل ولا سيما (ق والقرآن المجيد) والذاريات والطور والنجم والقمر. ثم الحاقة والنبأ ـ أو في سورة من السور الوسطى التي تقرعهم بالحجج، وتأخذهم بالعبر، وتضرب لهم المثل بسنن الله في الرسل، كسور الأنبياء والحج والمؤمنون، ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة، ولم يدعهم إلى شيء، ولا تحدث إلى أهل بيته ولا إلى أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الديني الذي توجهت إليه نفسه، ولا من ذم خرافات الشرك الذي ضاق به ذرعه، إذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه، وناهيك بألصق الناس به خديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته، وأبي بكر الصديق الذي عاشره طول عمره ـ فهذا السكوت وحده برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه، واستمداده لعلومه من التلقي والاختبار الذي توهموه.

الوجه الثامن: إن ما نقل من ترتيب نزول الوحي بعد ذلك موافقاً لمجريات الوقائع والحوادث يؤيد ذلك، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر عقب قول الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قاله في القرآن ـ فقد أراده أبو جهل أن يقول فيه قولاً يبلغ قومه أنه منكر له وأنه كاره له، بعد أن علم أنه تحرى استماعه من محمد ﷺ وأعجب به. قال له الوليد وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر لا برجزه ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله وإنه ليعلوا وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال أبو جهل لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. فقال دعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت الآيات ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ [المدثر: ١١] الخ رواه الحاكم عن ابن عباس بإسناد صحيح على شرط البخاري.

الوجه التاسع: إن هذه المعلومات المحمدية التي تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحي قليلة المواد، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن.

وإن القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الأرض ويهودها، دع الأعراب الذين كان يمر بهم النبي ﷺ بالطريق إلى الشام.

وإن القرآن نزل مصدقاً لكتب أهل الكتاب من حيث كونها في الأصل من وحي الله إلى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم ـ ونزل أيضاً مهيمناً عليها أي رقيباً

وحاكماً كما نصت عليه الآية ٤٨ من سورة المائدة ٦ ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب (٥: ٤٤ و ٥١) ونسوا نصيباً أو حظاً آخر منه وأنهم حرفوا وغيروا وبدلوا (٦: ١٢ و ١٣) وبين كثيراً من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والأحكام والأخبار، ومثل هذه الأحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان، أفاضوها على محمد في رحلته التجارية إلى الشام، سواء أكان عند بعضهم بقية من التوحيد الموسوي والعيسوي الذي كان يقول به آريوس وأتباعه أم لا، وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الأناجيل التي حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (أبو كريف) كإنجيل طفولة المسيح وإنجيل برنابا أم لا، فمحمد لم يعقد في الشام ولا في مكة مجمعاً مسيحياً كمجامع الكنيسة للترجيح بين الأناجيل والمذاهب المسيحية ويحكم بصحة بعضها دون بعض.

إن وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يعلم واضعوا هذه الأخبار ببداهة العقل مع عدم النقل أنه محال، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الأناجيل وتلك المذاهب برأيه في تلك الخلسة التجارية للنظر فيها ويأمن على حكمه الخطأ؟ وقد صح عنه أنه قال لأصحابه في شأن أهل الكتاب «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم» يعني فيما سكت عنه القرآن لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا، ويكون ما صدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا.

الوجه العاشر: إن في القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحداً من اليهود والنصارى قال به، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى ففيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته ـ وفيما قرره من عزو صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامري وإثباته لإنكار هارون عليهم فيه وغير ذلك.

بل ما جاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما في الكتب الإلهية ما صح منها وما لم يصح كما سنبينه.

رويدكم أيها المفتاتون، الذين يقولون ما لا يعلمون، إن وحي القرآن أعلى مما تزعمون، وأكبر مما تتصورون وتصورون، وإن محمداً أقل علماً كسبياً مما تدعون، وأكمل استعداداً لتلقي كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون.

وإذا كان وحي القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله لأنه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة، فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه سولون الفيلسوف اليوناني الذي شبه محمداً به أحد ملاحدة عصرنا في مصرنا، مع

بعد الشبه بين أمي نشأ بين الأميين، وفيلسوف نشأ في أمة حكمة وتشريع ودولة سياسة، ودخل في كل أمور الأمة والدولة[1].

القول الحق في استعداد محمد ﷺ للنبوة.

التحقيق في صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته، وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورسالته، هو أنه خلقه كامل الفطرة، ليبعثه بدين الفطرة، وأنه خلقه كامل العقل الاستعدادي الهيولاني، ليبعثه بدين العقل والنظر العلمي، وأنه كمله بمعالي الأخلاق، ليبعثه متمماً لمكارم الأخلاق، وأنه بغض إليه الوثنية وخرافات أهلها ورذائلهم من صغر سنه، وحبب إليه العزلة حتى لا تأس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات واللذات البدنية، أو منكرات الوحشية، كسفك الدماء والبغي على الناس، أو المطامع الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل ـ ليبعثه مصلحاً لما فسد من أنفس الناس، ومزكياً لهم بالتأسي به، وجعله المثل البشري الأعلى، لتنفيذ ما يوحيه إليه من الشرع الأعلى، فكان من عفته أن سلخ من سني شبابه خمساً وعشرين سنة مع زوجه خديجة كانت في ١٥ منها عجوزاً يائسة من النسل، فتوفيت في الخامسة والستين وهي أحب الناس إليه، وظل يذكرها ويفضلها على جميع من تزوج بهن من بعدها، حتى عائشة بنت صاحبه الصديق على جمالها وحداثتها وذكائها وكمال استعدادها للتبليغ عنه ـ وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق فكان على شجاعته الكاملة يقود أصحابه لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عليه وعليهم لأجل صدهم عن دينهم، ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحداً منهم (هو أبي بن خلف) كان موطناً نفسه على قتله ﷺ فهجم عليه وهو مدجج بالحديد من مغفر ودرع فلم يجد ﷺ بداً من قتله فطعنه في ترقوته من خلل الدرع والمغفر، وظل طول عمره وبعد ما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يؤثر القشف وشظف العيش على نعمته، مع إباحة شرعه لأكل الطيبات ونهيه لمن كان يتركها تديناً، ويرقع ثوبه ويخصف نعله، مع إباحة دينه للزينة

---

(١) سولون أحد فلاسفة اليونان السبعة في القرن السابع قبل المسيح ووالدته من انسباء بستراتوس آخر ملوك اثينا، وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى في بلاده بعض الأعمال الإدارية والعسكرية وقيادة الجيش. وقد انتخب في سنة ٥٩٤ ق.م «ارخونا» أي رئيساً على الأمة باجماع أحزابها كلهم وقلدوه سلطة مطلقة لتغيير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه «زراكوت» من قبله فوضع لهم نظاماً جديداً قررت الحكومة والأمة اتخاذه دستوراً متبعاً مدة عشر سنين. فسولون كان في قانونه منقحاً ومجدداً لقانون أعظم أمة من أمم الحكمة والحضارة نشأ فيها فكان متعلماً وفيلسوفاً وحاكماً وقائداً ورئيساً، أفيقاس عليه محمد (ص) الأمي الذي لم يقرأ سطراً ولم ير كتاباً، ولا تولى عملاً إدارياً ولا سياسياً، ثم إن ما جاء به لم يكن قانوناً موضعياً منقحاً لقوانين أخرى قبله، بل كان اصلاحاً لجميع البشر في عقائدهم وآدابهم واحكامهم وحروبهم الخ؟ تأمل أيها القارىء إلى شبهات ملاحدة المسلمين على دينهم ونبيهم!! (المؤلف).

وأمره بها عند كل مسجد، وكان يأكل ما وجد لا يعيب طعاماً قط، إلا أنه كان لا يشرب إلا الماء العذب النقي.

وأكمل الله تعالى استعداده الذاتي «لا الكسبي» للبعثة بإكمال دين النبيين والمرسلين، والتشريع الكافي الكافل لإصلاح جميع البشر إلى يوم الدين، وجعله حجة على جميع العالمين، بأن أنشأه كأكثر قومه أمياً وصرفه في أميته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الأميين ومن أهل الكتاب، حتى أنه لم يجعل له أدنى عناية بما يتفاخر به قومه من فصاحة اللسن، وقوة البيان، من شعر وخطابة، ومفاخرة ومنافرة، إذ كانوا يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ من جميع النواحي لإظهار بلاغتهم وبراعتهم، فكان ذلك أعظم الأسباب لارتقاء لغتهم، ولوجود الحكمة في شعرهم، فكان من الغريب أن يزهد في مشاركتهم فيه بنفسه، وفي روايته لما عساه يسمعه منه، وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية فقال: «إن كاد ليسلم»[(١)] وقال: «آمن شعره وكفر قلبه»[(٢)] وقال: «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر حكماً»[(٣)] رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس، وأما قوله: «إن من البيان لسحراً» فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر.

قلنا إن استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة فطري لم يكن فيه شيء من كسبه بعلم ولا عمل لساني ولا نفسي، ولم يرو عنه أنه كان يرجوها كما روي عن أمية بن أبي الصلت، بل روي عن خديجة (رض) أنها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته وما قاله بحيرا الراهب فيه تعلق أملها بأن يكون هو النبي الذي يتحدثون عنه، ولكن هذه الروايات لا يصل شيء منها إلى درجة المسند الصحيح كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفاً، فإن قيل إنه يقويه حلفها بالله أن الله تعالى لا يخزيه أبداً، قلنا إنها عللت ذلك بما ذكرته من فضائله، ورأت أنها في حاجة إلى استفتاء ابن عمها ورقة في شأنه.

وأما اختلاؤه ﷺ وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في أنه كان عملاً كسبياً مقوياً لذلك الاستعداد الفطري، ولذلك الاستعداد السلبي من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم، ولكنه لم يكن يقصد الاستعداد للنبوة، لأنه لو كان

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) راجع الحاشية السابقة.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٠، والترمذي في الأدب باب ٦٩، وابن ماجه في الأدب باب ٤١، وأحمد في المسند ١/٢٦٩ ـ ٢٧٣، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣/٤٥٦، ٥/١٢٥.

لأجلها لاعتقد حين رأى الملك أو عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه، ولم يخف منه على نفسه، وإنما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها إلى الأنس بالله تعالى، والرجاء في هدايته إلى المخرج منها، كما بسطه شيخنا الأستاذ الإمام في تفسير قوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ [الضحى: ٧] وما يفسره من قوله عز وجل: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ [الشورى: ٥١، ٥٢] وألم به في رسالة التوحيد إلماماً مختصراً مفيداً، فقال رحمه الله تعالى:

«من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لا سيما إن كان من ذوي قرابته، وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وما جاء في الكتاب من قوله: ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾ لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم، حاش لله أن ذلك لهو الإفك المبين، وإنما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص، فيما يرجون للناس من الخلاص وطلب السبيل إلى ما هدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد للضالين، وقد هدى الله نبيه إلي ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته» اهـ.

أقول: وجملة القول إن استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله تعالى روحه الكريمة كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد الدينية، والآداب الوراثية والعادات المكتسبة، إلى أن تجلى فيها الوحي الإلهي بأكمل معانيه، وأبلغ مبانيه، لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله إلى أقوامهم خاصة بما يناسب حالهم واستعدادهم، وجعل بعثة خاتم النبيين به للبشر عامة دائمة لا يحتاجون بعدها إلى وحي آخر، فكان في فطرته السليمة وروحه الشريفة، وما نزل عليها من المعارف العالية، وما أشرق فيها من نور الله عز وجل الذي تلوته عليك من آخر سورة الشورى ـ هو مضرب المثل في قوله تعالى في سورة النور: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب

دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ [النور: ٣٥].

فزيت مصباح المعارف المحمدية، يوقد من زيتونة لا شرقية ولا غربية، ولا يهودية، ولا نصرانية، بل هي إلهية علوية.

هذا ما نراه كافياً لتفنيد مزاعم مصوري الوحي النفسي من ناحية شخص محمد واستعداده، ويتلوه ما هو أقوى دليلاً، وأقوم قيلاً، وهو تفنيده بموضوع الوحي الذي هو آية نبوته الخالد، وحجته الناهضة، وهو القرآن العظيم.

آية الله الكبرى ـ القرآن العظيم

القرآن الكريم، القرآن الحكيم، القرآن المجيد والكتاب العزيز

الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤٢].

هو كتاب لا كالكتب، هو آية لا كالآيات، هو معجزة لا كالمعجزات، هو نور لا كالأنوار، هو سر لا كالأسرار، هو كلام لا كالكلام، هو كلام الله الحي القيوم الذي ليس لروح القدس جبريل الأمين عليه السلام منه إلا نقله بلفظه العربي من سماء الأفق الأعلى إلى هذه الأرض، ولا لمحمد رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله منه إلا تبليغه للناس ليهتدوا به، فهو معجز للخلق بلفظه ونظمه وأسلوبه وعلومه وهدايته، لم يكن في استطاعة محمد ﷺ أن يأتي بسورة من سوره بكسبه ومعارفه، وفصاحته وبلاغته، وهو ﷺ لم يكن عالماً ولا بليغاً ممتازاً إلا به، بل فيه آيات صريحة في معاتبته على بعض اجتهاده كفداء أسرى بدر (راجع ج ١٠ تفسير).

قد بينت في تفسير آية التحدي بالقرآن من سورة البقرة (٢: ٢٣) أهم وجوه الإعجاز اللفظي والمعنوي بالإجمال والإيجاز، وأعود هنا إلى الكلام في علوم القرآن المصلحة للبشر بما يحتمله المقام من البسط والتفصيل، وهو القدر الذي يعلم منه أن هذه العلوم أعلى من كل ما حفظه التاريخ عن جميع الأنبياء والحكماء، وواضعي الشرائع والقوانين، وساسة الشعوب والأمم.

فمن كان يؤمن بأن للعالم رباً عليماً حكيماً رحيماً مريداً فاعلاً مختاراً فلا مندوحة له ولا مناص من الإيمان بأن هذا القرآن وحي من لدنه عز وجل أنزله على خاتم أنبيائه المرسلين رحمة بهم ليهتدوا به إلى تكميل فطرتهم، وتزكية أنفسهم،

وإصلاح مجتمعهم من المفاسد التي كانت عامة لجميع أممهم، فيكون اتباع محمد فرضاً إلهياً لازباً عاماً كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ومن كان لا يؤمن بوجود هذا الرب العليم الحكيم فلا مندوحة له عن الجزم بأن محمداً أكمل وأفضل وأعلم وأحكم من كل من عرف في هذا العالم من الحكماء الهادين المهديين، ويكون الواجب بمقتضى العقل أن يعترف له هؤلاء بأنه سيد البشر على الإطلاق وأولاهم بالاتباع بعنوان (سيد البشر وحكيمهم الأعظم).

وإننا رأينا بعض المنصفين من الواقفين على السيرة المحمدية الذين يفهمون القرآن في الجملة يعترفون بهذا قولاً وكتابة منهم الأستاذ مولر الإنكليزي المشهور، ومنهم ذلك الفيلسوف الطبيب السوري الكاثوليكي النشأة الذي رأى في مجلة المنار بعض المناقب المحمدية فكتب إلينا كتاباً يقول في أوله: أنت تنظر إلى محمد كنبي فتراه عظيماً، وأنا أنظر إليه كرجل فأعده أعظم وذكر أبياتاً في وصفه ووصف القرآن وما فيه من محكم الآيات، المانعة لمن عقلها من تقييد العمران بالعادات، وإصلاحه للبشر بحكمة بيانه وقوة بنانه، وختمها بقوله:

ببيانه أربى على أهل النهى ... وبسيفه أنحى على الهامات

من دونه الأبطال في كل الورى ... من سابق أو حاضر أو آت

والمؤمنون بهذه الحقيقة من أحرار مفكري الشعوب كلها كثيرون، ولكن الجاحدين لوجود رب مدير للعالمين قليلون، وإن محمداً ﷺ لحجة عليهم في نشأته وتربيته وما علم بالضرورة من صدقه الفطري المطبوع، ثم بما جاء به في سن الكهولة من هذه العلوم المصلحة لجميع شؤون البشر في كل زمان إذا عقلوها واهتدوا بها، وإسناده إياها إلى الوحي الإلهي، فهو ﷺ بمزاياه هذه حجة وبرهان على وجود الرب الخالق الحكيم بل مجموعة حجج عقلية وطبيعية ـ وهاك أيها القارىء ما أزفه إليك من قواعد تلك العلوم الإصلاحية بعد تمهيد وجيز في أسلوب القرآن وحكمة جعل تلك العلوم الكلية متفرقة في سوره بأسلوبه الغريب العجيب، وهذا المعنى قد بيناه من قبل وإنما نعيده مع زيادة مفيدة وإيضاح اقتداء بأسلوب القرآن نفسه في تكرار المعنى الواحد في المواقع المقتضية له من إيجاز أو إسهاب، وتفصيل أو إجمال.

أسلوب القرآن الخاص وحكمته وإعجازه به.

لو أن عقائد الإسلام المنزلة في القرآن من الإيمان بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء ودار الثواب ودار العقاب جمعت

وحدها مرتبة في ثلاث سور أو أربع أو خمس مثلا ككتب العقائد المدونة ـ ولو أن عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعاء والأذكار وضع كل منها في بضع سور أيضاً ككتب الفقه المصنفة ـ ولو أن آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمندوبة، وما يقابلها من الرذائل والأعمال المحرمة والمكروهة، أفردت هي وما يقتضيه الترغيب والترهيب من المواعظ والنذر والأمثال الباعثة لشعوري الخوف والرجاء في بضع سور أخرى ككتب الأخلاق والآداب المؤلفة ـ ولو أن قواعده التشريعية وأحكامه الشخصية والسياسية والحربية والمدنية وحدوده وعقوباته التأديبية رتبت في عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية ـ ثم لو أن قصص النبيين المرسلين وما فيها من العبر والمواعظ والسنن الإلهية سردت في سورها مرتبة كدواوين التاريخ ـ.

لو أن كل ما ذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن التي أراد الله بها إصلاح شؤون البشر جمع كل نوع منها وحده كترتيب أسفار التوراة التاريخي الذي لا يعلم أحد مرتبه أو كتب العلم والفقه والقوانين لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الأول للغاية التي انتهت إليها، وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للقليل من سوره كثيراً من مسائل الإيمان والفضائل والأحكام والحكم المنبثة في جميع السور لأن السورة الواحدة لا يوجد فيها في هذا الترتيب إلا مقصد واحد من تلك المقاصد، وقد يكون أحكام الطلاق أو الحيض فهو يتعبد بها ولا شك أنه يملها، وأما سوره المنزلة ففي كل منها حتى أقصرها عدة مسائل من الهداية فترى في سورتي الفيل وقريش (المتعلقة إحداهما بالأخرى حتى في الإعراب) ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتا حجة على مشركي قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته بما من عليهم من عنايته بحفظ البيت الذي هو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم وتأمين تجارتهم وحياتهم ـ ولفقد بهذا الترتيب أخص أنواع إعجازه أيضاً.

يعلم هذا وذاك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزله به رب العالمين، العليم الحكيم الرحيم، وهو مزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض وتفريقها في السور الكثيرة، الطويلة منها والقصيرة، بالمناسبات المختلفة، وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة في القلوب، المحركة للشعور، النافية للسآمة والملل من المواظبة على ترتيلها بنغمات نظمه الخاص به وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التغني الذي يحدث في القلب وجدان الخشوع، وخشية الإجلال للرب المعبود، والرجاء في رضوانه ورحمته، والخوف من عقوبته، والاعتبار بسننه في خلقه، بما لا نظير له في كلام البشر من خطابة ولا شعر ولا رجز ولا سجع، فبهذا الأسلوب الرفيع في النظم البديع، وبلاغة التعبير السنيع، كان كما ورد في وصفه: لا تبلى جدته ولا تخلقه كثرة

الترديد وحكمة ذلك وغايته تعلم مما وقع بالفعل وهاك بيانه بالإجمال.

الثورة والانقلاب الذي أحدثه القرآن في البشر

القرآن كتاب أنزل على قلب رجل أمي نشأ على الفطرة البشرية سليم العقل. صقيل النفس طاهر الأخلاق لم تملكه تقاليد دينية ولا أهواء دنيوية، لأجل إحداث ثورة وانقلاب كبير في العرب فسائر الأمم يكتسح من العالم الإنساني ما دنس فطرته من رجس الشرك والوثنية الذي هبط بهذا الإنسان من أفقه الأعلى في عالم الأرض إلى عبادة مثله وما وهو دونه من هذه المخلوقات، وما أفسد عقله وذهب باستقلال فكره من البدع الكنسية، والتقاليد المذهبية، التي أحالت توحيد الأنبياء الأولين شركاً وحقهم باطلاً، وهدايتهم غواية ـ وما أفسد بأسه، وأذل نفسه، وسلبه إرادته، من استبداد الملوك الظالمين، والرؤساء القاهرين، ثورة تحرر العقل البشري والإرادة الإنسانية من رق المنتحلين لأنفسهم صفة الربوبية أو النيابة عنها في التحكم في الناس واستذلالهم، فيكون كل امرىء اهتدى به حراً كريماً في نفسه، عبداً خالصاً لربه وإلهه، يوجه قواه العقلية والبدنية إلى تكميل نفسه وجنسه.

مثل هذه الثورة الإنسانية لا يمكن أن تحدث إلا على قاعدة القرآن في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١] وكيف يكون تغيير الأقوام لما بأنفسهم من العقائد والأخلاق والصفات، التي طبعتها عليها العبادات الموروثة والعادات الراسخة.

هل يكفي فيه ذلك قيام مصلح فيهم يضع لهم كتاباً تعليمياً جافاً ككتب الفنون يقول فيه إنكم أيها الناس ضالون فاسدون، ومضلون مفسدون، فاعملوا بهذا الكتاب تهتدوا وتصلحوا، أو قانوناً مدنياً يقول في مقدمته نفذوا هذا القانون تحفظ حقوقكم، وتعتز أمتكم وتقو دولتكم؟ أنى وقد عهد من الناس الفاسدين المفسدين سوء التصرف بكتب أنبيائهم المرسلين، وإهمال قوانين حكمائهم المصلحين، «كما فعل المسلمون المتأخرون» وإنما توضع القوانين للحكومات المنظمة ذات السلطان والقوة التي تكفل تنفيذها، وأنى لمحمد فعل هذا في الأمة العربية وقد بعث بالحجة والبرهان، فريداً وحيداً لا عصبة له من قومه ولا سلطان؟ على أنه جاء بأعدل الأصول التي تبني عليها أمته قوانينها عند تكوين دولتها في الأحوال الملائمة لها كما يعلم مما يأتي.

كلا إن هذه الثورة ما كان يمكن أن تحدث إلا بما حدثت به وهو تأثير هذا القرآن في الأمة العربية التي كانت أشد الأمم البدوية والمدنية استعداداً فطرياً لظهور الإسلام فيها بالإقناع كما بيناه بالتفصيل في كتابنا (خلاصة السيرة المحمدية) وسنلم به قريباً.

ذلك بأن طباع البشر في معرفة الحق والباطل والخير والشر، والعمل بمقتضى المعرفة وإن خالف مقتضى الأهواء والشهوات، والتقاليد والعادات، أن مجرد البيان والإعلام والأمر والنهي لا يكفي في الحمل على التزام الحق ونصره على الباطل، ولا في أداء الواجب من عمل الخير وترك الشر إذا عارض المقتضي العلمي لهما ما أشرنا إليه آنفاً من الموانع النفسية والعملية، إلا في بعض الأفراد من الناس دون الجماعات والأقوام. بل مضت سنة الله في تثبيت الحق والخير في النفس وصدور آثارهما عنهما بالعمل، أنه يتوقف على صيرورة الإيمان بهما إذعاناً وجدانياً حاكماً على القلب، راجحاً على ما يخلفه من رغب ورهب وألم وأمل، وإنما يكون هذا في الأحداث بالتربية العلمية العملية والأسوة الحسنة لهم فيمن ينشؤون بينهم من الوالدين والأقربين والمعاشرين.

وأما كبار السن فلا سبيل إلى جعل الإيمان بالحق المطلق والخير العام إذعاناً وجدانياً لجمهورهم إلا بالأسلوب الذي نزل به القرآن فقلب به طباع الكهول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم وحولها إلى ضدها علماً وعملاً بما لم يعهد له نظير في البشر، فكان القرآن آية خارقة للمعهود من سنن الاجتماع البشري في تأثيره، بالتبع لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه.

واعتبر هذا ببني إسرائيل سلالة النبيين، فإن كان ما رأوه بمصر من آيات موسى عليه السلام، ثم ما رأوه في برية سينا مدة التيه منها، ومن عناية الله تعالى بهم، ومن سماعهم كلام الله تعالى بآذانهم في لهيب النار المشتعلة على ما ترويه توراتهم ـ ولم يثبت عندنا التكليم إلا لنبيهم ـ لم يتغير به ما كان بأنفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافاتها ومهانتها وأخلاقها، فقد عذبوا موسى عذاباً نكراً، وعاندوه في كل ما كان يأمرهم به، وعبدوا صنم العجل الذهبي في أثناء مناجاته لربه، حتى وصفهم الله في التوراة بالشعب الصلب الرقبة، وهو كناية عن البلادة والعناد، وعصل الطباع المانع من الانقياد، وظل ذلك كذلك إلى أن باد ذلك الجيل الفاسد بعد أربعين سنة ونشأ فيهم جيل جديد ممن كانوا أطفالاً عند الخروج من مصر وممن ولد في التيه أمكن أن يعقلوا التوحيد والشريعة، وأن يعملوا بها، ويجاهدوا في سبيلها، وإنما كان ذلك بعد موت موسى عليه السلام.

فأين بنو إسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين تربوا بسماع القرآن وترتيله وتدبره في رسوخهم في الإيمان، وصبرهم على أذى المشركين واضهادهم إياهم ليفتنوهم عن دينهم، ثم في مجاهدتهم لهم عند الإمكان بعد الهجرة، ومجاهدة أعوانهم من أهل الكتاب اليهود وتطهيرهم الحجاز وسائر جزيرة العرب من كفر الفريقين في عهده ﷺ وقد كانت مدة البعثة المحمدية كلها عشرين سنة أي نصف مدة

التيه، وكان ذهب نصفها في الدعوة وتبليغ الدين للأفراد بمكة، والنصف الآخر هو الذي تم فيه الانقلاب العربي من تشريع وتنفيذ وجهاد.

ثم تأمل ما كان من تدفقهم هم أنفسهم كالسيل الآتي على الأقطار من نواحي الجزيرة كلها، والظهور على ملكي قيصر وكسرى أعظم ملوك الأرض وإزالة الشرك والظلم منهما، ونشر التوحيد والحق والعدل فيهما، ودخول الأمم في دين الله أفواجاً مختارين اهتداء بهم، وعنايتهم بتعليم العربية بالتبع لعنايتهم بالدين، حتى فتحوا هم وتلاميذهم نصف كرة الأرض في زهاء نصف قرن، أو ثلاثة أرباعها في ثلاثة أرباعه وكانوا مضرب المثل في الرحمة والعدل وموضع الحيرة لعلماء الاجتماع وقواد الحرب.

وأنى يبلغ الشعب الذي وصفه ربه في كتابه بالشعب الصلب الرقبة رتبة الذين وصفهم رب العالمين بقوله: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ [الفتح: ٢٩] الآيات، فكان عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الذي طبع وشب على الشدة والقسوة يطبخ الطعام هو وزوجه ليلاً لامرأة فقيرة تلد وبعلها حاضر لا يساعدهما إذ لم يكن يعلم أنه أمير المؤمنين.

لا جرم أن سبب هذا كله تأثير القرآن بهذا الأسلوب الذي نراه في المصحف فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره الله بقوله: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ [الفرقان: ٥٢] ثم كان به يربي المؤمنين ويزكيهم، وبهدايته والتأسي بمبلغه ﷺ ربوا الأمم وهذبوها، وقلما يقرؤه أحد كما كانوا يقرؤون، إلا ويهتدي به كما كانوا يهتدون، على تفاوت في الاستعداد النفسي واللغوي واختلاف الزمان لا يخفى ولو كان القرآن بأسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذي غير ما بأنفس العرب فغيروا به أمم العجم، فكانوا كلهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولم يكن عندهم شيء من العلم بسياسة الأمم وإدارتها إلا هذا القرآن، والأسوة الحسنة بمبلغه ومنفذه الأول عليه الصلاة والسلام، ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم إلا إذا عادوا إلى هدايته، وتجديد ثورته، ولعنة الله على من يصدونهم عنه زاعمين استغناءهم عن العمل به وبسنة مبينة، بكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يحيي الإيمان وينهض الهمم، ويزكي الأنفس ويبعث على العمل.

فعل القرآن في أنفس العرب المستعدة له نوعان

بيان ذلك أن فعل بالقرآن في أنفس العرب وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم قد كان على نوعين أولهما جذبه الناس إلى الإسلام، وثانيهما تزكيتهم وتغيير كل ما كان بأنفسهم من جهل وفساد إلى ضده، حتى أعقب ما أعقب من الإصلاح في العالم كله. وهناك التفصيل الذي يحتمله المقام لذلك.

بينا مراراً أن الله تعالى قد أعد الأمة العربية ولا سيما قريش ومن حولها لما أراده من الإصلاح العام للبشر بكونهم كانوا أقرب الأمم إلى سلامة الفطرة، وأرقاهم لغة وأقواهم استقلالاً في العقل والإرادة، لعدم وجود ملوك مستبدين ورؤساء دين أولي سلطان روحي يتحكمون في عقائدهم وأفكارهم ويسخرونهم لشهواتهم.

فلما بعث فيهم محمد ﷺ بهذا القرآن الداعي إلى الحق وإلى صراط مستقيم كانوا على أتم الاستعداد الفطري لقبول دعوته، ولكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب العجم في التمتع بالثروة الواسعة والعظمة الكاذبة والشهوات الفاتنة والسرف في الترف، وعلى حظ مما كان عليه رؤساء الأديان فيها من المكانة الدينية بسدانتهم لبيت الله الحرام الذي أودع الله تعظيمه في القلوب من عهد إبراهيم وإسماعيل ـ فرأوا أن هذا الدين يسلبهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، وقد يفضل عليهم بعض الفقراء والموالي، وأنه يحكم عليهم وعلى من يفاخرون بهم من آبائهم بالكفر والجهل والظلم والفسوق ويشبههم بسائمة الأنعام ـ فوجهوا كل قواهم ونفوذهم إلى صد محمد عن دعوته ولو بتمليكه عليهم، وجعله أغنى رجل فيهم، ولكن تعذر إقناعه بالرجوع عنها بالترغيب، حتى التمويل والتمليك، فقد أجاب عمه أبا طالب لما عرض عليه ما أرادوه من ذلك بتلك الكلمة العليا «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» حينئذ أجمعوا أمرهم على صده عن تبليغها بالقوة، والحيلولة بينه وبين جماهير الناس في الأسواق والمجامع والبيت الحرام، وبصد الناس عنه أن يأتوه ويستمعوا له، وباضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردية، إلا أن يكون له من يحميه منهم لقرابة أو جوار أو ذمة، فهؤلاء الرؤساء المترفون المسرفون المتكبرون كانوا أعلم الناس بصدق محمد وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ [الأنعام: ٣٣] فقد كابروا الحق بغياً واستكباراً للحرص على رياستهم وشهواتهم، وكانوا أجدر العرب بقبول دعوة القرآن ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ [النمل: ١٤] كفرعون وقارون وهامان.

فعل القرآن في مشركي العرب.

قلنا إن فعل القرآن في أنفس العرب كان على نوعين: فعله في المشركين،

وفعله في المؤمنين، فالأول تأثير روعة بلاغته ودهشة نظمه وأسلوبه، الجاذب لفهم دعوته والإيمان به، إذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها، وكانوا يتفاوتون في هذا النوع تفاوتاً كبيراً لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية.

فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لأبي جهل التي اعترف فيها بأنه الحق الذي يعلو ولا يعلى، والذي يحطم ما تحته، وكانت كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه، وما استطاع أن يقول كلمة أخرى في الصد عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه باقتراحها إلا بتكلف لمكابرة عقله ووجدانه، وبعد أن فكر وقدر، ونظر وعبس وبسر، وأدبر واستكبر، كما يعلم من سورة المدثر نزول قوله تعالى: ﴿ذرني من خلقت وحيداً﴾ [المدثر: ١١] الآيات منها.

وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رؤوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته، على ما كان من نهيهم عنه ونأيهم عنه، وتواصيهم وتقاسمهم لا يسمعن له، ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين، ويتلاقون في الطريق متلاومين، وهذا التأثير هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق (رض) من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام ليلاً لما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب إلى الإسلام، وعللوا ذلك بأنه يفتن عليهم نساءهم وأولادهم، فاتخذ مسجداً له بفناء داره فطفق النساء والأولاد الناشئون ينسلون إلى بيته ليلاً لاستماع القرآن، فنهاه أشراف المشركين بأن العلة لا تزال، وأنهم يخشون أن يغلبهم نساؤهم وأولادهم على الإسلام، وكانوا ألجأوه إلى الهجرة فهاجر فلقي في طريقه ابن الدغنة سيد قومه فسأله سبب هجرته فأخبره وهو يعرف فضائل أبي بكر من قبل الإسلام فأجاره وأعاده إلى مكة بجواره، فعاد إلى قراءته، وعاد النساء والنشء الحديث إلى الاستماع له، حتى اضطر المشركون ابن الدغنة إلى إقناعه بترك رفع صوته بالقرآن أو يرد عليه جواره، فرد أبو بكر جواره اكتفاء بجوار الله تعالى، وخبره هذا رواه البخاري في باب الهجرة وأوردناه بطوله في تفسير آية الغار (من الجزء العاشر).

بل هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي ﷺ بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعه، وعلى تواصيهم بما حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ [فصلت: ٢٦] وقد أدرك هذا أحد فلاسفة فرنسة فذكر في كتاب له قول دعاة النصرانية إن محمداً لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى وقال في الرد عليهم: إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أواها متألهاً فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الإيمان ما لم تفعله جميع آيات الأنبياء الأولين أقول ولو كان القرآن ككتب القوانين المرتبة وكتب الفنون المبوبة، لما كان لقليله وكثيره من التأثير ما كان لسوره المنزلة.

كان كل ما يطلبه النبي ﷺ من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس. قال تعالى مخاطباً له ﴿قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا لقرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ [الأنعام: ١٩] أي وأنذر به كل من بلغه من غيركم من الناس وقال في آخر سورة النحل: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل بإنما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾ [النحل: ٩١ ـ ٩٣].

إن رؤساء قريش عرفوا من قوة جذب الناس إلى الإسلام بوقعه في أنفسهم ما لم يعرفه غيرهم، وعرفوا أنه ليس لجمهور العرب مثل ما لهم من أسباب الجحود والمكابرة، فقال لهم عمه أبو لهب من أول الأمر: خذوا على يديه، قبل أن تجتمع العرب عليه ففعلوا وكان من ثباته على بث الدعوة واحتمال الأذى ما أفضى بهم إلى الاضطهاد وأشد الإيذاء له ولمن يؤمن به، ثم إجماع الرأي على قتله، حتى ألجؤهم إلى الهجرة بعد الهجرة ثم صاروا يقاتلونه في دار هجرته وما حولها، وينصره الله عليهم، إلى أن اضطروا إلى عقد الصلح معه في الحديبية سنة ست من الهجرة وكان أهم شروط الصلح السماح للمؤمنين بمخالطة المشركين الذي كان سبب سماعهم للقرآن، ودخولهم بتأثيره في دين الله أفواجاً، فكان انتشار الإسلام في أربع سنين بالسلم والأمان، أضعاف انتشاره في ست عشرة سنة من أول الإسلام.

فعل القرآن في أنفس المؤمنين.

كان كل من يدخل في الإسلام قبل الهجرة يلقن ما نزل من القرآن ـ ليعبد الله بتلاوته ـ ويعلم الصلاة ولم يفرض في مكة من أركان الإسلام غيرها، فيرتل ما يحفظه في صلاته اقتداء بالنبي ﷺ إذ فرض الله عليه التهجد بالليل من أول الإسلام قال تعالى في أول سورة المزمل ـ التي قيل إنها أول ما نزل بعد فترة الوحي وبعدها المدثر وقيل بالعكس ـ وتقدم الجمع بين الأقوال: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا﴾ [المزمل: ١ ـ ٤] ثم قال في آخرها ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن﴾ [المزمل: ٢٠] أي في صلاة الليل وغيرها، ثم ذكر الأعذار المانعة من قيام الليل كله ما كان منها في ذلك العهد كالمرض والسفر، وما سيكون بعد سنين وهو القتال في سبيل الله.

ومما ورد في صفة الصحابة (رض) أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلاً يسمع منها

مثل دوي النحل من تلاوة القرآن، وقد غلا بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا منهم نساؤهم فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، وكان هو يصلي في كل ليلة ثلاث عشرة ركعة يوتر بواحدة منهن، وما قبلها مثنى مثنى، وكان هو يطيل فيهن حتى تورمت قدماه من طول القيام فأنزل الله عليه مرّفها ومسلياً ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طه: ١، ٢].

فتربية الصحابة التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية وزكتها تلك التزكية التي أشرنا إليها آنفاً وأحدثت أعظم ثورة روحية اجتماعية في التاريخ إنما كانت بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة وتدبره، وكانوا يقرؤونه مستلقين ومضطجعين كما وصفهم الله بقوله: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ [آل عمران: ١٩١] وأعظم ذكر الله تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنى وصفاته المقدسة وأحكامه وحكمه، وسننه في خلقه وأفعاله في تدبير ملكه، ولو كان القرآن ككتب القوانين والفنون لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع، وتغيير الأوضاع، بل لكانت تلاوته تمل فتترك، فأسلوب القرآن الذي وصفناه آنفاً من أعظم أنواع إعجازه اللغوي، وتأثيره الروحي، ومن ارتاب في هذا فلينظر في المسائل التي تشتمل عليها السورة منه وليحاول كتابتها نفسها أو مثلها بأسلوب تلك السورة ونظمها أو أسلوب سورة أخرى، كالسور التي يتكرر فيها الموضوع الواحد بالإجمال الموجز تارة وببعض التفصيل تارة وبالإطناب فيه أخرى ـ كالاعتبار بقصص الرسل مع أقوامهم في سوره المفصل (كالذاريات والقمر والحاقة) وفيما فوقها (كالمؤمنون والشعراء والنمل) وفيما هو أطول منها (كالأعراف وهود) ـ ثم لينظر ما يفضي إليه عجزه من السخرية.

وقد بين بعض علماء الاجتمع في هذا العصر أن تكرار الدعوات الدينية والسياسية والاجتماعية هي التي تثير الجماعات وتدعهم إلى الانهماك والتفاني فيها دعًا، وما كان محمد ولا أحد من أهل عصره يعلمون هذا، ولكن الله يعلم من طباع الجماعات والأقوام فوق ما يعلمه حكماء عصرنا وسائر الأعصار، وإنما القرآن كلامه، وليس فيه من التكرار، إلا ما له أكبر الشأن في انقلاب الأفكار، وتحويل ما في الأنفس من العقائد والأخلاق إلى خير منها، وهو ما لا يمكن إحداث الانقلاب الإصلاحي بدونه كما تعلم من التفصيل الآتي.

مقاصد القرآن، في ترقية نوع الإنسان، وما فيه من التكرار

إن مقاصد القرآن من إصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم وإدخالهم في طور الرشد وتحقيق أخوتهم الإنسانية ووحدتهم وترقية عقولهم وتزكية أنفسهم منها ما

يكفي بيانه لهم في الكتاب مرة أو مرتين أو مراراً قليلة، ومنها ما لا تحصل الغاية منه إلا بتكراره مراراً كثيرة لأجل أن يجتث من أعماق الأنفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ويغرس في مكانها أضدادها، ويتعاهد هذا الغرس بما ينميه حتى يؤتي أكله ويينع ثمره، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة، ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدريج، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا في المستقبل فيوضع له بعض القواعد العامة ومنها ما يكفي فيه الفحوى والكناية.

والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط فلا يكفي أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود في كتب بالفنون والقوانين، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [الجمعة: ٢] وإننا نذكر هنا أصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا إن ما جاء به محمد ﷺ هو أعلى وأكمل مما جاء به من قبله جميع الأنبياء والحكماء والحكام فهو برهان على أنه من عند الله تعالى لا من فيض استعداده الشخصي، وإننا نقسم هذه المقاصد إلى أنواع ونبين حكمة القرآن، وما امتاز به في كل نوع منها بالإجمال لأن التفصيل لا يتم إلا إذا يسر الله لنا ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها في أبواب نبين في كل باب منها وجه حاجة البشر إلى ذلك المقصد وكون القرآن وفى بهذه الحاجة بما نأتي به من جملة آياته فيه.

النوع الأول من مقاصده الإصلاح الديني لأركان الدين الثلاثة

إن أركان الدين الأساسية التي بعث بها جميع رسل الله تعالى وناط بها سعادة البشر هي الثلاثة المبينة بقوله: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٦٢] وهناك الكلام على كل منها بالإيجاز.

الركن الأول للدين: الإيمان بالله تعالى

فالركن الأول الأعظم من هذه الأركان ـ وهو الإيمان بالله تعالى ـ قد ضل فيه جميع الأقوام والأمم حتى أقربهم عهداً بهداية الرسل، فاليهود جعلوا الله كالإنسان يتعب ويندم على ما فعل كخلقه للإنسان لأنه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله، «أو مثل الآلهة» وزعموا أنه كان يظهر في شكل الإنسان حتى أنه صارع إسرائيل ولم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه! وعبدوا بعلاً وغيره من الأصنام والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة، فغمر الشرك بالله هذه الأرض بطوفانه، وطغت الوثنية على أهلها، حتى صارت كنائس النصارى كهياكل الوثنية الأولى مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة ـ على أن عقيدة التثليث والصلب والفداء هي عقيدة الهنود في

كرشنة وثالوثه في جملتها وتفصيلها، وهي مدعومة بفلسفة خيالية غير معقولة وبنظام يقوم بتنفيذه الملوك والقياصرة، ويبذل في سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ويربى عليه الأحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهاناً، فهدم معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة في الأفكار والقلوب ما كان ليتم بإقامة برهان عقلي أو عدة براهين على توحيد الله عز وجل، بل لا بد فيه من دحض الشبهات وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والخطابية بالعبارات المختلفة وضرب الأمثال.

لذلك كان أكثر المسائل تكراراً في القرآن مسألة توحيد الله عز وجل في ألوهيته بعبادته وحده، واعتقاد أن كل ما سواه من الموجودات سواء في كونهم ملكاً وعبيداً له لا يملكون من دونه نفعاً ولا ضراً لأحد ولا لأنفسهم إلا فيما سخره من الأسباب المشتركة بين الخلق كما شرحناه مراراً. وأما تكرار توحيد الربوبية وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الديني فليس سببه كثرة المشركين بربوبيته تعالى، بل سببه إقامة الحجة به على بطلان شرك العبادة بدعاء غير الله تعالى لأجل التقرب إليه بأولئك الأولياء وابتغاء شفاعتهم عنده، فشر الشرك وأعرقه في الكفر وأكثره في ضعفاء العقول إنما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة إليه من كشف ضر وجلب نفع من غير طريق الأسباب، فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة، بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة، لأنه روح العبادة ومخها، بل هو العبادة التي هي دين الفطرة كله، وما عداه من العبادات فوضعي تشريعي.

بعض آيات الدعاء أمر بدعائه تعالى، وبعضها نهي عن دعاء غيره مطلقاً، ومنها حجج على بطلان الشرك أو على إثبات التوحيد، ومنها أمثال تصور كلا منهما بالصور اللائقة المؤثرة، ومنها إخبار بأن دعاء غيره لا ينفع ولا يستجاب، وأن كل من يدعى من دونه تعالى فهو عبد له، وأن أفضلهم وخيارهم كالملائكة والأنبياء يدعونه هو ويبتغون الوسيلة إليه، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشرك الذين يدعونهم من دون الله أو مع الله ـ وأمثال ذلك مما يطول تلخيصه وثم أنواع أخرى من آيات الإيمان بالله تعالى تغذي التوحيد وتصعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتأله والتوله في حبه من التنزيه والتقديس والتسبيح، وذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الأحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام الطهارة والنساء والإرث والأموال، وبحكم الخلق والتدبير لأمور العالم، وسننه في طباع البشر وفي شؤونهم الاجتماعية. ووضع كل اسم منها في الموضع المناسب له من رحمة وعلم وحكمة وقدرة ومشيئة وحلم وعفو ومغفرة وحب ورضا وما يقابل ذلك، ومن الأمر بالتوكل عليه والخوف منه والرجاء في فضله الخ وناهيك بما سرد منها سرداً لجذب

الأرواح العالية إلى كماله المطلق وفنائها فيه كما تراه في خاتمة سورة الحشر فتأملها، وفي فاتحة سورة الحديد ﴿سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ [الحديد: ١ ـ ٣] ومنها استمد الأولياء العارفون والأئمة الربانيون تلك الكتب العالية في معرفته تعالى وأسرار خلقه، بعد أن تربوا بكثرة ذكره، وتلاوة كتابه.

بهذا التكرار الذي جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولاً غير مملول طهر الله عقول العرب وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية، وزكاها بالأخلاق العالية والفضائل السامية، وكذا غير العرب ممن آمن بالله وأتقن لغة كتابه وصار يرتله في عبادته ويتدبر آياته، حتى إذا دب في الأمة دبيب الجهل بلغة القرآن وقل تدبره واعتمد المسلمون في فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة ضعف التوحيد واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع اعتقاداً وعملاً، وتأولاً وجدلاً، فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة على التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم كما هو مشاهد ومعلوم.

على أن بعض المتكلمين والصوفية قد بالغوا في التوحيد حتى أنكر بعضهم تأثير الأسباب في مسبباتها، وقال بعضهم بوحدة الوجود، وانتهى بهم ذلك إلى بدعة الجبر التي أفسدت على أهلها كل شيء، بيد أن الأولين منهم كانوا يقولون بما يهديهم إليه النظر العقلي، أو رياضة النفس وما تثمره من الشعور الوجداني، ثم خلف من بعدهم خلف من المقلدين لا حظ لهم من القرآن ولا من البرهان ولا من الوجدان، وإنما يتبعون العوام ويتأولون لهم بكلام أمثالهم من المصنفين الجاهلين. ولو فقهوا أقصر سورة في التوحيد والتنزيه كما يجب ـ وهي سورة الإخلاص ـ لما وجد الشرك إلى أنفسهم سبيلاً.

قد كان توحيد المسلمين الأولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذي زكى أنفسهم، وأعلى هممهم، وكملهم بعزة النفس، وشدة البأس، وإقامة الحق والعدل، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الأمم، وإعتاقها من رق الكهنة والأحبار والرهبان والبوذات والموبذانات الروحي والعقلي، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم، وإقامة دعائم الحضارة، وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من أمم الأرض، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعي الشهير: إن ملكة الفنون لم يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال، أولها جيل التقليد وثانيها جيل الخضرمة وثالثها جيل الاستقلال والاجتهاد ـ قال: إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول الذي بدؤا فيه بمزاولتها.

وأقول: إن سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد، وتوطين أنفسهم على إمامة البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معاً، وقد خفي كل هذا على سلائلهم بعد ذهاب الخلافة الإسلامية وزوال النهضة العربية وتحول السلطان إلى الأعاجم الذين لم يكن لهم من الإسلام إلا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن.

الركن الثاني من أركان الدين عقيدة البعث والجزاء

وأما الركن الثاني وهو الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال، فقد كان جل مشركي العرب ينكرونه أشد الإنكار، ولا يكمل الإيمان بالله تعالى ويكون باعثاً للأمة على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان بدونه، وكان أهل الكتاب وغيرهم من الملل التي كان لها كتب وتشريع ديني ومدني ثم فقدت كتبهم أو حرفت واستحوذت عليهم الوثنية يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء على الأعمال، ولكن إيمانهم هذا قد شابه الفساد ببنائه على بدع ذهبت بجل فائدته في إصلاح الناس، وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنين وخلف النصارى وجود المخلص الفادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه، وهو الأقنوم الثاني من الثالوث الإلهي الذي هو عين الأول والثالث، وكل واحد منهما عين الآخر. وكل ما يقوله النصارى في فداء المسيح للبشر وغير ذلك فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود في كرشنة في اللفظ والفحوى كما تقدم، لا يختلفان إلا في الاسمين كرشنة ويسوع.

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب إسرائيل ومحاباة الله تعالى له على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة ويسمونه إله إسرائيل كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية، فكان فساد الإيمان بهذا الركن من أركان الدين تابعاً لفساد الركن الأول وهو الإيمان بالله تعالى ومعرفته ومحتاجاً إلى الإصلاح مثله.

جاء القرآن للبشر بهذا الإصلاح، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول وهو ما كرم الله تعالى به الإنسان من جعل سعادته وشقائه منوطين بإيمانه وعمله، اللذين هما من كسبه وسعيه لا من عمل غيره، وأن الجزاء على الكفر والمعاصي يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شعب، والجزاء على الإيمان والأعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل، فالحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضعافاً كثيرة.

ومدار كل ذلك قاعدة قوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها

قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠] أي أن الله الذي خلق هذه النفس وسواها بما وهبها من المشاعر والعقل، قد جعلها بإلهام الفطرة والغريزة مستعدة للفجور الذي يرديها ويدسيها، والتقوى التي تنجيها وتعليها، ومتمكنة من كل منهما بإرادتها، والترجيح بين خواطرها ومطالبها، ومنحها العقل والدين يرجحان الحق والخير على الباطل والشر، فبقدر طهارة النفس وأثر تزكيتها بالإيمان ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال يكون ارتقاؤها في الدنيا وفي الآخرة، والضد بالضد. فالجزاء أثر طبيعي للعمل النفسي والبدني الذي يزكي النفس أو يدسيها ويدنسها، وهذا هو الحق الذي يثبته من عرف حقيقة الإنسان، وحكمة الديان، وهو مما أصلحه القرآن من تعاليم الأديان.

فإذا علمت ما كان من إنكار مشركي العرب للبعث والجزاء، ومن فساد إيمان أهل الكتاب وسائر الملل في هذه العقيدة، وعلمت أنها مكملة للإيمان بالله تعالى، وأن تذكرها هو الذي يقوي الوازع النفسي الذي يصد الإنسان عن الباطل والشر والظلم والبغي، ويرغبه في التزام الحق والخير وعمل البر ـ علمت أن ذلك ما كان ليفعل فعله العاجل في شعب كبير إلا بتكراره في القرآن بالأساليب العجيبة التي فيه من حسن البيان، وتقريب البعيد من الأذهان، تارة بالحجة والبرهان، وتارة بضرب الأمثال، وقد تكرر في آيات بينات، لعلها تبلغ المئات، ومن إعجازه أنها لا تمل ولا تسأم.

الإيمان بالبعث والجزاء وهو الركن الثاني في جميع الأديان، من لوازم الركن الأول وهو الإيمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال، المنزه عن العبث في أفعاله وأحكامه، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقوله: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠] فكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الإيمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه، وكفره بنعمته بخلقه في أحسن تقويم، وتفضيله على أهل عالمه الأرض حيث سخرها وكل ما فيها لمنافعه، وعلى كثير ممن خلق في عالم الغيب الذي وعده بمصيره إليه، وجهله بما وهبه من المشاعر والقوى والعقل، وجهله بحكمته في خلقه مستعداً لما ليس له حد ونهاية من العلم، الدال على أنه خلق لحياة لا حد لها ولا نهاية ـ ومن لوازم هذا الكفر والجهل كله، احتقاره لنفسه باعتقاده أنه خلق عبثا لا لحكمة بالغة، وأن وجوده في الأرض موقوف محدود بهذا العمر القصير المنغص بالهموم والمصائب والظلم والبغي والآثام، وأنه يترك سدى لا يجزى كل ظالم من أفراده بظلمه، وكل عادل

بعدله وفضله، وإذ كان هذا الجزاء غير مطرد في الدنيا لجميع الأفراد، تعين أن يكون جزاء الآخرة هو المظهر الأكبر للعدل العام.

ومما جاء في القرآن مخالفاً لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء أن الإنسان في الحياة الآخرة يكون إنساناً كما كان في الدنيا إلا أن أصحاب الأنفس الزكية والأرواح العالية يكونون أكمل أرواحاً وأجساداً مما كانوا بتزكية أنفسهم في الدنيا، وأصحاب الأنفس الخبيثة والأرواح السافلة يكونون أنقص وأخبث مما كانوا بتدسية أنفسهم في الدنيا، ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الأقدمين أن الأديان القديمة كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد.

ولو كان البعث للأرواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق المؤلف من روح وجسد، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجثمانية ويتحقق بحكم الله (جمع حكمة) وأسرار صنعه فيهما معاً، من حيث حرم الحيوان والنبات من الأولى والملائكة من الثانية، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد إلا لاحتقارهم للذات الجسدية وتسميتها بالحيوانية مع شغف أكثرهم بها، وإنما تكون نقصاً في الإنسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها حتى يصرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان ـ وأصل هذا الإفراط والتفريط غلو الهنود في احتقار الجسد وتربية النفس بالرياضة وتعذيب الجسد وتبعهم فيه نساك النصارى كما تبعوهم في عقيدة الصلب والفداء والتثليث على أنهم نقلو أن المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح وقال لهم: إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي (متى ٢٦: ٢٩) وجرى اليهود على عكس ذلك وجاء الإسلام باعتدال فأعطى الإنسان جميع حقوقه، وطالبه بما يكون بها كاملاً في إنسانيته.

وقد بينا كل ما يتعلق بهذه المسألة من جميع أطرافها العلمية والدينية وكشف شبهاتها في تفسير سورة الأنعام التي هي أجمع سور القرآن لمسائل الإيمان بالله وتوحيده والبعث والرسالة ودحض شبهات المشركين عليها (ج ٨ تفسير) ويؤخذ مما ورد من الأيات والأحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة أن القوى الروحية تكون هي الغالبة والمتصرفة في الأجساد فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة، والتخاطب بالكلام بين أهل الجنة وأهل النار ـ وأن ترقي البشر في علم الكيمياء وخواص الكهرباء والصناعات والآلات في عصرنا قد قرب كل هذا من حس الإنسان بعد أن كان الماديون الملحدون يعدون مثل قوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل

وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ [الأعراف: ٤٤] من تخيلات محمد صلوات الله وسلامه عليه ـ وها نحن أولاء نخاطب من مصر أهل عواصم أوروبة بآلة التلفون، ونسمع خطبهم ومعازفهم بآلة الراديو، وسنراهم ويروننا بآلة التلفيزيون مع التخاطب حينما يعم انتشارها.

وأما علماء الروح من الإفرنج وغيرهم فقد قرروا أن الأرواح البشرية قادرة على التشكل في أجساد تأخذها من مادة الكون كما يقول الصوفية. وهذه مسألة أو مسائل قد شرحناها من قبل في هذا التفسير وإنما نذكرها هنا بالإجمال رداً على من زعموا أن القرآن مستمد من كتب اليهود والنصارى ومن عقل محمد ﷺ وإلهاماته الروحية.

ويناسب هذا ما جاء في القرآن من نبأ خراب العالم وقيام الساعة التي هي بدء ما يجب الإيمان به من عقيدة البعث والجزاء ولم يوجد له أصل عند أهل الكتاب ولا غيرهم ولا هو مما يمكن أن يكون قد عرفه محمد ﷺ بذكائه أو نظرياته العقلية. وجملته أن قارعة ـ والظاهر أنها كوكب ـ تقرع الأرض وتصخها صخاً وترجها رجاً فتكون هباء (غباراً رقيقاً) منبثاً في الفضاء. وحينئذ يختل ما يسمى في عرف العلماء بالجاذبية العامة فتتناثر الكواكب الخ وهذا المعنى لم يكن يخطر ببال أحد من علماء الكون ولا من علماء الدين فلا يمكن أن يقال أن محمداً ﷺ سمعه من أحد في بلده أو في سفره، ولا يعقل أن يكون قاله برأيه وفكره، فهو من أنباء القرآن الكثيرة التي تدحض زعم القائلين بالوحي النفسي. وقد صرح غير واحد من علماء الهيئة الفلكية المعاصرين بأن خراب العالم بهذا السبب هو أقرب النظريات العلمية لخرابه.

الركن الثالث للدين العمل الصالح

وأما الركن الثالث من مقاصد بعثة الرسل وهو العمل الصلح فهو مكرر في القرآن في سور كثيرة لإصلاح ما أفسده البشر فيه بجعله تقليدياً غير مزك للنفس ولا مصلح لشؤون الاجتماع، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذي هو الأصل الذي يتبعه غيره، ولولا الحاجة إلى هذا التكرار في التذكير والتأثير لكانت سورة العصر كافية في الإصلاح العلمي العملي على قصرها، كسورة الإخلاص في الركن الأول الاعتقادي، وكل منهما تكتب في سطر واحد فهما من معجزات إيجاز القرآن وهدايته.

ثم إن العمل الصالح من لوازم الإيمان بالله في الدرجة الأولى لأن من عرف الله عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم، وهو من لوازم الإيمان بالجزاء على الأعمال في الدرجة الثانية خوفاً من العقاب ورجاء في الثواب.

ويدخل في الأعمال الصالحة العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، وسائر أعمال البر التي ترضيه بما لها من التأثير في صلاح البشر كبر الوالدين وصلة الرحم

وإكرام اليتامى والمساكين. ومن أصوله الوصايا الجامعة في آيات سورة الإسراء ﴿وقضى ربك﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى قوله: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ [الإسراء: ٣٩] الخ وهي أجمع وأعظم من الوصايا العشر التي في التوراة. وآيات سورة الأنعام ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ [الأنعام: ١٥١] الخ ـ وغير ذلك مما ينفع الناس من الحث على الفضائل والزجر عن الرذائل والمعاصي الضارة بالأبدان والأموال والأعراض والعقول والأديان، ومثارها الأكبر اتباع الهوى وطاعة وسوسة الشيطان ويضادهما ملكة التقوى فهي اسم جامع لما يقي النفس في كل ما يدنسها وتسوء به عاقبتها في الدنيا أو الآخرة، ولهذا تذكر في المسائل الدينية والزوجية والحربية وغيرها، وقد فصلنا هذا في (ج ٩ تفسير) ولا حاجة إلى التطويل بالشواهد على ما في القرآن منها وسنة القرآن في الأرشاد إلى الأعمال الصالحة بيان أصولها ومجامعها وتكرار التذكير بها بالإجمال، وأكثر ما يحث عليه من العبادات الصلاة التي هي العبادة الروحية العليا والاجتماعية المثلى، والزكاة التي هي العبادة المالية الاجتماعية الكبرى، كرر الأمر بهما في إيات كثيرة وبين أهم منافعهما بقوله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقوله: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم والذين يصدقون بيوم الدين﴾ [المعارج: ٢١ ـ ٢٦] الآيات وقوله: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ [التوبة: ١٠٣].

ولم يكرر ما يحفظ بالعمل والاقتداء بالرسول من أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج بل لم يذكر منها إلا لما لذكره فائدة خاصة. وذكرت فيه أحكام الصيام في موضع واحد، ولم يذكر فيه عدد الركعات في كل صلاة ولا عدد الركوع والسجود، ولا نصاب الزكاة في كل نوع مما تجب فيه. لأن كل هذا يؤخذ من بيان الرسل ويحفظ بالعمل وليس في ذكره تزكية للنفس ولا تغذية للإيمان.

ترجيح فضائل القرآن على فضائل الإنجيل.

وأذكر فضيلتين من فضائله يزعم النصارى أن ما هو مأثور عندهم فيها أكمل وأفضل مما جاء به الإسلام **الأولى**: قول المسيح عليه السلام: «أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى من أساء إليكم. ومن ضربك على خدك الإيمن فأدر له الأيسر» ومن المعلوم بالبداهة أن امتثال هذه الأوامر يتعذر على غير الأذلة المستعبدين من الناس، وأنه قد يكون من أكبر المفاسد بإغراء الأقوياء بالضعفاء الخاضعين، وإنك لتجد أعصى الناس لها من يسمون أنفسهم بالمسيحيين.

أمثال هذه الأوامر لا تأتي في دين الفطرة العام لأن امتثالها من غير المستطاع،

والله تعالى يقول: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة: ٢٨٦] وإنما قرر القرآن في موضوعها الجمع بين العدل والفضل والمصلحة. قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [الشورى: ٤٠ ـ ٤٣] ولا يخفى أن العفو والمغفرة للمسيء إنما تكون من القادر على الانتصار لنفسه، وبذلك يظهر فضله على من عفا عنه، فيكون سبباً لاستبدال المودة بالعداوة، في مكان الإغراء بالتعدي ودوام الظلم، ولذلك قال: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ [فصلت: ٢٤، ٢٥] فانظر كيف بين مراتب الكمال ودرجاته من العدل والفضل، وكيف استدل عليه بما فيه من المصلحة وحكم العقل، أفليس هذا الإصلاح الأعلى على لسان أفضل النبيين والمرشدين، دليلاً على أنه وحي من الله تعالى قد أكمل به الدين؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين، ولا يجحده إلا من سفه نفسه فكان من الجاهلين.

الثانية: مبالغة المسيح عليه السلام في التزهيد في الدنيا والأمر بتركها وذم الغنى حتى جعل دخول الجمل في ثقب الإبرة أيسر من دخول الغني ملكوت السماوات. ونقول إن هذه المسألة وسابقتها إنما كانتا إصلاحاً موقتاً لإسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم وآثروا دنياهم على دينهم والغلو يقاوم موقتاً بضده، وكذلك كانت دولة الرومان السالبة لاستقلال اليهود وغيرهم دولة مسرفة في الظلم والعدوان.

وأما الإسلام فهو دين البشر العام الدائم فلا يقرر فيه إلا ما هو لمصلحة الناس كلهم في دينهم ودنياهم. وهو في هذه المسألة ذم استعمال المال فيما يضر من الإسراف والطغيان، وذم أكله بالباطل ومنع الحقوق المفروضة فيه والبخل به عن الفقراء والضعفاء ـ ومدح أخذه بحقه وبذله في حقه، وإنفاقه في سبيل الله بما ينفع الناس ويعز الملة ويقوي الأمة، ويكون عوناً لها على حفظ حقيقتها واستقلالها ـ فهذه المسألة وما قبلها مما أكمل الله تعالى به الدين، فيما أوحاه من كتابه إلى محمد رسول الله وخاتم النبيين، وما كان لرجل أمي ولا متعلم أن يصل بعقله إلى أمثال هذا الإصلاح لتعاليم الكتب السماوية التي يتعبد بها الملايين من البشر، ولكتب الحكماء والفلاسفة أيضاً، فهل الأقرب إلى العقل أن يكون بوحي من الله عز وجل أم من نفس محمد ﷺ.

وعلى ذكر الفلاسفة أذكر شبهة لمقلدتهم على الفضائل وعمل الخير الدينية

يلوكونها بألسنتهم ولا يعقلون فسادها، وهي أن الكمال البشري أن يعمل الإنسان الخير لذاته أو لأنه خير لا لعلة، ويعدون من أكبر العلل أن يعمله رجاء في ثواب الآخرة أو خوفاً من عقابها، ومعنى هذا إن كانوا يفقهون أن من يقصد بعمل الخير والبر ما أرشد إليه الإسلام من تزكية نفسه وترقية روحه بحيث تكون راضية مرضية عند رب العالمين ذي الكمال المطلق الأعلى ـ وأهلاً لجواره في دار كرامته يكون ناقصاً، وإنما يكون كاملاً إذا خرج عن طبعه، وقصد النفع بعمله لغيره دون نفسه، ودون إرضاء ربه، ومن ذا الذي يحد حقيقة هذا الخير للبشر ويحملهم عليه؟

وجملة القول إن أركان الدين الثلاثة مأثورة عن جميع الأمم القديمة وذلك دليل على أن أصلها واحد وهو الوحي وهداية الرسل، وأنه كان قد دب إليها الفساد بتعاليم الوثنية وبدعها، فجاء محمد النبي الأمي بهذا القرآن من عند الله تعالى فأصلح ما كان من فسادها الذي جعلها غير كافلة لسعادة البشر الآخذين بها، من شوب الإيمان بالشرك والتشبيه بالخلق، وجعل الجزاء بالمحاباة والفداء، لا بالحق والعدل، وجعل العبادات تقاليد كاللعب واللهو، غير مثمرة لتزكية النفس، ولا راجحة في ميزان العقل، وعبادات الإسلام وآدابه كلها معقولة مكملة لفطرة الإنسان.

وإننا نقفي على هذا ببيان القرآن لما جهله البشر من أمر النبوة ووظائف الرسل. ثم نعود إلى بيان ما في وحي القرآن من قواعد الإصلاح العام الدائم للبشر الدال على كونه من عند الله لا من معارف محمد ﷺ النابعة من نفسه.

المقصد الثاني من مقاصد القرآن

بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل

كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا أفراداً من بقايا الحنفاء في الحجاز وغيره ومن دخل في اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلهما وقليل ما هم، وكانت شبهة مشركي العرب وغيرهم على الوحي استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم، وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص تعالى بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب إسرائيل وحده، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما أعطاه لليهود من هداية النبوة على أنهم وصفوا الأنبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته وارتكاب كبائر المعاصي كما تقدم في القسم الأول من هذا البحث، ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم، وأثبتوا قداسة غير الأنبياء من رسل المسيح وغيرهم وعبدوهم أيضاً، على أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكاره إياه في وقت الشدة، وعن بعضهم أنه أسلمه لأعدائه، وأنه قال

لهم «كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة» واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقسوسهم أرباباً من دون الله تعالى بأن نحلوهم حق التشريع الديني من وضع العبادات والتحليل والتحريم وكل ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله، وعموم رحمته وفضله، ومفسدات نوع الإنسان، وجعل السواد الأعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين، وأثبت بعثة الرسل والمنذرين لجميع شعوبه بقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ [النحل: ٣٦] وقوله: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر: ٢٤] وكرم الإنسان بجعل التشريع الديني من حقوق الله وحده، وإنما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الأقوام وطاعتهم تابعة لطاعته فقد أبطل ما نحلهم الناس من ربوبية التشريع، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين، وبذلك تحرر الإنسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الأمم المتدينة ولا سيما النصارى.

ولضلال جميع أهل الملل والنحل في ذلك كرر هذا الإصلاح في كثير من السور بالتصريح بأن الرسل بشر مثل سائر البشر يوحى إليهم، وبأنهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى إليهم، قال تعالى لخاتمهم المكمل لدينهم في خاتمة سورة الكهف ﴿قل إنما بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد﴾ [الكهف: ١١٠] الآية وقال في جملتهم من وسطها ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ [الكهف: ٥٦] ومثلها في سورة الأنعام (٤٨) وفي معناهما آيات أخرى ـ بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل والتنفيذ، وبأنهم لا يملكون للناس ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا هداية ولا نجاة من العقاب على مخالفة شرع الله وسننه في خلقه في الدنيا ولا في الآخرة. وقد شرحنا ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ [الإسراء: ١٨٧] وسيأتي نظيرها في الآية (٤٩) من هذه السورة التي نفسرها، وقد بين ذلك النبي ﷺ بأقواله وأعماله وأخلاقه في العبودية والتواضع بما لا يدع لتأويل الآيات سبيلاً. حتى فطن لذلك بعض علماء الإفرنج الأحرار فقال إن محمداً لما رأى خزي النصارى بتأليه نبيهم وعبادته لم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم بأن يقولوا: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

وأما مسألة الشفاعة التي كان مشركوا العرب يثبتونها لمعبوداتهم في الدنيا وأهل الكتاب يثبتونها لأنبيائهم وقديسيهم في الدنيا والآخرة فقد نفاها القرآن وأبطلها وأثبت أن الشفاعة لله جميعاً وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم

ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إلٰه من دونه فذلك نجزيه جهنم، كذلك نجزي الظالمين﴾ [الأنبياء: ٢٨، ٢٩] وقد فصلنا ذلك في تفسير سورة البقرة وغيره مراراً (ومنه أن الشفاعة الثابتة في الأحاديث غير الشفاعة الوثنية المنفية في القرآن). وقد كرر هذه المسألة دون تكرار ما قبلها لأنها فرع لها فالاقناع بها أسهل.

فأنت ترى أن القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التي ضل فيها الملايين من البشر فأشركوا بالله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، فهل كان هذا مما استمده محمد ﷺ من علماء أهل الكتاب فجادوا به عليه وبخلوا به على أقوامهم؟ أم هو تابع من نفسه وهو يقتضي أن ما ينبع منها أعلى من وحي الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل؟ كلا إنما هي من وحي الله تعالى له.

الإيمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم.

ومما بينه القرآن في مسألة الأنبياء والرسل أنه يجب الإيمان بجميع رسل الله تعالى وعدم التفرقة بينهم في الإيمان، وأن الإيمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم، لأن إضافتهم إلى الله تعالى وحده ووظيفتهم في إرشاد المكلفين تبليغ رسالته وشرعه واحدة. قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. لا نفرق بين أحد من رسله﴾ [البقرة: ٢٨٥] وبين في سورة النساء أن التفرقة بينهم في الإيمان هو الكفر حق الكفر، وأن الإيمان بالجميع بغير تفرقة هو الإيمان حق الإيمان وهو في الآيات (٤: ١٥٠ ـ ١٥٢) وهذا مبني على الإيمان بأن دين الله تعالى الذي أرسل به جميع رسله واحد في مقاصده من هداية البشر وإصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخر، وإنما تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الأقوام ومقتضيات الزمان والمكان. فالإيمان ببعضهم دون بعض اتباع للهوى في الإيمان وجهل بحقيقة الدين فلا يعتد به لأنه عين الكفر.

وقد انفرد بهذه الحقيقة العادلة المسلمون دون أهل الكتاب الذين لا يؤمنون إلا بأنبياء بني إسرائيل وأبيهم وجدهم على ما يذكرون في كتبهم من عيوب ومنكرات وفواحش يرمونهم بها.

وأما المسلمون فيؤمنون بأن رب العالمين أرسل في كل الأمم رسلاً هادين مهديين يؤمنون بهم إجمالاً وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلاً، فقد كرم الإسلام بهذا نوع الإنسان، ومهد به السبيل للإلفة والأخوة الإنسانية العامة التي نبينها بعد.

ومن المعلوم ببداهة العقل وبنص القرآن أن بعض الأنبياء أفضل من بعض بتخصيص الله تعالى وبما كان لكل من نفع العباد وهدايتهم وهي متفاوتة جداً. قال الله

تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ [البقرة: ٢٥٢].

ومن المعلوم بالدلائل العقلية والنقلية أن محمداً خاتم النبيين الذي أكمل الله به الدين، وأرسله رحمة للعالمين، هو الذي رفعه الله عليهم كلهم درجات كما بيناه في تفسير تلك الآية بالإجمال وفصلناه في هذا البحث أقصد التفصيل.

وإنك لتجد مع هذا أنه ﷺ قال لأتباعه «لا تفضلوا بين أنبياء الله» قاله إنكاراً على رجل من المسلمين لطم يهودياً لأنه قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر. فشكاه إلى النبي ﷺ فغضب غضباً شديداً على صاحبه المسلم وقاله ـ وبين مزية لموسى عليهما الصلاة والسلام في الآخرة ثم قال: ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى»[(١)] والحديث رواه الشيخان في الصحيحين وفي روايات أخرى للبخاري «لا تخيروا بين الأنبياء»[(٢)] وفي بعضها «لا تخيروني على موسى»[(٣)] والغرض من ذلك كله منع المسلمين من تنقيص أحد من الأنبياء عليهم السلام ومن التعادي بين الناس ومن الغلو فيه ﷺ وإلا فهو قد قال في تعليل نهيه عن سؤال أهل الكتاب عن شيء «والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني» رواه أبو يعلى من حديث جابر.

فصل في الآيات الكونية التي أيد الله بها رسله وما يشبه بعضها من الكرامات، وما يشتبه بها من خوارق العادات، وضلال الماديين والخرافيين فيها

تكلمنا في القسم الأول من هذا البحث في آيات الأنبياء التي تسميها النصارى بالعجائب ويسميها علماء الكلام منا بالمعجزات، ويعدونها قسماً من خوارق العادات التي جعلوها عدة أقسام، ونقول هنا كلمة وجيزة في إصلاح الإسلام لضلال البشر فيها، والصعود بهم أعلى مراقي الإيمان، اللائق بطور الرشد العقلي لنوع الإنسان، والعلم الواسع بسنن الأكوان، الذي منحوه برسالة محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، فنقول:

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٣٥، ومسلم في الفضائل حديث ١٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في الخصومات باب ١، والديات باب ٣٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٣، وأبو داود في السنة باب ١٣، وأحمد في المسند ٣/ ٣١، ٣٣.

(٣) أخرجه البخاري في الخصومات باب ١، والأنبياء باب ٣١، وتفسير سورة ٧، باب ٢، والرقاق باب ٤٣، والتوحيد باب ٣١، ومسلم في الفضائل حديث ١٦٠، وأبو داود في السنة باب ١٣، وأحمد في المسند ٢/ ٦٤.

آيات الله نوعان.

آيات الله تعالى في خلقه نوعان: **النوع الأول:** الآيات الجارية في سننه تعالى في نظام الخلق والتكوين وهي أكثرها وأظهرها وأدلها على كمال قدرته وإرادته، وإحاطة علمه وحكمته، وسعة فضله ورحمته، **النوع الثاني:** الآيات الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر وهي أقلها وربما كانت أدلها عند أكثر الناس على اختياره عز وجل في جميع ما خلق وما يخلق، وكون قدرته ومشيئته غير مقيدتين بسنن الخلق التي قام بها نظام الكون، فالسنن مقتضى حكمته وإتقانه لكل شيء خلقه، وقد يأتي بما يخالفها لحكمة أخرى من حكمه البالغة، ولولا هذا الاختيار لكان العالم كالآلات التي تتحرك بنظام دقيق لا علم لها ولا إرادة ولا اختيار فيه، كآلة الساعة الصغيرة التي تعرف بها أوقات الليل والنهار، وآلات البواخر والمعامل الكبيرة، والماديون المنكرون لوجود الخالق والفلاسفة الذين يسمونه العلة الفاعلة للوجود يعبرون عن هذا النظام بنظرية (الميكانيكية) وهم يتكلفون اختراع العلل والأسباب لكل ما يرونه مخالفاً لسننه المعروفة، ويسمون هذه الأمور المخالفة لها بفلتات الطبيعة، ويقيسون ما لم يظهر لهم تعليله على ما اقتنعوا بتعليل له وأن لم يقم عليه دليل يثبته، ويقولون إن ما لم يظهر لنا اليوم فلا بد أن يظهر لنا أو لمن بعدنا غداً.

سنن الله في عالم الشهادة وعالم الغيب.

ونحن معشر المؤمنين بعالم الغيب وما فيه من الملائكة وهم جند الله الأكبر، وما لهم من التأثير والتدبير في عالم الشهادة المادي بإذن الله تعالى وتسخيره نعتقد أن لله تعالى سنناً في نظام ذلك العالم غير سننه الخاصة بعالم المادة، وأن الإنسان هو حلقة الاتصال بين العالمين فجسده ووظائفه الحيوية من عالم الشهادة وروحه من عالم الغيب، وأنه ما دام في عالم الجسد المادي فإن جميع مداركه تكون مشغولة من المادة وسننها وحاجاته الشخصية والنوعية منها بما يحجبه عن عالم الروح الغيبي حتى روحه المتمم لحقيقته، وإنما يكون الظهور والسلطان للروح على الجسد في الحياة الآخرة، إلا من اصطفى الله تعالى من رسله وأنبيائه فأعدهم بفضله ورحمته للاتصال بملائكته والتلقي عنهم، وأظهرهم على ما شاء من غيبه ليبلغوا عباده عنه ما أمرهم به.

الغيب قسمان حقيقي وإضافي.

الغيب ما غاب علمه عن الناس وهو قسمان: غيب حقيقي لا يعلمه إلا الله، وغيب إضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض لأسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطري والعمل الكسبي، ومن أظهره الله على بعض الغيب الحقيقي من رسله فليس لهم في ذلك كسب لأنه من خصائص النبوة غير المكتسبة.

ومن دونهم أفراد من خواص أتباعهم أوتوا نصيباً من الإشراف على ذلك العالم بانكشاف ما للحجاب، وإدراك ما لشيء من تلك الأنوار، كان بها إيمانهم برسلهم فوق إيمان أهل البرهان، وقد روي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أنه قال: لو كشف الحجاب ما ازددت يقيناً.

ومن دون هؤلاء أفراد آخرون قد يكون لهم من سلامة الفطرة، أو معالجة النفس بأنواع من الرياضة، أو من طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد، أو من سلطان إرادة قوية على إرادة ضعيفة، تصرفها عن حسها، وتوجه قواها النفسية إلى ما شاءت أن تدركه لقوتها الخاصة بها ـ قد يكون لهؤلاء الأفراد في بعض الأحوال من قوة الروح ما يلمحون به بعض الأشياء أو الأشخاص البعيدة عنهم، وتتمثل لهم بعض الأمور قبل وقوعها مرتسمة في خيالهم، فيخبرون بها فتقع كما أخبروا.

الخوارق الحقيقية والصورية عند الأمم.

إن الأمور التي تأتي في الظاهر على غير السنن المعروفة، أو الخارقة للعادات المألوفة، منقولة عن جميع الأمم في جميع العصور نقلاً متواتراً في جنسه دون إفراد وقائعه، وليست كلها خوارق حقيقية، فإن منها ما له أسباب مجهولة للجمهور، وإن منها لما هو صناعي يستفاد بتعليم خاص، وإن منها لما هو من خصائص قوى النفس وتأثير أقوياء الإرادة في ضعفائها، ويدخل في هذين المكاشفة في بعض الأمور يؤثر فيها الاعتقاد والوهم، ومنها بعض أنواع العمى والفالج، فإن من الناس من يفقد بصره بمرض يطرأ على أعصاب عينيه وهما صحيحتان تلمعان في وجهه، أو يغشاهما بياض عارض مع بقاء طبقاتهما صحيحة، وليس منه الكمه والعمى الذي يقع بطمس العينين وغؤورهما كالذي أبرأه المسيح عليه السلام بإذن الله تعالى. وقد بينا هذه الأنواع من الخوارق الصورية في بحث السحر من تفسير سورة الأعراف وفي المقالات التي عقدناها للكرامات وأنواعها وتعليلها في المجلد الثاني من المنار وأتممناها في المجلد السادس منه.

إن عوام الشعوب الذين يجهلون تواريخ الأمم وما وجد عند كل منها من هذه الغرائب وما كشفه العلماء من حيل فيها وعلل يغترون بما عندهم منها، ويخضعون للدجالين والمحتالين الذين ينتحلونها، ويمكنونهم من أموالهم فيسلبونها، ويأتمنونهم على أعراضهم فينتهكونها، ولا سيما إذا كانوا ما يأتون منها على أنه من كرامات الأولياء وعجائب القديسين، ويقل تصديق هذا والانقياد لأهله حيث ينتشر تعليم التواريخ وما عند جميع الأمم من ذلك، على أنه لا يزال كثيراً في جميع بلاد أوروبة

وأمريكة ولعله دون ما في بلاد الشرق ولا سيما القرى وهمج الزنوج وغيرهم بيد أن آيات الله الحقيقية التي نسميها المعجزات هي فوق هذه الأعمال الصناعية الغريبة لا كسب لأحد من البشر ولا صنع لهم فيها، وإن ما أيد به رسله منها لم يكن بكسبهم ولا عملهم ولا تأثيرهم، حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية يأمرهم الله تعالى بها. ألم يهد لك كيف خاف موسى عليه السلام حين تحولت عصاه حية تسعى، فولى مدبراً ولم يعقب لشدة خوفه منها، حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه؟ أو لم تقرأ قوله لمحمد ﷺ ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى؟﴾ [الأنفال: ١٧] أو لم تفهم ما أمره الله تعالى أن يجيب مقترحي الآيات عليه من قومه بقوله: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ [الإسراء: ٩٣] وقوله: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ [الأنعام: ١٠٩] وما في معناهما.

جهل هذا الأصل المحكم من عقائد الإسلام أدعياء العلم من سدنة القبور المعبودة وغيرهم فظنوا أن المعجزات والكرامات أمور كسبية كالصناعات العادية، وأن الأنبياء والصالحين يفعلونها باختيارهم في حياتهم وبعد مماتهم متى شاؤوا، ويُغرون الناس بإتيان قبورهم ولو بشد الرحال إليها لدعائهم والاستغاثة بهم عند نزول البلاء والشدائد التي يعجزون عن دفعها بكسبهم وكسب أمثالهم من البشر بالأسباب العادية كالأطباء مثلاً، وبالتقرب إليهم بالنذور والقرابين كما كان المشركون يتقربون إلى آلهتهم من الأصنام وغيرها، وهم يأكلونها سحتاً حراماً، ويخبرونهم بأن دين الله تعالى يأمرهم أن يعتقدوا أنهم يقضون حوائجهم، حتى قال بعضهم أنهم يخرجون من قبورهم بأجسادهم ويتولون قضاء الحاجات، وكشف الكربات، ولو كانت كذلك لما كانت من خوارق العادات. وقال بعضهم في كتاب مطبوع إن فلاناً من الأقطاب يميت ويحيي، ويسعد ويشقي، ويفقر ويغني.

الفرق بين المعجزة والكرامة

إن الله تعالى لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات إلا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهدي بها المستعد للهداية، وتحق بها الكلمة على الجاحدين المعاندين فتقع عليهم العقوبة، وذلك لا يكون إلا بإظهارها فهو واجب لإتمام تبليغ الدعوة التي أرسلوا لتبليغها، وما كان الأنبياء يدعون الله تعالى بشيء من خوارق العادات غير حجة الرسالة إلا لضرورة كالاستسقاء وكان خاتمهم وأكرمهم على الله تعالى يصير هو وأهل بيته وأصحابه على المرض والجوع والعطش ولا يدعو لهم ﷺ بما يزيل ذلك إلا نادراً، وقد سألته المرأة التي كانت تصرع أن يدعو الله لها بالشفاء فأرشدها إلى أن الصبر على مصيبتها خير لها. فشكت إليه أنها تتكشف عند النوبة وأن يدعو لها ألا تتكشف فدعا لها واستجاب الله دعاءه والأصل في الكرامة الإخفاء والكتمان، وكثيراً

ما يكون ظهورها فتنة للناس، وما كان أهلها يظهرون ما لهم كسب فيها منها كالمكاشفة إلا لضرورة، وقد صرح بهذا العلماء والصوفية فهو متفق عليه بينهم خلافاً للمشهور بين العامة.

قال التاج السبكي في سياق حجج منكري جواز وقوع الكرامات من طبقات الشافعية.

الحجة الثانية: قالوا لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة، فلا تدل المعجزة على ثبوت النبوة. والجواب منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوة النبوة دون الكرامة فهي إنما تقترن بكمال اتباع النبي من الولي ـ وأيضاً فالمعجزة يجب على صاحبها الاشتهار، والكرامة مبناها على الإخفاء، ولا تظهر إلا على الندرة والخصوص، لا على الكثرة والعموم، وأيضاً فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات، والكرامة تختص ببعضها كما بيناه من كلام القشيري وهو الصحيح اهـ ثم قال.

الحجة الرابعة: قالوا لو جاز ظهور خوارق العادات على أيدي الصالحين لما أمكن أن يستدل على نبوة الأنبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن تظهر على يدي الولي سراً فإن من أصول معظم جماعتكم أن الأولياء لا يظهرون الكرامات ولا يدعون بها، وإنما تظهر سراً وراء ستور، ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس، ويكون ظهورها سراً مستمراً بحيث لا يلتحق بحكم المعتاد، فإذا ظهر نبي وتحدى بمعجزة جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات فلا يتحقق في حقه خرق العادة فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد في حقه؟ وأيضاً تكرر الكرامة يلحقها بالمعتاد في حق الأولياء وذلك يصدهم عن تصحيح النظر في المعجزة إذا ظهر نبي في زمنهم».

وقال في الجواب: لأئمتنا وجهان الأول منع توالي الكرامات واستمرارها حتى تصير في حكم العوائد وإنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة فلا يلزم ما ذكروه. والثاني ـ وهو لمعظم أئمتنا ـ قالوا إنه يجوز توالي الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يعتاد لئلا تخرج الكرامات عن كونها كرامات اهـ من مجلد المنار الثاني.

وأقول: إن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والأصول على منع توالي الكرامات وتكرارها، ومنع إظهارها، وقال الشيخ محيي الدين بن عربي إن ما يتكرر لا يكون كرامة لأنه يكون عادة وإنما الكرامة من خوارق العادات، وقال الشيخ أحمد الرفاعي إن الأولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض، فأين هذه الأقوال مما عليه الدجالون الخرافيون وسدنة القبور المعتقدة من زعمهم أن

الكرامة الواحدة تتكرر لأولياء كثيرين من الأحياء والأموات مراراً كثيررة وكلها ظاهرة ذائقة شائعة، بل صناعة ذات بضاعة رابحة؟

الكافرون بالآيات صنفان: مكذبون ومشركون وعلاج كل منهما:

الكافرون بآيات الله تعالى صنفان: صنف يكذبها كلها ولا يؤمنون بشيء منها، وصنف يشرك بالله غيره فيها، فينحله ما هو خاص به عز وجل لا يقدر عليه سواه، ويشرع للناس أن يعبدوا هؤلاء الأغيار بدعائهم من دونه واستغنائهم فيما لا يقدر عليه غيره، بدعوى أن الله تعالى هو الذي أعطاهم القدرة الغيبية على ذلك لمحبته لهم وجاههم عنده، ومعناه أنه سبحانه هو الذي أشركهم معه فأعطاهم هذا التصرف في عباده، وإنما يتحامون ألفاظ العبادة والشرك والخلق دون معانيها، فيكذبون على الله تعالى وعليهم بما يكذبهم به كتابه المنزل، ونبيه المرسل، ولكنهم يحرفون آيات الكتاب فيحتجون بها على جهلهم، فيذكرون أن الله كان يرزق مريم عليها السلام بغير حساب، وما كان رزقها من فعلها، ولا يدري أحد كيف سخره الله لها، وروي إنه كان بتسخير بعض الناس ـ لها، ووحيه إلى أم موسى وما هو من فعلها. وقد قيل بنبوتها وإن إفساد هؤلاء الخرافيين للبشر في دينهم ودنياهم لأشد من إفساد المنكرين للآيات المكذبين بها، بأنهم أكبر أسباب هذا الإنكار والتكذيب بزعمهم أن الأنبياء ومن دونهم من الصالحين يتصرفون في الخلق بما يخالف سنن الله تعالى فيه أو يبدلها بغيرها ويحولها عما وضعت له، وزعمهم أن الله هو الذي دعا الناس إلى هذا الاعتقاد وجعله أساس دينه فكذبوا بالدين من أساسه، فتكون فتنتهم شاملة لفريقي الكفار بالآيات ـ فريق المكذبين وفريق المشركين، وهو مع هذا قول على الله بغير علم، وافتراء على الله بكونه شرعاً لم يأذن به الله، وهو أشد أنواع الكفر بالله، لأن ضرره متعد بما فيه من إضلال الناس باعتقاد باطل يتبعه عبادة باطلة غير مشروعة.

علاج خرافة تصرف الأولياء في الكون

أما الذين يشركون بالله في عبادته بجهلهم لآياته وتقليد أمثالهم من الجاهلين في خرافاتهم، فلا علاج لهم إلا تعليمهم توحيد الله الخالص في ربوبيته وألوهيته بآيات القرآن، دون نظريات كتب الكلام، وتعليمهم وظائف الرسل وكونهم بشراً اختصهم الله تعالى بوحيه لتبليغ عباده ما ارتضاه لهم من الدين بالقول والعمل، وحصر اختصاصهم بالتعليم والإرشاد تبشيراً وإنذاراً، وتنفيذ أحكام شرعه فيهم بالعدل والمساواة ولم يؤتهم من التصرف الفعلي في خلقه ما يقدرون به على هداية أقرب الناس وأحبهم إليهم بالطبع كالوالد والولد والزوجة ومن دونهم من أولي القربى، فوالد إبراهيم الخليل عاش كافراً ومات كافر عدواً لله، ورسوله وخليله، وولد نوح أول الرسل إلى الأمم مات كافراً ولم يأذن الله تعالى له بحمله في السفينة فكان من

الكافرين المغرقين، وكان أبو لهب عم محمد حبيب الله ورسوله أشد أعدائه الصادين عنه المؤذين له، وأنزل الله في ذمه ووعيدة سورة من القرآن يتعبد بها المؤمنون إلى يوم القيامة لم ينزل مثلها في أحد من أعدائه وأعداء رسوله ﷺ بل كان من كمال حكمة الله تعالى أن عمه الذي كفله ورباه وكف عنه أذى المشركين ما استطاع لم يؤمن به وقد عرض عليه أن ينطق بكلمة «لا إله إلا الله» ليشهد له بها يوم القيامة فامتنع فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص: ٥٦] رواه مسلم في صحيحه، وقد شرحنا هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ [الأنعام: ٧٤] الآيات ثم بينا في خلاصة هذه السورة (الأنعام) وظائف الرسل عليهم السلام بما يحسن أن يراجعه من يحب استيفاء هذا الموضوع وإذا كان الأنبياء المرسلون لم يؤتوا القدرة على التصرف في الكون فكيف يؤتاه الأولياء وغيرهم.

المنكرون للمعجزات وشبهة الخوارق الكسبية عليها

وأما المنكرون لها فلا يمكن أن تقوم عليهم الحجة إلا بالقرآن كما تقدم، فهم لا يصدقون ما ينقله اليهود والنصارى من آيات موسى وعيسى وغيرها من النبيين عليهم السلام ولا يسلمون صحة تواترها، إذ يقيسون نقلهم لها على ما ينقله العوام في كل عصر عن بعض المعتقدين في بلادهم من الخوارق الخادعة التي مثارها الوهم والتخيل، ويحتجون على ذلك بأن يوسيفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للمسيح عليه السلام لم ينقل للناس أخبار عجائبه التي تقصها الأناجيل التي ألفت بعده، ويعللونها على تقدير صحة النقل بما يعللون بها الخوارق الصورية التي يشاهدونها في كل عصر، فإن لم يستطيعوا تعليلها قالوا إنه لا بد لها من سبب كسبي يظهر لنا أو يعترف به فاعلوها كما وقع في أمثالها من صوفية الهندوس (الفقراء) كالارتفاع في الهواء وغير ذلك مما هو أغرب منه.

روت إحدى الجرائد المصرية في هذه الأيام[1] من أخبار سائحي الإفرنج في الهند حادثة لفقير من هؤلاء الفقراء اسمه سارجو هاردياس وقعت في سنة ١٨٢٧ خلاصتها أن هذا الفقير جاء قصر المهراجا رانجيت سنجا أمير بنجاب وعرض عليه أن يريه بعض كراماته، وكان المهراجا لا يصدق ما ينقل من خوارق هؤلاء الفقراء فسأله عما يريد إظهاره فقال أنه يدفن أربعين يوماً ثم يعود إليه حياً، فأحضر المهراجا نفراً من أطباء الإنكليز والفرنسيس وأمراء بنجاب فجلس الفقير القرفصاء أمامهم فكفنوه بعد أن وضعوا القطن والشمع على أذنيه وأنفه ـ كما أوصاهم ـ وخاطوا عليه الكفن

(١) هي جريدة الاتحاد (المؤلف).

ووضعوه في صندوق من الخشب السميك وسمروا غطاءه ووضع المهراجا عليه ختمه، ودفنوه في قبو داخل حجرة صغيرة في حديقة القصر وأقفلوا بابها ووضع المهراجا ختمه بالشمع على قفلها، وأمر اثنين من رجال حرسه الأمناء بحراستها وطائفة من جنده بمعاونتهما، وكان ذلك كله بمشهد من حضر من الأوربيين والبنجابيين وحاشية المهراجا.

ولما تمت الأربعون حضر هؤلاء كلهم قصر المهراجا وشاهدوا ختم الحجرة كما كان، والعشب أمامها في الحديقة لم تطأه قدم أحد، ثم فتحوا باب الحجرة وامتحنوا أختام القبو ثم أخرجوا الصندوق وامتحنوا أختامه فوجدوها كلها على حالها ففتحوه وأخرجوا الفقير منه فإذا هو كما وصفه أحد أولئك من الإنجليز. قال:

لما فتحوا الصندوق وأخرجوا الفقير منه وجدت الذراعين والساقين صلبة والرأس مائلاً على إحدى الكتفين فخلتني أمام جثة هامدة فارقتها الحياة منذ أمد بعيد، فطلبت من طبيبي أن يفحصها فانحنى عليها وجس القلب والصدغين والذراعين وقال إنه لم يجد أثراً للنبض ألبتة ولكنه شعر بحرارة في منطقة الدماغ الخ.

ثم نفذ ما أوصى الفقير أن يعمل بعد إخراجه فغسل الجسم بالماء الحار فرد على الأوصال لينها السابق بالتدريج، وأزيل القطن والشمع عن الأذنيين والأنف ووضعت أكياس دافئة على الرأس فدبت الحياة في الجسد المسجى، وتقلصت الأعصاب والأطراف ثم اضطربت فسال منها عرق غزير وعادت الأعضاء إلى حالتها الأولى، وبعد دقائق اتسعت حدقتا العينين وعاد إليهما لونهما الطبيعي، فلما رأى الفقير المهراجا شاخصاً إليه دهشاً متحيراً قال له: «أرأيت يا مولاي صدق قولي وفعلي؟ وبعد نصف ساعة خرج من التابوت وأنشأ يحدث الحاضرين أحسن حديث ويطرفهم بما حيير العقول. اهـ.

إن هذه الحادثة من آيات الله التي أظهرتها الرياضة المكتسبة، وهي أعجب من رواية الإنجيل لموت ليعازر ثم حياته بدعاء المسيح بعد أربعة أيام كما تقدم في بحث عجائبه عليه السلام وأغرب من حادثة أصحاب الكهف أيضاً من بعض الوجوه فإن الفقير الهندي قد سد أنفه ولف في كفن ووضع في تابوت دفن تحت الأرض فحيل بينه وبين الهواء الذي لا يعيش أحد بدونه عادة، وأهل الكهف ناموا في فجوة واسعة من كهف بابه إلى الشمال مهب الهواء اللطيف وكانت الشمس تصيب مدخله من جانبيه عند شروقها وعند غروبها مائلة متزاورة عنهم، فتلطف هواءه من حيث لا تصيبهم، وإنما كان أكبر الغرابة في نومهم طول مدة لبثتهم فيه، وكانت طويلة جداً حتى على نقل البيضاوي وغيره من المفسرين أن قوله تعالى: ﴿ولبثوا في كهفهم

ثلاثمائة سنين﴾ [الكهف: ٢٥] الآية ـ حكاية عن بعض المختلفين في أمرهم فإن كان خلاف ظاهر السياق فقد يقويه قوله تعالى في الآية بعدها ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ [الكهف: ٢٦] والله أعلم بكل حال على كل حال، وإن خفي سر آياته على خلقه ولا شيء من الأمرين بمحال. وقد نام بعض أهل العصر بمرض النوم عدة أشهر.

ولكن ما جرى للفقير الهندي مخالف لسنة الحياة العامة في الناس فإذا ثبت أنه وقع بطريقة كسبية من طرائق رياضة هؤلاء الصوفية لأبدانهم وأنفسهم بما تبقى به الحياة كامنة في أجسادهم مثل هذه المدة الطويلة مع انتفاء أسبابها العامة في أحوال الناس الاعتيادية من دورة الدم والنفس وغير ذلك، فلا وجه لاتخاذ أحد من العقلاء إنكار كل ما يخالف السنن العامة قاعدة عامة، ولا سيما فعل الخالق عز وجل لها وهو خالق كل شيء بقدرته، وواضع نظام السنن والأسباب بمشيئته، وأكثر منكري الخوارق يؤمنون به، وإنما ينكرون وقوع شيء مخالف لسننه بأنه مناف لحكمته، ومن ذا الذي أحاط بحكمه أو بسننه علماً؟ وإنما الذي يقضي به العقل أن لا نصدق بوقوع شيء على خلاف السنن الثابتة المطردة في نظام الأسباب العامة إلا إذا ثبت ثبوتاً قطعياً لا يحتمل التأويل؛ وهذا هو المعتمد عند المحققين من المسلمين وعلماء المادة وعلماء النفس وغيرهم، وقد ثبت في هذا العصر من خواص الكهرباء وغيرها ما لو قيل لعقلاء الناس وحكمائهم قبل ثبوته بالفعل إنه من الممكنات، لحكموا على مدعي إمكانه بالجنون لا بتصديق الخرافات، كما قلناه من قبل.

الفرق بين الخوارق الكسبية والحقيقية

وجملة القول إن أسرار هذا الكون لا يحيط بها إلا خالقه عز وجل ـ وإنه قد وجد في كل عصر وقائع غريبة تعد من هذه الأسرار الجارية على غير نظام السنن الإلهية في الخلق، بحسب ما يتراءى للجمهور بادي الرأي، وإن ما يتناقله الجمهور المولع بالغرائب منها منه ما هو كذب محض، ومنه ما له أسباب علمية أو صناعية خفية يجهلها الأكثرون، ومنه ما يظن أنه من خوارق العادات وليس منها، ومنه ما سببه الوهم كشفاء بعض الأمراض، أو انخداع البصر بالتخييل الذي يحذقه المشعوذون، ومنه ما فعله سحرة فرعون المبين بقوله تعالى: ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ [طه: ٦٦] ومنه انخداع السمع كالذي يفعله الذين يدعون استخدام الجن إذ يتكلمون ليلاً بأصوات غريبة غير أصواتهم المعتادة فيظن مصدقهم أن ذلك صوت وقد يتكلمون نهاراً من بطونهم من غير أن يحركوا شفاههم، فلا يوثق بشيء من أخبارهم ولا من نقلهم ـ ومن الدلائل على كذب المنتحلين لهذه الغرائب أنهم جعلوها وسيلة لمعايشهم الدنيئة، وأنهم لو كانوا صادقين فيها لتنافس الملوك وكبار علماء الكون في صحبتهم والاهتداء بهم.

المعجزات قسمان: تكوينية وروحانية تشبه الكسبية:

المعجزات كلها من الله تعالى لا من كسب الانبياء كما نطق به القرآن ولكنها بحسب مظهرها قسمان: قسم لا يعرف له سنة إلهية يجري عليها فهو يشبه الأحكام الاستثنائية في قوانين الحكومات أو ما يكون بإرادة سنية من الملوك لمصلحة خاصة ـ ولله المثل الأعلى ـ وقسم يقع بسنة إلهية روحانية لا مادية.

أما المأثور من آيات الله التي أيد بها موسى عليه السلام وأثبتها القرآن له كالآيات التسع بمصر فهي من القسم الأول، ولم يكن شيء منها بكسب له حقيقي ولا صوري، وكذلك الآيات الأخرى التي ظهرت في أثناء خروجه ببني إسرائيل ومدة التيه، بل كل ذلك كان بفعل الله تعالى بدون سبب كسبي لموسى عليه السلام إلا ما يأمره الله تعالى به من ضرب البحر أو الحجر بعصاه التي هي آيته الكبرى. ولم يرد لأحد من الأنبياء آية كهذه الآيات فضلاً عمن دونهم، ولا هي مما يحتمل أن يكون بسبب من الأسباب التي تكون لأحد من الناس بالرياضة الروحية أو خواص المادة وقواها.

وأما المسيح عليه السلام فالآيات التي أيده الله تعالى بها ـ على كونها خارقة للعادات الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس ـ قد يظهر فيها أنها كلها أو جلها حدث على سنة الله في عالم الأرواح كما كان خلقه كذلك، فقد حملت أمه به بنفخة من روح الله عز وجل فيها ـ وهو الملك جبريل عليه السلام ـ كانت سبب علوقها به بفعلها في الرحم ما يفعل تلقيح الرجل بقدرة الله عز وجل فلا غرو أن كانت مظاهر آياته أعظم من مظاهر سائر الروحيين من الأنبياء والأولياء كالكشف وشفاء بعض المرضى وغير ذلك من التأثير في المادة الذي اشتهر عن كثير منهم. والفرق بينه وبين الروحانيين من صوفية الهنود والمسلمين أن روحانيته عليه السلام أقوى وأكمل، وأنها لم تكن بعمل كسبي منه بل من أصل خلق الله عز وجل له بآية منه كما قال: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ [الأنبياء: ٩١] ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ [المؤمنون: ٥٠] فآيتهما هي الحمل به وخلقه بنفخ الروح الإلهي، لا بسبب التلقيح البشري ولا بما قيل من احتمال وجود مادتي الذكورة والأنوثة في رحمها.

وأعظم آياته الروحانية التي أثبتها له التنزيل ولم ينقلها مؤلفو الأناجيل الأربعة (وروي أنها منصوصة في إنجيل الطفولية الذي نبذته المجامع الكنسية قبل البعثة المحمدية ففقد من العالم) هي أنه كان يأخذ قطعة من الطين فيجعلها بهيئة طير فينفخ فيه أي من روحه فيكون طيراً بإذن الله تعالى ومشيئته. والمروي أنه كان يطير قليلاً

ويقع ميتاً. ودون هذا إحياء الميت الصحيح الجسم القريب العهد بالحياة فإن توجيه سيال روحه القوي إلى جثة الميت مع توجيه قلبه إلى الله عز وجل ودعائه كان يكون سبباً روحانياً لإعادة روحه إليه بإذن الله ومشيئته، كما يمس النور ذبال السراج المنطفىء فتشتعل أو كما يتصل السلك الحامل للكهربائية الإيجابيه بالسلك الحامل للكهربائية السلبية بعد انقطاعها فيتألق النور منهما. وقد ثبت عن بعض أطباء هذا العصر إعادة الحياة الحيوانية إلى فاقدها عقب فقدها بعملية جراحية أو معالجة للقلب.

ومن دون هذا وذاك شفاء بعض الأمراض ولا سيما العصبية سواء كان سببها مس الشيطان وتلبسه بالمجنون كما في الأناجيل أم غيره، فإن الشيطان روح خبيث لا يستطيع البقاء مع توجه الروح الطاهر الذي هو شعلة من روح القدس جبريل عليه السلام واتصاله بمن تلبس به، وقد وقع مثل هذا لشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من الروحانيين وما من مرض عصبي أو غيره إلا وهو ضعف في الحياة حقيق بأن يزول باتصال هذا الروح بالمصاب به لأنه أعظم أسباب الحياة والقوة.

ومن دون هذا وذاك المكاشفات المعبر عنها فيما حكاه تعالى عنه بقوله: ﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ [آل عمران: ٤٩] وقد أنبأ غيره من أنبياء بني إسرائيل وغيرهم بما هو أعظم من هذا من الأمور المستقبلة، وكذا غيرهم من الروحانيين ولا سيما صالحي أمة محمد ﷺ ولكنها درجات متفاوتة في القوة والضعف، وطول المدة وقصرها، والثقة بالمرئي وعدمها، وإدراك الحاضر الموجود، والغائب المفقود، وما كان في الأزمنة الماضية، وما يأتي في الأزمنة المستقبلة، فأعلاها خاص بالأنبياء إذ لم يوجد ولن يوجد بشر يعلم بالكشف ما وقع منذ القرون الأولى كأخبار القرآن عن الرسل الأولين مع أقوامهم، أو ما يقع بعد سنين في المستقبل كإخباره عن عود الكرة للروم على الفرس، وإخباره ﷺ بفتح الأمصار واتباع الأمم لأمته، ثم بتداعيهم عليها ومن المكاشفات الثابتة في هذا لعصر ما يسمونه قراءة الأفكار وقد شاهدنا من فعله، ومنها مراسلة الأفكار.

فتبين بهذا وذاك أن آيات الله تعالى المشهورة لموسى عليه السلام بمحض قدرته تعالى دون سنة من سننه الظاهرة في قواه الروحية، وأن آياته لعيسى عليه السلام بخلاف ذلك. والنوع الأول أدل على قدرة الله تعالى ومشيئته واختياره في أفعاله في نظر البشر لبعدها عن نظام الأسباب والمسببات التي تجري عليها أفعالهم.

عبادة بعض الناس للمسيح وللأولياء دون موسى:

وإنما عبد بعض البشر عيسى واتخذوه إلهاً ولم يعبدوا موسى كذلك وآياته أعظم لأنهم جهلوا أن آيات عيسى جارية على سنن روحية عامة قد يشاركه فيها غيره فظنوا

أنه يفعلها بمحض قدرته التي هي عين قدرة الخالق سبحانه لحلوله فيه واتحاده به بزعمهم، وآيات موسى بمحض قدرة الله وحده، ولم يفطنوا لاتباع عيسى لموسى في شرعه (التوراة) إلا قليلاً مما نسخه الله على لسانه من إحلال بعض ما حرم عليهم بظلمهم عقوبة لهم، ومن تحريم ما كانوا عليه من الغلو في عبادة المال والشهوات.

ومثل النصارى في هذا من يفتنون من المسلمين بعبادة الصالحين بدعائهم في الشدائد لاعتقادهم أنهم يدفعون عنهم الضر ويجلبون لهم النفع بالتصرف الغيبي الخارج عن سنن الله في الأسباب والمسببات الداخل عندهم في باب الكرامات، وهو خاص بالرب تعالى، ولكنهم لا يطلقون على أحد منهم اسم الرب ولا الإله ولا الخالق، إذ الأسماء اصطلاحية، وإنما الفرقان بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب أن الرب الخالق هو القادر على النفع والضر لمن شاء وصرفهما عمن شاء بما يسخره من الأسباب وبدونها إن شاء ـ وإن المخلوق المربوب هو المقيد في أفعاله الكسبية الاختيارية في النفع والضر بسنن الله تعالى في الأسباب والمسببات التي سخرها تعالى لجميع خلقه، ولكنهم يتفاوتون في العلم والعمل بها كما يتفاوتون في الاستعداد لها بقوى العقل والحواس والأعضاء وفي وسائلها، وقد بلغ البشر بالعلم والعمل الكسبيين من المنافع ودفع المضار ما لم يعهد مثله لأحد من خلق الله قبلهم لا الأنبياء ولا غيرهم، لأن الأنبياء المرسلين لم يبعثوا لهذا وإنما بعثوا لهداية الناس إلى معرفة الله وعبادته وتهذيب أخلاقهم بها. فمنافع الدنيا لا تطلب منهم أحياء ولا أمواتاً، وإنما تطلب من أسبابها. وما وراء الأسباب لا يقدر عليه إلا الله عز وجل. وقد قتل الظالمون بعض الأنبياء والأولياء، وآذوا بعضهم بضروب من الإيذاء، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم. ولذلك تكرر في القرآن الحكيم نفي هذا النفع والضر عن كل ما عبد ومن عبد من دون الله بالذات أو بالشفاعة عند الله تعالى كما قال: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس: ١٨] الآية ومثلها آيات، وأمر خاتم رسله أن يعلم الناس ذلك كما فعل من قبله من الرسل فقال: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقال: ﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً﴾ [الجن: ٢١] الآيات. وقد فصلنا هذه المسألة مراراً ونلخص الموضوع هنا في المسائل الآتية:

١ ـ إن الله تعالى قد أتقن كل شيء خلقه فجعله بإحكام ونظام لا تفاوت فيه ولا اختلال، وسنن مطردة ربط فيها الأسباب بالمسببات. فمخلوقاته العليا والسفلى، هي مظهر أسمائه وصفاته العلى. ولهذا قال حجة الإسلام الغزالي: ليس في الإمكان أبدع مما كان. وهذا النظام المطرد في الأكوان، الثابت بالحس والعقل ونصوص القرآن ـ

هو البرهان الأعظم على وحدانية خالق السموات والأرض ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

٢ ـ إن سنن الله تعالى في إبداع خلقه ونظام الحركة والسكون والتحليل والتركيب فيه لا يحيط بها علماً غيره عز وجل. وكلما ازداد البشر فيها نظراً وتفكراً واختباراً وتدبراً وتجربة وتصرفا ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون، ومن منافعها ما لم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون، وها نحن أولاء نرى مراكبهم الهوائية من تجارية وحربية تحلق في الجواء، حتى تكاد تتجاوز محيط الهواء، ومراكبهم البحرية تغوص في لجج البحار، ونراهم يتخاطبون من مختلف الأقطار، كما نطق الوحي بتخاطب أهل الجنة مع أهل النار، فيسمع أهل المشرق أصوات أهل المغرب، وأهل الجنوب حديث أهل الشمال وخطبهم وأغانيهم، قبل أن يسمعها بعض أهل البلد أو المكان الذي يصدر عنه الكلام[1] وقد يغمز أحدهم زراً كهربائياً في قارة أوربة فتتحرك بغمزته آلات عظيمة في قارة أخرى في طرفة عين، وبينهما المهامه الفيح، والجبال الشاهقة، ومن دونهما البحار الواسعة، والجاهلون بهذه السنن الإلهية، والعلوم العملية، لا يزالون يلجئون في طلب المنافع ودفع المضار من غير طريق الأسباب ـ التي ضيق الجهل عليهم سبلها ـ إلى قبور الموتى من الصالحين المعروفين والمجهولين، ليقضوا لهم حاجتهم، ويشفوا مرضاهم، ويعيونهم على أعدائهم من زوج وقريب وجار ووطني، وأعداؤهم من الأجانب قد سادوا حكومتهم، واستذلوا أمتهم، واستأثروا بجل ثروتهم، ولا يتصرف فيهم هؤلاء الأولياء بما يدفع عن المسلمين ضررهم وتحكمهم.

٣ ـ إن الأصل في كل ما يحدث في العالم أن يكون جارياً على نظام الأسباب والمسببات، وسنن الله التي دل عليها العلم، وأخبرنا الوحي بأنه لا تغيير فيها ولا تبديل لها ولا تحويل، فكل خبر عن حادث يقع مخالفاً لهذا النظام والسنن فالأصل فيه أن يكون كذباً اختلقه المخبر الذي ادعى شهوده أو خدع به ولبس عليه فيه، فإن كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الأسباب الخفية التي يجهلها المخبر، كما حققه علماء الأصول في بحث الخبر وما يقطع بكذبه منه.

٤ ـ إن آيات الله التي تجري على غير سننه الحكيمة في خلقه لا يمكن العلم بها إلا بدليل قطعي وقد كان من حكمته أن أيد بعض النبيين المرسلين بشيء منها لإقامة

(١) روي لنا أن آلة الراديو الناقلة للأصوات من أوروبة يصل الكلام الذي تحمله إلى مصر وغيرها فتعكسه الآلات التي فيها ويسمعه أهلها قبل أن يسمعه من في الصفوف الخلفية من المكان الذي ألقي فيه (المؤلف).

حجتهم وتخويف المعاندين لهم، وقد انقطعت هذه الآيات بختم النبوة والرسالة بمحمد ﷺ وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوة برسالته، وجعل ما أوحاه إليه آية دائمة وهداية عامة لجميع البشر مدة بقائهم في هذه الدنيا وأنزل عليه ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] لعلمه تعالى بأنهم لا يحتاجون بعد هذا الوحي إلى وحي آخر، ولا إلى آية على كونه من عند الله تعالى إلا هذا القرآن نفسه، وقد تقدم بيان دلالته العقلية العلمية على كونه من عند الله تعالى.

ختم النبوة وانقطاع الخوارق بها ومعنى الكرامات

٥ ـ لو كان للبشر حاجة بعد القرآن ومحمد ﷺ إلى الآيات كما يدعي المفتونون بالكرامات ومخترعو الأديان والنحل الجديدة لما كان لختم النبوة معنى ولذلك ينكر البهائية والقاديانية ختم النبوة وانقطاع الوحي، ويدعونهما للباب والبهاء، ولغلام أحمد القادياني وخلفائه بلا انقطاع، حتى سامها المرتزقة منهم والرعاع.

وقد بين شيخنا الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد كيف ارتقى التشريع الديني في الأمم بارتقاء نوع الإنسان في الإدراك والعقل كارتقاء الأفراد من طفولة إلى شباب إلى كهولة بلغ فيها رشده واستوى، وصار يدرك بعقله هذه الهداية العقلية العليا (هداية القرآن) بعد أن كان لا سبيل إلى إذعانه لتعليم الوحي، إلا ما يدهش حسه ويعيي عقله من آيات الكون.

بين في الكلام على وجه الحاجة إلى الرسالة أن سمو عقل الإنسان وسلطانه على قوى الكون الأعظم بما هي مسخرة له تنافي خضوعه واستكانته لشيء منها، إلا ما عجز عن إدراك سببه ومنشأه فاعتقد أنه من قبل السلطان الغيبي الأعلى لمدبر الكون ومسخر الأسباب فيه، فكان من رحمة الله تعالى به «إنه أتاه من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراده مرشدين، هادين، وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم، وأيد ذلك زيادة في الإقناع بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول، فيستخذي الطامح، ويذل الجامح، ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه».

ثم قال في رسالة محمد ﷺ: نبي صدق الأنبياء ولكنه لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار، أو يحير الحواس، أو يدهش المشاعر، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم إليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام، وسلطان البلاغة، وصحة الدليل، مبلغ الحجة وآية الحق الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤٢].

لا يمكن إثبات معجزات الأنبياء إلا بالقرآن

٦ ـ إنه لا يمكن إثبات معجزات الأنبياء في هذا العصر بحجة لا يمكن لمن عقلها ردها إلا هذا القرآن العظيم، وما ثبت فيه بالنص الصريح منها، بناء على إنكار العلماء الواقفين على كتب الأديان التي قبل الإسلام ـ حتى كتب اليهود والنصارى ـ وعلى تواريخها لتواتر ما ذكر فيها من الآيات والاشتباه في كونها خوارق حقيقة، وحجتهم أن التواتر الذي يفيد العلم القطعي غير متحقق في نقل شيء منها، وهو نقل الجمع الكثير الذين يؤمن تواطؤهم على الكذب لخبر أدركوه بالحس وحمله عنهم مثلهم قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل بدون انقطاع، وإنما يكون استحالة تواطؤهم على الكذب بأمور أهمها عدم التحيز والتشيع لمضمون الخبر وعدم تقليد بعض لبعض فيه. وآية صحة هذا التواتر حصول العلم القطعي به وإذعان النفس له، وعدم إمكان رده اعتقاداً ووجداناً، وهذا غير حاصل في آيات الأنبياء الأولين عندهم.

وأما آية القرآن فهي باقية ببقائه إلى يوم القيامة، وكل واقف على تاريخ الإسلام يعلم علماً قطعياً أنه متواتر تواتراً متصلاً في كل عصر، من عصر الرسول الذي جاء به إلى الآن، وأما الذي يخفى على كثير منهم فهو وجوه إعجازه وقد شرحنا شبهتهم عليه وبينا بطلانها في هذا البحث، وإذ قد ثبت بذلك كونه وحياً من الله تعالى فقد وجب الإيمان بكل ما أثبته من آياته في خلقه سواء أكانت لتأييد رسله وإقامة حجتهم أم لا، وكما يجب على كل مؤمن به أن يؤمن بها، يجب أن يؤمن بانقطاع معجزات الرسل بعد ختم النبوة بمحمد ﷺ.

وإذ كان لا يجب على مسلم أن يعتقد بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين ﷺ فلا يضر مسلماً في دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء والحكماء من أن ما يدعيه الناس من الخوارق في جميع الأمم أكثره كذب وبعضه صناعة علم، أو شعوذة سحر، وأقله من خواص الأرواح البشرية العالية.

٧ ـ إن الثابت بنصوص القرآن من آيات الأنبياء المرسلين المعينة قليل جداً. فما كانت دلالته قطعية من هذه النصوص فصرفه عنها بالتحكم في التأويل الذي تأباه مدلولات اللغة العربية، وينقض شيئاً من قواعد الشرع القطعية ارتداد عن الإسلام، وما كانت دلالته ظاهرة غير قطعية وجب حمله على ظاهره إن لم يعارضه نص مثله أو أقوى منه، فإن عارضه فحينئذ ينظر في الترجيح بين المتعارضين بالأدلة المعروفة، والخروج عن ذلك ابتداع.

خلاصة الخلاصة لهذا الفصل

إننا نؤمن بأن الله تعالى هو خالق كل شيء بقدرته وإرادته، واختياره وحكمته،

وأنه ﴿أحسن كل شيء خلقه﴾ [السجدة: ٧] كما قال في سورة الم السجدة، فهو ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ [النمل: ٨٨] كما قال في سورة النمل، وأنه ليس في خلقه تفاوت ولا فطور، كما قال في سورة الملك، وأنه خلقه بنظام وتقدير لا جزافاً ولا أنفاً كما قال: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [القمر: ٤٩] وقال: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ [الفرقان: ٢] وقال: ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ [الحجر: ١٩ و٢١].

وأن له تعالى في نظام التكوين والإبداع، وفيما هدى إليه البشر من نظام الاجتماع، سنناً مطردة تتصل فيها الأسباب بالمسببات، لا تتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس، وأنها عامة في عالم الأجسام وعالم الأرواح، وقد ورد ذكر هذه السنن باللفظ في عدة سور.

ونؤمن بأن له تعالى في خلقه آيات بينات، وأن له في آياته حكماً جلية أو خفية، وأن ما منحنا إياه من العقل والشرع يأبيان علينا أن نثبت وقوع شيء في الخلق على خلاف ما تقدم بيانه من نظام التقدير وسنن التدبير، إلا ببرهان قطعي يشترك العقل والحس في إثباته وتمحيصه، وأنه لا بد أن يكون وقوعه لحكمة بالغة لا عن خلل ولا عبث، وأن ما خفي علينا من حكمه كسائر ما يخفي علينا من أمور خلقه، نبحث عنهما لنزداد علماً بكماله ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا، ولا نتخذها حجة ولا عذراً على الكفر به لجهلنا، وقد ثبت لأعلم العلماء منا أن ما نجهل من هذا الكون أكثر مما نعلم، ويستحيل أن يحيط البشر به علماً.

ونؤمن بأن الله تعالى قد منحنا رسلاً هدونا بآياته إلى الخروج من مضيق مدارك الحس، وما يستنبطه الفكر منها بادي الرأي، إلى ما وراءها من سعة عالم الغيب، ولولا هدايتهم لظل البشر ألوف الألوف من السنين ينكرون وجود ما لم يكونوا يدركونه بحواسهم من الأجسام وأعراضها، وبقياسهم ما جهلوا على ما علموا منها.

وقد علمنا من التاريخ أن الإيمان بالله وبآياته لرسله وباليوم الآخر وبما يكون فيه من الحساب والجزاء على الأعمال هو الذي وجه عقول البشر إلى البحث في أسرار الوجود حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الارتقاء في العلوم والفنون والصناعات في الأجيال المختلفة، ولم يكن لغير المؤمنين بالغيب نصيب في ذلك ـ فهذا الإيمان بالأركان الثلاثة من الغيب هو الذي أوصل البشر إلى علوم وأعمال كان يعدها غير المؤمنين بالغيب من محالات العقول كالغيب الذي أنكروه، حتى لم يعد شيء من أخبار الغيب بعيداً عن العقل بعد ثبوتها.

فتبين لنا بهذا وبما قبله أنه كان للبشر بآيات الأنبياء ثلاث فوائد هي من حكم

نصبه تعالى لتلك الآيات **الأولى**: جعلها دليلاً حسياً على اختياره تعالى في جميع أفعاله وكون سنن النظام في الخلق خاصعة له لا حاكمة عليه ولا مقيدة لإرادته وقدرته **الثانية**: جعلها دليلاً على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوحيه ونذراً للمعاندين لهم من الكفار، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم أو تقع منهم باستعداد روحي لما كانت آية على صدقهم **الثالثة**: هداية عقول البشر برؤيتها إلى سعة دائرة الممكنات، وضيق نطاق المحال في المعقولات، وإلى أن كون الشيء بعيداً عن الأسباب المعتادة والأمور المعهودة والسنن المعروفة، لا يقتضي أن يكون محالاً يجزم بعدم وقوعه، ويكذب المخبر به، مع قيام الدليل على صدقه، وإنما غايته أن يكون الأصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوته على الدليل الصحيح وهذه قاعدة كبار علماء الكون في هذا العصر، فلا ينقصهم لتكميل علمهم إلا ثبوت آية لله تعالى لا يمكن أن يكون لها علة من سنن الكون.

ولكن الأمر قد انقلب إلى ضده فإن كثيراً من الذين وصلوا إلى هذه العلوم والأعمال المقربة لآيات الرسل وما دعوا إليه من الإيمان بالغيب من العقول قد صارت هذه العلوم نفسها سبباً لإنكارهم ما كان سبباً لها وموصلاً إليها «وهو الآيات والإيمان بالغيب» ـ لا إنكار إمكانه بل إنكار ثبوته بالفعل، فهم ينكرون أن يكون الخالق قد فعل ما صاروا يفعلون بإقداره وتوفيقه نظيراً له في الغرابة، وكان ينبغي لهم أن يجعلوه دليلاً عليه مبيناً لحقيته كما قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [فصلت: ٥٣] ولكنهم كلما أراهم آية من آياته الروحية في أنفسهم أو من آياته الكونية في الآفاق التمسوا لها سنة بقياس ما لم يعرفوا على ما عرفوا، فأخرجوها عن كونها بمحض قدرته وإبداعه، وظلوا على لبسهم، كالذين طلبوا أن ينزل عليهم ملكاً رسولاً فقال فيهم ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ [الأنعام: ٩] أي لما كانوا لا يمكن لهم أن يدركوا الملك ويتلقوا عنه إلا إذا كان بصورة رجل مثلهم وهو ما استنكروه من كون الرسل بشراً مثلهم، ولو جعل الله الملك رجلاً لالتبس عليهم أمره بما يلبسونه على أنفسهم من استنكار كون الرسول بشراً مثلهم وهكذا يفعلون الآن: ظهرت لهم في عصرنا عدة آيات روحية من المكاشفات والتأثير في المادة فشبهوها بما عرفوا من نقل الكلام بالسيال الكهربائي وغير ذلك، حتى لا يعترفوا بآية إبداعية من الخلق لا تخضع لعلمهم.

الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين.

إن حرمان هؤلاء العلماء من الإيمان بآية لله تعالى من هذا النوع قد جعل حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب في العلم أنهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم مهددة بالتدمير العلمي الصناعي في كل يوم، وجميع علمائهم المصلحين وساستهم

الدهاقين في حيرة من تلافي هذا الخطر ولن يتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين، وهذا ما جاءهم به محمد خاتم النبيين، ولأجله أثبت الآيات بكتابه وفي كتابه المبين، إذ لا يمكن أن يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم، بقيام الدليل على أنه من السلطان الغيبي الإلهي الذي فوق استعدادهم، وسنبين هذا الجمع فيما يأتي من هذا البحث المثبت لإعجاز القرآن.

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

بيان أن الإسلام دين الفطرة السليمة، والعقل والفكر، والعلم والحكمة، والبرهان والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل كلف البشر بها مقاومة فطرتهم، وتعذيب أنفسهم، ومكابرة عقولهم وبصائرهم، خضوعاً للرؤساء الذين يلقنونهم إياها، فإن انقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفائزين، وإن خالفوهم سراً أو جهراً كانوا من الهالكين حتى إذا بعث الله محمداً خاتم النبيين، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم مما كانوا فيه من الضلال المبين - بين لهم أن دين الله الإسلام هو دين الفطرة، والعقل والفكر، والعلم والحكمة، والبرهان والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال، وأن لا سيطرة على روح الإنسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله، وإنما رسل الله هداة مرشدون، مبشرون ومنذرون، كما تقدم بيانه في المقصد الذي قبل هذا، ونبين هذه المزايا بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول:

١ - الإسلام دين الفطرة.

قال الله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [الروم: ٣٠] الحنيف صفة من الحنف بالتحريك وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة، وعن الضلالة إلى الهدى، وعن الباطل إلى الحق، ويقابله الزيغ وهو الميل عن الحق إلى الباطل الخ وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلة الإنسانية، الجامعة بين الحياتين: الجسمانية الحيوانية، والروحانية الملكية، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما، وما أودع فيها من غريزة الدين المطلق الذي هو الشعور الوجداني بسلطان غيبي فوق قوى الكون والسنن والأسباب التي قام بهما نظام كل شيء في العالم، فرب هذا السلطان هو فاطر السموات والأرض وما فيهما، والمصدر الذاتي للنفع والضر المحركين لشعور التعبد الفطري، وطلب العرفان الغيبي، فالعبادة الفطرية

هي التوجه الوجداني إلى هذا الرب الغيبي في كل ما يعجز الإنسان عنه من نفع يحتاج إليه ويعجز عنه بكسبه، ودفع ضر يمسه أو يخافه ويرى أنه يعجز عن دفعه بحوله وقوته، وفي كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفته والوصول إليه مما لا نهاية له.

وأعني بالإنسان جنسه فما يعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فإنه يعده من مقدوره، ويعد مساعدة غيره له من جنس كسبه، فطلبه للمساعدة من أمثاله ليس فيها معنى التعبد عند أحد من البشر ـ فتعظيم الفقير للغني بوسائل استجدائه، وخضوع الضعيف للقوي لاستنجاده واستعدائه على أعدائه، وخنوع السوقة للملك أو الأمير لخوفه منه أو رجائه ـ لا يسمى شيء من ذلك عبادة في عرف أمة من الأمم ولا ملة من الملل، وإنما روح العبادة الفطرية ومخها هو دعاء ذي السلطان العلوي والقدرة الغيبية التي هي فوق ما يعرفه الإنسان ويعقله في عالم الأسباب، ولا سيما الدعاء عند العجز والشدائد قال ﷺ «الدعاء هو العبادة»(١) هكذا بصيغة الحصر أي هو الركن المعنوي الأعظم فيها لأنه روحها المفسر برواية «الدعاء مخ العبادة»(٢) وكل تعظيم وتقرب قولي أو عملي لصاحب هذه القدرة والسلطان فهو عبادة له ـ هذا أصل دين الفطرة الغريزي في البشر.

وعلى هذا الأصل يبني الدين التعليمي التشريعي الذي هو وضع إلهي يوحيه الله إلى رسله لئلا يضل عباده بضعف اجتهادهم واختلافهم في العمل بمقتضى غريزة الدين كما وقع بالفعل، ولا يقبله البشر بالإذعان والوازع النفسي إلا إذا كان الملقن لهم إياه مؤيداً في تبليغه وتعليمه من صاحب ذلك السلطان الغيبي الأعلى والمتصرف الذاتي المطلق في جميع العالم، الذي تخضع له الأسباب والسنن فيه وهو لا يخضع لها، وهو الله رب العالمين، وقد شرحنا هذه الحقيقة مراراً وبينا في مواضع من التفسير والمنار معنى كون الإسلام دين الفطرة، وأنه شرع لتكميل استعداد البشر للرقي في العلم والحكمة، ومعرفة الله عز وجل المعدة إياهم لسعادة الآخرة، فليس فيه شيء يصادمها فهذا الدين التعليمي حاجة من حاج الفطرة البشرية لا يتم كمالها النوعي بدونه، فهو لنوع الإنسان كالعقل لأفراده كما حققه شيخنا الأستاذ الإمام.

٢ ـ الإسلام دين العقل والفكر.

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة «العقل» ولا ما في معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التي فضل الإنسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحي كاللب

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٢، باب ١٦، وسورة ٤٠، وابن ماجه في الدعاء باب ١، وأحمد في المسند ٤/٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعاء باب ١.

والنهى، ولا أسماء التفكر والتدبر والنظر في العالم التي هي أعظم وظائف العقل، ولا أن الدين موجة إليه، وقائم به وعليه. أما ذكر العقل باسمه وأفعاله في القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة، وأما ذكر أولي الألباب ففي بضع عشرة مرة، وأما كلمة أولي النهى أي العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه.

أكثر ما ذكر فعل العقل في القرآن قد جاء في الكلام على آيات الله وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيئته وحكمته ورحمته، كقوله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [البقرة: ١٦٤] ويلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله في تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الأنعام ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ [الأنعام: ١٥١] وكرر قوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ أكثر من عشر مرار كأمره لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله: ﴿فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ [يونس: ١٠] وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار من سورة الملك ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ [الملك: ١٠] وفي معناه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله في سورة الحج: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ [الحج: ٤٦] الآية. كذلك آيات النظر العقلي والتفكر والتفكير كثيرة في الكتاب العزيز، فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر، وأن الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لا حظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التي لا تزكي الأنفس ولا تصعد بها في معارج الكمال، بعرفان ذي الجلال والجمال، ومنها قوله تعالى: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾ [سبأ: ٤٦] وقوله: ﴿أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾ [الروم: ٨] وقوله في صفات العقلاء أولي الألباب ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ [آل عمران: ١٩١] وقوله بعد نفي علم الغيب والتصرف في خزائن الأرض عن الرسل ﷺ وحصر وظيفته في اتباع الوحي ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ [الأنعام: ٧].

وقد صرح بعض حكماء الغرب، بما لا يختلف فيه عاقلاً في الأرض، من أن

التفكر هو مبدأ ارتقاء البشر، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه. اهـ وقد كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكر واستقلال العقل على البشر حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر، وأعتقهم من هذا الرق، وقد تعلم هذه الحرية أمم الغرب من المسلمين ثم نكس هؤلاء المسلمون على رؤوسهم فحرموها على أنفسهم، حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم.

٣ ـ الإسلام دين العلم والحكمة.

ذكر اسم العلم معرفة ونكرة في عشرات من آيات القرآن الحكيم، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها فمن العلم المطلق قوله تعالى في وصايا سورة الإسراء: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾ [الإسراء: ٣٦] قال الراغب: أي لا تحكم بالقيافة والظن. وقال البيضاوي ما ملخصه: ولا تتبع ما لم يتعلق به علمك تقليداً أو رجماً بالغيب، ومنه قوله في العلم المأثور في التاريخ ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثاره من علم إن كنتم صادقين﴾ [الأحقاف: ٤] ومنه قوله تعالى في علوم البشر المادية ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ [الروم: ٦] الخ وقوله فيها دون العلم الروحي ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقوله في العلم العقلي ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ [الحج: ٨] الظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظري بدليل مقابلته بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين. وقوله في العلم الطبيعي ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم: ٢٢] بكسر اللام أي علماء الكون ومثله قوله بعد ذكر إخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق في الجبال وألوان الناس والدواب ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] الآية فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها.

عظم القرآن شأن العلم تعظيماً لا تعلوه عظمة أخرى بقوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾ [آل عمران: ١٨] الآية، فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بملائكته، وجعل أولي العلم في المرتبة الثالثة، ويدخل فيها الأنبياء والحكماء ومن دونهم من أهل الدرجات في قوله: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ [المجادلة: ١١] وأمر أكرم رسله وأعلمهم بأن يدعوه بقوله: ﴿وقل رب زدني علماً﴾ [طه: ١١٤] ويؤيد الآيات المنزلة في مدح العلم والحث عليه ما ورد في ذم اتباع الظن كقوله تعالى: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ [يونس: ٣٦] ومثله ﴿وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن

لا يغني من الحق شيئاً﴾ [النجم: ٢٧] وقوله في قول النصارى بصلب المسيح ﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ [النساء: ١٥٦].

وبلغ من تعظيمه لشأن العلم والبرهان أن قيد به الحكم بمنع الشرك بالله تعالى والنهي عنه وهو أكبر الكبائر وأقصى الكفر فقال: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ [الأعراف: ٣٢] السلطان البرهان:

وقال في بر الوالدين الكافرين ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ [العنكبوت: ٨] ومعلوم من الدين بالضرورة أن الشرك بالله لا يكون بعلم ولا ببرهان، لأنه ضروري البطلان وترى تفصيل هذا فيما بعده من تعظيم أمر الحجة والدليل وما يليه من ذم التقليد.

وأما الحكمة فقد قال تعالى في تعظيم شأنها المطلق ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقال تعالى في بيان مراده من بعثة محمد خاتم النبيين ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [الجمعة: ٢] وفي معناها آيتان في سورتي البقرة وآل عمران. وقال لرسوله ممتناً عليه ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ [النساء: ١١٢] وقال له: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ [النحل: ١٢٥] وقال له في خاتمة الوصايا بأمهات الفضائل والنهي عن كبائر الرذائل، مع بيان عللها وما لها من العواقب ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ [الإسراء: ٣٩] وقال لنسائه (رض) ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ [المؤمنون: ٣٤].

وقد آتى الله جميع أنبيائه ورسله الحكمة، ولكن أضاعها أقوامهم من بعدهم بالتقاليد والرياسة الدينية، ونسخها بولس من النصرانية بنص صريح. قال الله تعالى في اليهود: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ [النساء: ٥٤] فالكتاب أعلى ما يؤتيه تعالى لعباده من نعمه ويليه الحكمة ويليها الملك. وقال في نبيه داود عليه السلام ﴿وآتاه الله العلم والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ [البقرة: ٢٥١] وقال لنبيه عيسى عليه السلام ﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ [الأنعام: ١١٣] وقال: ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ [لقمان: ١٢].

وذكر من حكمته وصاياه لابنه بالفضائل ومنافعها ونهيه عن الرذائل معللة

بمضارها. فالحكمة أخص من العلم، هي العلم بالشيء على حقيقته وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل، فهي بمعنى الفلسفة العملية كعلم النفس والأخلاق وأسرار الخلق، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ [الإسراء: ٣٩] ولولا اقتران تلك الوصايا بحكمها وعللها ومنافعها لما سميت حكمة. ألا ترى أنه سمي فيها المبذرين للمال ﴿إخوان الشياطين﴾ [الإسراء: ٢٧] لأنهم يفسدون نظام المعيشة بإسرافهم، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها في مواضعها بالاعتدال، ولذلك قال عقبه ﴿وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ [الإسراء: ٢٧] ثم قال: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾ [الإسراء: ٢٩] فعلل الإسراف في الإنفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوماً من الناس ومحسوراً في نفسه، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه المغطى ويطلق على من انحسرت قوته وانكشفت عن عجزه، والمحسور المغموم أيضاً. وكل هذه المعاني تصح في وصف المسرف في النفقة يوقعه إسرافه في العدم والفقر الخ وحسير البصر كليله وقصيره.

ويكثر في القرآن ذكر الفقه وهو الفهم الدقيق للحقائق الذي يكون به العالم حكيماً.

٤ ـ الإسلام دين الحجة والبرهان.

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ [النساء: ٧٣] وقال: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾ [المؤمنون: ١١٧] قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتج به عند ربه مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيماً لشأن البرهان، وذلك أنه تعالى يبعث الأمم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بحضرتهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه كما قال ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم، فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ [القصص: ٧٥].

وأقام البرهان العقلي على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والأرض من سورة الأنبياء ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال: ﴿أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم﴾ [الأنبياء: ٢٤] الآية، ومثله في سورة النمل ﴿أم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [النمل: ٦٤].

وقال في سياق محاجة إبراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان

شركهم ﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ [الأنعام: ٨١] ثم قال: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ [الأنعام: ٨٣] فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلي على العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم، وتقدم في الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه.

ومما جاء فيه البرهان بلفظ السلطان قوله تعالى: ﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا﴾ [غافر: ٣٥] الآية، وفي معناها من هذه السورة ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه﴾ [غافر: ٥٦] الآية، وفي عدة سور أنه تعالى أرسل موسى إلى فرعون بآياته (وسلطان مبين).

٥ ـ الإسلام دين القلب والوجدان والضمير.

قال الفيومي في المصباح: ضمير الإنسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر، وقال والقلب من الفؤاد معروف ـ يعني أنه ضميره ووجدانه الباطن قال: ويطلق على العقل. اهـ وقد شرحنا معناه هذا وطرق استعماله في تفسير آية الأعراف وقد ذكر في القرآن الكريم في مائة آية وبضع عشرة آية.

منها قوله تعالى في سورة ق: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ [ق: ٣٧] وقوله في سورة الشعراء: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] ومدحه لخليله إبراهيم ﷺ بقوله: ﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾ [الصافات: ٨٤] وقوله حكاية عنه ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ [البقرة: ٢٦٠] وقوله في صفة المؤمنين ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد: ٢٨] وقوله في صفات الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها﴾ [الحديد: ٢٧] ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والإخبات لله وتمحيصها من الشوائب وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والزيغ، وعبر عن فقدها للاستعداد للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها أي أنها كالمختوم عليه فلا يدخله شيء جديد.

وإذ كان الإسلام دين العقل والبرهان، وحرية الضمير والوجدان، منع ما كان عليه النصارى وغيرهم من الإكراه في الدين والإجبار عليه والفتنة والاضطهاد لمخالفيهم فيه، والآيات في ذلك كثيرة بيناها في محلها، ومن دلائلها ذم القرآن للتقليد وتضليل أهله.

٦ ـ منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والجدود.

كل ما نزل من الآيات في مدح العلم وفضله واستقلال العقل والفكر وحرية

الوجدان يدل على ذم التقليد، وقد ورد في ذمه والنعي على أهله آيات كثرة كقوله: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ [البقرة: ١٧٠] وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ [المائدة: ١٠٤] ذمهم من ناحيتين.

إحداهما: الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقي في العلم والعمل، وليس هذا من شأن الإنسان الحي العاقل فإن الحياة تقتضي النمو والتوليد، والعقل يطلب المزيد والتجديد **والثانية**: أنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر في التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والحسن والقبيح، بطريق العقل والعلم، وطريق الاهتداء في العمل ويؤيده قوله: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ [الأعراف: ٢٨] وقال تعالى في عبادة العرب للملائكة ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف: ٢٠ ـ ٢٣] وقد وردت الشواهد على هذا في قصة إبراهيم مع قومه في سور الأنبياء والشعراء والصافات.

فالقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول إلى العلم والهدى في الدين، وألا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك، فإن هذا جناية على الفطرة البشرية والعقل والفكر والقلب التي امتاز بها البشر، وبهذا العلم والهدى امتاز الإسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الأمم أفواجاً، ثم نكس المسلمون على رؤوسهم، واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم في التقليد لآبائهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علمائهم، الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمروهم به، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم وصاروا حجة على دينهم، حتى أن أدعياء العلم الرسمي فيهم ينكرون أشد الإنكار على من يدعونهم إلى اتباع كتاب الله وهدي رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله، ونحن معهم في بلاء وعناء، نقاسي منهم ما شاء الجهل والجمود من استهزاء، وطعن وبذاء، وتهكم بلقب «المجتهد» الذي احتكره الجهل لبعض المتقدمين من العلماء.

ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الإسلام في صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون في العقل والعلم أفواجاً حتى يعم الدنيا. لأن التعليم العصري في جميع مدارس الأرض يجري على طريقة الاستقلال في الفهم واتباع الدليل في

جميع بلاد الإفرنج والبلاد المقلدة لهم. ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الأديان تقليدية ويعتدونها نظماً أدبية واجتماعية للأمم، فلهذا يرون الأولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدي، وبهذا يعسر علينا أن نقنعهم بامتياز الإسلام على دينهم، لأنه يقل فينا من يقدر على إظهار الإسلام في صورته التي خصه بها القرآن، وما بينه من سنة خاتم النبيين ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين، رضوان الله عليهم أجمعين.

دحض شبهة، وإقامة حجة

يتوهم بعض المقلدين أن دعوة المسلمين إلى الاهتداء بالكتاب والسنة والاستقلال في فهمهما التي اشتهر المنار في عصرنا بها، هي التي جرأت بعض الجاهلين على دعوى الاجتهاد في الشريعة والاستغناء عن تقليد الأئمة والانتقاد عليهم وعلى اتباعهم بما هو ابتداع جديد، واستبدال للفوضى بالتقليد. وهو وهم سببه الجهل بالدين وبالتاريخ، فمذاهب الابتداع والإلحاد قديمة، قد نجمت قرونها في خير القرون وعهد أكبر الأئمة، وكان أشدها إفساداً للدين الدعوة إلى اتباع الأئمة المعصومين، الذين لا يسألون عن الدليل، على خلاف ما كان عليه أئمة السنة من تحريم اتباع أحد لذاته في الدين بعد محمد المعصوم الذي لا معصوم بعده ﷺ ولكن المقلدين لهؤلاء المحرمين للتقليد قد اتبعوا القائلين بعصمة أئمتهم حتى ملاحدة الباطنية منهم، فهم يردون نصوص الكتاب والسنة بأقوال أئمتهم بل بأقوال كل من ينتمي إليهم من أدعياء العلم. وإنما تروج البدع في سوق التقليد الذي يتبع أهله كل ناعق، لا في سوق الاستقلال والأخذ بالدلائل ـ ومن باب التقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين لانتساب جميع الدجالين من أهل الطرائق وغيرهم إلى أئمة المذاهب المجتهدين، وهم في دعوى اتباعهم من الكاذبين، ونحن دعاة العلم الصحيح والاهتداء بالكتاب والسنة أحق منهم باتباع الأئمة.

إن في كتب التفسير والفقه والتصوف وشروح الأحاديث للعلماء المنسوبين إلى الأئمة كثيراً من البدع والخرافات التي يتبرأ منها أئمة الهدى، وترى علماء الرسوم الجامدين يحتجون بذكرها في هذه الكتب على شرعيتها وعلى رد نصوص الكتاب والسنة الصحيحة بها، وصاحب المنار قد انفرد دون علماء مصر بالرد على هؤلاء وعلى البابية والبهائية والقاديانية والتيجانية والقبوريين وسائر مبتدعة عصرنا، ولله الحمد والمنة.

٧ ـ الحرية الشخصية في الدين بمنع الإكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة.

هذه المزية من مزايا الإسلام هي نتيجة المزايا التي بينا بها كونه دين الفطرة فأما منع الأكراه فيه وعليه فالأصل فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ بمكة ﴿ولو شاء ربك لآمن

من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون قل انظروا ماذا في السموات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ [يونس: ٩٩ ـ ١٠١] علم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سننه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض، فما كان يتمناه ﷺ من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في اختلاف استعداد الناس للإيمان وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم في آيات الله في خلقه، والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر.

ثم قوله تعالى له عندما أراد أصحابه أخذ من كان عند بني النضير من أولادهم عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ [البقرة: ٢٥٦] الآية ـ فأمرهم ﷺ أن يخيروهم فمن اختار اليهودية أجلي مع اليهود ولا يكره على الإسلام، ومن اختار الإسلام بقي مع المسلمين كما بيناه في تفسير الآية.

وأما منع الفتنة وهي اضطهاد الناس لأجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الأول لشرعية القتال في الإسلام كما بيناه في تفسير قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ [البقرة: ١٩١] من سورة البقرة. ثم في تفسير آية ٣٩ من سورة الأنفال التي بلفظها مع زيادة (كله) فراجع تفسير هذه الآية في ج ٩ تفسير.

وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمعهودة عند النصارى ففيها آيات مبينة في القرآن، وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وقد بيناها في الكلام على وظائف الرسل عليهم السلام، وحسبك منها قوله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ خاتم النبيين ﷺ ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

الإصلاح الاجتماعي الإنساني والسياسي الذي يتحقق بالوحدات الثمان

وحدة الأمة ـ وحدة الجنس البشري ـ وحدة الدين ـ وحدة التشريع بالمساواة في العدل ـ وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبد ـ وحدة الجنسية السياسية الدولية ـ وحدة القضاء ـ وحدة اللغة.

جاء الإسلام والبشر أجناس متفرقون، يتعادون في الأنساب والألوان، واللغات والأوطان والأديان، والمذاهب والمشارب، والشعوب والقبائل، والحكومات

والسياسات، يقاتل كل فريق منهم مخالفه في شيء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه في البعض الآخر فصاح الإسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الإنسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم، ونهاهم عن التفرق والتعادي وحرمه عليهم، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية، وبيان أصول الكتاب الإلٰهي وسنة خاتم النبيين في الجامعة الإنسانية، لا يمكن بسطهما إلا بمصنف كبير، فنكتفي في هذه الخلاصة الاستطرادية في إثبات الوحي المحمدي، بسرد الأصول الجامعة في هذا الإصلاح الإنساني الداعي إلى جعل الناس ملة واحدة، ودين واحد، وشرع واحد، وحكم واحد ولسان واحد، كما أن جنسهم واحد، وربهم واحد.

ونبدأ بالأصل الجامع في هذا ونقفي عليه بالأصول والشواهد المفصلة له.

الأصل الأول للجامعة الإسلامية الإنسانية: وحدة الأمة قال الله تعالى في سورة الأنبياء مخاطباً أمة الإسلام ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ثم بين لها في سورة المؤمنين أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للأمة فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢] ولكن كان لكل نبي أمة من الناس هم قومه، وأما خاتم النبيين فأمته جميع الناس، وقد فرض الله عليهم الإيمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم كما تقدم، فالإيمان بخاتمهم كالإيمان بأولهم وبمن بينهما، فمثلهم كمثل الملوك أو الولاة في الدولة الواحدة، ومثل اختلاف شرائعهم بنسخ المتأخر منها لما قبله كمثل تعديل القوانين في الدولة الواحدة أيضاً إلى أن كمل الدين.

الأصل الثاني: الوحدة الإنسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم وشاهده العام قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣] وقد بلغ النبي ذلك للأمة يوم العيد الأكبر بمنى في حجة الوداع. وهذه الوحدة الإنسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف، وإلى ترك التعادي بالتخالف.

الأصل الثالث: وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطري الذي جاء به غيره من الرسل وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر، وشاهده الأعم قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ [الأعراف: ١٦٨] ولما كان الإسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختيارياً بقوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الأصل الرابع: وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والملك والسوقة، والغني والفقير، والقوي والضعيف، وسنذكر بعض شواهده في إصلاح التشريع فيه.

الأصل الخامس: الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين في أخوته الروحية وعباداته وفي الاجتماع للاجتماعي منها كالصلاة ومناسك الحج، فملوك المسلمين وأمراؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام في صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفات وسائر مواطن الحج، ولا تجد شعوب الإفرنج المنتسبين إلى النصرانية يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الإسلام بالضرورة للعمل بها من أول الإسلام إلى اليوم قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ [الحجرات: ٩] وقال في سياق الكلام عن المشركين المحاربين ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ [مريم: ١١].

الأصل السادس: وحدة الجنسية السياسية الدولية بأن تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الإسلامي متساوية في الحقوق العامة إلا حق الإقامة في جزيرة العرب أو الحجاز فإنه خاص بالمسلمين لأن للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد، وحكم الإسلام في معابد الملل كلها أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها لا يجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم، المسلمون وغيرهم في هذا سواء.

الأصل السابع: وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة إلا أنه يستثنى منه الأحكام الشخصية الدينية فإن الإسلام يراعي فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه في ذلك. فهو يسمح لغير المسلمين في أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى علماء ملتهم، وإذا تحاكموا إلينا فإننا نحكم بينهم بعدل شريعتنا الناسخة لشرائعهم، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾ [المائدة: ٤٢] وقوله بعد آيات ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ [المائدة: ٤٩].

الأصل الثامن: وحدة اللغة ولا يمكن أن يتم الاتحاد والإخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا وحدة اللغة. وما زال الحكماء الباحثون في مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة يتعاونون بها على التعارف والتآلف ومناهج التعليم والآداب والاشتراك في العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية، وهذه الأمنية قد حققها الإسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة لجميع المؤمنين به

والخاضعين لشريعته، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمهما والتعبد بهما والاتحاد بإخوتهم فيهما، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، ولذلك كرر في القرآن بيان كونه كتاباً عربياً وحكماً عربياً وكرر الأمر بتدبره والتفقه فيه والاتعاظ والتأدب به، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذي يخضعون لحكمه، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هي عادة البشر في ذلك، وكذلك كان الأمر في الفتوحات الإسلامية العربية كلها.

وقد بينت من قبل وجوب تعلم اللغة العربية في دين الإسلام وكونه مجمعاً عليه بين المسلمين كما قرره الإمام الشافعي رضي الله عنه في رسالته وقد جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ثم خلفاء الأمويين والعباسيين إلى أن كثر الأعاجم وقلّ العلم وغلب الجهل فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه في العبادات من القرآن والأذكار (فراجع ذلك في جزء التفسير التاسع).

ولقد كان النبي ﷺ ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذي ينافي وحدتهم وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد كما شبههم بقوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[(١)] رواه الإمام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه وكان يخص بمقته وإنكاره التفرق في الجنس النسبي أو اللغة، أما الأول فمشهور وأما الثاني فيجمعه مع الأول الشاهد الآتي.

روى الحافظ ابن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا؟ (يعني هذا المنافق بالرجل النبي ﷺ وأن الأوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لأنهم من قومه، فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي إلى نصره)؟

فقام إليه معاذ بن جبل رضي الله عنه فأخذ بتلبيبه (أي على لببه ونحره من الثياب) ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته، فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي: إن الصلاة جامعة ـ وقال ﷺ:

«يا أيها الناس إن الرب واحد، والأب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي» فقام معاذ، فقال فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله؟ قال: «دعه إلى النار» فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٢٧، ومسلم في البر حديث ٦٦، وأحمد في المسند ٤/ ٢٧٠.

أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية المحمدية أكان وقع بينهم من الشقاق والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ما وقع وأدى بهم إلى هذا الضعف العام؟ أرأيت لو حافظوا على هذه الأخوة الإسلامية أكانت هذه الفئة من ملاحدة الترك تجد سبيلاً لاجتثاث هذه الدوحة الباسقة من جنة حكم الإسلام، وامتلاخ هذا السيف الصارم من غمده، والحيلولة بينه وبين كتاب الله المعصوم المنزل من عند الله باللغة العربية، وسنة رسوله المصلح لشعوب البشر وهي بالعربية، لأجل تكوين هذا الشعب وما أدغم ويدغم فيه من الشعوب تكويناً جديداً، برابطة لغة تخلق خلقاً جديداً، لأجل أن يلحق بالشعوب الأوروبية دعياً، كما يلصق الولد بغير أبيه إلصاقاً فرياً، فيقال إن رجلاً عظيماً جدد أو أوجد شعباً ولغة ودولة وديناً؟ هيهات لما يبغون.

لقد كان هذا الشعب (الترك) قائماً باسم الإسلام على رياسة روحية يدين لها أو بها زهاء أربعمائة مليون من البشر، ولو أوتي من العلم والحكمة ما يحسن به القيامة ومن الحزم والعزم ما يعزز به القيادة، ومن النظام ما يحكم به السياسة، لأمكنه أن يسوس بها الشرق، ثم يسود بنفوذها الغرب، كما كان يقصد نابليون الكبير لو تم له البقاء في مصر.

يعترض بعض أولي النظر القصير والبصر الكليل على توحيد اللغة في الشعوب المختلفة بأنه خلاف طبيعة البشر، ويرد عليهم بأن توحيد الدين أبعد من توحيد اللغة عن طبيعة البشر، إن أريد بالبشر جميع أفرادهم، وأن الحكماء ما زالوا يسعون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة مع علمهم أن ترقي بعض اللغات بترقي أهلها في العلوم والفنون والسياسة والقوة يستحيل معه أن يرغبوا عنها إلى غيرها، ولم يسع أحد منهم لجمعهم على دين واحد، وأن القرآن الذي شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر قد علمنا أن حكمة الله تعالى في خلق الإنسان تأبى أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ [هود: ١١٨] وإنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذي يثيره الخلاف فيهم ـ هذا الخلاف الذي جعل أعلم شعوب الأرض وأرقاهم في العمران يبذلون في هذا العهد أكثر ما تستغله شعوبهم من ثروة العالم في سبيل الحروب التي تنذر عمرانهم الخراب والدمار.

دعا الإسلام البشر كلهم إلى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الأمم فكانوا يدخلون فيه أفواجاً حتى امتد في قرن واحد ما بين المحيط الغربي إلى الهند ولولا ما طرأ عليه من الابتداع، وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد، وعلى شعوبه من الجهل والفساد، والتفرق بالاختلاف، لدخل فيه أكثر البشر، ولصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيرته من الأمم، فمن غرائزهم اختيار الأفضل إذا عرفوه.

قال أحد كبار علماء الألمان في الأستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة: إنه ينبغي لنا أن نقيم تمثالاً من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين) قيل له لماذا؟ قال لأنه هو الذي حول نظام الحكم الإسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب، ولولا ذلك لعم الإسلام العالم كله ولكنا نحن الألمان وسائر شعوب أوروبا عرباً مسلمين.

فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الأصول التي توحد الأمم والشعوب وتؤلف بينها بما يجمع كلمتهم عليها بالوازع النفسي من الوحي النفسي الذي نبع من نفس محمد ﷺ الأمي في سن الكهولة ففاق بها جميع الأنبياء والحكماء أم الأقرب إلى العقل أن تكون بوحي الله تعالى أفاضه عليه؟؟

المقصد الخامس من مقاصد القرآن
تقرير مزايا الإسلام العامة
في التكاليف الشخصية من العبادات والمحظورات
ونلخص أهمها بالإجمال في عشر جمل

١ ـ كونه وسطاً جامعاً لحقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ [البقرة: ١٤٣] وقد بينا في تفسيرها أن المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية، وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهندوس والنصارى وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم.

٢ ـ كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالإيمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال، ولا بالشفاعات وخوارق العادات، وتقدم بيانه.

٣ ـ كون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف وتقدمت شواهده في كونه عاماً مكملاً ومتمماً لدين الله على ألسنة رسله في الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ وفي الكلام على الرسل من المقصد الثاني. وإنما تفصيل أصوله في تلك الوحدات الثمان التي بيناها في المقصد الرابع.

٤ ـ كونه يسراً لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاق ولا إعنات، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال بلغت حكمته ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ [البقرة: ٢٢] وقال عظمت رأفته ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال جلت منته ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما

جعل عليكم في الدين من حرج﴾ [الحج: ٢٧] وقال عمت رحمته ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ [المائدة: ٧].

ومن فروع هذا الأصل أن الواجب الذي يشق على المكلف أداؤه ويحرجه يسقط عنه إلى بدل أو مطلقاً كالمريض الذي يرجى برؤه والذي لا يرجى برؤه ومثله الشيخ الهرم ـ الأول يسقط عنه الصيام ويقضيه كالمسافر، والثاني لا يقضي بل يكفر بإطعام مسكين إذا قدر. وأما المحرم فيباح للضرورة بنص القرآن، وإن كان تحريمه أو النهي عنه لسد ذريعة الفساد فيباح للحاجة كما بيناه في تفسير آيات الربا وآيات الصيام، وآية محرمات الطعام.

وقد بينا مسألة يسر الإسلام العام بالتفصيل في تفسير ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ [المائدة: ١٠٤] من الجزء السابع وجمع في رسالة خاصة.

٥ ـ منع الغلو في الدين وإبطال جعله تعذيباً للنفس بإباحة الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء وقد فصلنا ذلك في تفسير الآيات الواردة في الأمر بالأكل من الطيبات في سورة البقرة وسورة المائدة وفي تفسير ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢] وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم﴾ وهو في (المائدة: ١٧١) و (الأنعام: ٧٧) وفي هذا النهي اعتبار للمسلمين لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر. والأحاديث الصحيحة في نهي المسلمين عن الغلو في العبادة وعن ترك الطيبات وعن الرهبانية والخصاء مبينة لهذه الآيات وهي مصداق تسمية النبي ﷺ له بالحنيفية السمحة.

٦ ـ قلة تكاليفه وسهولة فهمها وقد كان الأعرابي يجيء النبي ﷺ من البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه في مجلس واحد فيعاهده على العمل به فيقول: «أفلح الأعرابي إن صدق» وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له. ولكن الفقهاء أكثروا التكاليف بآرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بها متعسراً، والعمل بها متعذراً.

٧ ـ انقسام التكليف إلى عزائم ورخص، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص وابن عمر يرجح العزائم. والناس درجات في التقصير والتشمير والاعتدال، فيوافق البدوي الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات، قال الله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ [فاطر: ٢٢].

٨ ـ نصوص الكتاب وهدي السنة مراعى فيهما درجات البشر في العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها، فالقطعي منها هو العام، وغير القطعي تتفاوت فيه الأفهام، فيأخذ كل أحد منه بما أداه إليه اجتهاده، ولذلك كان ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعل عند ما نزلت آية البقرة في الخمر والميسر الدالة على تحريمهما دلالة ظنية فتركهما بعضهم دون بعض، وأقر كلاً على اجتهاده إلى أن نزلت آيتا المائدة بالتحريم القطعي. قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ [العنكبوت: ٤٣] وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعي يفهمه كل أحد، والأول مذهب الحنفية وأما الثاني وهو التحريم فهو مذهب جمهور السلف أيضاً، وأما الآيات الظنية الدلالة والأحاديث الآحادية الظنية الرواية أو الدلالة فهي موكولة إلى اجتهاد من تثبت عنده في العبادات والأعمال الشخصية، وإلى اجتهاد أولي الأمر في الأحكام القضائية والمسائل السياسية وقد بينا هذا في مواضع من التفسير والمنار.

٩ ـ معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى فليس لأحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا لخليفة المسلمين أن يعاقب أحداً ولا أن يحاسبه على ما يعتقد أو يضمر في قلبه وإنما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم، وقد فصلنا هذا في خلاصة تفسير سورة براءة ـ التوبة.

١٠ ـ مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر فليس لأحد فيها رأي شخصي ولا رياسة، ومدارها في الباطن على الإخلاص لله تعالى وصحة النية، والآيات والأحاديث في الأمرين كثيرة.

المقصد السادس من مقاصد القرآن

بيان حكم الإسلام

السياسي الدولي: نوعه وأساسه وأصوله العامة

الإسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم لأن ما جاء به من إصلاح البشر في جميع شؤونهم الدينية ومصالحهم الاجتماعية والقضائية يتوقف على السيادة والقوة والحكم بالعدل، وإقامة الحق، والاستعداد لحماية الدين والدولة، وفيه أصول وقواعد.

القاعدة الأساسية الأولى للحكم الإسلامي

الحكم في الإسلام للأمة، وشكله شورى، ورئيسه الإمام الأعظم أو (الخليفة) منفذ لشرعه، والأمة هي التي تملك نصبه وعزله، قال الله تعالى في صفات المؤمنين

﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ [الشورى: ٣٨] وقال لرسوله ﷺ: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩] وكان ﷺ يشاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه في كتاب الله تعالى وقد بينت في تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الأمة.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ [النساء: ٥٨] وأولو الأمر هم أهل الحل والعقد والرأي الحصيف في مصالحها الذين تثق بهم الأمة وتتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من سورتها ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به. ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [النساء: ٨٣] فأولو الأمر الذين كانوا مع الرسول وكان الأمر يرد إليه وإليهم في الشؤون العامة للأمة من الأمن والخوف وغيرهما هم الذين كان ﷺ يستشيرهم في الأمور الدقيقة والسرية المهمة. وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة ويعمل برأي الأكثر وإن خالف رأيه كاستشارتهم في غزوة أحد في أحد الأمرين: الحصار في المدينة أو الخروج إلى أحد للقاء المشركين فيه. وكان رأيه ورأي بعض كبار الأمة الأول ورأي الجمهور الثاني فنفذ رأي الأكثر، ولكنه استشار في مسألة أسرى بدر خواص أولي الأمر وعمل برأي أبي بكر، كما فصلناه في تفسير سورة الأنفال.

وقد بينت في تفسير الآية الأولى ما تدل عليه من قواعد الحكم الإسلامي وكونه أفضل من الحكم النيابي الذي عليه دول هذا العصر.

ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائي والسياسي هو حق الأمة المعبر عنها في الحديث بالجماعة أن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين في هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة وفي سائر الأحكام العامة كقوله ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ [التوبة: ١] وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح، وما في معناها من سورة الأنفال والبقرة وآل عمران ومثل قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ [الحجرات: ٩] وكذلك خطابه لهم في أحكام الأموال كالغنائم وتخميسها وقسمتها وأحكام النساء وغيرها (وقد بينا هذا كله في مواضعه من التفسير).

وقد صرح كبار النظار من علماء الأصول بأن السلطة في الإسلام للأمة يتولاها

أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم إذا اقتضت المصلحة عزلهم، قال الإمام الرازي في تعريف الخلافة: هي رئاسة عامة في الدين والدنيا لشخص واحد من الأشخاص وقال في القيد الأخير (الذي زاده على من قبله) هو احتراز عن كل الأمة إذا عزلوا الإمام لفسقه. قال العلامة السعد التفتازاني في شرح المقاصد عند ذكر هذا التعريف وما علل به القيد الأخير: وكأنه أراد بكل الأمة أهل الحل والعقد واعتبر رئاستهم على من عداهم أو على كل من آحاد الأمة اهـ. وقد فصلنا مسألة سلطة الأمة في كتابنا (الخلافة أو الإمامة العظمى).

فهذه القاعدة الأساسية لدولة الإسلام أعظم إصلاح سياسي للبشر قررها القرآن في عصر كانت فيه جميع الأمم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها في أمور دينها ودنياها، وكان أول منفذ لها رسول الله ﷺ فلم يكن يقطع بأمر من أمور السياسة والإدارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأي والمكانة في الأمة، ليكون قدوة لمن بعده.

وثم جرى على ذلك الخلفاء الراشدون فقال الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة خطبها على منبر رسول الله ﷺ عقب مبايعته: أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم، فإذا استقمت فأعينوني، وإذا زغت فقوموني. وقال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من رأى منكم فيّ عوجا فليقوّمه. فقال له أعرابي لو رأينا فيك عوجاً لقومناه بسيوفنا، فقال الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه. وكان يجمع أهل العلم والرأي من الصحابة ويستشيرهم في كل مسألة ليس فيها نص من كتاب الله ولا سنة أو قضاء من رسوله ﷺ وقال الثالث عثمان رضي الله عنه أمري لأمركم تبع. وكذلك كان عمل الخليفة الرابع علي المرتضى رضي الله عنه وكرم وجهه ولا أذكر له كلمة مختصرة مثل هذه الكلمات على المنبر.

وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى، ولا يصح أن يكون حكم الإسلام أدنى من حكم ملكة سبأ العربية فقد كانت مقيدة بالشورى، ووجد ذلك في أمم أخرى، وأن جهل ذلك من جهله من الفقهاء.

ولكن ملوك المسلمين زاغوا بعد ذلك عن هذا الصراط المستقيم إلا قليلاً منهم، وشايعهم علماء الرسوم المنافقون، وخطباء الفتنة الجاهلون، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الأساسية لحكومة دينهم، وكان من حسن حظ الإفرنج في حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذي نصره الله عليهم يقتفي في حكمه إثر الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز وهو صلاح الدين الأيوبي رحمه الله الذي

قال لأحد رجاله المتميزين عنده وقد استعداه على رجل غشه «ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته، فالحق يقضي لك أو عليك» ومعنى عبارة السلطان أنه ليس إلا منفذاً لحكم الشرع ـ كالشحنة وهو صاحب الشرطة ـ وأن القضاة مستقلون بالحكم لأنهم يحكمون بالشرع العادل المساوي بين الناس وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه ثم درسوا تاريخ الإسلام فعرفوا منه ما جهله أكثر المسلمين المتأخرين حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الأمة التي جاء بها الإسلام، وصاروا يدعونها لأنفسهم، ويعيبون الحكومات الإسلامية باستبدادها، ثم بجعل الإسلام نفسه سبب هذا الاستبداد والحكم الشخصي، وصار المسلمون يصدقونهم ويرى المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم أنه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم، فكان هذا من أسباب ضياع أعظم مزايا الإسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملكه.

أصول التشريع في الإسلام

المعروف عند جمهور أهل السنة أن أصول التشريع الأساسية أربعة:

١ ـ القرآن المجيد، والمشهور عند علماء الأصول أن آيات الأحكام العملية فيه من دينية وقضائية وسياسية لا تبلغ عشر آياته، وعدها بعضهم خمسمائة آية للعبادات والمعاملات، والظاهر أنهم يعنون الصريح منها وأكثرها في الأمور الدينية لأن أكثر أمور الدنيا موكولة إلى عرف الناس واجتهادهم.

٢ ـ ما سنه رسول الله ﷺ للعمل والقضاء به من بيان لكتاب الله تعالى وقالوا أيضاً إن أحاديث الأحكام الأصول خمسمائة حديث تمدها أربعة آلاف فيما أذكر.

٣ ـ إجماع الأمة: واتفق الأئمة على الاحتجاج بإجماع الصحابة في الدينيات، وفي إجماع المجتهدين بعدهم تفصيل.

٤ ـ اجتهاد الأئمة والأمراء والقضاة والقواد في الأمور القضائية والسياسية الإدارية والحربية، وخصه بعض الفقهاء بالقياس وأنكر بعضهم القياس وقيده آخرون كما فصلنا ذلك في تفسير آية (المائدة: ١٠١).

وورد في هذا الترتيب أحاديث وآثار تدل على العمل به في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين منها: حديث معاذ أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء»؟ قال أقضي بما في كتاب الله، قال: «فإن لم يكن في كتاب الله»؟ قال فبسنة رسول الله ﷺ قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله» قال أجتهد رأيي لا آلو. قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال الحمد لله الذي وفق

رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ[(١)] رواه أبو داود والترمذي من طريق الحارث بن عمرو وفيه مقال وله شواهد، وأما العمل بهذا الترتيب فهو معروف عن الخلفاء الراشدين وقد بيناه في محله وبه أمر عمر رضي الله عنه قاضيه شريح في كتابه المشهور في القضاء ولكن الفقهاء يقدمون الإجماع حتى العرفي عند علماء الأصول ـ وهو مختلف فيه ـ على النص.

والأصل في شرعية اجتهاد الرأي للحكام حديث «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد»[(٢)] رواه الجماعة كلهم.

بل كان النبي ﷺ يعطي أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة بقوله للواحد منهم «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا»[(٣)] رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث بريدة. وقال مثل ذلك في إنزالهم على ذمة الأمير دون ذمة الله ورسوله لئلا يخفرها.

قواعد الاجتهاد من النصوص

أحكام الكتاب والسنة منها أحكام خاصة بالأعمال والوقائع ومنها قواعد عامة للتشريع، والأحكام الخاصة منها ما هو قطعي الرواية والدلالة لا مجال للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا لمانع شرعي من فوات شرط كدرء حد بشبهة أو عذر ضرورة، وقد أمر عمر رضي الله عنه في المجاعة ألا يحد سارق ومنها ما هو غير قطعي يعمل فيه باجتهاد من يناط به الحكم والتنفيذ من أمير أو قاض أو قائد جيش كما تقدم قريباً في العبادات والمحرمات.

وأما القواعد العامة فهي ما تجب مراعاته في الأحكام المختلفة، وأهمها في الإسلام تحري الحق والعدل المطلق العام، والمساواة في الحقوق والشهادات والأحكام، وتقرير المصالح، ودرء المفاسد، ومراعاة العرف بشرطه، ودرء الحدود بالشبهات وكون الضرورات تبيح المحظورات، وتقدير الضرورة بقدرها ودوران

---

(١) أخرجه أبو داود في الأقضية باب ١١، والترمذي في الأحكام باب ٣، والنسائي في القضاة باب ١١، وابن ماجه في المناسك باب ٣٨، والدارمي في المقدمة باب ٣٠، وأحمد في المسند ١/٣٧، ٥/ ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٢٠، ٢١، ومسلم في الأقضية حديث ١٥، وأبو داود في الأقضية باب ٢، والنسائي في الأحكام باب ٢، والقضاة باب ٣، وابن ماجه في الأحكام باب ٣، وأحمد في المسند ٤/١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٥.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٢، وأبو داود في الجهاد باب ٨٢، والترمذي في السير باب ٤٧، وابن ماجه في الجهاد باب ٣٨، والدارمي في السير باب ٨، وأحمد في المسند ٥/٣٥٨.

المعاملات على اكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل، ونكتفي بالشواهد في العدل والظلم.

نصوص القرآن
في إيجاب العدل المطلق والمساواة فيه وحظر الظلم

لما كان العدل أساس الأحكام وميزان التشريع وقسطاسه المستقيم أكد الله تعالى الأمر به والمساواة فيه بين الناس في السور المكية والمدينة. قال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ [النحل: ٩٠] وقال: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ [النساء: ٥٧] وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ [المائدة: ١٣٥].

أمر تعالى المؤمنين بالمبالغة في القيام بالقسط وهو العدل فإن القوام (بتشديد الواو) صيغة مبالغة للفاعل بالقيام بالأمر وعدم التهاون والتقصير فيه، وبأن تكون شهادتهم في المحاكمات وغيرها لله عز وجل لا لهوى ولا مصلحة أحد، ولو كانت على أنفسهم أو والديهم والأقربين منهم، وأن لا يحابوا فيها غنياً لغناه تقرباً إليه أو تكريماً له، ولا فقيراً لفقره رحمة به وشفقة عليه، ونهاهم عن اتباع الهوى في الحكم أو الشهادة كراهة أن لا يعدلوا فيهما لمراعاة من ذكر من الناس، وأنذرهم عقابه إن لووا ومالوا عن الحق أو أعرضوا عنه.

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ [المائدة: ٨] فهذه الآية متممة لما قبلها فهناك يأمر بالمساواة في العدل والشهادة بين النفس وغيرها، وبين القريب والبعيد، وبين الغني والفقير، وههنا يأمر بالمساواة فيهما بين الإنسان وأعدائه مهما يكن سبب عداوتهم لا فرق فيها بين ديني ودنيوي، فالشنآن البغض والعداوة وقيل مع الاحتقار وقد قال ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا﴾ لا يحملنكم بغضهم وعداوتهم لكم أو بغضكم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم، فالعدل بالمساواة أقرب إلى تقوى الله، وأنذر تارك العدل للشنآن بمثل ما أنذر به تاركه للمحاباة، أنذر كلا منهما بأن الله خبير بما يعمله لا يخفى عليه منه شيء، فهو يحاسبه على عمله وعلى نياته وقصده منه، فيثيبه أو يعاقبه على ما يعلم من أمره.

فالعدل هو الميزان في قوله تعالى: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾

[الشورى: ١٧] وقوله: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس﴾ [الحديد: ٢٥] الآية: فخير الناس من يصدهم عن الظلم والعدوان القرآن، ويليه من يصدهم العدل الذي يقيمه السلطان، وشرهم من لا علاج له إلا السيف والسنان، وهو المراد بالحديد.

فقوام صلاح العالم بالإيمان بالكتاب الذي يحرم الظلم وسائر المفاسد فيتجنبها المؤمن خوفاً من عذاب الله في الدنيا والآخرة ورجاء في ثوابه فيهما، وبالعدل في الأحكام الذي يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان.

ويؤيد قاعدة إقامة العدل ما ورد في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه. فقد ذكر الظلم في مئات من آيات القرآن أسوأ الذكر، وقرن في بعضها بأسوأ العواقب في الدنيا والآخرة، وإن الجزاء عليه فيهما أثر لازم له لزوم المعلول للعلة والمسبب لسبب، وإن الناس هم الذي يظلمون أنفسهم ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩] ومن أثره وعاقبته في الدنيا أنه مهلك الأمم ومخرب العمران. قال تعالى: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ [هود: ١١٧] أي ما كان من شأنه ولا من سنته في نظام الاجتماع أن يهلك الأمم بظلم منه لهم، أو بشرك به يقع منهم، وهم مصلحون في سيرتهم وأعمالهم، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم، كما قال: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ [الكهف: ٥٩] وقال في الأحكام ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة: ٤٥] ورد هذا في حكم القصاص.

قواعد مراعاة الفضائل في الأحكام والمعاملات

من استقرأ الأحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها من شخصية ومدنية وسياسية وحربية يرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والعدل والوفاء بالعهود والعقود، الرحمة والمحبة والمواساة والبر والإحسان، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والعقود والكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت وشره التجارة بالدين والخرافات. وسيأتي الكلام في الإصلاح الحربي.

والعبرة في كل هذه القواعد التي فضل بها الإسلام جميع شرائع الأنبياء وقوانين الحكماء والعلماء أنها قد جاءت على لسان نبي أمي نشأ بين أميين، فهل كانت بوحي نبع بعد الكهولة من نفسه، أم هو كما بلغنا وحي من ربه؟

المقصد السابع
من فقه القرآن (الإرشاد إلى الإصلاح المالي)

(تمهيد) بينا مقاصد القرآن أو أصول فقهه في إصلاح البشر من طريق التديين والإيمان، والعمل والإذعان، ومن طريق العقل والبرهان والفكر والوجدان، ومن طريق الحكم العادل والسلطان، وما يتعلق منه بالأفراد، وما يتعلق منه بوحدة الإنسانية والأجناس، وبقي ما يتعلق فقهه في إصلاح المفاسد الاجتماعية الكبرى الذي يتوقف كماله على ما تقدم كله وهي:

١ ـ طغيان الثروة ودولتها.

٢ ـ عدوان الحرب وقسوتها.

٣ ـ ظلم المرأة واستباحتها.

٤ ـ ظلم الضعفة والأسرى وسلب حريتهما، وهو الرق المطلق ـ ذلك بأن جميع حظوظ الدنيا منوطة بها، ولا يتم الإصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل، والعلم والحكمة والحكم، وإننا نتكلم عليها بالإجمال، مبتدئين بالمال، والآيات فيه تدور على سبعة أقطاب، فنقول:

١ ـ القاعدة العامة في المال كونه فتنة واختباراً في الخير والشر

القاعدة الأساسية للقرآن في المال أنه فتنة أي اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية من معايش ومصالح إذ هو الوسيلة إلى الإصلاح والإفساد، والخير والشر، والبر والفجور، وهو مثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه، وكنزه واحتكاره، وجعله دُولة بين الأغنياء، وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس.

قال الله عز وجل: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقال حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام حين رأى عرش ملكه سبأ مستقراً عنده ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾ [النمل: ٤٠] الآية. وقال: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ [سبأ: ٣٧] الآية وقال: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ [الروم: ٣٩] وقال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة﴾ [آل عمران: ١٤] الآية وقال تعالى: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾ [الأنفال: ٢٨] ومثلها في سورة التغابن الآية: ١٥ ويليها الترغيب في الإنفاق وقصر الفلاح على الوقاية من شح النفس. وقال تعالى: ﴿المال

والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾ [الكهف: ٤٦] انظر هذا مع قوله تعالى في أول هذه السورة وهي الكهف ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ [الكهف: ٧] والمراد من العمل ما يتعلق بما على الأرض من العمران وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه لله بشكره، ثم ما ضربه من المثل بصاحبي الجنتين، والمثل للحياة الدنيا بنبات الأرض.

وقال تعالى في تعليل قسمة الفيء بين مستحقيه ﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ [الحشر: ٧] والدولة بضم الدال المتداول أي لئلا يكون المال محصوراً في الأغنياء متداولاً بينهم وحدهم. وقال تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ [التوبة: ٣٤] الخ الكنز هو المنع من التداول الذي يكون به المال نافعاً للناس.

والشواهد في فتنة المال في القرآن كثيرة تجد الكلام عليها في مواضع من هذا التفسير ولا سيما الجزء العاشر منه فمن الآيات في ارتباط السعادة والفلاح بإنفاق المال والشقاء، بمنعه ما هو للترهيب وما هو للترغيب، وجمع بين الترغيب والترهيب في قوله ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥] الآية أي أن منع إنفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة. ثم قال في الترغيب ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ [البقرة: ١٩٥] وكذا قوله تعالى من سورة الليل [الآيات: ٦ ـ ١١].

ويؤيد ذلك شواهد القطب الثاني من آيات المال وهي:

٢ ـ الآيات في ذم طغيان المال وغروره وصده عن الحق والخير

قال تعالى في سورة العلق ﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾ [العلق: ٦، ٧] أي حقاً إن الإنسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنياً بالمال. وقد نزلت هذه وما بعدها في أبي جهل أشد أعداء النبي ﷺ والإسلام في أول ظهوره وهي أول ما نزل في ذلك. ومثلها سورة ﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ [المسد: ١، ٢] الخ ومثلها سورة الهمزة ﴿الذي جمع مالاً وعدده يحسب أن ماله أخلده﴾ [الهمزة: ٢، ٣] الخ وفي معناهما آيات من سورتي المدثر والقلم وغيرهما.

٣ ـ ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء في إنفاقه

قال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ [آل عمران: ١٨٠] وقال: ﴿الشيطان يعدكم

الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية. فسروا الفحشاء بالبخل أي الشيطان يصدكم عن الإنفاق في سبيل الله بتخويفكم من الفقر ويأمركم بالبخل الذي فحش شره وضرره. وقال بعد الأمر بالإحسان بالوالدين وبذي القربي واليتامى والمساكين والجيران ﴿والله لا يحب كل مختال فخور الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ [النساء: ٣٥، ٣٦] ومن الشواهد آيات التوبة: ٧٧، ٧٨ وآية ٤٧، ٣٨ وآية النساء: ١٩ وآية البقرة: ١٨٨ وآية النساء: ١٦١ وآية النساء: ١٩ وآية التوبة: ٣٤، ٣٥.

٤ ـ مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الإيمان والعمل الصالح

قال تعالى في سورة نوح عليه السلام حكاية عنه ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢] وفي معناه ما حكاه عن هود عليه السلام في سورته [الآية: ٥٢] وفي معناه قوله تعالى من سورة الجن [الآيات: ١٣ ـ ١٧] والأصل في ذلك كله بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين في آخر قصته من سورة طه [الآيتان: ١٢٢ و١٢٣] الآيات.

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التي غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفاً على الأمر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ [التوبة: ٢٨] أي وإن خفتم فقراً يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفقه فيها المشركون في موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالإسلام وفتوحه وغنائمه وكذا قوله للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ [الأنفال: ١٠٠] وكذلك كان، فقد أغنى الله العرب الفقراء عامة ومن أسلم من أولئك الأسرى بالإسلام، فجعلهم أغنى الأمم والأقوام.

وقد امتن الله تعالى على نبيه الأعظم بقوله: ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ [الضحى: ٨] وامتن على قومه بتوفيقهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء والصيف في سورة خاصة بذلك، وسمى المال الكثير خيراً بقوله في صفات الإنسان ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ [العاديات: ٨] وقال: ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين﴾ [البقرة: ١٨٠] الآية.

٥ ـ ما أوجب الله من حفظ المال من الصياغ والاقتصاد فيه

قال تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾ [النساء: ٥] قيام الشيء وقوامه (بالكسر والفتح) ما يستقيم به ويحفظ وثبت، أي جعلها قوام معايشكم ومصالحكم، والسفهاء هم المسرفون المبذرون لها لصغر سنهم دون الرشد

أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم وقال تعالى في صفات المؤمنين ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾ [الفرقان: ٦٧] الإسراف التبذير والإفراط والقتر والقتور والإقتار الإقلال والتضييق في النفقة.

٦ ـ إنفاق المال آية الإيمان والوسيلة لحياة الأمة وعزة الدولة

هذا هو القطب الأعظم من أقطاب الآيات المنزلة في المال وأكثرها فيه، وما ذكر قبله وسائل له وما بعده بيان للعمل به، وأظهر الشواهد فيه أن الله تعالى جعله هو الفصل بين الإسلام الصحيح المقترن بالإذعان، المبني على أساس الإيمان، وأن دعوى الإيمان بدون شهادته باطلة، وإن كانت دعوى الإسلام تقبل مطلقاً لأن أحكامه العملية تبنى على الظواهر، والله تعالى هو الذي يحاسب على السرائر.

والأصل في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ [الحجرات: ١٤، ١٥] الآيتين فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تحقيق صحة الإيمان. ويلي هذا الشاهد آية البر الناطقة بأن بذل المال على حبه بالاختيار، أول آيات الإيمان، ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ [البقرة: ١٧٧] الخ.

ومن الآيات في تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم في ذلك قوله تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى﴾ [النساء: ٩٥] اقرأ تتمة الآية وما بعدها. وقال تعالى: ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى﴾ [الحديد: ١٠] ومن الآيات البليغة في الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه، وبيان آدابه، عشرون آية من أواخر سورة البقرة هي من أواخر ما نزل من القرآن يتخللها الوعيد الشديد على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١ ـ ٢٨١ مع تفسيرها من جزء التفسير الثالث.

ثم راجع في فهرس الجزء العاشر كلمة (المال: الجهاد به أقوى آيات الإيمان وقوام الدين والدولة) يرشدك إلى عشر صفحات متفرقة فصلنا فيها هذه المسألة.

٧ ـ الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والإصلاح المالي في الإسلام

قد عقدت لتفسير قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ [التوبة: ١٠٣] فصلاً «في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والإصلاح المالي للبشر

وامتياز الإسلام بذلك على جميع الأديان» ولخصت أصول هذا الإصلاح في أربعة عشر أصلاً، فراجعها فما هي منك ببعيد.

وموضوع بحثنا في هذا الاستطراد وهو دلائل الوحي المحمدي أنه لا يعقل أن يكون محمد النبي الأمي الذي عرفنا خلاصة تاريخه قد اهتدى بعقله أو بوحي من نفسه لنفسه إلى هذه الحقائق التي فاقت وعلت جميع الكتب الإلهية والبشرية في أرقى عصور العلم والحكمة والقوانين، وإنما المعقول أن يكون هذا بوحي منه عز وجل أفاضه على خاتم النبيين فلا يحتاجون بعده إلى وحي آخر.

المقصد الثامن من فقه القرآن

إصلاح نظام الحرب
ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر

التنازع بين الأحياء في مرافق المعيشة ووسائل المال والجاه غريزة من غرائز الحياة، وإفضاء التنازع إلى التعادي والاقتتال بين الجماعات والأقوام، سنة من سنن الاجتماع، أو ضرورة من ضروراته، قد يكون وسيلة من وسائل العمران، فإن كان التنازع بين الحق والباطل كان الفلج للحق، وإن كان بين العلم والجهل كان الظفر للعلم، وإن كان بين النظام والاختلال كان النصر للنظام، وإن كان بين الصلاح والفساد كان الغلب للصلاح، كما قال تعالى في الحق والباطل ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ [الأنبياء: ١٨] وقال في بيان نتيجة المثل الذي ضربه لهما ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ [الرعد: ١٧].

وأما التنازع والتعادي والتقاتل على الشهوات الباطلة، والسلطة الظالمة، واستعباد القوي للضعيف، والاستكبار والعلو في الأرض، فإن ضرره كبير، وشره مستطير، يزيد ضراوة البشر بسفك الدماء، ويورثهم الحقد ويؤرّث بينهم العداوة والبغضاء، وقد اشتدت هذه المفاسد في هذا الزمان، حتى خيف أن تقضي على هذا العمران العظيم في وقت قصير، بما استحدثه العلم الواسع من وسائل التخريب والتدمير، كالغازات السامة ومواد الهدم والتحريق تقذفها الطيارات المحلقة في جو السماء، على المدائن المكتظة بالألوف من الرجال والنساء والأطفال، فتقتلهم في ساعة واحدة أو ساعات معدودة.

وقد حارت الدول الحربية في تلافي هذا الخطر، وترى دهاقين السياسة في كل منها يتفاوضون مع أقرانهم لوضع نظام لتقرير السلام، ودرء مفاسد الخصام، بمعاهدات يعقدونها، وأيمان يتقاسمونها، ثم ينفضون خائبين، أو ينقضون ما أبرموا متأولين، ويعودون إلى مثله مخادعين.

وقد بين الله تعالى في كتابه سبب هذه الخيبة بما وجدنا مصداقه في هذه الدول بأظهر مما كان في عرب الجاهلية الذين نزل هذا البيان في عهدهم، كأنه نزل في هؤلاء الإفرنج دون غيرهم، وهو من عجائب القرآن في لفظه ومعناه. وذلك قوله تعالى بعد الأمر بالإيفاء بعهده، والنهي عن نقضه ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾ [النحل: ٩٢] والمعنى لا تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كالمرأة الحمقاء التي تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث (وهو جمع نكث بالكسر ما نقض ليغزل مرة أخرى) حال كونكم تتخذون عهودكم دخلاً بينكم (والدخل الفساد والغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه) لأجل أن تكون أمة أربى من أمة أخرى رجالاً، وأكثر ربحاً ومالاً، وأقوى أسنة ونصالاً.

والمراد أن معاهدات الصلح والاتفاق بين الأمم يجب أن يقصد بها الإصلاح والعدل والمساواة فتبنى على الإخلاص دون الدخل والدغل الذي يقصد به ما ذكر.

ولو طلبوا المخرج والسلامة من هذا الخطر لوجدوهما في دين الإسلام، فهو هو دين الحق والعدل والسلام، وهاك بعض الشواهد على هذا من قواعد الحرب والسلم في آيات القرآن.

أهم قواعد الحرب والسلام، في دين الإسلام والشواهد عليها من آيات القرآن

قد استنبطنا من آيات سورة الأنفال ٢٨ قاعدة من القواعد الحربية العسكرية والسياسية في القتال والصلح والمعاهدات أجملناها في الباب السابع من خلاصة تفسير السورة (من جزء التفسير العاشر) وأحلنا في تفصيلها على تفسير الآيات المستنبطة منها، ثم استنبطنا من آيات سورة التوبة ١٣ قاعدة حربية أكثرها في المعاهدات ووجوب الوفاء بها وشرط نبذها وفي الهدنة وتأمين الحربي للدخول في دار الإسلام ـ و٢٠ حكماً من أحكام الحرب والجزية سردناها في خلاصة تفسير هذه السورة ثم أتينا ببضع قواعد منهما ومن غيرهما من السور فيما أفردناه من هذا البحث، لأن المقام مقام إيراد الشواهد المجملة على أنواع الإصلاح الإسلامي من القرآن للاستدلال بها على أن جملة هذه العلوم لا يعقل أن تكون كلها من آراء محمد النبي الأمي الذي عاش قبل النبوة عيشة العزلة والانفراد، إلا قليلاً من رعي الغنم في الصبا والتجارة في الشباب. وقد قصرت عن كل نوع منها كتب الأديان الإلهية، وكتب الحكمة والقوانين البشرية.

القاعدة الأولى: في الحرب المفروضة شرعاً

ورد الأمر بقتال المعتدين لما سيأتي من دره المفاسد وتوطيد المصالح مقترناً

بالنهي عن قتال الاعتداء والبغي والظلم، والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ [البقرة: ١٩٠] وتعليل النهي عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقاً دليل على أن هذا النهي محكم غير قابل للنسخ، ومن ثم بينا في تفسير هذه الآية من جزء التفسير الثاني أن حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعاً ليس فيها شيء من العدوان.

القاعدة الثانية: في الغرض من الحرب ونتيجتها

وهي أن تكون الغاية الإيجابية من القتال ـ بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن ـ حماية الأديان كلها، وعبادة المسلمين لله وحده، ومصلحة البشر، وإسداء الخير إليهم، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم، والشاهد الأول عليه قوله تعالى بعد الأذن الأول بالقتال الدفاعي للمظلومين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق لأجل عبادة الله وحده ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

ذكر في تعليل إذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور (**أولها**) كونهم مظلومين معتدى عليهم في أنفسهم، ومخرجين نفياً من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم، وهذا سبب خاص بهم بقسميه الشخصي والوطني، أو الديني والدنيوي.

ثانيها: أنه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الأنبياء كصوامع العباد وبيع النصارى وصلوات اليهود (كنائسهما) ومساجد المسلمين بظلم عباد الأصنام ومنكري البعث والجزاء، وهذا سبب ديني عام صريح في حرية الدين في الإسلام وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها وكذلك كان.

ثالثها: أن يكون غرضهم من التمكن في الأرض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للأنفس بنهيها عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى، والمربية للأنفس على مراقبة الله وخشيته ومحبته ـ وإيتاء الزكاة المصلحة للأمور الاجتماعية، والاقتصادية ـ والأمر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع للناس ـ والنهي عن المنكر الشامل لكل شر وضر يلحق صاحبه أو غيره من الناس.

القاعدة الثالثة ـ إيثار السلم على الحرب

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها إذ علم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد، وأن السلم هي الأصل التي يجب

أن يكون عليها الناس، فلهذا أمرنا الله بإيثارها على الحرب إذا جنح العدو لها، ورضي بها، والشاهد عليه قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ [الأنفال: ٦١] فراجع تفسيرها في جزء التفسير العاشر.

القاعدة الرابعة: الاستعداد التام للحرب لأجل الإرهاب المانع منها

إن الذي يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الأمة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ورباط الخيل في كل زمان بحسبه على أن يكون القصد الأول من ذلك إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الأمة أو مصالحها، أو على أفراد منها أو متاع لها حتى في غير بلادها، لأجل أن تكون آمنة في عقر دارها، مطمئنة على أهلها ومصالحها وأموالها، وهذا ما يسمى في عرف هذا العصر بالسلم المسلحة أو التسلح السلمي، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعاً فتكذبها أعمالها، ولكن الإسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله ديناً مفروضاً، فقيد به الأمر بإعداد القوي والمرابطة للقتال، وذلك قوله عز وجل: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ [الأنفال: ٦٠].

القاعدة الخامسة: الرحمة في الحرب

إذا كان الغلب والرجحان في القتال للمسلمين المعبر بالإثخان في الأعداء وأمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم فالله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل، ويكتفوا بالأسر، ثم يخيرهم في الأسارى إما بالمن عليهم بإطلاقهم بغير مقابل، وإما بأخذ الفداء عنهم، وذلك نص قوله تعالى في سورة محمد ﷺ ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ [محمد: ٤] الآية وقد أوردناها وبينا معناها (في تفسير ٨: ٦٧ ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى يثخن في الأرض﴾ الآية (راجع تفسيرها في الجزء العاشر).

القاعدة السادسة: الوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة فيها

وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما سراً أو جهراً، كتحريم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية، كلاهما من أحكام الإسلام القطعية، والآيات في ذلك متعددة محكمة لا تدع مجالاً لإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة، وعده قصاصة ورق عند إمكان نقضه بالحيلة (منها) والآيات فيها كثيرة تقدم أهمها في الجزء العاشر من التفسير.

القاعدة السابعة: الجزية وكونها غاية للقتال لا علة

قلت في تفسير قوله تعالى في قتال أهل الكتاب من آية الجزية ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [التوبة: ٢٩] ما نصه:

هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهي بها إذا كان الغلب لنا، أي قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضي وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم كما فعل الروم فكان سبباً لغزوة تبوك، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية في الحالين اللذين قيدت بهما (ثم قلت).

هذا ـ وإن الجزية في الإسلام لم تكن كالضرائب التي يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلاً عن المغارم التي يرهقونهم بها، وإنما هي جزاء قليل على بما تلتزمه الحكومة الإسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذي يمنعهم أي يحميهم ممن يعتدي عليهم كما يعلم من سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة وأعدلهم في تنفيذها. والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها في تفسير الآية بعد ما تقدم آنفاً.

ومن تأمل هذه القواعد رأى أنه لم يسبق الإسلام إلى مثلها دين من الأديان، ولا قانون دولي، ولا إرشاد فلسفي أو أدبي، ولا تبعته بها أمة بتشريع ولا عمل. أفليس هذا وحده دليلاً واضحاً لدى من يؤمن بوجود رب للبشر عليم حكيم، بأن محمداً العربي الأمي قد استمدها بوحي منه عز وجل، وأن عقله وذكاءه لم يكن ليبلغ هذه الدرجة من العلم والحكمة في هذه المعضلات الاجتماعية بدون هذا الوحي؟ فكيف إذا أضفنا إليها ما تقدم وما يأتي من المعارف الإلهية والأدبية والاجتماعية والأنباء الغيبية وغير ذلك من دلائل نبوته ﷺ؟

المقصد التاسع من فقه القرآن

إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية

كان النساء قبل الإسلام مظلومات ممتهنات مستعبدات عند جميع الأمم وفي جميع شرائعها وقوانينها، حتى عند أهل الكتاب، حتى جاء الإسلام، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فأعطى الله النساء بكتابه الذي أنزله عليه، وبسنته التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل، جميع الحقوق التي أعطاها للرجال، إلا ما يقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الأحكام، مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها، حتى كان النبي ﷺ يقول: «ما أكرم

النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم» رواه ابن عساكر من حديث علي (ع م).

وإنني أشير هنا إلى أهم أصول الإصلاح النسوي التي بسطتها بكتاب وسيط في حقوق النساء في الإسلام بينت في مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدية عند أمم الأرض إجمالاً بقولي:

«كانت المرأة تشترى وتباع، كالبهيمة والمتاع، وكانت تكره على الزواج وعلى البغاء، وكانت تورث ولا ترث، وكانت تُملَك ولا تملِك، وكان أكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل، وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بمالها من دونها، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها إنساناً ذا نفس وروح خالدة كالرجل أم لا؟ وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة أم لا؟ فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة، وأن يكم فمها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك والكلام، لأنها أحبولة الشيطان، وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته، وكان بعض العرب يرون أن للأب الحق في قتل بنته بل في وأدها «دفنها حية» أيضاً. وكان منهم من يرى أنه لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية».

وكتبت في مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية في الإسلام ما مختصره «قد أبطل الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن، واستبداد أزواج المتزوجات منهن بأموالهن، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والصدقة وغير ذلك. ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضي وغيره من الأعمال المشروعة، وأن المرأة الفرنسية لا تزال إلى اليوم مقيدة بإرادة زوجها في جميع التصرفات المالية، والعقود القضائية».

وإنني ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بالإيجاز:

١ ـ كان بعض البشر من الإفرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الأعجم أو من الشياطين لا من نوع الإنسان وبعضهم يشك في ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم قوله الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى﴾ [الحجرات: ١٣] الآية وقوله: ﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾ [النساء: ١] وما في معناهما.

٢ ـ كان بعض البشر في أوروبة وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً فجاء الإسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معاً بلقب المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات.

كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة وهي زوجه خديجة بنت خويلد (رض) وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء في نص القرآن ثم بايع الرجال بما جاء فيها ـ ولما جمع القرآن في مصحف واحد جمعاً رسمياً وضع عند امرأة هي حفصة أم المؤمنين وظل عندها من عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق إلى عهد الخليفة الثالث عثمان (رض) فأخذ من عندها واعتمدوا عليه في نسخ المصاحف الرسمية التي كتبت وأرسلت إلى الأمصار لأجل النسخ عنها والاعتماد عليها.

٣ ـ كان بعض البشر يزعمون أن المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين في جنة النعيم في الآخرة ـ وهذا الزعم أصل لعدم تدينها ـ فنزل القرآن يقول: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤] ويقول: ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ [آل عمران: ١٩٥] الآية وفيها الوعد الصريح بدخول الفريقين جنات تجري من تحتها الأنهار.

٤ ـ كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلا للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية والمحافل الأدبية، ولا في غيرهما من الأمور الاجتماعية والسياسية والإرشادات الإصلاحية، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ [التوبة: ٧١] الآية ثم قال: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم﴾ [التوبة: ٧٢] فراجع تفسيرهما في جزء التفسير العاشر.

٥ ـ كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره من التملك وبعضهم يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن، فأبطل الإسلام هذا الظلم وأثبت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن في دائرة الشرع، قال الله تعالى: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو أكثر نصيباً مفروضاً﴾ [النساء: ٧] وقال: ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ [النساء: ٣٢].

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الأميركية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب في عصرنا هذا، وأن المرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بإرادة زوجها في التصرفات المالية والعقود القضائية، وقد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن.

٦ ـ كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضرباً من استرقاق الرجال للنساء فجعله الإسلام عقداً دينياً مدنياً لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والإلفة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الإنسانية وانتشارها من الوالدين إلى الأولاد، على ما أرشد إليه قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الروم: ٣٠].

٧ ـ القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لأنه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل في الزوجات ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ [النساء: ٣٤] فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والأولاد لا تكلف الزوجة منه شيئاً ولو كانت أغنى منه، وزادها المهر فالمسلم يدفع لامرأته مهراً عاجلاً مفروضاً عليه بمقتضى العقد حتى إذا لم يذكر فيه لزمه فيه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية، ولهما أن يؤجلا بعضه بالتراضي، على حين نرى بقية الأمم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل.

وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره أو يعضلونها بالمنع منه مطلقاً وإن كان زوجها وطلقها فحرم الإسلام ذلك، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته وتقدم بيانها في الجزء الثاني من التفسير.

٨ ـ كان الرجال من العرب وبني إسرائيل وغيرهم من الأمم يتخذون من الأزواج ما شاؤوا غير مقيدين بعدد، ولا مشترط عليهم فيه العدل، فقيدهم الإسلام بأن لا يزيدوا على أربع، وأن من خاف على نفسه أن لا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة، وإنما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والإحصان لأنها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع ولا سيما حيث يقل الرجال ويكثر النساء.

وقد فصلنا ذلك في تفسير آية التعدد من سورة النساء ثم زدنا عليه في كتاب (حقوق النساء في الإسلام) ما هو مقنع لكل عاقل منصف بأن ما شرعه الإسلام في التعدد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر.

٩ ـ الطلاق قد يكون ضروره من ضروريات الحياة الزوجية إذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الإحصان والنفقة والمعاشرة بالمعروف، وكان مشروعاً عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم، وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله فجاء الإسلام فيه بالإصلاح الذي لم يسبقه إليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون، وكان الإفرنج يحرمونه ويعيبون الإسلام به، ثم اضطروا إلى إباحته، فأسرفوا فيه إسرافاً منذراً بفوضى الحياة الزوجية وانحلال روابط الأسرة والعشيرة.

جعل الإسلام عقدة النكاح بيد الرجال ويتبعه حق الطلاق لأنهم أحرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات في عقدها وحلها وكونهم أثبت من النساء جأشا وأشد صبراً على ما يكرهون، وقد أوصاهم الله تعالى على هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على ما يكرهون من نسائهم فقال: ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [النساء: ١٩] على أن الشريعة تعطي المرأة حق اشتراط جعل عصمتها بيدها لتطلق نفسها إذا شاءت وأعطتها حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضي إذ وجد سببه من العيوب الخلقية أو المرضية كالرجل وكذا إذا عجز الزوج عن النفقة. وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التي لا يحل لها فيها الزواج، وذم النبي ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتنفير عنه ـ إلى غير ذلك من الأحكام التي بيناها في تفسير الآيات المنزلة فيها وفي كتابنا الجديد في حقوق النساء في الإسلام.

١٠ ـ بالغ الإسلام في الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى، وأكد النبي ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدماً على بر الأب، ثم بالغ في الوصية بتربية البنات وكفالة الأخوات، بأخص مما وصى به من صلة الأرحام، بل جعل لكل امرأة قيماً شرعياً يتولى كفايتها والعناية بها، ومن ليس لها ولي من أقاربها وجب على أولي الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها.

وجملة القول إنه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الأمم أعطى النساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق والعناية والكرامة، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم لمحمد النبي الأمي المبعوث في الأميين؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين المبرهنين، والحمد لله رب العالمين.

المقصد العاشر من فقه القرآن تحرير الرقبة

إن استرقاق الأقوياء للضعفاء قديم في شعوب البشر، بل هو معهود في الحشرات التي تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضاً كالنمل، فإذا حاربت قرية منه

أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فإنها تأسر ما سلم من القتال وتستعبده في خدمة الظافر من البناء وجمع المؤونة وخزنها في مخازنها وغير ذلك.

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الأعمال، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية، وظل الرقيق مشروعاً عند الإفرنج إلى أن حررت الولايات الأميركية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ولم يكن عمل كل منهما خالصاً لمصلحة البشر وجنوحاً للمساواة بينهم، فإن الأولى لا تزال تفضل الجنس الأبيض الأوروبي المتغلب على الجنس الأحمر الوطني الأصلي بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الإفرنج للشعوب، كما أن إنكلترة تحتقر الهنود وتستذلهم، ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلوائهم، وطأمنت من إشناق كبريائهم.

فلما ظهر الإسلام، وأشرق نوره الماحي لكل ظلام، كان مما أصلحه من فساد الأمم إبطال ظلم الرقيق وإرهاقه، ووضع الأحكام لإبطال الرق بالتدريج السريع، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين: ناحية مصالح السادة المسترقين، وناحية معيشة الأرقاء المستعبدين.

فإن الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الأرض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجدها فيحور إلى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان وكذلك جرى في السودان المصري، فقد جرب الحكام من الإنكليز أن يجدوا لهم رزقاً بعمل يعملونه مستقلين فيه مكتفين به فلم يمكن، فاضطروا إلى الإذن لهم بالرجوع إلى خدمة الرق السابقة، بيد أنها لا تسمح للمخدومين ببيعهم والاتجار بهم.

هداية الإسلام في تحرير الرقيق وأحكامه

قد شرع الله تعالى لإبطال الرق طريقتين: عدم تجديد الاسترقاق في المستقبل، وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذي لا ضرر ولا ضرار فيه.

الطريقة الأولى: منع الإسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الأقوياء للضعفاء إلا استرقاق الأسرى والسبايا في الحرب التي اشترط فيها ما تقدم بيانه من دفع المفاسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة وهي شروط لم تكن قبله مشروعة عند المليين، ولا عند أهل الحضارة فضلاً عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون، ولست أعني بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الأمم تفعله معاملة لهم بالمثل، بل شرع لأولي الأمر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في إمضائه أو إبطاله بأن خيرهم في أسرى الحرب

الشرعية بين المنّ عليهم بالحرية والفداء بهم، وهو نوعان فداء المال وفداء الأنفس، إذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم، وذلك قوله تعالى الذي أوردناه في قواعد الحرب ﴿فشدُّوا الوَثاقَ فإما منا بعدُ وإما فداء﴾ [محمد: ٤] ولما كنا مخيرين فيهم بين إطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم، جاز أن يعد هذا أصلاً شرعياً لإبطال استئناف الاسترقاق في الإسلام، فإن ظاهر التخيير بين هذين الأمرين أن الأمر الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز، لو لم يعارضه أنه هو الأصل المتبع عند جميع الأمم، فمن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن أرحم بهم وأعدل كما يعلم مما يأتي. ولكن الآية ليست نصاً في الحصر، ولا صريحة في النهي عن الأصل، فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقاً غير قطعية، فبقي حكمه محل اجتهاد أولي الأمر، إذا وجدوا المصلحة في إبقائه أبقوه، وإذا وجدوا المصلحة في ترجيح المن عليهم بالحرية وهو إبطال اختياري له أو الفداء بهم عملوا به.

الطريقة الثانية: ما شرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوباً وندباً وهو أربعة أنواع

النوع الأول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازبة وفيه عشر مسائل

١ ـ إن الأصل في الإنسان هو الحرية ويترتب عليه أحكام.

٢ ـ تحريم الاسترقاق وبطلانه غير ما تقدم بشرطه.

٣ ـ الكتابة وهي شراء المملوك نفسه من سيده بمال يكسبه وقد أمر الله بها لمن يبتغيها وأمر بمساعدته عليه بالمال من المالك نفسه.

٤ ـ إذا خرج الأرقاء من دار الكفر إلى دار الإسلام يصيرون أحراراً.

٥ ـ من أعتق بعض عبده عتق كله عليه وإن كان البعض الآخر لغيره فله أحكام.

٦ ـ من عذب مملوكه أو مثل به كأن خصاه أوجبه عتق عليه وزال ملكه عنه.

٧ ـ من آذى مملوكه بما دون التمثيل والعذاب الشديد فكفارة ذنبه أن يعتقه.

٨ ـ التدبير عتق لازم وهو أن يعتق مملوكه بعد موته فله أن يستخدمه مدة حياته ولكن ليس له أن يبيعه لأنه صار حراً بعد موته.

٩ ـ إذا ولدت الجارية لسيدها ولداً منه حرم عليه بيعها وهبتها لغيره وتصير حرة بموته لا تورث عنه.

١٠ ـ من ملك أحد أقاربه عتق عليه وقد بينا الآيات والأحاديث الدالة على هذه الأحكام في كتاب (الوحي المحمدي) الذي بسطنا به هذا البحث من التفسير.

النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات

والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام:

أحدها: واجب حتم على القادر على العتق بملك الرقبة أو ثمنها ككفارة قتل النفس خطأ، وكفارة الظهار وهو تشبيه الرجل زوجه بأمه وكان طلاقاً في الجاهلية، وكفارة إفساد الصيام عمداً بشرطه وقيده المعروفين في الفقه.

ثانيها: واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يميناً وحنث فيها فكفارته إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة.

ثالثها: مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها.

النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود

جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة في الرقاب بنص القرآن، هو يشمل العتق والإعانة على شراء المملوك نفسه الكتابة ومن المعلوم أن زكاة الأمة الإسلامية قد تبلغ مئات الألوف وألوف الألوف من الدراهم والدنانير، فلو نفذت أحكام الإسلام فيها وحدها لأمكن تحرير جميع الرقيق في دار الإسلام.

النوع الرابع
منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى أي ابتغاء مرضاته

قد ورد في الكتاب والسنة وآثار السلف من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير، ومما يدل على أنه من أعظم العبادات وأصول البر آية البر من سورة البقرة (١٧٦).

ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله ﷺ «أيما رجل أعتق امرءاً مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار»[١] متفق عليه من حديث أبي هريرة، وفي رواية «عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه»[٢] وحديث أبي ذر قال سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله وجهاد في سبيله» قلت فأي الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها»[٣] الحديث.

ومنها حديث أبي موسى الأشعري الذي رواه الجماعة كلهم إلا مالك «أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله

---

(١) أخرجه البخاري في العتق باب ١، ومسلم في العتق حديث ٢٤، وأحمد في المسند ٢/ ٥٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في الكفارات باب ٦، ومسلم في العتق حديث ٢٢، ٢٣، والترمذي في النذور باب ١٤، وأحمد في المسند ٢/ ٤٢٠، ٤٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في العتق باب ٢، والكفارات باب ٦، ومسلم في الإيمان حديث ١٣٦، وابن ماجه في العتق باب ٤، ومالك في العتق حديث ١٥، وأحمد في المسند ٢/ ٣٨٨، ٥/ ١٥٠، ١٧١، ٢٦٥.

أجران»(١) وفي الصحيح أن أبا هريرة لما روى قوله ﷺ «للمملوك الصالح أجران» قال والذي نفسي بيده لولا الجهاد والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك(٢).

الوصية بالمماليك

أضف إلى هذا وصايا الله ورسوله بالمماليك ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين، ونهى النبي ﷺ عن قول السيد «عبدي وأمتي» وأمره أن يقول: «فتاي وفتاتي وغلامي»(٣) وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون، ويعينوهم على خدمتهم إن كلفوهم ما يغلبهم كما في حديث أبي ذر في الصحيحين وغيرهما وكان يوصي بالنساء وما ملكت الإيمان حتى في مرض موته إلى أن التحق بالرفيق الأعلى ﷺ وسأله ابن عمر كم أعفو عن الخادم؟ قال: «اعف عنه كل يوم سبعين مرة»(٤) وهذا مبالغة أي كلما أذنب.

ولهذا كان المسلمون في الصدر الأول يبالغون في تكريم الرقيق ومعاملتهم بالحلم حتى صاروا يقصرون في الخدمة ولعمر الحق إن العبد المملوك في حكم الإسلام الأول كان أعز نفساً وأطيب عيشاً من جميع الأحرار الذين ابتلوا في هذه العصور بحكم دول الإفرنج من غيرهم أو نفوذهم، وإن حكومة الولايات المتحدة لتعامل الجنس الأحمر من سكان البلاد الأصليين الذين تمن عليهم بالحرية بغير الأحكام التي تعامل بها الجنس الأبيض حتى أن من اعتدى منهم على امرأة بيضاء يقتل شر قتلة ـ إن لم تقتله الحكومة قتله الشعب ـ بخلاف العكس، ولا يتسع هذا المقام لتفصيل ذلك والشواهد عليه.

خلاصة البحث

راجع ما تقدم من الكلام على الوحي والنبوة وآيات الأنبياء عندنا وعند النصارى ومن الكلام في تفنيد شبهة الوحي النفسي، والكلام في إعجاز القرآن اللغوي والعلمي.

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب ١٢، والعلم باب ٣١، والأنبياء باب ٤٨، ومسلم في الإيمان حديث ٢٤١، والترمذي في النكاح باب ٢٥، والنسائي في النكاح باب ٦٥، وابن ماجه في النكاح باب ٤٢، والدارمي في النكاح باب ٤٦، وأحمد في المسند ٤/ ٣٩٥، ٤٠٢، ٤١٤.

(٢) أخرجه البخاري في العتق باب ١٦، ومسلم في الأيمان حديث ٤٤، وأحمد في المسند ٢/ ٣٣٠، ٤٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في العتق باب ١٧، ومسلم في الألفاظ حديث ١٣، ١٥، وأبو داود في الأدب باب ٧٥، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٦، ٤٢٣، ٤٦٣، ٤٨٤، ٤٩١، ٥٠٨.

(٤) أخرجه الترمذي في البر باب ٣١.

وما أحدثه من الانقلاب البشري من كل وجه، ثم أضف إليها هذه العشرة الأنواع من مقاصد القرآن، في إصلاح البشر وتكميل نوع الإنسان، من جميع نواحي التشريع الروحي والأدبي والاجتماعي والمالي والسياسي، وهي التي اشتدت حاجة الشعوب والدول في هذا العصر إليها موضحة بأصول وقواعد هي أصح وأكمل وأكفل للمصالح العامة، ودفع المفاسد القديمة والطارئة، من كل ما سبقها من تعاليم الأنبياء، وفلسفة الحكماء، وقوانين الملوك والحكام، على اختلاف الأعصار، مع العلم القطعي من تاريخ محمد ﷺ أنه كان أمياً يؤثر بطبعه عيشة العزلة فلم يتفق له الاطلاع على كتب الأنبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين، وأنه لم يعرف عنه أنه كان يبحث في شيء من العلوم، ولا أنه نطق بشيء من مسائلها. والعلم بأنه إنما جاء بها في هذا القرآن بعد استكمال سن الأربعين ـ وهي سن لم يعرف في استعداد أنفس البشر ومدركات عقولهم ولا في تاريخهم أن صاحبها يأتنف مثلها ائتنافاً لم يسبق له البدء بشيء منه في أنف عمره، وآنفة شبابه وشرخه، راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عقلك مضطراً إلى الجزم بأن هذا كله فوق استعداد بشر أمي أو متعلم وأنه وحي من الله تعالى.

فإذا فرضنا أنه يحتمل أن يكون قد تسرب إلى ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيرهم ممن لقي في أسفاره القليلة، أو أنه فكر في حاجة البشر إلى مثلها مما أدركه بذكائه الفطري من سوء حالهم، فهل يعقل أن تكون تلك الفلتات الشاردة، وهذه الخطوات الواردة، تبلغ هذا الحد من التحقيق والوفاء بحاجة الأمم كلها، وأن تظل كلها مكتومة من سن الصبا وعهد حب الظهور إلى أن تظهر في سن الكهولة، بهذه الروعة من البيان، وسلطان البلاغة على القلوب، وقوة البرهان في العقول، فتحدث هذه الثورة في الأمة العربية المغيرة لطباعها، المبدلة لأوضاعها، بحيث تسود بها شعوب المدنية كلها، ويتلو ذلك ما قصه التاريخ من الانقلاب في العالم كله؟ وأعجب من هذا كله أن يظهر في هذا العصر أن أمم العلم والحضارة العجيبة أشد حاجة إليها ممن قبلهم؟ كلا إن هذا لم يعرف مثله في البشر.

وإذ قد ثبت هذا فالواجب على كل من بلغه من البشر أن يتبعه ويهتدي به لتكميل إنسانيته وإعدادها لسعادة الدنيا والآخرة. فإن اعترضته شبهة عليه فليبحث عنها أو لينبذها، فما كان لعاقل ثبت عنده نفع علم الطب أن يترك مراعاته في حفظ صحته أو مداواة مرضه لشبهة في بعض مسائله أو خيبة الأطباء في بعض معالجاتهم للمرضى وأن حاجة البشر إلى طب الأرواح والاجتماع، لأشد من حاجتهم إلى طب الأبدان ﴿قل فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالغَةُ فَلو شاء لهداكم أجمعين﴾ [الأنعام: ١٤٩].

«رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً».

ونعود إلى نسق التفسير باسم الله وحمده.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

افتتح السورة بذكر آيات الكتاب، الناطق بالحكمة وفصل الخطاب، وأنكر على الناس عجبهم أن يوحي ربهم إلى رجل منهم أن يعلمهم به ما لا يعلمون من الدين الذي فيه سعادتهم، منذراً من كفر بالعقاب، ومبشراً من آمن بالثواب، وحكى عن الكافرين وصفهم لهذا الكتاب الحكيم وللرسول الذي جاء به بالسحر، إذ كان كل منهما من خوارق العادات، وقد وجد في البشر مشعوذون ودجالون يأتون ببعض الخوارق التي لا يعرف الجماهير أسبابها، فرأوا أن هذا الكتاب المعجز للبشر بأسلوبه وبلاغته، وبعلمه وحكمته، وبتأثيره في العقول والقلوب، يصح أن يكون أو يوصف بأنه من هذا السحر المعهود وجوده، المجهول سببه، وإن هذا الرجل الذي جاء به ولم يعرف عنه قبله شيء من بلاغة القول، ولا من حكمة التشريع والعلم، يصح أن يعد منتحلاً للسحر، ولكن السحر لم يكن في يوم من الأيام حقائق علمية ولا هداية نافعة كما تقدم، والسحرة لم يكونوا إلا أناساً من المكتسبين بإطلاع الناس على غرائبهم المجهولة لهم، فأين هذا وذاك من القرآن ومن جاء به، من حقائق ساطعة وهو لا يسأل عليها أجراً، ولا يبتغي بها لنفسه نفعاً هي باقية بنفسها وبآثارها النافعة، والسحر باطل لابقاء له؟

فالمتعين عند العقل أن يكون ما فيها من العلو على كلام البشر، والإعجاز الذي قامت به الحجة بالتحدي، وحياً من رب العالمين، ونعمة منه عليهم بهداية الدين، الذي هو لجملتهم، كالعقل لأفرادهم، ووجب على كل من يؤمن بهذا الرب العليم الحكيم، البر الرحيم، أن يؤمن بأن هذا من حكمة ربوبيته ورحمته بالعالمين، وإلا كانت صفاته ناقصة بحرمان هذا الإنسان، من هذا النوع الأعلى من العرفان، والبينات من الهدى والفرقان، ولذلك قفى حكاية عجبهم وما عللوه به، من التذكير بالحجة التي تنقضه من أساسه، فقال عز وجل:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾
هذه الآية دليل على تفنيدهم في عجبهم من وحي القرآن، وبيان للربوبية التي يقتضي كمالها ثبوته وبطلان الشرك، والخطاب فيها للناس الذين عجبوا أن يوحى إلى رجل منهم ما فيه هدايتهم بأسلوب الالتفات المنبه للذهن، يقول لهم إن ربكم هو الله الذي خلق العوالم السماوية التي فوقكم وهذه الأرض التي تعيشون عليها في ستة أزمنة تم في كل يوم منها طور من أطوارها، فإن اليوم في اللغة هو الوقت الذي يحده حدث يحدث فيه، وإن كان ألوف السنين من أيام هذه الأرض الفلكية التي وجدت بعد

خلقها، أي أوجدها كلها بمقادير قدرها فإن الخلق في اللغة التقدير، ثم استوى على عرشه الذي جعله مركز التدبير، لهذا الملك الكبير، استواء يليق بعظمته وجلاله، وتنزيهه وكماله، يدبر أمر ملكه، بما اقتضاه علمه من النظام، وحكمته من الأحكام، فالاستواء على العرش بعد خلقهما، وهو مخلوق له من قبلهما، شأن من شؤونه فيما لا نعلم كنهه ولا صفته من تدبير هذا الملك، وكل يوم هو في شأن، لا يدرك كنه شؤونه إنس ولا جان.

والتدبير في أصل اللغة التوفيق بين أوائل الأمور ومباديها، وأدبارها وعواقبها، بحيث تكون المبادي مؤدية إلى ما يريد من غاياتها، كما أن تدبر الأمر أو القول هو التفكر في دبره وهو ما وراءه وما يراد منه وينتهي إليه. ووجه دلالة هذه الجملة علي ما ذكر أن الرب الخالق المدبر لجميع أمور الخلق لا يستنكر من تربيته لعباده وتدبيره لأمورهم أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه، ما يهديهم به لما فيه كمالهم وسعادتهم من عبادته وشكره وصلاح أنفسهم، بل يجب على العاقل العالم بهذا التدبير والتقدير الذي تشهد به آياته تعالى في السموات والأرض، أن يؤمن بأن هذا الوحي منه عز وجل، إذ هو من كمال تقديره وتدبيره، ولا يقدر عليه غيره. وقد ذكرنا في تفسير آية الأعراف التي بمعنى هذه الآية (٥٤) الاختلاف بين علماء الكلام المبتدع وأئمة السلف وأتباعهم من علماء الأثر في مسألة الاستواء على العرش وأشباهها من آيات علو الخالق تعالى فوق خلقه وسائر صفاته وحققنا أن مذهب السلف هو الحق الجامع بين النقل والعقل.

ثم قال: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ وهذه الجملة حجة ثانية على منكري الوحي، في ضمن حقيقة ناقضة لعقيدة الشرك، ذلك أن مشركي العرب وغيرهم ومقلدتهم من أهل الكتاب كانوا يعتقدون أن معبوداتهم من أولياء الله تعالى وعباده المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله تعالى بما يدفع عنهم الضر ويجلب لهم النفع في الدنيا، والذين يؤمنون بالآخرة من الفريقين يثبتون لهم الشفاعة في الآخرة بالأولى، ويسمون الأصنام التي وضعت لذكرى أولئك الأولياء شفعاء أيضاً بالتبع، وسيأتي في الآية (١٨) من هذه السورة حكاية ما يقولونه في هذه الشفاعة. ويقال في بيان وجه الحجة عليهم فيها: إنكم إذا كنتم تؤمنون بأن لله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم عنده بما يقربكم إليه زلفى ويدفع عنكم الضر ويجلب لكم النفع، وهو قول منكم على الله تعالى بغير علم، فما لكم تنكرون وتعجبون أن يوحي تعالى إلى من يشاء ويصطفي من هؤلاء العباد من يعلمكم من العلم الموصل إلى كل ما تطلبونه من هؤلاء الشفعاء باستحقاق بدون عمل منكم ولا استحقاق لما تطلبون منهم؟

وأما الحقيقة الناقضة لعقيدة الشرك في الشفاعة فهي أنه لا يمكن أن يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه، كما قال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟﴾ [البقرة: ٢٥٥] وليس لأحد حق في الإخبار عنه تعالى بمن يشفع عنده ومن يقبل شفاعته إلا بإعلام منه، وذلك لا يكون إلا بوحي منه. وقد ثبت في وحي هذا القرآن أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ [طه: ١٠٩] وأن هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة لا يشفعون إلا لمن كان الله تعالى راضياً عنه بإيمانه وعمله الصالح كما قال: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: ٢٨] مصداقاً لقوله: ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾ [الزمر: ٤٤].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ احتجاج بما يؤمنون به من وحدانية الربوبية، على شركهم في وحدانية الألوهية، أي ذلك الموصوف بالخلق والتقدير، والحكمة والتدبير، والتصرف في أمر الشفاعة يأذن بها لمن شاء فيما شاء هو الله ربكم، ومتولي أمور العالم ومنها أموركم، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً، ولا معه أحداً، لا لأجل الشفاعة ولا لأجل مطلب آخر من مطالبكم، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعاً ولا ضراً. وإنما يملك ذلك ربكم وحده، وقد هداكم إلى أسباب الضر والنفع الكسبية بعقولكم ومشاعركم وسخرها لكم، وهداكم إلى أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه وأقدركم عليها، وكل ما يطلب من المنافع والمضار فإنما يطلب من أسبابه التي سخرها تعالى و بينها لكم وما عجز عنه العبد أو جهله من ذلك فالواجب عليه أن يدعو الله تعالى وحده فيه، وهذا هو الركن الأول للدين الإلهي.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي أتجهلون هذا الحق المبين فلا تتذكرون أن الذي خلق السموات والأرض وحده، واستوى على عرش الملك يدبر الأمر وحده، ولا يمكن أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه، هو ربكم الذي يجب أن تعبدوه وألا تعبدوا غيره؟ وهو مقتضى الفطرة، وما إنكاره إلا ضرب من الغفلة علاجها التذكير.

هذا الاستفهام التعجيبي من غفلة المشركين منكري الوحي عن هذه الحقيقة وهي أنه لا يستحق العبادة من الخلق أحد إلا ربهم وخالقهم ومدبر أمورهم يوجه بالأولى إلى المؤمنين بالقرآن من القبوريين وعباد الصالحين كيف لا يتذكرون هذه الآيات وأمثالها كلما شعروا بالحاجة إلى ما عجزوا عنه بكسبهم من دفع ضر أو جلب نفع؟ إذ نراهم يوجهون وجوههم إلى قبور المشهورين من الصالحين في بلادهم، ويشدون الرحال إلى ما بعد منها عنهم، ويتقربون إليها بالنذور ويطوفون بها كما يطوف الحجاج ببيت الله عزَّ وجلَّ، داعين متضرعين مستغيثين خاشعين، وهذا مخ العبادة وروحها وأجلى مظاهرها، ولا ترى مثله من أحد ممن يصلي منهم في صلاة الجماعة

ولا صلاته منفرداً في بيته، على أن أكثرهم لا يصلون ولا يعتقدون أن الصلاة تنفعهم كهذه القبور، ذلك بأن أكثرهم يجهلون هذه الآيات وأمثالها من القرآن وإنما يتلقون عقائد دينهم بالعمل والقول من آبائهم وأمهاتهم ومعاشريهم، وهم قبوريون لا يعرفون ملجأ ولا ملتحداً عند الشدائد والشعور بالحاجة إلى السلطان الرباني الغيبي إلا هذه القبور، وأقلهم يتلقون بعض كتب العقائد الكلامية الجافة ممن ألفوا عبادة القبور قبل أن يقرءوها، وأكثرهم يتأولون لأنفسهم وللعوام تلك العبادة ويسمونها بغير اسمها كالتوسل والاستشفاع، وحجتهم عليها نفس حجة المشركين وأهل الكتاب، لا فرق إلا في بعض الألفاظ وأسماء الأشخاص.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

هذه الآية بيان للركن الثاني من أركان الدين وهو البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال يقول تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي إلى ربكم دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون جميعاً بعد الموت وفناء هذا العالم الذي أنتم فيه لا يتخلف منكم أحد ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أي وعد الله هذا وعداً حقاً لا يخلف ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ هذا بيان لتعلق الوعد المؤكد مرتين بدليله، أي إن شأنه تعالى أن يبدأ الخلق وينشأه عند التكوين ثم يعيده في نشأة أخرى بعد انحلاله وفنائه فالتعبير بفعل المستقبل (يبدأ) لتصوير الشأن وهو يشمل الماضي والمستقبل، ولفظ الخلق عام يراد به الخاص أولاً وبالذات، بدليل ما قبله وما بعده من السياق، وقد أجمع علماء الكون الماديون منهم والروحيون على أن الأرض وجميع الأجرام السماوية ما يرى منها بالأبصار والآلات المقربة للأبعاد وما لا يرى كلها قد وجدت بعد أن لم تكن، وإن كانوا لا يزالون يبحثون في نشأة تكوينها والقوة الأزلية المتصرفة في أصل مادتها، كما أنهم متفقون على توقع خراب هذه الأرض والكواكب المرتبطة معها في هذا النظام الشمسي الجامع لها، وعلى أن أقرب الأسباب الموافقة لأصول العلم الثابتة أن تصيب الأرض قارعة من الأجرام السماوية فتبسها بساً، حتى تكون هباء منبثاً، كما تشير إليه سورة القارعة والواقعة وغيرهما.

فأما بدؤه فقد حصل بالفعل وأما إعادته فدليلها أن القادر على البدء يكون قادراً على الإعادة بالطريق الأولى، كما قال في سورة الروم ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ [الروم: ٢٧] ومن المسائل المتفق عليها عند علماء الكون في هذا العصر ـ وهي تقرب إلى العقول عقيدة البعث ـ أن هذه الأجساد الحية ينحل منها في كل وقت ما يتبخر في الهواء وما يموت في داخل الجسم ثم يخرج منه، ويحل

محل كل ما يزول ويندثر مواد حية جديدة حتى يفنى جسد كل حيوان، فهو يزول في سنين قليلة ويتجدد غيره، فالبدء والإعادة في كل جسد دائمان ما دام حياً، وقد فصلنا مسألة البعث بالبيان العلمي في تفسير سورة الأنعام (ج ٨).

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ هذا تعليل للإعادة أي يعيده لأجل جزائهم، والقسط العدل وقال الراغب النصيب من العدل أي ليجزيهم بعدله وهو عبارة عن إعطاء كل عامل حقه من الثواب الذي جعله الله لعمله بمعنى أنه لا يظلم منه شيئاً كما قال في سورة الأنبياء ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ [الأنبياء: ٤٧] ولا يمنع ذلك أن يزيدهم ويضاعف لهم كما وعد في آيات أخرى منها قوله: ﴿فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [النساء: ١٧٢] وقوله في هذه السورة ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ [يونس: ٢٦] فالحسنى هي الجزاء بالقسط المضاد للجور والظلم. والزيادة فضل منه عزّ وجلّ. وسيأتي فيها أيضاً قوله: ﴿وقضي بينهم بالقسط﴾ [يونس: ٤٧ و٥٤] وقيل إن المراد يجزيهم بما كانوا عليه من القيام بالقسط وهو الحق وللعدل في الأمور كلها الذي هو مقتضى الإيمان في قوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ [الحديد: ٢٥] وقوله: ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ [الأعراف: ٢٨] على أن القسط في الآيتين عام شامل لأمور الدين كلها، وقيل بل المراد منه الإيمان أو التوحيد المقابل لظلم الشرك في قوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان: ١٣] والمتبادر الموافق لسائر الآيات الصريحة هو الأول ولا يصح إرادة الثاني إلا بالتبع للأول أو الجمع بين المعنيين على القول بأن كل ما يحتمله اللفظ من المعاني المشتركة فيه أو حقيقته ومجازه بمقتضى اللغة من غير مانع من الشرع يكون مراداً منه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ الحميم الماء الحارّ أو الشديد الحرارة الذي يستحم به والعرق، يقال استحم الفرس إذا عرق، والحمام الذي هو مكان الاستحمام من الأول أو من الثاني. والجملة بيان لجزاء الكافرين في مقابلة جزاء المؤمنين الصالحين على منهج القرآن في الجمع بينهما. والمعنى أن الكافرين لهم من الجزاء شراب من ماء حميم يقطع أمعاءهم وعذاب شديد الألم (وهذا من عطف العام على الخاص) ونكتة هذا الخاص أن العرب الذين خوطبوا به أولاً ونزل بلغتهم ولا سيما عرب الحجاز يشعرون بما لا يشعر غيرهم من الوعيد بشرب الماء الحميم والحرمان من الماء البارد ـ وإنما كان لهم هذا الجزاء بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر المستمرة إلى الموت كدعاء غير الله تعالى والنذر لغيره وذبح القرابين لغيره وسائر الأعمال السيئة التي يزينها لهم الكفر ويصد عنها الإيمان، فقوله: ﴿والذين كفروا﴾ مقابل لقوله: ﴿الذين آمنوا﴾ وقوله ﴿بما كانوا يكفرون﴾

مقابل لقوله: ﴿وعملوا الصالحات﴾ لأن الذي يتجدد من الكفر أعماله لا عقيدته. على أن العمل بمقتضى العقيدة هو أثرها يزيدها قوة ورسوخاً واستمراراً، وسيعاد ذكر جزاء الفريقين بعد آيتين بتفصيل آخر لعملهما.

ولعل نكتة اختلاف النظم أو الأسلوب ـ في جزاء الفريقين وتعليل الرجوع إليه تعالى هنا ـ هي إفادة أن المقصود بالذات من الرجوع إلى الله تعالى هو جزاء المؤمنين الصالحين لأنه هو الذي يكون به منتهى كمال الارتقاء البشري للذين زكوا أنفسهم في الدنيا بما يكون لهم في الجنة من غلبة سلطان الأرواح على الأجساد، وجعلها تابعة لها في الجمع بين خصائص المادة والروح الذي هو حقيقة الإنسانية، فيلقى الإنسان الكامل هنالك من النعيم المادي الخالي من الشوائب والتنغيص الذي عهده في الدنيا، ومن النعيم الروحاني المعبر عنه برضوان الله الأكبر كما تقدم في آية سورة التوبة (٧٢) ما يتحقق به فضل الإنسانية الجامعة، على الروحانية الخالصة، وما أعده تعالى لصاحبها مما لا يعلم كنهه في هذه الحياة أحد كما قال تعالى في سورة ألم السجدة ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧] وما فسرت به في الحديث القدسي «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[١] رواه البخاري وأعلاه مقام رؤية الله عزَّ وجلَّ كما شرحناه في تفسير آية سورة الأعراف (٧: ١٤٣) وأدناه ما سيأتي قريباً في الآية العاشرة.

وأما جزاء الكافرين المفسدين الظالمين لأنفسهم وللناس على تدسيتهم وتدنيسهم لأنفسهم بالكفر والخطايا ـ وهي لها كأعراض الأمراض التي سببها مخالفة سنة الله في حفظ الأبدان وصحتها ـ فليس من المقاصد التي اقتضتها الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، ولكنها مقتضى العدل في المظالم والحقوق، ومقتضى اطراد السنن الحكيمة في ارتباط الأسباب بالمسببات، والعلل بالمعلولات، فهو جزاء كما صرح به في آيات أخرى ولكنه ليس المقصود بالذات من الرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ.

وقد سألني رجل من أذكياء الإنكليز: هل يليق بعظمة الله أن يعذب هذا الإنسان الضعيف على ذنوبه التي هي مقتضى ضعفه؟ قلت إن الشرك بالله والكفر بنعمه واقتراف الخطايا المخالفة لشرائعه وللوجدان الفطري في الإنسان تدنس نفس فاعلها وتفسدها بما يجعلها غير أهل للنعيم الروحاني الخاص بالأنفس الزكية، فيكون العقاب في الآخرة أثراً طبيعياً لهذا الفساد، كما يكون المرض أثراً طبيعياً لمخالفة قوانين

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٣٥، وبدء الخلق باب ٨، وتفسير سورة ٣٢، باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٣١٢، والجنة حديث ٢ ـ ٥، والترمذي في الجنة باب ١٥، وتفسير سورة ٣٢، باب ٢، وسورة ٥٦، باب ١، وابن ماجه في الزهد باب ٣٩، والدارمي في الرقاق باب ٩٨، ١٠٥، وأحمد في المسند ٣١٣/٢، ٣٧٠، ٤٠٧، ٤١٦، ٤٣٨، ٤٦٢، ٤٦٦، ٤٩٥، ٥٠٦، ٣٣٤/٥.

الصحة ووصايا الطبيب. فقال إذا كان سبب العذاب من الداخل لا من الخارج فهو معقول.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

في هاتين الآيتين المنزلتين إرشاد إلى أنواع كثيرة من آيات الله الكونية الدالة على قدرته على البعث والجزاء وكونه من مقتضى حكمته، واطراد النظام التام في جميع خلقه، وهذه الآيات تفصيل لما أجمل في الآية الثالثة في خلق السموات والأرض، واستواء الخالق على عرشه يدبر الأمر، ويقيم النظام في الخلق، التي سيقت للاستدلال على التوحيد وحقية الوحي.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ الضياء اسم مصدر من أضاء يضيء وجمع ضوء، كسياط وسوط وحياض وحوض، وقرأ ابن كثير (ضئاء) على القلب بتقديم لام الكلمة على عينها. قال في القاموس وشرحه: (الضوء) هو (النور ويضم) وهما مترادفان عند أئمة اللغة، وقيل الضوء أقوى من النور قاله الزمخشري ولذا شبه الله هداه بالنور دون الضوء وإلا لما ضل أحد وتبعه الطيبي واستدل بقوله تعالى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وأنكره صاحب الفلك الدائر وسوى بينهما ابن السكيت، وحقق في الكشف أن الضوء فرع النور وهو الشعاع المنتشر، وجزم القاضي زكريا بترادفهما لغة بحسب الوضع، وأن الضوء أبلغ بحسب الاستعمال، وقيل الضوء لما بالذات كالشمس والنار، والنور لما بالعرض والاكتساب من الغير، هذا حاصل ما قاله شيخنا رحمه الله تعالى. وجمعه أضواء (كالضواء والضياء بكسرهما) لكن في نسخة لسان العرب ضبط الأول بالفتح والثاني بالكسر، وفي التهذيب عن الليث الضوء والضياء ما أضاء لك، ونقل شيخنا عن المحكم أن الضياء يكون جمعاً أيضاً، قلت هو قول الزجاج في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ [البقرة: ٢٠] اهـ.

وأقول: يدل على التفرقة بين الشمس والقمر في نورهما قوله تعالى: ﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾ [نوح: ١٦] وقوله: ﴿وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ [الفرقان: ٦١] والسراج ما كان نوره من ذاته. واستبعد بعض المفسرين قول الزجاج إن الضياء في الآية جمع ضوء لأن المناسب لكون القمر نوراً أن يكون الضياء مفرداً مثله. وجهل هذا المستبعد وأمثاله ما يعلمه الله تعالى من أن شعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التي يراها الناس في قوس السحاب فهو سبعة

أضواء لا ضوء واحد، فهذا التعبير من مفردات القرآن الكثيرة التي كشف لنا ترقي العلوم الطبيعية الفلكية من المعنى فيها ما كان الناس أو العرب يجهلونه في عصر التنزيل كتعبيره عن كل نوع من النبات بأنه موزون، وتقدم بيانه في مباحث الوحي.

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ التقدير جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة في الزمان أو المكان أو الذوات أو الصفات، قال تعالى: ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ [المزمل: ٢٠] وقال في القرى التي كانت بين سبأ والشام ﴿وقدرنا فيها السير﴾ [سبأ: ١٨] وقال في المقادير العامة ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ [الفرقان: ٢] والمنازل أماكن النزول جمع منزل، والضمير للقمر كما قال في سورة يس ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ [يس: ٣٩] أي قدر له أو قدر سيره في فلكه في منازل ينزل في كل ليلة في واحد منها لا يخطئه ولا يتخطاه وهي ثمانية وعشرون منزلاً معروفة تسميها العرب بأسماء نجومها المحاذية لها وهي: الشرَطان. البُطينُ. الثُرَيَّاء، الدَّبَران. الهقْعَة. الهنْعةُ. الذراعُ. النَّثْرَة. الطَّرف. الجبْهة. الزُبْرة. الصَّرْفة. العَوَّاء. السِّماك الأعزل. الغَفْر. الزُّباني. الإكليل. القَلْب. الشَّوْلة. النَّعائم. البَلْدة. سَعْد الذَّابح. سعْد بُلعُ. سَعْد السُّعود. سَعْد الأخبية. فرْغُ الدَّلو المقدم. فرغ الدَّلو المؤخر. (ويسميان الفرغ الأول والفرغ الثاني) الرِّشاء. ويراجع مسميات هذه الأسماء في معاجم اللغة وكتب الفلك من شاء. فهذه المنازل هي التي يرى فيها القمر بالأبصار، ويبقى من الشهر ليلة إن كان ٢٩ وليلتان إن كان ٣٠ يوماً يحتجب فيهما فلا يرى.

﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي لأجل أن تعلموا بما ذكر من صفة النيرين وتقدير المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم الدينية والمالية والمدنية، فلولا هذا النظام المشاهد لتعذر على الأميين من أهل البدو والحضر العلم بذلك، لأن حساب السنين والشهور الشمسية فن لا يعلم إلا بالدراسة، ولذلك جعل الشرع الإسلامي العام للبدو والحضر شهر الصيام وأشهر الحج وعدة الطلاق ومدة الإيلاء وغير ذلك بالحساب القمري الذي يعرفه كل أحد بالمشاهدة، فلا يتوقف على علم فني لا يكاد يوجد إلا في بلاد الحضارة. ولعبادتي الصيام والحج حكمة أخرى وهي دورانهما في جميع الفصول، فيعبد المسلمون ربهم في جميع الأوقات من حارة وباردة ومعتدلة. وهذا لا يمنع أهل العلم من الانتفاع بالحساب الشمسي وله فوائد أخرى، وقد أرشدهم إليه في سورة الرحمن ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ [الرحمن: ٥] وفي سورة الإسراء ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ [الإسراء: ١٢] وفي هذه الآيات ترغيب في علم الهيئة والجغرافية الفلكية وقد برع فيهما أجدادنا بإرشادها.

ثم قال: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي ما خلق الله الشمس ذات ضياء تفيض أشعتها على كواكبها التابعة لنظامها. فتبث الحرارة والحياة في جميع الأحياء فيهن، وجعل لكل ضوء منها من الخواص ما ليس للآخر. ويبصر الناس فيها جميع المبصرات فيقومون بأمور معايشهم وسائر شؤونهم، وما خلق القمر ذا نور مستمد من الشمس تنتفع به السيارة في سراهم وغيرهم، وقدره منازل يعرف بها جميع الناس السنين والشهور ـ ما خلق ذلك إلا متلبساً ومقترناً بالحق، الذي تقتضيه الحكمة العامة لحياة الخلق، ونظام معايشهم ومنافعهم، فليس فيه عبث ولا خلل بل ظهر للبشر في هذا العصر من أسرار الضوء وحكمه ما صار به علماً واسعاً تحار العقول في نظمه وحكمه، من أصغر ذراته إلى أعظم مجامع نيراته، فكيف يعقل من هذا الخالق الحكيم، أن يخلق هذا الإنسان في أحسن تقويم، ويعلمه البيان، ويعطيه ما لم يعط غيره في عالمه؛ من الاستعداد لإظهار ما لا يحصى من حكمه، وخواص خلقه، وسننه في عباده، ويجعل مدار سعادته وشقائه على ما أعطاه من علم وإرادة، ثم يتركه بعد ذلك سدى، يموت ويفنى، ثم لا يبعث ولا يعود، ليجزى المرتقون منه في معارج الكمال من المعارف الإلٰهية والفضائل النفسية والأعمال الصالحة بإيمانهم وصفاتهم وأعمالهم، وليجزى المشركون الخرافيون، والظالمون المجرمون، بكفرهم وجرائمهم ومفاسدهم، وإننا نرى كثيراً منهم أنعم في الدنيا معيشة من الصالحين المصلحين؟ ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟ * ما لكم كيف تحكمون؟﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار؟﴾ [ص: ٢٨].

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ استئناف لبيان المنتفعين بهذه الحجج أي نبين الدلائل من حكم خلقنا، على ما أوحيناه إلى رسولنا من أصول العقائد وأحكام الشرائع، مفصلة منوعة من كونية وعقلية لقوم يعلمون وجوه دلالة الدلائل، والفرق بين الحق والباطل، باستعمال عقولهم في فهم هذه الآيات، فيجزمون بأن من خلق هذين النيرين وما فيهما من النظام بالحق، لا يمكن أن يكون خلقه لهذا الإنسان العجيب عبثاً، ولا أن يتركه سدى، وفي الآية تنويه بفضل العلم وكون الإسلام ديناً علمياً لا تقليدياً، ولذلك قفى على هذه الآيات السماوية في الشمس والقمر بآية مذكرة بسائر الآيات السماوية والأرضية فقال:

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ في حدوثهما وتعاقبهما في طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس والنظام الدقيق لهما بحركتيها اليومية والسنوية، وطبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون وعمل ديني ودنيوي ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من أنواع الجماد والنبات والحيوان ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي

أنواعاً من الدلائل والبينات على سننه في النظام، وحكمه في الإبداع والإتقان، وفي تشريع العقائد والأحكام، لقوم يتقون عواقب مخالفة سننه في التكوين، وسننه في التشريع، فالأفراد الذين يخالفون سنن الصحة البدنية يمرضون، والشعوب التي تخالف سنن الاجتماع والعمران تخرب بلادها، وتضعف دولها، ويغير الله تعالى ما بها بتغييرها ما في أنفسها، كذلك الأفراد الذين يخالفون هدايته الشرعية في تزكية الأنفس فيدنسونها بالشرك والخرافات، ويفسدونها بالفواحش والمنكرات، يجزون على ذلك كله في الآخرة، ويجزى بعضهم على بعضها في الدنيا (كما بينا ذلك في مواضع أخرى).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

هذه الآيات بيان لحال منكري البعث والغافلين وحال المؤمنين الصالحين في الدنيا وجزائهما في الآخرة، فيه تفصيل لما سبق في الآية الرابعة. قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ قال الفيومي في المصباح: رجوته أرجوه رجواً ـ على فعول ـ أملته أو أردته، قال تعالى: ﴿لا يرجون نكاحاً﴾ [النور: ٦٠] أي لا يريدونه والاسم الرجاء بالمد، ورجيته أرجيه من باب رمى لغة، ويستعمل بمعنى الخوف، لأن الراجي يخاف أنه لا يدرك ما يترجاه اهـ. وقال الراغب: الرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة، وقوله تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً؟﴾ [نوح: ١٣] قيل ما لكم لا تخافون؟ ومثل الزمخشري في الأساس لحقيقة الرجاء بالمغفرة من الله، والرشد في الولد. والإحسان من أهل الإحسان ثم قال: ومن المجاز استعمال الرجاء في معنى الخوف والاكتراث يقال: لقيت هولاً ما رجوته وما ارتجيته. ومثل له بشعر. والتحقيق أن الرجاء الأمل والتوقع لما فيه خير ونفع، وأن الخوف توقع ما فيه شر وضر، فهما متقابلان كما قال تعالى: ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ [الإسراء: ٥٧] وما في هذه الآية والآيتين ١١ و ١٥ من هذه السورة والآية ٢١ من سورة الفرقان من رجاء لقاء الله منفياً يحتمل الرجاء والخوف جميعاً لأن لقاء الله تعالى في يوم الحساب مظنة الخوف لقوم والرجاء لآخرين ولذلك قال في الكافرين ﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً﴾ [النبأ: ٢٧] وفسر بعض المحققين الرجاء هنا بمجرد التوقع الذي يشمل ما يسر وما يسوء. واللقاء الاستقبال والمواجهة.

والمعنى إن الذين لا يتوقعون لقاءنا في الآخرة للحساب، وما يتلوه من الجزاء

على الأعمال، لإنكارهم البعث، ويلزمه أنهم لا يؤملون لقاءه الخاص بالمتقين في دار الكرامة، وخصه بعضهم بلقاء الرؤية ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ بدلاً من الآخرة فصار كل همهم من الحياة محصوراً فيها وكل عملهم لها كما قال في المتثاقلين عن النفير للجهاد ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟﴾ [التوبة: ٣٨] الآية ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ بسكون نفوسهم وارتياح قلوبهم بشهواتها ولذاتها وزينتها ليأسهم من غيرها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ فلا يتدبرون المنزلة منها على رسولنا وما فيها من المواعظ والعبر، والمعارف والحكم، ولا يتفكرون في الكونية وما تدل عليه من حكمته وسننه في خلقه، وما يقتضيه كل منهما من الجهاد وصالح الأعمال، فكانوا بهذه الغفلة كالفريق الأول الذي لا يرجو لقاءنا، في أن كلاً منهما تشغله دنياه عن آخرته، فلا يستعد لحسابنا له، وما يتلوه من نعيم مقيم أو عذاب أليم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الإشارة بأولئك إلى الفريقين أي مأواهم في الآخرة دار العذاب (النار) بما كانوا يكسبون مدة حياتهم الدنيا من الخطايا والذنوب المدنسة لأنفسهم بخرافات الوثنية، وأعمال الشهوات الحيوانية وظلمات المظالم الوحشية، واستمرارهم عليها الذي دنس أنفسهم وأحاط بها، فلم يعد لنور الحق والخير مكان فيها. والمأوى في أصل اللغة الملجأ الذي يأوي إليه المتعب أو الخائف أو المحتاج من مكان آمن أو إنسان نافع، كما ترى في استعمال أفعاله في جميع الآيات كقوله تعالى: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى﴾ [الضحى: ٦] ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف﴾ [الكهف: ١٠] ﴿والذين آووا ونصروا﴾ [الأنفال: ٧٢] ﴿آوى إليه أخاه﴾ [يوسف: ٦٩] ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ [هود: ٨٠] الخ إلا لفظ المأوى فإنه أطلق على الجنة في ثلاث آيات وعلى النار في بضع عشرة آية منها آية يونس هذه، وفي تسمية دار العذاب مأوى معنى دقيق في البلاغة دخيل في أعماقها، فائض من جميع أرجائها، يشعرك بأن أولئك المطمئنين بالشهوات والغافلين عن الآيات ليس لهم مصير يلجؤن إليه بعد هول الحساب إلا جهنم دار العذاب، فويل لمن كانت هذه الدار له كالملجأ والموئل، إذ لا مأوى له يلجأ إليه بعدها.

هذا بيان لجزاء الفريق الأول من المكلفين بقسميه والقارىء والسامع له تستشرف نفسه لجزاء الفريق الآخر والعلم بسببه وقد بينه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي يهديهم بسبب إيمانهم به صراطه المستقيم في كل عمل من أعمالهم التي تزكي أنفسهم وتهذب أخلاقهم. وصفهم أولاً بالإيمان والعمل الصالح الذي هو لازم الإيمان ومغذيه ومكمله بصيغة الماضي لبيان صنفهم وفريقهم المقابل للفريق الذي ذكر قبلهم، وأخبر بهداية إيمانهم لهم بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار والتجدد، كما أخبر عن كسب الكفار بهذه الصيغة، وجعل

الإيمان وحده سبب هذه الهداية لأنه هو الباعث النفسي لها، والمعنى أنه يهديهم الصراط المستقيم الذي ينتهي بهم إلى دار الجزاء التي قال في بيان حالهم فيها.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي تجري من تحت مقاعدهم من غرفات تلك الجنات ومن تحت أشجارها، وتقدم لفظ «جنات النعيم» في سورة المائدة (٥: ٦٨) ولفظ ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ في سورة الأعراف (٧: ٤٢) وأما ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ يعني الجنة فقد تقدم مكرراً في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة، والآية صريحة في معنى الآيات الكثيرة الناطقة بأن دخول الجنة بالإيمان والعمل الصالح معاً، لأن الإيمان الصحيح بدون الإسلام وهو العمل لا يوجد إلا في حال من يموت عقب إيمانه قبل أن يتمكن من العمل، ودخول مثل هذا الجنة لا يعارض هذه النصوص العامة للأحوال العادية الغالبة.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في هذه الآية بيان لكلمات ثلاث تمثل حياة أهل الجنة الروحانية في عامة أحوالهم من مبادىء دعاء ربهم وتنزيهه، وما يدعونه أي يطلبونه من فضله وكرامتهم ومن تحيته تعالى وتحية ملائكته لهم، ومن تحيتهم فيما بينهم عند تزاورهم أو تلاقيهم، ومن حمدهم له في خواتيم أقوالهم وأفعالهم وهي خير الكلم وأخصره وأعذبه. الدعوى في اللغة الدعاء بمعانيه والدعاوة في الشيء والادعاء للشيء، فالدعاء للناس هو النداء والطلب المعتاد بينهم في دائرة الأسباب المسخرة لهم، والدعاء التعبدي لله نداؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده الصادر عن الشعور بالحاجة إليه والضراعة له فيما لا يقدر عليه أحد من خلقه، ولا سيما دفع الضر وجلب النفع مما يعجز عنه العبد من طريق الأسباب، للإيمان بأنه سبحانه هو المسخر لها والهادي إليها والقادر على تصريفها، وعلى المن بها من غير طريقها، والدعوى للشيء تشمل في اللغة تمنيه وقوله وطلبه من مالكه، وادعاء ملكيته، وهذه المعاني كلها للفظ الدعوى تصح إرادتها من أهل الجنة إلا الأخير منها وقول بعض المفسرين وغيرهم إن من معاني الدعاء العبادة لا يصح على إطلاقه في العبادة الشرعية التكليفية فإن الصيام لا يسمى دعاء لغة ولا شرعاً، وإنما الدعاء هو مخ العبادة الفطرية، وأعظم أركان التكليفية منها، كما ورد في الحديث، فكل دعاء شرعي عبادة وما كل عبادة شرعية دعاء. والتسبيح تنزيه الله تعالى وتقديسه، وكلمة (اللهم) نداء له عزَّ وجلَّ أصله يا الله.

والمعنى أنهم يبدؤون كل دعاء وثناء يناجون به الله عزَّ وجلَّ وهو النعيم الروحاني، وكل طلب لكرامة أو لذة من لذات الجنة وهو النعيم الجسماني، بهذه الكلمة: سبحانك اللهم، أي تنزيهاً وتقديساً لك يا الله، قيل أو بما تدل عليه وإن كان بلفظ آخر، وأن تحيتهم فيها كلمة (سلام) الدالة على السلامة من النقص والآثام،

وهي تحية المؤمنين في الدنيا، وهذه التحية تكون منه عزَّ وجلَّ لهم كما قال في سورة الأحزاب ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ [الأحزاب: ٤٤] وفي سورة يس ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ [يس: ٥٨] وتكون من الملائكة لهم عند دخول الجنة كما قال في سورة الزمر ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾ [الزمر: ٧٣] ومثله في سورة النحل ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين، يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ [النحل: ٣٢] وفي كل وقت يدخلون فيه عليهم كما قال في سورة الرعد ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] وتكون منهم بعضهم لبعض وهو المتبادر من قوله تعالى في سورة مريم ﴿لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً﴾ [مريم: ٦٢] وفي سورة الواقعة ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً﴾ [الواقعة: ٢٥] فإن اللغو والتأثيم من شأن كلام البشر فلما نفى وقوعهما منهم في الجنة واستدرك على نفيه باستثناء كلمة «سلام» استثناء منقطعاً ترجح أن يكون المراد به سلام بعضهم على بعض أو عاماً يشمله. والجملة في آيتنا (وتحيتهم فيها سلام) تشمل الأنواع كلها وأنه لإيجاز بليغ غفل عنه من نعرف من المفسرين لغفلتهم عن هذه الأنواع.

وأما قوله: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ فمعناه أن الحمد له جلّ ثناؤه هو آخر كل حال من أحوال أهل الجنة من دعاء يناجون به الله تعالى، ومطلب يطلبونه من إحسانه وإكرامه، كما أنه أول ثنائهم عليه عند دخولها كما قال في آخر سورة الزمر بعد آية السلام عليهم من الملائكة ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾ [الزمر: ٧٤] وآخر كلام الملائكة أيضاً وهو قوله بعده ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، وقضي بينهم بالحق. وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ [الزمر: ٧٥].

فعلى كل قارىء لهذه الآية الجامعة ـ وقد فسرناها له هنا بما في معناها من الآيات في السور الأخرى ـ أن يمثل لنفسه حالة أهل الجنة في هذه الكلمات الثلاث المبينة لنعيمهم الروحاني بلقاء الله عزَّ وجلَّ ومناجاته في جميع أطوارهم، ولما يكون بينهم وبين ملائكته وبين بعضهم مع بعض، ومنه يعلمون أن معظم نعيم الجنة روحاني فعليهم أن يستعدوا لها بتزكية أنفسهم، وترقية أرواحهم، وأن يعلموا أنهم لن يكونوا أهلاً لها بالاتكال على التوسلات بأشخاص الأولياء والتمني لشفاعاتهم ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤] ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ [الإسراء: ٧٢].

ومن التفسير المأثور في الآية ما أخرجه ابن مردويه عن أبي بن كعب مرفوعاً عن أهل الجنة «إذا قالوا: سبحانك اللهم ـ أتاهم ما اشتهوا من الجنة» وروي مثله عن بعض التابعين فالكلمة علامة بين أهل الجنة وخدمهم في إحضار الطعام وغيره فإذا أكلوا حمدوا الله تعالى. وهذا مما يدخل في عموم ما تقدم سواء أصحت الرواية أم لا؟

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

هاتان الآيتان في بيان شأن من شؤون البشر وغرائزهم فيما يعرض لهم في حياتهم الدنيا من خير وشر، ونفع وضر، وشعورهم فيه بالحاجة إلى الله تعالى واللجوء إلى دعائه لأنفسهم وعليها واستعجالهم الأمور قبل أوانها، وهو تعريض بالمشركين وحجة على ما يأتون من شرك، وما ينكرون من أمر البعث، متمم لما قبله ولذلك عطفه عليه.

تعجيل الشيء تقديمه على أوانه المضروب أو المقدر له أو الموعود به، والاستعجال به طلب التعجيل، والعجل من غرائز الإنسان القابلة للتأديب والتثقيف كي لا تطغى به فتورده الموارد. قال تعالى: ﴿ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾ [الإسراء: ١١] وقال تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ [الأنبياء: ٣٧] فأما استعجاله بالخير والحسنة فلشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها، وأما استعجاله بالضر والسيئة فلا يكون لذاته بل لسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز، وقلما يكون مقصوداً بنفسه إلا للنجاة مما هو شر منه، كما يفعل اليائسون من الحياة، أو النجاة من ذل وخزي أو ألم لا يطاق إذ يتقحمون المهالك أو يبخعون أنفسهم انتحاراً.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ الذي يستعجلونه به كاستعجال مشركي مكة رسول الله ﷺ بالعذاب الذي أنذرهم نزوله بهم إجمالاً بما قصه عليهم في هذه السورة وغيرها من سنة الله تعالى في أقوام الرسل المعاندين وهو عذاب الاستئصال، وفيما دونه من عذاب الدنيا كخزيهم والتنكيل بهم ونصره عليهم، أو قيام الساعة، وعذاب الآخرة. وقد حكى الله تعالى كل ذلك عنهم كقوله: ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ [الرعد: ٦] الآية ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة﴾ [العنكبوت: ٥٣] وتقدم قوله:

﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [الأنفال: ٣٢] وقال في الساعة ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ [الشورى: ١٨] وفي العذاب ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ [العنكبوت: ٥٤] وكل هذه الضروب من الاستعجال كانوا يقصدون بها تعجيز الرسول ﷺ مبالغة في التكذيب، واستهزاء بالوعيد وقوله:

﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ معناه كاستعجالهم بالخير الذي يطلبونه لذاته بدعاء الله تعالى أو بمحاولة الأسباب التي يظنون أنها قد تأتي به قبل أوانه ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب الجملة بالبناء للفاعل أي لقضى الله إليهم أجلهم، وقرأها الجمهور بالبناء للمفعول للعلم بالفاعل، وقضاء الأجل إليهم انتهاؤه إليهم بإهلاكهم قبل وقته الطبيعي كما هلك الذين كذبوا الرسل واستعجلوهم بالعذاب من قبلهم. ولكن الله تعالى أرحم بهم من أنفسهم، وقد بعث رسوله محمداً خاتم النبيين رحمة للعالمين، بالهداية الدائمة إلى يوم الدين، وقضى بأن يؤمن به قومه من العرب، ويحملوا دينه إلى جميع أمم العجم، وأن يعاقب المعاندين من قومه في الدنيا بما يكون تأديباً لسائرهم، بما بينه بقوله: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم﴾ [التوبة: ١٤] الآية، ويؤخر سائر الكافرين منهم ومن غيرهم إلى يوم القيامة، فهو لا يقضي إليهم أجلهم بإهلاكهم واستئصالهم، لأن هذا العذاب إذا نزل يكون عاماً بل يذرهم وما هم فيه إلى نهاية آجالهم وذلك قوله:

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ الطغيان مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان. هذا هو الأصل وطغيان السيل والبحر والدم مستعار منه والعمه (كالتعب) التردد والتحير في الأمر أو في الشر، والمعنى فنترك الذين لا يرجون لقاءنا ممن تقدم ذكرهم فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلاً للخروج منه لا نعجل لهم العذاب في الدينا باستئصالهم، حتى يأتي أمر الله تعالى في جماعتهم بنصر رسوله عليهم، وفي أفرادهم بقتل بعضهم وموت بعض، ومأواهم النار وبئس المصير، إلا من تاب وآمن منهم، أي هذه سنتنا فيهم لا نعجل شيئاً قبل أوانه المقدر له بمقتضى علمنا وحكمتنا.

وفي الآية وجه عام غير خاص بالكافرين تقديره: ولو يعجل الله للناس الشر الذي يستعجلونه بذنوبهم المقتضية له من ظلم وفساد في الأرض وفسوق لأهلكهم كما قال في آية أخرى ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ [النحل: ٦١] الآية ويدخل في المعنى هنا دعاؤهم على أنفسهم عند اليأس ودعاء بعضهم على بعض عند الغضب، لو يعجله الله لهم لأهلكهم

أيضاً (وما دعاء الكافرين) بربهم أو بنعمه عليهم فيما يخالف شرعه وسننه في خلقه (إلا من ضلال) أي ضياع لا يستجيبه الله لهم، لحلمه ورحمته بهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ هذا بيان لغريزة الإنسان العامة وشأنه فيما يمسه من الضر، يعلم منه أن استعجال أولئك الناس بالشر تعجيزاً لنبيهم ومبالغة في تكذيبه إنما هو من طغيانهم الذي خرجوا فيه عن مقتضى طبيعتهم، فهو يقول إن الإنسان إذا أصابه من الضر ما يشعر بشدة ألمه أو خطره من إشراف على غرق وغيره من أنواع التهلكة، أو شدة مسغبة، أو إعضال داء، دعانا ملحاً في كشفه عنه في كل حال يكون عليه: دعانا مضطجعاً لجنبه، أو قاعداً في كسر بيته، أو قائماً على قدميه حائراً في أمره، فهو لا ينسى حاجته إلى رحمة ربه، ما دام يشعر بمس الضر ولذعه له، ويعلم من نفسه العجز عن النجاة منه، قدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون الإنسان فيها أشد عجزاً وأقوى شعوراً بالحاجة إلى ربه فالتي تليها فالتي تليها، وثم حالة رابعة هي سعيه لدفع الضر من طريق الأسباب فلم تذكر لأن الإنسان غير المؤمن قلما يتذكر ما أودع في فطرته من الإيمان بربه ذي السلطان الغيبي الذي هو فوق جميع الأسباب ويشعر بحاجته إلى اللجوء إليه، ودعائه والاستغاثة به، إلا عند عجزه عن الأسباب المسخرة له، والمشركون بالله تعالى أقل الناس تذكراً لذلك، لأنهم عند عجزهم عن الأسباب العامة المعلومة، يلجؤون إلى مظنة الأسباب الموهومة، وهي المخلوقات المعبودة التي يعتقدون أن لها سلطاناً غيبياً فوق الأسباب من جنس سلطان الرب الخالق عز وجل، إما لذاتها وإما بما لها من المكانة عند الله، والمثل مضروب هنا لهؤلاء.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ كان الظاهر أن يقال «فإذا كشفنا عنه ضره» إذ هو المناسب للشرط في أول الآية وهو في جنس الإنسان ومقتضى طبعه لا في فرد من أفراده، ونكتة هذا التعبير أن يتصور القارىء والسامع للآية كشف الضر بعد الدعاء واقعاً مشاهداً من شخص معين ويرى ما يفعل بعده لأنه أبلغ في العبرة. أي فلما كشفنا عنه ضره الذي دعانا له في حال شعوره بعجزه عن كشفه بنفسه وبغيره من الأسباب، مرَّ ومضى في شؤونه على ما كان من طريقته في الغفلة عن ربه والكفر به، كأن الحال لم تتغير عليه، فلم يدعنا إلى ضر مسه، ولم نكشف عنه ضره.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كهذا النحو من معرفة الله والإخلاص في دعائه وحده في الشدة ونسيانه الكفر به بعد كشفها زين للمسرفين من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك، حتى بلغ من عنادهم للرسول واستهزائهم بما أنذرهم من عذاب أن استعجلوه بالعذاب، والإسراف رديف الطغيان وأخوه، وسيأتي مثل هذه الآية بعد عشر آيات ببيان أبلغ. وقد أسند التزيين هنا إلى المفعول

لأنه المقصود بالعبرة دون فاعله. وسبق مثله في آل عمران والأنعام والتوبة وقد أسند إلى الشيطان في سورة الأنعام والأنفال، وأسند إلى الله تعالى في الأنعام أيضاً بقوله: ﴿زينا لكل أمة عملهم﴾ [الأنعام: ١٠٨] وبينا في تفسير هذه نكتة اختلاف الإسناد في كل موضع (راجع ج ٨ تفسير الطبعة الثانية).

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

بين الله تعالى في الآيتين السابقتين شأنه في الناس وشأنهم معه بمقتضى الطبع البشري وطغيان الشرك والكفر ليعتبر به مشركو مكة وغيرهم ممن يعقله إذ هو من العلم الصحيح المستمد من طبع الإنسان وسيرته، وقفى عليه في هاتين الآيتين بمصداقه من سيرة الأمم الماضية وسنته تعالى فيهم فقال عاطفاً له على ما قبله ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ الخطاب لأمة الدعوة المحمدية وجه أولاً وبالذات إلى قوم النبي ﷺ وأهل وطنه مكة إذ أنزلت السورة فيها فهو التفات يفيد مزيد التنبيه وتوجيه أذهان المخاطبين لموضوعه، والقرون الأمم وهو جمع قرن بالفتح ومعناه القوم المقترنون في زمن واحد، وقد ذكر إهلاك القرون في آيات عديدة من السور المكية، وبدأ هذه بتأكيد القسم المدلول عليه باللام (ولقد) وصرح بأن سبب هلاكهم وقوع الظلم منهم كما قال في سورة الكهف ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ [الكهف: ٦٠] و «لما» ظرف يدل على وقوع فعل لوقوع غيره مما هو سبب له، والمراد بالقرى الأمم والقرون كما تقدم مراراً، وقال في سورة هود ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ [هود: ١٠٢] وقد بعث الله الرسل في أهل الحضارة دون الهمج.

وإهلاك الله الأمم بالظلم نوعان (أحدهما) هو مقتضى سنته في نظام الاجتماع البشري وهي أن الظلم سبب لفساد العمران وضعف الأمم، ولاستيلاء القوية منها على الضعيفة استيلاء موقتاً إن كان إفساد الظلم لها عارضاً لم يجهز على استعدادها للحياة واستعدادتها للاستقلال، كما تقدم في تفسير ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ [البقرة: ٢٤٣] من سورة البقرة أو دائماً إن كانت غير صالحة للحياة حتى تنقرض أو تدغم في الغالبة كما قال في سورة الأنبياء ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ [الأنبياء: ١١] الآيات ـ وهذا النوع أثر طبيعي للظلم بحسب سنن الله في البشر، وهو قسمان ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف في الشهوات المضعفة للأبدان المفسدة للأخلاق، وظلم الحكام الذي يفسد بأس الأمة في جملتها، وهذه السنة دائمة في الأمم، ولها حدود ومواقيت تختلف باختلاف أحوالها وأحوال أعدائها هي آجالها المشار في الآية (٤٩) الآتية وأمثالها.

ثانيهما: عذاب الاستئصال للأقوام التي بعث الله تعالى فيها رسلاً لهدايتها بالإيمان والعمل الصالح وأعظم أركانه العدل، فعاندوا الرسل فأنذروهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيء الآيات وهو ما بينه تعالى بقوله: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة على صدقهم فيما جاؤهم به ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي وما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا لأنهم مرنوا على الكفر واطمأنوا به، وصارت لذاتهم ومصالحهم القومية من الجاه والرياسة والسياسة مقترنة بأعماله الإجرامية من ظلم وفسق وفجور ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تذييل لإنذار مشركي مكة لأنهم كانوا مجرمين وتقديره كالذي مر قبله في المسرفين، وراجع تفسير ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ [الأعراف: ٣٩] وتفسير ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ [الأعراف: ٨٣] من سورة الأعراف.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الخطاب معطوف على الذي قبله أي ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعد أولئك الأقوام كلهم بما آتيناكم في هذا الدين من أسباب الملك والحكم وقدرناه لكم باتباعه، إذ كان الرسول الذي به جاءكم هو خاتم النبيين فلا يوجد بعد أمته أمة أخرى لنبي آخر، والخلائف جمع خليفة وهو من يخلف غيره في الشيء أي يكون خلفه فيه، ولقد كان لتلك الأمم دول وحكم في الأرض، كملك النصارى واليهود والمجوس، والوثنيين من قبلهم كالفراعنة والهنود، فالله يبشر قوم محمد وأمة محمد بأنها ستخلفهم في الأرض إذا آمنت به واتبعت النور الذي أنزل معه، كما صرح بذلك في قوله ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ [النور: ٥٥] الآية.

وقد علل هذا الاستخلاف عند الإخبار الأول به هنا بقوله ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي لنرى ونشاهد أي عمل تعملون في خلافتكم فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم، فإن هذه الخلافة إنما جعلها لكم لإقامة الحق والعدل في الأرض، وتطهيرها من رجس الشرك والفسق، لا لمجرد التمتع بلذة الملك، كما قال في أول آيات الإذن لهم بالقتال ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ [الحج: ٤١] فأعلمهم سبحانه بأن أمر بقاء خلافتهم منوط بأعمالهم، وإنه تعالى يكون ناظراً إلى هذه الأعمال لا يغفل عنهم فيها، حتى لا يغتروا بما سينالونه ويظنوا أنه باق لهم لذاتهم أو لنسبتهم إلي نبيه ﷺ وأنهم يتفلتون من سنته في الظالمين وقد بينها لهم آنفاً وقال في سورة الأعراف ﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ [الأعراف: ١٠٠] الآية، وقد قص علينا فيها ما حذر به قوم موسى عند ما وعدهم على لسانه بإرث الأرض التي وعد بها آباءهم في إثر ما شكوا إليه من إيذاء قوم فرعون لهم قبل مجيئه وبعده وذلك قوله تعالى حكاية عنه ﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وليراجع القارىء تفسير آية الأعراف في الجزء التاسع، وتفسير قوله تعالى في استخلاف الأمم العام من آخر سورة الأنعام ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾ [الأنعام: ١٦٥] الآية (ج ٨) وقد صدق الله وعده ووعيده للمسلمين كغيرهم بما تبين به إعجاز كتابه وصدق رسوله ﷺ وكونه ربى أمته بما علمه ربه من هداية الدين وطبائع العمران وسنن الاجتماع التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه الأميون، بل لم تصر علماً مدوناً إلا من بعد نزول القرآن بعدة قرون، لغفلة علماء المسلمين عما فيه من أصولها وقواعدها الصريحة كهذه الآيات. وقد كان أول من دونها المؤرخ الفقيه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمة تاريخه مؤملاً أن يعنى بها من بعده من العلماء فيأتوا بتوسيع ما بدأ به من مباحثها، ولكن العلم والحكم في دولة الإسلام، كان داخلاً في طور الانحطاط والاضمحلال، ثم ارتقى الإفرنج فيهما فترجموا تلك المقدمة بلغاتهم العلمية كلها وأخذوا منها عدة علوم في سنن العمران، ونحن نأخذها اليوم عنهم غافلين عن هداية القرآن، لأن علماء السوء المقلدين حجبونا عن هدايته بل حرموها على المسلمين استغناء عنه بكتب مذاهبهم، فأخذهم الله بذنوبهم، ولن يكشف عنهم انتقامه حتى يعودوا إلى هدايته التي استخلف بها سلفهم في الأرض، ولئن عادوا إليها بإقامة سنن القرآن، ليتمن لهم وعده بخلافه الأرض إلى آخر الزمان. فبقدر إقامة هذه السنن يكون الملك والسلطان. فمن ذا الذي يقيمها؟

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

بدئت السورة بالكتاب الحكيم (القرآن) وإنكار المشركين للوحي بشبهتهم المعروفة وسيقت بعدها الآيات في إقامة الحجج عليهم من خلق العالم علويه وسفليه ومن طبيعة الإنسان وتاريخه متضمنة لإثبات أهم أركان الدين وهو الوحي والتوحيد والبعث، وجاءت هذه الآيات الثلاث بعد ذلك في شأن الكتاب نفسه وتفنيد ما اقترحه المشركون على الرسول فيه وحجته البالغة عليهم في كونه وحياً من الله تعالى.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ في الآية التفات عن خطاب هؤلاء الموعوظين إلى الغيبة عنهم وتوجيه له إلى الرسول ﷺ وأسلوب الالتفات في القرآن كثير جداً وفائدته العامة تلوين الكلام بما يجدد الانتباه له والتأمل فيه، وفي كل التفات فائدة

خاصة لو أردنا بيان ما نفهمه منها لطال بنا بحث البلاغة الكلامية، بما يشغل القراء عن الهداية المقصودة بالذات من تفسيرنا ويظهر في هذه الآية أن نكتة حكاية هذا الاقتراح السخيف بأسلوب الإخبار عن قوم غائبين إفادة أمرين **أحدهما**: إظهار الإعراض عنهم كأنهم غير حاضرين لأنهم لا يستحقون الخطاب به من الله تعالى **ثانيهما**: تلقينه ﷺ الجواب عنه بما ترى من العبارة البليغة التأثير، والمعنى وإذا تتلى على أولئك القوم آياتنا المنزلة حالة كونها بارزة في أعلى معارض البيان، وأظهر مقدمات الوحي والبرهان.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وهم من تقدم ذكرهم قريباً ـ وأعاده واضعاً إياه موضع الضمير للإشعار بعلة القول ـ أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو الرسول ﷺ ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ الأظهر في سبب قولهم هذا أنه ﷺ بلغهم أن هذا القرآن من عند الله أوحاه إليه لينذرهم به، وتحداهم بالإتيان بمثله أو بسورة من مثله فعجزوا، وكانوا في ريب من كونه وحياً من الله لبشر مثلهم كما تقدم في أول السورة، وفي ريب من كونه من عند محمد ﷺ وهو لم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة ولا في شيء من العلم، بل كانوا يرونه دون كبار فصائحهم من بلغاء الشعراء ومصاقع الخطباء، فأرادوا أن يمتحنوه بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره في جملة ما بلغهم من سوره في أسلوبها ونظمها ودعوتها، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه كتحقير آلهتهم وتكفير آبائهم، حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه أنه كلام الله أوحاه إليه منقوضة من أساسها، وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان بقوة نفسية فيه كانت خفية عنهم كأسباب السحر لا بوحي الله إليه، وهو ما يزعمه بعض الإفرنج ومقلدتهم في عصرنا وقد فندناه في تفسير الآية الأولى من هذه السورة.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ أي قل لهم أيها الرسول إنه ليس من شأني ولا مما تبيحه لي رسالتي أن أبدله من تلقاء نفسي أي بمحض رأيي ومقتضى اجتهادي، وكلمة تلقاء بكسر التاء مصدر من اللقاء كتبيان من البيان وكسر التاء فيهما سماعي والقياس في هذا المصدر فتحها كالتكرار والتطواف والتجوال ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي ما اتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى إلي والاهتداء به، فإن بدل الله تعالى منه شيئاً بنسخه بلغته عنه، وما عليّ إلا البلاغ المحض، وأقول إذا كان الله لم يعط رسوله الحق في تبديل القرآن فما حكمه تعالى فيمن يبدلونه بأعمالهم المنافية لصدق وعده لأهله وهم يدعون أنهم أهله كالذين قال فيهم ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ [الفتح: ١٥] أو بترك أحكامه لمذاهبهم كالذين قال فيهم ﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ [البقرة: ١٨١].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذا تعليل لمضمون ما قبله، الذي

هو بيان لنفي الشأن الذي قبله أي إني أخاف إن عصيت ربي أي عصيان كان، عذاب يوم عظيم الشأن، وهو يوم القيامة، فكيف إذا عصيته بتبديل كلامه اتباعاً لأهوائكم؟ وقوله (إن عصيت) من باب الفرض، إذ الشرطية المبدوءة بأن يعبر بها عما شأنه ألا يقع. وهذا جواب عن الشق الثاني من اقتراحهم.

ثم لقنه الجواب عن الشق الأول مفصولاً لأهميته بقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي لو شاء الله تعالى أن لا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلوته عليكم فإنما أتلوه بأمره تنفيذاً لمشيئته ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي ولو شاء أن لا يدريكم ويعلمكم به بإرسالي إليكم لما أرسلني ولما أدراكم به، ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم الأعلى لتدروه فتهتدوا به وتكونوا بهدايته خلائف الأرض، وقد علم أن هذا إنما يكون به لا بقرآن آخر كما قال ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ [النساء: ١٦٦] وقال: ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [الأعراف: ٥٢] [راجع تفسير هذه وما بعدها في ج ٨ تفسير] فهو قد أنزله عالماً بأن فيه كل ما يحتاجون إليه من الهداية وأسباب السعادة، وأمرني بتبليغه إليكم ولم يكن لي علم بشيء من ذلك قبله.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي فقد مكثت فيما بين ظهرانيكم عمراً طويلاً من قبله وهو أربعون سنة لم أتل عليكم فيه سورة من مثله، ولا آية تشبه آياته، لا في العلم والعرفان، ولا في البلاغة وروعة البيان ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ أن من عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتاباً، ولم يلقن من أحد علماً، ولم يتقلد ديناً، ولم يعرف تشريعاً، ولم يمارس أساليب البيان، في أفانين الكلام، من شعر ونثر، ولا خطابة وفخر، ولا علم وحكم، لا يمكنه أن يأتي من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المعجز لكم بل هو يعجز جميع الخلق حتى الدارسين لكتب الأديان والحكمة والتاريخ أن يأتوا بمثله؟ فكيف تقترحون عليّ أن آتي بقرآن غيره؟ وسيتحداهم في الآية ٣٨ بسورة مثله.

ومما يمتاز به الوحي المحمدي على ما كان قبله أن أكثر أنبياء بني إسرائيل كانوا قبل نبوتهم على شيء من العلم الكسبي كما بيناه في مباحث الوحي القريبة، وفاتنا فيها التذكير بما أوتي بعضهم من العلم والحكم الوهبي قبلها أيضاً. قال تعالى في موسى ﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً﴾ [القصص: ١٤] وبلوغ الأشد يكون في استكمال الثلاثين وذكر بعد هذا خروجه إلى مدين ونزل الوحي عليه في أثناء عودته منها. وكان موسى على علم بشرائع المصريين ومعارفهم أيضاً، وقال تعالى في يوسف ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً﴾ [يوسف: ٢٢] ولم يقل واستوى فالظاهر أنه قبل النبوة أيضاً، وكان العلم الذي امتاز به يوسف تأويل الأحاديث والرؤى أي

الأخبار بمآلها وقال في يحيى ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ [مريم: ١٢] ولم ينقل عن نبينا ﷺ قبل النبوة علم ولا حكم في الأمور اللهم إلا حكمه في تنازع زعماء قريش عند بنائهم الكعبة أيهم يضع الحجر الأسود في مكانه من الركن وكادوا يقتتلون فطلع عليهم فقالوا هذا الأمين نحكمه ونرضى بحكمه أي لأنه أمين صادق لا يحابي. فحكم بوضعه في ثوب يأخذ سيد كل قبيلة ناحية منه ثم ارتقى هو إلى موضعه من الركن فرفعوه إليه فوضعه فيه. والخبر من مراسيل السير لم يرد مرفوعاً وأخرجه البيهقي عن ابن شهاب الزهري وقد عبر عنه بكلمة غلام وفي السيرة الحلبية أن سنه ﷺ كانت عند بناء الكعبة خمساً وثلاثين سنة.

هذه حجة عقلية ناهضة، على بطلان شبهتهم الداحضة، التي بنوا عليها مطالبة محمد ﷺ بالإتيان بقرآن غير هذا القرآن، وقد ظهر لعلماء هذا العصر ما أيد دلالتها العلمية فإنهم بما حذقوا علم النفس وأخلاق البشر وطباعهم، وما عرفوا من درجات استعدادهم العلمي والعقلي باستقراء تاريخهم، قد حققوا أن استعداد الإنسان العقلي للعلوم، واستعداده النفسي للنهوض، بالأعمال القومية أو العالمية، يظهر كل من الاستعدادين فيه من أوائل نشأته، ويكون في منتهى القوة والظهور بالفعل عند استكمال نموه في العقدين الثاني والثالث من عمره، فإذا بلغ الخامسة والثلاثين ولم يظهر نبوغه في علم من العلوم التي سبق اشتغاله بها، ولا النهوض بعمل من الأعمال العامة التي كان استشرف لها، فإن من المحال أن يظهر منه شيء من هذا أو ذاك من بعدها جديداً أنفاً ويكون فيه نابغاً ناجحاً.

وقد قدمنا في مباحث إثبات (الوحي المحمدي) أن هذا القرآن مشتمل على تمحيص الحقائق في جميع العلوم والمعارف الدينية والتشريعية التي يتوقف عليها صلاح جميع البشر، وأن الرسول الذي أنزله الله عليه قام بتنفيذ هذا الإصلاح بما غير وجه الأرض، وقلب أحوال أكثر أممها فحولها إلى خير منها، وأن ذلك كله كان بعد أربعين سنة قضاها في الأمية. فهذا العلم الجديد الذي أيد حجة القرآن العقلية في هذا العصر له في علوم القرآن نظائر أشرنا إلى بعضها آنفاً، وبينا كثيراً منها في تفسيرنا هذا، وهو مما يمتاز به على جميع التفاسير بفضل الله تعالى، وإن كان أكثر المسلمين غافلين عنه تبعاً لغفلتهم عن القرآن نفسه، وعدم شعورهم بالحاجة إلى هدايته، بصد دعاة التقليد المعممين إياهم عنه، ومن الغريب أن ترى أساطين المفسرين لم يفهموا من الآية أن فيها جواباً عن الشق الأول من اقتراح المشركين وهو الإتيان بقرآن آخر، وقد هدانا الله تعالى إليه مع برهانه بفضله، وكم ترك الأول للآخر!!

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ هذه تتمة الرد على اقتراح المشركين فإنه رد عليهم أولاً ببيان حقيقة الأمر الواقع، وهو أن تبديل القرآن

ليس من شأن الرسول في نفسه، ولا مما أذن الله له به، بل يعاقبه عليه أشد العقاب في الآخرة إن فرض وقوعه منه ـ لأنه كلامه الخاص به ـ وثانياً بإقامة الحجة العقلية على أنه كلام الله وأنه ليس في استطاعته ﷺ الإتيان بمثله، ثم عزز هاتين الحجتين بثالثة أدبية وهي أن شر أنواع الظلم والإجرام في البشر شيئان أحدهما افتراء الكذب على الله، وهو ما اقترحوه عليه بجحودهم، وثانيهما التكذيب بآيات الله، وهو ما اجترحوه بإجرامهم، وقد بين هذا بصيغة الاستفهام الإنكاري، أي لا أحد أظلم عند الله وأجدر بغضبه وعقابه من هذين الفريقين من الظالمين، وأنا أنعى عليكم الثاني منهما فكيف أرضى لنفسي بالأول وهو شر منه؟ وأي فائدة لي من هذا الإجرام العظيم وأنا أريد الإصلاح وأدعو إليه وأحتمل المشاق في سبيله، وأعلم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يفوزون بمطلوبهم الذي يتوسلون إليه بالكذب والزور.

وقد تقدم مثل هذا الاستفهام في ثلاث آيات من سورة الأنعام [٢١ و٣٩ و١٤٤] وفي آية من سورة الأعراف [الآية: ٣٧] فراجع تفسيرهن في ج ٨ تفسير.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

هذه الآية في دحض شبهتهم على عبادة غير الله تعالى وهي الشفاعة وتقدم في الآية الثالثة بطلانها وإقامة الحجة على وجوب عبادة الرب الخالق المدبر وحده، وصرح هنا بإسناد هذا الشرك إليهم وباحتجاجهم عليه بالشفاعة ثم لقن رسوله الحجة على بطلان هذا الاحتجاج فقال:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ الكلام معطوف على ما قبله من بيان شركهم وسخافتهم فيه، ومكابرتهم في جحود الحق الذي دعاهم إليه الوحي، أي ويعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً من الأصنام وغيرها من دون الله أي غير الله، والمعنى أنهم يعبدونها حال كونهم متجاوزين ما يجب من عبادته وحده، لا أنهم يعبدونها وحدها فما معنى كونهم مشركين إلا أنهم يعبدونه ويعبدون غيره ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ [يوسف: ١٠٦] وفي وصفها بأنها لا تضرهم ولا تنفعهم إيذان بسبب عبادتها وضلالهم فيه وتذكير بأنه هو القادر على نفع من يعبده وضر من يكفره ويشرك بعبادته غيره في الدنيا والآخرة.

وأصل غريزة العبادة الفطرية في البشر في سذاجتهم التي لا تلقين فيها لحق ولا باطل هي الشعور الباطن بأن في الوجود قوة غيبية وسلطاناً علوياً على التصرف في الخلق بالنفع لمن شاء وإيقاع الضر على من شاء، وكشفه بعد وقوعه عمن شاء، غير مقيد في ذلك بسبب من الأسباب المسخرة للناس، فمن اطلع على تواريخ البشر في

كل طور من أطوار حياتهم البدوية والحضرية يظهر له أن هذا هو أصل التدين الغريزي فيهم، وأما صور التعبد وتسمية المعبودات فمنها ما هو من اجتهادهم، ومنها ما هو من تلقين دعاة الدين فيهم من الأنبياء وغيرهم، فكل ما عبد من دون الله بالرأي والاجتهاد فإنما عبده من عبده لشبهة فهم منها قدرته على النفع والضر بسلطان له فوق الأسباب، وقد بينا ذلك في مواضع أخرى أولها تفسير العبادة من سورة الفاتحة وأوسطها وأبسطها تفسير قصة إبراهيم ﷺ مع أبيه آزر من سورة الأنعام، ومن آخرها في تفسير هذه السورة ما جاء في بيان الركن الأول من أركان الدين وفي الكلام على الخوارق من بحث الوحي الاستطرادي.

فليس المراد من كون هذه المعبودات لا تضرهم ولا تنفعهم ـ هو بيان عجزها عن النفع والضر لأنها إما جمادات مصنوعة كالأوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب والأصنام المتخذة من المعادن وكذا الحجارة، أو غير مصنوعة كاللات وهي صخرة كانت بالطائف يلت عليها السويق ثم عظمت حتى عبدت، وإما أشجار كالعزى معبودة قريش والشجرة التي قطعها الشيخ محمد عبد الوهاب في نجد وشجرة المنضورة التي يقصدها النساء في مصر لأجل الحبل، فإن أكثر الأوثان والأصنام قد وضعت ذكرى لبعض الصالحين من البشر كما رواه البخاري عن ابن عباس (رض) في أصنام قوم نوح ثم انتقلت عبادتهم إلى العرب، وكانوا يعتقدون أن فيها أرواحاً من الجن كما روي في حديث قطع شجرة العزى أو شجراتها الثلاث إذ ظهرت عند قطعها لخالد بن الوليد امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها، كانوا يزعمون أنها جنية، فأرادت أن تواثبه وتخيفه فقتلها. فهي كالقبور التي تشرف وتجصص ويوضع عليها الستور وتبنى عليها القباب لمثل السبب الذي وضعوا له تماثيل الأوثان، وعبدة هذه القبور يعتقدون أن المدفونين فيها أحياء يقضون حاجات من يدعونهم ويستغيثونهم، وعلماء الخرافات يقولون لهم إن عملهم هذا شرعي.

نعم ليس المراد هنا من نفي ضرها ونفعها أنها جمادات لا عمل لها فقط كما قيل وإن كانت الحجة على عبادة هذه الأصنام أظهر من الحجة على عبادة الثعابين والبقر والقرود ـ ولا يزال لها بقية في الهند ـ وعلى عبادة البشر التي هي أساس النصرانية الآرية التي وضعها الأمبراطور قسطنطين، ومن اتبع سنن النصارى والهنود من جهلة المسلمين، وإنما المراد المقصود بالذات بيان بطلان الشرك بالألوهية وهو عبادة غير الله مهما يكن المعبود، وبطلان الشرك بالربوبية وهو قسمان ادعاء وساطتهم في الخلق والتدبير، واحتجاجهم عليه بشفاعتهم عند الله، وهو كذب في التشريع الذي هو حق الرب وحده ولا يعلم إلا بوحيه. بيان الأول أن كل ما عبد ومن عبد من دون الله حتى الجن والملائكة لا يملكون لعابديهم النفع والضر بالقدرة الذاتية الغيبية التي هي فوق الأسباب التي منحها الخالق للمخلوقات على اختلاف أنواعها، لا بذواتهم

وكراماتهم ولا بتأثير خاص لهم عند الخالق يحملونه به على نفع من شاؤوا أو ضر من شاؤوا أو كشف الضر عنه، كما يعتقد عباد الأنبياء والأولياء من البشر إلى هذا اليوم، ولهذا أمر الله تعالى رسوله أن يحتج على النصارى في عبادتهم للمسيح عليه السلام بقوله: ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم﴾ [المائدة: ٧٦] وهذه حجة على عبدة القبور وعلى أصحاب العمائم الذين يتأولون لهم عبادتهم بما يظنون أنه يبعدهم عن عباد الأصنام، بقولهم إن هؤلاء الأولياء أحياء عند ربهم كالشهداء فهم يضرون وينفعون لا كالأصنام، ولكن الله تعالى يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً بعبادتهم له على ما آتاه من المعجزات، وإن هؤلاء الدجالين من الشيوخ يؤمنون بأن المسيح أفضل من البدوي والحسين والسيدة زينب وغيرهم ممن يزعمون أنهم يملكون الضر والنفع لمن يطلبه منهم، وحياته لا تزال في اعتقادهم حياة عنصرية وحياتهم برزخية، ومعجزاته قطعية وكراماتهم غير قطعية.

كذلك أمر الله تعالى رسوله خاتم النبيين وأفضلهم أن يخبر الناس بنفي ملكه لضر الناس ونفعهم وهو حي كما يأتي في الآية (٤٩) من هذه السورة وسبق مثلها في سورة الأعراف (١٨٨).

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ويقولون في سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم لإيمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فنحن نعبدهم بتعظيم هياكلهم وتطييبها بالعطر والطواف بها. وبتقديم النذور لهم، والإهلال عند ذبح القرابين بأسمائهم، وبدعائهم والاستغاثة بهم، لأنهم شفعاؤنا عند الله يقربوننا إليه زلفى فيدفع بجاههم عنا البلاء، ويعطينا ما نطلب من النعماء، هذا ما يقوله منكرو البعث منهم وهم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى في الآخرة، على أنهم إذا فرضوا وجودها زعم مجرموهم أنهم يكونون فيها كما كانوا في الدنيا كما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ [سبأ: ٣٥] وقوله في الإنسان الكافر ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ [فصلت: ٥٠] وروي عن عكرمة أن النضر بن الحارث من كبار مجرميهم قال: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى. وكذلك كل من يؤمن بالآخرة ممن يعبدون غير الله يعتقدون أن معبوديهم يشفعون لهم فيها كما يشفعون لهم في الدنيا، فإن أساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلبونه من الله لا بد أن يكون بوساطة المقربين عنده، لأنهم لا يمكنهم القرب من الله والحظوة عنده بأنفسهم لأنها مدنسة بالمعاصي، بخلاف دين التوحيد فإنه يوجب على العاصي أن يتوجه إلى الله وحده تائباً إليه طالباً مغفرته ورحمته.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قل لهم أيها الرسول منكراً عليهم جهالتهم وافتراءهم على ربهم: أتخبرون الله تعالى وتعلمونه بشيء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء في السموات من ملائكته ولا في الأرض من خواص خلقه، فإنه لو كان فيهما شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم، فإنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فكيف يخفى عليه من لهم من المكانة عنده أن جعلهم وسطاء بينه وبين خلقه في قضاء حاجتهم من نفع وضر وفي تقريبهم إليه زلفى كالوسطاء عند ملوك البشر الجاهلين بأمور رعيتهم والعاجزين عن تنفيذ مشيئتهم فيهم بدون وساطة الوزراء والحجاب والقواد.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزيهاً له وتعالى علواً كبيراً عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء. وما يفترونه عليه بجعلهم هذا ديناً يتقرب به إليه. فهذا تذييل للجواب مبين لما في هذا الشرك من إهانة مقام الربوبية والألوهية، وتشبيه رب العالمين، بعبيده من الملوك الجاهلين العاجزين، وقرأ حمزة والكسائي (تشركون) بتاء الخطاب، على أنه تتمة للجواب. وحكمة القراءتين تنزيهه تعالى عن شرك الجميع من غائب محكي عنه وحاضر مخاطب.

وفي هذا الجواب من أصول الدين أن شؤون الرب وسائر ما في عالم الغيب توقيفي لا يعلم إلا بخبر الوحي، ومنه اتخاذ الوسطاء عند الله مما ذكر وأنه عين الشرك ولكن من علماء الأزهر من يثبتون هذه الوساطة بالرأي. ويحرفون ما ينقضها من الآيات المحكمات والأحاديث المتفق عليها كأنها هي الأصل، حتى أنهم يبيحون دعاء الموتى واستغاثتهم عند قبورهم، ويحتجون على ذلك بأنهم أحياء فيها، وبأن الإفرنج أثبتوا وجود الأرواح وعلاقتها بالناس، ولكن الذين قالوا بهذا من علمائهم وهم أقلهم، لم يقولوا إنها تنفعهم وتضرهم، أو تشفع عند الله لهم، ولو قالوا هذا لما كان لنا أن نتخذ قولهم حجة نعارض بها نصوص ديننا أو نتأولها لتوافقها، ولمشيخة الأزهر الرسمية مجلة تنشر باسمها هذه البدع والخرافات في جميع بلاد المسلمين. وتطعن على المعتصمين بالسنة وسيرة السلف الصالحين، وعلى المعتصمين بالقرآن أيضاً وهو حبل الله المتين، لزعمهم أن الواجب عليهم هو أخذ الدين كله عن كتب مقلدة الفقهاء والمتكلمين، حتى المتأخرين منهم دون الأئمة المجتهدين.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٩﴾

تقدم في هذا السياق من أول السورة إلى هنا أن أهل مكة لم يكن دأبهم في تكذيبهم للوحي المحمدي إلا كدأب من قبلهم من الأقوام الذين كذبوا رسلهم. ولم

يكونوا في استعجال نبيهم العذاب إلا كالذين استعجلوا رسلهم العذاب أيضاً وتقدم فيه بيان بعض طباع البشر ولا سيما الكفار في الرعونة والعجلة، وفي الضراعة إلى الله والإخلاص له عند الشدة ونسيانه عند الرخاء، وفي الإشراك بالله بدعوى أن لهم شفعاء عند الله يدفعون عنهم الضر ويجلبون لهم النفع بوجاهتهم عنده، ثم جاءت هذه الآية في بيان ما كان عليه الناس من الوحدة، وما صاروا عليه من الاختلاف والفرقة، فالتناسب بينها وبين ما قبلها في غاية القوة.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ قيل إن المراد بالناس هنا العرب فإنهم كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحيّ الذي ابتدع لهم عبادة غير الله وصنع لهم الأصنام ـ كما ثبت في صحيح البخاري ـ فاختلفوا بأن أشرك بعضهم وثبت على الحنيفة آخرون.

وقيل وهو المختار أن المراد الجنس البشري في جملته فإنهم كانوا أمة واحدة على الفطرة، إذ كانوا يعيشون عيشة السذاجة والواحدة كأسرة واحدة، حتى كثروا وتفرقوا فصاروا عشائر فقبائل فشعوباً تختلف حاجاتها وتتعارض منافعها، فتتعادى وتتقاتل في التنازع فيها، فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم، وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه، ثم اختلفوا في الكتاب نفسه أيضاً بغياً بينهم واتباعاً لأهوائهم، وتقدم تفصيل هذا في تفسير [البقرة: ٢١٣] وأقوال المفسرين في المسألة والترجيح بينها.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي ولولا كلمة حق فاصلة سبقت من ربك في جعل جزاء الناس العام في الآخرة لعجله لهم في الدنيا بإهلاك المبطلين الباغين منهم، فالمراد من الكلمة قوله تعالى في هذه السورة: ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ [يونس: ٩٣] ومثله في سور أخرى والآية تتضمن الوعيد على اختلاف الناس بالمفضي إلى الشقاق والعدوان ولا سيما الاختلاف في كتاب الله الذي أنزله لإزالة الشقاق بحكمه، وإدالة الوحدة والوفاق منه، وتقدم بيانه وحكمته في تفسير آية البقرة (٢١٣) وفي غيرها وسنعود إلى بيان حكمته وحكمة خلق الإنسان مستعداً للاختلاف في تفسير آية سورة هود ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ [هود: ١١٧] الخ.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

الكلام في منكري الوحي من المشركين المنكرين للبعث، حكى عنهم عجبهم من الوحي إلى بشر مثلهم ورد عليهم بأنواع الحجج المتقدمة المتضمنة لبطلان شركهم

وإنكارهم للبعث، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول ﷺ بالإتيان بقرآن غير هذا القرآن الدال بأسلوبه ونظمه وعلومه وهدايته على أنه وحي من كلام الله عز وجل أو تبديله، ورد عليهم بما علمت. ثم حكى عنهم في هذه الآية الاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال ربه عليه آية كونية غير هذا القرآن وما فيه من الآيات العلمية والعقلية على النبوة والرسالة مع الرد عليها. والجملة معطوفة على جملة ما قبلها من حكايات أقوال المشركين وأعمالهم في جحود الرسالة، ومن دعوة الرسول ﷺ إلى التوحيد والإيمان بالبعث، لا على آخر ما حكاه عنهم في قوله: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا﴾ [يونس: ١٨] خاصة لقربه وكون كل منهما بلفظ المضارع، فإن المحكي هنا غير مشارك للمحكي قبله في خاصة موضوعه أو ما يناسبه، ولا على ما حكاه عنهم من طلب الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله خاصة وإن كانا في موضوع واحد، لبعده وللاختلاف بينهما في حكاية ذاك بالماضي وهو ﴿قال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وحكاية هذا بالمضارع الخ.

وقال الزمخشري في الكشاف في ترجيحه إن المضارع هنا بمعنى الماضي هناك وإنما آثر المضارع على الماضي ليدل على استمرار هذه المقالة وأنها من دأبهم وعادتهم مع ما في ذلك من استحضار صورتها الشنيعة اهـ وقد أخطأ في الترجيح وباعد، وإن سدد في التعليل وقارب، والتحقيق أن المعنى الجامع بين الجمل المتعاطفة في هذا السياق حكاية أنواع جحودهم في جملتها، وأن التعبير بالمضارع في هذه وما قبلها وفيما سيأتي من قوله: ﴿أم يقولون افتراه﴾ [يونس: ٣٨] وقوله: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ [يونس: ٤٨] إنما هو لما يتكرر من أقوالهم في الجحود، فإن اقتراح نزول آية كونية عليه قد تكرر منهم وذكر في سور منها ما نزل قبل هذه السورة (يونس) ومنها ما نزل بعدها كما سنوضحه بشواهده، فمعنى الآية هكذا:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي قد قالوا ولا يزالون يقولون هلا أنزل على محمد ﷺ آية كونية كآيات الأنبياء الذين يحدثنا عنهم، حكى سبحانه عنهم هذا الاقتراح هنا مجملاً وأجاب عنه جواباً مجملاً لأن كلا منهما قد سبق مفصلاً في سور أخرى، وقد جهل هذا كفار الإفرنج وتلاميذهم من ملاحدة مصر، فقالوا في مثله أن النبي ﷺ كان في مكة يفر من مناظرة المشركين ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ والآيات من عالم الغيب عند الله تعالى وبيده وحده لأنها خوارق فوق قدرة البشر، وإنما أنا بشر والغيب لله لا يعلمه غيره، فإن كان قدر إنزال آية علي فهو يعلم وقتها وينزلها فيه وأنا لا أعلم إلا ما أوحاه إلي.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لما يفعله بي وبكم كما قال تعالى بعد

حكاية رميه ﷺ بافتراء القرآن ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، إن أتبعَ إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين﴾ [الأحقاف: ٩] ويفسر ما ينتظره وينتظرونه منه قوله في أواخر هذه السورة ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ [يونس: ١٠٢] وفيه إنذار لهم بالعذاب وهو قسمان: عذاب الاستئصال لمن أوتوا ما اقترحوا على رسلهم من الآيات فأصروا على الجحود والعناد، وعذاب من لم يؤتوا ذلك وهو خذلانهم ونصر الرسل عليهم في الدنيا وما وراءه من عذاب الآخرة.

حكى الله تعالى عنهم اقتراح آية أو آيات مبهمة في بعض السور، واقتراح آيات معينة في سور أخرى منها ما نزل بعد هذه السورة وهي الحجر (٦ ـ ٨) فالأنعام (٨ و ٩ و ٣٩ و ٤١ و ١٠٩ و ١١١) فالأنبياء (٥) فالعنكبوت (٥) فالرعد (٨ و ٢٨) وفيها أجوبة فأما الأنعام ففيها تفصيل لكون الآيات لا تزيدهم إلا عناداً وإصراراً على الجحود فتحق عليهم كلمة عذاب الاستئصال، وتنافي مراد الله تعالى من بعثة خاتم النبيين، وتقدم تفسيرها في الجزءين ٧ و ٨ من تفسيرنا هذا فيراجع، ثم أجمل ذلك في سورة الأنبياء فقال: ﴿ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون﴾ [الأنبياء: ٦] ثم أجاب عنها في سورة العنكبوت بقوله: ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟﴾ [العنكبوت: ٥١].

لكنه كان قد فصل مقترحاتهم مع الرد عليها في السور التي أنزلت قبل ذلك كله كقوله تعالى: ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها؟﴾ [الفرقان: ٧، ٨] ثم حكى عنهم في سورة بني إسرائيل (١٧) أنهم طالبوه ﷺ بواحدة من بضع آيات وعلقوا إيمانهم على إجابة طلبهم فقال بعد بيان عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثل هذا القرآن، وما صرفه فيه للناس من جميع ضروب الأمثال ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ [الإسراء: ٩٠] الخ الآيات الأربع ثم لقن رسوله ﷺ الرد عليهم بقوله: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً وما منع الناس يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ [الإسراء: ٩٣، ٩٤] أي سبح ربك في جوابهم، تسبيح التعجب من قولهم، وذكرهم بأنك بشر مثلهم، وليس في قدرة البشر أن يأتوا بالآيات الخارقة لسنن الكون، وأن آفتهم هي آفة من كان قبلهم من الأقوام الذين لم يعقلوا ما جاء به الرسل من الهدى وأنه متى تبين وجب على العاقل اتباعه لذاته، فاحتقروا الرسل الذين جاؤوهم به لأنهم بشر مثلهم، واقترحوا أن تجيئهم به الملائكة، وأنه لو كان في الأرض ملائكة يمشون فيها كالبشر يمكنهم التلقي عنهم

لنزل عليهم ملكاً، ثم بين لهم أنه إذا نزل الملك فهو لا ينزل إلا بالعذاب، إلا أن يجعل بشراً، وإذاً لاحتجوا عليهم بأنه مثلهم، كما قال في سورة الحجر حكاية لخطابهم للذي نزل عليه الذكر ﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين﴾ [الحجر: ٧، ٨] وقال في الأنعام: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك! ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

ولقنه في هذه السورة (بني إسرائيل) حجة أخرى في حكمة عدم نزول الآيات الكونية عليه أو سببه وهي قوله: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ [الإسراء: ٥٩] أي وما صرفنا عن إرسال الآيات اللاتي اقترحتها قريش إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم في الطبع والعادة كعاد وثمود وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال على ما مضت به سنتنا. وقد قضينا أن لا نستأصلهم لأنهم أمة خاتم النبيين الباقية، وأنه هو رحمته العامة الشاملة، ولأن فيهم من يؤمن أو يولد لهم من يؤمن. ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فنذكره مع عبارة البيضاوي الوجيزة في تفسيره وهو: ﴿وآتينا ثمود الناقة﴾ [الإسراء: ٥٩] لسؤالهم «مبصرة» بينة ذات إبصار أو بصائر أو جاعلتهم ذوي بصائر «فظلموا بها» أي فكفروا وظلموا أنفسهم بسبب عقرها «وما نرسل بالآيات» أي المقترحة (إلا تخويفاً) من نزول العذاب المستأصل فإن لم يخافوا نزل اهـ.

وفي سورة القصص وقد نزلت بعد الفرقان وقبل بني إسرائيل تفصيل لقصة موسى في مولده ونشأته وفراره من فرعون إلى مدين وبعثته في طور سيناء الخ وقد صرح في آخرها أنها تدل على رسالته ﷺ لأنه لم يكن يعلم من أمرها شيئاً فهي من علم الغيب كما تراه في الآيات (٤٤ و ٤٥) منها وقد تقدم نصها (في مباحث الوحي ج ١١ تفسير) ثم قال: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل؟ قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون﴾ [القصص: ٤٧، ٤٨] الخ.

فجملة ما ورد في اقتراح الآيات الكونية من مجمل ومفصل يفسر بعضه بعضاً وهو مقرر لما علم بالقطع من دين الإسلام أن الله تعالى جعل حجته على رسالة خاتم النبيين هذا القرآن المشتمل على كثير من الآيات العقلية والعلمية والإصلاحية وإخبار الغيب وإعجاز الأسلوب والنظم والتأثير في الهداية الخ. ما فصلناه في الفصل الاستطرادي الذي عقدناه لإثبات الوحي في أول تفسير السورة (ج ١١) وقد آتى الله رسوله خاتم النبيين آيات أخرى علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ولا

أمره بالتحدي بها وإنما كانت تكون لضرورات اشتدت حاجة الأمة إليها كاستجابة بعض أدعيته ﷺ وتقدم بيانه.

ويؤيد هذه القاعدة المأخوذة من هذه الآيات كلها ما رواه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة مرفوعاً «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1] وقد يعارضه آية انشقاق القمر مع ما ورد في أحاديث الصحيحين وغيرهما من أن قريشاً سألوا النبي ﷺ آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقتين[2]، ولكن في الأحاديث الواردة في انشقاقه عللاً في متنها وأسانيدها وإشكالات علمية وعقلية وتاريخية فصلناها في المجلد الثلاثين من المنار وبينا أن ما تدل عليه الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح في حصر معجزة نبوته ﷺ في القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضي إجابة مقترحيها عذاب الاستئصال، هو الحق الذي لا ينهض لمعارضته شيء، وسنعود إليها في تفسير سورة القمر إن أحيانا الله تعالى ووفقنا لإتمام التفسير بفضله.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

لما كان الجواب عن اقتراحهم الآية الكونية للدلالة على النبوة يتضمن بمعونة ما يفصله من الآيات أن أولئك المشركين المعاندين لا يقتنعون بالآيات، وأنهم إذا رأوها بأعينهم يكابرون حسهم ولا يؤمنون، ضرب الله تعالى مثلاً له في آياته الكونية الدالة على وحدانيته في أفعاله وحكمه فيها وما لهؤلاء المشركين المعاندين من المكر فيها وكونها لا تزيدهم إلا ضلالاً.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ هذه الشرطية منتظمة مع أختيها في الآيتين ١٢ و ١٥ في نسق واحد، والذوق في أصل اللغة إدراك الطعم بالفم،

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ١، وفضائل القرآن باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٢٣٩.

(٢) لفظ حديث انشقاق القمر: «انشق القمر على عهد النبي (ص) شقتين»، أخرجه البخاري في المناقب باب ٢٧، ومناقب الأنصار باب ٣٦، وتفسير سورة ٥٤، باب ١، ومسلم في المنافقين حديث ٤٣، ٤٧، ٤٨، وأحمد في المسند ١/ ٣٧٧، ٤١٣، ٤٤٧، ٣/ ٢٧٥، ٢٧٨، ٤/ ٨٢.

والمدرك له عصب خاص في اللسان، واستعمل مجازاً في إدراك غيره من الملائمات كالرحمة والنعمة، والمؤلمات كالعذاب والنقمة، والضراء الحالة من الضر المقابل للنفع، ويقابلها السراء من السرور، أي وإذا كشفنا ضراء مسّ الناس ألمها، برحمة منا أذقناهم لذتها على أتمها، لأن الشعور بها عقب زوال ضدها يكون أتم وأكمل ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا﴾ إذا هذه تسمى الفجائية والجملة جواب للشرط أي ما كان منهم إلا أنهم بادروا إلى المكر، وأسرعوا بالمفاجأة به في مقام الشكر، فإذا كانت الرحمة مطراً أحيا الأرض، وأنبت الزرع، ودر به الضرع، بعد جدب وقحط أهلك الحرث والنسل، قالوا مطرنا بالأنواء، وإذا كانت نجاة من هلكة وأعوزتهم أسبابها، عللوها بالمصادفات، وإذا كان سببها دعاء نبيهم أنكروا إكرام الله له وتأييده بها، كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى، وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذي أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ عليهم، ثم رفع عنهم بدعائه فما زادهم ذلك إلا كفراً وجحوداً، ومكراً وكنوداً.

أخرج الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود (رض) أن قريشاً لما استعصوا على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد، حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ [الدخان: ١٠، ١١] فأتي رسول الله ﷺ فقيل له يا رسول الله استق لمضر فإنها قد هلكت فقال: «مضر؟» متعجباً، وفي رواية فجاءه أبو سفيان فقال يا محمد إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله، فدعا لهم فكشف الله عنهم العذاب ومطروا، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول الذي تقدم فيه قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾(١) [الأنفال: ٣٠] الآية، وقد بينا في تفسيرها وتفسير (٩٨) وآية (٥٤) معنى المكر في اللغة وكونه حسناً وسيئاً ومعنى إسناده إلى الله تعالى، وخلاصته أن المكر عبارة عن التدبير الخفي الذي يفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسبه ولا يتوقعه، وأن مكره تعالى وهو تدبيره الذي يخفى على الناس إنما يكون بإقامة سننه وإتمام حكمه في نظام العالم وكله حق وعدل حسن، ولكن ما يسوء الناس منه يسمونه شراً وسوءاً، وإن كان جزاء عدلاً، ويراجع تحقيقه في الجزئين ٣ و ٩ من التفسير.

﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي قل أيها الرسل لهؤلاء الذين يسرعون في المكر كما دلت

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤٤، باب ٢، ومسلم في المنافقين حديث ٤٠، وأحمد في المسند ١/ ٣٨١.

عليه المفاجأة: إن الله تعالى أسرع مكراً منكم، إذ سبق في تدبيره لأمور العالم وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم في الدنيا قبل الآخرة، وهو عالم به لا يخفى عليه شيء منه، وأكد هذا بقوله: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ يعني الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله تعالى بإحصاء أعمال الناس وكتبها للحساب عليها في الآخرة. وكتابة المكر عبارة عن كتابة متعلقه من الأعمال اللاتي كان هو الباعث عليها، ويجوز أن تكتب نيتها وهي المعنى المصدري للمكر. والجملة تتمة الجواب الذي لقنه الله لنبيه ﷺ بناء على أنه يبلغه عنه عز وجل بلفظه الموحي إليه لا بمعناه، ولذلك يدخل في التبليغ لفظ قل وهو خطاب الله له ﷺ مع مقوله الخاص بهم كقوله: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [الكافرون: ١] وأمثاله الكثيرة في القرآن، بل أقول إنه ﷺ بلغهم الآية برمتها: ما حكاه تعالى عنهم وما أمره أن يجيبهم به، وقد يكون ذلك في ضمن السورة كلها لا وحده، ومثل هذا يقال في أمثاله.

فعلم بهذا أنه ليس المراد أن يقول ﷺ لهم كلمة «أسرع مكراً» من قبل نفسه فيستشكل الالتفات فيها عن الغيبة إلى التكلم في «إن رسلنا» بل هو جار على سنة القرآن فيه، وهو أبلغ في تصوير تسخير الله تعالى للملائكة في كتابة الأعمال من التعبير بضمير الغيبة «إن رسله يكتبون» الخ لأن في ضمير الجمع من تصوير العظمة في هذا التدبير العظيم، والنظام الدقيق، ما يشعر به كل من له ذوق في هذه اللغة سيدة اللغات، التي اعترف علماء اللغات من الإفرنج بأنها تفوق جميع لغاتهم، في التعبير عن صفات الله تعالى وكماله وعظمته ومثل هذا الالتفات فيها قوله تعالى: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ [الكهف: ١٠٩] وقرأ نافع ويعقوب (يمكرون) بالمثناة التحتية وفائدته الإعلام بأن ذلك شامل للغائبين كالحاضرين.

وقد فصلنا القول في كتابة الملائكة الحفظة لأعمال الناس وحكمتها في تفسير ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة﴾ [الأنعام: ٦١] من سورة الأنعام وشرحنا قبلها مسألة كتابة مقادير الخلق كلها في تفسير الآية ﴿وعند مفاتح الغيب﴾ [الأنعام: ٥٩] منها فيراجع الموضوع كله في جزء التفسير السابع من شاء، ومن اكتفى بالإجمال فحسبه الإيمان بأن الملائكة تكتب الأعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى معرفة صفتها، وإنما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاماً حكيماً في إحصائها، لأجل مراقبنا له فيها، لنلتزم الحق والعدل والخير ونجتنب أضدادها.

ومن مباحث اللفظ في الآية أن اسم التفضيل (أسرع) فيها على أصله من الفعل الثلاثي: سرع كضخم وحسن سرعا وسرعة فهو سرع وسريع وسراع والمستعمل بكثرة الرباعي أسرع، وفي اللسان أن سيبويه فرق بينهما فقال: أسرع طلب ذلك من نفسه

وتكلفه كأنه أسرع المشي أي عجله، وأما سرع فكأنها غريزة، وأن ابن جني استعمل أسرع متعدياً، اهـ وجوز بعض النحاة كون اسم التفضيل من مثل أسرع مطلقاً، أو إذا لم تكن همزته للتعدية.

ثم ضرب الله تعالى مثلا لهؤلاء الناس هو من أبلغ أمثال القرآن فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُرْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ السير المضي والانتقال من مكان إلى آخر والتسيير جعل الشيء أو الشخص يسير بتسخيره أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو مركبة أو سفينة، أي أن الله تعالى هو الذي يسيركم أيها الناس في البر والبحر بما وهبكم من القدرة على السير، وما سخر لكم من الإبل والدواب والفلك التي تجري في البحر (وزادنا في هذا العصر القطارات والسيارات البخارية والطيارات التي تسير في الجواء).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي حتى إذا كنتم في إحدى حوادث سيركم البحري راكبين في الفلك التي سخرها لكم، والفلك بالضم اسم للسفينة المفردة ولجمعها وهو السفن والسفائن (مفرده وجمعه واحد) والمراد به هنا الجمع إذ قال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي وجرت هذه الفلك بمن فيها بسبب ريح طيبة أي رخاء مواتية لهم في جهة سيرهم، والطيب من كل شيء ما يوافق الغرض والمنفعة، يقال رزق طيب ونفس طيبة، وبلدة طيبة وشجرة طيبة. وفي قوله: ﴿بهم﴾ التفات عن الخطاب إلى الغيبة فائدته كما قال الزمخشري المبالغة كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح لها، أي لما وصفهم به بعد ذلك من كفر النعمة ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ لما يكون لهم في هذه الحالة من الراحة والانتعاش والأمن من دوار البحر والتمتع بمنظره الجميل، في ذلك الهواء العليل ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي جاءت الفلك أو الريح الطيبة أي لاقتها ريح شديدة قوية يقال عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة أي تعصف الأشياء وتكسرها فتكون كعصف النبات وهو الحطام المتكسرة منه.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي واضطرب البحر وتموج سطحه كله فتلقاهم موجه من جميع الجوانب والنواحي بتأثير الريح، فهي أنواع منها ما يهب من ناحية واحدة كالرياح الأربع، ومنها النكباء وهي المنحرفة التي تقع بين ريحين مختلفتين، ومنها المتناوحة التي تهب من جميع النواحي، ومنها الإعصار وهي التي تدور فتكون عمودية فيرتفع بها ما تدور عليه من التراب والحصى من الأرض، والماء من سطح البحر بما عليه وما فيه من سمك وغيره ثم يلقى في مكان آخر ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي اعتقدوا اعتقاداً راجحاً أنهم هلكوا بإحاطة الموج من كل جانب، كما يحيط العدو المحارب بعدوه إذ يطوقه بما يقطع عليه سبل النجاة، ذلك بأن فعل العاصف يهبط بهم في لجج البحر تارة كأنهم سقطوا في هاوية سحيقة، ولا يلبث أن يثب بهم إلى أعلى غوارب الموج كأنهم في قنة جبل شاهق أصابه رجفة زلزلة شديدة ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا جواب لما تضمنه قوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾ الخ، أي حتى إذا ما نزل بهم كل ذلك من نذر العذاب، وتقطعت بهم دون النجاة جميع الأسباب، دعوا الله في كشفه عنهم مخلصين له الدين، لا يتوجهون معه إلى ولي ولا شفيع، ولا ند ولا شريك، ممن كانوا يتوسلون بهم إليه في حال الرخاء عازمين على طاعته قائلين:

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي نقسم لك يا ربنا لئن أنجيتنا من هذه التهلكة أو العاصفة لنكونن لك من جماعة المؤمنين الشاكرين لنعمائك لا نكفر منها شيئاً، ولا نشرك بك أحداً، ولا ندعو من دونك ولياً ولا شفيعاً، ولا نتوجه في تفريج كروبنا وقضاء حاجنا إلى وثن ولا صنم، ولا إلى ولي ولا نبي ولا ملك، وفي هذه الآية وأمثالها بيان صريح لكون المشركين كانوا لا يدعون في أوقات الشدائد وتقطع الأسباب بهم إلا الله ربهم، ولكن من لا يحصى عددهم من مسلمي هذا الزمان بزعمهم لا يدعون عند أشد الضيق إلا معبوديهم من الميتين كالبدوي والرفاعي والدسوقي والجيلاني والمتبولي وأبي سريع وغيرهم ممن لا يحصى عددهم، وتجد من حملة العمائم الأزهريين وغيرهم ولا سيما سدنة المشاهد المعبودة الذين يتمتعون بأوقافها ونذورها من يغريهم بشركهم ويتأوله لهم بتسميته بغير اسمه في اللغة العربية كالتوسل وغيره.

وقد سمعت من كثير من الناس في مصر وسورية حكاية يتناقلونها ربما تكررت في القطرين لتشابه أهلهما وأكثر مسلمي هذا العصر في خرافتهم وملخصها أن جماعة ركبوا البحر فهاج بهم حتى أشرفوا على الغرق فصاروا يستغيثون معتقديهم فبعضهم يقول يا سيد يا بدوي وبعضهم يصيح يا رفاعي وآخر يهتف يا عبد القادر يا جيلاني... الخ وكان فيهم رجل موحد ضاق بهم ذرعاً فقال: يا رب أغرق أغرق، ما بقي أحد يعرفك.

وفي هذا المعنى قال السيد حسن صديق الهندي في الكلام على الآية من تفسيره فتح الرحمن:

«وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً، وفي هذه الآية بيان أن هؤلاء المشركين كانوا لا يلتفتون إلى أصنامهم في هذه الحالة وما شابهها، فيا عجباً لما حدث في الإسلام من طوائف يعتقدون في الأموات، فإذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك إلينا تواتراً يحصل به القطع، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية؟ وأين وصل بها أهلها؟

وإلى أين رمى بهم الشيطان؟ وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى انقادوا له انقياداً ما كان يطمع في مثله ولا في بعضه من عباد الأصنام، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

وقال السيد محمود الآلوسي العراقي في تفسيرها من روح المعاني ما نصه:

أي دعوه تعالى من غير إشراك لرجوعهم من شدة الخوف إلى الفطرة التي جبل عليها كل أحد من التوحيد وأنه لا متصرف إلا الله سبحانه المركوز في طبائع العالم. وروي ذلك عن ابن عباس، ومن حديث أخرجه أبو داود والنسائي وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن أبي جهل فركب البحر فأصابتهم عاصف فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً، فقال عكرمة لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريماً، قال فجاء فأسلم، وفي رواية ابن سعد عن أبي مليكة أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الريح فجعلوا يدعون الله تعالى ويوحدونه قال ما هذا؟ فقالوا هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله تعالى، قال فهذا إله محمد ﷺ الذي يدعونا إليه فارجعوا بنا فرجع وأسلم.

وظاهر الآية أنه ليس المراد تخصيص الدعاء فقط به سبحانه، بل تخصيص العبادة به تعالى أيضاً لأنهم بمجرد ذلك لا يكونون مخلصين له الدين، وأيا ما كان فالآية دالة على أن المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحال، وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير، وخطب جسيم، في بر أو بحر، دعوا من لا يضر ولا ينفع، ولا يرى ولا يسمع، فمنهم من يدعو الخضر والياس، ومنهم من ينادي أبا الخميس والعباس، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة، ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة، ولا ترى فيهم أحداً يخص مولاه، بتضرعه ودعاه، ولا يكاد يمر له ببال، أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال، فبالله تعالى عليك قل لي أي الفريقين من هذه الحيثية أهدى سبيلاً، وأي الداعيين أقوم قيلاً، وإلى الله تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة، وتلاطمت أمواج الضلالة، وخرقت سفينة الشريعة، واتخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة، وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف، وحالت دون النهي عن المنكر صنوف الحتوف اهـ.

أقول: يعني الشهاب الآلوسي رحمه الله إن فشو هذا الشرك في الناس عامتهم وشيوخ البدع من علمائهم، والمنافقين من حكامهم، جعل نهي العارفين عنه، وأمرهم بالتوحيد المحض، من الأمور المتعذرة، التي يخشى على المجاهر بها الحتوف والهلكة. ونحن ما أمكننا هذه المجاهرة في مصر إلا بما رسخ فيها من الحرية المطلقة

بتفرنج الحكومة. ولما جهرت بها أول مرة في درس عام بالمسجد الحسيني سنة ١٣١٦ هاج عليّ الناس هيجة شؤمى، وحاول بعضهم أن يقتلني جهراً، فما يقول شيخ الأزهر ومحررو مجلة المشيخة (نور الإسلام) في السيد الآلوسي وفي السيد حسن صديق؟ لا يبعد أن تطعن هذه المجلة في دينهما وعقيدتهما كما طعنت على دين الإمام الشوكاني في جزئها الذي صدر أثناء كتابتنا لتفسير هذه الآية.

اهتداء بارج إنكليزي بهذه الآية وأمثالها

ساق الله تعالى نسخة من ترجمة القرآن العظيم باللغة الإنكليزية إلى بارج من ربابين البواخر الكبرى التي تمخر البحار بين إنكلترة والهند فرأى فيها ترجمة هذه الآية فراعته بلاغة وصفها لطغيان البحر واصطخابه وما تفعله الرياح الموسمية العاتية بالبواخر والبوارج العظيمة في المحيط الهندي في فصل الصيف، فطفق يتأمل سائر الآيات في وصف البحر، والسفائن الكبرى فيه التي وجدت في هذا العصر ولم يكن لها نظير في عصر النبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأي آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأي آلاء ربكما تكذبان وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ [الرحمن: ١٩ ـ ٢٤] ورأى أن المترجم الإنكليزي ينقل عن أشهر تفاسير القرآن لبعض علماء المسلمين التي ألفت بعد افتتاح العرب للمالك واستيلائهم على البحار أنهم لم يكونوا يعرفون ما عرفه الإنكليز وغيرهم من بعدهم أن اللؤلؤ والمرجان يخرج من البحار الحلوة كما يخرج من البحار المالحة فتأولوا قوله تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ بأنه يخرج من مجتمعهما الصادق بأحدهما لأنه بزعمهم يخرج من البحر الملح فقط، غافلين عن قوله تعالى: ﴿ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها﴾ [فاطر: ١٢] ونبه نظره تشبيه الجواري المنشآت بالأعلام في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣] والعلم الجبل، وأصلها أعلام الطريق العالية التي تعرف بها المسالك.

أطال الفكر هذا الربان الإنكليزي في هذه الآيات فتعمد أن يعرف بعض المسلمين في بعض ثغور الهند، فسألهم أتعلمون أن نبيكم محمداً ﷺ سافر في البحار؟ قالوا لا إنه لم يرو عنه أنه سافر في البحر قط، فاعتقد أن ما في القرآن مما ذكر لم يكن إلا بوحي من الله تعالى لهذا النبي العظيم، وأعظم منه ما فيه من آيات التوحيد والتشريع والتهذيب، التي هي أكمل وأقرب إلى العقل والفكرة من كل ما في التوراة والإنجيل، فأسلم عن علم وبصيرة، وظل زمناً طويلاً يتعبد بما يفهمه من ترجمة القرآن، حتى أتيح له ترك عمله في البحار، فأقام في مصر وتعلم العربية وعاشر

فضلاء المصريين، وهو مستر عبد الله براون رحمه الله تعالى، وأنا قد أدركته وعرفته، ولا يزال في مصر من يعرفه، وقد ضرب الأستاذ الإمام به المثل في صلاته التي كان يصليها في البحر بقدر ما يفهم من القرآن بكل خشوع وتوجه إلى الله تعالى، في كلام له في روح الصلاة ومغزاها، وصورتها وأركانها، قال قد كانت تلك الصلاة أقرب إلى مرضاة الله تعالى وقبوله من الصلاة الصورية التقليدية التي يمثلها من لا يخطر في قلوبهم فيها أنهم متوجهون إلى الله ومناجون له مع استشعار عظمته ووحدانيته الخ.

قال تعالى في وصف أولئك القوم ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إذا هم يفاجئون الناس في الأرض التي يهبطون إليها بالبغي عليهم وهو الظلم والعدوان والإفساد يمعنون في ذلك ويصرون عليه، وأصل البغي طلب ما زاد على القصد والاعتدال، إلى الإفراط المفضي إلى الفساد والاختلال، من بغى الجرح إذا زاد حتى ترامى إلى الفساد ومنه قولهم: بغت السماء، إذا تجاوزت في المطر الحد المحتاج إليه للزرع والشجر وإمداد الينابيع، وبغت المرأة إذا تجاوزت في بضعها الحق الخاص بالزوج إلى الفجور، والأصل فيه أن يكون كما وصفه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فتكون الصفة كاشفة للواقع للتذكير بقبحه وسوء حال أهله، وقد يكون البغي وهو تجاوز حد الاعتدال بحق إذا كان عقاباً على مثله أو ما هو شر منه كما يقع في الحروب وقتال البغاة من اضطرار أهل الحق والمعتدى عليهم، إلى تجاوز الحدود في أثناء الدفاع عن أنفسهم، وقد قال تعالى: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ [الشورى: ٣٧] وقال في بيان أصول الجرائم ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق﴾ [الأعراف: ٣٢] الخ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ هذا التفات عن حكاية المثل إلى مخاطبة البغاة أينما كانوا، وفي أي زمان وجدوا، مبدوءاً بالنداء الذي يصيح به الواعظ المنذر بالبعيد في مكانه، أو الغافل الذي يشبه الغائب في حاجته إلى من ويصيح به لينبهه، يقول يا أيها الضالون عن رشدهم، الغافلون عن أنفسهم، حسبكم بغياً على المستضعفين منكم، وغروراً بكبريائكم وقوتكم، إنما بغيكم في الحقيقة على أنفسكم، لأن عاقبة وباله عائدة عليكم، أو لأن من تبغون عليهم من قومكم أو من أبناء جنسكم، كقوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩] المراد به ولا يقتل بعضكم بعضاً، والشر داعية الشر، ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي حال كون بغيكم أو تتمتعون ببغيكم متاع الحياة الدنيا الفانية الزائلة، فهو ينقضي وعقابيله باقية، وأقلها توبيخ الوجدان، وقرأ الجمهور «متاع» بالرفع على أنه خبر لما قبله وفيه وجهان، أو على تقدير هو متاع الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي ثم إنكم بعد هذا التمتع القليل

ترجعون إلينا وحدنا ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دائماً من الظلم والبغي والتمتع بالباطل مصرين فنجازيكم به.

دلت الآية على أن البغي يجازى أصحابه عليه في الدنيا والآخرة، فأما في الآخرة فهو ما دل عليه إنذار أهله الرجوع إلى الله وإنباؤه إياهم بما كانوا يعملونه، إذ المراد به لازمه وهو الجزاء به، وقد تكرر مثله في التنزيل. وأما في الدنيا فهو قوله تعالى: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾ [يونس: ٢٣] ويؤيده قوله ﷺ «ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»[١] رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أبي بكر رضي الله عنه وأخرج ابن عدي وابن النجار من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً «احذروا البغي فإنه ليس من عقوبة هي أحضر من عقوبة البغي!! والترمذي وابن ماجه عن عائشة «أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم، وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم»[٢] وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن ابن عباس موقوفاً «لو بغى جبل على جبل لدك الباغي» ورواه ابن مردويه مرفوعاً وموقوفاً والموقوف أصح كما قال ابن أبي حاتم وفي الجامع الصغير عن أبي هريرة بزيادة «لدك الباغي منهما» أخرجه ابن لال بسند ضعيف.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب في تاريخه والديلمي في مسند الفردوس عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث هن رواجع على أهلها: المكر والنكث والبغي» ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ ﴿ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله﴾ [فاطر: ٤٣] ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ [الفتح: ١٠] والمراد نكث العهود مع الله أو مع الناس وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تبغ ولا تكن باغياً فإن الله يقول: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾ وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن الزهري.

وأقول: إنه يجب علينا أن نرجع في تحقيق الحق في هذا الموضوع إلى سنن الله تعالى في العمران وطبائع الاجتماع البشري التي تثبتها وقائع التاريخ، فهي التي تفسر لنا أن البغي ـ وهو من أخص ضروب الظلم للناس ـ يرجع على فاعله، ذلك بأنه سبب من أقوى أسباب العداوة والبغضاء بين الأفراد، وإيقاد نيران الفتن والثورات في

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٤٣، والترمذي في القيامة باب ٥٧، وابن ماجه في الزهد باب ٢٣، وأحمد في المسند ٥/٣٦، ٣٨.

(٢) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٥٧، وابن ماجه في الزهد باب ٢٣.

الأقوام، فالفرد الذي يبغي على مثله يخلق له بغيه عدواً أو أعداء ممن يبغي عليهم، وممن يكرهون البغي وأهله، فوجود الأعداء والمبغضين ضرب من ضروب العقوبة وإن لم يستطيعوا إيذاء الباغي لعجزهم، فكيف إذا قدروا وفعلوا وهو الغالب؟ وأما بغي الملوك والحكام على الأقوام والشعوب فأهون عاقبته عداوتهم والطعن عليهم، وقد تفضي إلى اغتيال أشخاصهم، أو إلى ثل عروشهم والقضاء على حكمهم، إما بثورة من الشعب تستبدل بها عرشاً بعرش، أو نوعاً من الحكم بنوع آخر، وإما بإغارة دولة قوية على الدولة التي يضعفها البغي تسلبها استقلالها، وتستولي على بلادها، ولا تنس ما تكرر عليك في هذا التفسير من أن ذنوب الأفراد من بغي وظلم وغيرهما لا يطرد العقاب عليها في الدنيا بخلاف ذنوب الأمم والدول، فإن عقابها أثر طبيعي لظلمها وفسادها. وإنما يوفى كل أحد جزاءه في الآخرة.

فإن قيل: إن الأرض كلها تستغيث ربها من بغي دول أوروبا وظلمها، فما لنا لا نرى بغيها يعود وباله عليها، وما لنا لا نرى وعيده تعالى للظالمين نازلاً بها، ومديلاً للشعوب الشرقية المظلومة منها ومن شعوبها المؤيدة لها.

قلنا: إن هذا السؤال ما جاء إلا من الغفلة عن الأمر الواقع، والجهل بسنن الله في العمران، فإن في بلاد هذه الدول من المصائب والنوائب والجوائح والفقر ما هو أشد مما في بعض بلاد الشرق، وإنها قد قتلت من رجالها في الحرب الأخيرة العامة أضعاف من قتلتهم بغياً وعدواناً من أهل الشرق منذ اعتدت عليهم إلى اليوم، وأنها قد خربت من عمرانها أكثر مما خربت في الشرق، وأنها قد خسرت من أموالها في أربع سنين أضعاف ما ربحت من الشرق في مائة سنة، وأن ما بين شعوبها بعضها لبعض من الأحقاد والأضغان، وتربص الدوائر للوثبان، والفتك بالأرواح وتدمير العمران، لأشد مما في قلوب شعوب الشرق لظالميهم ومستذليهم منهم ـ فهذا بعض انتقام العدل الإلهي المشاهد.

فأما الجوائح السماوية فلا يعتبرون بها، لأنهم يسندونها إلى أسبابها ما صح منها وما لم يصح؟ فمكرهم في آياته أشد من مكر من قبلهم. وأما المصائب الكسبية فيتوخون تخفيفها، وتلافي شرورها، بالمفاوضات والمؤتمرات، وهيهات هيهات.

وأما ما نتمناه من الإدالة لشعوبنا منهم فلا تزال غير أهل له لما هي عليه من الجهل وفساد الأخلاق، والتقاطع والتخاذل، وترك كل ما هداها الله إليه في كتابه من أسباب السيادة والاستخلاف في الأرض كما نبهنا إليه آنفاً، وشرحناه في تفسيرنا هذا لآيات كتابه مراراً، ومن المكابرة للحس أن ننكر أن أكثر ما في بلادنا من عمران فهو من عملهم، وإن كان جله لمصلحتهم، وإن من يستخدمون من ملوكنا وأمرائنا

وحكامنا هم شر علينا منهم، بل لم يسودونا ويغلبونا في قطر من أقطارنا، إلا بمساعدة سادتنا وكبرائنا إياهم علينا ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الأنفال: ٥٣] فراجع تفسيره في جزء التفسير العاشر. تعلم أننا إذا غيرنا ما بأنفسنا الآن، بما كان عليه سلفنا من إيمان وأخلاق تتبعها الأعمال، وأولها الجهاد بالنفس، والمال، فإن كل ما سلب منا يرجع إلينا، ونزاد عليه بالسيادة على غيرنا، ولو اتبعوا هم كتابنا كله لأصلحوا الأرض كلها.

ضرب الله هذا المثل هنا للكافرين بنعمه من الباغين في الأرض والظالمين للناس، فذكر من إخلاصهم في دعائه عند الشدة أنهم يقسمون له لئن أنجاهم منها، ليكونن من الشاكرين له عليها، وضربه في أواخر سورة العنكبوت للمشركين في عبادته، من المؤمنين بربوبيته، فقال: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ [العنكبوت: ٦٥] وضربه في أواخر سورة لقمان لجميع أصناف الناس فقال: ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾ [لقمان: ٣١، ٣٢] الختار الكفور هنا ضد مقابل للصبار الشكور فيما قبله، والختر الغدر الذي يحمل عليه ضعف الإرادة.

والعبرة في هذه الآيات كلها أنه تعالى أخبر عن المشركين به. وعن الكافرين بنعمه، وعن الختارين الفاقدين لفضيلتي الصبر والشكر، أنهم كلهم يدعونه في شدة الضيق ومساورة خطر البحر لهم مخلصين له الدين، لا يتوجهون إلى غيره ممن اتخذوهم شركاء لله تعالى بعبادتهم لهم وتوسلهم بهم واتخاذهم وسطاء عنده، وأنهم إنما يقترفون هذا الشرك وما ينسبه من البغي والظلم وكفر النعمة بعدم إسنادها إلى المنعم الحقيقي في أوقات التمتع بها والسلامة من منغصاتها، وأن الذين يثبتون على توحيده وشكره هم المقتصدون أي المعتدلون في عقائدهم وأخلاقهم فلا تقنطهم الشدة، ولا تبطرهم النعمة.

ولكن يوجد في زماننا من هم أشد شركاً وكفراً بالنعم والمنعم وهم قوم يدعون غيره من دونه في أشد أوقات الضيق والخطر، ويدعون مع ذلك أنهم مسلمون موحدون لأنهم ينطقون بكلمة التوحيد الموروثة بألسنتهم وهم لا يعقلون معناها والله تعالى يقول: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ [محمد: ١٩] ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا

﴿أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾

لما كان سبب ما ذكر من البغي في الأرض وإفساد العمران هو الإفراط في حب التمتع بما في الدنيا من الزينة واللذات ضرب لها مثلاً بليغاً يصرف العاقل عن الغرور بها، ويهديه إلى القصد والاعتدال فيها، واجتناب التوسل إليها بالبغي والظلم، وحب العلو والفساد في الأرض، وهو عبارة عن تشبيه زينتها ونعيمها في افتتان الناس بهما وسرعة زوالهما بعد تمكنهم من الاستمتاع بها، بحال الأرض يسوق الله إليها المطر فتنبت أنواع النبات الذي يسر الناظرين ببهجته، فلا يلبث أن تنزل به جائحة تحسه وتستأصله قبيل بدو صلاحه والانتفاع به، قال عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي لا شبه لها في صورتها ومآلها إلا ماء المطر في جملة حاله الآتية ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي فأنبتت الأرض أزواجاً شتى من النبات تشابكت بسببه واختلط بعضها ببعض في تجاورها وتقاربها، على كثرتها واختلاف أنواعها ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ بيان لأزواج النبات وكونها شتى كافية للناس في أقواتهم ومراعي أنعامهم، وكل مرامي آمالهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ أي حتى كانت الأرض بها في خضرة زروعها السندسية، وألوان أزهارها الربيعية، كالعروس إذا أخذت حليها من الذهب والجواهر، وحللها من الحرير الملون بالألوان المختلفة ذات البهجة، فتحلت وازينت بها استعداداً للقاء الزوج ـ ولا تغفل عن حسن الاستعارة في أخذ الأرض زينتها، حتى كان استكمال جمالها، كأنه فعل عاقل حريص على منتهى الإبداع والإتقان فيها ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ [النمل: ٨٨].

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ متمكنون من التمتع بثمراتها، وادخار غلاتها، ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي نزل بها في هذا الحال أمرنا المقدر لإهلاكها بجائحة سماوية ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم غافلون ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أي كالأرض المحصودة التي قطعت واستؤصل زرعها، فالحصيد يشبه به الهالك من الأحياء كما قال في أهل القرية الظالمة المهلكة ﴿فجعلناهم حصيداً خامدين﴾ [الأنبياء: ١٥] ويشبه هذا الهلاك في نزوله في وقت لا يتوقعه فيه أهله قوله: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أي هلكت فجأة فلم يبق من زروعها شيء، حتى كأنها لم تنبت ولم تمكث قائمة نضرة بالأمس، يقال غني في المكان إذا أقام به طويلاً كأنه استغنى به عن غيره، قال تعالى في الأقوام الهالكين في أرضهم ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾

[الأعراف: ٩٢] والأمس الوقت الماضي، وقال الزمخشري في الكشاف: والأمس مثل في الوقت القريب كأنه قيل: كأن لم تغن آنفاً اهـ وأما أمس غير معرف فهو اسم لليوم الذي قبل يومك.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي كهذا المثل في جلائه وتمثيله لحقيقة حال الحياة الدنيا وغرور الناس فيها وسرعة زوالها، عند تعلق الآمال بنوالها، نفصل الآيات في حقائق التوحيد وأصول التشريع وأمثال الوعظ والتهذيب وكل ما فيه صلاح الناس في عقائدهم وأنفسهم وأخلاقهم ومعاشهم، واستعدادهم لمعادهم، لقوم يستعملون عقولهم وأفكارهم فيها، ويزنون أعمالهم بموازينها، فيتبينون ربحها وخسرانها.

والعبرة لمسلمي عصرنا في هذه الآيات البينات المنزلة وأمثالها التي اهتدى بها الشعب العربي فخرج من شركه وخرافاته وأميته وبداوته إلى نور التوحيد والعلم والحكمة والحضارة، ثم اهتدى بدعوته إليها الملايين من شعوب العجم، فشاركته في هذه السعادة والنعم، إنه لم يبق لهم حظ منها إلا ترتيلها بالنغمات في بعض المواسم والمآتم، ولا يخطر لهم ببال أنه يجب عليهم التفكر فيها للاهتداء بها، ولو تفكروا لاهتدوا وإذا لعلموا أن كل ما يشكو منه البشر من الشقاء بالأمراض الاجتماعية والروحية، والرذائل النفسية، والعداوات القومية، والحروب الدولية، فإنما سببه التنافس في متاع هذه الحياة الدنيا، وأن من تفكر في هذا وكان على بصيرة منه، فهو جدير بأن يلتزم القصد والاعتدال في حياته الدنيوية المادية، ويصرف جل ماله وهمته في إعلاء كلمة الله وعزاه أهل ملته، وقوة دولته، والاستعداد لآخرته، فيكون من أهل سعادة الدارين.

وما صرف الناس عن هذا الاهتداء بكتاب الله، وهو أعلى وأكمل ما أنزله الله، إلا علماء السوء المقلدون الجامدون، وزعمهم الباطل أنه لم يبق في البشر أحد أهلاً للاهتداء به وببيان الرسول ﷺ له، لأن هذا يتوقف على ما يسمونه الاجتهاد، ويزعمون أنه أصبح ضرباً من المحال، وقد أنشأت مشيخة الأزهر في هذا العهد وهي أكبر المعاهد الدينية الإسلامية مجلة رسمية شهرية باسم (نور الإسلام) تصرح بهذه الجهالة، وتطعن على الدعاة إلى هذه الهداية، وإلى ترك البدع، واتباع السنن، وإنها لدركة من عداوة الله ورسوله لم يبلغوا قعرها إلا بخذلان من الله.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟

ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

لما بين عزَّ وجلَّ غرور المشركين الجاهلين بمتاع الحياة الدنيا قفى عليه ببيان ما يدعو إليه من سعادة الآخرة ووصف حال المحسنين والمسيئين فيها فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ الجملة عطف على محذوف يدل عليه السياق وقرينة المقابلة، أي ذاك الإيثار لمتاع الدنيا والإسراف والبغي فيه، هو ما يدعو إليه الشيطان، فيسوق متبعيه إلى النار، دار الخزي والنكال، والله يدعو عباده إلى دار السلام وهي الجنة، وفي المراد بالسلام الذي أضيفت إليه الدار وجوه يصح أن تراد كلها **أولها**: أنه السلامة من جميع الشوائب والمصائب والمعايب، والنقائص والأكدار، والعداوة والخصام **الثاني**: أنه تحية الله وملائكته لأهلها وتحية بعضهم لبعض الدالة على تحابهم وتوادهم وقد تقدم شرحه قريباً **ثالثها**: إن السلام من أسمائه عزَّ وجلَّ وأضيفت دار النعيم إليه تعظيماً لشأنها، وهو مصدر وصف به للمبالغة كالعدل، ويدل على كمال التنزيه والسلامة من كل ما لا يليق برب العالمين الرحمن الرحيم، وفي بعض الأحاديث إضافة هذه الدار إلى ضمير الذات (داري).

﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عطف على ما قبله أي يدعو كل أحد إلى دخول دار السلام، ويهدي من يشاء إلى الطريق الموصل إليها من غير تعويق لأنه مستقيم لا عوج فيه ولا التواء، وهو الإسلام عقائده وفضائله وعباداته وأحكامه، والهداية في الأصل الدلالة بلطف، وتكون بالتشريع وهو بيانه، وهي عامة، وبالتوفيق للسير عليه والاستقامة الموصلة إلى الغاية وهي خاصة بالمستعدين لذلك كما فصلناه في تفسير سورة الفاتحة، وهي المرادة هنا ولذلك قيدها بالمشيئة.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ هذا بيان لصفة الذين هداهم إلى صراط الإسلام، فوصلوا بالسير عليه إلى غايته وهي دار السلام، أي للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثوبة الحسنى أي التي تزيد في الحسن على إحسانهم وهي مضاعفتها بعشرة أمثالها أو أكثر، كما قال في سورة النجم ﴿ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ [النجم: ٣١] ولهم زيادة على هذه الحسنى، هي فوق ما يستحقونه على أعمالهم بعد مضاعفتها التي هي من جزائها مهما تكن حسنة كما قال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ [النساء: ١٧٢] وقد ورد في الأحاديث الكثيرة من الطرق العديدة أن هذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم وهو أعلى مراتب الكمال الروحاني الذي لا يصل إليه المتقون المحسنون العارفون إلا في الآخرة. وقد فصلنا القول فيه في تفسير سورة الأعراف (ج ٩) بما

يقربه من العقل والعلم العصري، ويدحض شبهات المعتزلة المنكرين له بزعمهم أنه محال عقلاً، وما هذا المحال إلا نظريات عقولهم التي تقيس عالم الغيب على عالم الشهادة، وقد ظهر في هذا العصر من علوم المادة ما لم يكن يقبله عقل من العقول المقيدة بتلك النظريات المتولدة من الفلسفة اليونانية والكلام الجهمي فكيف يكون عالم الغيب الإلهي مقيداً بها:

وثم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمه

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ رهق الرجل الشيء (كتعب) أدركه ورهقه الشيء كالدين والذل غشيه، وغلب عليه حتى غطاه وحجبه ﴿ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ [الكهف: ٧٣] لا تكلفني ما يعسر عليّ، والقتر الدخان الساطع من الشواء والحطب وكل غبرة فيها سواد. أي لا يغشي وجوههم في الآخرة شيء مما يغشى وجوه الكفرة الفجرة من الكسوف والظلمة والذلة، كما يأتي قريباً في المقابلة بين الفريقين ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة دار السلام والإكرام، خالدون مقيمون فيها لا يبرحونها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ جزاء وفاقاً، لا يزادون على ما يستحقون بسيئاتهم من العذاب شيئاً ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم ذلة الفضيحة وكسوف الخزي بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وفجور ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ما لهم من أحد ولا من شيء يعصمهم ويمنعهم من عذاب الله، كالذين اتخذوهم في الدنيا من الشركاء، وزعموهم من الأولياء والشفعاء، وانتحلوهم من الوسائل والوسطاء، لأنه اليوم الذي تنقطع فيه الأسباب التي مضت بها سنن الله تعالى في الدنيا، فإنى تفيد فيه المزاعم الشركية الوهمية ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ [الانفطار: ١٩] أو ما لهم من عند الله ومن فضله من عاصم يحفظهم من عذابه كعفوه ومغفرته، فإنه لا يغفر أن يشرك به، كالشفعاء الذين يشفعون بإذنه لمن ارتضى من عباده إظهاراً لكرامتهم، لأن هذه الشفاعة الخاصة لا نصيب فيها لمنتحلي الشفاعة الشركية الذين كانوا يزعمون في الدنيا أن لشفعائهم تأثيراً في مشيئة الله وأفعاله حتى يحملوه على فعل ما لم يكن يفعله لولا شفاعتهم، فيجعلون ذاته وصفاته وأفعاله معلولة تابعة لما يطلبونه منه، وأما شفاعة الإيمان الصحيحة فهي تابعة لمشيئته ولمرضاته ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي كأنما قدّ لوجوههم قطع من أديم الليل حالة كونه حالكاً مظلماً، ليس فيه بصيص من نور قمر طالع، ولا نجم ثاقب، فأغشيتها قطعة بعد قطعة، فصارت ظلمات بعضها فوق بعض، وأنه لتشبيه عظيم في

بلاغة المبالغة في خذلانهم وفضيحتهم التي تكسف نور الفطرة، والظاهر أن سواد وجوههم حقيق ومجازي ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكرهم أصحاب النار خالدون فيها لا يبرحونها لأنه ليس لهم مأوى سواها كما تقدم في آية أخرى، وقد يدخلها بعض عصاة المؤمنين فيعاقبون على ما اجترحوا من السيئات ثم يخرجون منها.

هذا الوصف لأهل الجنة وأهل النار له نظير في آخر سورة الأعمى ﴿وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٤٢] وفي سورة القيامة ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٥] وهذه المقابلة في سورة القيامة ترجح أن الزيادة على الحسنى في آية يونس هي مرتبة النظر إلى الرب، فنسأله تعالى أن يجعلنا وأولادنا وأهل بيتنا وإخواننا الصادقين من أهلها.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

هذا لون آخر من ألوان البيان لعقيدة البعث والجزاء وقد بينا حكمة هذا التكرار المختلف الأساليب والألوان وأمثاله في الكلام على أسلوب القرآن وإعجازه.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي واذكر أيها الرسول لفريقي الناس الذين ضربنا لهم ما سبق من الأمثال، وبينا ما يعملون من الأعمال، يوم نحشرهم جميعاً في موقف الحساب لا يتخلف منهم أحد، أو الظرف متعلق بقوله تعالى في الآية التالية ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت﴾ وفي بعض الآيات ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون﴾ [الفرقان: ١٧] ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ أي ثم نقول للمشركين منهم بعد وقوف طويل لا يخاطب فيه أحد بشيء كما تدل عليه بعض الآيات: الزموا مكانكم لا تبرحوه حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أي الزموه أنتم وشركاؤكم أي الذين جعلتموهم شركاء لله لنفصل بينكم فيما كان من سبب عبادتكم لهم وما يقول كل منكم فيها.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي فرقنا بين الشركاء ومن أشركوهم مع الله وميزنا بعضهم من بعض كما يميز بين الخصوم عند الحساب، والتزييل من زاله يزاله كناله يناله بمعنى نحاه (وهو يائي) وزايلته فارقته وتزيلوا تميزوا بافتراق بعضهم من بعض، ومنه قوله في أهل مكة واختلاط مؤمنيهم بكفارهم قبل الفتح ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم

عذاباً أليماً﴾ [الفتح: ٢٥] أو المراد من التزييل والتفريق تقطيع ما كان بينهم في الدنيا من الصلات، وما للمشركين في الشركاء من الآمال، وكل من المعنيين صحيح، والعبادة الشركية أنواع، والمعبودات والمعبودون أنواع يصح في بعضهم ما لا يصح في الآخر، ولذلك تكرر معنى حشر الفريقين وحسابهم في سور أخرى بعضها في عبادة الملائكة وعبادة الجن، وبعضها في عبادة البشر، وما اتخذ لهم من التماثيل والصور، ومثلها القبور المعظمة وسنشير إلى شواهده.

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أي ما كنتم تخصوننا بالعبادة وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وشياطينكم المغوية لكم، وتتخذون أسماءنا وتماثيلنا هياكل ومواسم لمنافعكم ومصالحكم، وليس هذا شأن العبودية الصادقة للمعبود الحق، الذي يطاع ويعبد لأنه صاحب السلطان الأعلى على الخلق، وبيده تدبير الأمر، ومصادر النفع والضر والمراد أنهم يتبرؤن منهم كما صرح به في آيات أخرى.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي فكفى الله شهيداً وحكماً بيننا وبينكم فهو العليم بحالنا وحالكم ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ أي إننا كنا في غفلة عن عبادتكم لا ننظر إليها ولا نفكر فيها، وقيل إن المراد بالغفلة عنها عدم الرضا بها.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي في ذلك المكان وهو موقف الحسب أو في ذلك الوقت أو اليوم تختبر كل نفس من عابدة ومعبودة ومؤمنة وجاحدة، وشاكرة وكافرة، ما قدمت في حياتها الدنيا من عمل، وما كان لكسبها في صفاتها من أثر، من خير وشر، ونفع وضر، بما ترى من الجزاء عليه، وكونه ثمرة طبيعية له، لا شأن فيه لولي ولا شفيع، ولا معبود ولا شريك. وهنالك مواقف وأوقات أخرى لا سؤال فيها ولا جدال، تغني فيها دلالة الحال عن المقال، ولكل مقام مقال ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي أرجعوا إلى الله الذي هو مولاهم الحق دون ما اتخذوا من دونه بالباطل من الأولياء والشفعاء، والأنداد والشركاء، على اختلاف الأسماء كما ثبت في الآيات الكثيرة كقوله: ﴿إلى الله مرجعكم﴾ ﴿إلى ربكم مرجعكم﴾ ﴿إلى ربهم مرجعهم﴾ ﴿وإلى ربهم مرجعهم﴾ ﴿وإلى الله المصير﴾ ﴿وإليه المصير﴾ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي وضاع وذهب عنهم ما كانوا يفترونه عليه من الشفعاء والأولياء، فلم يجدوا أحداً ينصرهم ولا ينقذهم ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ [الانفطار: ١٩].

هذه الآيات في موقف المشركين مع الشركاء، والمرؤوسين مع الرؤساء، والمتكبرين مع الضعفاء، والمضلين مع الضالين، والغاوين مع المغوين، قد تكرر بيانها في سور أخرى مجملاً مبهماً، وفي بعضها مفصلاً ومبيناً، فمنها ما يسأل الله فيه

العابدين، ومنها ما يسأل فيه المعبودين، من غير تعيين، ومنها ما عين فيه اسم الملائكة والجن والشياطين، وفي كل منها يتبرأ المضلون من الضالين، فتراجع فيها سورة الفرقان [١٧ ـ ١٩] وسورة الأنعام [٢٢ ـ ٢٤] وسورة سبأ [٤٠ ـ ٤٢] وسورة القصص [٦٢ ـ ٦٤] ومنها ما يتناقش فيها الفريقان فراجع سورة إبراهيم [٢١، ٢٢] وسورة الصافات [٢٢، ٢٣] فبمراجعة هذه الآيات كلها وما في معناها كآيات سورة البقرة (٢: ١٦٦ و١٦٧ ومع تفسيرنا لهاتين (ج ٢) يتبين لك ما يفسر به بعضها بعضاً، وقد بينا حكمة هذا التكرار في موضعه الذي دللنا عليه آنفاً.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

هذا نوع آخر من أسلوب إقامة الحجج على المشركين في إثبات التوحيد والبعث وهو أسلوب السؤال والجواب، ويليه إثبات النبوة والرسالة والقرآن.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المعاندين من أهل مكة: من يرزقكم من السماء بما ينزله من المطر، ومن الأرض بما ينبته فيها من أنواع النبات نجمه وشجره مما تأكلون وتأكل أنعامكم؟ ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ بل قل لهم أيضاً من يملك ما تتمتعون به أنتم وغيركم من حواس السمع والأبصار التي لولاها لم تكونوا تعلمون من أمر العالم شيئاً، بل تكون الأنعام والحشرات وكذا الشجر خيراً منكم باستغنائها عمن يقوم بضرورات معاشها، من يملك خلق هذه الحواس وهبتها للناس، وحفظها من الآفات؟ وخص هاتين الحاستين بالذكر لأن عليهما مدار الحياة الحيوانية وكمال البشرية، وتحصيل العلوم الأولية، يشعر بذلك المسؤولون بمجرد إلقاء السؤال، وكلما ازدادوا فيه تفكراً ازدادوا علماً وإعجاباً وإكباراً لإنعام الله تعالى بهما، وإيماناً بأنه لا يقدر غيره عليهما، ولا سيما إدراك الكلام بحاسة السمع، وما يرسمه صوت المتكلم في الهواء من معلوماته التي يدلي بها إلى غيره، فتتكيف بها كل ذرة من ذراته (أي الهواء) فتقرع به طبلة كل أذن من آذان السامعين وإن كثروا، فينقلها العصب المتصل بها إلى مركز إدراك الكلام من دماغه، فيدرك معناها المدلول عليه بها بأقوى مما يدركه من قرأها مخطوطة في كتاب، لما لجرس الصوت من التأثير الخاص، فمن ذا الذي خلق هذه الآلات؟ ومن ذا الذي ألهمها إيداع هذه المعاني في الأصوات؟ ومن ذا الذي وضع هذا النظام في الهواء؟

ثم إذا ازداد علماً بإدراك البصر للمبصرات، وما لها من المقادير والألوان

والصفات، وما للعين الباصرة من الشكل المحدب، وما لها من الطبقات والرطوبات، الموافقة لسنن الله في النور تدرك به المرئيات، مما هو مبسوط في الأسفار وموجز في المختصرات، ازداد يقيناً بأن ذلك من آيات الله الدالة على علمه وحكمته في الكائنات، وإن غفل عنها المشغولون عن عظمة الصانع بعظمة المصنوعات، وقد وحد السمع لأن إدراكه لجنس واحد هو الأصوات، وجمع البصر لتعدد أجناس المبصرات.

﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي ومن ذا الذي يملك الحياة والموت في العالم كله فيخرج الأحياء والأموات بعضها من بعض فيما تعرفون من المخلوقات التي تحدث وتتجدد وفيما لا تعرفون؟ فما كانوا يعرفون أن النبات يخرج من الأرض الميتة بعد إحياء الله إياها بماء المطر النازل عليها من السماء أو النابع منها بعد أن سلكه الله تعالى فيها كما قال: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه﴾ [الزمر: ٢١] الآية. بل كانت الحياة المعروفة عندهم قسمين حياة النبات وآيتها النمو، وحياة الحيوان وآيتها النمو والإحساس والحركة بالإرادة، وكانوا يعدون وصف الأرض بالحياة مجازاً، ولم يكونوا يصفون أصول الأحياء بالحياة كالحب والنوى وبيض الحيوان ومنيه، ولذلك فسر بعض المفسرين إخراج الحي من الميت والميت من الحي بخروج النخلة من النواة والطائر من البيضة وعكسهما وما يشابههما، وهو تفسير صحيح عند أهل اللغة غير صحيح عند علماء الحياة النباتية والحيوانية.

وتحصل به الدلالة المقصودة من الآية على قدرة الله وحكمته وتدبيره ورحمته عند المخاطبين، وليس المراد به وضع قواعد فنية للحياة وأنواعها وتحديد وظائفها، على أنه يمكن تفسيرها بما يتفق وقواعد الفنون وتجارب العلوم التي تزداد عصراً بعد عصر، فإذا كان أهلها يثبتون أن في أصول النبات من بزر ونوى وبيض ومني حياة، فهم يثبتون أيضاً أن أصول الأحياء في الأرض كلها خرجت من مادة ميتة فإن الأرض عندهم كانت كتلة نارية ملتهبة انفصلت من الشمس ثم صارت ماء ثم نبتت اليابسة في الماء ثم تكون من الماء النبات والحيوان في أطوار سبق الكلام فيها، ويثبتون أيضاً أن الغذاء من الطعام الميت الذي يحرق بالنار يتولد منه دم ومن هذا الدم يكون البيض والمني المشتملان على مادة الحياة، ويثبتون أيضاً أن بعض مواد البدن الحية تموت وتخرج منه مع البخار والعرق وغيرهما مما يفرزه البدن ويلفظه، ويتجدد فيه مواد حية جديدة تحل محل ما اندثر وخرج منه، والمراد من الآية إثبات قدرة الخالق وتدبيره ونعمه على عباده، وهو عام لا يتوقف على الفن ومحدثات العلم بل تزيده كمالاً للمؤمن المعتبر، وقد تكون حجاباً لغيره تحجبه عن ربه، فالقاعدة عند علماء الحياة أن الحي لا يخرج إلا من حي، فتعين أن تكون الحياة الأولى من خلق الله الحي بذاته المحيي لغيره.

وورد في التفسير المأثور تفسير الحياة والموت في مثل هذه الآية بالمعنويين منهما كخروج المؤمن من سلالة الكافر والعالم من الجاهل والبر من الفاجر وعكسها، وقد قدمناه في تفسير آية آل عمران [الآية: ٢٧] الوارد فيها لأنها المناسب لسياقها. وهناك رواه ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن البصري وسعيد بن منصور ورواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات وأبو الشيخ في العظمة عن سلمان (رض) وكذا ابن مردويه عنه وعن ابن مسعود (رض) فراجعه في تفسيرها من الدر المنثور وسياق هذه الآيات هنا يناسب ما فسرناها به من الحياة والموت في العالم كله ويؤيده قوله تعالى:

﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في الخليقة كلها بما أودعه في كل منها من السنن وقدره من النظام، وتقدم تفسير التدبير عند ذكره في أول هذه السورة ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي فسيكون جوابهم عن هذه الاستفهامات الخمس أن فاعل ذلك كله هو الله رب كل شيء ومليكه، إذ لا جواب غيره وهم لا يجهلونه، فالاستفهام عنه لحملهم على الإقرار به ليرتب عليه قوله ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي فقل لهم أيها الرسول أتعلمون هذا وتقرون به فلا تتقون سخط الله وعقابه لكم بشرككم به وعبادتكم لغيره ممن لا يملك لكم من تلك الأمور شيئاً، وهو المالك لها كلها؟

﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ هذه فذلكة ما تقدم، أي فذلكم الذي يفعل ما ذكر الله ربكم، أي المربي لكم بنعمه والمدبر لأموركم، الحق الثابت بذاته، لأنه هو الحي القيوم، الحي بذاته، المحيي لغيره، القائم بنفسه، المقيم لغيره، وإذا كان هو ربكم الحق الذي لا ريب فيه، المستحق للعبادة دون سواه ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ الاستفهام إنكاري، وفي الجملة إدماج بما يسمونه الاحتباك، أي فماذا بعد الحق إلا الباطل؟ وماذا بعد الهدى إلا الضلال؟ والواسطة بين الطرفين المتضادين المتناقضين ممنوعة كالعقائد، فالذي يفعل تلك الأمور هو الرب الحق فالقول بربوبية ما سواه باطل، وهو الإله الذي يعبد بحق، وعبادته وحده هي الهدى، فما سواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال، فكل من يعبد غيره معه فهو مشرك مبطل ضال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال، بعد العلم والإقرار بما كان به الله هو الرب الحق، وإنما الإله الحق، الذي يعبد بالحق، هو الرب الحق، فما بالكم تقرون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية؟ فتتخذون مع الله آلهة أخرى ولا تتحقق الألوهية إلا بتحقق الربوبية؟

فالآية تقرر أن التوحيد لا يصح مع الفصل بين الربوبية والألوهية كما كانوا يفعلون، وقد جهل هذا بعض علماء الأزهر في هذا الزمان، الذين أخذوا عقيدتهم من بعض الكتب الكلامية المبتدعة وجهلوا عقائد القرآن، فلم يفرقوا بين مفهومي الرب

والإله في اللغة العربية، وما كان عليه أهلها في الجاهلية، على أن الإسلام إنما وحد بينهما في الماصدق الشرعي، لا في المفهوم اللغوي، واحتج بهذا على المشركين هنا وفي آيات كثيرة كما صرح به الحافظ ابن كثير في تفسيره وغيره من قبله ومن بعده.

وفي الآية من قواعد العقائد الدينية وأصول التشريع والعلم أن الحق والباطل فيهما ضدان لا يجتمعان، وأن الهدى والضلال ضدان لا يجتمعان، ولهذا الأصل فروع كثيرة في الدين والعلم العقلي. وفيها من حسنات الإيجاز في التعبير ما يسميه علماء البديع بالاحتباك، وهو أن يحذف من كل من المتقابلين ما يدل عليه مقابله في الآخر، وهو ظاهر في الآية أتم الظهور، وإن غفل عنه الجمهور.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أي مثل ذلك الذي حقت به كلمة ربك أيها الرسول في وحدة الربوبية والألوهية، وكون الحق ليس بعده لتاركه إلا الباطل، والهدى ليس وراءه للناكب عنه إلا الضلال، حقت كلمة ربك أي سنته أو وعيده على الذين فسقوا أي خرجوا من حظيرة الحق وهو توحيد الألوهية والربوبية وهداية الدين الحق. ففي كلمة الرب وجهان، لكل منهما أصل في القرآن، أحدهما أنها كلمة التكوين وهي سنته في الفاسقين الخارجين من نور الفطرة واستقلال العقل الذين لا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل والتفرقة بين الهدى والضلال لرسوخهم في الكفر واطمئنانهم به بالتقليد والعمل فقوله ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على هذا بيان للكلمة أو بدل منها، اقتضت سنته في غرائز البشر وأخلاقهم أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا من التوحيد والهدى مهما تكن آياتهم بينة، وحججهم قوية ظاهرة، وليس معناه أنه تعالى يمنعهم من الإيمان منعاً قهرياً مستأنفاً بمحض قدرته، بل معناه أنهم يمتنعون منه باختيارهم ترجيحاً للكفر عليه. ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى في هذه السورة ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يرو العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

والوجه الثاني أنها كلمة خطاب التكليف بوعيد الفاسقين الكافرين بعذاب الآخرة كقوله في سورة ألم السجدة ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ [السجدة: ٢٠] وقوله في سورة غافر ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ [غافر: ٦] ويكون قوله ﴿أنهم لا يؤمنون﴾ على هذا تعليلاً لما قبله بحذف حرف الجر أي لأنهم أو بأنهم لا يؤمنون. وكل من الوجهين حق ظاهر والأول أظهر هنا وقرأ نافع وابن عامر (كلمة) في آيتي يونس وآية غافر بالجمع (كلمات) ولأجل ذلك رسمت في المصحف الإمام بالتاء المبسوطة (كلمت) ووجه قراءة الجمع أن هذا المعنى بوجهيه قد تعدد وتكرر في آيات الكتاب.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لم يعطف هذا الأمر ولا ما بعده على ما قبله من تلقين النبي ﷺ الاحتجاج على المشركين لأن حكم البلاغة فيه الفصل كأمثاله مما يسرد سرداً من جنس واحد من المفردات والجمل. أي قل لهم أيها الرسول: هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله. أو من دون الله من له هذا الشأن في الكون وهو بدء الخالق في طور ثم إعادته في طور آخر، سواء كان من الأصنام المنصوبة، أو من الأرواح التي تزعمون أنها حالة فيها، أو من الكواكب السماوية أو غيرها من الأحياء كالجن والملائكة؟ ولما كان هذا السؤال مما لا يجيبون عنه كما أجابوا عن أسئلة الخطاب الأول لإنكارهم البعث والمعاد ـ لا لاعتقادهم أن شركاءهم تفعل ذلك ـ لقن الله رسوله الجواب.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ فأدمج إثبات البعث في توحيد الربوبية لأنه يقتضيه ويستلزمه فإن الرب القادر على بدء الخلق يكون قادراً على إعادته بالأولى على أن الذي ينكرونه هو إعادته تعالى للأحياء الحيوانية دون ما دونها من الأحياء النباتية، فهم يشاهدون بدء خلق النبات في الأرض عندما يصيبها ماء المطر في فصل الشتاء وموته بجفافها في فصل الصيف والخريف ثم إعادته بمثل ما بدأه به مرة بعد أخرى، ويقرون بأن الله هو الذي يفعل هذا البدء والإعادة، لأنهم يشاهدون كلا منهما، فهم أسرى الحس والعيان، ثم ينكرون قدرته على إعاد خلق الناس، لأنهم لم يشاهدوا أحداً منهم حي بعد موته وقد فقدوا العلم ببرهان القياس، وإننا لا نزال نرى أمثالاً لهم في جاهليتهم ممن تعلموا المنطق وطرق الاستدلال، وعرفوا ما لم يكنوا يعرفون من سلطان الأرواح في عالم الأجسام، وقد أمر الله رسوله أن يرشدهم إلى جهلهم بأنفسهم وينبههم للتفكير في أمرهم بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن ذلك وهو من دواعي الفطرة وخاصة العقل في التفكير، للعلم بالحقائق والبحث عن المصير؟

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾؟ هذا سؤال عن شأن آخر من شؤون الربوبية، المقتضية لاستحقاق الألوهية، وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية، وهو الهداية التي تتم بها حكمة الخلق كما يدل عليه ذكرها عقبه في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾ [الشعراء: ٧٨] ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [طه: ٥٠] ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾ [الطارق: ٢، ٣] وهي

أنواع هداية الفطرة والغريزة، وهداية الحواس، وهداية العقل، وهداية التفكر والاستدلال بكل ذلك، وهداية الدين، وهو للنوع البشري في جملته كالعقل لأفراده، وهداية التوفيق الموصل بالفعل إلى الغاية بتوجيه النفس إلى طلب الحق وتسهيل سبيله ومنع الصوارف عنه. ولما كان لا يمكنهم أن يدعوا أن أحداً من أولئك الذي أشركوهم في عبادة الله تعالى بادعاء التقريب إليه والشفاعة عنده يهدي إلى الحق من ناحية الخلق والتكوين، ولا من ناحية التشريع، لقن الله رسوله الجواب بقوله:

﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ فعل الهدى يتعدى بنفسه كقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦] ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ [الفتح: ٢] ﴿لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ويتعدى بإلى كقوله: ﴿وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ [الأنعام: ٨٧] ﴿ويهدي إلى صراط مستقيم﴾ [يونس: ٢٥] ﴿يهدي إلى الرشد﴾ [الجن: ٢] ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ [ص: ٢٢] وباللام كقوله: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: ٩] ﴿بل الله يمن عليكم إن هداكم للإيمان﴾ [الحجرات: ١٧] فتعديته بنفسه تفيد اتصال الهداية بمتعلقها مباشرة، وتعديته باللام تفيد التقوية أو العلة والسببية، وبإلى للغاية التي تنتهي إليها الهداية، فهي تشمل مقدماتها وأسبابها، من حيث كونها موصلة إلى المنتهى المقصود للهادي السائق إليها، وقد يكون قصده مجهولاً لمطيعه كقوله تعالى في الشيطان ﴿كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ [الحج: ٤] وكل من هذه الثلاث مستعمل في التنزيل في موضعه اللائق به، يعلم ذلك من له ذوق سليم في هذه اللغة الدقيقة العالية. وقد جمع في هذه الآية بين التعدية بالحرفين وبين ترك التعدية وهو حذف المتعلق الدال على العموم وكل منها وقع في موقعه الذي تقتضيه البلاغة فهاكه فلم نر أحداً بينه.

أما الأول فقد عداه بإلى في حيز الاستفهام الإنكاري للإيذان بأنه لا أحد من هؤلاء الشركاء المتخذين بالباطل يدل الناس على الطريق الذي ينتهي سالكه إلى الحق من علم وعمل وهو التشريع فهو ينفي المقدمات ونتائجها، والأسباب ومسبباتها، ولو عداه بنفسه لما أفاد إلا إنكار هداية الإيصال إلى الحق بالفعل، دون هداية التشريع الموصلة إليه، ولو عداه باللام لكان بمعنى تعديته بنفسه إن كانت اللام للتقوية، أو لإنكار هداية يقصد بها الحق إن كانت للتعليل، والأول أعم وأبلغ كما هو ظاهر.

وأما الثاني وهو تعديته باللام فهو يستلزم الأول، وإذا جرينا على جواز استعمال اللام بمعنييها على مذهبنا الذي اتبعنا فيه الإمامين الشافعي وابن جرير يكون معناه قل الله يهدي لما هو الحق لأجل أن يكون المهتدون به على الحق.

وأما الثالث أي حذف المتعلق فهو في الشق الثاني من قوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ قرأ (يهدي) يعقوب وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال وأصله يهتدي كما سيأتي في بحث لغة الكلمة، وقرأها حمزة والكسائي بالتخفيف كيرمي، ومعنى القراءتين مع ما قبلهما نصاً واقتضاء: أفمن يهدي إلى الحق ويهدي له ويهديه وهو الله تعالى أحق أن يتبع فيما يشرعه أم من لا يهدي غيره ولا هو يهتدي بنفسه ممن عبد من دونه إلا أن يهديه غيره أي الله تعالى إذ لا هادي غيره؟ وهذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال، لأن من نفى عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى ابن مريم وعزيراً والملائكة عليهم السلام وهؤلا كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى في الأنبياء من سورتهم ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقال النحاس الاستثناء منقطع كما تقول: فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع، أي لكنه يحتاج أن يسمع، فمعنى (إلا أن يهدى) لكنه يحتاج أن يهدى اهـ فيالله العجب من هذه البلاغة التي يظهر للمدققين في تعبير القرآن من بدائعها في كل عصر ما فات أساطين بلغاء المفسرين فيما قبله.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا تعجيب من حالهم في جعلهم من هذه حالهم من العجز المطلق شركاء مع القادر على كل شيء، وأورده باستفهامين تقريعيين متواليين، والمعنى: أي شيء أصابكم وماذا حل بكم حتى اتخذتم شركاء هذه حالهم وصفتهم فجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذي لا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا هادي لكم ولا لأحد منهم سواه؟ كيف تحكمون بجواز عبادتهم، وبما زعمتم من وساطتهم وشفاعتهم عنده بدون إذنه؟

ومن القراءات اللفظية التي لا يختلف بها المعنى قراءة يهدي المشددة الدال بفتح الياء والهاء بنقل حركة التاء في أصلها (يهتدي) إلى الهاء وإدغامها فيها، وقراءتها بكسرهما معاً فالهاء لالتقاء الساكنين والياء لمناسبتها لها، وقراءتها بفتح الياء وكسر الهاء لمناسبة الدال وهي قراءة حفص التي عليها أهل بلادنا.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ هذا بيان لحال المشركين الاعتقادية، في إثر إقامة أنواع الحجج على توحيد الربوبية والإلهية، بأسلوب الأسئلة والأجوبة المفيدة للعلم، الهادية إلى الحق، ومنها أنه ليس في شركائهم من هدي إلى الحق المطلوب في العقائد الدال على ارتقاء العقل وعلو النفس، وهو أن أكثرهم لا يتبعون في شركهم وعبادتهم لغير ربهم، ولا في إنكارهم للبعث، وتكذيبهم للرسول ﷺ إلا ضرباً من ضروب الظن قد يكون ضعيفاً كما يشير إليه تنكيره، وذلك كاستبعاد غير المألوف، وقياس الغائب والمجهول، على الحاضر والمعروف، وتقليد الآباء ثقة بهم، وتعظيماً لشأنهم، أن يكونوا على باطل في اعتقادهم، وضلال في أعمالهم، وأما غير الأكثر

فكانوا يعلمون أن ما جاءهم به الرسول هو الحق والهدى، وأن أصنامهم وغيرها مما عبدوا لا تنفع ولا تشفع، ولكنهم يجحدون بآيات الله ويكذبون رسوله عناداً واستكباراً في الأرض، وضناً برياستهم وزعامتهم أن يهبطوا منها إلى اتباع من دونهم ثروة وقوة ومكانة في قومهم، ويجوز أن يكون التعبير بالأكثر جاء على سنة القرآن في الحكم على الأمم والشعوب بالحق والعدل، فإنه تارة يحكم على أكثرهم، وتارة يستثني من الاستغراق والإطلاق القليل منهم، كما تقدم نظائره من قبل. فيكون الحكم على الأكثر للإشارة إلى أنه يقل فيهم ذو العلم، فإن قيل: وما حكم الله في الظن؟ فالجواب.

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ من الإغناء ولو قليلاً، أي لا يجعل صاحبه غنياً بعلم اليقين في الحق فيكون أي الظن بدلاً من اليقين في شيء مما يطلب فيه اليقين كالدين، فإن الحق هو الأمر الثابت المتحقق الذي لا ريب في ثبوته وتحققه، والمظنون وإن كان راجحاً عند صاحبه عرضة للشك يتزلزل ويزول إذا عصفت به أي عاصفة من الشبهات، والإغناء يتعدى بعن كقوله: ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ [الأعراف: ٤٨] ﴿ما أغنى عني ماليه﴾ [الحاقة: ٢٨] ﴿فما أغنت عنهم آلهتهم﴾ [هود: ١٠١] وقد عدى هنا بمن، وفي مثله من سورة النجم، وفي قوله في ظل دخان النار ﴿لا ظليل ولا يغني من اللهب﴾ [المرسلات: ٣١] وقوله في الضريع من طعام أهلها ﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾ [الغاشية: ٧] فعدى بمن لإفادة القلة أو لتضمنه معنى البدل، أي إن ظل دخان النار لا وارف يمنع الحر ولا يغني من اللهب بأن يقلله أو يزيله ويكون بدلاً منه، وإن الضريع الذي هو طعام أهل النار لا يسمن البدن بالتغذية الكافية ولا يقلل الجوع أو يزيله فيكون بدلاً من الطعام الرديء التغذية.

واستدل العلماء بهذه الآية هنا وفي سورة النجم على أن العلم اليقيني واجب في الاعتقاديات، وأن إيمان المقلد غير صحيح، ويدخل في الاعتقاديات الإيمان بوجوب أركان الإسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية والإيمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك، وقد بينا من قبل أن اليقين المشروط في صحة الإيمان شرعاً هو اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الصحيح الذي لا شك معه ـ لا المصطلح عليه عند نظار الفلسفة والمنطق المؤلف من علمين **أحدهما**: أن الشيء كذا **والثاني**: أنه لا يمكن أن يكون إلا كذا. وأما قولهم إن الأحكام العملية يكفي فيها الدليل الظني ففيه أن الدليل الظني لا يثبت به الإيمان بالمظنون، بل التصديق بالمظنون لا يسمى إيماناً. وإنما يعمل في الاجتهاديات خروجاً من الحيرة والترجيح بهوى النفس.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ هذه قضية ثانية مستأنفة خاصة بالعمل شأنها أن يسأل عنها بعد القضية التي قبلها في الاعتقاد، فهو يقول إن الله عليم بما كانوا يفعلون

بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها بحسبه، فالجزاء على مخالفة الاعتقاد القطعي بصدق الرسول من تكذيب وجحود أشد أنواع الجزاء، ويليه التكذيب باتباع الظن كالتقليد، ومن تلك الأفعال الصد عن الإيمان وإيذاء الرسول ﷺ والمؤمنين بأنواعه ومنها سائر الشرور والمعاصي الشخصية والاجتماعية كالقتل والفاحشة والسكر والربا الخ.

والعبرة للمؤمن بالقرآن في هذه الآية والتي قبلها وهما من آياته المحكمات في أصول الإيمان والإسلام أن يكون غرضه من حياته تزكية نفسه وتكميلها باتباع الحق في كل اعتقاد، والهدى وهو الصلاح في كل عمل، وبناؤهما على أساس العلم، دون الظن وما دونه من الخرص والوهم، فالعلم المفيد للحق والمبين للهدي في الدين هو ما كان قطعي الرواية والدلالة من الكتاب والسنة الذي قامت به الجماعة الأولى، وهو الشرع العام الذي لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه، فهو مناط وحدتهم، ورابطة جامعتهم، وما دونه مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به في الاعتقاد، وهو متروك للاجتهاد في الأعمال، اجتهاد الأفراد في الأعمال الشخصية، واجتهاد أولي الأمر في القضاء والإدارة والسياسة، مع تقييدهم فيه بالشورى في استبانة العدل والمساواة والمصالح العامة، كما فصلناه من قبل في مواضعه.

وقد غفل عن هذه القواعد بعض أئمة الفقه فحكم بتحريم بعض العادات المباحة في الأصل كلعب الشطرنج، وكذا المستحبة كملاعبة الرجل لزوجه وسماع الغناء بشبهة أنها من الباطل أو من الضلال، ولا يثبت تحريم شيء من ذلك بدليل ظني فضلاً عن قطعي، وفاقاً للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي المخالف فيه للرواية عن إمامه، وأما المقلدون من المنتمين في الفقه إلى كل مذهب فقد حرموا على الناس ما لا يحصى بالرأي والأقيسة الوهمية، التي هي دون الأدلة الظنية، وهدي النبي ﷺ في الشبهات الاحتياط كما صرح به في حديث «الحلال بين والحرام بين»[1] المتفق عليه واستفتاء (الوجدان) لحديث «استفت نفسك» رواه البخاري في التاريخ.

وإنما الباطل من الأعمال ما يثبت بطلانه بدليل شرعي قطعي، كما أن الحق فيها ما ثبتت حقيته بدليل قطعي، وبينهما واسطة هي ما لا دليل فيه بخلاف الاعتقاد فإنه ليس فيه واسطة بين الحق والباطل، ومن الأشياء العملية ما الأصل فيه الإباحة وهو النافع، ومنه ما سكت الشارع عن فرضه وعن تحريمه وعن قواعد حدوده كما قال

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٩، والبيوع باب ٢، ومسلم في المساقاة حديث ١٠٧، ١٠٨، وأبو داود في البيوع باب ٣، والترمذي في البيوع باب ١، والنسائي في البيوع باب ٢، والقضاة باب ١١، وابن ماجه في الفتن باب ١٤، والدارمي في البيوع باب ١، وأحمد في المسند ٢٦٧/٤، ٢٦٩ ـ ٢٧١، ٢٧٥.

ﷺ: «وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها» كما في حديث أبي ثعلبة في الأربعين النووية وقد حققنا هذا البحث في تفسير ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ [المائدة: ١٠٥] من جزء التفسير السادس.

والذي أريد أن أذكر به كل مسلم هنا أنه لا يوجد الآن في الأرض دين متبع، ولا قانون دولي منفذ، ولا نظام حزبي ولا جماعي ملتزم، يفرض على الناس الحق والهدى فرضاً دينياً، والاعتماد في استبانتهما على العلم الصحيح، وحصر الاجتهاد والترجيح فيما سواهما، والاعتماد فيه على الوجدان في الشخصيات، والشورى في المصالح العامة. ولن يصلح حال البشر الفردي ولا الاجتماعي والدولي إلا بهذه الأصول التي فرضها الإسلام، وجعلها ديناً يدان الله به ليس لأحد تجاوزه، وقد عجزت علوم البشر على اتساعها، وعقولهم على ارتقائها، عن الاستغناء بغيرها، فهم كلما ازدادوا علماً يزدادون باطلاً وضلالاً وبغياً، خلافاً لدعاة حضارتهم الكاذبين.

قال شيخ فلاسفة الأخلاق وعلم الاجتماع في هذا القرن (وهو هربرت سبنسر الإنكليزي) لحكيم الإسلام، شيخنا الأستاذ الإمام، إن فكرة الحق قد زالت من عقول أمم أوربة البتة، فلا يعرفون حقاً إلا للقوة، وإن الأفكار المادية قد أفسدت أخلاقهم، وأنه لا يرى من سبيل إلى علاجهم، وإنه لا يزال بعضهم يختبط ببعض ـ ولعله ذكر الحرب ـ ليتبين أيهم الأقوى ليسود العالم.

وقد وقع ما توقعه هذا الحكيم في سنة ١٩٠٣ م بالحرب الكبرى مدة أربع سنين (من ٩١٤ و ٩١٨) فازدادت الأمم والدول شقاء وفساداً وطغياناً وإباحة، حتى جزم كثير من عقلائهم بأنه لا علاج لهذا الفساد في البشر إلا الهداية الروحية الدينية، وسيعقدون لذلك مؤتمراً عاماً في الولايات المتحدة الأميركانية، ولن يجدوا العلاج المطلوب إلا في هذه الأصول من القرآن، وما فصلناها به في مباحث (الوحي المحمدي) من هذا التفسير، ثم جمعناه في كتاب مستقل مع زيادة في تفصيله، فعسى أن يسبقهم المسلمون إلى العمل به ونشره.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

بعد ما تقدم من إقامة البرهان على أن القرآن من عند الله وأن محمداً ﷺ كان عاجزاً كغيره عن الإتيان بمثله في هدايته، وفي علمه ولغته ـ وما تلاه من إقامة الحجج على بطلان شركهم ـ وما بعده من بيان حالهم في اتباع أكثرهم لأدنى الظن وأضعفه

في عقائدهم وتكذيبهم ـ عاد إلى تفنيد رأيهم الأفين في الطعن على القرآن بمقتضى الظن الضعيف من الأكثرين، والجحود المنادي من الأقلين، كالزعماء المستكبرين، فقال:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ النفي هنا للشأن الذي هو أبلغ وآكد من نفي الشيء مباشرة كما تقدم مراراً، وإن غفل عن ذلك من أعربه إعراباً آخر لقصر نظره على ظاهر اللفظ، دون ما يقتضيه المقام من المبالغة في الرد، أي وما كان هذا القرآن في علو شأنه، المجلي له في أسلوبه ونظمه، وعلومه العالية، وحكمته السامية، وتشريعه العادل، وآدابه المثلى، وتمحيصه للحقائق الإلهية والاجتماعية، وإنبائه بالغيوب الماضية والآتية، وجعل المقصد من إصلاحه ما بينه آنفاً من اتباع الحق والهدى، واجتناب الضلال باتباع الهوى، والاعتماد فيهما على العلم الصحيح ـ ما كان وما صح ولا يعقل أن يفتريه أحد على الله من دونه ويسنده إليه، إذ لا يقدر غيره عز وجل عليه، فإن فرض أن بشراً يستطيع الإتيان بمثله فلن يكون إلا بشراً أرقى وأكمل من جميع الحكماء والأنبياء وكذا الملائكة ومثله لن يفتري على الله، بل قال أشد الكفار عناداً وعداوة لمحمد ﷺ وهو أبو جهل لعنه الله: إن محمداً لم يكذب على بشر قط أفيكذب على الله؟

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي ولكن كان تصديق الذي سبقه من الوحي لرسل الله تعالى بالإجمال كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ﷺ بدعوته إلى أصول دين الله الإسلام التي دعوا إليها من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، بعد أن نسي بعض ذلك بقايا أتباعهم وضلوا عن بعض، وشوهوه بالتقاليد المبتدعة مما لم يكن يعلمه محمد الأمي ﷺ أو تصديق ذلك بكونه جاء وفاقاً لما دعا به إبراهيم لأهل حرم الله، ولما بشر به موسى وعيسى والنبيون كما بيناه بالتفصيل، في تفسير قوله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ [الأعراف: ١٥٧] من جزء التفسير التاسع، ويجوز الجمع بين المعنيين.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإلهي أي جنسه وهو ما شرعه الله تعالى ليكتب ويهتدي به جميع البشر من العقائد والشرائع والعبر والمواعظ وشؤون الاجتماع وسنن الله في خلقه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو لا ريب فيه أو حال كونه لا ريب فيه أي ليس فيه مثار للشك ولا موضع للريب، لأنه الحق والهدى ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من وحيه لا يقدر عليه غيره ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء: ٨٢].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ انتقال من بيان كونه أجل وأعلى من أن يفترى لعجز الخلق عن الإتيان بمثله، إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين أن محمداً ﷺ افتراه،

والاستفهام فيه للإنكار والتعجيب، أو التمهيد به إلى الرد عليه بتحدي التعجيز وهو ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ في أسلوبه ونظمه وتأثيره وهدايته وعلمه مفتراة في موضوعها، لا تلتزمون أن تكون حقاً في أخبارها، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ واطلبوا للمظاهرة لكم والإعانة على ذلك من استطعتم دعاءهم من دون الله فإن جميع الخلق يعجزون عن ذلك مثلكم، فهذا كقوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] وهذه الآية في سورة الإسراء وقد نزلت قبل يونس.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أني افتريته. والجمهور على أن لفظ سورة هنا يصدق بالقصيرة كالطويلة وبينا وجهه في تفسير آية التحدي من سورة البقرة (٢: ٢٣) وهو المتبادر من تنكير السورة إلا أن يقال إن التنكير للتعظيم أو لنوع من السور يدل عليه دليل كالسور التي فيها قصص الأنبياء وأخبار وعيد الدنيا والآخرة لأن الافتراء تتعلق تهمته بالأخبار لا بالإنشاء من أمر ونهي كما أشرت إليه في تفسير سورة البقرة.

ورجح بعضهم أن المراد السورة الطويلة أي مثل هذه السورة نفسها (يونس) في اشتمالها على أصول الدين والوعد والوعيد كما يطلق لفظ الكتاب أو كتاب أحياناً ويراد به السورة الواحدة التي يذكر فيها، كقول من قال في أول سورة الأعراف ﴿المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ [الأعراف: ١، ٢] أي هذه السورة كتاب الخ ومن تنكير لفظ سورة المراد بها النوع دون الوحدة قوله تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة﴾ [محمد: ٢٠] أي يفرض فيها القتال بدليل قوله بعده ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال﴾ الآية. وسنعود إلى هذا البحث في تفسير التحدي بعشر سورة مثله مفتريات من سورة هود إن شاء الله تعالى.

ومن المعلوم بالبداهة، أنه ما كان لعاقل مثله ﷺ أن يتحداهم هذا التحدي لو لم يكن عالماً موقناً بأنه لا يستطيع الإنس والجن الإتيان بمثل هذا القرآن في جملته ولا بسورة مثله لا أفراد العلماء والبلغاء منهم ولا جماعاتهم ولا جملتهم إن فرض إمكان اجتماعهم ومظاهرة بعضهم لبعض. فلو كان هو الذي أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه كما ارتأى بعض المعجبين بعقله وذكائه وعلو أفكاره من الفلاسفة المتقدمين، وعلماء الماديين المتأخرين ـ لكان عقله وذكاؤه وعلو فكره مانعات له من هذا الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة (الإنس) والخفية (الجن) عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به، فإن كل عاقل متوسط الذكاء والفكر يعلم أن كل ما أمكنه من الأمر فهو يمكن غيره، بل لا يأمن أن يوجد من هو أقدر عليه منه، فهذه آية بينة للعقل على أن النبي ﷺ كان موقناً بأنه من عند الله تعالى وأنه هو كغيره لا يقدر على الإتيان بسورة مثله، وهي إحدى حجج الذين قالوا إنه لا يعقل أن يكون كاذباً مفترياً له فإن قيل: إنه

يمكن أن يعتقد عجز نفسه وغيره في حال كونه وحياً من نفسه، معتقداً أنه من ربه **قلنا أولاً**: إن دعوى الوحي النفسي باطلة بأدلة كثيرة كما تقدم. **وثانياً**: أن عجز غيره ممن كانوا أفصح منه دليل على عجزه بطريق الأولى.

ثم إن أكثر المتكلمين ومن على مذاهبهم من المفسرين يعتمدون في إقامة الحجة على نبوته ورسالته ﷺ على تحديه للعرب بالقرآن أن يأتوا بمثله إجمالاً أو بحديث مثله فبعشر سور مثله مفتريات فبسورة مثله فبسورة من مثل محمد ﷺ أي في أميته، وبما ظهر من عجز العرب وغيرهم عن ذلك، إذ لو قدر أحد على الإتيان بسورة مثله أو قريب منه لفعلوا لتوفر الدواعي من أعدائه على تكذيب دعواه ولا سيما بعد استفحال قوته، واضرارهم إلى بذل أموالهم وأنفسهم في مكافحته، وبهذا يعلم الفرق الواضح بين تحديه ﷺ بالقرآن وتحدي بعض الدجالين المغرورين ببعض ما هذوا به من نثر ونظم وسموه وحياً كالباب والبهاء والقادياني، فإنه كان سخرية للعلماء والبلغاء، وقد أخفى البهائيون كتابه (الأقدس) عن الناس.

ثم إن أكثرهم على أن تحدي العرب إنما كان بما امتاز به من الفصاحة والبلاغة اللغوية، وقد صنفوا في بيان إعجاز القرآن بها كتباً مستقلة، ولم يوفوه حقه من ناحيتها ولا سيما نظمه العجيب بله النواحي المعنوية وقالوا: إن وجه الدلالة في ذلك على صدقه ﷺ في دعوى النبوة وأنه من عند الله هو أنه يتضمن تصديقه تعالى له كأنه قال: «صدق عبدي فيما يبلغه عني» ولذلك رجحوا أن هذه الدلالة وضعية كدلالة الكلام الإلهي وقيل إنها عقلية وتقدم بسط ذلك في تفسير آية البقرة.

وهذا الذي قالوه في إعجازه بالبلاغة قد اعترض عليه بعض الناس حتى المتقدمين الذين كانوا أقرب إلى فهمه وامتيازه بها من أهل عصرنا. قال الفريقان: إن لكل بليغ من فصحاء كل أمة أسلوباً يمتاز به، وأنتم أيها المسلمون تقولون إن محمداً ﷺ كان أفصح قريش وهم أفصح العرب فلا غرو أن يمتاز فيهم بهذا الأسلوب والنظم القرآني كما امتاز بعض شعراء الجاهلية والإسلام بأسلوب خاص، وكما امتاز شكسبير في شعراء الإنكليز وفيكتور هيغو في شعراء الفرنسيس، فعجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن في بلاغته لا يدل على أنه من الله عز وجل.

ونقول: إن هذا الاعتراض يذوب فيزول إذا عرض على الأشعة التي اقتبسناها من ضياء شمس القرآن في إعجازيه اللفظي والمعنوي في أول تفسير هذه السورة ثم في تفسير الآيتين (١٥ و ١٦) منها. وأما قولهم في إحدى مقدماته إن محمداً ﷺ كان أفصح قريش وأبلغهم في لغته، فقد بينا بالنقل الثابت أنه ﷺ لم يكن قبل نزل القرآن عليه يذكر في فحول فصحائهم ولا في وسطهم بل لم يكن يعد منهم، وإنما صار

كلامه ممتازاً بالفصاحة والبلاغة بما استفاده من وحي القرآن كما استفاد من دونه منه، على أنه ظل ككلام غيره من البشر في البعد عن مشابهة نظم القرآن وأسلوبه وتأثيره، وهذا التفاوت لا نظير له في كلام بلغاء البشر.

فإن قيل: إن ما يظهر في السور الطويلة من روعة البلاغة وبراعة النظم لا يظهر في السور القصيرة قلنا: لكن الناس عجزوا عن معارضة السور القصار كغيرها، ولخفاء وجه الإعجاز فيها على بعضهم قال من قال منهم إن عجزهم كان بصرف الله تعالى لقدرهم عن المعارضة، وقال بعضهم إن التحدي إنما كان بسورة طويلة كما نقلناه آنفاً عن الرازي ووجهناه بأظهر مما وجهه به، وهو أن تكون مما أرادوه من تهمة افترائه وبيانه أنه إذا كان التحدي بسورة مثله مفتراة خاصاً بالسور التي فيها قصص الرسل مع أقوامهم بالتفصيل فهذه كلها من السور الطويلة كالأعراف ويونس وهود والحجر وطه والمؤمنين والطواسين والعنكبوت. وإن كان يعم السور المشتملة على نذر أولئك الأقوام المكذبين لرسلهم من غير تفصيل لدعوتهم لهم فيدخل في عمومه بعض سور المفصل أيضاً كالذاريات والنجم والقمر والحاقة والفجر ولا يدخل فيه على كل من التقديرين شيء من السور القصيرة لأنه ليس فيها شيء من ذلك.

والتحدي في هذه السورة وسورة هود وسورة الطور مبني على تهمة الافتراء والتكذيب كما ترى إيضاحه في آية ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ [يونس: ٣٩] التي تلي هذا.

ومن تأمل ما في هذه السور من المفصل من التعبير عن المعنى الواحد بالعبارات العديدة مع تعدد أساليبها، واختلاف نظمها، وأنواع فواصلها، وألوان بيانها، وقوارع نذرها، وصوداع وعيدها، وقابليتها للترتيل بالنغمات المؤثرة اللائقة بكل منها، فأجدر به إن كان قد أوتي حظاً من بيان هذه اللغة والشعور الذوقي ببلاغتها أن يقتنع بأن إعجازها اللغوي كإعجاز قصص السور الطويلة أو أظهر، بصرف النظر عن كون موضوعها حقاً موحى به من الله تعالى أم لا؟ وأن يتبعه سر تأثيرها العجيب في أولئك المكذبين من بلغاء قريش وغيرهم الذي عبر عنه الوليد بن المغيرة المخزومي وهو في الذروة العليا منهم بعبارته المشهورة ومنها قوله: «وأنه ليعلو ولا يعلى، وأنه ليحطم ما تحته» وغير ذلك مما بيناه في مباحث الوحي، وأن يعلم صدق الإمام عبد القاهر في قوله: «أسال عليهم الوادي عجزاً، وأخذ عليهم منافذ القول أخذاً» علماً ذوقياً وجدانياً.

وأما من لا يعرف من بلاغة هذه اللغة إلا القواعد الفنية وأمثلتها الجزئية المدونة في مثل مختصر السعد التفتازاني ومطوله من كتب المعاني والبيان، فأجدر به أن

يطبقها على كل كلام، وناهيك به إذا عد منها ما ذكره المتنطعون من المتأخرين فيما يسمونه المحسنات البديعية، وشروط الفصاحة وعيوبها، وقد سمعت أن بعضهم مج ذوقه بعض فواصل سورة القمر، فكان بعض المستشرقين أصح منه فهماً وذوقاً إذ قال إنها من أبلغ سور القرآن أو أبلغها كلها بلا استثناء.

فإن قيل: إن التحدي في السور الثلاث (يونس وهود والطور) جاء رداً على تهمة الافتراء والتقول كما قلتم، فيظهر فيه أن يختص بالسور التي تظهر فيها تهمة الافتراء كما قررتم، ولكن التحدي في آية سورة البقرة ليس كذلك قلنا: لكنه جواب للمرتابين فيه وهم المكذبون فهو تأكيد لما قبله، لأنه نزل بعده وهي مدنية وهن مكيات. فإن منعنا هذا وقلنا إن التنكير فيها يصدق بأصغر سورة وهي الكوثر، وسلمنا أنه لا يظهر فيها إعجاز النظم والأسلوب قلنا: إنها معجزة بما فيها من الإيجاز وخبري الغيب في أولها وآخرها كما شرحناه في تفسير الآية من الجزء الأول. وفي الجلالين ما يؤيد هذا فقد قال في آية البقرة: هي مثله في البلاغة وحسن النظم والإخبار عن الغيب اهـ وقال في آية يونس: هي مثله في الفصاحة والبلاغة على وجه الافتراء اهـ وإعجاز السور الصغيرة المعنوي بالهدي والنور وإصلاح القلوب، لا يكابر فيه إلا الجهول المحجوب.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ هذا إضراب عن بعض ما يتضمنه قولهم(افتراه) وما يستلزمه ككونهم يعتقدون أن محمداً ﷺ كان يكذب، أو أن القرآن في جملته افتراء منه، وقد ثبت أنهم كانوا يعلمون تحريه الصدق في كل ما يقوله، وانتقال إلى بيان موضوع تكذيبهم بظنهم أنه محال في نفسه، وهو ما أنذرهم من عذاب الله لهم في الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا له ويتبعوه، وقد وصفهم بعدم إحاطتهم بعلمه أي لم يعلموه من جميع وجوهه ونواحيه، وبأنه لما يأتهم تأويله أي مصداقه إلى ذلك الوقت مع توقع إتيانه، وبتشبيه تكذيبهم إياه بتكذيب الذين من قبلهم بمثله، فبين ما كذبوا به بهذه الصفات الثلاث.

فالوصف الأول: لما كذبوا به أنه ما لم يحيطوا بعلمه فيكون تكذيبهم صحيحاً وإنما ظنوا ظناً، والظن لا يغني من الحق شيئاً **والوصف الثاني**: قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي ولم يأتهم إلى الآن ما يؤول إليه ويكون مصداقاً له بالفعل، وإتيانه متوقع بل آت لا بد منه، وقد خبط المفسرون الفنيون في معنى هذا التأويل منذ القرون الوسطى، لأنهم لم يفهموا القرآن بلغته الحرة الفصحى، بل بلغة اصطلاحاتهم الفنية ولا سيما أصول الفقه والكلام. فقال بعضهم إنهم كذبوا بما لم يفهموا معناه، وقال بعضهم إنهم كذبوا بما لم يظهر لهم وجه الإعجاز فيه، ولو صح هذا أو ذاك لكانوا معذورين بالتكذيب طبعاً، وسبب مثل هذا الغلط جعلهم التأويل تارة بمعناه عند بعض

المفسرين وهو رديف التفسير، وتارة بمعناه عند المتكلمين والأصوليين، وهو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله في اللغة بشرط موافقته للشرع، لتخرج تأويلات الباطنية وغلاة الصوفية.

وقد جمع الرازي كعادته كل ما رآه محتملاً من هذا التكذيب في خمسة وجوه:

١ ـ تكذيب قصص القرآن وذكر لها ثلاث صور.

٢ ـ حروف التهجي في أوائل بعض السور إذ لم يفهموا منها شيئاً، وزعم أن الله أجاب عنها بآية آل عمران في المحكمات والمتشبهات.

٣ ـ ظهور القرآن منجماً شيئاً فشيئاً.

٤ ـ أخبار الحشر والنشر.

٥ ـ العبادات قالوا إن الله مستغن عن عبادتنا. وكل هذه الوجوه باطلة لا يحتمل إرادة شيء منها إلا الرابع، وفسر عدم إتيانهم تأويلها بجهلهم حقيقتها وحكمها، وهو باطل وناهيك بحملها على الحروف المفردة في أول السور وهي ليست بكلام فيكذب أو يصدق ثم قال: «قال أهل التحقيق قوله: ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ يدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات وقع في الكفر والبدعة لأن ظواهر النصوص قد يوجد فيها ما تكون متعارضة فإذا لم يعرف الإنسان وجه التأويل فيها وقع في قلبه أن هذا الكتاب ليس بحق. أما إذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل، فيصير نوراً على نور يهدي الله لنوره من يشاء» اهـ.

وهذا القول الذي عزاه إلى أهل التحقيق باطل بعيد عن الحق، وحكم على كتاب الله بما عابه من اتباع الظن، وما أهل التحقيق في عرفه إلا نظار علم الكلام المبتدع وهو ظلمات بعضها على بعض، ما ولد البدع المضلة إلا الاشتغال به، وهذا التأويل الذي قال فيه ما قال لا يصح في اللغة ولا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ولا في المأثور عن أصحابه (رض) ولا عن أئمة سلف الأمة كما ستراه قريباً.

وأما التأويل في لغة القرآن فله معنى واحد لا معنى له سواه وهو عاقبة الشيء ومآله الذي يؤول إليه من بيان مصداقه المراد منه بالفعل كما قلنا آنفاً وبيناه بالتفصيل في تفسير آية المحكمات والمتشابهات من سورة آل عمران التي أطال الرازي في الكلام عليها فأخطأ محجة الصواب، وحرم الحكمة وفصل الخطاب، فكان أجدر بالخطأ هنا وقد التزم الاختصار، وأوضح الأدلة على ذلك بعد ما علمت من حمله التأويل على المعنى الاصطلاحي غفلته عن نفي إتيانه بحرف لما الدال على توقعه، إذ معناه أن تأويله لم يأتهم إلى الآن وإتيانه متوقع بعده، وغفلته عن تشبيه تكذيبهم بتكذيب من قبلهم في الجملة الآتية والمتبادر منه أنه وعيد الله إياهم على تكذيبهم

لرسوله ﷺ بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة ونصره عليهم، وهو ما فسر الآية به إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري قال:

يقول تعالى ذكره: ما بهؤلاء المشركين يا محمد تكذيبك ولكن بهم التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه مما أنزل الله عليك في هذا القرآن من وعيدهم على كفرهم بربهم ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ يقول ولما يأتهم بعد بيان ما يؤول ذلك الوعيد الذي توعدهم الله في هذا القرآن ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ يقول تعالى ذكره كما كذب هؤلاء المشركون يا محمد بوعيد الله، كذلك كذب الأمم التي خلت قبلهم بوعيد الله إياهم على تكذيبهم رسلهم وكفرهم بربهم» اهـ وكذلك قال البغوي في تفسير التأويل لأنه محدث فقيه غير متكلم وتبعهما الجلال هنا وفي آية الأعراف الآتي ذكرها.

الوصف الثالث: التشبيه الذي ذكرناه في الإجمال وهو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ شبه تكذيب مشركي مكة لمحمد ﷺ بتكذيب من قبلهم من مشركي الأمم لرسلهم بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله الذي أوعدهم به، كما ترى في قصصهم المفسرة في السور العديدة ولا سيما سورة الشعراء المبدوءة فيها بقوله: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ [الشعراء: ١٠٥] ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ [الشعراء: ١٢٣] ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ [الشعراء: ١٤١] ثم ذكر لفظ التكذيب في وعيدهم كقول هود لقومه ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ إلى قوله: ﴿فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية﴾ [الشعراء: ١٣٩] الخ وقول صالح لقومه بعدهم إذ أتتهم آية الناقة ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب﴾ [الشعراء: ١٥٦ ـ ١٥٨] الخ فهذا تأويله المراد من قوله هنا.

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فانظر أيها الرسول أو العاقل المعتبر كيف كان عاقبة الظالمين لأنفسهم بتكذيب رسلهم، وهو تأويل وعيدهم لهم، لتعلم مصير الظالمين من بعدهم، وهذه العاقبة مبينة بالإجمال في قوله: ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [العنكبوت: ٤٠] وسيأتي ما يؤيد ما قررناه كله قريباً في الآيات (٤٦ و ٥٥).

وقد أنذر الله قوم محمد ﷺ ما نزل بالأمم قبلهم في الدنيا بهذه الآية وغيرها من هذه السورة وفي سور كثيرة كما أنذرهم عذاب الآخرة، وكذبه المعاندون المقلدون في كل منهما ظانين أنه لا يقع، لا غير فاهمين لمعناه أو لإعجازه، ولكن قضت حكمته تعالى حفظ قومه من تكذيب أكثرهم، وما يقتضيه من أخذ عذاب الاستئصال

لهم وارجع إلى قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ [الأعراف: ٥٣] الخ تعلم علم اليقين أن ما قررناه هو حق اليقين الذي لا تقبل غيره لغة القرآن، وأنه هو الذي يتفق مع سائر الآيات، وأن ما قرره الرازي هو الباطل والضلال المبين، الذي تدحضه الآية وما في معناها مما ذكرنا بعضه وأشرنا إلى بعض، فعسى أن يكون قد استجاب الله دعاء شيخنا رحمه الله فينا إذ قال:

ويخرج وحي الله للناس عارياً ... من الرأي والتأويل يهدي ويلهم

استطراد في المتكلمين وتفسير إمامهم الرازي

اعلم أن الفخر الرازي كان إمام نظار المتكلمين والأصوليين في عصره، وأن علماء النظر اعترفوا له بهذه الإمامة من بعده، ولكنه كان من أقلهم حظاً من علم السنة وآثار الصحابة والتابعين، وأئمة السلف من المفسرين والمحدثين، بل وصفه الحافظ الذهبي إمام علم الرجال في عصره بالجهل بالحديث، فلم يجد التاج السبكي ما يدافع به عنه لأنه من أئمة الأشعرية الشافعية إلا الاعتراف بأنه لم يشتغل بهذا العلم وليس من أهله فلا معنى للطعن عليه بجهله ولا بذكره في رجاله المجروحين ولا العدول، أما علمه بالكلام فقد قال بعض العارفين في وصف كتابه (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، من الفلاسفة والمتكلمين) ما ينبئك بحقيقته عند المحققين، وهو:

محصل في أصول الدين حاصله ... من بعد تحصيله علم بلا دين
رأس الغواية في العقل السقيم فما ... فيه فأكثره وحي الشياطين

ولشيخ الإسلام ابن تيمة مصنف مستقل في نقض (كتابه أساس التقديس) فيه ولولا أن تصدى لإحياء شبهاته في هذا العهد اثنان من مكثري النشر في الصحف للمباحث الدينية، أحدهما شيخ أزهري، وثانيهما كاتب مدني، لما أبدينا وأعدنا في تفنيد بدعه الكلامية المخالفة لنصوص الكتاب والسنة التي يجهلانها، لأن بضاعة الأول نظريات متكلمي القرون الوسطى على قلة من يفهمها منهم اليوم، وبضاعة الثاني نظريات بعض الإفرنج، ولما رأيا نظرية الرازي في التأويل تؤيد فهمها الباطل أراد الثاني ترويجها في سوق العامة بتسميته إمام المفسرين، وما كان إلا إمام المتكلمين.

وأما تفسيره فقد اشتهر قول بعض العلماء فيه إن فيه كل شيء إلا التفسير كما في كتاب الإتقان. والحق أن هذه مبالغة في الإنكار على ما هو الغرض الذي امتاز به تفسيره وهو نقل آراء الفلاسفة والمتكلمين، وحجج المعتزلة والأشاعرة.

فلينظر القارىء المستقل الفهم كيف فعل تقليد المسلمين لهؤلاء المتكلمين في دينهم: ينقل لهم متكلم مفسر عن متكلم مجهول زعم أنه من أهل التحقيق أن هذه

الآية من القرآن التي لم يعرف لغتها ولا معناها الناقل ولا المنقول عنه «تدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات (التي ابتدعوها) وقع في الكفر والبدعة» وعلل ذلك بما هو باطل من وجوه نكتفي منها بما لا يخفى على عامي ذكي ولا بليد، وهو أن المؤمن بالنصوص إذا رأى فيها ما هو متعارض فإنه إما أن يبحث عن وجوه الترجيح بين المتعارضات بمقتضى القواعد التي وضعها علماء الأصول في (كتاب التعارض والترجيح) إذا رأى أنه أهل لذلك وفي حاجة إليه، وإما أن يترك هذا البحث إلى أهله معتقداً أنهم أعرف به، ولا يكون هذا التعارض الصوري سبباً لشكه في القرآن أو أنه ليس بحق مما يكون به مبتدعاً أو كافراً، ولو صح قول هذا القائل لوجب تحريم قراءة كتاب الله وكتب السنة على كل من لم يأخذ بقاعدتهم هذه ويتعلم علم الكلام وعلم أصول الفقه قبل تلاوته لأجلها، وإن كان عالماً بهدي السلف وأقوال أئمته، وهذا تقييد لكتاب الله تعالى وصد عنه بتأويلاتهم المبتدعة بعد عصر النور الأول لهذه الأمة، ويلزم به أن يحكموا على أكثر من يقرءونه بالكفر والبدعة، والحق أن هذه التأويلات التي فتنوا بها هي المثار الأكبر للشكوك والبدع التي هي بريد الكفر، وأن كتاب الله كله هدى ونور، وأصح بيان له سنة النبي ﷺ وخير المهتدين بها سلف الأمة وحفاظ السنة.

وجملة القول إن مذهب السلف الصالح وجوب الإيمان بكل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه وما صح من وصف رسوله ﷺ له على ظاهره من غير تعطيل للمعنى اللغوي يجعله كاللغو، ولا تمثيل بتشبيه الله بخلقه يعد من النقص، ولا تأويل يخرج الظاهر المتبادر عن معناه بمحض الرأي.

واعلم أيها القارىء أن الخواطر التي تعرض لبعض الناس مما لا يليق به تعالى لا تنقض إيمان الموقن بكتابه وصدق رسوله المتبع لهما، كما ورد في الأحاديث الصحيحة فيمن يوسوس له الشيطان: من خلق الله؟ وفيمن أوصى بحرق جثته لئلا يبعثه الله ويعذبه. قال عبد الله بن مسعود (رض) سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة فقالوا إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة (أي فحمة) أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به؟ قال: «ذلك محض الإيمان»[1] رواه مسلم، يعني أن الوسوسة لا يسلم أحد منها وأن كراهة المؤمن لها دليل على إيمانه المحض الخالص.

هذا وإن أكثر كبار النظار من المتكلمين قد رجعوا إلى مذهب السلف في الإيمان بظاهر النصوص وفي مقدمتهم إمام الحرمين كما نقله عنه الحافظ ابن حجر في

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢١١.

شرحه للبخاري (من كتاب التوحيد) ومن قبله والده الإمام الجويني الذي نقل السبكي في ترجمته أن علماء عصره قالوا لو بعث الله تعالى نبياً في هذا العصر لكان الجويني، ومن بعدهما أبو حامد الغزالي في آخر عمره، ونقل مثل هذا عن الفخر الرازي أيضاً رحمهم الله ورحمنا، وعفا عنهم وعنا، وقد صرح الغزالي من قبل رجوعه إلى مذهب السلف أن علم الكلام ليس من علوم الدين وإنما هو لحراسة العقيدة كالحرس للحاج وأقول: إنما راجت كتبه في عصرهم، لأنها وضعت للرد على ملاحدتهم ومبتدعتهم، ولا تنفع في الرد على ملاحدة هذا العصر ولا مبتدعته كما بيناه مراراً، وأما تلقين المسلمين أنفسهم للعقائد وقواعد الإسلام فيجب أن يعتمد فيها على آيات القرآن والمأثور في الأحاديث وسيرة الصحابة وعلماء التابعين وأئمة الهدى قبل ظهور البدع، ومن أكبر الضلال أن يعتمد فيها على أقواله المتكلمين، فتجعل أصلاً ترد إليها آيات القرآن المبين، إيثاراً لبيانهم على بيانه.

وإن تعجب فعجب جعلهم عقيدة السنوسية الصغرى الأساس الأول لتعليم التوحيد في الأزهر وغيره وإنما هي نظريات كلامية غير شرعية وقد أخطأ محشوها وشراحها في جعل التوحيد عبارة عن نفي الكم المتصل والكم المنفصل في ذات الله وصفاته وأفعاله، أو المنفصل في أفعاله فقط، وهي فلسفة مبتدعة لا يعرفها الشرع ولا تدل عليها اللغة. كما أخطأ مؤلفها في تفسير كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» بلازم من لوازمها لا يتضمن معناها الذي لأجله جعلت عنوان الدعوة إلى الإسلام، وتحكم في صفات الله بالظن الذي ذمه الله بأنه لا يغني من الحق شيئاً، فزعم أن السمع والبصر يتعلقان بجميع الموجودات، يعني أنه تعالى يسمع ذوات الجواهر وأعراضها كالألوان والصفات، ويرى الأصوات ويبصر اللغات. غافلاً عن ذلك وعن قوله: ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ [البقرة: ١٦٩] ومع هذا زعم بعض علماء الأزهر أن إبراهيم خليل الرحمن ﷺ يقرأ هذه العقيدة في الآخرة لأولاد المسلمين، وهو إمام الموحدين، الذي آتاه حجته في الدنيا على قومه وهم علماء عصره وعلى سائر العالمين، واطمئنان القلب بكيفية إحيائه تعالى للميتين، فكيف يحتاج بعد كشف الحجب في الآخرة إلى نظريات السنوسي ومن فوقه من نظار المتكلمين؟؟

وقد صرح السيد الآلوسي تبعاً لغيره من المحققين العارفين، بما حققناه هنا في علم الكلام والمتكلمين، عند الكلام على آية الظن في باب الإشارة من هذا السياق فقال ما نصه: (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) ذم لهم بعدم العلم بما يجب لمولاهم وما يمتنع وما يجوز، ولا يكاد ينجو من هذا الذم إلا قليل، ومنهم الذين عرفوه جل شأنه به لا بالفكر، بل يكاد يقصر العلم عليهم، فإن أدلة أهل الرسوم من المتكلمين وغيرهم متعارضة، وكلماتهم متجاذبة، فلا تكاد ترى دليلاً سالماً من قيل وقال، ونزاع

وجدال، والوقوف على علم من ذلك مع ذلك أمر أبعد من العيوق، وأعز من بيض الأنوق:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها ... وسرحت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرى إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

فمن أراد النجاة فليفعل ما فعل القوم ليحصل له ما حصل لهم، أولاً فلتبع السلف الصالح فيما كانوا عليه في أمر دينهم، غير مكترث بمقالات الفلاسفة ومن حذا حذوهم من المتكلمين التي لا تزيد طالب الحق إلا شكاً» اهـ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

لما بين تعالى في الآيات السابقة حال مشركي قريش في اتهام النبي ﷺ بافتراء القرآن وبتكذيبهم بوعيده لهم، بين في هاتين الآيتين أقسام هؤلاء القوم في تكذيبهم ومستقبل أمرهم أو حالهم ومستقبلهم في الإيمان، وفي عمل المكذبين بمقتضى تكذيبهم، وعمل النبي ﷺ بمقتضى رسالته إلى أن يأتي أمر الله فيهم فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ يقول تعالى لرسوله خاتم النبيين ﷺ إن قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذي كذبوا رسلهم إلا قليلاً منهم فكان عاقبتهم عذاب الاستئصال بل سيكون قومك قسمين: قسم سيؤمن بهذا القرآن وقسم لا يؤمن به أبداً.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بالشرك والظلم والبغي لفساد فطرتهم وفقدهم الاستعداد للإيمان وهم الذين يعذبهم في الدنيا فيخزيهم وينصرك عليهم ويجزيهم في الآخرة بفسادهم وقيل إن الآية في بيان حالهم عند نزول هذه السورة وهي أن بعضهم يؤمن به في الباطن وإنما يكذبه في الظاهر عناداً واستكباراً، ومنهم من لا يؤمن به جهلاً وتقليداً، ومن هذا الفريق من فقد الاستعداد للإيمان وهم الأقلون وسيأتي وصف حالهم في الآيات ٤٢ و ٤٤ قريباً وله وجه. وأما الذي ليس له وجه صحيح فهو قول من فسروا التأويل بالمعنى الاصطلاحي الذي بينا فساده: أن هذا بيان لحالهم بعد إتيان التأويل المتوقع أي سيكون منهم حينئذ مؤمن وكافر، لما بيناه من أنه غير مراد ولا معنى لإتيانه، وأنه متى جاء تأويله المراد وهو وقوع العذاب يكون الإيمان به اضطرارياً عاماً وهو المنصوص في قوله تعالى: ﴿يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ [الأعراف: ٥٢] وتأويله بعذاب الاستئصال أو بقيام الساعة سواء في أنه لا ينفعهم معه الإيمان إذ لا يقبل منهم بل يقال لهم حينئذ ﴿آلآن وقد كنتم به تستعجلون﴾ كما يأتي في الآية (٥١) وانظر تفصيله في

آخر سورة المؤمن (٤٠ و ٨٢ و ٨٥) وسنبين في تفسير الآية (٤٦) عدم وقوع عذاب الاستئصال على هذه الأمة. وفي الآية تسلية له ﷺ يؤكدها ما بعدها وهو:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي وإن أصروا على تكذيبهم فقل لهم لي عملي بمقتضى رسالتي وهو البلاغ المبين. والإنذار والتبشير، وما يستلزمه من العبادة والإصلاح، وما أنا عليكم بمسيطر ولا بجبار، ولكم عملكم، بمقتضى تكذيبكم وشرككم، وهو الظلم والفساد، الذي تجزون به يوم الحساب، ويقال لكم ﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾ كما يأتي في الآية (٥٢) من هذا السياق، وهذا كقوله تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا﴾ [الإسراء: ٨٤] ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا يؤاخذ الله أحداً منا بعمل الآخر. وهذا كقوله: ﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ [هود: ٣٥] وقوله: ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ [الشعراء: ٢١٦].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

لما أنبأ الله رسوله بأن من قومه من لا يؤمن بهذا القرآن حالاً ولا استقبالاً إذ لا ينفعهم البيان مهما يكن ناصعاً، ولا يقنعهم البرهان وإن كان قاطعاً، وإن الذي عليه في المصرين على تكذيبه منهم بعد ماجاءهم به من الآيات، التي دمغتهم بالحجج البينات، أن يتبرأ منهم، وينتظر أمر الله فيهم، كان من شأن هذا النبأ أن يثير عجبه لغرابته في نفسه، وأن يسوءه لما يشير إليه من انتقام الله منهم، بين له مثل الذين فقدوا الاستعداد للإيمان، وعلمه ما لم يكن يعلمه من سنة الله تعالى فيهم، وكون مصيبتهم من أنفسهم، فلا حول له ولا قوة على هدايتهم، فقال:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي يصيخون بأسماعهم مصغين إليك إذا قرأت القرآن، أو بينت ما فيه من أصول الإيمان والأحكام، ولكنهم لا يسمعون إذ يستمعون، إذ لا يتدبرون القول ولا يعقلون ما يراد به، ولا يفقهون ما يرمى إليه، لأن الاستماع إليك مقصود عندهم لذاته لا لما يراد به، وهي بلاغته في غرابة نظمه، وجرس الصوت بترتيله، كمن يستمع إلى طائر يغرد على فننه، ليستمتع بصوته لا ليفهم منه، كما قال: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم﴾ [الأنبياء: ٢، ٣] أو كالبهائم يصيح بها الراعي فترفع رؤوسها لاستماع صوته الذي راعها فصرفها عن رعيها، كما قال: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء. صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ [البقرة: ١٧١] أو كما قال:

﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً﴾ [الأنعام: ٢٥] والقاعدة الطبعية الشرعية أن الأمور بمقاصدها. ونحن نرى كثيراً من الناس يقصدون قراء القرآن في ليالي رمضان أو في المآتم ليستمعوا إلى فلان القارىء الحسن الصوت لغرض التلذذ بترتيله وتوقيع صوته، أو بلاغته ولا أحد منهم ينتفع بشيء من مواعظ القرآن ونذره، وحكمه وعبره، ولا عقائده وأحكامه ومنهم المسلمون وغير المسلمين، بل سمعت بأذني من غير المسلمين من يستمع القرآن ويعجب من شدة تأثيره وتغلغله في أعماق القلب وهو لا يؤمن به، ولهذا قال تعالى:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا الاستفهام للإنكار، يعني أن السماع النافع للمستمع هو ما عقل به ما يسمعه وفقهه وعمل بمقتضاه، فمن فقد هذا كان كالأصم الذي لا يسمع، وأنت أيها الرسول لم تؤت القدرة على إسماع الصم أي فاقدي حاسة السمع حقيقة، فكذلك لا تستطيع الإسماع النافع الصم مجازاً وهم الذين لا يعقلون ما يسمعون ولا يفقهون معناه فيهتدوا به والبلاغة في ظاهر تعبير الآية وصفهم بفقد السمع والعقل معاً، وهو مجاز قطعاً، لأن من فقد الحس والعقل حقيقة لا يكون مكلفاً. وإذ كان المراد بالعقل المنفي هنا عقل الكلام وفقهه فهو يقتضي ثبوت السماع ونفي الصمم الحقيقين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي يوجه أشعة بصره إليك عند ما تقرأ القرآن ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الإيمان، وهيبة الخشوع للديان، وكمال الخلق والخلق، وأمارات الهدى والحق، وآيات التزام الصدق، التي عبر عنها أحد أولي البصيرة بقوله عند ما رأى النبي ﷺ: والله ما هذا بوجه كذاب، وقال فيه آخر:

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر

وقال حكيم افرنجي: كان محمد يقرأ القرآن في حالة وَلَهٍ وتأثر وتأثير فيجذب به إلى الإيمان أضعاف من جذبتهم آيات موسى وعيسى (عليهم السلام).

ومن فقد البصيرة العقلية والقلبية فيما يراه ببصره، فجمع بين وجود النظر الحسي بالعينين، وعدم النظر المعنوي بالفعل، فهو محروم من هداية البصر وهي البصيرة التي يمتاز بها الإنسان عن بصر الحيوان، فكأنه أعمى العينين ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي أنك أيها الرسول لست بقادر على هداية العمي بدلائل البصر الحسية، فكذلك لا تقدر على هدايتهم بدلائله العقلية، ولو كانوا فاقدين لنعمة البصيرة التي تدركها؟ وقد أسند فعل الاستماع إلى الجمع لكثرة تفاوت المستمعين واختلاف أحوالهم فيه وأسند فعل النظر إلى المفرد لأنه جنس واحد، ولكنه أفرد السمع وجمع الأبصار في بضع آيات منها ٣١ من هذه السورة لما ذكرناه في تفسيرها.

والمراد من الآيتين أن هداية الدين كهداية الحس، لا تكون إلا للمستعد لها بهداية العقل، وأن هداية العقل لا تحصل إلا بتوجه النفس وصحة القصد، وهذا الصنف من الكفار قد انصرفت أنفسهم عن استعمال عقولهم في الدلائل البصرية والسمعية لإدراك مطلب من المطالب مما وراء شهواتهم وتقاليدهم، وليس المراد أنهم فقدوا نعمة العقل الغريزي ولا نعمة الحواس بل استعمالهما النافع ـ كما قال في سورة الأعراف: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩] فراجع تفسيرها للاعتبار والاتعاظ وقد بين ذلك بياناً مستأنفاً بما يبطل القول بالجبر فقال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ أي الله تعالى لم يكن من شأنه ولا من سننه في خلق الناس أن ينقصهم شيئاً من الأسباب التي يهتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم ومنافعهم من الأعمال الاختيارية الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة وهي الحواس والعقل وسائر القوى، فالظلم هنا بمعناه اللغوي الأصلي وهو نقص ما تقتضي الخلقة الكاملة وجوده كقوله تعالى: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً﴾ [الكهف: ٣٣] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي يظلمونها وحدها لأن عقاب ظلمهم واقع عليهم دون غيرهم، فهم يجنون عليها بكفرهم بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين، وهو عدم استعمالها فيما منحهم إياها لأجله من اتباع الحق في الاعتقاد والهدى في الأعمال، وهو الصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدارين، المنجي من عذابهما وقرأ حمزة والكسائي (ولكن) بتخفيف النون (الناس) بالرفع.

وقد وضع الإسلام الظاهر موضع الضمير إذ قال: «ولكن الناس» ولم يقل: «ولكنهم» للإشارة إلى أن هذا الظلم خاص بهم دون سائر أنواع الحيوان فإنها لا تعدو في استعمال مشاعرها وقواها ما خلقت لأجله من حفظ حياتها الشخصية والنوعية، وأما الناس فقد يستعملونها فيما يضرهم في حياتهم الحيوانية الدنيوية، وفي حياتهم الروحية الأخروية، كما قال: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤] وقدم المفعول (أنفسهم) على عامله لإفادة قصر هذا الظلم على أنفسهم دون غيرهم أو دون ربهم الذي كفروا بنعمه، كما قال تعالى في بني إسرائيل من سورة البقرة [الآية: ٥٤] وسورة الأعراف ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [الأعراف: ١٥٩].

هذا هو المتبادر في هذا المقام من نفي ظلم الناس عن الله تعالى وقصره على أنفسهم، ويحتمل أن يراد به أنه تعالى لا يظلمهم بعقابه لهم شيئاً بأن يعاقبهم على غير ذنب أو يزيد على قدر الذنب، ولكن الناس هم الذي يظلمون أنفسهم بذنوبهم دون

غيرهم، على قاعدة ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ [الأنعام: ١٦٤] الآية فراجع تفسيرها مع ما هنا، وحاسب نفسك، وذكر غيرك، ولا تجعلوا هذه الحكم البليغة حكاية للتسلية بهجو الكفار، فإنما هي حقائق هادية للموعظة والاستبصار.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

هذه الآية للتذكير بمقدار ظلم المشركين لأنفسهم وخسارتهم لها في الآخرة بتكذيبهم النبي ﷺ، وكفرهم بالقرآن ووعيده لهم وغرورهم بدنياهم الحقيرة مصداقاً للآية التي قبلها، قال.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي واذكر أيها الرسول لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم الله ـ وهذه قراءة حمزة عن عاصم وقرأها الباقون (نحشرهم) بالنون أي نجمعهم ببعثهم بعد موتهم ونسوقهم إلى مواقف الحساب والجزاء ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا مدة قليلة من النهار ريثما يعرف فيها بعضهم بضعاً كأولي القربى والجيران ثم زالت، فإن الساعة يضرب بها المثل في قلة المدة. فالتشبيه بيان لحالهم في تذكرهم للدنيا. يعني إن هذه الحياة الدنيا التي غرتهم بمتاعها الحقير الزائل قصيرة ستزول بعذابهم أو موتهم، وسيقدرون يوم القيامة قصيرها بساعة من النهار لا تسع أكثر من التعارف القليل، كما قال في آخر سورة الأحقاف ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾ [الأحقاف] وفي سورة الروم ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾ [الروم: ٥٥] وفي معناها قوله تعالى في آخر النازعات عن الساعة ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ [النازعات: ٧٩] وفي آيات أخرى أن أهل الموقف يختلفون في هذا التقدير أي بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك اليوم فإنه تعالى قال بعد آية سورة الروم ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ [الروم: ٥٦] وفي سورة المؤمنون ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤] وفي سورة طه يختلفون بين اليوم والعشر. وقيل إن المعنى أنهم يتعارفون بينهم يوم يحشرون كأنهم لم يتفارقوا لقصر مدة الفراق، وثم أقوال أخرى في التشبيه يبطلها ما أوردنا من الآيات في شواهده.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي خسروا السعادة الأبدية إذ لم يستعدوا له بالإيمان وعمل الصالحات المزكية للنفس، المرقية للروح، بما تكون أهلاً لكرامته

ومثوبته، ورضوانه الأكبر في جناته، فآثروا عليها حياة الدنيا القصيرة الحقيرة، المنغصة بالأكدار، السريعة الزوال، التي يقدرونها يوم الحشر بساعة من نهار والجملة بيان مستأنف منه تعالى لخسران الذين كذبوا بلقاء الله من أهل مكة وغيرهم، ولذلك ذكرهم بصفتهم المقتضية له وهي التكذيب وعطف عليه ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦] فيما اختاروه لأنفسهم من إيثار الخسيس الفاني، على النفيس الخالد الباقي، أو هي معطوفة على جملة «قد خسر» أي خسروا تجارتهم وأنفسهم، وما كانوا مهتدين إلى أسباب النجاة والربح من الأعمال الصالحة هي ثمرات الإيمان كما قال ﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ [البقرة: ١٦] وقد تقدم ذكر الذين لا يرجون لقاء الله تعالى في الآيات ٧، ١١، ١٥ من هذه السورة، وتقدم ذكر خسرانهم في سورة الأنعام [الآية: ٣١].

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا
الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ
أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا
يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ
إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ
وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

هذه الآيات تتمة الرد على المشركين في تكذيب ما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله من العقاب الذي سبق في الآية ٣٩ وما بعدها.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ هذه جملة شرطية زيدت (ما) في حرف الشرط (إن) ونون التوكيد في فعله فكان توكيده مزدوجاً. والمراد بالآية تأكيد وقوع ما وعد الله هؤلاء المشركين من العقاب في الدنيا والآخرة بشرطه فيهما لا يتخلف منهما شيء في جملتهما، سواء أرى الله النبي ﷺ بعض القسم الأول منه وشاهده، أم توفاه قبل إراءته إياه. فإبهام الله تعالى إياه للحكمة المقتضية له في أوائل البعثة من جهة قربه أو بعده، ورؤيته ﷺ له وعدم رؤيته، لا يفيدهم شيئاً، وسنبين هذه الحكمة في إبهامه. فالمعنى وإن نرينك أيها الرسول بعض الذي نعدهم من العقاب في الدنيا فذاك ـ وفيه إشارة إلى أنه سيريه بعضه لا كله.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ بقبضك إلينا قبل إراءتك إياه ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ وعلينا حسابهم، حيث يكون القسم الثاني منه وهو عقاب الآخرة، ويجوز أن يجعل هذا جواب الشرط بقسميه، والمعنى فإلينا وحدنا يرجع أمرهم في الحالين ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ بعدك أو مطلقاً فيجزيهم به على علم وشهادة حق، والمراد أنه لا فائدة لهم مما حكاه تعالى عنهم في تربصهم موت النبي ﷺ واستراحتهم من دعوته ونذره بموته كما تراه في سورة الطور وآخر سورة طه، فالعذاب واقع ما له من دافع.

وقد ورد بمعنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ [غافر: ٧٧] ويليها آية بمعنى الآية التي تلي هذه ذكر فيها الرسل وكون آياتهم بإذن الله لا من كسبهم، والقضاء على أقوامهم بالهلاك بعدها، ومنها قوله بعد آية في إرسال الرسل وكون آياتهم إنما هي بإذن الله ولكل أجل كتاب ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ [الرعد: ٤٠] وما بعدها في معنى السياق الذي هنا. وقوله: ﴿فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون﴾ [الزخرف: ٤١] وقبلها ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾ [الزخرف: ٤٠] وهو بمعنى ما قبل هذه أيضاً.

وقد أبهم أمر عذاب الدنيا في كل هذه الآيات وآيات أخرى فلم يصرح بأنه سيقع بهم ما وقع بالأمم التي كذبت الرسل من قبلهم وهو عذاب الاستئصال ولكنه أشار إليه في قوله: ﴿قل رب إما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ [المؤمنون: ٩٣] أي كما هي سنتك في رسلك الأولين، وقد أجاب الله دعاءه فقال: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ [الأنفال: ٣٣].

وحكمة هذا الإبهام التخويف من جميع أنواع الوعيد مع علمه تعالى أن عذاب الاستئصال لن يقع على قومه ﷺ لأن شرطه أن يجيئهم ما اقترحوا من آية كونية ويصروا بعده التكذيب ولن يقع، ولكن في آية يونس هذه إشارة إلى أن الله تعالى سيري رسوله بعد نزولها بعض الذي يعدهم لا كله، وقد أنجز له ذلك فأراه ما نزل بهم من القحط والمجاعة بدعائه عليهم، ونصره عليهم أعظم النصر في أول معركة هاجمه بها رؤساؤهم وصناديدهم وهي غزوة بدر وفي غيرها إلى فتح عاصمتهم الكبرى أم القرى وإكمال الدين ودخول الناس فيه أفواجاً، وقد تقدم بيان ذلك كله في مواضعه.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ أي أنه تعالى جعل لكل أمة من الأمم الخالية رسولاً بعثه فيها في وقت الحاجة إليه يبين لهم أصول دينه الثلاث: الإيمان بالله، واليوم الآخر،

والعمل الصالح المناسب لحال زمنهم ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ وقامت الحجة عليهم ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي قضى الله بينه وبينهم بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في قضائه تعالى كما تقدم وسيأتي تأكيده قريباً.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي ويقول كفار قريش للنبي ومن اتبعه من المؤمنين: متى يقع هذا الوعد الذي تعدوننا به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم إن الله تعالى سينتقم لكم منا وينصركم علينا، أي في مثل قوله: ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ وقوله: ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون ما أضعف ناصراً وأقل عدداً قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ [الجن: ٢٤ ـ ٢٦] الخ.

وههنا لقن الله رسوله ﷺ الجواب بقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي إني بشر رسول لا أملك لنفسي فضلاً عن غيرها شيئاً من التصرف في الضر فأدفعه عنها ولا النفع فأجلبه لها، من غير طريق الأسباب التي يقدر غيري عليها، وليس منها إنزال العذاب، بالكفار المعاندين، ولا هبة النصر للمؤمنين ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي لكن ما شاء الله من ذلك كان متى شاء لا شأن لي فيه لأنه خاص بالربوبية دون الرسالة التي وظيفتها التبليغ، لا التكوين. هكذا قال جمهور المفسرين إن الاستثناء هنا منقطع وله أمثال تقدم بعضها كقوله تعالى وهو من أظهرها الصريح في هذا المقام ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والاختلاف بين الآيتين في تقديم ذكر الضر على النفع وتأخيره لاختلاف المقام، فقد قدم الضر في آية يونس لأنها جواب للمشركين عن ميعاد العذاب الذي أنذروا به، وهو من الضر، وقدم النفع في آية الأعراف لأن المقام بيان الحقيقة في نفسها، وهو أن الرسول لا يملك لنفسه شيئاً من التصرف في الكون بغير الأسباب العامة فضلاً عن ملكه لغيره، والمناسب في هذا تقديم النفع لأنه هو المقصود بالذات من تصرف الإنسان وسعيه لنفسه. وقيل إن الاستثناء متصل وحينئذ يكون المنفي المستثنى منه عالماً لما يملكه الإنسان بالأسباب العادية فيكون المعنى إلا ما شاء الله تعالى أن أملكه بما أعطاني من الكسب الاختياري مع تيسير أسبابه لي، وأما الآيات الخارقة للعادة فهي لله وحده، ولا مما يملكه رسله.

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال بقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ لبقائها وهلاكها علمه الله وقدره لها لا يعلمه ولا يقدر عليه غيره ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي فلا يملك رسولهم من دونه تعالى أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن

الزمان المقدر له وإن قلّت، ولا أن يطلب ذلك منه تعالى، وهو معنى ما تدل عليه السين والتاء في الأصل ـ وقد حققنا معنى هذا النص في آية سورة الأعراف بلفظه فاستغرق أربع ورقات من جزء التفسير الثامن فليراجعه من شاء، إلا أنه قال هنالك ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون﴾ [الأعراف: ٣٤] الخ وقال هنا ﴿إذا جاء إجلهم فلا يستأخرون﴾ الخ والفرق بينهما أن ما هنا أبلغ في نفي تأخير الوعيد لأنه تفنيد لاستعجالهم به، وذلك أنه جعل الجملة الشرطية وصفاً للأجل مرتبطاً به مباشرة لا يتخلف عنه، وما هنالك إخبار بآجال الأمم مبتدأ وما بعده تفريع عليه، فهو لا يدل على لزومه له بلا مهملة كالذي هنا. وقد تكرر هذا السؤال من المشركين مع جوابه في سور أخرى، وأشبهه بما هنا سياق سورة النمل وأجيب فيها بقوله: ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ [النمل: ٧٢] وهو من ردفه إذا لحقه وتبعه، وعدى باللام لتأكيده أو تضمينه معنى يناسبه.

وقد بلغ من جهل الخرافيين من المسلمين بتوحيد الله أن مثل هذه النصوص من آيات التوحيد لم تصد الجاهلين به منهم عن دعوى قدرة الأنبياء والصالحين حتى الميتين منهم على كل شيء من التصرف في نفعهم وضرهم مما لم يجعله الله تعالى من الكسب المقدور لهم بمقتضى سننه في الأسباب، بل يعتقدون أن منهم من يتصرفون في الكون كله، كالذين يسمونهم الأقطاب الأربعة. وأن بعض كبار علماء الأزهر في هذا العصر يكتب هذا حتى في مجلة الأزهر الرسمية (نور الإسلام) فيفتي بجواز دعاء غير الله من الموتى والاستغاثة بهم في كل ما يعجزون عنه من جلب نفع ودفع ضر، وألف بعضهم كتاباً في إثبات ذلك وكون الميتين من الصالحين ينفعون ويضرون بأنفسهم، ويخرجون من قبورهم فيقضون حوائج من يدعونهم ويستغيثون بهم. قال في فتح البيان بعد نقله القول الأول في الاستثناء عن أئمة المفسرين وترجيحه ما نصه:

وفي هذا أعظم وازع وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله ﷺ أو الاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه. وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فإن هذا مقام رب العالمين، الذي خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم، فكيف يطلب من نبي من الأنبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه؟ ويترك الطلب لرب الأرباب القادر على كل شيء الخالق الرازق المعطي المانع؟ وحسبك بما في هذه الآية من موعظة فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده ﴿لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾ [يونس: ٤٩] فكيف يملكه لغيره؟ وكيف يملكه غيره ـ ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته ـ لنفسه، فضلاً عن أن يملكه لغيره؟

«فيا عجباً لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل؟ كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله إلا الله، ومدلول ﴿قل هو الله أحد﴾ «وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم، ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها. فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيي المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، وينادونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذي الجلال، وكفاك من شر سماعه، والله ناصر دينه، ومطهر شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر. ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه وينثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ [الكهف: ١٠٤] إنا لله وإنا إليه راجعون» اهـ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي قل لهم أيها الرسول أخبروني عن حالكم وما يمكنكم فعله إن أتاكم عذابه الذي تستعجلون به في وقت مبيتكم في الليل أو وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم أو أمور معاشكم بالنهار، وهو لا يعدوهما (كما تقدم في الآيات ٤، ٩٧ و٩٨ من سورة الأعراف ٧) ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي شيء أو أي نوع يستعجل منه المجرمون المكذبون الآن؟ أعذاب الدنيا أم قيام الساعة؟ أياً ما استعجلوا فهو حماقة، وجهالة، وقيل إن المعنى ماذا يستعجل منه المجرمون منكم إن أتاكم، أي إن جملة الاستفهام جواب للشرط فيما قبلها، وفيه بحث للنحاة الذين أوجبوا اقتران مثل هذا الجواب بالفاء وخالفهم غيرهم لا نعرض له، وقد تقدم في سورة الأنعام ﴿قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ [الأنعام: ٤٧]؟ وتقدم في تفسيرها وتفسير ما قبلها أن الاستفهام في (أرأيتم) و (أرأيتكم) مستعمل في اللغة بمعنى أخبروني عن حالكم وما يكون من عملكم إن أتاكم ذلك؟

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ قرأ الجمهور (ثم) بالضم وهو حرف عطف يدل على الترتيب والتأخر والتراخي، وقرىء بالفتح وهو اسم إشارة بمعنى هنالك. قال ابن جرير الطبري ومعنى قوله (أثم) في هذا الموضع أهنالك؟ وليس «ثم» ههنا التي تأتي بمعنى العطف اهـ ولم يضبطها بفتح الثاء فظاهر قوله أن المضمومة تأتي ظرفاً أيضاً وهذا لم يرو عن أحد من العرب، بل قال ابن هشام في المغني وقد نقله عنه: وهذا وهم اشتبه عليه ثم المضمومة الثاء بالمفتوحتها اهـ.

وأما على قراءة الجمهور فهذا استفهام آخر معطوف على فعل مقدر بعد الهمزة

علم مما قبله من إنكار استعجال مجرميهم بالعذاب، كما يقدر مثله بعد حرف الاستفهام الداخل في مثل قوله: ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم﴾ [الأعراف: ٦٣]؟ وقوله: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ [المؤمنون: ١١٥]؟ وتقدير الكلام، أيستعجل بالعذاب مجرموكم الذين هم أحق بالخوف منه بدلاً من الإيمان الذي يدفعه عنهم وعنكم، ثم إذا وقع بالفعل آمنتم به إذ لا ينفع الإيمان، لأنه صار ضروري بالمشاهدة والعيان لا تصديقاً للرسول عليه السلام، وقيل لكم حينئذ من قبل الله تعالى تقريعاً وتوبيخاً ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ آمنتم به اضطراراً ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيباً به واستكباراً؟ وقرأ نافع (ألان) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام، والجملة حالية، والاستعجال يتضمن المالغة في التكذيب المقابل للإيمان، وسيأتي في هذه السورة إيمان فرعون عند إدراك الغرق إياه وأنه يقال له ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ [يونس: ٩١].

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قيل: هذه معطوفة على قيل المقدرة قبل (آلآن وقد كنتم به تستعجلون) أي ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد، وما يترتب عليه من الفساد والضلال البعيد ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الخلد كالخلود مصدر خلد الشيء إذا بقي على حالة واحدة لا يتغير، وخلد الشخص في المكان إذا طال مكثه فيه، لا يرحل ولا هو بصدد التحول عنه. وظاهر إضافة العذاب إلى الخلد أن المراد به البقاء على حالة واحدة مؤلمة، ويحتمل إرادة العذاب الخالد الدائم وهو الموافق للآيات الكثيرة المطلقة في الأكثر والمقيدة بمشيئة الله تعالى في سورة الأنعام [الآية: ١٢٨] وقد تقدم تفسيرها وفي سورة هود وسيأتي ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي لا تجزون إلا بما كنتم تكسبونه باختياركم من الكفر والظلم والفساد في الأرض، والعزم على الثبات عليه وعدم التحول عنه، وليس فيه شيء من الظلم، لأنه أثر لازم لتدسية النفس وإفسادها بالظلم، حتى لم تعد أهلاً لجوار الرب عز وجل وليس عذاباً أنفاً من خارجها، وتقدم بيانه في تفسير قوله تعالى: ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ [الأنعام: ١٣٩].

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ النبأ الخبر المهم ذو الفائدة العظيمة والاستنباء طلبه، وهذا إخبار عن بعض الكفار والمكذبين فإنهم لم يكونوا على يقين من تكذيبهم وإنما كانوا ظانين مستبعدين، بين معاندين ومقلدين، وقد تقدم في هذا السياق قوله تعالى: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً﴾ [يونس: ٣٦] والمعنى ويسألونك أيها الرسول أن تنبئهم عن هذا العذاب الذي تعدهم به في الدنيا والآخرة أحق هو سيقع بالفعل؟ أم هو إرهاب وتخويف؟ ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي بكسر الهمزة وسكون الياء الخفيفة حرف جواب وتصديق بمعنى نعم، وإنما يستعمل مع القسم، أي نعم أقسم لكم بربي إنه لحق

واقع، كما قال في أول سورة الطور بعد القسم ﴿إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع﴾ [الطور: ٧، ٨] وقد أكده هنا بالقسم وبأن مع الجملة الاسمية ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ لله تعالى عن إنزاله بكم، ولا بفائتيه هرباً منه، وقد علم مؤمنوا الجن ما جهلتم إذ قالوا كما حكى الله عنهم ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجز هرباً﴾ [الجن: ١٢].

وقد استشكل بعض المفسرين السؤال باستبعاد أن يكون الاستفهام حقيقياً من المكذبين، والجواب بزعمهم أن تأكيده بالقسم وغيره من المؤكدات اللفظية لا يقنع السائلين، ومن عرف أخلاق العرب في زمن البعثة لم يستشكل السؤال إلا أن يكون السائلون من المعاندين للرسول ﷺ فحينئذ يكون الاستفهام للتهكم والاستهزاء، أو كما قيل: إنما سألوا أهو جد أم هزل، فأرادوا من الحق لازمه وهو الجد لا مقابل الباطل، والمعروف من أخلاق العرب في ذلك العهد أنه كان يقل فيهم الكذب لعزة أنفسهم، وعدم خضوعهم لرياسة استبدادية تضطرهم إليه، وكانوا يهابون الأيمان الباطلة ويخافونها، ومن المنقول عنهم أن الأيمان الفاجرة تدع الديار بلاقع، وناهيك بما اشتهر به النبي ﷺ منذ صغره من الصدق والأمانة حتى لقبوه بالأمين، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن بعضهم كان يسأله عن نبوته عن الشرائع ويستحلفه فإذا حلف اطمأن لصدقه واتبعه، وإن صدق عرب الجاهلية ليقل مثله في رجال الدين وغيرهم من أهل هذا العصر حتى المسلمين منهم.

روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن الثلاثة واللفظ للبخاري عن أنس قال بينما نحن مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال: أيكم محمد؟ قلنا هذا الرجل الأبيض المتكىء فقال: ابن عبد المطلب فقال النبي ﷺ: «قد أجبتك» فقال إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد عليّ في نفسك، قال «سل عما بدا لك» فقال أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللهم نعم» قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «اللهم نعم» قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «اللهم نعم» قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ قال: «اللهم نعم». قال آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر(١).

ولفظ مسلم عنه: قال أنس نهينا في القرآن أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء

(١) أخرجه البخاري في العلم باب ٦، وأبو داود في الصلاة باب ٢٣، والنسائي في الصيام باب ١، وابن ماجه في الإقامة باب ١٩٤، والدارمي في الوضوء باب ١، وأحمد في المسند ١/ ٢٥٠، ٢٦٤، ٢٦٥، ٣/ ١٦٨.

فكان يعجبنا أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد، أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك، قال «صدق» قال فمن خلق السماء؟ قال «الله» قال فمن خلق الأرض؟ قال «الله» قال فمن نصب هذه الجبال فجعل فيها ما جعل؟ قال «الله» قال فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب الجبال آلله أرسلك؟ قال «نعم» (ثم سأله بالذي أرسله عن كل من الصلوات والزكاة وصيام رمضان والحج فأجاب بنعم) ثم ولى وقال، والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، فقال النبي ﷺ: «لئن صدق ليدخلن الجنة»[١].

وزاد الإمام أحمد أنه قال له أيضاً: آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده ولا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤها يعبدون معه؟ قال «اللهم نعم» وأنه كان أشعر ذا غديرتين، وأن النبي ﷺ قال: «إن صدق ذو العقيصتين يدخل الجنة»[٢] وذكر أنه خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال بئست اللات والعزى، قالوا مه يا ضمام، اتق البرص والجذام، اتق الجنون قال ويلكم إنهما والله ما يضران ولا ينفعان، إن الله تعالى قد بعث إليكم رسولاً وأنزل كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

وأقول إن فائدة السؤال عمن خلق السموات والأرض والجبال وما فيها ثم ذكره في القسم أن استحضار ذلك فيه يكون أحرى أن يلتزم في الجواب الصدق وتعظيم القسم والخوف من عاقبة الحنث، وقد خفي هذا كله على المفسرين لأنهم اعتادوا إثبات العقائد الدينية بالأدلة النظرية الجدلية التي وضعت للجاحدين المجادلين بالباطل، وجهل هذه الحقائق أعداء الإسلام من الإفرنج ولا سيما السياسيين رجال الكنيسة الكاثوليكية ودعاة التنصير البروتستنتي المطبوعين على الكذب والكسب به والأخذ بقول رؤسائهم «إن الغاية تبرر الواسطة» يعنون أن اقتراف الكذب وسائر الرذائل لأجل مصلحة الكنيسة فضيلة ـ جهل هؤلاء أن عباد الأصنام في الجاهلية كانوا أشد منهم احتراماً للصدق ـ فضلاً عن الإسلام وكتابه ونبيه، فأباحوا لأنفسهم من افتراء الكذب على الله، وكتابه وخاتم رسله، ما لم يخطر مثله في بال الشيطان قبلهم فيوسوس به لغيرهم:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٤٣، ١٩٢.

لقد كذبوا على الإسلام كذباً تزول الشم منه مزلزلات

أما المسلمون فإن الله يقول في كتابه ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون﴾ [النحل: ١٥] والنبي ﷺ يقول في هديه «يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب» رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو رضي الله عنهما.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي لو أن لكل نفس تلبست بهذا الظلم جميع ما في الأرض من أنواع الملك والزينة وصنوف النعيم، وأمكنها أن تفتدي به أي تجعله فداء لها من ذلك العذاب الذي قيل لهم ذوقوه ينقذها منه بذلها له، لافتدت به كله لا تدخر منه شيئاً ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ إسرار الشيء إخفاؤه وكتمانه، وإسرار الحديث والكلام خفض الصوت به، فهو ضد إعلانه والجهر به ومنه ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ [الملك: ١٣] ﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ [الأنبياء: ١١٠] واستعمل بمعنى الجهر مطلقاً فهو ضد وأنكره بعضهم، والندم والندامة ما يجده الإنسان في نفسه من الألم والحسرة عقب كل فعل يظهر له ضرره، وقد يجهر به بالكلام كقوله «يا حسرتا على ما فرطت» أو بالتوبة والاستغفار، وقد يخفيه ويكتمه لعدم الفائدة من إعلانه أو اتقاء للشماتة أو الإهانة به، أي وأسر أولئك الذين ظلموا ندامتهم وحسرتهم فيما بينهم وبين ربهم أو كتموها في قلوبهم.

﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي رأوا مباديه عياناً بأبصارهم لما برزت الجحيم وأيقنوا أنهم مواقعوها لا مصرف لهم عنها، وقد يعبر برؤيته عن وقوعه والظاهر الأول لقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي وقضى الله بينهم وبين خصومهم بالعدل والحق، فإذا أريد بالظلم الكفر والتكذيب وما يلزمه من الإيذاء فخصومهم الرسل والمؤمنون بهم، وكذا من أضلوهم وظلموهم من المرءوسين والضعفاء الذين كانوا يغرونهم بالكفر ويصدونهم عن الإيمان وهو ظاهر السياق هنا وفي سورة سبأ بعد حكاية مجادلة الظالمين والمظلومين يوم القيامة ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ [سبأ: ٣٣] وإن أريد بالظلم ما يعم ظلمهم للناس في الأحكام وهضم الحقوق كان كل مظلوم خصماً لظالمه ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا يظلمهم الله كما ظلموا أنفسهم وظلموا أتباعهم ومقلديهم، بل هم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم. والآيات في ندم الظالمين يوم القيامة معروفة كقوله في آخر سورة النبأ ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ [النبأ: ٧٨] وقوله: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨] وغير ذلك.

ثم قفى على ذلك بالدليل على قدرته على إنفاذ حكمه وإنجاز وعده وكون هؤلاء الظالمين لا يعجزونه، ولا يستطيعون الافتداء من عذابه، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قلنا مراراً إن السموات والأرض عبارة عن جميع العالم، وهو تعالى مالك السموات والأرض وملكهما، وله كل من فيهما من العقلاء، وما فيهما من غير العقلاء، وقد نطقت الآيات بهذا كله ولكل مقام مقال، فههنا غلب غير العقلاء بمناسبة ما في الآية السابقة من الإشارة إلى غرور الكافرين والظالمين بما كانوا يمتعون به، وتعذر الافتداء بشيء منه، وسيأتي تغليب العقلاء في الآية ٦٦ من هذه السورة لاقتضاء المناسبة له. وصدر الجملة بحرف التنبيه «ألا» الذي يفتتح به الكلام لتنبيه الغافلين عن هذه الحقيقة وإن كانوا يعرفونها لكثرة ذهول الناس عن تذكر أمثالها، والمعنى ليتذكر الناسي وليتنبه الغافل وليعلم الجاهل أن لله وحده ما في العوالم العلوية. عالم الأرض يتصرف فيها حيث يشاء، فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، ولا يملك أحد من دونه شيئاً من التصرف والفداء، في يوم البعث والجزاء.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أعاد فيه حرف التنبيه تأكيداً وتذكيراً لتمييزه بهذا التنبيه عما سبقه لأنه المقصود هنا بذاته وإنما ذكر قبله للاستدلال عليه، أي كل ما وعد به على لسان رسله حق، واقع لا ريب فيه، لأنه وعد المالك القادر على إنجاز ما وعد لا يعجزه منه شيء ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني بأكثرهم الكفار منكري البعث والجزاء، أي لا يعلمون أمر الآخرة لا من طريق النظر والاستدلال، ولا من طريق الإيمان بما جاء به الرسل عليهم السلام.

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بقدرته كما يدل عليه النظر والاستدلال وقد بسطناه في تفسير الآيتين ٣١ و ٣٤ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عندما يحييكم بعد موتكم ويحشركم ليحاسبكم ويجزيكم بأعمالكم فهذه الآية بيان مستأنف لما قبله بالإيجاز، وجملة هذه الآيات خاتمة هذا السياق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

هاتان الآيتان في موضوع تشريع القرآن العملي التهذيبي جاء بعد بيان عقائده الثلاث (التوحيد والرسالة والبعث) وتأييدها بالاستدلال على كونه من الله تعالى، وعلى صدق وعده ووعيده، والرد على مكذبيه، وقد أجمل في الآية الأولى جميع مقاصد هذا التشريع وإصلاحه للناس بما يظهر به للعاقل أنه حق وخير وصلاح بذاته لا يصح لعاقل أن يماري فيه، ولا أن يحتاج للاستدلال عليه فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

أي قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من موعظة حسنة لإصلاح أخلاقكم وأعمالكم الظاهرة، وحكمة بالغة لإصلاح خفايا أنفسكم وشفاء أمراضها الباطنة، وهداية واضحة للصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، ورحمة خاصة للمؤمنين، هي شجنة من رحمة رب العالمين، العامة للخلق أجمعين، يتراحمون بها فيما بينهم، فتكمل بها رحمته تعالى لهم، ورحمته للعالمين برسوله إليهم وبهم، وقد عرف هذا من تاريخهم أشهر فلاسفة التاريخ من الإفرنج فقال: «ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب»[1] فكأن الله تعالى يقول للناس، بعد بيان هذه المقاصد الأربعة للقرآن. فما بالكم أيها الناس تكذبون بما لم تحيطوا به علماً من أخبار هذا الكتاب، التي هي من علم الغيب عن المآل والمآب، ولا تفكرون في آدابه ومواعظه، وأحكامه وحكمه، وهداية نواميسه وسننه، وما فيها من المنافع والمصالح، التي لا يماري فيها عالم ولا يكابر فيها عاقل؟ حتى أن أشد أعداء الرسول إيذاء له وصداً عن دعوته في أول ظهورها لم يستطيعوا الطعن على ما دعا إليه من الفضائل والخير والبر، وما نهى عنه من الرذائل والشرور والفجور، كأبي سفيان عند ما سأله هرقل قيصر الروم، وعمرو بن العاص عند ما سأله أصحمة نجاشي الحبشة، فإن كان ذلك قد خفي على بعض الجاحدين والمقلدين لهم من المشركين قبل تعميم نشر القرآن فيهم، وقبل ظهور ما كان له من التأثير العظيم بعد انتشار الإسلام في العرب، ومن الإصلاح الديني والمدني في شعوب العجم، أفليس من العجب العجاب أن يماري به أحد بعد ذلك ويصدق ما يفتريه عليه دعاة الكنيسة ورجال السياسة من الإفرنج وتلاميذهم وهم أكذب البشر؟

أجملت الآية الحكيمة هذا الإصلاح القرآني لأنفس البشر في أربع قضايا أو مسائل نكرن في اللفظ لتعظيم أمرهن، أو لبيان أنهن نوع خاص لم يعهد الناس مثلهن، في كمالهن المعنوي وبيانهن اللفظي، وقوله: ﴿من ربكم﴾ للتذكير بما يزيدها تعظيماً، ووجوب الاتعاظ بها إيماناً وتسليماً، لأنها من مالك أمر الناس ومربيهم بفضله ورحمته، وعلمه وحكمته.

الأولى الموعظة الحسنة: وهي اسم من الوعظ أي الوصية بالحق والخير، واجتناب الباطل والشر، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب، فتبعث على الفعل والترك، وقد تقدم في حقوق النساء من سورة البقرة ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾ [البقرة: ١٣١] وفي التي بعدها ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذلكم أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ [البقرة: ١٣٢] وتقدم في سورة آل عمران بعد النهي عن أكل

---

(١) هو الحكيم الاجتماعي المؤرخ الدكتور غوستاف لوبون الفرنسي (المؤلف).

الربا والأمر بطاعة الله ورسوله والترغيب في الإنفاق في السرّاء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس، وما أعده الله على ذلك من الجزاء ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ [آل عمران: ١٣٦] ويليه الكلام في الجهاد وغزوة أحد، وفي سورة النساء ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به﴾ [النساء: ٥٨] وتقدم غير ذلك من أمثلة الوعظ وسيأتي غيره مما يفسر مراده تعالى من موعظته الربانية، فهل يمكن أن يتمارى عاقلان في حسنها ومنفعتها للعباد في أعمالهم وأحكامهم؟ كلا أنها مما يتوقف عليه صلاح العباد في كل زمان ومكان.

الثانية شفاء ما في الصدور: أي شفاء جميع ما في القلوب من أدواء الشرك والكفر والنفاق، وسائر الأمراض النفسية التي يشعر صاحبها ذو الضمير الحي بضيق الصدر، من شك في الإيمان، ومخالفة للوجدان، وإضمار للحقد والحسد والبغي والعدوان، وحب للباطل والظلم والشر، وبغض للحق والعدل والخير.

قال الراغب: قال بعض الحكماء حيثما ذكر الله القلب فإشارة إلى العقل والعلم نحو ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ [ق: ٣٧] وحيثما ذكر الصدر فإشارة إلى ذلك وإلى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب ونحوها، وقوله: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ [طه: ٢٥] فسؤال لإصلاح قواه، وكذلك قوله: ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ [التوبة: ١٤] إشارة إلى اشتفائهم. وقوله: ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾ [الحج: ٤٦] أي العقول التي هي مندسة فيما بين سائر القوى وليست مهتدية والله أعلم بذلك اهـ.

والتحقيق أن الصدر يطلق مجازاً على القلب الحسي الذي فيه وعلاقته ظاهرة وعلى القلب المعنوي الذي هو للنفس كالقلب الحسي للبدن لأنه لبها، ومركز شعور مداركها وانفعالاتها، دون الدماغ فإن النفس لا تشعر بما ينطبع فيه من المدركات من انشراح وبسط، ولا حرج وضيق وقبض، فجميع الإدراكات العلمية والوجدانية توصف بها القلوب حقيقة والصدور مجازاً، وتكون فاعلة ومفعولة وصفات للأفعال العاملة فيهما. وأما العقل في اللغة فهو الحكم الصحيح في بعض الإدراكات ولوازمها من حسن وقبح وصلاح وفساد، ونفع وضر، ومركزه الدماغ قطعاً فأمراض الصدور والقلوب تشمل الجهل وسوء الظن، والشك في الإيمان، والنفاق، والحقد والضغن والحسد، وسوء النية وخبث الطوية، وفساد السريرة، وغير ذلك مما تقدم آنفاً، والشواهد على هذا في القرآن كثيرة.

وذهب بعضهم إلى أن الشفاء في الآية يشمل شفاء الأمراض البدنية واستدلوا بما

أخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني أشتكي صدري فقال: «اقرأ القرآن يقول الله ﴿شفاء لما في الصدور﴾ وفيه أن ضيق الصدر في الغالب ألم نفسي لا بدني قد يكون سببه دينياً وقد يكون دنيوياً كالخوف والحاجة، وقراءة المؤمن للقرآن تنفع في كل منهما ومن الأول قوله: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد في السماء﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقوله في آخر سورة الحجر ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر: ٩٧] والتسبيح بحمد الله والسجود له وعبادته بالصلاة وتلاوة القرآن أعظم أسباب انشراح الصدر، كما قال: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ [الزمر: ٢٢].

واستدلوا أيضاً بما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رجلاً شكا إلى النبي ﷺ وجع حلقه قال: «عليك بقراءة القرآن والعسل، فالقرآن شفاء لما في الصدور، والعسل شفاء من كل داء» وهو على ضعفه لا يدل على ما قيل إذ معناه اقرأ القرآن، تعلم منه ما يفيدك، إذ فيه أن القرآن شفاء لأمراض الصدور، والعسل شفاء لأمراض البدن، فهو كوصفه ﷺ العسل لمن شكا له استطلاق بطن ابن أخيه في الحديث الصحيح. وقد ثبت في الطب الحديث أن العسل مطهر طبي ومضاد للفساد، واستطلاق البطن يكون من فساد في الأمعاء، وكذا وجع الحلق بالتهاب اللوزتين ونحوه، والعسل مطهر لكل منهما، وقد روى أبو الشيخ عن الحسن البصري أنه قال: إن الله تعالى جعل القرآن شفاء لما في الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم. وقال بعض المفسرين إن تنكير الشفاء في آية العسل يدل على الخصوص لا العموم. على أن الرقية بالفاتحة وغيرها قد تفيد في شفاء بعض الأمراض ولا سيما إذا كان الراقي قوي الإيمان والمرقي حسن الاعتقاد، وليس هذا مما تدل عليه الآية.

الثالثة الهدى: وهو بيان الحق المنقذ من الضلال في الاعتقاد بالبرهان، وفي العمل ببيان الحكم والمصالح في أحكام الأعمال، وهو ما فصلناه تفصيلاً في هذا التفسير وبينا أنواعه في مقاصد القرآن من مباحث الوحي في أول تفسير هذه السورة بأنواعها الدينية والعقلية والاجتماعية، وتقدم الكلام على معناه اللغوي وأنواعه في تفسير الفاتحة وأول سورة البقرة.

الرابعة الرحمة للمؤمنين: وهي ما تثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة وهي صفة كمال من آثارها إغاثة الملهوف، وبذل المعروف، وكف الظلم، ومنع التعدي والبغي، وغير ذلك من أعمال الخير والبر، ومقاومة الشر،

وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿رحماء بينهم﴾ [الفتح؛ ٢٩] ويقوله: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ [البلد: ١٧].

وهذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية فالموعظة التعاليم التي تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية، وتزعجها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها، والشفاء تخلية يتبعها طلب التحلية بالصحة الكاملة، والعافية التامة، وهو الهدى، ومن ثمراته هذه الرحمة التي لا توجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين، ولا يحرمها إلا الكافرون الماديون، حتى قال بعضهم إنها ضعف في القلب، يجعل صاحبه كالمضطر إلى الإحسان والعطف، وما هذا القول إلا من فساد الفطرة، وقسوة القلب وفلسفة الكفر، فلقد كان أشجع الناس وأقواهم بدناً وقلباً، أرحم الناس وأشدهم عطفاً، وهو سيد ولد آدم محمد رسول الله وخاتم النبيين، الذي وصفه ربه بما وصف به نفسه من قوله: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ [التوبة: ١٢٨] بل جعله عين الرحمة في قوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وكذلك كان أصحابه رضي الله عنه حتى كان من يوصف بالشدة والقسوة كعمر بن الخطاب رضي الله عنه صار من أرحم الناس وسيرته في ذلك معروفة.

وقد قال ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»(١) رواه أبو داود والترمذي واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه وقد صح عنه ﷺ أنه كان إذا سمع وهو في الصلاة بكاء طفل تجوز في صلاته، أي اختصر وخفف رحمة به وبأمه، وروى ابن إسحاق أن بلالاً رضي الله عنه مرَّ بصفية وبابنة عم لها على قتلى قومهما اليهود بعد انتهاء غزوة قريظة فصكت ابنة عمها وجهها وحثت عليه التراب وهي تصيح وتبكي فقال ﷺ له: «أنزعت الرحمة من قلبك حتى مررت بالمرأتين على قتلاهما» وجاء أعرابي إليه ﷺ فقال إنكم تقبلون أولادكم وما نقبلهم فقال: «أو أملك لك أن نزع الله الرحمة من قلبك»(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنه.

بل كان ﷺ شديد الرحمة بالبهائم والطير والحشرات وطالما أوصى بها ولا سيما صغارها وأمهاتها. جاءه مرة رجل وعليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال يا رسول الله إنني لما رأيتك أقبلتُ فمررت بغيطة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي وكشفت لها عنهن فوقعت عليهن فلففتها معهن بكسائي فهن أولاء معي، فقال «ضعهن» قال: ففعلت فأبت أمهن إلا لزومهن فقال ﷺ: «أتعجبون لرحمة أم الأفراخ بفراخها؟ قالوا

(١) أخرجه الترمذي في البر باب ١٦، وأحمد في المسند ٢/ ٣٠١، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ١٨، ومسلم في الفضائل حديث ٦٤.

نعم، قال: «والذي بعثني بالحق للّهُ أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن، وأمهن معهن» فرجع بهن[١]. رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه وروى مالك والبخاري ومسلم وأبو داود من حديثه مرفوعاً حديثين خلاصتهما أن الله غفر لرجل ولامرأة بغيّ لأن كلاً منهما رأى كلباً قد اشتد به العطش فرحمه وأخرج له الماء من البئر بخفه فسقاه. قالوا له يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: «في كل كبد رطبة أجر»[٢] ورواه مالك وأحمد عن غيره بلفظ «في كل ذات كبد حرّى أجر»[٣].

وقال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحكم من في السماء»[٤] رواه الترمذي وأبو داود من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ورويناه مسلسلاً بالأولية من طريق أستاذنا الشيخ محمد أبي المحاسن القاوقجي. وقال ﷺ: «إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على ولدها وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»[٥] ـ وفي رواية ـ ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمن من النار»[٦] رواه البخاري ومسلم والترمذي، والله تعالى يقول: ﴿نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠] ويقول: ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ [يوسف: ٨٧] ويقول: ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ [الأعراف: ٩٩] وما دام المؤمن حياً فالواجب عليه أن يخاف الله خوفاً يرهبه ويزجره عن معاصيه، وأن يرجوه رجاء يرغبه في ثوابه وما يرضيه، وما عند الله مجهول لنا، وما أحسن قول أبي الحسن الشاذلي قدس الله سره «وقد أبهمت الأمر علينا لنرجو ونخاف، فآمن خوفنا، ولا تخيب رجاءنا» اللهم آمين.

---

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز باب ١.

(٢) أخرجه البخاري في المساقاة باب ٩، والمظالم باب ٢٣، والأدب باب ٢٧، ومسلم في السلام حديث ١٥٣، وأبو داود في الجهاد باب ٤٤، ومالك في صفة النبي (ص) حديث ٢٣، وأحمد في المسند ٢/ ٣٧٥، ٥١٧.

(٣) أخرجه مالك في صفة النبي (ص) حديث ٢٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٢٢، ٤/ ١٧٥.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٥٨، والترمذي في البر باب ٦١.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب باب ١٩، ومسلم في التوبة حديث ١٧، ٢٠، والترمذي في الدعوات باب ٩٩، وابن ماجه في الزهد باب ٣٥، وأحمد في المسند ٢/ ٣٣٤، ٤٣٤، ٣/ ٥٥، ٥٦.

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق باب ١٩، ومسلم في التوبة حديث ٢٣، والترمذي في الدعوات باب ٩٩، وأحمد في المسند ٢/ ٣٩٧، ٤٨٤، ٥٢٤.

خاطب الله تعالى بما تقدم كله أمة الدعوة المحمدية وهم جميع الناس فموعظة القرآن وما فيه من شفاء من أمراض الكفر والنفاق والرذائل، وهداه إلى الحق والفضائل موجهات إلى الجميع، وخص المؤمنين بما تثمره الثلاث من الرحمة لأنهم هم الذين ينتفعون بها، ثم خاطب رسوله ﷺ بأن يبلغ هؤلاء المؤمنين أنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الإيمان والإسلام وبهذه الرحمة الخاصة بهم لاستجماعهم كل ما ذكر قبلها من مقاصد تشريعه فقال:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ فضل الله على جميع عباده عظيم وهو على المؤمنين منهم أعظم، ورحمته العامة لهم وبهم واسعة، ورحمته الخاصة بالمؤمنين أوسع، وبكل من النوعين نطق القرآن، وقد من تعالى عليهم بالجمع لهم بين الفضل والرحمة في آيات، وبكل منهما في آيات، وقال بعد الجمع بينهما في آيتين من سورة النور ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾ [النور: ٢١] وأن دخول الباء على كل من الفضل والرحمة هنا يدل على استقلال كل منهما بالفرح به، فهو يرد ما روي عن مجاهد من أن المراد بهما واحد وهو القرآن، ويرده أيضاً ما روي عن المأثور في تفسير كل منهما بمعنى، ومنه ما رواه أبو الشيخ وابن مردويه من حديث أنس مرفوعاً «فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله» وروي عن البراء وأبي سعيد الخدري موقوفاً. وعن ابن عباس روايتان **إحداهما**: أن فضل الله القرآن ورحمته الإسلام **والثانية**: أن الفضل العلم والرحمة محمد ﷺ وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد في الرواية الثانية عنه، فضل الله الإيمان ورحمته القرآن، وكل هذه المعاني صحيحة في نفسها لا في روايتها. وأظهرها في الآية وهو المناسب لما قبلها، والجامع لمعاني الروايات كلها، أن فضل الله توفيقه إياهم لتزكية أنفسهم بالموعظة والشفاء والهدى التي امتاز بها القرآن، ورحمته ثمرتها التي فضلوا بها جميع الناس فكانوا أرحمهم، بعد أن كانوا أعدلهم وأبرهم بهم، فقد أمرهم هذا القرآن بالبر والعدل وإقامة القسط في المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وأمرهم بالرحمة حتى في المحاربين لهم بقدر ما يدفع شرهم كما فصلناه في المقصد الثامن من مقاصد القرآن في مباحث الوحي، ولولا مراعاة هذا التناسب لقلت أن المراد بفضله تعالى على هذه الأمة هو قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠] ولكن ما قلته يدخل في معناه ويوافقه ولكل مقام مقال.

والفرح كالسرور انفعال نفسي بنعمة حسية أو معنوية يلذ القلب ويشرح الصدر، وضدهما الأسى والحزن، وهما من الوجدان الطبيعي لا يمدحان ولا يذمان لذاتهما، بل حكمهما حكم سببهما أو أثرهما في النفس والعمل، خلافاً لبعض الناس من

الصوفية وغيرهم فيهما، فقد أمر الله تعالى هنا بالفرح بفضله ورحمته، ومدح المؤمنين بالفرح في قوله: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ [الروم: ٤] وهذا فرح بأمر ديني دنيوي ثم قال فيها ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها﴾ [الروم: ٣٦] وقال في أهل الكتاب الذين يؤمنون به ﷺ ويهتدون بالقرآن ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾ [الرعد: ٣٦].

وذم سبحانه الفرح بالباطل وفرح البطر والغرور بالمال ومتاع الدنيا وشهواتها في عدة آيات معروفة. وجعل الاعتدال بين الفرح والأسى والحزن من صفات المؤمنين فقال بعد ذكر تربيتهم بالمصائب المقدرة في كتاب الله ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كل مختال فخور﴾ [الحديد: ٢٣] وتقدم تحقيق الكلام في الحزن في تفسير سورة براءة (ج ١٠ تفسير).

والتعبير في الآية في غاية البلاغة لما فيها من التأكيد والمبالغة في التقرير، فإن أصل المعنى بدونهما: قل ليفرحوا بفضل الله وبرحمته، فأخر الأمر وقدم عليه متعلقه لإفادة الاختصاص كأنه قال إن كان في الدنيا شيء يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته، وأدخل عليه الفاء لإفادة معنى السببية فصار فيهما فليفرحوا دون ما يجمعون من متاع الدنيا المبين في آخر الآية، ثم أدخل على الأمر (فبذلك) لزيادة التأكيد والتقرير، وتفصيل مباحثه في الإعراب أكثر مما قلنا، وبسطه يشغل عن المعنى والاعتبار به، وهو خروج عن منهجنا في هذا التفسير.

ثم قال: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي أن الفرح بفضله وبرحمته أفضل وأنفع لهم مما يجمعونه من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث وسائر متاع الحياة الدنيا، مع فقدهما، و لأنه سبب سعادة الآخرة الباقية، المفضلة على الحياة الدنيا الفانية، كما اشتهر فيما خطته الأقلام ولاكته الألسنة، بل لأنه هو الذي يجمع بين سعادة الدارين كما حصل بالفعل، إذ كانت هداية الإسلام بفضل الله وبرحمته سبباً لما ناله المسلمون في العصور الأولى من الملك الواسع، والمال الكثير، مع الصلاح والإصلاح، والعدل والإحسان، والعلم والعرفان، والعز الكبير، فلما صار جمع المال ومتاع الدنيا وفرح البطر به هو المقصود لهم بالذات، وتركوا هداية الدين في إنفاقه والشكر عليه، ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم كما شرحناه مراراً.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

هاتان الآيتان في إقامة الحجة على منكري الوحي من المشركين بفعل من

أفعالهم لا ينكرونه ولا يجادلون فيه، تعزيزاً لما تقدم من أنواع الحجج العقلية على إثباته، ودفع شبهاتهم عليه، وهذه الحجة مبنية على قاعدة كون التشريع العملي في التحريم والتحليل هو حق الله تعالى وحده، وقاعدة كون الأصل في الأرزاق وسائر الأشياء التي ينتفع بها الخلق الإباحة، وقاعدة كون انتحال العبيد حق التشريع الخاص بربهم افتراء عليه وكفراً به، يستحق فاعلوه أشد عقابه، وهو يتضمن الشهادة على صدق رسوله ﷺ في كونه مبلغاً لهذا القرآن عنه تعالى، مؤكداً لما تقدم من الحجج على صدقه، وعلى كون القرآن كلام الله المعجز لجميع خلقه.

قال عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ أي أخبروني أيها الجاحدون للوحي والتشريع الإلهي ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي هذا الذي أفاضه الله عليكم من سماء فضله وإحسانه من رزق تعيشون به من نبات وحيوان، وكل عطاء منه تعالى يعبر عنه بالإنزال كقوله: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ [الزمر: ٦] وقوله: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ [الحديد: ٢٥] ـ ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ أي فترتب على إنزاله لمنفعتكم أن جعلتم بعضه حراماً وبعضه حلالاً. وقد تقدم تفصيل هذا في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ [الأنعام: ١٣٦] ـ إلى قوله ـ ﴿قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾ [الأنعام: ١٥٠] وفي معناها قوله من سورة المائدة ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ [المائدة: ١٠٣] أي يفترون عليه بتحريم ما لم يحرمه وقال هنا وهو المراد من الاستخبار.

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ هذا الاستفهام للتقرير ومدت همزته لدخولها عل ألف اسم الجلالة. أي أنه ليس لأحد حق أن يحرم على الناس ويحل لهم إلا ربهم الله، فهل الله هو الذي أذن لكم بذلك بوحي أنزله إليكم؟ ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ بزعمكم أنه حرمها عليكم؟ أي لا مندوحة لكم عن الإقرار بأحد الأمرين: إما دعوى الإذن من الله لكم بالتحليل والتحريم، وهو اعتراف بالوحي وأنتم تنكرونه وتلحون وتلجون في الإنكار، وتزعمون أنه محال عليه تعالى أن يوحي إلى أحد من الناس، وإما الافتراء على الله؟ وهو الذي يلزمكم بإنكار الأول إذ لا واسطة بينهما، ويحتمل أن يكون الاستفهام للإنكار وأم متصلة، فيكون المعنى أن الله لم يأذن لكم بل أنتم تفترون على الله تعالى، والغاية واحدة، وأصل الفري قطع الجلد لمصلحة والافتراء تكلفه وغلب في تعمد الكذب.

قال الكرخي في هذا الاستفهام: وكفى به زاجراً لمن أفتى بغير إتقان، كبعض فقهاء هذا الزمان، وقال العماد ابن كثير في تفسيره: وقد أنكر الله على من حرم ما

أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها، ولا دليل عليها اهـ ونحن نقول: وكفى به زاجراً لمن يحرمون على الناس ما لم يحرمه الله تعالى بنص كتابه كالتحريم بالرأي والقياس، أو بدليل ظني من الكتاب والحديث غير قطعي الرواية والدلالة، وهو مخالف لهذه الآية وأمثالها، والمروي عن السلف أن التحريم لا يكون إلا بنص قطعي، وهو أصل مذهب الحنفية والكرخي منهم، وقد تقدم بيان هذا مراراً في هذا التفسير ومنه قول القاضي أبي يوسف لم يكونوا يقولون في شيء أنه حرام إلا ما كان بيناً في كتاب الله بلا تفسير.

وفي هذه الآية قواعد أشرنا إلى ثلاث منها: **القاعدة الأولى**: إن الأصل في كل ما خلقه الله تعالى للناس من الأرزاق نباتها وحيوانها الإباحة، وهو يتضمن بطلان قول من يحرمون أكل اللحوم، ولهم على هذا شبهتان: **أولاهما** قديمة وهي زعمهم أن أكل لحم الحيوان يتوقف على تذكيته بالذبح وغيره وهو تعذيب مستقبح عقلاً، وجوابه أن هذا القول جهل فإن التذكية الشرعية ليست تعذيب وربما كانت أهون من موته بسبب آخر من أسباب الموت كافتراس سبع أو ترد من مكان عالٍ، أو انخناق بين شجرتين مثلاً، أو نطاح، أو وقذ راع قاس أو معتد آخر وقد حرم الله في آية المائدة (٥: ٣) أكل ما مات بسبب من هذه الأسباب كالذي يموت حتف أنفه. ونهى الشرع عن تعذيب أي ذي روح وحث على رحمته كما تقدم قريباً في تفسير الرحمة وقال نبي الرحمة ﷺ «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[1] رواه مسلم من حديث شداد بن ثابت (رض) والذبح بهذه الصفة لا يؤلم الحيوان إلا لحظة قصيرة، والحيوانات لا تشعر بالألم بقدر ما يشعر به البشر كما قرره بعض علماء هذا الشأن.

الشبهة الثانية: حادثة وهي ما يزعمه النباتيون الذين يفضلون الأغذية النباتية على الحيوانية من كون أكل اللحوم ضاراً للناس، وجوابنا عنها أنهم إن زعموا أن أكل اللحم يضر كل آكل منهم مطلقاً فهذا زعم تبطله التجارب وينكره أكثر أطباء العالم، وإن قالوا أنه يضر بعضهم كأصحاب أمراض الترف وضعاف المعدة (كالرثية والنقرس) فهذا لا يقتضي تحريمه عليهم كلهم بالإطلاق، وحكم الشرع في المضار الحظر ومنه عام وخاص. **القاعدة الثانية والثالثة**: أن تشريع التحريم الديني هو حق الله تعالى وحده، وأن جعله لغيره شرك به، وقد بسطنا هذا في مواضع من هذا التفسير بدلالة الآيات والسنة والآثار.

---

(١) أخرجه مسلم في الصيد حديث ٥٧، وأبو داود في الأضاحي باب ١١، والترمذي في الديات باب ١٤، والنسائي في الضحايا باب ٢٢، ٢٦، ٢٧، وابن ماجه في الذبائح باب ٣، وأحمد في المسند ٤/١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

القاعدة الرابعة: أن ما خلقه الله وسخره لنا من سائر منافع الكون فالأصل فيه الإباحة كالرزق ويؤخذ من هذه الآية بالفحوى، وبناء المنة فيه على كونه منه تعالى، وهو صريح قوله: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سجل عليهم جريمة افتراء الكذب على الله وهو اختلاقه، وقفى عليه الوعيد عليه مشيراً إلى ما يكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة. والمعنى أي شيء ظنهم في ذلك اليوم الذي تجزى فيه كل نفس ما عملت؟ أيظنون أنهم يتركون بغير عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله وهو تعمده في حق خاص بربوبيته، فهو نزاع له فيها وشرك به، كما قال: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ [الشورى: ٢١] الآية، فويل للمعمين من جهلاء المقلدين، الذين يحرمون على الناس ويحلون لهم بتقليد بعض المؤلفين، أو باتباع الهوى والرأي في الدين، وهم يتلون قوله: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب﴾ إلى قوله: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ [النحل: ١١٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هذه الآية بيان مستأنف يتضمن بمفهومه تعليلاً لما فهم مما قبلها من عقاب المفترين على الله بكونه عدلاً استحقوه بظلمهم لأنفسهم لا ظلماً منه، وهو إثبات فضله على الناس بهذه الجملة المؤكدة أشد التوكيد، فأفاد أن صاحب هذا الفضل العظيم عليهم لمجرد إحسانه إليهم، ليس من شأنه أن يكون ظالماً لهم إذا قابلوا أكثر فضله ونعمه، بأشد الكفر وأنكره، وهذا المعنى المفهوم من الآيتين من أغرب إيجاز القرآن المعجز للبشر. والمعنى: تالله إن الله لذو فضل عظيم على الناس في كل ما خلقه لهم من الرزق، وكل ما شرعه لهم من الدين، ومنه أنه جعل الأصل فيما أنزله إليهم من الرزق الإباحة، وجعل حق التحريم والتحليل له وحده عز وجل، لكيلا يتحكم فيهم أمثالهم من عباده، كالذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، كما تقدم في تفسير سورة التوبة ـ براءة ـ وهو لم يحرم عليهم إلا ما هو ضار بهم، ولهذا أباح لهم ما حرمه عليهم إذا اضطروا إليه وكان تركه أضر من تناوله، وحصر أصول محرمات الطعام في قوله: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهلّ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ [الأنعام: ١٤٥] وفصل أنواع الميتة المحرمة في أول سورة المائدة (٥: ٣) فراجع تفسير الآيتين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فضله عليهم كما يجب، كما قال: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣] فيجنون على أنفسهم بتحريم ما لم يحرمه عليهم، وبغير ذلك من كفر نعمه المادية والمعنوية، كالغلو في الزهد، وترك الزينة والطيبات من الرزق،

وفي ضد ذلك من الإسراف في الأكل والشرب، وزينة اللباس، ابتغاء الشهرة والخيلاء والتكبر على الناس، وشر من ذلك كله تحريمه تعبداً والإسلام يأمر بالوسط والاعتدال ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ [الطلاق: ٧] الآية.

أخرج الإمام أحمد من طرق عن أبي الأحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا رثُّ الهيئة فقال: «هل لك مال؟ قلت نعم، قال: «من أي المال؟ قلت من كل المال من الإبل والرقيق والخيل والغنم فقال: «إذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ عليك»(١) الحديث وفي رواية أصحاب السنن الثلاثة عنه «إذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته»(٢) وأخرج البخاري في التاريخ والطبراني والضياء بسند صحيح عن زهير بن أبي علقمة مرفوعاً «إذا آتاك الله مالاً فلير عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسناً، ولا يحب البؤس ولا التباؤس» والشكر نصف الإيمان، بحسب متعلقاته من الأعمال والأحوال، وهي ما يجب على العبد لربه ولعباده من استعمال نعمه عليه فيما يرضيه من أحكام شرعه، وموافقة سننه وحكمته في خلقه، والنصف الآخر الصبر وهو ما يجب في حال وقوع المكاره والابتلاء من عمل بدني ونفسي. ويضاد الشكر الكفر وهو قسمان، كفر النعم وكفر المنعم، وأنصح للقارىء أن يطالع كتاب الصبر والشكر في المجلد الرابع من إحياء العلوم للغزالي.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

لما ذكر تعالى عباده بفضله، وما يجب عليهم من شكره، ويكون أكثرهم لا يشكرونه كما يجب عليهم ـ عطف على ذلك تذكيره لهم بإحاطة علمه بشؤونهم وأعمالهم كلها، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وبكل ما في العوالم علويها وسفليها، ليحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته، وبدأ بخطاب أعظمهم شأناً في أعظم شؤونه فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ أيها الرسول ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أي أمر من أمورك المهمة الخاصة بك أو العامة التي تعالج بها أمر الأمة، في الدعوة إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، إنذاراً وتبشيراً، وتعليماً وعملاً.

﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك، تعبداً به أو تبليغاً له، فمن الأولى للتعليل والثانية للتبعيض، أو الضمير في منه للكتاب

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٣٩٦، ٤١١.
(٢) أخرجه أبو داود في اللباس باب ١٤، والنسائي في الزينة باب ٥٤، وأحمد في المسند ٤/ ١٣٧.

لأن السياق بل السورة كلها فيه، وإضماره قبل الذكر ثم بيانه تفخيم له ـ وقيل لله لذكره في الآية قبلها والتعبير في خطابه ﷺ بالشأن وهو الأمر العظيم أو ذو البال يدل على أن جميع أموره وأعماله ﷺ كانت عظيمة حتى العادات منها، لأنه كان قدوة صالحة فيها كلها.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ هذا خطاب عام للأمة كلها في كل شؤونها وأعمالها، بعد خطاب رأسها وسيدها في أخص شؤونه وأعلاها، فتذكرك الآية في أخصر الألفاظ وأقصرها بأفضل ما آتاك الله من هداية ونعمة، وتنتقل بك إلى كل عمل تعمله من شكر وكفر وإن كان كمثقال ذرة، فإن مجيء عمل نكرة منفية يفيد العموم، ودخول من التبعيضية عليه يؤكد هذا العموم، فيشمل أدق الأعمال وأحقرها، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي رقباء مطلعين عليكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تخوضون وتندفعون فيه، فنحفظه عليكم لنجزيكم به، وأصل الإفاضة في الشيء أو من المكان الاندفاع فيه بقوة أو بكثرة كما تقدم في «أفضتم من عرفات» ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي وما يبعد عنه ولا يغيب عن علمه ولا يخفى عليه، قرأ الجمهور يعزب بضم الزاي والكسائي بكسرها وهما لغتان فيها ـ وأصله من قولهم عزب الرجل يعزب بإبله، أي يبعد ويغيب في طلب الكلأ العازب وهو ما يكون بفلاة بعيدة حيث لا زرع، ويقال رجل عزب بفتحتين أي منفرد، ومنه رجل وامرأة عزب أي منفرد لا زوج له أو لها، ويقال امرأة عزبة، واختلف في أعزب وعزباء، ونفي عزوب الشيء عن الرب تعالى أخص وأبلغ من نفي الغيبة أو الخفاء عنه. كما أن الإفاضة في العمل أخص من إتيانه مطلقاً. وحكمة تخصيصها بالذكر دون اللفظ الأعم منها، هي أن ما يفيض فيه الإنسان مهمّاً به مندفعاً فيه جدير بأن لا ينسى أو يغفل عن مراقبة ربه فيه وإطلاعه عليه، فاللفظ يذكره به تذكيراً منبهاً مؤثراً. وكذلك لفظ (يعزب) الدال على الخفاء والبعد معاً، فكأنه يقول أن ما شأنه أن يبعد ويخفى عليكم من أعمالكم لا يغيب عن علم ربكم فإنه لا يعزب عنه.

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي أقل شيء يبلغ وزنه ثقل ذرة وهي النملة الصغيرة يضرب بها المثل في الصغر والخفة، ويطلق على الدقيقة من الهباء والغبار الذي لا يرى إلا في ضوء الشمس الداخل من الكوى إلى البيوت ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي في الوجود سفليه وعلويه، وقدم ذكر الأرض لأن الكلام مع أهلها، وأخره في آية سبأ (٣٤: ٣) وقدم السماء لأنها في سياق ثنائه تعالى على نفسه ووصفه بإحاطة علمه فناسب تقديم السماء لأنها أعظم فإن فيها من الشموس وعوالمها ما يبعد بعضه عن بعض مسافة ألوف الألوف من السنين التي تقدر أبعادها بسرعة النور، كما ثبت في علم هذا العصر.

﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ هذا كلام مستقل بنفسه قائم برأسه، مؤكد لما قبله بتعبير أدق وأشمل، و (لا) نافية للجنس على قراءة الجمهور، أي ولا شيء أصغر من الذرة وهو ما لا تبصرونه من دقائق الكون كما قال: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] ولا أكبر منها وإن عظم مقداره كعرشه عز وجل، وقرأ حمزة ويعقوب أصغر بالرفع على الابتداء والخبر، ولا يخفى توجيهه في الإعراب على أهله. قدم ذكر الأصغر لأنه هو الأهم في سياق العلم بالخفي، وعطف عليه الأكبر لإفادة الإحاطة وكون الأكبر لا يكبر عليه كما أن الأصغر لا يعزب عنه.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ أي إلا وهو معلوم ومحصى عنده ومرقوم في كتاب عظيم الشأن تام البيان، وهو الكتاب الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها إكمالاً للنظام، وقد بينا ما ورد في هذا الكتاب المبين في تفسير ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية من سورة الأنعام فراجعه في الجزء السادس من هذا التفسير. وفي الآية إشارة إلى ما في الوجود من أشياء لا تدركها الأبصار، وقد رؤي كثير منها في هذا العصر بالآلات التي تكبر المرئيات أضعافاً كثيرة، ولم يكن هذا مما يخطر في البال في عصر التنزيل، فهو من دقائق تعبير القرآن، التي تظهر حكمتها للناس آنا بعد آن، وتقدم التذكير بما لها من الأمثال التي هي من أنواع الإعجاز.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

لما بين تعالى لعباده سعة علمه، ومراقبته لعباده، وإحصاءه أعمالهم عليهم، وجزاءهم عليها، وذكرهم بفضله، وما يجب عليهم من شكره، بين لهم في هذه الآيات الثلاث حال الشاكرين المتقين، الذين لهم أحسن الجزاء في يوم الدين، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ افتتحت هذه الجملة بكلمة (ألا) للتنبيه وتوجيه الفكر لها، والأولياء جمع ولي وهو وصف من الولاء والتوالي، ومن الولاية والتولي، فيطلق على القريب بالنسب وبالمكانة والصداقة، وعلى النصير، والمتولي للأمر والحكم، أو على اليتيم والقاصر المدبر لشؤونه، ويوصف به العبد والرب تعالى كما تقدم في قوله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ [البقرة: ٢٥٧] وفصلنا الكلام في تفسيره بما بينا به ولاية الله العامة والخاصة لعباده، وولايتهم له، أو للشيطان والطاغوت، وولاية بعضهم لبعض، وضلال بعضهم بجعل ولاية الله الخاصة به لبعض عباده، وهم الذين يسمونهم أولياء الله بما يسلبهم استحقاق هذا اللقب، وذكرنا في شواهد ذلك التفسير هذه الآية.

أولياء الله أضداد أعدائه المشركين به، الكافرين بنعمه، فهم المؤمنون المتقون كما نطقت به الآية، وهم درجات أعلاهم درجة هم الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده، والتوكل عليه، وحبه والحب فيه، والولاية له، فلا يتخذون له أنداداً يحبونهم من نوع حبه، ولا يتخذون من دونه ولياً ولا شفعياً يقربهم إليه زلفى، ولا وكيلاً ولا نصيراً فيما يخرج عن توفيقهم لإقامة سننه في الأسباب والمسببات، ويتولون رسوله والمؤمنين بما أمرهم به، قال تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون﴾ [الأنعام: ٥١] وقال: ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾ [السجدة: ٤] وقال: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من الله ولياً ولا نصيراً﴾ [الأحزاب: ١٧] وقال في آيتين أخريين منها ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ [النساء: ٨١] والآيات كثيرة في توليهم له بالطاعة، وتوليه لهم بالهداية والعناية والإعانة والنصر والتوفيق.

وحسبنا هنا ما نفاه عنهم وما وصفهم به ثم ما زفه إليهم من البشارة فأما ما نفاه مخبرا به عنهم فقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهو ما نفاه عن جميع المؤمنين الصالحين والمصلحين والمتقين في الآيات الكثيرة (راجع ٢: ٦٢ و ٥: ٧٢ و ٦: ٤٨ و ٧: ٣٣ و ٤٩ وقد تقدم تفسيرها) فأما في الآخرة حيث يتحقق هذا على أتم وجه وهو المقصود بالذات فلا خوف يقع عليهم ويرهقون به مما يخاف الكفار والفساق والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الآخرة، كما قال تعالى بعد ذكر إبعادهم عن جهنم ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ [البقرة: ١٠٣] الآية، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم وأما في الدنيا فلا يخافون مما يخاف غيرهم من الكفار وضعفاء الإيمان وعبيد الدنيا من مكروه يتوقع كلقاء العدو قال: ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٧٥] أو بخس في الحقوق أو رهق يغشاهم بالظلم والذل، قال: ﴿فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ [الجن: ١٣] ولا هم يحزنون من مكروه أو ذهاب محبوب وقع بالفعل كما قال: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾ [الحديد: ٢٣] والمراد أنهم لا يخافون في الدنيا كخوف الكفار ولا يحزنون كحزنهم، وسنذكر نفي الخوف والحزن عنهم عند الموت. وأما أصل الخوف والحزن فهو من الأعراض البشرية التي لا يسلم منها أحد في الدنيا، وإنما يكون المؤمنون الصالحون أصبر الناس وأرضاهم بسنن الله اعتقاداً و علماً بأنه إذا ابتلاهم بشيء مما يخيف أو يحزن فإنما يربيهم بذلك لتكميل نفوسهم وتمحيصها بالجهاد في سبيله الذي يزداد به أجرهم كما صرحت بذلك الآيات الكثيرة.

وأما ما وصفهم وعرفهم به فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فهذا استئناف لبيان حال هؤلاء الأولياء النفسية والعملية، أي هم الذين جمعوا بين الإيمان

الصحيح بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وملكة التقوى له عز وجل، وما تقتضيه من عمل، وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضي لبيان أنه كان كاملاً باليقين، لم يزلزله شك ولم يحصل بالتدريج، وعن تقواهم بالفعل الذي يدل على الحال والاستقبال لأن التقوى تتجدد دائماً بحسب متعلقاتها: من كسب وحرب، وشهوة وغضب، والمعنى الجامع فيها أنها اتقاء كل ما لا يرضي الله تعالى من ترك واجب ومندوب، وفعل محرم ومكروه، واتقاء مخالفة سنن الله تعالى في خلقه من أسباب الصحة والقوة والنصر والعزة وسيادة الأمة. وقد فصلنا هذا في مواضع من أهمها تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾ [الأنفال: ٢٩].

وأما البشرى التي زفها إليهم فهي قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ البشرى الخبر السار الذي تنبسط به بشرة الوجه فيتهلل وتبرق أساريره. وهذه البشرى مبينة في مواضع من كتاب الله تعالى، وقد يراد متعلقها الذي يبشرون به ولم يذكر هنا ليشمل كل ما بشروا به في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله ﷺ، فأما البشرى في الحياة الدنيا فأهمها البشارة بالنصر، وبحسن العاقبة في كل أمر، وباستخلافهم في الأرض، ما أقاموا شرع الله وسننه، ونصروا دينه وأعلوا كلمته، وأما في الآخرة فمن أكملها وأجمعها لمعاني الآية لأكملهم قوله: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

المشهور في تنزل الملائكة عليهم أنه يكون عند البعث، وكذا عند الموت، ولا مانع من شموله لما في الدنيا من تثبيت قلوبهم، وتقوية إلهام الحق والخير فيهم، كما قال تعالى في الملائكة الذين أمد بهم أصحاب رسوله ﷺ في غزوة بدر ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم﴾ [الأنفال: ١٠] الآية ثم قال: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ [الأنفال: ١٢] وقد يكون منه إلهام الحق والخير كما ورد في حديث ابن مسعود مرفوعاً عند الترمذي والنسائي «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان»[1].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تغيير ولا خلف في مواعيد الله عز وجل، ومنها

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٢، باب ٣٥.

هذه البشارات وما في معناها من الآيات ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الذي ذكر من البشرى بسعادة الدارين هو الفوز العظيم الذي لا يعلوه فوز، وإنما هو ثمرة الإيمان الحق، والتقوى العامة في حقوق الله وحقوق الخلق.

ما ورد من الأخبار والآثار في الأولياء.

ذكر بعض المفسرين في تفسير الآية بعض الأخبار النبوية ولا يصح منها حديث مرفوع متصل الإسناد، وأقرب ما رووه في تفسيرها إلى اصطلاحهم في الأولياء حديث أبي هريرة المرفوع «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء» قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أخرجه ابن جرير من طريق شيخه أبي هشام الرفاعي وهو محمد بن يزيد بن كثير العجلي الكوفي، قال البخاري رأيتهم مجمعين على ضعفه. ورواه أبو داود من حديث عمر بن الخطاب بمثل سند ابن جرير عن أبي زرعة بن عمرو ابن جرير عنه إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمرو وقال بعضهم وأخرجه الحاكم وصححه ولم أره في تفسير السورة من المستدرك وما كل ما صححه الحاكم بصحيح. ومتن هذا الحديث مشكل لأنه يدل على تفضيل الأولياء على الأنبياء وهو مخالف لإجماع علماء المسلمين، موافق لقول بعض أولياء الشياطين: إن الولي أفضل من النبي، من حيث إن ولاية النبي أفضل من نبوته، وهو تأويل شيطاني.

ومثله حديث أبي مالك الأشعري مرفوعاً «يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله، وتصافوا في الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، يفزع الناس ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[1] والحديث مطول أخرجه الإمام أحمد من طريق شهر بن حوشب وفيه مقال لهم أهونه ما اكتفى به الحافظ في التقريب وهو أنه صدوق كثير الإرسال والأوهام، وذكر في تهذيب التهذيب: أن مما قيل فيه أنه يروي المنكرات عن الثقات، وقال ابن حزم هو ساقط، وقال ابن عدي ضعيف جداً.

وورد عدة روايات مرفوعة وآثار في تفسير البشرى في الدنيا بالرؤيا الصالحة يراها المسلم أو المؤمن أو ترى له وعليه ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس من الصحابة، ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح من التابعين وغيرهم، وفسرها بعضهم بآية حم السجدة التي أوردناها آنفاً مع تفسيرها. وروي عن ابن عباس وغيره أن الأولياء هم الذين إذا رؤوا ذكر الله لرؤيتهم

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٣٤٣.

ورواه بعضهم مرفوعاً وهو ضعيف، وروي عن أبي حنيفة والشافعي أنهما قالا: إذا لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله تعالى ولي. قال النووي والمراد بهم العلماء العاملون. فهذه خلاصة الروايات في الآية.

وإننا لم نر في الأحاديث الصحيحة في الأولياء ما هو أقرب إلى كلام الصوفية منه إلى كلام الله عز وجل إلا حديث «من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب»[1] الخ وقد انفرد به البخاري وفي سنده غرابة كمتنه. قال الحافظ ابن رجب: هذا الحديث تفرد بإخراجه البخاري دون بقية أصحاب الكتب، خرجه عن محمد بن عثمان بن كرامة عن خالد بن مخلد ـ إلى أن قال ـ وهو من غرائب الصحيح تفرد به ابن كرامة عن خالد وليس في مسند أحمد مع أن خالد بن مخلد القطواني تكلم فيه الإمام أحمد وغيره وقالوا له مناكير ثم قال: وقد روي من وجوه أخر لا تخلو كلها من مقال. وذكر الحافظ في تهذيب التهذيب اختلاف أئمة الجرح والتعديل في خالد، ومنه تصريح جماعة بروايته للمناكير ومنه: في الميزان للذهبي قال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال الأزدي في حديثه بعض المناكير وهم عندنا في عداد أهل الصدق، ومنه قول ابن سعد كان منكر الحديث متشيعاً مفرطاً في التشيع وكتبوا عنه للضرورة. وذكر بعض هذا الجرح وغيره في مقدمة فتح الباري وأجاب عنه بما حاصله أن التشيع لا يضر مثله، وأما المناكير فقد تتبعها أبو أحمد بن عدي من حديثه وأوردها في كامله وليس فيها شيء مما أخرجه له البخاري قال: بل لم أر له عنده من أفراده سوى حديث واحد وهو حديث أبي هريرة «من عادى لي ولياً» الحديث اهـ.

أقول: وأما الغرابة في متن هذا الحديث فهو قوله تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به»[2] الخ الذي استدلوا به على الحلول والاتحاد، وقد أوله العلماء وبينت أمثل تأويل له عندي في الكلام على حب الله تعالى من تفسير (٩: ٢٤ ج ١٠ تفسير) فراجعه يغنك عن ذكره كله هنا.

أولياء الخيال وأولياء الطاغوت والشيطان

ذلك ما فسرنا به الآيتين بشواهد مما في معناهما من الآيات، والقرآن خير ما يفسر به القرآن وأصحه، وكل ما خالفه وخرج عنه فهو باطل، وعززناه بأمثل ما روي من الأخبار والآثار فيهما، فأولياء الله الذين يشهد لهم كتابه بالولاية له هم المؤمنون الصالحون المتقون، ولكن اشتهر بين المسلمين بعد عصر السلف ما يدل على أن

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨، وأحمد في المسند ٦/٢٥٦.

الأولياء عالم خيالي غير معقول، لهم من الخصائص في عالم الغيب، والتصرف في ملكوت السموات والأرض، فوق كل ما ورد في كتاب الله وأخبار رسوله الصادقة في أنبياء الله المرسلين، بل فوق كل ما وصف به جميع الوثنيين آلهتهم وأربابهم التي اتخذوها من دون الله، وينقلون مثل هذه الدعاوى عن بعض من اشتهروا بالولاية ممن لهم ذكر في التاريخ، ومن لا ذكر لهم إلا في كتب الأدعياء الذين فتنوا المسلمين والمسلمات بهم، ممن يسمون بالمتصوفة وأهل الطريق، ينقلون عنهم ما يؤيدون به مزاعمهم الخرافية الشركية كما ترى فيما ننقله من الشواهد الآتية.

ولئن أنكر عليهم منكر، واحتج عليهم بكتاب ربهم وحديث نبيهم مفسر أو محدث، ليقولون هذا ضال مضل منكر للكرامات، مخالف للقرآن، وقرأوا عليه ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وهل هذه الآية إلا كقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [البقرة: ٦٢] وغيره مما أوردنا من الشواهد آنفاً، نعم إن هؤلاء المؤمنين الصالحين درجات أشرنا آنفاً إلى أدناها وأعلاها، وفصلنا القول فيهم في الكلام على حب الله ورسوله من تفسير (١٠: ٢٤).

هذه الولاية الخيالية المبتدعة من محدثات الصوفية ألبسوها أولاً ثوب الشريعة، وجعلوا للشريعة مقابلاً سموه الحقيقة، ثم صاروا يلبسونها عليها لبساً، ويبعدون بها عنها معنى وحساً، بقدر ما يبعدون عن الاتباع، ويوغلون في الابتداع، واعتبر في ذلك بسيرة سلفهم الأولين كالحارث المحاسبي والسري السقطي ومنصور بن عمار والجنيد والشبلي وجمهور رجال رسالة القشيري، ومثل أبي إسماعيل الهروي وسيرة من بعدهم، فإن أكثر أولئك قد رووا الحديث وتفقهو في الدين، وكانوا يتحرون الاعتصام بالكتاب والسنة، ويحذرون ويحذرون أتباعهم من البدع، ويحثون على اتباع السلف، من الصحابة والتابعين وأئمة آل البيت وحفاظ السنة وعلماء الأمصار كالأربعة وطبقتهم، ولولا هذا لكان بينهم وبين غلاة متصوفة القرون الوسطى ومن بعدهم من المبتدعة والدجالين أصحاب الدعاوى العريضة والخرافات الشنيعة مثل ما بين صوفية البرهمية والإسلام، وكتابهم (الفيدا) وكتابه القرآن.

أمرر ببصرك على طبقات الشعراني الكبرى فإنك لا ترى فيها فرقاً كبيراً بين سيرة أئمة الحديث والفقه وأئمة التصوف في العبادة والتقوى والعلم والحكمة، ثم انظر في سيرة من بعدهم من صوفية القرون الوسطى ثم قرن المؤلف وهو العاشر وتأمل ووازن ترى في أولياء الشعراني المجانين والمجان والقذرين الذين تتناثر الحشرات من رؤوسهم ولحاهم وثيابهم التي لا يغسلونها حتى تبلى أو في السنة مرة

واحدة، تجد ذلك البون الشاسع فيهم، وهم مع ذلك يفضلون أنفسهم على الأنبياء، ومنهم من يدعي الاتحاد بالله أو الألوهية.

تأمل ما كتبه في ترجمة الذين يسمونهم الأقطاب الأربعة فإنك لا تجد فيه لأحد منهم أنه كان ينفع الناس بعلوم الشرع إلا الشيخ عبد القادر الجيلاني، وتجد أن الشيخ أحمد الرفاعي كان يوبخه علماء عصره ويخاطبونه بلقب الدجال ويرمونه بالجمع بين النساء والرجال، وأما الدسوقي فكتب عنه أنه كان يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنجي وسائر لغات الطيور والوحوش، ونقل عنه كتاباً من هذه اللغات أرسله إلى أحد مريديه، وهو خلط مخترع ليس منها في شيء، وسلاماً مثله أرسله مع أحد الحجاج إلى رسول الله ﷺ منه قوله: «موز الرموز، عموز التهوز، سلاحات أفق، فردنانية أمق، شوامق اليرامق، حيد وفرقيد، وفرغاط الأسباط» الخ فما معنى هذا وأي فائدة للناس فيه؟

ونقل عنه كلاماً من المعهود من أمثاله الصوفية منه النافع والضار، فمن الحق النافع ما معناه أنه لو لم تغلب عليهم الأحوال لما قالوا في التفسير إلا صحيح المأثور، ومن الضار الذي أفسد على المصدقين بولاية هؤلاء الناس دينهم وهو مما نحن فيه قوله: وكان (رض) يقول: أنا موسى عليه السلام في مناجاته، أنا علي (رض) في حملاته، أنا كل ولي في الأرض خلقته بيدي، ألبس منهم من شئت، أنا في السماء شاهدت ربي وعلى الكرسي خاطبته، أنا بيدي أبواب النار غلقتها، وبيدي جنة الفردوس فتحتها، من زارني أسكنته جنة الفردوس» الخ وقوله وهو في تفسير الآية: «واعلم يا ولدي أن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون متصلون بالله، وما كان ولي متصل بالله إلا وهو يناجي ربه كما كان موسى عليه السلام يناجي ربه، وما من ولي إلا وهو يحمل على الكفار كما كان علي (رض) يحمل، وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخاً في الأزل، بين يدي قديم الأزل، وبين يدي رسول الله ﷺ وأن الله عز وجل خلقني من نور رسول الله وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء بيدي فخلعت عليهم بيدي، وقال لي رسول الله ﷺ يا إبراهيم أنت نقيب عليهم، فكنت أنا ورسول الله ﷺ وأخي عبد القادر خلفي وابن الرفاعي خلف عبد القادر، ثم التفت إلي رسول الله ﷺ وقال لي «يا إبراهيم سر إلى مالك وقل له يغلق النيران، وسر إلى رضوان وقل له يفتح الجنان، ففعل مالك ما أمر به، ورضوان ما أمر به» الخ وله ما هو أغرب منه.

وذكر الشعراني أنه أطال في هذا الكلام وهو من مقام الاستطالة تعطي الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق به، وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبد القادر الجيلي (رض) وغيره فلا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح اهـ.

ونقول إن مثبت هذه الدعاوى المنكرة في عالم الغيب من شؤون رب العالمين وملائكته وأكرم رسله وجنته وناره هو الذي يحتاج في إثباته إلى النص الصريح دون منكره فإنه يتبع الأصل، والإجماع على أن شيئاً من ذلك لا يثبت إلا بنص قطعي، وسنذكر ما انتهت إليه هذه الدعاوى في إفساد الدين، وإضلال الملايين من المسلمين.

جاء في كتب الرفاعية إن الشيخ أحمد الرفاعي مس بيده سمكة فأرادوا شيها بالنار فلم تؤثر فيها النار فذكروا له ذلك فقال: وعدني العزيز أن كل ما لمسته يد هذا اللاش حميد لا تحرقه النار في الدنيا ولا في الآخرة، وجاء فيها: إن سيدي أحمد الرفاعي كان يميت ويحيي، ويسعد ويشقي، ويفقر ويغني، وأنه وصل إلى مقام صارت السموات السبع في رجله كالخلخال. وفي البهجة الرفاعية أن سيدهم أحمد الرفاعي باع بستاناً في الجنة لبعض الناس وذكر له حدوداً أربعة. وقد نقلت هذا وما قبله في كتابي (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية).

وجاء في بعض كتب مناقب الشيخ عبد القادر الجيلي أنه مات بعض مريديه فشكت إليه أمه وبكت فرق لها فطار وراء ملك الموت في السماء وهو صاعد إلى السماء يحمل في زنبيل ما قبض من الأرواح في ذلك اليوم فطلب منه أن يعطيه روح مريده أو أن يردها إليه فامتنع، فجذب الزنبيل منه فأفلت فسقط جميع ما كان فيه من الأرواح فذهبت كل روح إلى جسدها، فصعد ملك الموت إلى ربه وشكا له ما فعله عبد القادر فأجاب الرب سبحانه بما امتنعنا من نقله إذ نقلنا هذه الخرافة في الجزء الأول منه المجلد التاسع من المنار تنزيهاً وأدباً مع ربنا عز وجل.

ونقلنا ثم أن خطيباً خطب المسلمين في الهند ذاكراً مناقب الشيخ عبد القادر فقال: أن حدأة خطفت قطعة لحم مما ذبح للشيخ عبد القادر في مولده ـ كما كانوا يذبحون للأصنام ـ فوقعت عظمتها في مقبرة فغفر الله تعالى لجميع من دفن فيها كرامة للشيخ عبد القادر، ويا ويل من ينكر أمثال هذه الخرافات فيستهدف لرميه بمخالفة قوله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وإنكار الكرامات وقول اللقاني:

وأثبتن للأوليا الكرامه ... ومن نفاها فانبذن كلامه

ومن هذه الكرامات بزعمهم ادعاء الوحي ولا ينافيها عندهم معارضة القرآن، وعبادة الشيطان، وعلم الغيب، وملك النفع والضر، وتدبير الأمر، وترك الفرائض وارتكاب الفواحش لأنها لا تكون من أوليائهم إلا صورية لمصلحة، وكذا الكفر الصريح كما ترى في الشواهد الآتية:

الشاهد الأول: كرامات ولي شيطاني موحد ألوهية إبليس

قال الشعراني في ترجمة الشيخ محمد الحضري «كان من أصحاب جدي رضي الله عنهما» وكان يتكلم بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف ما دام صاحياً، فإذا قوي عليه الحال تكلم بألفاظ لا يطيق أحد سماعها في حق الأنبياء وغيرهم، وكان يرى في كذا كذا بلداً في وقت واحد وأخبرني الشيخ أبو الفضل السرسي أنه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة فقال بسم الله فطلع المنبر فحمد الله وأثنى عليه ومجده ثم قال: وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام. فقال الناس كفر، فسل السيف ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع فجلس عند المنبر إلى أذان العصر، وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة فأخبر أهل كل بلد أنه خطب عندهم وصلى بهم، قال فعددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة هذا ونحن نراه جالساً عندنا في بلدنا.

وأخبرني الشيخ أحمد القلعي أن السلطان قايتباي كان إذا رآه قاصداً له تحول ودخل البيت خوفاً أن يبطش به بحضرة الناس. وكان إذا أمسك أحداً يمسكه من لحيته ويصير يبصق على وجهه ويسفعه حتى يبدو له إطلاقه، وكان لا يستطيع أكبر الناس أن يذهب حتى يفرغ من ضربه، وكان يقول لا يكمل الرجل حتى يكون مقامه تحت العرش على الدوام، وكان يقول: الأرض بين يدي كالإناء الذي آكل منه، وأجساد الخلائق كالقوارير أرى ما في بواطنهم. توفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين وثمانمائة (رض) اهـ ص ٩٤ ج ٢ طبقات.

أقول: لولا أن سلطان هؤلاء القوم مجنون بالخرافات مثلهم لما كان لمثل هذا المجنون مأوى إلا البيمارستان يكف كفره وشره عنهم.

الشاهد الثاني: كرامة ولي العاهرات والزناة الفاعل بالأتان

قال في ترجمة من سماه (سيدي علي وحيش من مجاذيب النجارية) «كان (رض) من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال، وكان يأتي مصر والمحلة وغيرهما من البلاد وله كرامات وخوارق، واجتمعت به يوماً في خط بين القصرين فقال لي: ودّيني للزلباني فوديته له فدعا لي وقال الله يصبرك على ما بين يديك من البلوى. وأخبرني الشيخ محمد الطنيخي رحمه الله تعالى قال: كان الشيخ وحيش (رض) يقيم عندنا في المحلة في خان بنات الخطأ (أي العاهرات) وكان كل من خرج يقول له قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج، فيشفع فيه، وكان يحبس بعضهم اليوم واليومين لا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعته، وقال يوماً لبنات الخطأ اخرجوا (؟) فإن الخان رائح يطبق عليكم، فما سمع منهن إلا واحدة فخرجت ووقع على الباقي فمتن

كلهن، وكان إذا رأى شيخ بلد أو غيره ينزله من على الحمارة ويقول له أمسك رأسها حتى أفعل فيها، فإن أبى شيخ البلد تسمر في الأرض لا يستطيع يمشي خطوة، وإن سمع حصل له خجل عظيم والناس يمرون عليه، وكان له أحوال غريبة وقد أخبرت عنه سيدي محمد بن عنان (رض) فقال هؤلاء يخيلون للناس هذه الأفعال وليس لها حقيقة» اهـ (ص ١٢٩ منه) وولاية هذا المجنون أنه قواد للعاهرات بضمانه المغفرة لمن يفجر بهن بشفاعته، وأضل منه علماء الخرفات المدعون لكرامته.

الشاهد الثالث: ولاية مجنون معارض للقرآن بالكفر والهذيان

قال في ترجمة الشيخ شعبان المجذوب إنه كان من أهل التصريف بمصر المحروسة ونقل عن شيخه علي الخواص أن الله تعالى كان يطلعه على جميع ما يقع في السنة عند رؤية هلالها، وأنه كان يسأله عما يشكل عليه (ثم قال) وكان يقرأ سوراً غير السور التي في القرآن على كراسي المساجد يوم الجمعة وغيرها فلا ينكر عليه أحد، وكان العامي يظن أنها من القرآن لشبهها بالآيات في الفواصل.

«وقد سمعته مرة يقرأ على باب دار على طريقة الفقهاء الذين يقرؤون في البيوت فصغيت إلى ما يقول فسمعته يقول: وما أنتم في تصديق هود بصادقين، ولقد أرسل الله لنا قوماً بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا وما لنا من ناصرين. ثم قال: اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان ـ إلى آخر ما قال».

ثم ذكر أنه كان عرياناً دائماً إلا أنه يستر سوأتيه بقطعة جلد أو بساط أو حصير لأنه كان يحرم كل ما عدا ذلك من زينة الدنيا قال: «وكانت الخلائق تعتقده اعتقاداً زائداً لم أسمع قط أن أحداً ينكر عليه شيئاً من حاله، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم تحنيناً عليه من الله تعالى (رض) مات (رض) سنة نيف وتسعمائة» اهـ ص ١٦٠ منه.

أقول: إذا كان الشعراني من أكبر علماء الأزهر ومؤلفيه يعد هذا المجنون من أولياء الله ويترضى عنه كلما ذكره وإن تكرر ذكره في سطر واحد، وكان شيخه علي الخواص يتلقى عنه حل مشكلات المعارف الإلهية ويعتمد على كشفه، فهل نكون مخطئين إذا قلنا إن جميع من شهد لهم بالولاية والكرامة كانوا خرافيين مجانين مثله، وأي قيمة كانت في عصره للعقل والعلم والدين، وهل يوجد دليل على أن ذلك الجنون كان تخبطاً شيطانياً لا جذباً إلهياً أقوى من معارضة صاحبه للقرآن بمثل ما نقله الشعراني مما سمعه ورآه منه ورواه عنه من الهذيان؟.

شواهد أخرى عن المعروف بالتجاني تابعة لما قبلها

كان من فساد هذا التصوف الذي بثه الشعراني وأمثاله في المسلمين أن وجد في

المغرب الأقصى في القرن الثالث عشر للهجرة شيخ اسمه الشيخ أبو العباس أحمد التجاني صار له طريقة من أشهر الطرق امتدت من المغرب الأقصى إلى السودان الفرنسي والجزائر فتونس فمصر، وصار لها مئات الألوف من الأتباع لما فيها من الغلو في الدعاوى والخرافات والابتداع، وتفضيل شيخها نفسه على جميع من سبقه من أقطاب الأولياء وكذا الأنبياء بأمور منها ضمان النبي ﷺ له ولأصوله وفروعه وأتباعه ولكل من يكرمه ويحسن إليه ولو بالطعام أعلى منازل الجنة مع رسول الله ﷺ بغير حساب ولا عقاب لأن جميع معاصيهم وتبعاتهم تغفر لهم لأجله الخ كأن الغرض من طريقته أكل أموال الناس وطعامهم والجاه عندهم خلافاً لجميع صوفية العالم، وقد ألف أحد أتباعه كتاباً كبيراً في مناقبه وكراماته وأوراده تلقاها من لسانه وقلمه، هدم بها هدى كتاب الله وسنة رسوله مدعياً أنه تلقاها منه ﷺ وسماه (جواهر المعاني) وهاك بعض الشواهد منه.

الشاهد الرابع: ضمان دخول الجنة لكل من له علاقة بالتجاني بلا حساب ولا عقاب

قال المؤلف في الفصل الثاني من الباب الأول.

قال (رض) أخبرني سيد الوجود يقظة لا مناماً قال لي أنت من الآمنين وكل من رآك من الآمنين إن مات على الإيمان، وكل من أحسن إليك بخدمة أو غيرها، وكل من أطعمك (!!) يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب.

ثم قال: فلما رأيت ما صدر لي منه ﷺ من المحبة وصرح لي بها تذكرت الأحباب ومن وصلني إحسانهم، ومن تعلق بي بخدمة، وأنا أسمع أكثرهم يقولون لي نحاسبك بين يدي الله إن دخلنا النار وأنت ترى، فأقول لهم لا أقدر على شيء، فلما رأيت منه ﷺ هذه المحبة سألته لكل من أحبني ولم يعادني بعدها، ولكل من أحسن إلي بشيء من مثقال ذرة فأكثر ولم يعادني (؟) بعدها، وآكد ذلك من أطعمني طعامه (!!) قال كلهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب.

قال وسألته ﷺ لكل من أخذ عني ذكراً أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر، وأن تؤدي عنهم تبعاتهم من خزائن فضل الله لا من حسناتهم، وأن يرفع الله عنهم محاسبته على كل شيء، وأن يكونوا آمنين من عذاب الله من الموت إلى دخول الجنة، وأن يدخلوا الجنة بلا حساب ولا عقاب في أول الزمرة الأولى، وأن يكونوا كلهم معي في عليين في جوار النبي ﷺ، فقال لي ﷺ ضمنت لهم هذا كله ضمانة لا تنقطع حتى تجاورني أنت وهم في عليين.

قال المؤلف: ثم اعلم أني بعد ما كتبت هذا من سماعه وإملائه علينا (رض) من حفظه ولفظه اطلعت على ما أرسمه من خطه، ونصه:

«أسأل من فضل سيدنا رسول الله ﷺ أن يضمن لي دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب أنا وكل أب وأم ولدني من أبوي إلى أول أب وأم لي في الإسلام من جهة أبي ومن جهة أمي، وجميع ما ولد آبائي وأمهاتي من أبوي إلى الجد الحادي عشر والجدة الحادية عشر (؟) من جهة أبي ومن جهة أمي من كل ما تناسل منهم (؟) من وقتهم إلى أن يموت سيدنا عيسى ابن مريم من جميع الذكور والإناث، والصغار والكبار، وكل من أحسن إلي بإحسان من مثقال ذرة فأكثر، من خروجي من بطن أمي إلى موتي، وكل من له علي مشيخة في علم أو ذكر أو سر من كل من لم يعادني من جميع هؤلاء. وأما من عاداني أو أبغضني فلا، وكل من أحبني ولم يعاديني (؟) وكل من والاني واتخذني شيخاً أو أخذ عني ذكراً، وكل من زارني وكل من خدمني أو قضى لي حاجة أو دعا لي، كل هؤلاء من خروجي من بطن أمي إلى موتي وآبائهم (؟) وأمهاتهم وأولادهم وبناتهم وأزواجهم ووالدي أزواجهم يضمن لي سيدنا رسول الله ولكل واحد من هؤلاء أن أموت أنا وكل حي منهم على الإيمان والإسلام، وأن يؤمننا الله وجميعهم من جميع عذابه وعقابه وتهويله وتخويفه ورعبه وجميع الشرور من الموت إلى المستقر في الجنة، وأن تغفر لي ولجميعهم جميع الذنوب ما تقدم منها وما تأخر وأن تؤدي عني وعنهم جميع تبعاتنا وتبعاتهم، وجميع مظالمنا ومظالمهم من خزائن فضل الله لا من حسناتنا، وأن يؤمنني الله وجميعهم من جميع محاسبته ومناقشته وسؤاله عن القليل والكثير يوم القيامة، وأن يظلني الله وجميعهم في ظل عرشه يوم القيامة، وأن يجيزني ربي أنا وكل واحد من المذكورين على الصراط أسرع من طرفة العين على كواهل الملائكة، وأن يسقيني الله وجميعهم من حوض سيدنا محمد يوم القيامة، وأن يدخلني ربي وجميعهم جنته بلا حساب ولا عقاب في أول الزمرة الأولى، وأن يجعلني ربي وجميعهم مستقرين في الجنة في عليين من جنة الفردوس ومن جنة عدن. اسأل سيدنا رسول الله بالله أن يضمن لي ولجميع الذين ذكرتهم في هذا الكتاب كل ما طلبته من الله لي ولهم في هذا الكتاب بكماله كله ضماناً يوصلني وجميع الذين ذكرتهم في هذا الكتاب إلى كل ما طلبته من الله لي ولهم [كذا بهذا التكرار] فأجاب رسول الله ﷺ بقوله الشريف: «كل ما في هذا الكتاب ضمنته لك ضمانة لا تتخلف عنك وعنهم أبداً إلى أن تكون أنت وجميع ما ذكرت في جواري في أعلى عليين، وضمنت لك جميع ما طلبت منا ضمانة لا يخلف عليك الوعد فيها والسلام» اهـ بحروفه ولحنه وتكراره من ص ٩١ و ٩٢ ج ١ ـ قال المؤلف.

ثم قال (رض): وكل هذا وقع يقظة لا مناماً. ثم قال: «وأنتم وجميع الأحباب لا تحتاجون إلى رؤيتي إنما يحتاج إلى رؤيتي من لم يكن حبيباً يعني تابعاً ولا آخذاً عني ذكراً ولا أكلت طعامه. وأما هؤلاء فقد ضمنهم لي بلا شرط رؤية مع زيادة أنهم معي في عليين» ولو روي هذا عنه في حياته لأجمع العلماء على أنه مفترى عليه ﷺ.

ثم قال التجاني: وأما من رآني فقط غايته يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب ولا مطمع له في عليين إلا أن يكون ممن ذكرتهم وهم أحبابنا ومن أحسن إلينا ومن أخذ عنا ذكراً فإنه يستقر في عليين معنا وقد ضمن لنا هذا بوعد صادق لا خلف فيه إلا أني استثنيت من عاداني بعد المحبة والإحسان فلا مطمع له في ذلك، فإن كنتم متمسكين بمحبتنا فأبشروا بما أخبرتكم به فإنه واقع لجميع الأحباب قطعاً اهـ.

وههنا ذكر مؤلف الكتاب أن هذه الكرامة العظيمة المقدار وهي دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب لمن ذكرهم لم تقع لأحد من الأولياء قبله الخ. ونزيد عليه أن النبي ﷺ لم يضمن مثل هذا في حياته لأحد من أهل بيته ولا خواص أصحابه من المهاجرين والأنصار (رض) حتى العدد القليل الذي بشرهم بالجنة كالعشرة لم يضمن لهم ما زعم التجاني أنه ضمنه لمن لا يحصى عدداً من أصوله وفروعه وأتباعه، ولا يوجد في شريعته ما يدل على أن الله تعالى أذن له بمثل هذا، بل قاعدة دينه وشريعته أن الغرم بالغنم، فمن تضاعف حسناتهم تضاعف سيئاتهم كما صرح به الكتاب العزيز في خطاب نسائه ﷺ من سورة الأحزاب.

وصح عنه ﷺ أنه لما نزل عليه ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤] جمعهم وكان مما قاله لهم: «اعملوا، لا أغني عنكم من الله شيئاً» قال هذا لعمه وعمته (رض) ولبنته السيدة فاطمة سيدة النساء عليها السلام فكلام التجاني صريح في أن جميع أتباعه وأقاربه ومحبيه والمحسنين إليه يكونون في عليين فوق أتباع جميع الأنبياء ومحبيهم وإلا لما بقي للجنات السبع أحد يسكنهن وهو افتراء لم يتجرأ عليه أحد من المجازفين قبله.

الشاهد الخامس: عنه تفضيل أوراده المبتدعة على جميع العبادات المأثورة

ذكر مؤلف هذا الكتاب صلاة عليه ﷺ يسمونها صلاة الفاتح وغلا فيما زعمه من أمر النبي ﷺ له يقظة بها والغلو في صوابها وهذا نصها:

«اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، صلى الله عليه وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم» ذكر أن شيخه التجاني كان يقرؤها ثم تركها لصلاة أخرى المرة الواحدة منها

بسبعين ألف ختمة من دلائل الخيرات فأمره النبي ﷺ بالرجوع إليها وقال في ص ٩٦ من الجزء الأول ما نصه.

فلما أمرني عليه السلام بقراءتها سألته عن فضلها فأخبرني أولاً بأن المرة الواحدة تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانياً أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون ومن كل ذكر ومن كل دعاء صغير أو كبير ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الأذكار.

قال: ومن جملة الأدعياء (كذا) دعاء السيفي، ففي المرة الواحدة منه ثواب صوم رمضان وقيام ليلة القدر وعبادة سنة كما أخبرني به سيدنا عن سيد الوجود.

وأعظم من دعاء السيفي دعاء: يا من أظهر الجميل الخ وأنه هدية من جبريل للنبي ﷺ وأخبره أنه لو اجتمعت ملائكة سبع سموات على أن يصفوه لما وصفوه إلى يوم القيامة. وكل واحد يصف ما لا يصفه الآخر فلا يقدرون عليه. ومن جملة ذلك أن الله يقول فيه «أعطيه من الثواب بقدر ما خلقت في سبع سموات وفي الجنة والنار، وفي العرش والكرسي وعدد القطر والمطر والبحار، وعدد الحصى والرمل» ومن جملتها أيضاً أن الله يعطيه ثواب جميع الخلائق، ومن جملتها أن الله يعطيه ثواب سبعين نبياً كلهم بلغوا الرسالة إلى غير ذلك **قال**: وهذا حديث صحيح ثابت في صحيفة عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ وصححه الحاكم الخ.

وصرح المؤلف بأن هذا الكذب أملاه شيخه التجاني. ثم قال عن شيخه: وأما صلاة الفاتح لما أغلق فأني سألته (ص) عنها فأخبرني أولاً أنها بستمائة ألف صلاة فقلت له هل في جميع تلك الصلوات أجر من صلى بصلاة مفردة فقال ﷺ ما معناه نعم يحصل في كل مرة منها أجر من صلى بستمائة ألف صلاة منفردة وسألته هل يقوم منها طائر الذي له سبعون ألف جناح الخ الحديث أم يقوم منها في كل مرة ستمائة ألف طائر على تلك الصفة وثواب تسبيحهم لقارئها؟ فقال بل يقوم منها في كل مرة ستمائة ألف طائر على تلك الصفة في كل مرة.

وقال في ص ٩٧ فسألته ﷺ عن حديث إن الصلاة عليه تعدل أربعمائة غزوة كل غزة تعدل أربعمائة حجة صحيح أم لا؟ فقال ﷺ بل صحيح فسألته ﷺ عن عدد هذه الغزوات هل يقوم من صلاة الفاتح لما أغلق الخ مرة أربعمائة غزوة أم يقوم ربعمائة غزوة صلاة من الستمائة ألف صلاة وكل صلاة على انفرادها أربعمائة غزوة؟ فقال ﷺ ما معناه إن صلاة الفاتح لما أغلق بستمائة ألف صلاة وفك صلاة من الستمائة ألف بأربعمائة غزوة ثم قال بعده ﷺ إن من صلى بها أي بالفاتح لما أغلق الخ مرة حصل له ثواب ما إذا صلى بكل صلاة وقعت في العالم كالجن وأنس وملك ستمائة ألف

صلاة من أول العالم إلى وقت تلفظ الذاكر بها أي كله صلى بكل صلاة ستمائة ألف صلاة من جميع صلاة المصلين عموماً: ملكاً وجناً وإنساً وكل صلاة من ذلك بأربعمائة غزوة وكل صلاة من ذلك بزوجة من الحور ومحو عشر سيئات وثبوت عشر حسنات ورفع عشر درجات، وإن الله وملائكته يصلون على صاحبها عشر مرات (قال الشيخ «رض») فإذا تأملت هذا بقلبك علمت أن هذه الصلاة لا تقوم لها عبادة في مرة واحدة فكيف من صلى بها مرات ماذا لها من الفضل عند الله وهذا حاصل في كل مرة منها اهـ.

ثم إنه ذكر ما هو فوق ذلك من المبالغات الجنونية التي لا يعقلها دماغه، وصرح بأنه لا مدخل فيها للعقول، ومنها ما عده من ثواب ملايين الأمم والملائكة، ولم يفضل عليها إلا الدعاء بالاسم الأعظم وهو هذا بزعمهم (أهم سقك حلع يص).

قال المؤلف في ص ١٠٢ ما نصه: (فائدة) قال الشيخ (رض) عدد ألسنة الطائر الذي يخلقه الله من الصلاة على النبي ﷺ الذي له سبعون ألف جناح الخ الحديث ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف إلى أن تعد ثمانية مراتب وستمائة وثمانون ألف ألف ألف ألف ألف ألف إلى أن تعد سبع مراتب وسبعمائة ألف ألف ألف ألف ألف إلى أن تعد خمس مراتب فهذا مجموع عدد ألسنته وكل لسان يسبح الله تعالى بسبعين ألف لغة في كل لحظة وكل ثوابها للمصلي على النبي ﷺ في كل مرة، هذا في غير الياقوتة الفريدة وهي الفاتح لما أغلق الخ وأما فيها فإنه يخلق في كل مرة ستمائة ألف طائر على الصفة المذكورة كما تقدم. فسبحان المتفضل على من يشاء من عباده من غير منة ولا علة اهـ من خط سيدنا وحبيبنا وخازن سر سيدنا أبي عبد الله سيدي محمد بن المشري حفظه الله. اهـ.

الشاهد السادس عن التجاني: دعواه موت من يكرهه كافراً

وفي هذا الكتاب من العقائد الزائغة المخالفة لعقائد جميع السلف وحفاظ السنن وأئمة الفقه والمفسرين وعلماء الكلام ما نعهد مثله عن الباطنية وأهل الوحدة والاتحاد وسائر غلاة الصوفية، ولعلم التجاني وأمثاله أن كل من له إلمام بالضروريات من عقائد الإسلام ينكر عليهم جعلوا من أصول طريقته التسليم لهم ظاهراً وباطناً.

وقد بالغ التجاني فيما يلقنه لأتباعه من النهي عن الاعتراض والإنكار عليه حتى زعم أن من أنكر عليه وكره عمله أو طعن فيه أو أبغضه يموت كافراً قطعاً، وهذه الدعوى باطلة كدعوى دخول أتباعه وأصوله وفروعه الجنة قطعاً، لأن كلا منهما من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى. وقد اتفق العلماء على عدم جواز القطع لشخص معين بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا بنص من الشارع. وإنما القطعي

أن من مات على الإيمان الصحيح فهو من أهل الجنة، ومن مات على الشرك والكفر فهو من أهل النار، وأن الخواتيم لا يعلمها إلا الله تعالى.

ولولا أن له أتباعاً في مصر وبلاد المغرب لما سودنا صحائف هذا التفسير بذكر خرفاته وضلالاته، وقد استفتاني بعض المنكرين لدعواهم تلقي شيخهم لأوراده عن النبي ﷺ في اليقظة وحضوره ﷺ لمجالس حضرتهم عن دعوى رؤية النبي ﷺ في اليقظة والتلقي عنه فأفتيت في المنار ببطلانها فلجأ بعضهم إلى مجلة مشيخة الأزهر (نور الإسلام) فاستفتوها في ذلك فأفتاهم مفتيها الدجوي الدجال بما يتخذونه حجة على كل ما افتراه على النبي ﷺ محتجاً بأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام وأنهم أحياء في قبورهم يردون السلام على من سلم عليهم، والحق أن كل ما ورد في حياة الشهداء والأنبياء بعد الموت فهو من أخبار الغيب التي لا يقاس عليها ولا يتعدى فيها ما صح منها عن المعصوم بإجماع علماء المسلمين.

هذا وإني لا أجهل أن للتجانية في المغرب والسودان الفرنسي، حسنات في مقاومة التنصير والاستعمار المعادي للإسلام كالقادرية والسنوسية، ولكن كتابهم جواهر المعاني قد فضحهم فضائح لا يقبلها مسلم يعرف ضروريات الإسلام، وستعلم قيمة حسناتهم وغيرها مما سننقله في كرامات أمثالهم عن شيخ الإسلام.

تقليد الباب والبهاء
والقادياني لغلاة الصوفية في دعوى الوحي والنبوة والألوهية

قد جرأ هؤلاء الغلاة من الصوفية إخوانهم في الابتداع على دعوى الوحي والتلقي عن الله تعالى كالأنبياء حتى ادعى بعضهم النبوة نفسها، بل ادعى بعضهم الألوهية، وإنك لتجد من كلام الباب مؤسس فرقة البابية، والبهاء مؤسس ديانة البهائية على أنقاض البابية، وغلام أحمد القادياني مسيح الهند الدجال ـ أنهم كلهم قد ادعوا الوحي من الله لهم، وتجد كلامهم في الغلو في أنفسهم ممزوجاً باصطلاحات الصوفية، فلم يفسد الإسلام على أهله بدعة ولا فلسفة ولا رواية ولا رأي، كما أفسد أدعياء الولاية والكشف، فإن أصل هذا الدين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بإجماع أهله وببداهة العقل أيضاً، فأما البابية فقد انحصروا في البهائية، وهؤلاء كان لهم رجل من أكبر الدهاة يسوسهم فمات فانحط شأنهم، ووقع الشقاق بينهم على الزعامة، وظهر للمسلمين تلبيسهم الباطني فقلما ينخدع بدعوتهم أحد بعده، وزعيمهم الوارث له قد تربى تربية انكليزية مفضوحة، فهو عاجز عن تأويلات عباس أفندي الصوفية الفلسفية الباطنية.

وأما القاديانية فقد نشطوا للدعاية وهم يؤملون أن يوجدوا في بقية المسلمين ما

أوجدت المسيحية في اليهود، أعني إحداث ملة جديدة تسمى المسيحية الأحمدية، وسيفتضحون، لأن زعيمهم ومسيحهم رجل مجنون، والعصر يطلب تجديداً للإسلام لا تقديس فيه إلا لله، وجميع كتب مسيحهم غلام أحمد تدور على تقديس نفسه كالبهاء، ولكنه لم يخلفه رجل داهية كعباس عبد البهاء، يخفي كتبه عن العقلاء، ويتصرف في التأويل لدعوته بمثل ذلك الدهاء، وكيف يتسنى لهم إخفاء كتبه، وقد طبعها ونشرها في عصره، وفيها أقوى الحجج على ضلاله وإضلاله، وخزيه ونكاله؟

وجملة القول إن الصوفية ثلاث فرق: صوفية الأخلاق المهتدين بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وهم من خيار أولياء هذه الأمة، وصوفية الفلسفة الهندية الذين يسمون أنفسهم صوفية الحقائق، وغلاتهم كغلاة الشيعة البغية شر المبتدعة الهادمين للدين، وصوفية التقليد وهم أهل الطرائق والزوايا الكسالى، وإن هم إلا صوفية أكل واحتفالات، وبدع وخرافات، إلا قليلاً، وهاك ما وعدنا به من رأي شيخ الإسلام، في أولياء الله وأولياء الشيطان، ونقفي عليه بشواهد في هذا الزمان.

كتاب الفرقان لشيخ الإسلام

استمتاع البشر والجن والشياطين بعضهم ببعض، وتمثلهم بصورة الأولياء والقديسين

هذا الكتاب لشيخ الإسلام أحمد تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى بين فيه تحقيق الحق في أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ومن أهم مباحثه ملابسة الجن والشياطين للناس وتلبيسهم عليهم واستمتاع كل منهم بالآخر وظهور بعضهم لبعض الناس في صور مشايخهم وغيرهم من الأولياء والخضر والأنبياء عليهم السلام، والإيحاء إلى بعضهم فيما يضلهم ويغويهم، وظهور بعض المؤمنين منهم فيما هو نافع، ومن ذلك ما وقع له هو نفسه. وفي هذا الكتاب من مباحث التفسير وهدي السنة والتفرقة بين المعجزات والكرامات وبين السحر والكهانة واستخدام الجن والتأويل الباطل ووجوب الاتباع ما لا يوجد في غيره، وحكايات استخدام الجن كثيرة في قديم الأمم كلها وحديثها، وأكثر الذين يدعونها أو كلهم دجالون محتالون على أكل أموال الناس بالباطل، وأكثر من يتمثلون لهم لا يعلمون أنهم منهم، وشيخ الإسلام محقق وصديق لا يرمي القول على عواهنه.

ومما قاله في هذا الكتاب أنه قد تواتر عن كثير من المسلمين واليهود والنصارى رؤية من يقول لهم أنه الخضر وإنهم صادقون في قولهم، ولكن الذي يتراءى لهم ويقول هذا القول شيطان لا الخضر الذي ثبت عند المحدثين أنه قد مات، ومثل ذلك ظهور المسيح عليه السلام لكثير من النصارى عقب رفعه وبعده إلى الآن ثم قال:

«وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج فيرونه في صورته وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي[١] بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة، وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيته بخط الجن، وقد رأيت خط الجن غير مرة ـ وفيه كلام من الجن، وذاك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي، وكان يقول انتقل ثم مات، وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن، وقيل كان بعد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته فيعتقدون أنه هو. والذين كانوا يعتقدون بقاء علي أو بقاء محمد ابن الحنفية قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جني في صورته، وهكذا منتظر الرافضة قد تراه أحدهم أحياناً ويكون المرئي جنياً.

«فهذا باب واسع واقع كثيراً، وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر، ففي المشركين أكثر مما في النصارى، وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الإسلام، وهذه الأمور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كانوا عليه، كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الأنس قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلا الإسلام فيسلمون ويصيرون خيراً مما كانوا وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً، وقد قال النبي ﷺ «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم»[٢] وهذا كان كالحجج والأدلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي فإنه ينقطع بها كثير من أهل الباطل، ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق، وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطل منها، والخير والشر درجات، فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه.

«وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين، وهو خير من أن يكونوا كفاراً[٣] وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزوا يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين، وذاك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير، وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام والقصص قد

(١) الشيخ إبراهيم الدسوقي، كان في عصر شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) أخرج القسم الأول من الحديث، البخاري في الجهاد باب ١٨٢، والقدر باب ٥، والمغازي باب ٣٨، ومسلم في الإيمان حديث ١٧٨، والدارمي في السير باب ٧٣، وأحمد في المسند ٢/٣٠٩.

(٣) يشبه هذا دعاة القاديانية الملقبين بالأحمدية إلى الإسلام في أوروبة وغيرها فهم فريقان منهم من يقول إن القادياني مصلح مجدد لا نبي فهم مبتدعون، ومنهم من يقول إنه نبي كان يوحى إليه من الله وهم كفار مرتدون (المؤلف).

يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير ما كانوا عليه وإن كانت كذباً[١] وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمان في قلبه، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانقهاره ودخول في حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذي كان فيه، ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الإيمان في قلبه، والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح، وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتعليلها، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الإمكان، ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الإمكان، ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ [الأحقاف: ١٩] وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل وبدعة ببدعة، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة[٢] وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع. اهـ المراد منه.

أقول: كل المشاهدات التي نقل خبرها شيخ الإسلام هنا مشهورة عن أهل عصره وأهل عصرنا، وقد نقل عن الشيعة أنهم يستفتون المهدي المنتظر في بعض المشكلات فيضعون ورقة الاستفتاء في شجرة ثم يجدون الفتوى مكتوبة عليها، وأنها عندهم من أقوى الحجج أو أقواها، وقد بينا هذا في المنار، ومن هذا ما يكون من حيل شياطين الناس وتزويرهم، ومنهم من هم شر من شياطين الجن.

بعض حكايات النصارى المعاصرين في رؤية المسيح ومريم عليهما السلام

إن الذين يتراءى لهم المسيح أو أمه عليهما السلام أو غيرهما من القديسين عندهم كثيرون ومن الرجال المشهورين بهذا في هذا الزمان رشيد بك مطران وهو وجيه سوري من بعلبك مشهور يقيم في أوروبا ويكون غالباً في (باريس) فهو يرى أو يتراءى له مثال السيدة مريم العذراء في اليقظة كثيراً ويسألها عن كثير مما يشكل عليه فتجيبه. وحدثني الأمير شكيب أرسلان عنه أنه سألها مرة عن نبينا ﷺ فأجابته مثنية عليه ﷺ ثناء عظيماً لم أحفظه.

وقرأت في جريدة مرآة الغرب العربية التي صدرت في (نيويورك) في مارس سنة ١٩٣٣ رسالة من عمان عاصمة إمارة شرق الأردن كتبت في ٢٦ من كانون الثاني

---

(١) أي والواضع لها والداعي إليها والمحتج بها كلهم آثمون إذا علموا ذلك (المؤلف).

(٢) أي الذين يدعون أو يلقبون بأهل السنة فما من أتباع مذهب فهم إلا وقد فتن بعضهم بالبدع، وقد بني شيخ الإسلام في مواضع من كتبه ومنها هذا الكتاب (المؤلف).

(يناير) سنة ١٩٣٣ (الموافق ٢٩ رمضان سنة ١٣٥١) ملخصها أن امرأة نصرانية في عمان اسمها حنة بنت الياس غابي الملقب صهر الله متزوجة ولها أولاد وأخ فقيرة مشهورة بالتقوى عرض لها منذ سنة ونصف نزيف دموي عقب الولادة وأريد عمل عملية جراحية لها فأرشدت إلى التوجه أولاً إلى الطبيب السماوي فدعت يسوع ليلاً ثم ذهبت إلى الكنيسة بعد منتصف الليل لتصلي وهي في حال غيبوبة أو عقب رؤيا فرأت الكنيسة خالية وشاهدت في الهيكل شخصاً يحيط به نور عظيم فاشتد خوفها ورعبها، فدعاها وقال لها لا تخافي أنا المسيح فركعت على قدميه وقالت له اشفني يا سيد، فقال لها حسب إيمانك يكون لك، فبرئت وقرر الأطباء بعد فحصها أنه لم تبق حاجة إلى العملية الجراحية فازدادت عبادة وتقوى.

«ولما كان اليوم الرابع من هذا الشهر ك ٢ من «يناير» شعرت في منتصف الساعة الثالثة بعد نصف الليل بيد تهزها من الكتف ففتحت عينيها فإذا نور عظيم في الغرفة وفي وسط النور شخص ملاك يقول لها سيحدث ضيق عظيم في العالم، ولكن لا تخافوا وستكون لكم هذه العلامة ـ وكان بيده كأس فغمس اليد الأخرى في الكأس وبأصابعه الثلاث وضع على جبينها علامة ثم تركها وقال أعطوا مجد الله. فقامت وصارت تمجد الله بصوت عال، فهب أهلها وقالوا لها ماذا جرى لك؟ فقالت ألم تروا النور وتسمعوا الصوت؟ قالوا لا، قالت جيئوني بالضوء، فلما أحضروا القنديل رأوا في جبينها علامة طائر يشبه النسر صافاً جناحيه ممتداً على طول جبينها وعرضه (أي جبهتها) وليس ماساً للحاجبين ولا شعر الرأس ولونه عنابي كالدم ورسمه متقن كأنه رسم فنان عظيم».

وقالت كاتبة الرسالة إن أهل عمان لما علموا بهذه الحادثة أقبل الناس من وطنيين وأجانب على اختلاف أديانهم فشاهدوا هذا الرسم وعني الأطباء بإزالته فعجزوا وأن الذين شاهدوها يعدون بالمئات، ثم نقلت عن قسيس معروف جاء من نابلس وكتب عنها ما يأتي ملخصاً:

قالت إنه ظهر لها الملاك مرة ثانية في ليلة السبت السابعة من الشهر نفسه (يناير) ووضع يده على جبينها فزالت العلامة، فقالت له يا رب ارفع الضيق عن العالم، فقال: «سيرون أعمال الله» قالت ارحمنا يا رب، قال: «تكفيكم نعمتي» وفي ثاني ليلة أفاق أهلها فوجدوها واقفة تتكلم بالعبراني فكتبوا ما قالته وترجموه بالنهار فإذا هو تسبيح وتمجيد لله، ثم تكرر ذلك منها في الليالي التالية باللغات الألمانية والفرنسية والطليانية وفي الخامسة وثلث بالعربي واليوناني، وكانت ترتيلة العربي من نظمها وقولها «اصفح عن ذنبي يا ربي، خذني يا ربي، خذني إلى أورشليم» ثم لم يحدث شيء. إلا أن الملاك ظهر لها ليلة ١٧ من الشهر ووضع عليها العلامة وقال: «التكن

هذه العلامة مباركة ثم اختفى، ثم ظهر بعد يومين ومحا العلامة» اهـ باختصار وبلفظه إلا تصحيح كليمات قليلة.

أقول: سئل بعض أدباء المسلمين في عمان كتابة عن هذه الحكاية وعما روي في بعض الجرائد من رؤية موتى من الصحابة لم تبل أجسادهم ولا لفائفهم فأنكرها. وقد سبق لي تحقيق لأمثال هذه الحكايات ملخصه أن منها ما هو كذب محض، ومنها ما هو تخيل ولدته الأوهام، يشبه الرؤى والأحلام، ومنها ما هو رؤية لشيء موجود في الخارج من عالم الأرواح التي تتمثل بأجسام لطيفة جداً لا يدركها إلا بعض الناس في أحوال خاصة قريبة من التجرد من كثافة الحس، ومنها ما يتمثل بصورة مادية كثيفة كما صح من رؤية بعض الصحابة رضي الله عنهم للملك وللجن، والمشتغلون من الإفرنج بمعالجة رؤية الأرواح يسمون صاحب الاستعداد الخاص لرؤية الأرواح ومخاطبتها بالوسيط، والراجح عندنا أن أكثر المدعين لذلك أولو كذب وحيل وتلبيس، وأن أقلهم يرون بعض الشياطين من جند إبليس، ولا سيما شياطين الموتى وقرنائهم العارفين بأحوالهم، وشيخ الإسلام يقول ما قرأت آنفاً وهذا الذي يقوله لا ينكر أحد من الصوفية وقوعه لكبار شيوخهم، بل أثبتوا أن الشيطان يتراءى لهم ويلقنهم كلاماً مدعياً أنه ربهم كما حكاه الشعراني وغيره عن الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي اتفقوا على أنه كان القطب الغوث الأكبر.

وملخصه أنه رأى نوراً عظيماً ملأ الأفق وسمع منه صوتاً يخاطبه بأنه ربه وقد أحل له المحرمات، فقال له: اخسأ يا لعين، فتحول النور ظلاماً ودخاناً، وقال له قد نجوت مني بفقهك الخ وأنه فتن بهذا كثيرين من كبار الشيوخ. ومن المعلوم أن جميع غلاة الصوفية قد ادعوا أن الله خاطبهم بالحقائق وكشف لهم منها ما لم يكشفه لغيرهم كما تقدم وهم يتعارضون في دعاويهم الشيطانية كما تقدم.

وللشيخ عبد الوهاب الشعراني كتاب صغير سماه (الأنوار القدسية، في بيان آداب العبودية) مطبوع مع كتابه الطبقات ذكر في أوله أنه سمع وهو في حالة بين النائم واليقظان هاتفاً يسمع صوته ولا يرى شخصه يقول له على لسان الحق سبحانه وتعالى كلاماً ذكره قال: «فما استتم هذا الكلام وبقي عندي شهوة نفس لمقام من مقام الأولياء لا في الدنيا ولا في الآخرة» ثم بسط الكلام على مرادهم بالهاتف وعلله بقوله «خوفاً أن يتوهم أحد من القاصرين الذين لا معرفة عندهم بمراتب الوحي أن ذلك وحي كوحي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فأقول.

اعلم أن الهاتف المذكور لا يخلو إما أن يكون ملكاً أو ولياً أو من صالحي الجن أو هو الخضر عليه السلام أو غير ذلك، لأن الخضر عليه السلام حي باق لم يمت وقد اجتمعنا بمن اجتمع به وبالمهدي وأخذ عنهما طريق القوم الخ.

ثم إنه جعل الوحي أقساماً وضروباً كثيرة وذكر منها الكهانة والزجر ـ أي وهو أسفلها ـ ووحي التشريع الديني الخاص بالأنبياء عليهم السلام وما بينهما.

ثم ذكر أن بعض الفقراء من الإخوان سأله أن يملي على إلقاء الهاتف الذي سمعه جملة مما فهمه من آداب العبودية وآداب طلب العلم وآداب الفقراء عموماً وخصوصاً «وما يدخل على كل طائفة من الدسائس في مقاصدهم لأن الشيطان لهم بالمرصاد ولا ينجو منه إلا القليل من عباد الله» وهذا محل الشاهد.

وأقول إن هاتفه الذي جعله الأصل لهذا التأليف هو من دسائس الشيطان أيضاً لأنه غير موافق للشرع المعصوم بل في هذا الكتاب كثير من المخالفة له، وكذا كتابه الطبقات فهي من أشد الكتب إفساداً للدين أصوله وفروعه وآدابه بما فيها من وحي الشياطين، فقد أصبح الملايين من المسلمين مشركين بالله تعالى بعبادة هؤلاء الذين يسمونهم الأولياء، وقبول ما نقل عنهم من وحي الشياطين، وهم يتبعون الدجالين ومدعي علم الغيب وقضاء الحوائج بالكرامات أو استخدام الجن، وهؤلاء الدجالون يسلبون أموالهم، ويهتكون أعراضهم، وفي نص كتاب الله تعالى أن الجن لا يعلمون الغيب، وأصبح فريق آخر من المسلمين الذين تلقوا العلوم العصرية وتربوا تربية استقلالية، يعتقدون أن الإسلام دين خرافي كغيره من الأديان.

على أن من دعاة الأديان والنحل الجديدة المتولدة من التصوف من ألبسوا دعايتهم ثوب المدنية العصرية، وهم يبثونها في بلاد الإفرنج كالبهائية والقاديانية الأحمدية، وكل خلابتهم مستمدة من تأويلات الصوفية الذين ادعوا الوحي وادعوا الألوهية من طريق وحدة الوجود وغيره كما تقدم آنفاً.

والأمة الإسلامية قد جعلها الله وسطاً بين الغالين والمقصرين، من المعطلين والمشركين، فهي لا تعبد إلا الله، ولا تؤمن بوحي ولا نبوة لأحد بعد محمد خاتم النبيين، ولا بتشريع ديني إلا ما جاء به عن الله، ولا بولاية إلا ما تقدم بيانه في كتاب الله، وقد صار المعتصمون بهذا في أمثال هذه البلاد، التي انتشر فيها ذلك الفساد، جماعات قليلة الأفراد، فإن لم ينصرها الله ضاع فيها الإسلام.

استطراد، في أصل الإسلام، وما طرأ عليه من الفساد من طريق السياسة والفلسفة والتصوف

أيها القارىء لهذا التفسير قد آن أن أصارحك بمسائل مختصرة هي ثمرة علم وعمل وعبادة ورياضة وتصوف وتعليم وتصنيف ومناظرات ومحاجة في مدة نصف قرن كامل، لم يشغلني عنها من حظوظ الدنيا شاغل، وإنها لكلمات في حقيقة دين الله وعلمائه وعباده صادرة عن بصيرة وتجربة، فتأملها بإخلاص واستقلال فكر، ولا

يصدنك عن النظر فيها لذاتها والاعتماد في ثبوتها على مصادرها، حرمان المعاصرة، واحتقار الأحياء، وتقديس شهرة الأموات، واتهام قائلها بالغرور والدعوى، فإن عرض لك ريب أو شبهة في شيء منها فارجع إلى مصادرها ودلائلها، أو ارجع إلى كاتبها فاسأله عنها، بشرط أن يكون غرضك معرفة الحق لذاته، دون التعصب والجدل، أو التحرف لمذهب أو التحيز إلى فئة.

المسألة الأولى: إن هذا الدين (الإسلام) وحي إلهي إلى نبي أمي ظهر في أمة أمية جاهلية، ليعلمها الكتاب والحكمة، ويزكيها بالعلم والعدل والفضيلة، فيجعلها به معلمة وهادية لجميع شعوب التعطيل والأديان والفلسفة والحضارة، وإن الله تعالى قد شهد في كتابه بأنه أكمل هذا الدين لعباده في آخر عمر نبيه ليس لأحد أن يزيد فيه بعده عقيدة ولا عبادة ولا تحريماً دينياً مطلقاً، ولا تشريعاً مدنياً، إلا ما أذن به لأولي الأمر من الاجتهاد على أساس نصوصه وقواعده، فكان أعلم الناس وأفقههم به وأصحهم دعوة إليه بالعلم والعمل، والحكم بين الناس بالحق والعدل، أولئك الأميون الذين تلقوه عن ذلك النبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه، وهم خلفاؤه وأصحابه رضي الله عنهم فهذه إحدى معجزاته إذ لو كان هذا الدين وضعاً بشرياً لكان كسائر العلوم والأعمال البشرية التي تظهر مبادئها الأولى ناقصة ثم تنمى (وفي لغة ضعيفة اشتهرت تنمو) وتتكامل بالتدريج، فهذه سنة من السنن المطردة في علوم البشر.

المسألة الثانية: من البراهين العلمية الثابتة بالشواهد العملية، على أن هذا الدين من عند الله تعالى، إن المسلمين قد اهتدوا بإرشاده إلى البحث والنظر في جميع أمور العالم السماوي والأرضي ولا سيما نوع الإنسان وعلومه وفلسفته وأديانه ونظمه وتشريعه وآداب شعوبه فازدادوا بكل من ذلك علماً بحقية المسألة الأولى، وظهر للراسخين في علمه أن ما أجمع عليه أولئك الأميون الأولون أو أكثرهم هو الحق، وأن كل ما خالف نصوصه القطعية من العقائد والآراء والأفكار البشرية فهو باطل، ومنه جميع نظريات المتكلمين العقلية، وكشف فلسفة الصوفية الروحية، وإن المصلحة للمسلمين وللبشر كافة أن يقصروا هداية الدين على نصوص القرآن المنزلة، وما بينه من سنة الرسول المتبعة، وسيرة خلفائه وجمهور عترته وأصحابه قبل فشو الابتداع والتفرق في الملة، ثم ما أجمع عليه علماء الأمصار من مجتهدي الأمة، وأن يعذر بعضهم بعضاً فيما لا يخرج عن هذه الأصول من المسائل غير القطعية في الدين فلا يجعلوه سبباً للتفرق والشقاق، بالتعصب للمذاهب والشيع والأحزاب، لئلا يكونوا ممن قال الله تعالى لرسوله فيهم ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ [الأنعام: ١٥٩] فاستحقوا وعيد قوله: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر

كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقوله: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ [آل عمران: ١٠٥].

المسألة الثالثة: إن البدع التي فرقت الأمة في أصول دينها وجعلتها شيعاً تؤثر كل شيعة اتباع زعمائها ومذاهبها على كتاب الله وسنة رسوله وهدي سلفه الصالح بالتأويل، من حيث تدعي أن أئمتها أعلم من مخالفيهم بتأويل الكتاب والحديث، وأن بعضهم مؤيد بالكشف وبعضهم بالعصمة، فهم أحق بأن يقلدوا ويتبعوا، ولكن الأعلم إنما يعلم بالدليل لا بالتقليد، وإنما تفهم النصوص بقواعد اللغة والسنة العملية لا بما اصطلحوا عليه من التأويل، ولهذه البدع المفرقة ثلاث مثارات من أركان حضارة الأمم الثلاثة وهي السياسة والسلطان، والعلم العقلي والعرفان، وفلسفة التعبد والوجدان، وما يتبعه من دعوى علم الغيب المسمى بالكشف، والكرامات الشاملة لدعوى التصرف في الكون، ونقول في كل منها كلمة.

١ ـ السياسة الدولية وكان مثارها الأول ما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم ثم كان أشدها إفساداً ما كان بين أهل السنة والشيعة، وقد زالت الخلافة وضاعت سيادة الأمة من أكثر العالم، ومفاسدها لا تزال ماثلة، بما للزعماء المستغلين لها من المنافع الدنيوية الزائلة، وإنها لعصبية قضتها السياسة، وستقضي عليها السياسة، وقد زالت السلطة الدينية من بعض ممالك المسلمين وبقي لها بقية في بعض، وبعضها مذبذبة بين بين، ولا محل لبسط ذلك هنا ولا فائدة في هذا الوقت. إلا التذكير بأن المنتمين إلى مذاهب السنة قد غلبهم جهلة الأعاجم على خلافتهم بعد أن جعلوها عصبية وراثية فلم يعملوا أي عمل لتقويتها بعد ضعفها، ولا لإحيائها بعد موتها، ولم يضعوا نظاماً للاستعداد لذلك عند سنوح الفرصة كما فعل الكاثوليك بنظام الفاتيكان البابوي، وكانت الزيدية من الشيعة المعتدلة أشد حزماً واعتصاماً منهم بنصب إمام بعد إمام لهم في جبال اليمن يتولونه ويقاتلون معه. بيد أنهم قصروا في وضع نظام لتعميم الدعوة، والاستعداد له بالعلم والمال والقوة.

ولكن غلاة الشيعة نقضوا أركان الإسلام من أساسه بدعاية عصمة الأئمة، وتأويل نصوص الكتاب والسنة، فكان هذا أصل كل ابتداع مخرج من الملة، إذ انتهى بأهله إلى ادعاء الوحي وادعاء الألوهية، فخرجوا من الملة سراً فعلانية.

٢ ـ النظريات العقلية، وتحكيمها في النصوص النقلية، وكان أضرها وشرها ذلك التنازع بين أئمة الأتباع وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل، ودعاة الابتداع من متكلمي نظار المعتزلة والجهمية، ولولا تدخل سلطان العباسيين في نصر فريق على فريق، لما وصلت إلى ذلك الحد من الشقاق والتفريق، وقد ضعفت في هذا العصر

في أكثر الأمصار الإسلامية لأنه ليس لها دول تنصر بعض أهلها على بعض، ومتى توطدت حرية العلم كان النصر والفلج لأهل الحق، وسيموت ما بقي من علم الكلام بموت الفلسفة اليونانية التي بني على قواعدها ونظرياتها، بل هي قد ماتت وصارت من مواريث التاريخ العلمية، ومات هو وإن بقيت له بقية تقليدية في بعض المدارس الإسلامية، وسيخلفه علم آخر في حراسة العقائد من شبهات العلم وفلسفة هذا العصر، مع إبقاء الخلط بينهما وبين عقائد الدين ومحاولة تحكيم كل منهما في الآخر، كما فعل نظارنا المتقدمون فجنوا على كل منهما بما أضعف سلطان الدين في أداء وظيفته وهي تزكية النفس، بما يوقفها عند حدود الحق والعدل، والفضيلة وعمل البر، وأضعف سلطان العلم في أداء وظيفته وهي إظهار سنن الله في العالم وتسخير قوى الطبيعة لمنافع الناس، وفاقاً لما أرشدهم إليه القرآن، وقول النبي ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» رواه مسلم[١].

ولو بقينا على تأويل المتكلمين لهان الأمر، لأنهم يجرون فيه على قواعد اللغة وأصول الفقه ومصطلح الحديث، ولكن نبتت نابتة ودعاية لتحكيم نظريات العلم العصري والنظريات العقلية في نصوص الكتاب والسنة، لا بتأويل يوافق اللغة وأصول الشرع كما يقول المتكلمون، بل بترك مدلولات الكتاب والسنة بأنها غير مرادة ولا يمكن العلم بالمراد منها، ولبعض الدعاة إلى هذا الإلحاد في مصر كتب تطبع ومقالات تنشر في الصحف مصرحة بهذا، ومشيخة الأزهر تقرها لأنها لا تفهمها.

٣ ـ دعوى الكرامات والكشف، وتحكيمه في عقائد الدين وعباداته وآدابه وتفسير نصوصه، وفي أحكام المعاملات والحلال والحرام، وقد نجمت البدع من هذه الناحية صغيرة كقرون المعز ثم كبرت فصارت كقرون الوعول التي تناطح الصخور، هاجمها علماء المنقول والمعقول يؤيدهم الخلفاء والملوك فانهزمت أمامهم، حتى إذا ما ضعف العلم فصار تقليدياً، وضعف الحكم فصار إرثاً جهلياً، وصار صوفية علماء الأزهر مثل الشعراني، وسلاطين مصر مثل قايتباي، خضعت رقاب المسلمين لولاية مثل الشيخ محمد الحضري الذي يصعد المنبر في يوم الجمعة فيخطبهم فيقول: «أشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام» ثم ينزل فيسل السيف فيهرب جميع المسلمين من المسجد فلم يتجرأ أحد على دخوله إلى وقت العصر، ويزعم الشعراني أن هذا الولي الشيطاني نفسه قد خطب خطبة الجمعة يومئذ في ثلاثين مسجداً من مساجد القطر المصري، بناء على قاعدتهم أن الولي قد يتمثل بالصور الكثيرة في الأمكنة المختلفة، كالشياطين والملائكة. وهم لا يفرقون بينهما.

---

(١) كتاب الفضائل حديث ١٤١.

ومثله ذلك الولي الذي كان يعارض القرآن بالهذيان، والولي الذي كان يسكن في ماخور المومسات، ليشفع لكل من يأتيهن عند الله، ويمسكه عندهن إلى أن يخبره كشفه الشيطاني بقبول شفاعته فيه ومغفرة الله له، وكان من كراماته إتيان الأتان ـ فهذا الكفر والشرك والإلحاد، ومعارضة القرآن، واجتراح كبائر الفسوق والعصيان، كله عنده وعند أمثاله من كرامات أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ويطيع أمرهم رضوان خازن الجنان، ومالك خازن النار، كما نقله الشعراني عن الدسوقي، وجملة القول أنهم يتصرفون في أمور الدنيا والآخرة أحياء وأمواتاً، وقد رسخت هذه الخرافات في قلوب الملايين من مسلمي مصر وأمثالها من الأقطار فهم يعتمدون على هؤلاء الأولياء في أمور دنياهم وآخرتهم.

وإنك لتجد أكثرهم يحتج على ذلك بالآية الكريمة التي ذكرنا هذا البيان في صدد تفسيرها وبقوله تعالى: ﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ [الزمر: ٣٤] فهم يزعمون أنه لهؤلاء الأولياء الخياليين، وأن الله تعالى يعطيهم كل ما أرادوا لأنفسهم ولغيرهم في الدنيا والآخرة، كما يزعم الذين يقولون أن منهم أقطاباً متصرفين (أو مدَّركين) بالكون كله، وهذا افتراء على الله وتحريف لكتابه العزيز بما هو شرك به سبحانه، وإنما وردت هذه الجملة في عدة سور في جزاء أهل الجنة في الجنة لا في أولياء الخيال الخرافي المزعوم راجع سورة النحل (١٦: ٣٠ ـ ٣٣) وسورة الفرقان (٢٥: ١٥ و ١٦) وسورة الزمر (٣٩: ٣٢ و ٣٣: ٢٠) وسورة الشورى (٤٢: ٢٠) وسورة ق (٥٠: ٣١ ـ ٣٥).

وجملة القول إن جميع هذه الفتن المضلة لكثير من الناس عن الاعتصام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله المبينة له على النهج الذي اهتدى به سلف هذه الأمة الصالح لا يقوم لشيء منها حجة عقلية ظاهرة ولا كشفية باطنة ولو صح أنها من الإسلام لكان ما جاء الرسول ناقصاً ثم كمل بها.

بطلان تأويل النصوص للنظريات العقلية والعلمية، بَلْهَ الباطنية

أما النظريات العقلية التي يتأول النصوص لأجلها علماء الكلام فقد ظهر بطلانها وبطلان الفلسفة التي بنيت عليها لعلماء هذا العصر وفلاسفته وقد أجمع هؤلاء على أن جميع النظريات العقلية الفلسفية والعلمية المسلمة اليوم لأنها أرجح من غيرها في بابها، ليس فيها شيء يعد من الحقائق القطعية العلمية الثابتة التي لا يمكن نقضها، بل كلها قابلة للنقض والبطلان كما ثبت بطلان مثلها من مسلمات القرون الماضية إلى السنين الأخيرة من هذا القرن العشرين الميلادي التي ترجح فيها أن كل ما عرف في هذا الكون من مظاهر المادة والقوة هو مظهر لتركيب خاص مجهول لجزئي الكهرباء

الإيجابي والسلبي المعبر عنهما بكلمتي (البروتون والألكترون) فبطلت بهذا جميع النظريات العلمية في المادة والقوة، فكيف يجوز إذن تأويل نص ديني قطعي الرواية والدلالة في خبر عن عالم الغيب من الوحي الإلهي، لنظرية ظنية في عالم الشهادة من الرأي البشري؟

وإذا بطل تأويل علماء الكلام المتقدمين المبني على قواعد النظر العقلي ومراعاة مدلولات اللغة، واشتراط عدم المخالفة لأصل من قواعد الشرع، وبطل تأويل المعاصرين لما يخالف العلوم العصرية، فأجدر بتأويلات الباطنية أن تكون أشد بطلاناً لأنها تحكم في اللغة بما لا تدل عليه مفرداتها، ولا قواعد نحوها وبيانها، وناقضة لأصول الشرع وقواعده القطعية الثابتة بالإجماع المتواتر، والعمل الذي لا مجال للتأويل ولا للتحريف فيه، كتأويل الإسماعيلية القرامطة السابقين، والبهائية والقاديانية اللاحقين، البهائية الذين يدعون إلى ألوهية البهاء، والقاديانية الذين يدعون إلى نبوة ميرزا غلام أحمد، وكل منهما يستدل بتأويل القرآن والحديث مخالفاً للغتهما على دينه الجديد الذي غايته أن يتبعه الناس ويقدسوه.

بطلان الأخذ بالكشف في الدين

وأما الكشف فهو ضرب من إدراك النفس الناطقة غير ثابت ولا مطرد فليس بدليل عقلي ولا شرعي، وإنما هو إدراكات ناقصة تخطىء وتصيب، وقد عرفت أسبابه الطبيعية وأن منها ما هو فطري، ومنها ما هو كسبي وصناعي، كالتنويم المغناطيسي المعروف في هذا العصر، وما يسمونه قراءة الأفكار ومراسلة الأفكار، ويشبهونه بنقل الأخبار بخطوط الأسلاك الكهربائية وبدونها، وهو يقع للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، ويعترف به صوفية المسلمين لصوفية الهندوس وغيرهم، كما يعترفون بتلبيس الشياطين عليهم فيه، وقلة من يميز بين الكشف الشيطاني والكشف الحقيقي منهم، ولا يصح أن يسمى حقيقياً إلا ما وافق نصاً قطعياً.

ومن دلائل الخطأ والتلبيس والتخيلات في الكشف الذي يسمونه النوراني تعارض أهله وتناقضهم فيه، وما يذكرونه فيه من معلوماتهم المختلفة باختلاف معلوماتهم الفنية والخرافية والشرعية، فترى بعضهم يذكر في كشفه جبل قاف المحيط بالأرض والحية المحيطة به كما تراه في ترجمة الشعراني للشيخ أبي مدين وهو من الخرافات التي لا حقيقة لها، ومنهم من يذكر في كشفه الأفلاك وكواكبها على الطريقة اليونانية الباطلة أيضاً. وأكثرهم يذكرون في كشفهم الأحاديث الموضوعة، فإن اعترض عليهم أو على المفتونين بكشفهم علماء الحديث قالوا إن الحديث قد صح في كشفنا وإن لم يصح في رواياتكم، وكشفنا أصح لأنه من علم اليقين وعلمكم ظني.

والحاصل أن كشفاً هذا شأنه وشأن أهله إن صح أن يصدق فيما لا يخالف نصوص الشرع وعقائده وأحكامه فلا يصح لمن يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله أن يصدق منه ما يخالفهما وأن يثبت من أمر عالم الغيب ما لم يثبت بهما، وما أغنانا عن هذا كله، وفي جمع الجوامع أن الإلهام ـ وهو الكشف الصحيح عندهم «ليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوماً بخواطره خلافاً لبعض الصوفية» أي ولا يعتد بخلافهم لأنهم خالفوا به الأصول كما خالفوا النصوص.

الكرامات لا تدل على الولاية فضلاً عن العصمة

وأما الكرامات فهي نوع من خوارق العادات التي تروى عن جميع الأمم المختلفة الأديان والملل، وقد قال علماء الكلام إنها تقع للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، والنبي والساحر، ويختلف اسمها باختلاف من ظهرت على يديه فتسمى معجزة للنبي المرسل إذا تحدى بها وكرامة للرجل الصالح المتبع للرسول ومعونة لمن دونه من المؤمنين واستدراجاً للكافر والفاسق.

وصحت الأحاديث بأن الدجال يظهر على يديه من الخوارق الكبرى ما قلما كان مثله في المعجزات حتى إحياء الموتى. وقال أئمة الصوفية العارفون إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تعتدوا به (أو كلمة بهذا المعنى) حتى تروه عند الأمر والنهي الشرعيين، وقال مثل ذلك الخلاطون منهم، ففي الباب الثالث من كتاب (الأنوار القدسية) للشعراني «وظهور الكرامات ليس بشرط في الولاية وإنما يشترط امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، فيكون أمره مضبوطاً على الكتاب والسنة فمن كان كذلك فالقرآن يشهد بولايته وإن لم يعتقد فيه أحد» الخ وهذا عين ما حققناه في تفسير الآية.

ومن خلطه أن أكثر ما ذكره من كلامهم في طبقاتهم مخالف لشرطه فهو يبطل ولاية أكثر رجال أهلها من العقلاء فضلاً عن المجاذيب المجانين، فإنهم لا يعدون من الأولياء العارفين، لأنهم غير مكلفين.

ومنه وفي الباب الأول منه «فلو رأينا الصوفي يتربع في الهواء لا يعبأ به إلا إذا امتثل أمر الله واجتنب نهيه في المحرمات الواردة في الكتاب والسنة مخاطباً بتركها كل الخلق المكلفين لا يخرج عن ذلك أحد منهم، ومن ادعى أن بينه وبين الله تعالى حالة أسقطت عنه التكاليف الشرعية من غير ظهور إمارة تصدقه على دعواه فهو كاذب، كمن يشطح من شهود في حضرة خيالية على الله وعلى أهل الله ولا يرفع بالأحكام الشرعية رأساً ولا يقف عند حدود الله تعالى مع وجود عقل التكليف عنده فهذا مطرود عن باب الحق، مبعد عن مقعد الصدق، وحرام على الفقيه وغيره أن يسلم لمثل هذا» اهـ. وهو يخالف هذا الحق في مواضع أخرى.

ثم قال (في آخر ص ٨ منه) واعلم أن طريق القوم على وفق الكتاب والسنة فمن خالفهما خرج عن الصراط المستقيم كما قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه فلا تظن أنهم كانوا كحال غالب المنسوبين إلى التصوف في هذا الزمان فتسيء الظن بهم، إنما كانوا رضي الله عنهم عالمين بأسرار الشريعة قائمين صائمين زاهدين ورعين خائفين وجلين كما يعلم ذلك من تراجمهم وطبقاتهم، وإنما أنكر من أنكر على المتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين ست مرات منهم، فكل قرن منهم بالنسبة لمن قبله يصح عليه الإنكار إذ ادعى أنه على طريقة من كان قبله لأن الناس لم يزالوا راجعين القهقرى وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[1] الحديث اهـ.

أقول: إن هذا التصوف قد ذر قرنه في أواخر القرن الثاني وظهر الشذوذ في المنتحلين له في القرن الثالث. وقد قال الإمام الشافعي الذي توفي سنة ٢٠٢ إذا تصوف الرجل في الصباح لا يأتي المساء أو قال العصر إلا وهو مجنون. وأنكر الإمام أحمد الذي توفي سنة ٢٤١ بعده على خيارهم ونهى عن قراءة كتب الحارث المحاسبي على التزامه الكتاب والسنة علماً وعملاً كما بيناه في تفسير سورة براءة، وقد توفي الحارث في سنة ٢٤٣ وهو أستاذ أكابر البغداديين وممن أخذ عنه سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد. فإذا قلنا إن الشعراني يعد أهل قرنه العاشر في الدرجة السادسة من المتشبهين بالصوفية فالظاهر أنه يعد أهل القرن الخامس أول المتشبهين الذين ينكر عليهم وقد أنكر الغزالي في كتاب الغرور من الإحياء على المتشبهين بهم وعد منهم فرقاً من أهل المكاشفات، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس فإن الغزالي توفي سنة ٥٠٥ وكان قد تاب إلى الله من علوم التصوف والكلام وانقطع إلى علم السنة، ثم إن ابن الحاج المالكي المتوفى سنة ٧٣٧ تكلم في كتابه المدخل على هؤلاء المتشبهين بالمشايخ من أهل عصره في القرن الثامن وبين ما لهم من المنكرات، وفند ما يدعونه من الكرامات وقام في هذا القرن أيضاً شيخ الإسلام، مدره السنة الأكبر، وقامع البدع الأقهر، أحمد بن تيمية فبذ من قبله، وأغنى عمن جاء بعده، وعلى كتبه وكتب تلميذه ابن القيم المعول.

---

(١) روي الحديث بطرق وأسانيد متعددة، منها حديث: «خير أمتي القرن الذين أنا فيه». أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٥، وأبو داود في السنة باب ٩، وأحمد في المسند ٢/٣٢٨، ٥/٣٢٧، ٦/١٥٦. وحديث: «خير الناس قرني»، و «خيركم قرني»، أخرجه البخاري في الشهادات باب ٩، وفضائل أصحاب النبي (ص) باب ١، والرقاق باب ٧، والأيمان باب ١٠، ٢٧، والترمذي في الفتن باب ٤٥، والشهادات باب ٤، والمناقب باب ٥٦، وابن ماجه في الأحكام باب ٢٧، وأحمد في المسند ١/٣٧٨، ٤١٧، ٤٣٤، ٤٤٢، ٢/٢٢٨، ٤١٠، ٤٧٩، ٤/ ٢٦٧، ٢٧٦، ٢٧٧، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٦، ٤٤٠، ٥/٣٥٠.

تفضيل أهل الحديث على غيرهم

ومما كتبه الشعراني في كتابه هذا من الحق بين الأباطيل قوله في الباب الثاني من كتابه المذكور ـ وهو في طلب العلم ـ ما نصه:

«واعلم أنه ما متَّ بالإرث للأنبياء عليهم السلام على الحقيقة إلا المحدثون الذين رووا الأحاديث بالسند المتصل إلى النبي ﷺ كما قاله شيخنا فلهم حظ في الرسالة لأنهم نقلة الوحي وهم ورثة الأنبياء في التبليغ، والفقهاء بلا معرفة دليلهم ليس لهم هذه الدرجة فلا يحشرون مع الرسل إنما يحشرون في عامة الناس، فلا ينطبق اسم العلماء حقيقة إلا على أهل الحديث. وكذلك العباد والزهاد وغيرهم من أهل الآخرة إذا لم يكونوا من أهل الحديث حكمهم حكم الفقهاء الذين ليسوا من أهل الحديث، فيحشرون مع عموم الناس ويتميزون عنهم بأعمالهم الصالحة لا غير، كما أن الفقهاء يميزون عن العامة في الدنيا، لا غير» اهـ ولكن بعض من يسمون كبار العلماء في زماننا يفضلون خرافات المتشبهين بالمتصوفة في الدرجة السادسة إلى العاشرة وآراء مقلدي الفقهاء في الدرجة الخامسة ـ وهي السفلى ـ على علماء الحديث وفقهائه وحكمائه، ويطعنون في المحدثين وكل من يهتدي بالحديث قولاً وكتابة، بل صرح بعضهم بأن من يعمل بالحديث فهو زنديق!!

قرار متقدمي الصوفية ومتأخريهم بوجوب اتباع السلف

تواتر عن شيوخ الصوفية المتقدمين أن أصل طريقهم اتباع الكتاب والسنة وموافقة السلف كما تقدم آنفاً، وتجد مثل هذا في كلام الصوفية الشاذين الذين خلطوا البدع بالسنن وزعموا أنهم يأخذون علومهم عن الله الحي الذي لا يموت مباشرة وأن علماء التفسير والحديث يأخذون علومهم عن الميتين كالفقهاء والمتكلمين، وهذا أساس الابتداع بل المروق من الدين. ومما نقله الشعراني عن الشيخ إبراهيم الدسوقي من الخلط بين الحق والباطل ما نصه:

«وكان رضي الله عنه يقول أسلم التفسير ما كان مروياً عن السلف، وأنكره ما فتح به على القلوب في كل عصر، ولولا محرك يحرك قلوبنا لما نطقت إلا بما ورد عن السلف فإذا حرك قلوبنا وارد استفتحنا باب ربنا وسألناه الفهم في كلامه فنتكلم في ذلك الوقت بقدر ما يفتحه على قلوبنا، فسلموا لنا تسلموا، فإننا فخارة فارغة، والعلم علم الله تعالى» اهـ.

أقول: من أين نعلم أو يعلمون هم أن خواطرهم التي يسمونها الواردات من الإلهام الإلهي لا من الوسواس الشيطاني، وكيف نسلم لهم ما لا نعلم، والإلهام الصحيح ليس بحجة كما تقدم؟ ثم كيف لا ننكر عليهم ما نراه مخالفاً للكتاب والسنة

وآثار السلف، وموافقاً لإلحاد الباطنية أو بدع الخلف، وإنا وإياهم متفقون على أنه هو الحق الذي لا يصح الخلاف فيه؟

فثبت إذاً أن أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، هم من عرفهم تعالى بقوله الحق ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [يونس: ٦٣] وأنهم درجات كما بينها الله تعالى في قوله: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ [فاطر: ٣٢] فالظالم لنفسه من يقصر في اتباع الكتاب ولو بترك بعض الفضائل، والمقتصد من يترك ما نهي عنه، ويفعل ما أمر به من الواجبات القاصرة على نفسه، والسابق بالخيرات من يزيد على ذلك التقرب بالنوافل، والتكمل بالفضائل، والجمع بين التعلم والتعليم والتأدب والتأديب، حتى يكون إماماً للمتقين، فهذه درجة المقربين من شهداء الله والصديقين، وما قبلها درجة الصالحين من الأبرار أصحاب اليمين، فراجع سورتي الواقعة والمطففين، ففيهما بيان لقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ [النساء: ٦٩] وهي تفسير لدعائك في كل ركعة بقوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

وبهذا تقوم حجة الله على العالمين، بأن هذا الدين تنزيل من رب العالمين، وقد أكمله لنا قبل أن يقبض الله رسوله محمداً خاتم النبيين ﷺ وإنه لو صح شيء مما ابتدعه الناس فيه بفلسفتهم العقلية أو النفسية أو بما ادعوه من الكشف لما صحت شهادة الله بإكماله، ولا أنه من عنده لا من عند أحد من خلقه، وهذا كل غرضنا من هذا البحث، وقد ظهر به الحق ولله الحمد.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

بعد أن بين الله تعالى لرسوله حال أوليائه وصفتهم وما بشرهم به في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكونه لا تبديل لكلماته فيما بشرهم ووعدهم كما أنه لا تبديل لهما فيما أوعد به أعداءه المشركين، وكان هذا يتضمن الوعد بنصره ونصر من آمن له وهم أولياء الله وأنصار دينه على ضعفهم وفقرهم، وكانت العزة أي القوة والغلبة في مكة لا تزال للمشركين بكثرتهم التي يعبرون عنها بقولهم: وإنما العزة للكاثر، وكانوا لغرورهم بكثرتهم وثروتهم يكذبون بوعد الله وكان ذلك يحزنه ﷺ بالطبع كما قال:

﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك﴾ [الأنعام: ٣٣] الآية قال تعالى مسلياً له ومؤكداً وعده له ولأوليائه ووعيده لأعدائهم وأعدائه:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ نهاه عن الحزن والغم من قولهم الذي يقولونه في تكذيبه الذي تقدم مفصلاً في هذه السورة فحذف مقول القول للعلم به وبين له سبب هذا النهي بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي إن الغلبة والقوة والمنعة لله جميعها لا يملك أحد من دونه شيئاً منها، فهو يهبها لمن يشاء ويحرمها من يشاء، وليست للكثرة دائماً كما يدعون، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وقد وعد بها رسله والذين آمنوا بهم واتبعوهم من أوليائه، كما قال: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [غافر: ٥١] ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون: ٨] فعزته تعالى ذاتية له، وعزة رسوله والمؤمنين به ومنه عز وجل، كما قال: ﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ [آل عمران: ٢٦] وقرأ نافع (يحزنك) بضم الياء من أحزنه وهي لغة، وقرىء (أن العزة) بفتح همزة أن لحذف لامها وهي للتعليل الذي تدل عليه قراءة الجمهور بالكسر على الاستئناف البياني.

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون من تكذيب بالحق وادعاء للشرك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يفعلون من إيذاء وكيد ومكر، فهو يذلهم ويحبط أعمالهم، وهذا استئناف آخر في تقرير مضمون الأول وهو تسليته ﷺ وتأكيد وعده بالعزة ووعيد تكذيبه، ثم استدل على كون العزة له جميعاً والجزاء بيده بقوله مستأنفاً أيضاً ومفتتحاً بأداة التنبيه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من عابد ومعبود فهو ربهم ومالكهم وهم عبيده المربوبون المملوكون له ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ له في ربوبيته وملكه، أي إن هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله بدعائهم في الشدائد، واستغاثتهم في النوازل، والتقرب إليهم بالنذور والقرابين والوسائل، لا يتبعون شركاء له في تدبير أمور عباده ينفعونهم أو يكشفون الضر عنهم إذ لا شركاء له، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون في الحقيقة إلا ظنهم أن هؤلاء الذين يدعونهم أولياء لله وشفعاء عنده، فهم يتوسلون بهم وبتماثيلهم إليه، لأنهم يقيسونه على ملوكهم الظالمين المتكبرين، الذين لا يصل إليهم أحد من رعاياهم إلا بوسائل حجابه ووسائطه ووزرائه.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي وما هم في اتباع هذا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً إلا يخرصون خرصاً، أي يحزرون حزراً، أو يكذبون كذباً، أصل الخرص الحزر والتقدير للشيء الذي لا يجري على قياس من وزن أو كيل أو ذرع، بل هو كخرص

الثمر على الشجر والحب في الزرع، ولكثرة الخطأ فيه أطلق على لازمه الغالب وهو الكذب، فالظن الذي يبنى عليه يكون من أضعف الظن وأبعده عن الحق، مثاله ما ذكرناه آنفاً من قياس الرب في تدبير أمور عباده على الملوك، وهذا قياس شيطاني سمعته من جميع طبقات الجاهلين لعقائد الإسلام، وتوحيد الرحمن، حتى من يلقبون بالعلماء وبالباشوات، ومثله قولهم في وسائلهم الذين يسمونهم الأولياء: إن الله يحبهم، وكل من يحب أحداً فإنه يقبل وساطته وشفاعته، فيقيسون تأثير عباد الله الصالحين عنده تعالى، على تأثير أصدقاء الملوك والوجهاء ومعشوقيهم في قبولهم منهم جميع ما يطلبونه، ويجهلون أن أفعال الله تعالى إنما تجري بمقتضى مشيئته الأزلية لا تؤثر فيها الحوادث، وأن جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ [الإسراء: ٥٧] أي إن أقرب أولئك الذين يدعونهم ويتوسلون إليه تعالى بهم كالمسيح والملائكة ومن دونهم، هم يتلوسلون إليه راجين خائفين، لا كأعوان الملوك الذين لا يقوم أمر ملكهم بدونهم، ومعشوقيهم الذين لا يتم تمتعهم الشهواني إلا بهم.

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ هذا استدلال على مضمون ما قبله من نفي وجود شركاء له في الخلق والتقدير، ولا بالشفاعة عنده في التصرف والتدبير، أي هو الذي جعل لكم الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفيع، بل بمحض الحكمة البالغة والرحمة الشاملة: أحدهما الليل جعله مظلماً لأجل أن تسكنوا فيه بعد طول الحركة والتقلب في الأرض، وتستريحوا من التعب في طلب الرزق، وثانيهما النهار جعله مضيئاً ذا إبصار لتنتشروا في الأرض، وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب، والشكر للرب، فالمبصر هنا معطي الإبصار سببه حسياً كان أو معنوياً، فالأول قوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ [الإسراء: ١٢] الآية ـ والثاني قوله في هذه السورة أيضاً ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾ [الإسراء: ٥٩] أي آية مفيدة للبصيرة والحجة على صدق رسولهم، ومثله قوله في سورة النمل ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين﴾ [النمل: ١٣].

وقال قطرب: تقول العرب: أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء بمعنى صار ذا ظلمة وذا إبصار وذا ضياء وقد تكرر التذكير في التنزيل بآيات الله في الليل والنهار من خلقهما وتقديرهما ومنافع الناس فيهما، وفي هذه الآية احتباك وهو أنه حذف من كل من آيتي الليل والنهار ما أثبت مقابله في الأخرى والعكس.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ مثله، أي أن فيما ذكر

لدلائل بينات، وآيات أي آيات، على وحدانيته في الذات والصفات، لقوم يسمعون ما يتلى عليهم من التذكير بحكمه تعالى ونعمه فيها سماع فقه وتدبر، ويبصرون ما في الكائنات من السنن الحكيمة إبصار تأمل، ذكر الآيات السمعية المناسبة لليل الذي قدم ذكره، وهي تدل على الآيات البصرية المناسبة للنهار وتذكر بها، وهو أبلغ الإيجاز، وقد جمع بينهما في مقام الإطناب من سورة القصص بقوله: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من آله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣] وأحسن بذلك الإطناب تفسيراً لما هنا من الإيجاز، ولكل منهما موقعه من بلاغة الإعجاز.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

هذه الآيات حكاية لنوع آخر من الكفر بالله تعالى قريب من كفر اتخاذ الشركاء له، وهو زعمهم أنه اتخذ ولداً، وقد اشترك فيه عباد الأصنام والأوثان وبعض أهل الكتاب، فحكاه عنهم مفصولاً لأنه نوع مستقل وتعقبه بالإبطال.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فزعم المشركون أن الملائكة بنات الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال بعض اليهود: عزير ابن الله، وتقدم في سورة التوبة «ويرى بعض المؤرخين أن عزير هو أوزيروس أحد آلهة قدماء المصريين» ﴿سُبْحَانَهُ﴾ كلمة التسبيح معناها التنزيه والتقديس أي تسبيحاً له عز وجل عن كل ما لا يليق بربوبيته وألوهيته، وتقال في مقام التعجب، ويصح هنا جمع المعنيين كليهما. وقفى على هذا التنزيه والتعجب بما يدل على بطلان قولهم بأفواههم ما ليس لهم به علم فقال:

﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي هو الغني بذاته عن الولد، لأن كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك وعبيد له لا يحتاج منها إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء، ولا يشبهه أو يجانسه منها شيء، فالإنسان يحتاج إلى الولد لأمور منها بقاء ذكره به وبذريته، ومنها أنه قوة وعصبة له يعتز به هو وعشيرته، ومنها أن وجوده زينة له في داره يلهو به في صغره، ويفاخر به أقرانه في كبره، ومنها أنه قد يحتاج إليه لقضاء مصالحه وتنمية ثروته، وقد يحتاج إلى رفده وبره، عند عجزه أو

فقره، والله تعالى لا يحتاج إلى شيء من هذه المنافع لأنه هو الغني عن كل شيء بذاته لذاته أزلاً وأبداً.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ «إن» هنا نافية و «من» مؤكدة لهذا النفي مفيدة لعمومه، والسلطان الحجة والبرهان. والجملة تجهيل لهم ورد عليهم، أي ما عندكم أي نوع من أنواع الدليل والبرهان متعلق بهذا القول الذي تقولونه من غير عقل ولا علم ولا وحي إلهي، تعارضون به هذا البرهان العقلي، وهو تنزيه الله وغناه المطلق عن الولد وغيره، وكونه المالك لكل شيء مما في السموات والأرض ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا استفهام تبكيت وتوبيخ على أقبح الجهل والكفر، وهو قولهم على الله تعالى ما ليس لهم به علم، ولا سيما بعد مجيء ما ينقضه من العلم البرهاني. والوحي الإلهي، قال البيضاوي وغيره: وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لا بد لها من قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ اهـ وقد تقدم حكاية اتخاذ الولد عن الكفار عامة وعن النصارى خاصة في سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام، وسيأتي في سور أخرى مع إبطاله وتفنيده بالدلائل ووجوه الحجة المختلفة الأساليب، أو التقريع والتأنيب، والإنذار والوعيد.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ باتخاذهم الشركاء له، أو بزعمهم اتخاذه ولداً لنفسه، أو بغير ذلك من التحليل والتحريم، وغيرهما من مسائل التشريع، أو بدعوى ولايتهم وإطلاعه إياهم على أسرار خلقه وتصريفه لهم في ملكه، وقد تقدم بعضه في هذه السورة كالآيات ١٧ و ٥٩ و ٦٠ ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي لا يفوزون بما يؤملون من النجاة من عذاب الآخرة والتمتع بنعيمها بشفاعة الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى أو فدائهم لهم من عذاب النار.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ هذا جواب لسؤال مقدر قد يرد على نفي فلاحهم بالإطلاق الذي يدخل فيه منافع الدنيا، والمفترون على الله بكل نوع من أنواع الافتراء المقبولة عند الجاهلين، ـ لهم كثير من المنافع المادية والمعنوية من هؤلاء المساكين، وأكثر البشر لا يزالون جاهلين يخضعون لهؤلاء الزعماء الملبسين، فهو يقول هذا متاع قليل ـ أو لهم متاع في الدنيا حقير، يتلهون به في حياة قصيرة فأما قلته وحقارته فيدل عليها تنكيره مع القرينة، وأما قصر الحياة التي يكون في بعضها فمعلوم بالاختبار، فمهما يبلغ هذا المتاع من كثرة المال وعظمة الجاه في هذه الحياة، فلا يكون إلا قليلاً بالنسبة إلى ما عند الله في الآخرة للصادقين المتقين كما صرحت به الآيات الكثيرة، وبالنسبة إلى ما لهم من ضد ذلك كما صرح به في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالبعث بعد الموت، وما فيه من أهوال الحشر والحساب والعرض ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بآياتنا ونعمنا، وبالافتراء علينا، وتكذيب رسلنا، أو الكذب عليهم

بعد أن تقوم عليهم الحجة في الحساب بأنهم يستحقونه بظلمهم لأنفسهم وإننا لا نظلمهم شيئاً، وتقدم ذكر الرجوع إليه تعالى وما يليه من الجزاء في هذه السورة وغيرها.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

هذا سياق جديد متصل بما سبق من مقاصد هذه السورة أتم الاتصال، بتفصيله لبعض ما فيها من إجمال، وهو الاحتجاج على مشركي مكة وما حولها وسائر من تبلغهم الدعوة من المكذبين، بأن الله تعالى سيخذلهم وينصر رسوله عليهم كما نصر من قبله من الرسل على أقوامهم المجرمين، فأهلكهم وأنجى المؤمنين، فقد تقدم في أوائلها قوله: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾ إلى آخر الآية ١٤ ثم قال في الرد على تكذيبهم إياه بما وعدهم من العذاب ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ [يونس: ٣٩] ثم قال: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ [يونس: ٤٧] جاء هذا في سياق إقامة الحجج العقلية على صدق الرسول ﷺ في دعوى الوحي وكون القرآن من عند الله لا من عنده ورأيه وكلامه، والحجج على مضمون الدعوى من التوحيد والرسالة والبعث والجزاء والتفنن فيها، والتكرار البليغ لمقاصدها، وإنذار أولئك المكذبين بها فناسب أن يفصل لهم شيئاً من ذلك الإجمال من هذا الوجه فجاء به معطوفاً لأنه مرتبط به متمم له، بخلاف سرد قصص الرسل في سورة الأعراف حيث بدأه بقوله: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ [الأعراف: ٥٩] لأن هذه القصص أوردت هناك مستقلة، لا تفسيراً ولا تفصيلاً لجمل قبلها وأما مناسبة هذه الآيات لما قبلها مباشرة بكونها من جنس موضوعها العام فلا تدل على هذه الخصوصية العلمية التي بها كانت البلاغة فلسفة عقلية نفسية.

قال عز وجل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي واقرأ أيها الرسول على هؤلاء المشركين المكذبين لك من قومك، فيما أوعدتهم من عقاب الله لهم على سابق سنته في المكذبين لرسله من قبلك، خبر نوح ذي الشأن العظيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي نبأه حين قال لهم هذا القول فكذبوه فأغرقناهم ونجيناه هو ومن آمن معه وجعلناهم خلائف الأرض ـ لا جميع أنباء قصته معهم

(المفصلة في سورة هود التي نزلت قبل هذه السورة ووضعت بعدها في المصحف) ليعلموا من هذا النبأ الخاص سنته تعالى في نصر رسله على المكذبين من قبلهم، وأنه كذلك ينصرك عليهم، فيهلك المكذبين لك المغرورين بكثرتهم وقوتهم، وقلة من اتبعك وضعفهم، وأن هؤلاء الضعفاء سيكونون خلائف الأرض في قومهم وغير قومهم من سكان الأرض، قال نوح عليه السلام لقومه بعد أن طال مكثه فيهم يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته وحده والإصلاح في الأرض فملوا مقامه، وسئموا وعظه وائتمروا به: يا قومي إن كان قد كبر أي شق وعظم عليكم قيامي فيكم، أو مكاني من القيام بما أقوم به من دعوتكم إلى عبادة ربكم، وتذكيري إياكم بآياته الدالة على وحدانيته، ووجوب عبادته وشكره، والرجاء في ثوابه للمؤمنين المتقين، أو الخوف من عقابه للمشركين المجرمين ـ التذكير يطلق على الإعلام بالآيات والدلائل في أنفس الناس وفي الآفاق فيدركها العقل وتقتضيها الفطرة، حتى يكون بيانها تذكيراً أو كالتذكير لمن فقهها بشيء كان يعرفه بالقوة، فعرفه بالفعل، ويطلق على الوعظ والنصح المشتمل على عواقب الأمور، وسيأتي في السورة التالية قوله لهم ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم﴾ [هود: ٣٤] الآية.

﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ دون غيره من المؤمنين الذين تستضعفونهم، أي إن كان كبر عليكم ذلك وأردتم التفصي منه بالإيقاع بي فإنني قد وكلت أمري إلى الله الذي أرسلني واعتمدت عليه وحده بعد أن أديت رسالته بقدر طاقتي ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ من أجمع الأمر كالسفر والصيام وغيرهما وأجمع عليه إذا عزم عليه عزماً لا تردد فيه قيل أصله جمع ما تفرق من أسبابه ومقدماته، وأجمع القوم على الشيء اتفقوا عليه كلهم لم يشذ أحد منهم، أي أجمعوا ما تريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله لا تتفرقوا فيه، وقيل التقدير وادعوا شركاءكم ليعينوكم كما تزعمون كما أدعو ربي وأتوكل عليه.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ الذي تعتزمونه ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي خفياً فيه شيء من الحيرة أو اللبس الذي يقتضي التردد في الإنفاذ، بعد العزم والإجماع، بل كونوا على علم وبصيرة فيه لكيلاً تتحولوا عنه بظهور الخطأ أو التردد في كونه هو الصواب ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ ذلك الأمر بعد إجماعه واعتزامه وبعد استبانته التامة التي لا غمة فيها ولا التباس بأن تنفذوه بالفعل، فالقضاء يطلق بمعنى أداء الشيء وتنفيذه وإتمامه ومنه ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ [القصص: ٣٩] ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ [الأحزاب: ٢٣] ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾ [الأحزاب: ٣٧] وتعديته بإلى لإفادة إبلاغه وإيصاله إلى متعلقه بالفعل كما قال في أوائل السورة ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾ [يونس: ١١] ويطلق بمعنى الحكم بالشيء وإذا عدي هذا بإلى يفيد

تبليغ خبره كقوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ [الإسراء: ٤] الخ وقوله: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ [الحجر: ٦٦] ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي لا تمهلوني بتأخير هذا القضاء وتنفيذه بعد استيفاء تلك المقدمات كلها.

هذه الآية من أبلغ آيات القرآن عبارة وأجمعها على إيجازها للمعاني الكثيرة من علم النفس، ودرجة إيمان الأنبياء المرسلين وثقتهم بالله عز وجل، وشجاعتهم واحتقارهم لكل ما في الحياة الدنيا من أسباب الخوف من غيره والرجاء فيما سواه، وبيان خاتمهم لسنته تعالى فيهم وفي أقوامهم، وحسن وعظه لهم بوحي ربه تعالى، فهو يضرب لحاله ومقامه معهم مثل نوح مع قومه في غرور كل منهم بكثرتهم وقوتهم وتكذيبهم واحتقارهم لرسوله ولمن آمن معه من الضعفاء والفقراء، ولما يعتز به كل من الرسولين من التوكل على الله والاعتماد عليه في النصر والعزة وحسن العاقبة، والجزم بإهلاك المصرين على تكذيبه ونجاة المؤمنين المتبعين له بجعلهم خلائف الأرض وأصحاب السلطان فيها.

صورت الآية لأهل مكة البلغاء هذه المعاني بمطالبة نوح عليه السلام لقومه على كثرتهم وقوتهم ـ المشهور في تواريخ الأمم وظواهر الكتب المقدسة أنهم جميع أهل الأرض ـ بأن يفعلوا ما استطاعوا من الإيقاع به واكتفاء أمره، والاستراحة من دعوته، مطالبة القوي العزيز المدل ببأسه، المعتصم بإيمانه بوعد ربه وتوكله عليه، للضعيف العاجز عن تنفيذ مراده مهما يكن من استيفائه لجميع أسبابه الطبيعية والكسبية، إذ أمرهم في المرتبة الأولى بإجماع أمرهم بالعزيمة الصادقة وقوة الإرادة الجازمة حتى لا يكون شيء من موجباتها متفرقاً بينهم، وأن يضموا إلى هذه القوة النفسية الكسبية قوة الإيمان المعنوية بشركائهم وآلهتهم، ولما كانت العزيمة الصادقة المجمعة قد يعرض لها الوهن أو العلل المقتضية للفسخ قبل التنفيذ نهاهم أن يكون في أمرهم الذي أجمعوا شيء من الغمة والخفاء الذي يقتضي ذلك.

فإن قيل: إن إجماع العزم في الأمر لا يكون بعد الجزم بالعلم بالمقتضي له الباعث عليه، إذ لو كان الأمر غمة امتنع إجماعه كما يمتنع إجماع الصيام من الليل في أول رمضان إذا غم الهلال في ليلة الثلاثين من شعبان ولهذا قال ﷺ «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا شعبان ثلاثين»[1] رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة ورواه غيرهم عن غيره، فالأمر بإجماع الأمر يغني عن النهي أن يكون غمة فما حكمة ذكره بعده وعطفه عليه بثم الدالة على تأخره عنه في الرتبة؟ قلت: يكفي

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم باب ٥، ١١، ومسلم في الصيام ٦، ٩، ١٧، والترمذي في الصوم باب ٢.

في إجماع الأمر على الإيقاع بنوح عليه السلام أن يعتقدوا أنه مصلحة لهم غير معارضة بمفسدة أرجح منها، وهذا لا يمنع أن يعرض لهم قبل تنفيذه شيء من الغمة والحيرة المقتضية للفسخ أو التردد، فمن ثم اقتضت المبالغة في أمر التعجيز المذكور أن يؤكد بهذا النهي عن الغمة في المستقبل واقتضت البلاغة أن يعطف بثم لأن مرتبته متأخرة عن مرتبة ذلك الأمر وما يستلزمه من العلم بالمقتضي له، كما أن مرتبة قضاء ذلك الأمر وتنفيذه متأخرة عن مرتبة الأمر الأول والنهي كلتيهما ولذلك عطفا عليهما معاً بثم، وأكد هذا الأمر الثاني بالنهي عن الإنظار معطوفاً بالواو التي تفيد مطلق الجمع لاتحاد زمنهما ورتبتهما فلا ترتيب بينهما وقرأ نافع (فأجمعوا أمركم) بوصل الهمزة وفتح الميم من الجمع أي أجمعوا ما تفرق منه، وعلى هذا يكون قوله: ﴿وشركاءكم﴾ مفعولاً به معطوفاً عليه. لا مفعولاً لا معه، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وأبو عبد الرحمن السلمي وعيسى الثقفي (وشركاؤكم) بالرفع أي أنتم وشركاؤكم، وهذه القراءة شاذة مخالفة لخط المصحف الإمام فلا تتلى في الصلاة وقرىء «أفضوا إلي» من الإفضاء إلى الشيء وهو الوصول والانتهاء إليه مباشرة، والظاهر أنها تصحيف وإن كان المعنى المراد واحداً لا يختلف.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي انصرفتم عني مصرين على إعراضكم عن تذكيري ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي فما سألتكم على هذا التذكير ولا على غيره من مسائل الدعوة والنصح أدنى شيء من الأجر والمكافآت فتتولوا لثقله عليكم، أو فيضرني أن يفوت علي وأحرمه فأبالي بتوليكم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي ما أجري وثوابي على دعوتكم وتذكيركم إلا على الله الذي أرسلني إليكم، فهو يوفيني إياه سواء آمنتم أو توليتم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي المنقادين المذعنين بالفعل لما أدعوكم إليه أسلمتم أم كفرتم، فلا أترك شيئاً مما أمرتكم به ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ [هود: ٨٨].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي فاصروا على تكذيبه بعد أن أقام لهم الحجة بقوله وعمله على حقية دعوته، وبراءته من كل خوف منهم إذا كذبوا، ورجاء فيهم إذا آمنوا، فنجيناه هو ومن آمن معه في السفينة التي كان يصنعها بأمرنا لأجل ذلك. ولفظ الفلك هنا مفرد وهو السفينة كما عبر به في سورة العنكبوت. وهو يطلق على الجمع أيضاً كما قال: ﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ [النحل: ١٤] ويفرق بينهما بالقرائن، إن لم توصف بالجمع كالمواخر ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ يخلفون المكذبين في الأرض كلها على قلتهم ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد أن أنذرهم وأوعدهم العذاب أي وأغرقناهم لأنهم كذبوا بآياتنا ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة القوم الذين أنذرهم رسولهم وقوع عذاب الله عليهم

فأصروا على تكذيبه، فكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك، وكذلك تكون عاقبة المؤمنين المتبعين لك.

قدم ذكر تنجية المؤمنين واستخلافهم على إغراق المكذبين وقطع دابرهم، لأنه هو الأهم في سياق صدق الوعد والوعيد من وجهين: أولهما تقديم مصداق الوعد لتسلية النبي ﷺ وتسرية حزنه على قومه ومنهم، وثانيهما كونه هو الأظهر في الحجة على أنهما «أي الوعد والوعيد» من الله تعالى القادر على إيقاعهما على خلاف ما يعتقد المشركون المكذبون المغرورون بكثرتهم وقلة أتباع النبي ﷺ وخلاف الأصل المعهود في المصائب العامة في العادة وهو أنها تصيب الصالح والطالح على سواء، فلا تمييز فيها ولا استثناء، ولكنه هو الذي جرت به سنة الله تعالى في مكذبي الرسل من بعد نوح فكان آية لهم، فلولا أن الأمر بيد الله على وفق وعده ووعيده لما هلك الألوف الكثيرون، ونجا أفراد قليلون لهم صفة خاصة أخرجهم منهم تصديقاً لخبر رسولهم، وما سيق هذا النبأ هنا إلا لتقرير هذا المعنى، وغفل عنه الباحثون عن نكتة البلاغة في العدول عن الضمير إلى الاسم الموصول فقالوا إنها تعجيل المسرة للمؤمنين والإيذان بأن الرحمة مقدمة على العذاب، ولكن ما قلناه هو المقصود الأول لذاته الذي يقتضيه السياق والحمد لله ملهم الصواب.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

بين الله تعالى في هذه الآية عبرة أخرى من عبر مكذبي الرسل وسنة من سننه فيهم تكملة لما بينه في حال قوم نوح مع رسولهم عسى أن يعتبر بها أهل مكة فيعلموا كيف يتقون عاقبة المكذبين من قوم نوح وغيرهم، فإن كل سوء وضر علم سببه أمكن اتقاؤه باتقاء سببه إذا كان من عمل الناس الاختياري كالكفر والاعتداء والظلم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي بعثنا من بعد نوح رسلاً مثله إلى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه فيما يأتي من خبرهم معهم ولهذا أفرد كلمة قومهم فيما يظهر لنا منه والمراد أرسلنا كل رسول منهم إلى قومه كهود إلى عاد وصالح إلى ثمود، ولم يرسل رسول منهم إلى كل الأقوام الذين كانوا في زمانه إلا شعيباً أرسل إلى قومه أهل مدين وإلى جيرانهم أصحاب المؤتفكة لاتحادهما في اللغة والوطن، وإنما أرسل محمد وحده إلى الناس كافة.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي فجاء كل رسول منهم قومه بالبينات الدالة على رسالته وصحة ما دعاهم إليه بحسب أفهامهم وأحوالهم العقلية ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي فما كان من شأنهم أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل ممن

كان مثله في سبب كفره وهو استكبار الرؤساء، وتقليد الدهماء للآباء والأجداد ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي مثل هذا الطبع وعلى غرار هذه السنة التي اطردت فيهم نطبع على قلوب المعتدين مثلهم في كل قوم كقومك أيها الرسول إذا كانوا مثلهم ﴿ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾ [الإسراء: ٧٧] ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ [الأحزاب: ٦٢] فأما الطبع على القلوب فهو عبارة عن عدم قبولها شيئاً غير ما رسخ فيها واستحوذ عليها مما يخالفه، كقبول الجاهل المقلد الدليل العلمي على بطلان اعتقاده التقليدي، ورجوع المعاند عن عناده وكبره النفسي وقد تقدم تفصيله في تفسير ما سبق فيه من الآيات في سور النساء والأعراف والتوبة، ومثله تفسير ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ [البقرة: ٧] في أوائل سورة البقرة وأما الاعتداء الذي صار وصفاً ثابتاً لهؤلاء (المعتدين) فمعناه تجاوز حدود الحق والعدل اتباعاً لهوى النفس وشهواتها، فالطبع المذكور أثر طبعي للحالة النفسية التي عبر عنها بوصف الاعتداء، وليس عقاباً أنفاً (بضمتين أي جديد) خلقه الله لمنعهم من الإيمان، إذ لو كان كذلك لكانوا معذورين بكفرهم، ولما كان فيه عبرة لغيرهم، بل لكان حجة لهم، وقد فهمت قريش وسائر العرب ما لم يفهمه متكلموا الجبرية من هذه الآية وأمثالها، وهو أنها وصف للعلة والمعلول، والسبب والمسبب، وسنته تعالى في دوام كل منهما بدوام الآخر، لا بذاته وكونه خلقياً لا مفر منه، بل المفر أمر اختياري ممكن، وهو ترك المعاند لعناده والمقلد لتقليده، إيثاراً للحق الذين يقوم عليه الدليل، فهموا هذا فاهتدى الأكثرون بالتدريج، وهلك الذين استحبوا العمى على الهدى في غزوة بدر وغيرها.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

هذه قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وملئه ملخصة هنا في ١٩ آية مفصلة مرتبة كما نبينه في تفسيرها. وهذه الأربع منها في استكبار فرعون وملئه عن الإيمان وزعمهم أن آيات الله لموسى من السحر، وتعليل تكذيبهم له بأمرين أحدهما أن اتباعه تحويل لهم عن التقاليد الموروثة عن الآباء، والثاني أنه يسلب سلطانهم منهم وينفرد هو وأخوه بما يتمتعون به من الكبرياء في الأرض، وهذا بمعنى ما تقدم من قصة نوح المختصرة في هذه السورة. وهاك تفسيرهن بالاختصار.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل الذين بعثناهم إلى أقوامهم موسى وهارون إلى فرعون مصر وأشراف قومه الذين

هم أركان دولته وإلى قومهم القبط بالتبع لهم لأنهم كانوا مستعبدين لهم يكفرون بكفرهم، ويؤمنون بإيمانهم إن آمنوا ﴿بآياتنا﴾ أي بعثناهما مؤيدين بآياتنا التسع المفصلة في سورة الأعراف وغيرها ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي فاستكبر فرعون وملؤه أي أعرضوا عن الإيمان كبراً وعلواً مع علمهم بأن ما جاء به هو الحق، لما كانوا عليه من سعة العلم وصناعة السحر، وكانوا قوماً راسخين في الإجرام وهو الظلم والفساد في الأرض، كما قال تعالى في سورة النمل ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ [النمل: ١٤].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو آياتنا الدالة على الربوبية والألوهية ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ ووحينا إلى موسى كما هو مفصل في أول سورة الشعراء وغيرها المبطل لادعاء فرعون لهما بقوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤] وقوله: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨] ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي أقسموا إن هذا الذي جاء به موسى من الآيات الدالة على صدقه، إنما هو سحر بين ظاهر، وإنما السحر صناعة باطلة هم أحذق الناس بها، فكيف يتبعون ما جاء ينازعهم سلطانهم بها، فماذا قال لهم موسى؟

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ أي قال متعجباً من قولهم: أتقولون هذا الذي قلتم للحق الظاهر، الذي هو أبعد الأشياء عن كيد السحر الباطل، لما جاءكم وعرفتموه واستيقنته أنفسكم، حذف مقول القول لدلالة ما قبله عليه وهو قولهم: «إن هذا لسحر مبين» وكذا ما بعده وهو قوله منكراً له متعجباً منه ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ أي إن هذا الذي ترونه من آيات الله بأعينكم، وترجف من عظمته قلوبكم، لا يمكن أن يكون سحراً من جنس ما تصنعه أيديكم، ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ أي والحال المعروف عندكم أن الساحرين لا يفوزون في أمور الجد العملية من دعوة دين وتأسيس ملك وقلب نظام، وهو ما تتهمونني به على ضعفي وقوتكم، لأن السحر أمور شعوذة وتخييل، لا تلبث أن تفتضح وتزول، يدل على هذا جوابهم له.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا استفهام توريط وتقرير، تجاه ما أورده موسى من استفهام الإنكار والتعجيب، فحواه أتقر وتعترف بأنك جئتنا لتصرفنا وتحولنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من الدين القومي الوطني لنتبع دينك وتكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدينية، وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة الدنيوية التابعة لها في أرض مصر كلها؟ يعنون أنه لا غرض لك من دعوتك إلا هذا وإن لم تعترف به اعترافاً، جعلوا الخطاب الخاص بالدعوة والغرض منها لموسى لأنه هو الداعي لهم بالذات وأشركوا معه أخاه في ثمرة الدعوة وفائدتها لأنها تكون مشتركة بينهما بالضرورة ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان وإذعان فيما يخرجنا من دين آبائنا الذين تقلده عامتنا، ويسلبنا ملكنا الذي

تتمتع بكبريائه خاصتنا ـ وهم الملك وأركان دولته وبطانته وحواشيه ـ وهذان الأمران هما اللذان كانا يمنعان جميع الأقوام من اتباع الأنبياء والمصلحين في كل زمان.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

هذه الآيات الأربع في خلاصة ما قاوم به فرعون دعوة موسى لتأييد ادعائه أنه ساحر وصرف قومه عن اتباعه لعدم تمييزهم بين السحر وآيات الله له.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي ذاك ما قاله ملأ فرعون لموسى وأخيه بحضرته. وقال فرعون لملئه بعد ما رأوا من إصرار موسى على دعوة، وعدم مبالاته بالتصريح له بما يدعون أو يظنون من مراده: ائتوني بكل ساحر واسع العلم راسخ فيه متقن للسحر بالعمل كما عبر عنه في آية أخرى ﴿بكل سحار عليم﴾ [الشعراء: ٣٧].

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ المطلوبون الموصوفون بما ذكر ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ بعد أن خيروه بين أن يلقي ما عنده أولاً أو يلقوا هم ما عندهم كما هو مبين في سورتي الأعراف وطه ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ليترتب عليه إبطال الباطل وإظهار الحق.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ ما ألقوه من حبالهم وعصيتهم الصناعية السحرية ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ أي هذا الذي جئتم به وألقيتموه أمامنا هو السحر لا ما جئت به من آيات الله تعالى وسماه فرعون وملؤه سحراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي سيظهر بطلانه للناس وإنه صناعة خادعة، لا آية خارقة صادعة، فالجملة استئنافية لبيان ما يوقن به موسى من مآل هذا السحر، ويجوز أن تكون خبراً لما قبلها ويكون التقدير: ما جئتم به الذي هو السحر، إن الله سيبطله بما جئت به من الحق، وعلل حكمه بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهو قاعدة عامة مبينة لسنة الله في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، ويدخل فيها سحرهم فإنه باطل وفساد أي لا يجعل عمل المفسدين صالحاً، والسحر من عمل فرعون وقومه المفسدين.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي يثبت الحق الذي فيه صلاح الخلق وينصره على ما يعارضه من الباطل بكلماته التكوينية وهي مقتضى إرادته، وكلماته التشريعية التي يوحيها إلى رسله، ومنها وعده بنصري على فرعون وإنقاذ قومي من عبوديته وظلمه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ كفرعون وقومه. وقد سبق تفسير مثل هذه الآية في سورة الأنفال [الآيتان: ٧ ـ ٨].

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن

كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

هذه الآيات الخمس في بيان ما كان من شأن موسى مع قومه بني إسرائيل الذين أرسله الله ليخرجهم من مصر، في إثر ما كان من شأنه مع فرعون وملئه.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ المتبادر إلى فهمي أن عطف هذه الجملة على ما قبلها بالفاء لإفادة السببية أو التفريع، أي إن إصرار فرعون وقومه على الكفر بموسى بعد خيبة السحرة وظهور حقه على باطلهم، ثم عزمه على قتله كما أنبأ الله تعالى بقوله: ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ [غافر: ٢٦] يعني بالفساد الثورة والخروج على السلطان ـ كما قتل من آمن به من السحرة. كل هذا أوقع الخوف والرعب في قلوب بني إسرائيل قوم موسى فما آمن له إلا ذرية من قومه وهم الأحداث من المراهقين والشبان، وقيل قوم فرعون ولكن من آمن به منهم كان يكتم إيمانه ولا يقال آمن له إلا من اتبعه مؤمنا، ولم يكونوا صغاراً. والذرية في اللغة الصغار من الأولاد، قال الراغب وإن كان يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف، ويستعمل للواحد والجمع وأصله الجمع.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي آمنوا على خوف من فرعون وملئهم أي أشراف قومهم الجبناء المرائين الذين هم عرفاؤهم عند فرعون فيما يطلب هو منهم، فإن الملوك يستذلون الشعوب ويستعبدونهم برؤساء وعرفاء منهم، وقيل ملأ فرعون وجمع ضميره للتعظيم على خوف منه أن يفتنهم عن الإيمان لموسى واتباع دينه بالتعذيب والإرهاق. الفتون الابتلاء والاختبار الشديد للحمل على الشيء أو على تركه، واستعمل في الاضطهاد والتعذيب للارتداد عن الدين بكثرة كما تقدم في تفسير ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ [البقرة: ١٩٣] ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي والحال أن فرعون عات شديد العتو مستبد غالب قوي القهر في أرض مصر فهو جدير بأن يخاف منه. فالمراد بعلوه قهره واستبداده كما حكى الله عنه بقوله: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ [الأعراف: ١٢٧].

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي المتجاوزين حدود الرحمة والعدل، إلى الظلم والقتل، والعدوان والبغي، وغمط الحق واحتقار الخلق (وهو معنى الكبرياء).

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد مرشداً

ومثبتاً لهم ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا، وبوعده فثقوا، إن كنتم في إيمانكم مستسلمين مذعنين بالفعل، وإنما يكون الإيمان يقيناً إذا صدقه العمل وهو الإسلام، وهذا لا يدل على إيمان جميع قومه كما قيل، فالإيمان بالله غير الإيمان لموسى المتضمن لمعنى الإسلام والاتباع المشار إليه بقوله: ﴿إن كنتم مسلمين﴾ وهم قد طلبوا منه بعد نجاتهم أن يجعل لهم آلهة من الأصنام، ثم اتخذوا العجل المصنوع وعبدوه.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فامتثلوا الأمر، إذ علموا أنه يتوقف عليه إنجاز الوعد، وصرحوا به في القول، مع الدعاء بأن يحفظهم الله من فتنة القوم الظالمين بالفعل، فإن التوكل على الله الذي هو أكبر مقامات الإيمان لا يكمل إلا بالصبر على الشدائد، والدعاء لا يصح ولا يقبل فيستجاب، إلا إذا كان مسبوقاً أو مقارناً لاتخاذ الأسباب، وهو أن تعمل ما تستطيع، وتطلب من الله أن يسخر لك ما لا تستطيع. ولفظ «فتنة» هنا يحتمل معنى الفاتن والمفتون فكأنهم قالوا ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنا بهم فنتولى عن اتباع نبينا، أو نضعف فيه فراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، ويظنوا أنهم على الحق وأننا على الباطل ومن المعقول والثابت بالتجارب أن سوء حال المؤمنين وأهل الحق في أي حال من ضعف أو فقر أو عمل مذموم يجعلهم موضعاً أو موضوعاً لافتتان الكفار وأهل الباطل بهم، باعتقاد أنهم هم خير منهم، كما قال تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ [الأنعام: ٥٣] وقال: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾ [الفرقان: ٢٠] فكيف إذا خذل أهل الحق حقهم، وكفروا نعمة ربهم؟

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي نجنا من سلطانهم وحكمهم لأن حكم الكافر لا يطاق. ومثل هذا الدعاء في جملته قوله تعالى في سياق التأسي بإبراهيم والذين آمنوا معه في أقوالهم لقومهم وأفعالهم وتوكلهم ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [الممتحنة: ٤، ٥] وما أجدر المسلمين اليوم بهذه الأسوة، وتجديد الإنابة، وتكرار هذا الدعاء خاشعين معتبرين مستعبرين، فقد أصبحوا فتنة للقوم الكافرين.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يقال تبوأ الدار: اتخذها مبوء أو مباءة أي مسكنا ثبتاً وملجأ يبوء إليه أي يرجع كلما فارقه لحاجة، وبوأها غيره. وقوله: ﴿أن تبوءا﴾ تفسير لأوحينا لأنه بمعنى قلنا لهما: اتخذا لقومكما بيوتاً في مصر تكون مساكن وملاجىء يبوءون إليها ويعتصمون بها ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي متقابلة في وجهة واحدة فالقبلة في اللغة ما يقابل الإنسان ويكون تلقاء وجهه ومنه قبلة

الصلاة وهي أخص ويصح الجمع هنا بين المعنيين العام والخاص بقرينة قوله ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي فيها متوجهين إلى وجهة واحدة لأن الاتحاد في الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب كما قال النبي ﷺ في حكمة تسوية الصفوف في الصلاة «ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»[1] وحكمة هذا أن يكونوا مستعدين لتبليغهما إياهم ما يهمهم ويعنيهم مما بعثنا لأجله وهو إنجاؤهم من عذاب فرعون بإخراجهم من بلاده واختلف المفسرون في الجهة التي أمروا باستقبالها والتوجه إليه في الصلاة وهي لا تعلم إلا بنص ولا نص ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملئه الظالمين لهم وتنجيتهم من ظلمهم. خص الله موسى بهذا الأمر (التبشير) لأنه من أمر الوحي والتبليغ المنوط به، وأشرك هارون معه في الأمر الذي قبله لأنه تدبير عملي هو وزيره المساعد له على تنفيذه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

هاتان الآيتان هما الرابطتان بين سيرة موسى وهارون مع فرعون وقومه في مصر، وبين ما انتهت إليه من نصر الله له عليه وإنجاء بني إسرائيل من ظلمه، وإهلاكه عقاباً له كما وقع لنوح مع قومه.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بعد أن أعد بني إسرائيل للخروج من مصر إعداداً دينياً دنيوياً، متوجهاً إلى الله تعالى في إتمام الأمر، بعد قيامه بما يقدر عليه هو وبنو إسرائيل من الأسباب ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم دون دهمائهم ـ من الصناع والزراع والجند والخدم ـ زينة من الحلي والحلل والآنية والماعون والأثاث والرياش، وأموالاً كثيرة الأنواع والمقادير، يتمتعون بها وينفقون منها في حظوظ الدنيا من العظمة الباطلة والشهوات البدنية بدون حساب.

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح، ذلك بأن الزينة سبب الكبر والخيلاء والطغيان على الناس، وكثرة الأموال تمكنهم من ذلك وتخضع رقاب

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة حديث ١٢٢، وأبو داود في الصلاة باب ٩٣، ٩٥، والترمذي في الصلاة باب ٥٤، والنسائي في الإمامة باب ٢٣، ٢٥، ٢٦، وابن ماجه في الإقامة باب ٤٥، والدارمي في الصلاة باب ٤٩، ٥١، وأحمد في المسند ١/٤٥٧، ٤/١٢٢، ٢٧٦، ٢٨٥، ٢٩٧، ٣٠٤، ٥/ ١٦٤.

الناس لهم، كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ [العلق: ٦، ٧] وذلك دأب فراعنة مصر به تشهد آثارهم وركازهم التي لا تزال تستخرج من برابيهم[١] ونواويس قبورهم إلى يومنا هذا الذي أكتب فيه تفسير هذه الآيات وتحفظ في دار الآثار المصرية، ويوجد مثلها دور أخرى في عواصم بلاد الإفرنج ملأى بأمثالها. فاللام في قوله: ﴿ليضلوا﴾ تسمى لام العاقبة والصيرورة وهي الدالة على أن ما بعدها أثر وغاية فعلية لمتعلقها يترتب عليه بالفعل لا بالسببية ولا بقصد فاعل الفعل الذي تتعلق به كقوله تعالى في موسى عليه السلام ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: ٨] ويميز بينها وبين لام كي الدالة على علة الفعل بالقرينة. وجعلها بعضهم هنا منها وحملوها على الاستدراج أي آتيتهم ذلك لكي يضلوا الناس فيستحقوا العقاب.

وقد يعززه قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يقال طمس الأثر وطمسته الريح إذا زال حتى لا يرى أولاً يعرف ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون﴾ [يس: ٦٦] وهو يصدق بالعمى وبعدم الانتفاع بها كما سبق قريباً في قوله: ﴿ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون﴾ [يونس: ٤٣] واتفقوا على أن المراد بالعمى هنا عمى البصيرة لا البصر، والمعنى هنا ربنا امحق أموالهم بالآفات التي تصيب حرثهم وأنعامهم وتنقص مكاسبهم وثمراتهم وغلاتهم فيذوقوا ذل الحاجة ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي اطبع عليها، وزدها قساوة وإصراراً وعناداً، حتى يستحقوا تعجيل عقابك فتعاقبهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ هذا جواب للدعاء أو دعاء آخر بلفظ النهي متمم له. وقد روي أن موسى دعا بهذا الدعاء، وأمن هارون عليهما السلام كما هو المعتاد، فاستجاب الله تعالى لهما بقوله.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ أي قبلت، وإذا قبلت نفذت ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على ما أنتما عليه من دعوة فرعون وقومه إلى الحق، ومن إعداد بني إسرائيل للخروج من مصر. وعن ابن عباس (رض) فامضيا لأمري وهو الاستقامة ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ولا تسلكان طريق الذين لا يعلمون سنتي في خلقي، وإنجاز وعدي لرسلي، فتستعجلا الأمر قبل أوانه، وتستبطئا وقوعه في إبانه.

هذا ـ وإن في قصة موسى وفرعون في سفر الخروج ما يفسر استجابة هذا الدعاء بما يوافق ما قلناه هنا من إرسال الله النوازل على مصر وأهلها، ولجوء فرعون

---

(١) البرابي: مبان بشكل غريب، جمع بربى، بالفتح والقصر، وقد تكتب بربا، وهي كلمة قبطية معناها المعبد والهيكل، والنواويس: صناديق من الحجارة توضع فيها جثث الموتى. والركاز الأموال التي كان الأقدمون يدفنونها في الأرض من ركزه إذا أثبته، فهو ككتاب بمعنى مكتوب.

وآله إلى موسى عند كل نازلة منها ليدعو ربه فيكشفها عنهم فيؤمنوا به حتى إذا ما كشفها قسّى الرب قلب فرعون فأصر على كفره. وقد فصلنا هذا في تفسير قوله: [الآيات: ١٣٣ ـ ١٣٥] من سورة الأعراف ومنه تعلم أن كل ما خالفها من أقوال المفسرين في معنى الطمس على أموالهم فهو من أباطيل الروايات الإسرائيلية التي كان من مقاصد كعب الأحبار وأمثاله منها (كما نرى) صد اليهود عن الإسلام بما يرونه في تفسير المسلمين للقرآن مخالفاً لما هو متفق عليه عندهم وعند غيرهم من المؤرخين في وقائع عملية وأمور حسية.

﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

هذه الآيات الثلاث في بيان العبرة بآخر القصة وما كان من عاقبة تأييد الله لموسى وأخيه الضعيفين بأنفسهما، على فرعون وقومه أعظم أهل الأرض قوة ودولة.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ يقال جاز المكان وجاوزه إذا ذهب فيه وقطعه حتى خلفه وراءه. وأصله من جوز الطريق ونحوه وهو وسطه، وتسمية الجوزاء مأخوذة من تعرضها في جوز السماء أي وسطها، ومجاوزة الله البحر بهم عبارة عن كونهم جاوزوه بمعونته تعالى وقدرته وحفظه، إذ كان آية من آياته لنبيه موسى عليه السلام بفرقة تعالى بهم البحر وانفلاقه لهم كما تقدم في سورة البقرة والأعراف ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ أي لحقهم فأدركهم ظلماً وعدواناً عليهم ليفتك بهم أو يعيدهم إلى مصر حيث يتعبدهم ويسومهم سوء العذاب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ أي فخاض البحر وراءهم حتى إذا وصل إلى حد الغرق قال ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي قال قبل أن يغرق وهو يدل على أن البحر لم يطبق عليه دفعة واحدة: آمنت أنه لا إله بالحق إلا الرب الذي آمنت به جماعة بني إسرائيل بدعوة موسى.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي وأنا فرد من جماعة المذعنين له المنقادين لأمره، بعد ما كان من كفر الجحود بآياته والعناد لرسوله يعني أنه جمع بين الإيمان الذي هو التصديق بالقلب، والإسلام الذي هو الإذعان والخضوع بالفعل، بدون امتياز لعظمة الملك، وكان من قبل جاحداً، أي مصدقاً غير مذعن ولا خاضع، بدليل قوله تعالى فيه وفي آله ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ [النمل: ١٤] يعني آيات موسى. وهذه هي العاقبة، وقد أجيب فيها فرعون عن دعواه بقوله تعالى الذي يعرف بلسان الحال أو بقول جبريل عليه السلام:

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي أتسلم الآن أو تدعي الإسلام وإذعان الطاعة والانقياد، حيث لا محل له ولا إمكان، بما حال دونه من الهلاك، وقد عصيت قبله وكنت من المفسدين في الأرض الظالمين للعباد، والمراد أن دعوى الإسلام الآن باطلة، والإيمان بدون الإسلام مع إمكانه لا يقبل فكيف يقبل وقد صار اضطراراً لا معنى لقبوله، لأنه انفعال لا فعل لصاحبه، وجملة القول إن إسلامه كان كما قال الشاعر:

أتت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

وقد تقدم مثل هذا الاستفهام الإنكاري في هذه السورة وهو قوله تعالى في المكذبين بوعد الله تعالى ووعيده بما كان يحملهم على استعجال عذابه ﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون﴾ [يونس: ٥١] وسيأتي بعد بضع آيات منها أن الإيمان لا ينفع عند وقوع عذاب الاستئصال الذي هو نهاية أجل القوم كما أنه لا ينفع عند موت الشخص، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار﴾ [النساء: ١٨] ومن البديهي أن التوبة من الكفر والمعصية إنما تنفع بالرجوع إلى الطاعة. على أن اليائس من الشيء بالفعل، لا يعقل أن يكون صادقاً في ادعائه إياه أو طلبه له بالقول. ولعل فرعون أراد بقوله حينئذ إنه من جماعة المسلمين أنه موطن نفسه على أن يكون منهم إن نجاه الله تعالى، وأنه كان يرجو بهذا أن ينجيه الله تعالى كما نجاه وقومه من كل نازلة من عذاب الله حلت به وبقومه إذ كان يقول لموسى ﴿ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ [الأعراف: ١٣٤] ولكن تلك النوازل إنما كانت لأجل إرسال بني إسرائيل مع موسى فهي غايتها، ولم تكن عقاباً على الإصرار على كفر الجحود والعناد الذي هو شر أنواع الكفر وأدلها على خبث طوية صاحبه، كذا العقاب الأخير بعد نجاة بني إسرائيل منه رغم أنفه.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ قال أبو جعفر بن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره لفرعون فاليوم نجعلك على نجوة من الأرض ببدنك ينظر إليك من كذب بهلاكك ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ يقول لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك فينزجرون عن معصية الله والكفر به، والسعي في أرضه بالفساد. والنجوة الموضع المرتفع من الأرض. ومنه قول أوس بن حجر:

فمن بعقوته كمن بنجوته والمستكنُّ كمن يمشي بقرواحِ(١)

---

(١) يروى صدر البيت:

فمن بنجوته كمن بعقوته =

ثم ذكر رواته عمن قال بهذا القول. وقال أهل اللغة: سمي المكان المرتفع نجوة ونجاة ـ وزاد بعضهم: منجى ـ لأن من عليه ينجو من السيل، وإنما دفعه ودفعهم إلى تفسير الآية بهذا الوجه من اللغة أن إنجاء الإنسان من الغرق إنما يكون بخروجه حيا ببدنه ونفسه كما تقدم قريباً في إنجاء نوح ومن معه، في الفلك، وكل استعماله في القرآن بمعنى النجاة من العذاب كإنجاء بني إسرائيل من فرعون وآله، وقال بعضهم إن التعبير بالتنجية تهكم به، وأن الحكمة بذكر البدن أنه يخرج جسده سالماً ليعرف، وقيل إن المراد بالبدن الدرع فهو من أسمائها في اللغة، وإنما محل العبرة أن يلفظه البحر ببدنه ليعرف فيعتبر بنو إسرائيل الذي قيل إنهم شكوا في غرقه ويعتبر القبط الذين عبدوه، ولذلك قيل إن درعه كانت معروفة وأنها من الذهب أو كان له فوق درع الزرد درع أخرى من الذهب، ولكن الدروع تقتضي رسوب الغريق في البحر إلا أن يجرفه الموج. وأما العبرة لمن بعده فهي أعم: هي ما سيقت القصة لأجله من كونها شاهداً كالتي قبلها على صدق وعد الله لرسله ووعيده لأعدائهم كطغاة مكة التي أنزلت هذه الآيات بل هذه السورة كلها لإقامة حجج الله عليهم في هذه المسألة قبل غيرهم، لأنهم أول من بلغته الدعوة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ تعريض بهم وأكده هذا التأكيد لما تقتضيه شدة الغفلة من قوة التنبيه أي إنهم لشديدو الغفلة عنها على شدة ظهورها، فلا يتفكرون في أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها، ولا يعتبرون بها، وإنما يمرون عليها معرضين كما يمرون على مسارح الأنعام، وفيه ذم للغفلة وعدم التفكر في أسباب الحوادث وعواقبها واستبانة سنن الله فيها، للاعتبار والاتعاظ بها. ومن العجيب أن يكون أهل القرآن منهم، كلا إنه حجة على الغافلين بريء منهم.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

هذه الآية خاتمة هذه القصة ومنتهى العبرة فيها لمكذبي محمد ﷺ والجاحدين من قومه المغرورين بقوتهم وكثرتهم وثروتهم، في موسى والجاحدين لآياته من فرعون وقومه، وقد كانوا أكثر منهم عدداً، وأشد قوة، وأعظم زينة وأوفر ثروة، وسنة الله في موسى ومن قبله واحدة، وقصته كقصة نوح في العاقبة، وأما نصر الله لمحمد

= والبيت من البسيط، وهو لعبيد بن الأبرص في ديوانه ص١٥، ولسان العرب (قرح)، (نجا)، وكتاب العين ٣/ ٤٤، ٦/ ١٨٦، ومجمل اللغة ٤/ ٣٨٤، وديوان الأدب ٢/ ٧٣، وتهذيب اللغة ١١/ ٢٠١، وتاج العروس (قرح)، وأمالي القالي ١/ ١٧٧، ولأوس بن حجر في ديوانه ص١٦، والشعر والشعراء ص٢١٤، والأغاني ١١/ ٧٥، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٥/ ٣٩٨، والمخصص ٩/ ١٠٣.

نبي الرحمة وإنجاز وعده له، قد جرى على وجه أتم وأكمل في غايته، وإن لم يكن غريباً في صورته، وهو أن الله تعالى أهلك أكثر زعماء أعدائه المشركين، وأخضع له الآخرين، وجعل العاقبة لأتباعه المؤمنين، وأعطاهم أعظم ملك في العالمين، ومنه ما كان أعطى موسى من قبل وهو فلسطين. قال:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ قلنا آنفاً إن المبوأ مكان الإقامة الأمين. وأضيف إلى الصدق لدلالته على صدق وعد الله تعالى لهم به وهو منزلهم من بلاد الشام الجنوبية المعروفة بفلسطين ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فيه، وهي التي أشير إليها في وصف أرضها من كتبهم بأنها تفيض لبناً وعسلاً، وما فيها من الغلات والثمرات والأنعام، وكذا صيد البر والبحر، وقد بينا من قبل ما كان من وعد الله لهم بهذه الأرض المباركة على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومن أيلولة هذه الأرض من بعدهم لذرية إبراهيم من العرب بعد حرمان اليهود منه تصديقاً لوعيد أنبيائهم لهم على كفرهم بنعم الله تعالى أولاً ثم بكفرهم بعيسى، ثم بمحمد رسول الله النبي الأمي الذي وعدهم به على لسانه ولسان من قبله كما تقدم تفصيله في تفسير سورة الأعراف وأشير إليه هنا بقوله ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ على قول بعض المفسرين أن المراد بالعلم هنا محمد ﷺ أو رسالته أو القرآن الذي هو أكمل وأتم، ما أنزل الله من علم الدين وقوله تعالى في سياق الرد على أهل الكتاب ﴿لكن الله يعلم بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ [النساء: ١٦٦] وقوله: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [هود: ١٤] وقوله: ﴿بكتاب فصلناه على علم﴾ [الأعراف: ٥٢] فقد كانوا متفقين على بشارة أنبيائهم به قبل بعثته فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

وقال آخرون وهو الأظهر: إن المراد هنا علم الدين مطلقاً، وقد اختلفوا فيه كغيرهم ممن أوتوا الكتب من وجوه فصلناها في تفسير الآية العامة في الاختلاف وهي (٢: ٢١٣) وفي الآية ١٩ من هذه السورة وما هي ببعيد ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إذ جعلوا الدواء عين الداء في أمر الدين بعد إذ أنزل عليهم الكتاب ليحكم بينهم فاختلفوا في الكتاب بغياً بينهم.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

هذه الآيات الأربع فذلكة هذا السياق الذي كان ذكر قصص الأنبياء شواهد فيه، وهي تقرير صدق القرآن في دعوته ووعده ووعيده، وكونه لا مجال للامتراء فيه،

وبيان الداعية النفسية للمكذبين بآياته، وتوجيه الاعتبار إلى أهل مكة مقروناً بالإنذار، بأسلوب التعريض والتلطف في العبارة، على حد: إياك أعني واسمعي يا جاره ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي فإن كنت أيها الرسول في شك مما أنزلنا إليك في هذه الشواهد من قصة موسى ونوح وغيرهما على سبيل الفرض والتقدير، الذي ذكر على عادة العرب في تقدير الشك في الشيء ليبني عليه ما ينفي احتمال وقوعه أو ثبوته أمراً أو نهياً أو خبراً، كقول أحدهم لابنه: إن كنت ابني فكن شجاعاً أو فلا تكن بخيلاً، أو فإنك ستكون أو ستفعل كذا ـ بل يفرضون سؤال الديار والأطلال أيضاً ومنه قول المسيح في جواب سؤال الله تعالى إياه ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته﴾ [المائدة: ١١٦] وهذه الجملة الشرطية محل الشاهد، فهو عليه السلام يعلم أنه لم يقل ذلك، ولكنه يفرضه ليستدل عليه بأنه لو قاله لعلمه الله منه.

وبعض العلماء يجري على هذا الأسلوب فيشكك تلميذه أو مناظره فيما لا شك فيه عندهما ليبني عليه حكماً آخر. ويجب في مثل هذا أن يكون فعل بالشرط بأن التي وضعت للدلالة على عدم وقوعه أو تنزيله منزلة ما لا يقع، دون إذا الدالة على أن الأصل في فعل شرطها الوقوع ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ هذا جواب الشرط المقدر قال ابن عباس لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل، وروي مثله عن سعيد بن جبير والحسن البصري قالاه فهما لغوياً، وروي عن قتادة خبراً قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل» ولم يسم الصحابي الذي ذكره فهو مرسل، والمراد بالكتاب جنسه، أي فاسأل الذين يقرءون كتب الأنبياء كاليهود والنصارى فإنهم يعلمون أن ما أنزلناه إليك من الشواهد حق لا يستطيعون إنكاره، وقال بعض المفسرين إن المراد سؤال من آمن منهم كعبد الله بن سلام من علماء اليهود وتميم الداري من علماء النصارى ولا حاجة إليه، والآية بل السورة نزلت في مكة ولم يكن أحد من أهل الكتاب آمن.

ومما يؤكد كون السؤال مفروضاً فرضاً قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فهذه الشهادة المؤكدة بالقسم من ربه، تجتث احتمال إرادة الشك والسؤال بالفعل من أصله، ويزيدها تأكيداً قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي من فريق الشاكين الذين يحتاجون إلى السؤال، وهذا النهي والذي بعده يدلان على أن فرض وقوع الشك والسؤال فيما قبلهما عنه تعريض بالشاكين والممترين والمكذبين له ﷺ من قومه.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ يعني أن كل من كان من المكذبين فهو من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بالحرمان من الإيمان وما

يتبعه من سعادة الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وإن فرض أنه أول المؤمنين، محمد رسول الله وخاتم النبيين، ورحمته للعالمين، وأن الممترين الشاكين فيما أنزل إليك كالمكذبين بآيات الله جحوداً بها وعناداً، كلاهما سواء في الخسران المذكور لحرمان الجميع من الاهتداء بها وما له من ربح سعادة الدنيا والآخرة. وهذا النوع من الأمر والنهي للمؤتمر المنتهي والمراد غيره على سبيل التعريض أبلغ من قوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين * قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون﴾ [سبأ: ٢٤] ولكل منهما موقع وتأثير خاص في استمالة الكافرين إلى التأمل والتفكر في مضمون الدعوة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن الذين ثبتت عليهم كلمة العذاب من ربك وهي كلمة التكوين الدالة على سنته فيمن فقدوا الاستعداد للاهتداء، لا يؤمنون لرسوخهم في الكفر والطغيان، وإحاطة خطاياهم وجهالاتهم بهم من كل مكان، وإعراضهم عن آيات الإيمان، هذا معنى قوله: ﴿لا يؤمنون﴾ لا أنه تعالى منعهم من الإيمان منعاً خلقياً قهرياً لا كسب لهم فيه ولا اختيار. وهذا بمعنى الآية ٣٣ من هذه السورة فراجع تفسيرها.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ من الآيات الكونية كآيات موسى التي اقترحوها عليك أيها الرسول، والآيات المنزلة كآيات هذا القرآن العلمية العقلية الدالة بإعجازها على كونها من عند الله، وعلى حقية ما تدعوهم إليه وتنذرهم إياه، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ بأعينهم، ويذوقوه بوقوعه بهم، وحينئذ يكون إيمانهم اضطرارياً لا يعد فعلاً من أفعالهم، ولا يترتب عليه عمل يطهرهم ويزكي أنفسهم، بل يقال لهم ﴿آلآن وقد كنتم به تستعجلون﴾ [يونس: ٥١] كما قيل لفرعون ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ [يونس: ٩١].

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

هذه الآيات الثلاث تفريع على اللواتي قبلهن وتكميل لهن في بيان سنة الله في الأمم مع رسلهم، وفي خلق البشر مستعدين للأمور المتضادة من الإيمان والكفر، وفي تعلق مشيئة الله وحكمته بأفعاله وأفعال عباده ووقوعها على وفقهما.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ لولا هذه للتحضيض كما قال أئمة اللغة والنحو. والمراد بالقرية أهلها وهم أقوام الأنبياء فإنهم كلهم بعثوا في أهل الحضارة

والعمران دون البادية. أي فهلا كان أهل قرية من قرى أقوام أولئك الرسل آمنت بدعوتهم وإقامة الحجة عليهم، فنفعها إيمانها قبل وقوع العذاب الذي أنذروا به، أي أنه لم يؤمن قوم منهم برمتهم، فإن التحضيض يستلزم الجحد ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ قبل وقوع العذاب بهم بالفعل، وكانوا علموا بقربه من خروج نبيهم من بينهم وروي أنهم رأوا علاماته، ويجوز في هذا الاستثناء الاتصال والانفصال.

﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي صرفنا عنهم عذاب الذل والهوان في الدنيا لأن نبيهم خرج بدون إذن الله تعالى له فلم تتم عليهم الحجة، ولا حقت عليهم كلمة العذاب، وقد استدلوا بذهابه مغاضباً لهم على قرب وقوع العذاب كما أنذرهم فتابوا وآمنوا فكشفناه عنهم ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي ومتعناهم بمنافعها إلى زمن معلوم هو عمرهم الطبيعي الذي يعيشه كل منهم بحسب سنته تعالى في استعداد بنيته ومعيشته. وقد فصلنا الكلام في الأجل الذي يسمى الطبيعي وغيره في تفسير ﴿ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾ [الأنعام: ٢] من سورة الأنعام ولا محل للبحث عن تعذيبهم في الآخرة كما فعل بعض المفسرين فإن شهادة الله تعالى لهم بالإيمان النافع ظاهرة في قبوله منهم صريحة، في أنه لا يعذبهم في الآخرة على سابق كفرهم، وإنما يجزون بغيره من أعمالهم بعد الإيمان.

هذا الذي فسرنا به الآية هو المتبادر من عبارتها والموافق للسياق ولسنة الله تعالى في أقوام الأنبياء عليهم السلام. وفيه تعريض بأهل مكة وإنذار لهم وحض على أن يكونوا كقوم يونس الذين استحقوا عذاب الخزي بعنادهم حتى إذا أنذرهم نبيهم قرب وقوعه وخرج من بينهم اعتبروا وآمنوا قبل اليأس، وحلول البأس، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما ثبت من خبره عليه السلام في تفسير سورتي الأنبياء والصافات، وهو موافق في جملته لما عند أهل الكتاب.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي ولو شاء ربك ـ أيها الرسول الحريص على إيمان الناس ـ أن يؤمن أهل الأرض كلهم جميعاً لا يشذ أحد منهم لآمنوا، بأن يلجئهم إلى الإيمان إلجاء، ويوجره في قلوبهم إيجاراً، ولو شاء لخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة، لا استعداد في فطرتهم لغير الإيمان، وفي معنى هذا قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ [الأنعام: ١٠٧] وقوله: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ [هود: ١١٨] والمعنى الجامع في هذه الآيات أنه لو شاء الله ألا يخلق هذا النوع المسمى بالإنسان المستعد بفطرته للإيمان والكفر، والخير والشر، الذي يرجح أحد الأمور الممكنة المستطاعة له على ما يقابله ويخالفه بإرادته واختياره، لفعل ذلك، ولما وجد الإنسان في الأرض، ولكن اقتضت حكمته أن يخلق هذا النوع العجيب ويجعله خليفة في الأرض، كما تقدم بيانه في قصة آدم من سورة البقرة وفي

آيات أخرى، هكذا خلق الله الإنسان منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به كما تقدم.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن هذا ليس في استطاعتك أيها الرسول ولا من وظائف الرسالة التي بعثت بها أنت وسائر الرسل ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ [الشورى: ٤٨] ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ [ق: ٤٥] وهذه أول آية نزلت في أن الدين لا يكون بالإكراه، أي لا يمكن للبشر ولا يستطاع، ثم نزل عند التنفيذ ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦] أي لا يجوز ولا يصح به، وذكرنا في تفسيرها سبب نزولها وهو عزم بعض المسلمين على منع أولادهم كانوا تهودوا من الجلاء مع بني النضير من الحجاز، فأمرهم النبي ﷺ بأن يخيروهم، وأجمع علماء المسلمين على أن إيمان المكره باطل لا يصح. لكن نصارى الإفرنج ومقلديهم من أهل الشرق لا يستحون من افتراء الكذب على الإسلام والمسلمين، ومنه رميهم بأنهم كانوا يكرهون الناس على الإسلام ويخيرونهم بينه وبين السيف يقط رقابهم، على حد المثل «رمتني بدائها وانسلت».

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وما كان لنفس ولا من شأنها فيما أشير إليه من استقلالها في أفعالها، ولا مما أعطاها الله من الاختيار فيما هداها من النجدين، وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريين، أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سننه في استطاعة الترجيح بين المتعارضين، فهي مختارة في دائرة الأسباب والمسببات، ولكنها غير مستقلة في اختيارها أتم الاستقلال، بل مقيدة بنظام السنن والأقدار، فالمنفي هو استطاعة الخروج عن هذا النظام العام، لا الاستطاعة الخاصة الموافقة له، ومثله قوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ [آل عمران: ١٤٥] أي إلا بمشيئته الموافقة لحكمته وسننه في أسباب الموت، فكم من إنسان يعرض نفسه للموت شهيداً أو منتحراً بما يتراءى له من أسبابه، ثم لا يموت بها لنقصها أو لمعارض مناف لها في نظام القدر الذي لا يحيط به علماً إلا الله تعالى، ومعنى الإذن في اللغة الإعلام بالرخصة في الأمر أي تسهيله وعدم المانع منه.

﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا عطف على محذوف يدل عليه المذكور دلالة الضد على الضد أو النقيض على النقيض، أي وإذ كان كل شيء بإذنه وتيسيره ومشيئته التي تجري بقدره وسننه، فهو يجعل الإذن وتيسير الإيمان للذين يعقلون آياته في كتابه وفي خلقه، ويوازنون بين الأمور فيختارون خير الأعمال على شرها، ويرجحون نفعها على ضرها، بإذنه وتيسيره، ويجعل الرجس أي الخذلان والخزي المرجح للكفر والفجور، على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون، فهم لأفن رأيهم، واتباع أهوائهم، يختارون الكفر على الإيمان والفجور على التقوى. وتقدم في

تفسير آيات الخمر والميسر من سورة المائدة وفي الكلام على المنافقين من أواخر سورة التوبة، أن الرجس لفظ يعبر به عن أقبح الخبث المعنوي الذي هو مبعث الشر والإثم.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾
ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

هذه الآيات الثلاث إرشاد للعقلاء الذين يفهمون مما قبلها أن سنة الله تعالى في نوع الإنسان، أن خلقه مستعداً للإيمان والكفر، والخير والشر، وله الاختيار لنفسه، وأن الرسول الحريص على إيمان الناس لا يقدر على جعلهم مؤمنين، لأن الله القادر على ذلك لم يشأ أن يجعلهم أمة واحدة على الإيمان وحده ولا على الكفر وحده، وإنما جعل مدار سعادتهم على حسن استعمال عقولهم باختيارهم في التمييز بين الكفر والإيمان، وما الرسول إلا بشير ونذير يبين الطريق المستقيم للعقل المستنير، فالدين مساعد للعقل على حسن الاختيار إذا أحسن النظر والتفكير، والله تعالى يأمر بهما بمثل قوله:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قل أيها الرسول لقومك الذين تحرص على هداهم: انظروا بعيون أبصاركم وبصائركم ماذا في السموات والأرض من آيات الله البينات والنظام الدقيق العجيب في شمسها وقمرها، وكواكبها ونجومها، وبروجها ومنازلها، وليلها ونهارها، وسحابها ومطرها، وهوائها ومائها، وبحارها وأنهارها، وأشجارها وثمارها، وأنواع حيواناتها البرية والبحرية، ففي كل من هذه الأشياء التي تبصرون آيات كثيرة تدل على علم خالقها وقدرته، ومشيئته وحكمته، ووحدة النظام في جملتها وفي كل نوع منها هو الآية الكبرى على وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، ثم انظروا ماذا في أنفسكم منها كما قال: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] إنه يريكم كل هذه الآيات ثم أنتم تشركون.

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يجوز في هذه الجملة النفي والاستفهام، والنذر فيها جمع نذير أو إنذار: والمعنى أن الآيات الكونية على ظهور دلالتها، والنذر التشريعية على بلاغة حجتها، لا فائدة فيهما ولا غنى لقوم لا يؤمنون بالله عن الإيمان الذي يهديهم إلى الاعتبار بالآيات، والاستدلال بها على ما تدل عليه أكمل الدلالة من وحدانية الله وقدرته، ومشيئته وحكمته، وفضله ورحمته، والاعتبار بسننه في خلقه، ففائدة الإيمان الأولى توجيه عقل الإنسان إلى حسن القصد في نظره في الآيات، والاستفادة منها فيما يزكي نفسه بالعلم والإيمان، ويرفعها عن أرجاس الأمور وسفسافها، وبهذا تفهم معنى جعل الرجس على الذين لا يعقلون، فليس المراد بالذين لا يعقلون المجانين الفاقدين لغريزة العقل، بل المراد به الذين لا يستعملون

العقل في أفضل ما هو مستعد له من المعرفة بالله وتوحيده وعبادته، التي تجعلهم أهلاً لإتمام نعمه عليهم وكرامته، بالتزام الحق والعدل، وإيثار الخير على الشر.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي إذا كان الأمر كما قصصنا عليك أيها الرسول من سنتنا في الخلق وما أرسلنا قبلك من الرسل، فهل ينتظر هؤلاء الكافرون من قومك إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم أي وقائعهم مع رسلهم مما بلغهم مبدؤه وغايته، أي ما ثم شيء آخر ينتظر ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أي قل لهم منذراً ومهدداً: إذاً فانتظروا ما سيكون من عاقبتكم إني معكم من المنتظرين، على بينة مما وعد الله وصدق وعده للمرسلين، وأن الذين يصرون على الجحود والعناد سيكونون كمعانديهم من الهالكين.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا التعبير من أعجب إيجاز القرآن المعجز الذي انفرد به في العطف على محذوف، وهو ذكر شيء يدل دلالة واضحة على أمر عام كسنة اجتماعية تستنبط من قصة أو قصص واقعة، ثم يأتي بجملة معطوفة لا يصح عطفها على ما قبلها من الجمل فيتبادر إلى الذهن وجوب عطفها على ذلك الأمر العام، بحرف العطف المناسب للمقام، بحيث يستغنى به عن ذكره، وتقديره هنا: تلك سنتنا في رسلنا مع قومهم: يبلغونهم الدعوة، ويقيمون عليهم الحجة، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب، فيؤمن بعض ويصر الآخرون، فنهلك المكذبين، ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا بهم ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كذلك الإنجاء ننجي المؤمنين معك أيها الرسول ونهلك المصرين على تكذيبك، وعداً حقاً علينا لا نخلفه ﴿سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾ [الإسراء: ٧٧] وقد صدق عده كما قال.

قرأ الجمهور (ننجي رسلنا) بالتشديد من التنجية إلا في رواية عن يعقوب بالتخفيف مختلف فيها. وقرأ والكسائي وحفص ويعقوب (ننجي المؤمنين) بالتخفيف من الإنجاء، والباقون بالتشديد والمعنى واحد إلا أن التشديد يدل على المبالغة أو التكرار، وهو الأنسب في الأولى لكثرة الأقوام.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾

هذه الآيات الأربع والآيتان اللتان بعدها ختم للسورة بالنداء العام، في الدعوة

إلى عقيدة الإسلام، أجملت أمراً أو نهياً وخبراً في خاتمتها، كما فصلت في جملتها. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أي إن كنتم في شك من صحة ديني الذي دعوتكم إليه، أو من ثباتي واستقامتي عليه، وترجون تحويلي عنه ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي فلا أعبد في وقت من الأوقات، ولا حال من الأحوال، أحداً من الذين تعبدونهم غير الله، من ملك أو بشر، أو كوكب أو شجر أو حجر، مما اتخذتم من الأصنام والأوثان.

﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي يقبضكم إليه بالموت ثم يبعثكم فيحاسبكم ويجزيكم، ولا يفعل أحد غيره هذا ولا يقدر عليه. وإنما قال: ﴿إن كنتم في شك من ديني﴾ وشرطه يدل على الشك في شكهم وهو ﷺ لا يشك فيه، لأنه نزل دينه منزلة ما لا ينبغي أن يشكوا فيه لشدة ظهوره، وتألق نوره، كما بينا مثله في تفسير ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ [البقرة: ٢٣] الآية وما بعدها. ووصف الله بتوفيهم دون غيره من صفاته وأفعاله لتذكير كل منهم بما لا يشك فيه من عاقبة أمره وأنه سيكون كما وعده في الدنيا والآخرة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين وعدهم الله بالنجاة من عذابه، وينصرهم على أعدائهم وأعدائه، واستخلافهم في أرضه، وأنه لإيجاز بليغ.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي أمرت بأن أكون من المؤمنين وبأن أقيم وجهي للدين القيم الذي لا عوج فيه حالة كوني حنيفاً أي مائلاً عن غيره من الشرك والباطل، ولكن اختير هنا صيغة الطلب وفيما قبله الخبر، ذلك بأن الخبر هو المناسب لعلاقة هذا الأمر بالماضي وهو أن يكون من جماعة المؤمنين، الموعودين بما تقدم من سنة الله في النبيين، والطلب هو المناسب لعلاقته هو وما عطف عليه من النهي بالحال والاستقبال، من دعوة هذا الدين الموجهة إلى أهل مكة وسائر الناس «ولا فرق بينهما في الإعراب كما حققه سيبويه وغيره» وإقامة الوجه للدين هنا وفي سورة الروم (٣٠: ٤٣) عبارة عن التوجه فيه إلى الله تعالى وحده في الدعاء وغيره بدون التفات إلى غيره، والمراد به توجه القلب، وفي معناه ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً﴾ [الأنعام: ٧٩] ومثله إسلام الوجه لله في سور البقرة (٢: ١١٢) وآل عمران (٣: ٢٠) والنساء (٤: ١٢٤) وإسلامه إلى الله في سورة لقمان (٣١: ٢٢) وكذا توجيه الوجه الحسي إلى القبلة في آياتها وهو الأصل في اللغة، والمراد به وجهة الإنسان، فمن توجه قلبه في عبادة من العبادات «ولا سيما مخ العبادة وروحها وهو الدعاء» إلى غير الله فهو عابد له مشرك بالله، وأكده بالنهي عن ضده معطوفاً عليه فقال:

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أصحاب الديانات الوثنية الباطلة الذين يجعلون بينهم

وبين الله تعالى حجاباً من الوسطاء والأولياء والشفعاء يوجهون قلوبهم إليهم عند الشدة تصيبهم، والحاجة التي تستعصي على كسبهم، ووجوههم وجملتهم إلى صورهم وتماثيلهم في هياكلهم، أو قبورهم في معابدهم، ويدعونهم لقضاء حوائجهم إما بأنفسهم وإما بشفاعتهم ووساطتهم عند ربهم، ثم بين هذا بالإشارة إلى سببه عند المشركين والنهي عن مثله معطوفاً عليه فقال:

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أي ولا تدع غيره تعالى: (دعاء عبادة وهو ما فيه معنى القربة والجري على غير المعتاد في طلب الناس بعضهم من بعض) لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء ـ ما لا ينفعك إن دعوته لا بنفسه ولا بوساطته ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فإن فعلت هذا بأن دعوت غيره فإنك أيها الفاعل في هذه الحال من طغامة الظالمين لأنفسهم الظلم الأكبر وهو الشرك الذي فسر به النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان: ١٣] فإنه لما كان دعاء الله وحده هو أعظم العبادة ومخها ـ كما ورد في الحديث ـ كان دعاء غيره هو معظم الشرك ومخه، كما كررنا التصريح به بتكرار تفسير الآيات الناهية عنه، ومنها في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ [يونس: ١٨] وقوله: ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله﴾ [يونس: ٤٩] وقوله قبلهما ﴿فإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾ [يونس: ١٢] وقوله في أهل الفلك (السفينة) المشركين عند إحاطة الخطر بهم ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ [يونس: ٢٢].

والآيات في هذا المعنى كثيرة متفرقة في السور، كررت لأجل انتزاع هذا الشرك الأكبر من قلوب الجمهور الأكبر. وقد انتزع من قلوب الذين أخذوا دينهم من القرآن، وكان جل عبادتهم تكرار تلاوته بالغدو والآصال، والليل والنهار، ثم عاد بقضه وقضيضه إلى الذين هجروا تدبر القرآن وهم يدعون الإسلام، وأكثرهم يتلقون عقائدهم من الآباء والأمهات والمعاشرين، وأكثر هؤلاء من الخرافيين الأميين الجاهلين، وأكثر القارئين منهم على قلتهم يأخذونها من كتب مقلدة متأخري المتكلمين الجدلية والمتصوفة الخرافية، ولا يكاد مسجد من مساجد يخلو من قبر مشرف مشيد، توقد عليه السرج والمصابيح وقد لعن الرسول ﷺ فاعليها، ويتوجه إليه الرجال والنساء، في كل صباح ومساء، يدعون من دون الله من يعتقدون أنهم أحياء يقيمون فيها، ويتقربون إليهم بالهدايا والنذور من الأميين، وبعرائض الاستغاثة والدعاء من المتعلمين، ليكشفوا عنهم الضر، ويهبوا لهم ما يرجون من النفع، ومن أمامهم وورائهم عمائم مكورة، ولحى طويلة أو مقصرة، يسمون شركهم الأكبر توسلاً،

واستغاثتهم استشفاعاً، ونذورهم لغير الله صدقات مشروعة، وطوافهم بالقبور المعبودة زيارات مقبولة، ويتأولون هذه الآيات الكثيرة بل يحرفونها عن مواضعها، بزعمهم أنها خاصة بعبادة الأصنام، والنذور للأوثان، والتعظيم للصلبان، كأن الإشراك بالله جائز من بعض الناس ببعض المخلوقات دون بعض.

ومن البلاء الأكبر على الإسلام والمسلمين بمصر أن أصدرت لهم مشيخة الأزهر الرسمية في هذا العصر مجلة رسمية دينية، تفتيهم بشرعية كل هذه البدع الشركية القبورية، سمتها نور الإسلام وألف لهم أحد خطباء الفتنة كتاباً في هذا واطأه عليه وأمضاه له سبعون عالماً من علماء الأزهر بزعمه. بل طبع في طرته خواتم بعضهم وتواقيع آخرين منهم بخطوطهم وذكر جميع أسمائهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله وبه وحده المستعان لإنقاذ الإسلام من هذا الطغيان.

ومنهم من يحتج على نفع هذا الدعاء لغير الله بالتجارب كما يحتج الهنود الوثنيون والنصارى فهو مشترك الإلزام وقد أبطله الله بقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ هذه الآية مؤكدة لما قبلها داحضة لشبهة الذين يدعون غير الله بأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم، وكبتت أعداؤكم، وكشف الضر عنهم، وأسدي الخير إليهم، يقول تعالى لكل مخاطب بهذه الدعوة إلى توحيد الإسلام، بكلام الله وتبليغ محمد عليه أفضل الصلاة والسلام: وإن يمسسك الله أيها الإنسان بضر كمرض يصيبك بمخالفة سننه في حفظ الصحة، أو ظلم يقع عليك من الحكام المستبدين، أو غيرهم من الأعداء المعتدين، فلا كاشف له إلا هو، وقد جعل لكل شيء سبباً يعرفه خلقه بتجاربهم، ككشف الأمراض بمعرفة أسبابها، وخواص العقاقير التي تداوى بها، وتجارب الأعمال الجراحية التي يزاولها أهلها، فعليك أن تطلبها من أسبابها، وتكل أعمالها إلى أربابها، وتأتي سائر البيوت من أبوابها، مع الإيمان والشكر لمسخرها، فإن جهلت الأسباب أو أعياك أمرها، فتوجه إلى الله وحده، وادعه مخلصاً له الدين متوكلاً عليه وحده، يسخر لك ما شاء أو من شاء من خلقه، أو يشفك من مرضك بمحض فضله، كما ضرب لك الأمثال في هذه السورة وغيرها من كتابه.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يهبه بتسخير أسبابه لك، وبغير سبب ولا سعي منك، ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ أي فلا أحد ولا شيء يرد فضله الذي تتعلق به إرادته، فما شاء كان حتماً، فلا ترج الخير والنفع إلا من فضله، ولا تخف رد ما يريده لك من أحد غيره ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يصيب بالخير من يشاء من عباده بكسب وبغير كسب، وبسبب مما قدره في السنن العامة وبغير سبب، ففضله تعالى على عباده عام بعموم رحمته، بخلاف الضر فإنه لا يقع إلا بسبب من الأسباب الخاصة بكسب العبد، أو العامة في

نظام الخلق، فالأول معلوم كالأمراض التي تعرض بترك أسباب الصحة والوقاية جهلاً أو تقصيراً، وفساد العمران وسقوط الدول الذي يقع بترك العدل، وكثرة الفسق والظلم، والثاني كالضرر الذي يعرض من كثرة الأمطار، وطغيان البحار والأنهار، وزلازل الأرض وصواعق السماء ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة، لأهلك جميع الناس بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [الشورى: ٣٠] ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

هذا النداء خاتمة البلاغ للناس كافة، بمقتضى بعثة الرسول العامة، وهو إجمال لما فصل في هذه السورة وسائر السور المباركة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي قل أيها الرسول مخاطباً لجميع البشر، من حضر منهم فسمع هذه الدعوة منك، ومن ستبلغه عنك، قد جاءكم الحق المبين لحقيقة الدين من ربكم، بوحيه إلى رجل منكم، وهو الذي افتتحت هذه السورة به، وقد كان هذا الحق مجهولاً خفياً عنكم، بما جهل بعضكم من دعوة الرسل الأقدمين، وما حرف بعضكم وجهل وبدل وتأول من كتب الأنبياء المتأخرين، وفصله لكم هذا الكتاب العربي المبين ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي فمن اهتدى بما جاء به هذا الرسول في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإنما فائدة اهتدائه لنفسه، لأنه ينال به السعادة في دنياه ودينه، دون عمل غيره، ولا فدائه ولا تأثيره.

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي ومن ضل عن هذا الحق بإعراضه عن آياته في هذا القرآن، وحججه فيه بآياته في الأنفس والآفاق، فإنما وبال ضلاله على نفسه بما يفوته من فوائد الاهتداء في الدنيا، وما يصيبه من العذاب على كفره وجرائمه في الآخرة ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنا بموكل من عند الله بأموركم ولا مسيطر عليكم فأكرهكم على الإيمان، وأمنعكم بقوتي من الكفر والعصيان، وليس عليَّ هداكم، ولا أملك نفعكم ولا ضركم، وإنما أنا بشير لمن اهتدى، ونذير لمن ضل وغوى، وقد أعذر من أنذر.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ في هذا القرآن علماً وعملاً وتعليماً ﴿وَٱصْبِرْ﴾ كما صبر أولو العزم من الرسل على ما يصيبك من الأذى في ذات الله، والجهاد به في سبيل الله

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بينك وبين المكذبين لك، وينجز لك ما وعدك، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي كل من يقع منهم حكم، لأنه لا يحكم إلا بالحق، وغيره قد يحكم بالباطل لجهله الحق أو لمخالفته له باتباع الهوى. وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وصبر حتى حكم الله بينه وبين قومه، وأنجز وعده له ولمن اتبعه من المؤمنين، فاستخلفهم في الأرض وجعلهم الأئمة الوارثين، مدة إقامتهم لهذا الدين، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبياً عن قومه، وجعلنا من المهتدين بما جاء به من كتاب ربه، وسنته المبينة له، علماً وعملاً، وإرشاداً وتعليماً، وصلى الله عليه وعلى آله وصحابته ومن اتبعه وسلم تسليماً.

تم تفسير سورة يونس بفضل الله وتوفيقه تفصيلاً
ويليه بيان ما فيها من العقائد والقواعد إجمالاً

الخلاصة الإجمالية لسورة يونس عليه السلام

وفيها ستة أبواب

(جميع آيات هذه السورة في أصول عقائد الإسلام التي كان ينكرها مشركو العرب وهي توحيد الله تعالى، والوحي والرسالة، والبعث والجزاء، وما يناسب هذه الثلاث ويمدها من صفاته تعالى وأفعاله وتنزيهه وآياته وسننه في خلقه، وشؤون البشر في صفاتهم وعاداتهم وأعمالهم، ومحاجة مشركي مكة في ذلك كله، ولا سيما هداية القرآن والرسول ﷺ والعبرة بأحوال الرسل مع أقوامهم فهي كسورة الأنعام في السور المكية إلا أنها أكثر منها ومن سائر السورة إثباتاً للوحي والرسالة، وتحدياً بالقرآن وبياناً لإعجازه وحقيته وصدق وعده ووعيده، وهذه المقاصد أو العقائد مكررة فيها بالأسلوب البديع، والنظم البليغ، بحيث تحدث في نفس سامعها وقارئها أروع الإقناع والتأثير، من حيث لا يشعر بما فيه من التكرير، وإنني أوجز في تلخيص هذه الأصول في أبوابها، لما سبق في هذا الجزء من بسطها في مباحث الوحي من تفسير أول السورة ولا سيما مسائل إعجاز القرآن، وإثبات نبوة محمد ﷺ التي امتازت بها على سائر السور).

الباب الأول

في توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته
وصفات عظمته وعلوه، وتدبيره لأمور عباده،
وتصرفه فيهم وفضله عليهم ورحمته بهم، وعلمه بشؤونهم،
وتنزيهه عن ظلمهم، وعما لا يليق به من أوهامهم،
وفي آياته الدالة على ما ذكر كله
وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول
في توحيد الربوبية والألوهية

أجمع الآيات في هذا التوحيد الآية الثالثة من هذه السورة التي خاطبت الناس بأن ربهم هو الذي خلق السموات والأرض أطواراً في ستة أيام أي أزمنة، تم فيها خلقها وتكوينها فكانت ملكاً عظيماً، ثم استوى على عرش هذا الملك الاستواء اللائق به، الدال على علوه المطلق على جميع خلقه، وإحاطته به بعلمه وقدرته، وتدبير الأمر فيه بمشيئته وحكمته ورحمته، بغير حد ولا تشبيه، ولا شريك له في الخلو والتقدير، ولا في التصرف والتدبير، ما من شفيع عنده إلا من بعد إذنه، فله وحده الأمر، وبيده النفع والضر.

بعد تقرير هذه الحقيقة في توحيد الربوبية قال تعالى محتجاً بها على توحيد الألوهية ﴿ذلكم الله ربكم فاعبدوه﴾ أي فاعبدوه وحده ولا تعبدوا معه غيره بطلب شفاعة ولا دعاء ولا ما دونهما من مظاهر العبادة، إذ لا رب لكم غيره، وإنما تجب العبادة لرب العباد دون غيره. واستدل على توحيد الربوبية بما في الآيات ٤ ـ ٦ من الآيات (الدلائل) الكونية.

ثم عاد إلى توحيد الألوهية وهو العبادة الخاصة في الآية ١٨ ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ ودحض هذا القول منزهاً نفسه عن هذا الشرك.

ثم احتج على بطلان شركهم هذا بما في الآيتين ٢٢ و ٢٣ من ضرب مثل لهم يعرفونه بالتجربة، لوقوعه لكثير منهم في أزمنة مختلفة، وهو أنهم إذا ركبوا في الفلك وعصفت بهم الريح، وهاج بهم البحر وأشرفوا على الهلاك، يدعون الله وحده مخلصين له الدين وينسون عند شدة الخطر ما كانوا يشركون به من الشفعاء والأولياء.

ثم عاد إلى التذكير بالآيات الكونية على وحدانية الربوبية في الآيات ٣١ ـ ٣٦ وإلى توحيد الألوهية في الآية ٤٩ ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله﴾.

ثم عاد إلى التذكير بتوحيد الربوبية في سياق آخر فبين في الآية ٥٦ أن لله ما في السموات وما في الأرض. وفي الآية ٦٦ أن لله من في السموات ومن في الأرض وأن الذين يدعون من دون الله لا يتبعون شركاء الله إذ لا شركاء له، ما يتبعون إلا الظن والخرص.

ثم بين في الآيتين ٧١ و ٨٥ أن كمال التوحيد في التوكل على الله وحده.

ومن شؤون الرب وحقه على عباده التشريع الديني وقد بين في الآية ١٥ والآية ١٠٧ أن الرسول متبع لما يوحى إليه عملاً وتبليغاً، لا مشترع مستقل فيه ولا متحول عنه.

وفي الآيتين ٥٩ و ٦٠ أن جميع ما أنزله الله تعالى لعباده وأنعم به عليهم من أنواع الرزق فهو حلال لهم ليس لأحد منهم حق أن يحرمه عليهم لذاته تحريماً دينياً. وأن من تحكم فيه بالتحريم والتحليل فهو معتد على حقه تعالى مفتر عليه.

الفصل الثاني

في صفات الذات من العلم والمشيئة والعزة والرحمة

أما العلم فحسبك من هذه السورة قوله تعالى: ﴿وما تكون في شأن﴾ [يونس: ٦١] الخ فراجع تفسيرها وتأمل عجائب بلاغتها، وإحاطتها بعظائم الأمور وصغائرها، وظواهر الأعمال وخفاياها، وذرات الوجود قريبها وبعيدها جليها وخفيها، وما تدركه المشاعر وما لا تدركه من خلايا مركباتها ودقائق بسائطها. وتدبر تعلق علم الله تعالى بها كلها، وكتابته لها من قبل إيجادها، وشهوده إياك في كل ما تكون فيه منها، تجده رافعاً لك إلى أعلى درجات الإيمان والإسلام والإحسان.

ثم تأمل قوله تعالى في الذين يشركون بالله غيره بما يرجون من نفعهم لهم، وكشفهم الضر عنهم بشفاعتهم عنده تعالى من الآية ٤٩ ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ تعلم مقدار جهل الإنسان وجنايته على نفسه، بما يقوله على الله تعالى بغير علم، من تصغير أمر الربوبية والشرك في الألوهية، بالتوجه في الدعاء والرجاء والخوف إلى غيره تعالى بما هو عين الشرك به كما تقدم آنفاً.

وأما صفة المشيئة فتأمل فيها أمره تعالى لرسوله الأعظم في الآية ١٦ ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ الخ وفي الآية ٤٩ ﴿قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله﴾ تعلم منه قدر إيمانه ﷺ بمشيئة ربه عزّ وجلّ، ثم انظر قوله تعالى له: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ [يونس: ٩٩] تعلم منه كيف شاء الله تعالى أن يخلق المكلفين في هذه الأرض مختلفي الاستعداد للإيمان والكفر والخير والشر، وأن ما وهبه من المشيئة والاستطاعة لأعظمهم قدراً وفضلاً لا يمكن أن يخرج عن مقتضى مشيئته وسننه في نظام خلقه، ويؤكده قوله تعالى بعده ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله﴾ [يونس: ١٠٠] وهو بيان لسنته التي اقتضتها مشيئته في اختيارهم لكل من الإيمان والكفر، وما يستلزمان من عمل الخير والشر. وفي معناه قوله فيما يصيبهم من ضر ونفع وخير وشر، وكون كل منهما بالأسباب المقيدة بسننه في الخلق بمقتضى إرادته ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾ [يونس: ١٠٧] فلا يقدر الأولياء ومن يسمونهم الشفعاء على النفع ولا على الضر من غير أسبابهما المشتركة بين جميع الناس، وإنما يقدر على ذلك واضع السنن والأسباب وحده.

والمراد من كل هذه الآيات سد ذرائع الشرك وإعتاق البشر من رقه، باعتمادهم

في أمورهم على ما وهبهم من القوى، وطلب كل شيء من أسبابه التي سخرها الله لهم، والتوجه إليه وحده في تسخير ما يعجزون عنه، ومع هذا كله نرى من سرت إليهم عدوى الوثنية من أهلها يتوجهون إلى غيره تعالى من الأحياء والأموات المعتقدين فيما لا يقدرون عليه بكسبهم وفيما هو من كسبهم أيضاً. ولكنهم يجهلون قدرتهم أو قدرة أمثالهم كالأطباء عليه، ويظنون أن معتقديهم المتصرفين في الكون بزعمهم أقرب منالاً، كما بسطناه في تفسير كل هذه الآيات وأمثالها مكرراً اتباعاً لكتابه تعالى.

وأما صفة العزة فليس في هذه السورة ذكر لها إلا قوله تعالى: ﴿ولا يحزنك قولهم: إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم﴾ [يونس: ٦٥] ومعناها المنعة والقوة التي شأنها أن يغلب صاحبها ولا يغلب على أمره، وينال من خصمه ولا ينال خصمه منه، وكان المشركون يعتزون بكثرتهم وقوتهم وثروتهم، تجاه قلة المؤمنين وضعفهم وفقرهم، فيطعنون في الرسول وفي الإسلام وأهله فيحزنه ﷺ ما يقولون، فنهاه عزَّ وجلَّ عن هذا الحزن وعلله بأن العزة الحق هي لله وحده، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، وقد كتبها لرسوله وللمؤمنين كما بيناه في تفسير الآية، وفي هذه الآية ذكر السمع والعلم، لتذكيره ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين بسمعه تعالى لأقوالهم، كإحاطته علماً بأعمالهم، فهو قدير على إعزازه وإذلالهم.

وأما صفة الرحمة فقد جاءت مقترنة بالمغفرة في فاصلة الآية ١٠٧ الناطقة بانفراده تعالى بكشف الضر وإرادة الخير كما تقدم.

وذكرت الرحمة بآثارها ومتعلقاتها في الرزق من الآية ٢١ ـ وفي خصائص القرآن التشريعية من الآية ٥٧ وفيما يعمهما من الآية ٥٨ وفي التنجية من الظلم وحكم الكافرين في الآية ٨٦ فنسأله تعالى أن يعمنا بأنواع رحمته كلها ويجعلنا من الشاكرين.

الفصل الثالث

في تقديسه تعالى وتنزيهه وغناه عن كل ما سواه

نزه الله تعالى نفسه في هذه السورة في مواضع **أولها**: أن يكون عنده شفعاء ينفعون من يشفعون لهم أو يكشفون الضر عنهم فيكون لتأثيرهم شرك في أفعاله تعالى وهذه شبهة شرك العرب وغيرهم، وقد فشا في أكثر النصارى وكذا جهلاء المسلمين كما بيناه تكراراً وهو نص قوله في الآية ١٨ ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

ونزه نفسه عن اتخاذ الولد وهو ضرب من الشرك أيضاً بقوله: ﴿قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني﴾ [يونس: ٦٨].

ونزه نفسه عن ظلم عباده في الدنيا والآخرة وبين أنهم هم الذين يظلمون أنفسهم في الآيات ٤٤ و ٤٨ و ٥٢ و ٥٤.

الفصل الرابع
في أفعاله تعالى وآياته في التقدير والتدبير والرزق

ونجملها في عشرين مسألة

١ ـ خلق السموات والأرض في ستة أيام أي أزمنة يحدد كلاً منها طور من أطوار التكوين.

٢ ـ استواؤه تعالى بعد هذا الخلق على عرشه يدبر أمر ملكه والمراد بهذه الآية في هذا الباب أن للعالم في جملته عرشاً هو مركز التدبير والنظام العام له (راجع تفسير الآية الثالثة في بيانهما وما نحيل عليه في معناهما).

٣ ـ بدء الخلق ثم إعادته في الآيتين ٤ و ٣٤.

٤ ـ ٦ جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وتقديره منازل وحكمة ذلك في الآية الخامسة.

٧ ـ اختلاف الليل والنهار في الآية السادسة وبيان حكمة ذلك في الآية ٧٦.

٨ ـ مثل الحياة الدنيا في زينتها وغرور الناس بها وزوالها في الآية ٢٤.

٩ ـ إنزال الرزق من السماء والأرض في الآيتين ٣١ و ٩٥.

١٠ ـ ملك السمع والأبصار في ٣١ أيضاً.

١١ ـ إخراج الحي من الميت والميت من الحي فيها.

١٢ ـ تدبير أمر الخلق في الآيتين ٣ و ٣١.

١٣ ـ كون خلقه للشمس والقمر ضياء ونوراً وحسباناً بالحق لا عبثاً، في الآية ٣.

١٤ ـ هدايته تعالى إلى الحق ويؤيده أن الظن لا يغني من الحق في الآيتين ٣٥ و ٣٦ وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال في (٣٢) وأنه يحق الحق بكلماته في (٨٢).

١٥ ـ لله ما في السماوات وما في الأرض أي من غير العقلاء في الآية ٥٦.

١٦ ـ لله من في السماوات ومن في الأرض من العقلاء في الآية ٦٦.

١٧ ـ الأمر بنظر ما في السماوات والأرض والاعتبار بهما في الآية ١٠١.

١٨ ـ سرعة مكره تعالى من إحباط مكر الماكرين، والإملاء للظالمين، في الآية ٢١.

١٩ ـ ٢٠ تسييره تعالى للناس في البر والبحر، وإنجاؤهم من الغرق بعد اليأس في الآيتين ٢٢ و ٢٣.

فهذه الآيات المنزلة، المرشدة إلى النظر في الآيات المكونة، تدل على عناية هذا الدين بالعلم بكل ما خلق الله، وما أودع فيه من الحكم والمنافع للناس، ليزدادوا في كل يوم علماً بدنياهم، وعرفاناً وإيماناً بربهم، كلما رتلوا كتابه، وتدبروا آياته ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ [ص: ٢٩] فنسأله تعالى أن يجعلنا من خيارهم وأبرارهم.

مركز تحقيقات كامپيوتری علوم اسلامی

الباب الثاني

في الوحي المحمدي وهو القرآن(1)

القرآن من كلام الله تعالى وإنما فتحنا له باباً خاصاً ولم نذكره في صفاته عزَّ وجلَّ من الباب الأول لأن ما ورد فيه من الآيات ليس من ناحية كونه صفة له، بل من ناحية كونه كتاباً منزلاً من عنده لهداية خلقه. وعقيدة الإيمان بكتبه تعالى في المرتبة الثانية بين الإيمان به والإيمان برسله، ونلخص ما يختص بالقرآن من هذه السورة في عشر مسائل.

١ ـ افتتح الله هذه السورة بالإشارة إلى كتابه الحكيم في الآية الأولى منها، وثنى في التي تليها بالإنكار على الناس عجبهم من وحيه إلى بشر منهم أن يكون هادياً لهم نذيراً أو بشيراً. وقد بينا في تفسير هذه الآية دلائل هذا الوحي بإعجاز القرآن اللفظي والمعنوي وتفنيد شبهات الذين زعموا أنه وحي فاض من نفس محمد ﷺ وعقله الباطن على لسانه بإسهاب وإطناب فكان ذلك مصنفاً مستقلاً مستنبطاً من جملة القرآن وعلومه وتأثيره في العالم، فنشير إلى ما في هذه السورة منه بالإيجاز.

٢ ـ في الآية الخامسة عشرة منها اقتراح المشركين على النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو أن يبدله، وما أمره الله تعالى أن يجيبهم به من عجزه عن تبديله أو الإتيان بغيره، وكونه لا يملك من أمره فيه إلا اتباع ما يوحى إليه من تبليغه والعمل به، (ومثله في آخر السورة).

٣ و ٤ ـ في الآية السادسة عشرة أنه ﷺ ما بلغهم هذا القرآن إلا بمشيئة الله تعالى وتسخيره، فلو شاء تعالى أن لا يتلوه عليهم لما تلاه، ولو شاء تعالى أن لا يدريهم ولا يعلمهم به لما أدراهم، فهو الذي أقرأه بعد أن لم يكن قارئاً ﴿اقرأ باسم ربك﴾ [العلق: ١]... ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ [الأعلى: ٦] وهو الذي علمه وجعله معلماً

(1) إنما فسرنا بالقرآن لأن الله تعالى أوحى إليه غير القرآن أيضاً (المؤلف).

﴿وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ [النساء: ١١٣] ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ [الشورى: ٥٢] الخ.

٥ ـ أنه أيد هذا بالحجة العقلية القاطعة، وهو أنه قد لبث فيهم عمراً طويلاً من قبله وهو سن الإدراك والصبا فالشباب حتى بلغ أشده واستوى وبلغ أربعين سنة، لا يقرأ ولا يقرىء، ولا يتعلم ولا يعلّم، وقد بينا في تفسيرها (أي الآية ١٦) أنه ثبت عند حكماء التاريخ بالتجارب والاستقراء أن جميع معارف البشر الكسبية واستعدادهم للعلم والعمل، إنما يظهران ويبلغان أوج قوتهما من النشأة الأولى إلى منتصف العشر الثالث من العمر، ولا يكون بعده إلا التمحيص والتكميل، ومحمد ﷺ لم يظهر منه علم ولا بيان ولا عمل إصلاحي عام ديني أو دنيوي إلا بهذا الوحي الذي فوجىء به بعد استكمال الأربعين.

ويليها في الآية ١٧ أن أشد الناس ظلماً لنفسه من افترى على الله كذباً أو كذب بآيات الله، وأنه من المجرمين الذين لا يفلحون، فهل يرتكب هذا الظلم من يعلم هذا؟ ولماذا يرتكبه؟ وقد عرف قبحه كبيراً، بعد أن نشأ على التزام الصدق صغيراً، واشتهر به وبالوفاء عند المعاشرين، حتى لقبوه بالأمين؟

٦ ـ في الآية الثامنة والثلاثين حكاية عن المشركين ﴿أم يقولون افتراه﴾ وأمره تعالى لنبيه بتحديهم بالإتيان بسورة مثله، ودعوة من استطاعوا من دون الله الذي أنزله بعلمه، ولا يقدر عليه أحد من خلقه، وإلا كانوا كاذبين في زعمهم أنه افتراه، إذ لا يعقل أن يفتري الإنسان ما هو عاجز كغيره عنه، وقد بينا في تفسيرها معنى التحدي والعجز وموضوع الإعجاز اللفظي والمعنوي وهل يدخل فيه قصار السور مطلقاً أو مقيداً؟ (راجع تفسيرها تجد فيه ما لا تجده في غيره).

٧ و ٨ ـ في الآية ٣٩ ذكر إضرابهم عن التكذيب المطلق الذي يتضمنه ذلك القول إلى التكذيب المقيد بما لم يحيطوا بعلمه، وفي الآية ٤٠ كونهم فريقين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به، وفي تفسير الأولى منهما تحقيق معنى تأويل القرآن وخطأ أكثر المفسرين الذين اطلعنا على كتبهم في فهم التأويل بحمله على التأويل الاصطلاحي عند علماء الكلام والأصول، حاش الإمام محمد بن جرير الطبري.

٩ ـ في الآية ٥٧ بيان أنواع إرشاد القرآن وإصلاحه للبشر وهو قوله: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾.

١٠ ـ في الآيتين ١٠٨ و ١٠٩ وهما خاتمة السورة خلاصة تبليغ الدعوة وموضوع الأولى في خطاب الناس كافة أنه قد جاءهم الحق من ربهم وهم مختارون في الاهتداء به والضلال عنه، وموضوع الثانية أمر الرسول باتباع ما يوحى إليه تبليغاً وعملاً، كما تقدم في المسألة الثانية.

الباب الثالث

في النبوة والرسالة
وفيه فصلان

الفصل الأول

في الرسالة العامة والرسل الأولين وفيه سبع مسائل

١ ـ في الآية الثانية من السورة إثبات وحي الرسالة وأن الرسل رجال من الناس وأن وظيفتهم الإنذار والتبشير، وأن الكفار كانوا ينكرون أن يكون البشر رسلاً لله تعالى، وكانوا يسمون آيات الرسول إليهم سحراً ويسمونه ساحراً.

٢ ـ في الآية ١٣ أن الله تعالى أهلك القرون [الأمم] القديمة لما ظلموا أنفسهم بالشرك والإجرام وجاءتهم رسلهم بالبينات الدالة على صدقهم في التبليغ عن الله تعالى ولم يؤمنوا فجزاهم بإجرامهم.

٣ ـ في الآية ٤٩ أن الرسول لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره لأن هذا لله وحده، والرسل فيه كغيرهم كما ترى في آيات توحيده.

٤ ـ في الآية ٤٧ أن الله تعالى جعل لكل أمة رسولاً، فليست الرسالة خاصة ببني إسرائيل كما يدعون، ولا بهم وبالعرب كما توهم آخرون، والشبهة على هذه الكلية أن أكثر أمم الأرض وثنية وتواريخها عريقة في ذلك، كقدماء المصريين والكلدانيين والأشوريين والفرس والهند والصين وشعوب الإفرنج القديمة وكذا قدماء أمريكة. وجوابها أن جميع هذه الأمم لها أديان قائمة على الأركان الثلاثة التي بعث بها جميع الرسل الأولون. وهي الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، وقد طرأت على كل منها التقاليد الوثنية طروءاً كما بيناه في مباحث الوحي وشواهد ذلك ظاهرة في آخر هذه الأمم حتى المسلمين.

٥ ـ في هذه الآية أيضاً أن كل رسول عانده قومه قضى الله بينه وبينهم بالقسط، والآيات التي بعدها في تكذيب قوم نبينا ﷺ له وستذكر في الفصل الثاني.

٦ ـ من الشواهد على هذا قصة نوح مع قومه في خلاصة دعوته لهم وإصرارهم على تكذيبه، وإهلاك الله إياهم بالغرق، وإنجاء نوح ومن آمن معه في الفلك، وجعلهم خلائف في الأرض، وهي في ثلاث آيات من ٧١ ـ ٧٣ ويليها آية واحدة في الرسل الذين بعثوا بعده إجمالاً، ويليها قصة موسى مع فرعون وملئه، وغايتها أنه تعالى أهلك فرعون ومن اتبع بني إسرائيل معه بالغرق، وأنجى موسى وبني إسرائيل وجعلهم خلائف في الأرض المقدسة إلى حين، وهي في الآيات ٧٥ ـ ٩٣ وسنبين ما

في هاتين القصتين من الفوائد والعبر في قصص الرسل من تفسير سورة هود عليه السلام.

٧ ـ في الآية ٩٨ العبرة لأهل مكة بقوم يونس بأنهم استحقوا عذاب الخزي والاستئصال بعنادهم لمحمد رسول الله وخاتم النبيين كما استحقه قوم يونس، وأنهم إذا آمنوا قبل وقوع هذا العذاب ينفعهم إيمانهم كما نفع قوم يونس عليهما السلام.

الفصل الثاني

في رسالة محمد نبينا ﷺ

وسيرته مع قومه وعاصمة بلاده ونجمل آياته في أحد عشر نوعاً

١ ـ في الآية الثانية أن الكافرين أنكروا دعوة نبوته وعجبوا منها أن كان رجلاً منهم يوحى إليه، وسموا آيته سحراً ونبزوه بلقب ساحر مبين، كما تقدم في الكلام على الوحي وعلى الرسالة العامة في أول الفصل الأول، والآية نزلت فيه ﷺ وشبهة السحر لا تخيل (أي تشتبه من أخال الأمر إذا أشكل واشتبه) في القرآن كالآيات الكونية وإنما قالوه تكلفاً وعناداً.

٢ ـ في الآية ١٥ أنهم اقترحوا عليه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن الذي أعجزهم أمره أو أن يبدله، وفي الآية ١٦ الرد عليهم بما تقدم مفصلاً، ويليها تأييد الرد.

٣ ـ في الآية ٢٠ اقتراحهم عليه ﷺ أن يأتيهم بآية كونية وجوابه لهم وفي الآيتين ٩٦ و ٩٧ أن الذين حقت عليهم كلمة الله بفقدهم الاستعداد للإيمان لا يؤمنون ولو جاءهم كل آية كونية مما اقترحوا ومما لم يقترحوا.

٤ ـ في الآية ٣٧ بيان أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله، إذ لا يقدر على مثله أحد من خلق الله، وأنه تصديق لما تقدمه من دعوة الرسل، وتفصيل لما أجمل فيما قبله من الكتب، فهو من رب العالمين لا ريب فيه، لأن محمداً ﷺ ما كان يدري شيئاً مما نزل فيه.

٥ ـ في الآية ٣٨ تحدي المشركين الذي قالوا افتراه وهو مطالبتهم بالإتيان بسورة مثله، واستعانتهم على ذلك بمن يستطيعون استعانتهم من دون الله تعالى.

٦ ـ في الآية ٣٩ الإضراب عن التكذيب المطلق إلى التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله وهو ما وعدهم به من العذاب بقسميه الدنيوي والأخروي.

٧ ـ في الآيات ٤٠ ـ ٥٤ أن من أولئك المشركين من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به، ومناقشة المكذبين، ووصف حال من فقدوا الاستعداد للإيمان بحيث لا يعقلون الدلائل السمعية ولا البصرية، وإبهام أمر ما وعدوا به من العذاب هل يقع في حياته ﷺ أو بعد وفاته، وحكمة هذا الإبهام له واستعجالهم به، وكونهم يؤمنون به عند وقوعه فلا ينفعهم إيمانهم يومئذ ـ وسؤالهم أحق هو؟ وجوابهم بالقسم إنه لحق،

لأن وعد الله كله حق، وفي تفسيرنا له بيان قلة الكذب في العرب، واحترام القسم بالله تعالى، واشتهار النبي ﷺ بالصدق والأمانة فيهم من صغره.

٨ ـ بعد أن أيد الله دعوته ﷺ بقصتي نوح وموسى بالإيجاز مفصلة، وذكر من بينهما بالإشارة المجملة، أخبره أن الذين يقرءون الكتاب من قبله عندهم علم من ذلك، فلو أنه كان في شك منه وسألهم لأجابوا أنه الحق من ربه، وهذا تأكيد لكونه لا موضع للامتراء به.

٩ ـ كان ﷺ يحزنه تكذيب قومه له وكفرهم بما جاء به فنهاه الله عن ذلك في الآية ٦٥ وكان يتمنى إيمانهم كلهم فجاءه في الآيات ٩٦ ـ ١٠١ بيان سنة الله في اختلاف استعداد الناس للإيمان والكفر، وأنه لو شاء لجعلهم كلهم مؤمنين، ولكانوا غير هذا النوع من خلق الله، ولكنه لم يشاء وإذن لا يقدر الرسول ولا غيره على إكراههم على الإيمان، وأن الآيات لا تنفع إلا المستعدين للإيمان والصلاح، وأن النجاة لرسل الله ومن آمن بهم بمقتضى سنته تعالى في خلقه.

١٠ ـ ختم السورة من الآية ١٠٤ ـ ١٠٩ بتجديد الدعوة إلى تجريد التوحيد والعبودية المحض، وكون الحق قد تبين فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعليها، وإنما الرسول ﷺ مبلغ لا وكيل لله متصرف في أمر عباده، فعليه أن ينتظر حكمه وهو خير الحاكمين.

١١ ـ إعلامه تعالى هذه الأمة في الآية ١٤ بأنه جعلهم خلائف في الأرض كلها بعد إهلاك أكثر القرون الأولى من أقوام الأنبياء المعاندين لرسلهم، وتحريف آخرين لأديانهم ونسخه تعالى لما بقي منها ببعثة خاتم النبيين ﷺ وأنه يختبرهم بهذه الخلافة فيجزيهم بما يعملون فيها، وأخرنا هذا لأنه ثمرة إجابة الدعوة في الدنيا كما وعدهم، وأنجز وعدهم لهم بشرطه في الآية (٢٤: ٥٤) من سورة النور.

الباب الرابع

في البعث والجزاء، ونلخص آياته في بضعة أنواع

١ ـ في الآية الرابعة ذكر رجوع الناس جميعاً إلى الله ربهم الذي يبدأ الخلق بأجناسه وأنواعه المختلفة، ثم يعيده ليجزي المؤمنين الصالحين بالقسط، والكافرين بما ذكره إجمالاً، وينافي تفسيرها كونه بالقسط أيضاً كما ترى بيانه في النوع (٤) وكون جزاء المؤمنين يضاعف كما ذكر في غيرها.

٢ ـ في الآيات ٧ ـ ١١ تفصيل لجزاء الفريقين مع تعليل طبيعي عقلي لتأثير الإيمان والكفر في الأنفس، وفاقاً للقاعدة التي قررناها مراراً من أن جزاء الآخرة أثر لازم لسيرتها في الدنيا، بجعلها أهلاً بطبعها وصفاتها لجوار الله ورضوانه أو لسخطه.

٣ ـ في الآيات ٢٣ ـ ٣٠ تفصيل آخر موضح بضرب المثل فيه تصريح بالزيادة في جزاء المحسنين عما يستحقون، وكون جزاء المسيئين بالمثل، وكون كل نفس تبلو في الآخرة ما أسلفت في الدنيا، لا ينفع أحد أحداً بنفسه ولا بعمله.

٤ ـ في الآيات ٤٥ ـ ٥٦ سياق رابع مفتتح بالتذكير بيوم الحشر وتقدير الناس لمدة لبثهم في الدنيا بساعة من النهار، وخسران المكذبين بلقاء الله، وتأكيد وعد الله به، واستبطائهم له، واستعجالهم به، واستنبائهم الرسول: أحق هو؟ وحالهم عند وقوعه، وتمنيهم الافتداء منه بكل ما في الأرض، وإسرارهم الندامة عند رؤية العذاب، والقضاء بينهم بالقسط ﴿وهم لا يظلمون﴾ وهذا الأخير في الآيتين ٤٧ و ٥٤.

٥ ـ في الآيات ٦٢ ـ ٦٤ ذكر أولياء الله وهم المؤمنون المتقون وأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن لهم البشرى في الدنيا والآخرة.

٦ ـ في الآيتين ٦٩ و ٧٠ ذكر المفترين على الله وكونهم لا يفلحون، لهم متاع قليل في الدنيا، ثم إن مرجعهم إلى الله فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون.

٧ ـ في الآية ٩٣ عقب قصة موسى مع فرعون وملئه ونجاة بني إسرائيل بعد هلاكهم أن بني إسرائيل ما اختلفوا حتى جاءهم العلم، وأن الله يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

إذا عددت هذه الآيات التي أشرنا إليها في البعث والجزاء وجدتها تبلغ زهاء الثلث من هذه السورة، ولكنك لا تشعر عند ما تقرأ السورة أنك تكرر معنى واحداً فيها يبلغ هذا القدر منها، وإنما يستقر هذا المعنى في قلبك ويملؤه إيماناً بلقاء الله تعالى والخوف من حسابه وعقابه، والرجاء في عفوه ورحمته وثوابه، وما كان التكرار إلا لأجل هذا، فهل يستطيع أبلغ البشر أن يأتي بكلام كهذا؟ لا لا.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

الباب الخامس

في صفات البشر وخلائقهم وعاداتهم وما يترتب عليها من أعمالهم وسنن الله فيها وهي نوعان

النوع الأول:

الصفات الذميمة

التي تجب معالجتها بالتهذيب الديني

الأولى: العجل والاستعجال: قال الله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ [الأنبياء: ٣٧] وقال ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ [الإسراء: ١١] ومن شواهد هذه الغريزة في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾ [يونس: ١١] ومنها استعجالهم بالعذاب الذي وعدهم الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ كما تراه في سياقه من الآيتين ٥٠ و ٥١.

الثانية: الظلم: قال تعالى: ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقال في آية الأمانة ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ [المؤمنون: ٧٢] ومن الشواهد على هذه الخليقة أو الشيمة في هذه السورة ما تراه في الآيات ٤٤ و ٨٥ و ١٠٦.

الثالثة: الكفر بالله وبنعمه: قال تعالى في وصف الإنسان من سورته سورة الدهر ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ [الإنسان: ٣] ووصفه بالكفور في سور الإسراء والحج والشورى، وبالكفار (بالفتح للمبالغة) في سورة إبراهيم وذكرت آنفاً ولكن ذكر الكفر بلفظه ومشتقاته في هذه السورة قليل. ذكر في الآية الثانية الكافرون بالوحي والرسالة، وفي الآية الرابعة جزاء الذين كفروا في الآخرة بكفرهم، وذكر في الآية ٨٦. في دعاء بني إسرائيل بالنجاة من حكم الكافرين.

وأما ذكره بالمعنى فهو كثير فيها فمنه ما هو بلفظ التكذيب وعدم الرجاء بلقاء الله، وما هو يلازمه من الفسق والإجرام والبغي والطغيان والاستكبار، وكذا الظلم الذي خصصناه بالذكر.

الرابعة: الشرك بالله تعالى: وهو عادة صارت وراثية في الأمم، وذكر في الآيات ١٨ و٢٨ و٣٤ و٣٥ و٦٦ و٧١ وهو أخص من كل ما تقدم.

الخامسة: الجهل واتباع الظن والخرص: الأصل في هذه الخليقة أن الله تعالى خلق الإنسان جاهلاً لا يعلم شيئاً من ضروريات حياته حتى أن غرائزه الخلقية أضعف من غرائز الحشرات والعجماوات، وجعل عماد أمره على التربية والتعليم التدريجي، ونصوص القرآن في هذا معروفة كقوله: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ [النحل: ٧٨] وآية الأمانة وتقدم ذكرها في الظلم. والنص الصريح في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ [يونس: ٣٦] وقوله: ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ [يونس: ٦٦].

السادسة: الطبع على القلوب: والإعراض عن آيات الله في خلقه مما يدرك بالسمع والأبصار، حتى لا تعود تقبل ما يخالف تقاليدها الموروثة والراسخة بمقتضى العمل وهو نص قوله تعالى: ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ [يونس: ٧٤] فهو صريح في كونه نتيجة معلولة لاعتداء حدود الفطرة السليمة كما تراه مفصلاً في تفسيرها لا كما يفهمه الكثيرون من الجبرية والقدرية الصرحاء والمتأولين. وغاية هذه النتيجة القلبية النفسية في الدنيا الحرمان من الإيمان بمقتضى كلمة الله في نظام التكوين، وما بينه من كلمة التكليف، لعدم الانتفاع بالآيات المرشدة للفطرة إلى الهداية، وهو ما تراه في الآيات ٣٣ و ٦٦ ـ ١٠١.

السابعة: الغرور والبطر بالرخاء والنعم: فهم في أثنائها يمكرون في آيات الله ويشركون به ويبغون في الأرض حتى إذا أصابتهم الشدائد تذكروا وأخلصوا في دعائه فإذا كشفها عنهم عادوا إلى شركهم وفسادهم، كما تراه في الآيات ٢١ ـ ٢٣ و٨٨.

النوع الثاني: الغرائز والصفات المحمودة

نزلت هذه السورة في أوائل ظهور الإسلام بمكة وأكثر أهلها مشركون معاندون كافرون ظالمون مجرمون جاهلون، مستكبرة رؤساؤهم، مقلدة دهماؤهم، فكان مقتضى هذا تقديم الإنذار فيها على التبشير كما تراه في أولها، ولهذا كان أكثرها في بيان الصفات والخلائق والعادات القبيحة الضارة وهو النوع الأول في هذا الباب، وكان النوع الثاني مما يعلم أكثره بالاستنباط، وكون أصل غرائز الإنسان الاستعداد للحق والباطل والخير والشر، وكونه مختاراً في كل منهما، وكونه فطر على ترجيح ما

يثبت عنده أنه خير له بالدلائل العقليلة، أو التجارب العملية، وكون الدين مؤيداً للعقل، حتى لا يغلب عليه الهوى والجهل.

فتأمل الأصل في تكوين الأمم ووحدتها في فطرتها ثم طروء الاختلاف عليها في الآية ١٩ ـ ثم انظر في مقدمة الدعوة العامة إلى الناس كافة في آخر السورة من الآية ٩٩ ـ ١٠٣ وهي صريحة في استعدادهم المذكور، وكونه اختيارياً لا إكراه فيه، وتعبيره عن سنة الله في ترجيحهم الرجس على تزكية النفس بجعله على الذين لا يعقلون، ولا يهتدون بآيات الله في السموات والأرض، ولا يعتبرون بسنته فيمن قبلهم من أقوام الرسل، وكيف كانت عاقبتهم وعاقبة الرسل ومن آمن معهم.

ثم تأمل خلاصة هذه الدعوة من خطاب الناس في الآية ١٠٤ إلى آخر السورة من إقامة الحجة على المشركين الشاكين في دين الرسول ﷺ وكون الشك جهلاً، وكونهم إنما يعبدون وهماً، وكون ما يدعوهم إليهم هو مقتضى الفطرة الحنيفية، وكونهم يعبدون من لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً، وكون ما جاءهم به هو الحق، وكونهم مختارين في الاهتداء والضلال، وكون ما يختارونه إما لأنفسهم وإما عليها، وكونه ﷺ ليس موكلاً بهدايتهم ولا مسيطراً علهيم.

وهذه الخلاصة إجمال لما تقدم تفصيله في هذه السورة وغيرها، فارجع إلى تذكيرهم بالدلائل الكونية في الآية الثالثة التي تشير إلى أنها مغروسة في أعماق أنفسهم، وبالدلائل العقلية بقوله في الخامسة ﴿يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ وفي السادسة ﴿لقوم يتقون﴾ وخطابه في الآية السادسة للعقل بقوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ وفي الحادية عشرة للفكر بقوله: ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾، ثم ارجع إلى قوله بعد إقامة طائفة من الدلائل العلمية الكونية ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ [يونس: ٣٥] ثم إلى بيانه لهم ما في القرآن من أصول التزكية والتهذيب الأربعة في الآية ٥٧ وما بعدها ـ وقد تقدم تفصيل ذلك وما في معناه في الفصول السابقة.

الباب السادس

في الأعمال الصالحات التي هي الركن الثالث مما جاء به الرسل عليه السلام وما يقابلها من الأعمال العامة، وأخرناه لأنه الثمرة والنتيجة وهو قسمان

القسم الأول: الأعمال الصالحة

١ ـ قوله تعالى في الآية الرابعة: ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ والصالحات ما تصلح به أنفس الأفراد ونظام الاجتماع في البيوت والأمة والدولة هذا هو الركن الثالث مما جاء به جميع رسل الله مجملاً، وفصل في كل ملة بحسب ما كان من الاستعداد فيها، وكل عمل من العبادات الدينية أو المعاملات المدنية والسياسية لا يؤدي إلى الصلاح أو الإصلاح فهو غير صالح، فأما فاسد في أصله، وإما أذى على غير وجهه.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ [يونس: ٩] وقد بينا في تفسيرها علاقة الإيمان بالعمل الصالح وكون كل منهما يمد الآخر ويستمد منه، ومن لم يفقه هذا ويتوخه لم يفقه في دينه، ولم يكن به صالحاً يستحق الجزاء الذي وعد الله به في هذه الآية وما قبلها، وفي أمثالهما من طول السور ومئينها ومفصلها حتى أقصرها (وهي سورة والعصر) ويؤيد هذا اتحاد الإيمان والإسلام في الماصدق وإن اختلفا في المفهوم كما ترى في الآيتين ٨٤ و٩٠ فمفهوم الإيمان التصديق الإذعاني الجازم بما جاء به النبي ﷺ من الدين وهو يستلزم العمل به ومفهوم الإسلام التسليم والانقياد بالفعل وهو العلم بمقتضى الإيمان ولا يصح فيكون إسلاماً إلا به.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ [يونس: ٢٦] ظاهر في دلالة الزيادة على ما ورد في القرآن من مضاعفة هذا الجزاء.

٤ ـ قوله تعالى في التعريف بأوليائه: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [يونس: ٦٣] فالتقوى جماع الأعمال الصالحة الحسنة مع اتقاء الأعمال الفاسدة السيئة كما فصلناه في مواضع من هذا التفسير أبسطها وأظهرها تفسير قوله تعالى: ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ [الأنفال: ٢٩] الآية.

٥ ـ قوله حكاية لوصية موسى لقومه: ﴿وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾ [يونس: ٨٧].

القسم الثاني: في السيئات وفي الأعمال المطلقة بقسميها

٦ ـ قوله تعالى في منكري البعث والجزاء الراضين المطمئنين بالحياة الدنيا وحدها غافلين عن آيات الله فيها ﴿أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ [يونس: ٨].

٧ ـ قوله فيمن يعبد الله على حرف فيدعونه في الضراء وينسونه في السراء ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانو يعملون﴾ [يونس: ١٧].

٨ ـ قوله بعد بيان بغي الناس في السراء وغرورهم بمتاع الحياة الدنيا وكون وباله على أنفسهم في الآيات ٢١ ـ ٢٣ وهي بمعنى ما قبلها ﴿ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ [يونس: ٢٣].

٩ ـ قوله: ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ [يونس: ١٥].

١٠ ـ قوله: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ [يونس: ٢٧] الآية.

١١ ـ قوله في الآية ٥٢: ﴿ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾.

١٢ ـ قوله في الآية ٨١: ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾.

١٣ ـ قوله تعالى في الأعمال المطلقة بقسميها ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعلمون﴾ [يونس: ١٤].

١٤ ـ قوله تعالى بمعنى ما قبله أيضاً ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ [يونس: ٤١].

١٥ ـ قوله تعالى بمعنى ما قبله أيضاً ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ [يونس: ٦١].

١٦ ـ قوله في الوصية العامة من الدعوة العامة من خاتمة السورة ﴿فمن اهتدى

فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل﴾ [يونس: ١٠٨].

فنسأل الله عز وجل أن يصلح أعمالنا، ويجعل خيرها خواتيمها.

وهذا آخر ما نختم به خلاصة هذه السورة البليغة، ونضرع إليه عز وجل أن يوفقنا لإتمام تفسير كتابه الحكيم مطولاً ومختصراً، مفصلاً ومجملاً، كما يحب ويرضى من بيان الحق، وهداية الخلق، وله الحمد والشكر في كل فاتحة وخاتمة.

وصلى الله وسلم على نبي الرحمة وآله وصحبه، والمهتدين به من خلقه.

فهرس المحتويات

الآيات: ٩٤ ـ ٩٦ .... ٣
الآيات: ٩٧ ـ ٩٩ .... ٦
الآيات: ١٠٠ ـ ١٠٢ .... ١١
الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٥ .... ١٨
فصل في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والإصلاح المالي للبشر
وامتياز الإسلام بذلك على جميع الأديان ٢٢
الآية: ١٠٦ .... ٢٩
الآيات: ١٠٧ ـ ١١٠ .... ٣٠
الآيتان: ١١١، ١١٢ .... ٣٨
الآيات: ١١٣ ـ ١١٦ .... ٤٥
الآيات: ١١٧ ـ ١١٩ .... ٥١
الآيتان: ١٢٠، ١٢١ .... ٥٩
الآية: ١٢٢ .... ٦١
الآية: ١٢٣ .... ٦٣
الآيات: ١٢٤ ـ ١٢٧ .... ٦٥
الآيتان: ١٢٨، ١٢٩ .... ٦٩
الأولى ما ورد في كتابة الآيتين عن النبي ﷺ وكونهما آخر ما نزل ٧٢
طهارة نسبه ﷺ وفضل قومه واصطفاؤه من خيارهم ٧٤
خلاصة سورة براءة (التوبة) ٧٧
وهي خمسة أبواب وفيها فصول ٧٧

الباب الأول

في صفات الله تعالى وأفعاله وشؤونه في خلقه وأحكامه وسننه فيها ٧٩
الفصل الأول: في الأسماء والصفات الإلٰهية والإضافات إليه تعالى ٨١

١ ـ الأسماء والصفات ٨١
٢ ـ المعية الإلٰهية ٨١
٣ ـ الدرجة والعندية الإلٰهية وسكينته تعالى ٨١
٤ ـ حب الله ورضاه وكرهه وسخطه وغضبه ٨٢
الفصل الثاني: أفعال الله في تصرفه وتدبيره لأمور خلقه بمقتضى سننه، لا بجعلهم مجبرين بقدرته ٨٤
الفصل الثالث: في تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه وسننه فيهما ٨٥
الفصل الرابع: في قضاء الله وقدره وولايته للمؤمنين وتوكلهم عليه ٨٧

الباب الثاني

في مكانة محمد رسول الله وخاتم النبيين عند ربه وفي هداية دينه وحقوقه على أمته ٨٩
الفصل الأول: في اقتران اسمه باسم ربه وحقه ﷺ بحقه عز وجل ٩١
الفصل الثاني: في علو مكانته وعناية الله تعالى به وتكريمه وتأديبه تكميله إياه ٩٥
الفصل الثالث: في فضله ﷺ على أمته، وحقوقه الواجبة عليها، وحكم إخلالها بها وتقصيرها فيها ٩٨
القسم الأول: في صفاته الخاصة وفيه بضع مزايا وفضائل ٩٨
القسم الثاني: فيما يجب له على أمته وفيه خمس واجبات ٩٩
القسم الثالث: فيما يحظر عليهم من إيذاء وتقصير في حقه ١٠٠

الباب الثالث

في دين الإسلام وما في السورة من حججه وأصوله وصفات أهله ١٠١
الفصل الأول: في حجج الإسلام من البشارات والنذر والإخبار بالغيب ١٠٣
الفصل الثاني: في صفة الإسلام ومدخله وأعم أصول التشريع فيه ١٠٤
الفصل الثالث: في آيات الإيمان الصادق وصفات أهله وطبقاتهم ١٠٦

الباب الرابع

في المسائل المالية والعسكرية والسياسية، وما فيها من أحكام القتال والعهود ... ١٠٩
الفصل الأول: في أحكام الأموال ١١١
القسم الأول: في مكان إنفاق المال من الإيمان، والبخل به من النفاق ١١١
القسم الثاني: أنواع الأموال الشرعية وأحكامها بالإجمال ومصارفها ١١٣

فصل في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات وإصلاح الإسلام المالي للبشر
وامتياز الإسلام بذلك على جميع الأديان ١١٤
الفصل الثاني: في أحكام القتال والمعاهدات والصلح ١١٥
الفصل الثالث: في القواعد والأصول السياسة والحربية المأخوذة
من المسائل والأحكام السابقة ١١٩

الباب الخامس

في شؤون الكفار والمنافقين وحكم الإسلام عليهم وسياسته فيهم ١٢١
الفصل الأول: في ذم القرآن للكفار والمنافقين ونزاهته فيه عن السب والشتم ... ١٢٣
شواهد ذم القرآن النزيه للكفار والمنافقين ١٢٥
الفصل الثاني: في المنافقين وصفاتهم وأعمالهم وسياسة الإسلام فيهم ١٢٧
الأصول الثلاثة في حرية الدين، ومعاملة المنافقين ١٣٢

سورة يونس

الآيتان: ١، ٢ .... ١٣٥
فصل في إقامة الحج على مثبتي الوحي ونفاته في إثبات نبوة محمد ﷺ ١٣٧
صد الكنيسة عن الإسلام وبغيه عوجاً ١٤٤
شبهة منكري عالم الغيب ١٥٢
على الوحي الإلهي وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ ١٥٢
شبهة على الوحي ١٥٢
جواب المنار ١٥٣
تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة ١٥٦
باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١٦٤
بسط ما يصورون به الوحي النفسي لمحمد ﷺ ١٦٨
تفنيد تصويرهم للوحي النفسي وإبطاله من وجوه ١٦٩
آية الله الكبرى ـ القرآن العظيم ١٧٧
القرآن الكريم، القرآن الحكيم، القرآن المجيد والكتاب العزيز ١٧٧
فعل القرآن في أنفس العرب المستعدة له نوعان ١٨٣
مقاصد القرآن، في ترقية نوع الإنسان، وما فيه من التكرار ١٨٦
النوع الأول: من مقاصده الإصلاح الديني لأركان الدين الثلاثة ١٨٧

الركن الأول: للدين: الإيمان بالله تعالى ١٨٧
الركن الثاني: من أركان الدين عقيدة البعث والجزاء ١٩٠
الركن الثالث: للدين العمل الصالح ١٩٣
المقصد الثاني: من مقاصد القرآن ١٩٦
بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل ١٩٦
فصل في الآيات الكونية التي أيد الله بها رسله وما يشبه بعضها من الكرامات، وما يشتبه بها ١٩٩
من خوارق العادات، وضلال الماديين والخرافيين فيها ١٩٩
خلاصة الخلاصة لهذا الفصل ٢١٣
المقصد الثالث: من مقاصد القرآن ٢١٦
بيان أن الإسلام دين الفطرة السليمة، والعقل والفكر، والعلم والحكمة، والبرهان والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال ٢١٦
دحض شبهة، وإقامة حجة ٢٢٤
المقصد الرابع: من مقاصد القرآن ٢٢٥
الإصلاح الاجتماعي الإنساني والسياسي الذي يتحقق بالوحدات الثمان ٢٢٥
المقصد الخامس: من مقاصد القرآن ٢٣٠
تقرير مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية من العبادات والمحظورات ... ٢٣٠
المقصد السادس: من مقاصد القرآن ٢٣٢
بيان حكم الإسلام ٢٣٢
السياسي الدولي: نوعه وأساسه وأصوله العامة ٢٣٢
القاعدة الأساسية الأولى للحكم الإسلامي ٢٣٢
أصول التشريع في الإسلام ٢٣٥
قواعد الاجتهاد من النصوص ٢٣٦
نصوص القرآن ٢٣٧
في إيجاب العدل المطلق والمساواة فيه وحظر الظلم ٢٣٧
قواعد مراعاة الفضائل في الأحكام والمعاملات ٢٣٨
المقصد السابع: من فقه القرآن (الإرشاد إلى الإصلاح المالي) ٢٣٩
١ ـ القاعدة العامة في المال كونه فتنة واختباراً في الخير والشر ٢٣٩
٢ ـ الآيات في ذم طغيان المال وغروره وصده عن الحق والخير ٢٤٠

٣ ـ ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء في إنفاقه ٢٤٠
٤ ـ مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الإيمان
والعمل الصالح ٢٤١
٥ ـ ما أوجب الله من حفظ المال من الصياغ والاقتصاد فيه ٢٤١
٦ ـ إنفاق المال آية الإيمان والوسيلة لحياة الأمة وعزة الدولة ٢٤٢
٧ ـ الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والإصلاح المالي في الإسلام ... ٢٤٢
المقصد الثامن: من فقه القرآن ٢٤٣
إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر ٢٤٣
أهم قواعد الحرب والسلام، في دين الإسلام والشواهد عليها من آيات القرآن .. ٢٤٤
القاعدة الأولى: في الحرب المفروضة شرعاً ٢٤٤
القاعدة الثانية: في الغرض من الحرب ونتيجتها ٢٤٥
القاعدة الثالثة: إيثار السلم على الحرب ٢٤٥
القاعدة الرابعة: الاستعداد التام للحرب لأجل الإرهاب المانع منها ٢٤٦
القاعدة الخامسة: الرحمة في الحرب ٢٤٦
القاعدة السادسة: الوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة فيها ٢٤٦
القاعدة السابعة: الجزية وكونها غاية للقتال لا علة ٢٤٧
المقصد التاسع: من فقه القرآن ٢٤٧
إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية ٢٤٧
المقصد العاشر: من فقه القرآن تحرير الرقبة ٢٥١
هداية الإسلام في تحرير الرقيق وأحكامه ٢٥٢
الطريقة الثانية: ما شرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوباً وندباً وهو أربعة أنواع .. ٢٥٣
النوع الأول: من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازبة وفيه عشر مسائل ٢٥٣
النوع الثاني: من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات ٢٥٣
النوع الثالث: من وسائل إلغاء الرق الموجود ٢٥٤
النوع الرابع: منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى أي ابتغاء مرضاته ٢٥٤
الوصية بالمماليك ٢٥٥
خلاصة البحث ٢٥٥
الآية: ٣ .... ٢٥٧
الآية: ٤ .... ٢٦٠

الآيتان: ٥، ٦ .... ٢٦٣
الآيات: ٧ ـ ١٠ .... ٢٦٦
الآيتان: ١١، ١٢ .... ٢٧٠
الآيتان: ١٣، ١٤ .... ٢٧٣
الآيات: ١٥ ـ ١٧ .... ٢٧٥
الآية: ١٨ .... ٢٧٩
الآية: ١٩ .... ٢٨٢
الآية: ٢٠ .... ٢٨٣
الآيات: ٢١ ـ ٢٣ .... ٢٨٧
اهتداء بارج إنكليزي بهذه الآية وأمثالها ٢٩٣
الآية: ٢٤ .... ٢٩٨
الآيات: ٢٥ ـ ٢٧ .... ٣٠٠
الآيات: ٢٨ ـ ٣٠ .... ٣٠٢
الآيات: ٣١ ـ ٣٣ .... ٣٠٤
الآيات: ٣٤ ـ ٣٦ .... ٣٠٨
الآيات: ٣٧ ـ ٣٩ .... ٣١٣
استطراد في المتكلمين وتفسير إمامهم الرازي ٣٢١
الآيتان: ٤٠، ٤١ .... ٣٢٤
الآيات: ٤٢ ـ ٤٤ .... ٣٢٥
الآية: ٤٥ .... ٣٢٨
الآيات: ٤٦ ـ ٥٦ .... ٣٢٩
الآيتان: ٥٧، ٥٨ .... ٣٣٨
الآيتان: ٥٩، ٦٠ .... ٣٤٥
الآية: ٦١ .... ٣٤٩
الآيات: ٦٢ ـ ٦٤ .... ٣٥١
أولياء الخيال وأولياء الطاغوت والشيطان ٣٥٥
الشاهد الأول: كرامات ولي شيطاني موحد ألوهية إبليس ٣٥٩
الشاهد الثاني: كرامة ولي العاهرات والزناة الفاعل بالأتان ٣٥٩
الشاهد الثالث: ولاية مجنون معارض للقرآن بالكفر والهذيان ٣٦٠

شواهد أخرى عن المعروف بالتجاني تابعة لما قبلها ٣٦٠
الشاهد الرابع: ضمان دخول الجنة لكل من له علاقة بالتجاني
بلا حساب ولا عقاب ٣٦١
الشاهد الخامس: عنه تفضيل أوراده المبتدعة على جميع العبادات المأثورة ٣٦٣
الشاهد السادس عن التجاني: دعواه موت من يكرهه كافراً ٣٦٥
تقليد الباب والبهاء والقادياني لغلاة الصوفية في دعوى الوحي والنبوة والألوهية ٣٦٦
كتاب الفرقان لشيخ الإسلام استمتاع البشر والجن والشياطين بعضهم ببعض،
وتمثلهم بصورة الأولياء والقديسين ٣٦٧
بعض حكايات النصارى المعاصرين في رؤية المسيح ومريم عليهما السلام ٣٦٩
استطراد، في أصل الإسلام، وما طرأ عليه من الفساد من طريق السياسة
والفلسفة والتصوف ٣٧٢
بطلان تأويل النصوص للنظريات العقلية والعلمية، بَلَهَ الباطنية ٣٧٦
قرار متقدمي الصوفية ومتأخريهم بوجوب اتباع السلف ٣٨٠
الآيات: ٦٥ ـ ٦٧ .... ٣٨١
الآيات: ٦٨ ـ ٧٠ .... ٣٨٤
الآيات: ٧١ ـ ٧٣ .... ٣٨٦
الآية: ٧٤ .... ٣٩٠
الآيات: ٧٥ ـ ٧٨ .... ٣٩١
الآيات: ٧٩ ـ ٨٢ .... ٣٩٣
الآيات: ٨٣ ـ ٨٧ .... ٣٩٤
الآيتان: ٨٨، ٨٩ .... ٣٩٦
الآيات: ٩٠ ـ ٩٢ .... ٣٩٨
الآية: ٩٣ .... ٤٠٠
الآيات: ٩٤ ـ ٩٧ .... ٤٠١
الآيات: ٩٨ ـ ١٠٠ .... ٤٠٣
الآيات: ١٠١ ـ ١٠٣ .... ٤٠٦
الآيات: ١٠٤ ـ ١٠٧ .... ٤٠٧
الآيتان: ١٠٨، ١٠٩ .... ٤١١
الخلاصة الإجمالية لسورة يونس عليه السلام ٤١٢

الباب الأول

في توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته ٤١٣
الفصل الأول: في توحيد الربوبية والألوهية ٤١٥
الفصل الثاني: في صفات الذات من العلم والمشيئة والعزة والرحمة ٤١٧
الفصل الثالث: في تقديسه تعالى وتنزيهه وغناه عن كل ما سواه ٤١٩
الفصل الرابع: في أفعاله تعالى وآياته في التقدير والتدبير والرزق ٤٢٠

الباب الثاني

في الوحي المحمدي وهو القرآن ٤٢٣

الباب الثالث

في النبوة والرسالة وفيه فصلان ٤٢٥
الفصل الأول في الرسالة العامة والرسل الأولين وفيه سبع مسائل ٤٢٧
الفصل الثاني: في رسالة محمد نبينا ﷺ وسيرته مع قومه وعاصمة بلاده ٤٢٩

الباب الرابع

في البعث والجزاء، ونلخص آياته في بضعة أنواع ٤٣١

الباب الخامس

في صفات البشر وخلائقهم وعاداتهم وما يترتب عليها من أعمالهم وسنن الله فيها ٤٣٣
النوع الأول: الصفات الذميمة التي تجب معالجتها بالتهذيب الديني ٤٣٣
النوع الثاني: الغرائز والصفات المحمودة ٤٣٤

الباب السادس

في الأعمال الصالحات التي هي الركن الثالث مما جاء به الرسل عليه السلام
وما يقابلها من الأعمال العامة ٤٣٧
القسم الأول: الأعمال الصالحة ٤٣٧
القسم الثاني: في السيئات وفي الأعمال المطلقة بقسميها ٤٣٨
فهرس المحتويات ٤٤١